ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل (ثم الذين كفروا) بعد هذا البيان (بربهم يعدلون) يساوون به الاوثان تقول عدلت هذا بهذا أى ساويته به والباء فى بربهم صلة العدل لا للكفر أو ثم الذين كفروا بربهم يعدلون عنه أى يعرضون عنه فتكون الباء صلة للكفر وصلة يعدلون أى عنه محذوفة وعطف ثم الذين كفروا على الحمد لله على معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق لانه ما خلقه الا نعمة ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته أو على خلق السموات على معنى انه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شئ منه ومعنى ثم استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته (هو الذى خلقكم من طين) من لابتداء الغاية أى ابتدأ خلق أصلكم يعنى آدم منه (ثم قضى أجلا) أى حكم أجل الموت (وأجل مسمى عنده) أجل القيامة أو الاول ما بين أن يخلق الى أن يموت والثانى ما بين الموت والبعث وهو البرزخ أو الاول النوم والثانى الموت أو الثانى هو الاول وتقديره وهو أجل مسمى أى معلوم وأجل مسمى مبتدأ والخبر عنده وقدم المبتدأ وان كان نكرة والخبر ظرفا وحقه التأخير لانه تخصص بالصفة فقارب المعرفة (ثم أنتم تمترون) تشكون من المرية أو تجادلون من المراء ومعنى ثم استبعاد أن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم (وهو الله) مبتدأ وخبر (فى السموات وفى الارض) متعلق بمعنى اسم الله كأنه قيل وهو المعبود فيهما كقوله وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله أو وهو المعروف بالالهية فيهما أو هو الذى يقال له الله فيهما والاول تفريع على انه مشتق وغيره على انه غير مشتق (يعلم سركم وجهركم) خبر بعد خبر أو كلام مبتدأ أى وهو

ومن أخطأه ضل ذكره البغوى بغير سند (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) يعنى والذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يشركون وأصل العدل مساواة الشئ بالشئ والمعنى انهم يعدلون بالله غير الله ويجعلون له عديلا من خلقه فيعبدون الحجارة مع اقرارهم بان الله خالق السموات والارض وقال النضر بن شميل الباء فى قوله بربهم بمعنى عن أى عن ربهم يعدلون وينحرفون من العدول عن الشئ وقيل دخول ثم فى قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون دليل على معنى لطيف وهو انه تعالى دل به على انكاره على الكفار العدل به وعلى تعجيب المؤمنين من ذلك ومثال ذلك أن تقول لرجل أكرمتك وأحسنت اليك وأنت تشكرنى وتجحد احسانى اليك فتقول ذلك منكرا عليه ومتعجبا من فعله ۞ قوله تعالى (هو الذى خلقكم من طين) يعنى انه تعالى خلق آدم من طين وانما خاطب ذريته بذلك لانه اصلهم وهم من نسله وذلك لما أنكر المشركون البعث وقالوا من يحيى العظام وهى رميم أعلمهم بهذه الآية انه خلقهم من طين وهو القادر على اعادة خلقهم وبعثهم بعد الموت قال السدى لما أراد الله عز وجل أن يخلق آدم بعث جبريل الى الارض ليأتيه بقبضة منها فقالت الارض انى أعوذ بالله منك أن تقبض منى فرجع ولم يأخذ منها شيأ فقال يارب عاذت بك فبعث الله ميكائيل فاستعاذت فرجع فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره وأخذ من وجه الارض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء فلذلك اختلفت ألوان بنى آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم ثم قال الله لملك الموت رحم جبريل وميكائيل الارض ولم ترحمها لاجرم أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك عن أبى موسى الاشعرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب أخرجه أبو داود والترمذى ۞ وأما قوله تعالى (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) فاختلف العلماء فى معنى ذلك فقال الحسن وقتادة والضحاك الاجل الاول من وقت الولادة الى وقت الموت والاجل الثانى من وقت الموت الى البعث وهو البرزخ ويروى نحو ذلك عن ابن عباس قال لكل أحد أجلان أجل الى الموت وأجل من الموت الى البعث فان كان الرجل برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث الى أجل العمر وان كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وذلك قوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب وقال مجاهد وسعيد بن جبير الاجل الاول أجل الدنيا والاجل الثانى أجل الآخرة وقيل الاجل هو الوقت المقدر فاجل كل انسان مقدر معلوم عند الله لا يزيد ولا ينقص والاجل الثانى هو أجل القيامة وهو أيضا معلوم مقدر عند الله لا يعلمه الا الله تعالى وقال ابن عباس فى رواية عطاء عنه ثم قضى أجلا يعنى النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند الانتباه وأجل مسمى عنده هو أجل الموت وقيل هما واحد ومعناه ثم قضى أجلا يعنى قدر مدة لاعماركم تنتهون اليها وهو أجل مسمى عنده يعنى ان ذلك الاجل عنده لا يعلمه الا هو والمراد بقوله عنده يعنى فى اللوح المحفوظ الذى لا يطلع عليه غيره (ثم أنتم تمترون) يعنى ثم أنتم تشكون فى البعث ۞ قوله عز وجل (وهو الله فى السموات وفى الارض) يعنى وهو اله السموات واله الارض وقيل معناه وهو المعبود فى السموات وفى الارض وقال محمد بن جرير الطبرى معناه وهو الله فى السموات (يعلم سركم وجهركم) فى الارض وقال الزجاج فيه تقديم وتأخير تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الارض وقيل معناه وهو المنفرد بالتدبير فى السموات وفى الارض لا شريك له فيهما والمراد بالسر ما يخفيه الانسان فى ضميره فهو من أعمال القلوب

يعلم سركم وجهركم (ويعلم ما تكسبون) من الخير والشر ويثيب عليه ويعاقب ومن في (وما تأتيهم من آية) للاستغراق ومن (من آيات ربهم) للتبعيض أي وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاعتبار (إلا كانوا عنها معرضين) تاركين النظر لا يلتفتون إليه لقلة خوفهم وتدبرهم في العواقب (٤) (فقد كذبوا) مردود على كلام محذوف كأنه قيل إن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا (بالحق لما جاءهم) أي بما هو أعظم آية وأكبرها وهو القرآن الذي تحدوا به فعجزوا عنه (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) أي أنباء الشيء الذي كانوا به يستهزئون وهو القرآن أي أخباره وأحواله يعني سيعلمون بأي شيء استهزؤوا وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته (ألم يروا) يعني المكذبين (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) هو مدة انقضاء أهل كل عصر وهو ثمانون سنة أو سبعون (مكناهم) في موضع جر صفة لقرن وجمع على المعنى (في الأرض ما لم نمكن لكم) التمكين في البلاد إعطاء المكنة والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عادا وثمود وغيرهم من البسطة في الأجسام والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا (وأرسلنا السماء) المطر (عليهم مدرارا) كثيرا وهو حال من السماء (وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم) من تحت أشجارهم والمعنى عاشوا في الخصب بين الأنهار والثمار وسقيا الغيث المدرار (فأهلكناهم بذنوبهم) ولم يغن ذلك عنهم شيئا (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) بدلا منهم (ولو نزلنا عليك كتابا) مكتوبا (في قرطاس) في ورق (فلمسوه بأيديهم) هو للتأكيد لئلا يقولوا سكرت أبصارنا ومن الحتج عليهم العمى بالشيء

والجهر ما يظهره الإنسان وهو من أعمال الجوارح والمعنى أن الله لا يخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض (ويعلم ما تكسبون) يعني من خير أو شر بقي في الآية سؤال وهو أن الكسب إما أن يكون من أعمال القلوب وهو المسمى بالسر أو من أعمال الجوارح وهو المسمى بالجهر فالأفعال لا تخرج عن هذين النوعين يعني السر والجهر فقوله ويعلم ما تكسبون يقتضي عطف الشيء على نفسه وذلك غير جائز فما معنى ذلك وأجيب عنه بأنه يجب حمل قوله ويعلم ما تكسبون على ما يستحقه الإنسان على فعله وكسبه من الثواب والعقاب والحاصل فيه أنه محمول على المكتسب فهو كما يقال هذا المال كسب فلان أي مكتسبه ولا يجوز حمله على نفس الكسب وإلا لزم عطف الشيء على نفسه ذكره الإمام فخر الدين (وما تأتيهم) يعني لأهل مكة (من آية من آيات ربهم) يعني من المعجزات الباهرات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغير ذلك وقيل المراد بالآيات آيات القرآن (إلا كانوا عنها معرضين) يعني إلا كانوا لها تاركين وبها مكذبين (فقد كذبوا بالحق) يعني بآيات القرآن وقيل بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أتى به من المعجزات (لما جاءهم) يعني لما جاءهم الحق من عند ربهم كذبوا به (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) يعني فسوف يأتيهم أخبار استهزائهم إذا عذبوا في الآخرة ﴿ قوله تعالى (ألم يروا) الخطاب لكفار مكة يعني ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) يعني مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم الماضية والقرون الخالية والقرن الأمة من الناس وأهل كل زمان قرن سموا بذلك لاقترانهم في الوجود في ذلك الزمان وقيل سمي قرنا لأنه زمان بزمان وأمة بأمة واختلفوا في مقدار القرن فقيل ثمانون سنة وقيل ستون سنة وقيل أربعون سنة وقيل مائة وعشرون سنة وقيل مائة سنة وهو الأصح لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بسر المازني إنك تعيش قرنا فعاش مائة سنة فعلى هذا القول المراد بالقرن أهله الذين وجدوا فيه ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم يعني أصحابي وتابعيهم وتابعي التابعين (مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم) يعني أعطيناهم ما لم نعطكم يا أهل مكة وقيل أمددناهم في العمر والبسطة في الأجسام والسعة في الأرزاق مثل إعطاء قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) مفعال من الدر يعني وأرسلنا المطر متتابعا في أوقات الحاجة إليه والمراد بالسماء المطر سمي بذلك لنزوله منها (وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم) يعني وأجرينا لهم العيون تجري من تحتهم والمراد منه كثرة البساتين (فأهلكناهم بذنوبهم) يعني بسبب ذنوبهم وكفرهم (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) يعني وخلقنا من بعد هلاك أولئك أهل قرن آخرين وفي هذه الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة والقرون الخالية فإنهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع أهلكناهم لما كفروا وطغوا وظلموا فكيف حال من هو أضعف منهم وأقل عددا وعددا وهذا يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ﴿ قوله عز وجل (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس) الآية قال الكلبي ومقاتل نزلت في النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد قالوا يا محمد لن نؤمن حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله فأنزل الله تعالى هذه الآية ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس يعني من عندي يعني مكتوبا في قرطاس وهو الكاغد والصحيفة التي يكتب فيها (فلمسوه بأيديهم) يعني فعاينوه ومسوه بأيديهم وإنما ذكر اللمس ولم يذكر المعاينة لأنه أبلغ في إيقاع العلم

(لقال الذين كفروا إن هذا الا سحر مبين) تعنتا وعنادا للحق بعد ظهوره (وقالوا لولا) هلا (أنزل عليه) على النبي صلى الله عليه وسلم (ملك) يكلمنا أنه نبي فقال الله (ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر) لقضي أمر هلاكهم (ثم لا ينظرون) لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين لانهم اذا شاهدوا ملكا في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون ومعنى ثم بعد ما بين الامرين قضاء الامر وعدم الانظار جعل عدم الانظار أشد من قضاء الامر لان مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة (ولو جعلناه ملكا) ولو (٥) جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا لانهم كانوا يقولون تارة لولا أنزل على محمد ملك وتارة يقولون ما هذا الا بشر مثلكم ولو شاء ربنا لانزل ملائكة (لجعلناه رجلا) لارسلناه في صورة رجل كما كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعم الاحوال في صورة دحية لانهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم (وللبسنا عليهم ما يلبسون) ولخلطنا وأشكلنا عليهم من أمره اذا كان سبيله كسبيلك يا محمد فانهم يقولون اذا رأوا الملك في صورة الانسان هذا انسان وليس بملك يقال لبست الامر على القوم وألبسته اذا أشبهته وأشكلته عليهم ثم سلى نبيه على ما أصابه من استهزاء قومه بقوله (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزؤن به وهو الحق حيث أهلكوا من أجل استهزائهم ومنهم متعلق بسخروا كقوله فيسخرون منهم والضمير للرسل والدال مكسورة عند أبي عمرو وعاصم لالتقاء الساكنين وضمها غيرهما اتباعا لضم التاء (قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) والفرق بين فانظروا وبين ثم انظروا ان النظر جعل مسببا عن السير في فانظروا فكأنه قيل سيروا لاجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين ومعنى سيروا في الارض ثم انظروا اباحة السير في الارض للتجارة وغيرها وايجاب النظر في آثار الهالكين ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح (قل لمن ما في السموات والارض) من استفهام وما بمعنى الذي في موضع الرفع على الابتداء ولمن خبره (قل لله)

بالشيء من الرؤية لان المرئيات قد يدخلها التخييلات كالسحر ونحوه بخلاف الملموس (لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) يعني لو أنزلنا عليهم كتابا كما سألوا لما آمنوا به وقالوا هذا سحر مبين كما قالوا في انشقاق القمر وانه لا ينفع معهم شيء لما سبق فيهم من علمي بهم (وقالوا) يعني مشركي مكة (لولا) يعني هلا (أنزل عليه) يعني على محمد (ملك) يعني نراه عيانا (ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر) يعني لفرغ الامر ولوجب العذاب وهذه سنة الله في الكفار أنهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤصلوا به (ثم لا ينظرون) يعني انهم لا يمهلون ولا يؤخرون طرفة عين بل يعجل لهم العذاب (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) يعني ولو أرسلنا اليهم ملكا لجعلناه في صورة رجل وذلك ان البشر لا يستطيعون أن ينظروا الى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها ولو نظر الى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ولذلك كانت الملائكة تأتي الانبياء في صورة الانس كما جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي وكما جاء الملكان الى داود عليه السلام في صورة رجلين وكذلك أتى الملائكة الى ابراهيم ولوط عليهما السلام ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته التي خلق عليها صعق لذلك وغشي عليه ﴿ قوله تعالى (وللبسنا عليهم ما يلبسون) يقال لبست الامر على القوم اذا أشبهته عليهم وجعلته مشكلا ولبست عليه الامر اذا خلطته عليه حتى لا يعرف جهته ومعنى الآية وخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى يشكوا فلا يدروا أملك هو أم آدمي وقيل في معنى الآية انا لو جعلنا الملك في صورة البشر لظنوه بشرا فيعود المسئلة فما أنا الا رضي برسالة البشر ولو فعل الله عز وجل ذلك صار فعل الله مثل فعلهم في التلبيس وانما كان لبسا لانهم يظنون أنه ملك وليس بملك أو يظنون انه بشر وليس هو بشرا وانما كان فعلهم لبسا لانهم لبسوا على ضعفتهم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا انما هو بشر مثلكم ولو رأوا الملك رجلا للحقهم من اللبس مثل ما لحق ضعفاءهم فيكون اللبس نقمة من الله وعقوبة لهم على ما كان منهم من التخليط في السؤال واللبس على الضعفاء ﴿ قوله عز وجل (ولقد استهزئ برسل من قبلك) يعني كما استهزؤا بك يا محمد وفي هذه الآية تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له عما كان من تكذيب المشركين اياه واستهزائهم به اذ جعل له أسوة في ذلك بالانبياء الذين كانوا قبله (فحاق) أي نزل وقيل أحاط وقيل حل (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) والمعنى فنزل العذاب بهم ووجب عليهم من النقمة والعذاب جزاء استهزائهم وفي هذه الآية تحذير للمشركين أن يفعلوا بنبيهم كما فعل من كان قبلهم بانبيائهم فينزل بهم مثل ما نزل بهم (قل سيروا في الارض) أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سيروا في الارض معتبرين ومتفكرين وقيل هو سير الاقدام (ثم انظروا) فعلى القول الاول يكون النظر نظر فكرة وعبرة وهو بالبصيرة لا بالبصر وعلى القول الثاني يكون المراد بالنظر نظر العين والمعنى ثم انظروا باعينكم الى آثار الامم الخالية والقرون الماضية السالفة وهو قوله تعالى (كيف كان عاقبة المكذبين) يعني كيف كان جزاء المكذبين وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك حذر كفار مكة عذاب الامم الخالية ﴿ قوله عز وجل (قل لمن ما في السموات والارض قل لله) هذا سؤال وجواب والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين العادلين بربهم لمن ملك ما في السموات والارض فان أجابوك والا فاخبرهم

تقريرٍ لهم أي هو لله لا خلاف بيني وبينكم ولا تقدرون أن تضيفوا منه شيئاً الى غيره (كتب على نفسه الرحمة) أصل كتب
أوجب ولكن لا يجوز الاجراء على ظاهره اذ لا يجب على الله شيء للعبد فالمراد به انه وعد ذلك وعداً

ان ذلك لله الذي قهر كل شيء وملك كل شيء واستعبد كل شيء لا للاصنام التي تعبدونها أنتم فانها أموات لا تملك شيئاً ولا تملك لعبادها ضراً ولا نفعاً وانما أمره بالجواب عقب السؤال ليكون أبلغ في التأكيد وآكد في الحجة ولما بين الله تعالى كمال قدرته وتصرفه في سائر مخلوقاته أردفه بكمال رحمته واحسانه اليهم فقال تعالى (كتب على نفسه الرحمة) يعني انه تعالى أوجب وقضى على نفسه الرحمة وهذا استعطاف منه للمتولين عنه الى الاقبال عليه واخبار بانه رحيم بعباده وانه لا يعجل بالعقوبة بل يقبل التوبة والانابة ممن تاب وأناب (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي وفي البخاري ان الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق ان رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش وفي رواية لهما ان الله لما خلق الخلق وعند مسلم لما قضى الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو موضوع عنده زاد البخاري على العرش ثم اتفقا ان رحمتي تغلب غضبي (ق) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الارض جزأ واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه زاد البخاري في رواية له ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من العذاب ولمسلم ان لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (م) عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق يوم خلق السموات والارض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والارض فجعل منها في الارض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فاذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة (ق) عن عمر قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبي فاذا امرأة من السبي تبتغي اذا وجدت صبياً في السبي أخذته فالصقته ببطنها وأرضعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار قلنا لا والله وهي تقدر أن لا تطرحه فقال صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها وقوله تعالى (ليجمعنكم) اللام في قوله ليجمعنكم لام القسم تقديره والله ليجمعنكم (الى يوم القيامة) يعني في يوم القيامة وقيل معناه في قبوركم الى يوم القيامة (لا ريب فيه) أي لا شك في انه آت (الذين خسروا أنفسهم) يعني بالشرك بالله أو غبنوا أنفسهم باتخاذهم الاصنام فعرضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه فكانوا كمن خسر شيأ وأصل الخسار الغبن يقال خسر الرجل اذا غبن في بيعه (فهم لا يؤمنون) يعني لما سبق عليهم القضاء بالخسران فهو الذي حملهم على الامتناع من الايمان ﴿ قوله تعالى (وله ما سكن في الليل والنهار) يعني وله ما استقر وقيل ما سكن وما تحرك فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر وقيل انما خص السكون بالذكر لان النعمة فيه أكثر وقال ابن جرير كل ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار فيكون المراد منه جميع ما حصل في الارض من الدواب والحيوانات والطير وغير ذلك مما في البر والبحر وهذا يفيد الحصر والمعنى ان جميع الموجودات ملك لله تعالى لا لغيره (وهو السميع) لاقوالهم وأصواتهم (العليم) بسرائرهم وأحوالهم ﴿ قوله عز وجل (قل أغير الله أتخذ وليا) قال مقاتل لما دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم الى دين آبائه أنزل الله هذه الآية فقال قل لهم يا محمد أغير الله أتخذ ولياً يعني رباً ومعبوداً وناصراً ومعيناً وهو استفهام ومعناه الانكار أي لا أتخذ غير الله ولياً (فاطر السموات والارض) أي خالق السموات

مؤكداً وهو منجز لا محالة وذكر النفس للاختصاص ورفع الوسائط ثم أوعدهم على اغفالهم النظر واشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله (ليجمعنكم الى يوم القيامة) فيجازيكم على اشراككم (لا ريب فيه) في اليوم أو في الجمع (الذين خسروا أنفسهم) نصب على الذم أي أريد الذين خسروا أنفسهم باختيارهم الكفر (فهم لا يؤمنون) وقال الاخفش الذين بدل من كم في ليجمعنكم أي ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم والوجه هو الاول لان سيبويه قال لا يجوز مررت بي المسكين ولا بك المسكين فتجعل المسكين بدلاً من الياء أو الكاف لانهما في غاية الوضوح فلا يحتاجان الى البدل والتفسير (وله) عطف على لله (ما سكن في الليل والنهار) من السكنى معنى يتناول الساكن والمتحرك أو من السكون ومعناه ما سكن وتحرك فيهما فاكتفى باحد الضدين عن الآخر كقوله تقيكم الحر أي الحر والبرد وذكر السكون لانه أكثر من الحركة وهو احتجاج على المشركين لانهم لم ينكروا انه خالق الكل ومدبره (وهو السميع العليم) يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان (قل أغير الله أتخذ وليا) ناصراً ومعبوداً وهو مفعول ثان لاتخذ والاول غير وانما أدخل همزة الاستفهام على مفعول أتخذ لا عليه لان الانكار في اتخاذ غير الله ولياً لا في اتخاذ الولي فكان أحق بالتقديم (فاطر السموات والارض)

والارض ومبدعهما ومبتدئهما (وهو يطعم ولا يطعم) يعني وهو يرزق ولا يرزق وصف الله عز وجل نفسه بأنه غني عن الخلق وباحتياج الخلق اليه لان من كان من صفته أن يطعم الخلق لاحتياجهم اليه وهو لا يطعم لاستغنائه سبحانه وتعالى عن الاطعام فهو غني عن الخلق ومن كان كذلك وجب أن يتخذ ربا وناصرا ووليا ومعبودا (قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم) يعني من هذه الامة والاسلام بمعنى الاستسلام يعني أمرت أن أستسلم لامر الله وأنقاد الى طاعته (ولا تكونن من المشركين) يعني وقيل لي يا محمد لا تكونن من المشركين (قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى عبادة غيرى ان ربى أمرنى أن أكون أول من أسلم ونهانى عن عبادة شئ سواه وانى أخاف ان عصيت ربى فعبدت شيأ سواه عذاب يوم عظيم وهو عذاب يوم القيامة (من يصرف عنه) يعني العذاب (يومئذ) يعني يوم القيامة (فقد رحمه) يعني بان أنجاه من العذاب ومن أنجاه من العذاب فقد رحمه وأناله الثواب لا محالة وانما ذكر الرحمة مع صرف العذاب لئلا يتوهم انه صرف العذاب فقط بل تحصل الرحمة مع صرف العذاب عنه (وذلك الفوز المبين) يعني أن صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين ۞ قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر) يعني بشدة وبلية والضر اسم جامع لما ينال الانسان من ألم ومكروه وغير ذلك مما هو في معناه (فلا كاشف له الا هو) يعني فلا يدفع ذلك الضر الا الله عز وجل (وان يمسسك بخير) يعني بعافية ونعمة والخير اسم جامع لكل ما ينال الانسان من لذة وفرح وسرور ونحو ذلك (فهو على كل شئ قدير) يعني من دفع الضر وجلب الخير وهذه الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى لا تتخذ وليا سوى الله لانه هو القادر على أن يمسك بضر وهو القادر على دفعه عنك وهو القادر على ايصال الخير اليك وانه لا يقدر على ذلك الا هو فاتخذه وليا وناصرا ومعينا وهذا الخطاب وان كان للنبي صلى الله عليه وسلم فهو عام لكل أحد والمعنى وان يمسسك الله بضر أيها الانسان فلا كاشف لذلك الضر الا هو وان يمسسك بخير أيها الانسان فهو على كل شئ قدير من دفع الضر وايصال الخير عن ابن عباس قال كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال لي يا غلام انى أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك وان اجتمعت على أن يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف أخرجه الترمذي زاد فيه رزين تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة وفيه وان استطعت ان تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان الصبر على ما تكره خير كثير واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين قال ابن الاثير وقد جاء نحو هذا أو مثله بطوله في مسند أحمد بن حنبل ۞ قوله عز وجل (وهو القاهر فوق عباده) يعني وهو الغالب لعباده القاهر لهم وهم مقهورون تحت قدرته والقاهر والقهار معناه الذي يدبر خلقه بما يريد فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغمهم ويحزن ويفقر ويميت ويذل خلقه ولا يستطيع أحد من خلقه رد تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره وهذا معنى القاهر في صفة الله تعالى لانه القادر والقاهر الذي لا يعجزه شئ أراده ومعنى فوق عباده هنا أن قهره قد استعلى على خلقه فهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذي لا يقدر أحد على الخروج منه ولا ينفك عنه فكل من قهر شيأ فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة وقال ابن جرير الطبري معنى القاهر المتعبد خلقه العالي عليهم وانما قال فوق عباده لانه تعالى وصف نفسه بقهره اياهم ومن صفة كل قاهر شيأ أن يكون مستعليا عليه فمعنى الكلام اذا والله الغالب عباده المذلل لهم العالي عليهم بتذليله اياهم فهو فوقهم بقهره اياهم وهم دونه وقيل فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به الله

بالجر صفة لله أي مخترعهما وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم الى اعرابيان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها (وهو يطعم ولا يطعم وهو يرزق ولا يرزق) أي المنافع كلها من عنده ولا يجوز عليه الانتفاع (قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم) لان النبي سابق أمته في الاسلام كقوله وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (ولا تكونن من المشركين) وقيل لي لا تكونن من المشركين ولو عطف على ما قبله لفظا لقيل وأن لا أكون والمعنى أمرت بالاسلام ونهيت عن الشرك (قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) أي انى أخاف عذاب يوم عظيم وهو القيامة ان عصيت ربى فالشرط معترض بين الفاعل والمفعول به محذوف الجواب (من يصرف عنه) العذاب (يومئذ فقد رحمه) الله الرحمة العظمى وهي النجاة من يصرف حمزة وعلى وأبو بكر أي من يصرف الله عنه العذاب (وذلك الفوز المبين) النجاة الظاهرة (وان يمسسك الله بضر) من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه (فلا كاشف له الا هو) فلا قادر على كشفه الا هو (وان يمسسك بخير) من غنى أو صحة (فهو على كل شئ قدير) فهو قادر على ادامته وازالته (وهو القاهر) مبتدأ وخبر أي الغالب المقتدر (فوق عباده) خبر بعد خبر أي عال عليهم بالقدرة والقهر بلوغ المراد بمنع غيره عن بلوغه

عزوجل (وهو الحكيم) يعني في أمره وتدبيره عباده (الخبير) يعني بأعمالهم وما يصلحهم ۞ قوله عزوجل (قل أي شيء أكبر شهادة) قال الكلبي أتى أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد أرنا من يشهد أنك رسول الله فانا لا نرى أحدا يصدقك ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر فأنزل الله عزوجل قل يعني يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون نبوتك من قومك أي شيء أكبر شهادة يعني أعظم شهادة فان هم أجابوك والا (قل) أنت يا محمد (الله شهيد بيني وبينكم) قال مجاهد أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يسأل قريشا أي شيء أكبر شهادة ثم أمر أن يخبرهم فيقول الله شهيد بيني وبينكم يعني يشهد لي بالحق وعليكم بالباطل الذي تقولونه والحاصل انهم طلبوا شاهدا مقبول القول يشهد له بالنبوة فبين الله تعالى بهذه الآية ان أكبر الاشياء شهادة هو الله تعالى ثم بين انه يشهد له بالنبوة وهو المراد بقوله (وأوحي الى هذا القرآن لانذركم به) يعني ان الله عزوجل يشهد لي بالنبوة لانه أوحى الى هذا القرآن وهو معجزة لانكم أنتم الفصحاء البلغاء وأصحاب اللسان وقد عجزتم عن معارضته فكان معجزا واذا كان معجزا كان نزوله على شهادة من الله بأني رسوله وهو المراد بقوله لانذركم به يعني أوحى الى هذا القرآن لاخوفكم به واحذركم مخالفة أمر الله عزوجل (ومن بلغ) يعني وأنذر من بلغه القرآن ممن يأتي بعدي الى يوم القيامة من العرب والعجم وغيرهم من سائر الامم فكل من بلغ اليه القرآن وسمعه فالنبي صلى الله عليه وسلم نذير له قال محمد ابن كعب القرظي من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم وكلمه وقال انس بن مالك لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم الى الله عزوجل (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار * شرح ما يتعلق بهذا الحديث فيه الامر بابلاغ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم الى من بعده من قرآن وسنة وقوله وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج الحرج الضيق والاثم ومعنى الحديث انه مهما قلتم عن بني اسرائيل فانهم كانوا في حال أكثر مما قلتم وأوسع وليس هذا فيه اباحة الكذب والاخبار عن بني اسرائيل لكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على بعض البلاغ وان لم يتحقق ذلك بنقل لانه أمر قد تعذر لبعد المسافة وطول المدة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نضر الله امرأ سمع منا شيأ فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع أخرجه الترمذي وله عن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه الى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه عن ابن عباس قال تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم أخرجه أبو داود موقوفا وقوله تعالى (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يجحدون نبوتك واتخذوا آلهة غيري أئنكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى يعني الاصنام التي كانوا يعبدونها وانما قال أخرى لان الجمع يلحقه التأنيث كما قال تعالى ولله الاسماء الحسنى فما بال القرون الاولى ولم يقل الاول ولا الاولين (قل لا أشهد) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أشهد بما تشهدون به أن مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره (قل انما هو اله واحد) يعني قل لهم انما الله اله واحد ومعبود واحد لا شريك له وبذلك أشهد (وانني بريء مما تشركون) يعني وانا بريء من كل شيء تعبدونه سوى الله وفي هذه الآية دليل على اثبات التوحيد لله عزوجل وابطال كل معبود سواه لان كلمة انما تفيد الحصر ولفظة الواحد صريح في التوحيد ونفي الشريك فثبت بذلك ايجاب التوحيد وسلب كل شريك والتبرؤ من كل معبود سوى الله تعالى قال العلماء يستحب لكل من أسلم أن يأتي بالشهادتين ويتبرأ من كل دين خالف الاسلام لقوله تعالى وانني بريء مما تشركون ۞ قوله عزوجل (الذين

(وهو الحكيم) في شأنه وصدق أمره (الخبير) بأهل القهر من عباده (قل أي شيء أكبر شهادة) أي شيء مبتدأ وأكبر خبره وشهادة تمييز وأي كلمة يراد بها البعض ما تضاف اليه فاذا كانت استفهاما كان جوابها مسمى باسم ما أضيفت اليه وقوله (قل الله) جواب أي الله أكبر شهادة فالله مبتدأ والخبر محذوف فيكون دليلا على انه يجوز اطلاق اسم الشيء على الله تعالى وهذا لان الشيء اسم للموجود ولا يطلق على المعدوم والله تعالى موجود فيكون شيأ ولذا نقول الله تعالى شيء لا كالاشياء ثم ابتدأ (شهيد بيني وبينكم) أي هو شهيد بيني وبينكم ويجوز أن يكون الجواب الله شهيد بيني وبينكم لانه اذا كان الله شهيدا بينه وبينهم فأكبر شيء شهادة شهيد له (وأوحي الى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) أي ومن بلغه القرآن الى قيام الساعة في الحديث من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدا صلى الله عليه وسلم ومن في محل النصب بالعطف على كم والمراد به أهل مكة والعائد اليه محذوف أي ومن بلغه وفاعل بلغ ضمير القرآن (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) استفهام انكار وتبكيت (قل لا أشهد) بما تشهدون وكرر (قل) توكيدا (انما هو اله واحد) ما كافة لان عن العمل وهو مبتدأ واله خبره وواحد صفة أو بمعنى الذي في محل النصب بان وهو مبتدأ واله خبره والجملة صلة الذي وواحد خبر ان وهذا الوجه أوقع (وانني بريء مما تشركون) به (الذين آتيناهم

(الذين آتيناهم الكتاب) يعني اليهود والنصارى والكتاب التوراة والانجيل (يعرفونه) أي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعته الثابت في الكتابين (كما يعرفون أبناءهم) بحلاهم ونعوتهم وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب وبصحة نبوته ثم قال (الذين خسروا أنفسهم) من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين (فهم لا يؤمنون) (٩) به (ومن أظلم) استفهام يتضمن معنى النفي أي لا أحد أظلم لنفسه والظلم وضع الشيء في غير موضعه وأشنعه اتخاذ المخلوق معبودا (ممن افترى) اختلق (على الله كذبا) فيصفه بما لا يليق به (أو كذب بآياته) بالقرآن والمعجزات (انه) ان الأمر والشأن لا يفلح (الظالمون) جمعوا بين أمرين باطلين فكذبوا على الله ما لا حجة عليه وكذبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا الملائكة بنات الله وسموا القرآن والمعجزات سحرا (ويوم نحشرهم) هو مفعول به والتقدير واذكر يوم نحشرهم (جميعا) حال من ضمير المفعول (ثم نقول للذين أشركوا) مع الله غيره توبيخا وبالياء فيهما يعقوب (أين شركاؤكم) آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله (الذين كنتم تزعمون) أي تزعمونهم شركاء فحذف المفعولان (ثم لم تكن) وبالياء حمزة وعلي (فتنتهم) كفرهم (الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) يعني ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه الا الجحود والتبرؤ منه والحلف على الانتفاء من التدين به أو ثم لم يكن جوابهم الا أن قالوا فسمي فتنة لأنه كذب وبرفع الفتنة مكي وشامي وحفص فمن قرأ تكن بالتاء ورفع الفتنة فقد جعل الفتنة اسم تكن وأن قالوا الخبر أي لم تكن فتنتهم الا قولهم ومن قرأ بالياء ونصب الفتنة جعل أن قالوا اسم يكن أي لم يكن فتنتهم الا قولهم ومن قرأ بالتاء ونصب الفتنة فعلى القالة ربنا حمزة وعلي على النداء أي يا ربنا وغيرهما بالجر على النعت من اسم الله (انظر) يا محمد (كيف كذبوا على أنفسهم).

آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) المراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك ان كفار مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم انا سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر وأنكروا معرفته بين الله عز وجل ان شهادته له كافية على صحة نبوته وبين في هذه الآية انهم يعرفونه وأنهم كذبوا في قولهم انهم لا يعرفونه وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر بن الخطاب ان الله عز وجل أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فكيف هذه المعرفة فقال عبد الله بن سلام يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ولأنا أشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم مني بابني فقال عمر وكيف ذاك قال أشهد أنه رسول الله حقا ولا أدري ما يصنع النساء ﴿وقوله تعالى (الذين خسروا أنفسهم) يعني أهلكوا أنفسهم وغبنوها وأوبقوها في نار جهنم بانكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفي الذين خسروا أنفسهم قولان أحدهما أنه صفة للذين الأول ويكون المقصود من ذلك وعيد المعاندين الذين يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم ويجحدون نبوته وهم كفار أهل الكتابين (فهم لا يؤمنون) يعني به والقول الثاني أنه كلام مبتدأ ولا تعلق له بالأول وهم كفار مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا في معنى الخسار وجهين أحدهما أنه الهلاك الدائم الذي حصل لهم بسبب كفرهم وانكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والوجه الثاني أنه جعل لكل واحد من بني آدم منزلا في الجنة ومنزلا في النار فاذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل الكفار التي في الجنة وجعل للكفار منازل المؤمنين التي في النار فذلك هو الخسران ﴿قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني ومن أشد عنادا وأخطأ فعلا وأعظم كفرا ممن اختلق على الله كذبا فزعم ان له شريكا من خلقه والها يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الاصنام أو ادعى ان له صاحبة وولدا كما قالت النصارى (أو كذب بآياته) يعني كذب بحججه وأعلام أدلته التي أعطاها رسله كما كذبت اليهود بمعجزات الانبياء وقيل معناه أو كذب بآيات القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم (انه لا يفلح الظالمون) يعني انه لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون على الله الباطل (ويوم نحشرهم جميعا) أي اذكر يوم نحشر العابدين والمعبودين وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) يعني انها تشفع لكم عند ربكم ﴿قوله عز وجل (ثم لم تكن فتنتهم) يعني قولهم وجوابهم وقال ابن عباس معذرتهم والفتنة التجربة فلما كان سؤالهم تجربة لاظهار ما في قلوبهم قيل له فتنة قال الزجاج في قوله ثم لم تكن فتنتهم معنى لطيف وذلك ان الرجل يفتتن بمحبوب ثم تصيبه فيه محنة فيتبرأ من محبوبه فيقال لم تكن فتنته الا بذلك المحبوب فكذلك الكفار فتنوا بمحبة الاصنام ثم لما رأوا العذاب تبرؤا منها يقول الله تبارك وتعالى ثم لم تكن فتنتهم ومحبتهم للاصنام الا أن تبرؤا منها ﴿وهو قوله تعالى (الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وذلك اذا شاهدوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى لأهل التوحيد فيقول بعضهم لبعض تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر ﴿قال الله تعالى (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) يعني انظر يا محمد بعين البصيرة والتأمل الى حال هؤلاء المشركين كيف كذبوا

ما كنا مشركين قال مجاهد اذا جمع الله الخلائق ورأى المشركون سعة رحمة الله وشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين قال بعضهم لبعض تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد فاذا قال لهم الله أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون قالوا والله ربنا ما كنا مشركين فيختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم (وضل عنهم) وغاب عنهم (ما كانوا يفترون) الهيته وشفاعته (ومنهم من يستمع اليك) حين تتلو القرآن روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر ما يقول محمد فقال والله ما أدرى ما يقول محمد الا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الاولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية فقال أبو سفيان انى لأراه حقا فقال أبو جهل كلا (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية جمع كنان وهو الغطاء مثل عنان وأعنة (أن يفقهوه) كراهة أن يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) ثقلا يمنع من السمع ووحد الوقر لانه مصدر وهو عطف على أكنة وهو حجة لنا فى الاصلح على المعتزلة (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا) حتى هى التى تقع بعدها الجمل والجملة قوله اذا جاؤك يقول الذين كفروا ويجادلونك فى موضع الحال ويجوز أن تكون جارة ويكون اذا جاؤك فى موضع الجر بمعنى حتى وقت مجيئهم ويجادلونك حال ويقول الذين كفروا تفسير له والمعنى أنه بلغ تكذيبهم الآيات الى أنهم يجادلونك ويناكرونك وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون (ان هذا) ما القرآن (الا أساطير الاولين) فيجعلون كلام الله أكاذيب وواحد الاساطير أسطورة (وهم) أى المشركون (ينهون عنه) ينهون الناس عن القرآن أو عن الرسول واتباعه والايمان به (وينأون عنه) ويبعدون عنه بأنفسهم فيضلون ويضلون

على أنفسهم يعنى باعتذارهم بالباطل وتبرئهم من الاصنام والشرك الذى كانوا عليه واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه فى دار الدنيا وذلك لا ينفعهم وهو قوله (وضل عنهم) يعنى زال عنهم وذهب (ما كانوا يفترون) يعنى ما كانوا يكذبون وهو قولهم ان الاصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك كله فى ذلك اليوم ﴿ قوله تعالى (ومنهم من يستمع اليك) الآية قال الكلبى اجتمع أبو سفيان صخر بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبى ابنا خلف والحرث بن عامر يستمعون القرآن فقالوا للنضر يا أبا قتيبة ما يقول محمد قال ما أدرى ما يقول الا أنى أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الاولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية وأخبارها فقال أبو سفيان انى لأرى بعض ما يقول حقا فقال أبو جهل كلا لا تقر بشئ من هذا وفى رواية الموت أهون علينا من هذا فأنزل الله تعالى ومنهم من يستمع اليك يعنى الى كلامك وقراءتك يا محمد (وجعلنا على قلوبهم أكنة) يعنى أغطية جمع كنان (أن يفقهوه) يعنى لئلا يفقهوه أو كراهية أن يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) يعنى وجعل فى آذانهم صمما وثقلا وفى هذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى والايمان فتقبله ويجعل بعضها فى أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن به (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) يعنى كل معجزة من المعجزات الدالة على صدقك لا يؤمنوا بها يعنى لا يصدقوا بها ولا يقروا أنها دالة على صدقك (حتى اذا جاؤك يجادلونك) يعنى انهم اذا رأوا الآيات واستمعوا القرآن جاؤا اليك يجادلونك ويخاصمونك لا ليؤمنوا بها (يقول الذين كفروا ان هذا) أى ما هذا القرآن (الا أساطير الاولين) يعنى أحاديث الاولين من الامم الماضية وأخبارهم وأقاصيصهم وما سطروا يعنى وما كتبوا والاساطير جمع أسطورة وأسطارة وقيل واحدها سطر وأسطار جمع وأساطير جمع الجمع فان قلت قال قائل لم عابوا القرآن وجعلوه أساطير الاولين وقد سطر الاولون فى كتبهم الحكم والعلوم النافعة وما لا يعاب قائله أجيب عنه بأنهم انما نسبوا القرآن الى أساطير الاولين بمعنى أنه ليس بوحى من الله تعالى وانما هو أخبار مجردة كما روى أخبار الاولين وقيل فى معنى أساطير الاولين انها الترهات وهى عند العرب طرق غامضة ومسالك وعرة مشكلة يقول قائلهم أخذنا فى الترهات بمعنى عدلنا عن الطريق الواضح الى الطريق المشكل الذى لا يعرف فجعلت الترهات مثلا لما لا يعرف ولا يتضح من الامور المشكلة الغامضة التى لا أصل لها ﴿ قوله عز وجل (وهم ينهون عنه) يعنى ينهون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم (وينأون عنه) يعنى ويتباعدون عنه بأنفسهم نزلت فى كفار مكة كانوا يمنعون الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وعن الاجتماع به وينهونهم عن استماع القرآن وكانوا هم كذلك وقال ابن عباس نزلت فى أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم كان ينهى المشركين عن أذى النبى صلى الله عليه وسلم ويمنعهم وينأى هو بنفسه عن الايمان به يعنى يبعد حتى روى أنه اجتمع اليه رؤس المشركين وقالوا له خذ شابا من أصبحنا وجها وادفع الينا محمدا فقال ما أنصفتمونى أدفع اليكم ابنى محمدا لتقتلوه وأربى لكم ابنكم وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا أبا طالب الى الايمان فقال لولا تعيرنى قريش لأقررت بها عينك ولكن أذب عنك ما حييت وقال فى ذلك أبياتا

(وان يهلكون) بذلك (الا أنفسهم وما يشعرون) أى لايتعداهم الضرر الى غيرهم وان كانوا يظنون انهم يضرون رسول الله وقيل عنى به أبوطالب لانه كان ينهى قريشا عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم و ينأى عنه فلا يؤمن به والاول أشبه (ولوترى) حذف جوابه أى ولوترى لشاهدت أمرا فظيعا (اذوقفوا على النار) أروها حتى يعاينوها أوحبسوا على الصراط فوق النار (فقالوا ياليتنا نرد) الى الدنيا تمنوا الرد الى الدنيا ليؤمنوا ثم ابتدؤا فقالوا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) واعدين الايمان كانهم قالوا ونحن لانكذب ونؤمن ولا نكذب ونكون حمزة وعلى وحفص على جواب التمنى بالواو واضمار أن ومعناه ان رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين وافقهما فى ونكون شامى (بل) للاضراب عن الوفاء بما تمنوا (بدا لهم) ظهر لهم (ما كانوا يخفون) من الناس (من قبل) فى الدنيا من قبائحهم وفضائحهم فى صحفهم وقيل هو فى المنافقين وانه يظهر نفاقهم الذى كانوا يسرونه أو أهل الكتاب وانه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولوردوا) الى الدنيا بعد وقوفهم على النار (لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر (وانهم لكاذبون) فيما وعدوا من أنفسهم لايوفون به (وقالوا) عطف على لعادوا أى ولوردوا لكفروا ولقالوا (ان هى الاحياتنا الدنيا) كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة او على قوله وانهم لكاذبون أى وانهم لقوم كاذبون فى كل شئ وهم الذين قالوا ان هى الاحياتنا الدنيا وهى كناية عن الحياة أوهو ضمير القصة (وما نحن بمبعوثين ولوترى اذوقفوا على ربهم) مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجانى بين يدى سيده ليعاتبه أو وقفوا على جزاء ربهم (قال) جواب لسؤال مقدر كانه قيل ماذا قال لهم ربهم اذ وقفوا عليه فقيل قال (أليس هذا) أى البعث (بالحق) بالكائن الموجود وهذا تعيير لهم على التكذيب للبعث وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث ماهو بحق (قالوا بلى وربنا) أقروا وأكدوا الاقرار باليمين (قال) الله تعالى (فذوقوا العذاب بما

والله لن يصلوا اليك بجمعهم * حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بامرك ماعليك غضاضة * وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتنى وعرفت انك ناصحى * ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا قد علمت بانه * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة * لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

❁ وقوله تعالى (وان يهلكون الا أنفسهم) يعنى لايرجع وبال كفرهم وضلالهم الا عليهم (وما يشعرون) يعنى بذلك قوله تعالى (ولوترى اذوقفوا على النار) يعنى فى النار وعلى موضع فى كقوله على ملك سليمان أى فى ملك سليمان وقيل معناه اذ عرضوا على النار وجواب لو محذوف والمعنى ولوترى الكفار الذين ينهون عنك و ينأون عنك يا محمد فى تلك الحالة لرأيت أمرا عجيبا وموقفا فظيعا (فقالوا) يعنى الكفار (ياليتنا نرد) يعنى الى الدنيا (ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) تمنوا أن يردوا الى الدنيا مرة أخرى حتى يؤمنوا ولايكذبوا بآيات ربهم فرد الله عليهم ذلك فقال تعالى (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) يعنى ليس الامر كما قالوا لوردوا الى الدنيا لآمنوا بل ظهر لهم ما كانوا يسرون فى الدنيا من الكفر والمعاصى وقيل ظهر لهم ما كانوا يخفون من قولهم والله ربنا ما كنا مشركين أخفوا شركهم وكتموه فاظهره الله عليهم حين شهدت عليهم جوارحهم بما كتموا وستروا من شركهم وقيل ظهر لهم ما أخفوا من الكفر فعلى هذا تكون الآية فى المنافقين (ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) يعنى فى قولهم لورددنا الى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (وقالوا ان هى الاحياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وهذا خبر عن حال منكرى البعث وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما أخبر الكفار عن أحوال القيامة وأهوالها وما أعد الله فى الآخرة من الثواب للمؤمنين المطيعين وما أعد الله من العقاب للكفار والعاصين قالوا يعنى الكفار ان هى أى ماهى الاحياتنا الدنيا أى ليس لنا غير هذه الدنيا التى نحن فيها وما نحن بمبعوثين يعنى بعد الموت وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا خبر من الله عن هؤلاء الكفار الذين وقفوا على النار انهم لوردوا الى الدنيا لقالوا ان هى الاحياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ❁ قوله عز وجل (ولوترى اذوقفوا على ربهم) يعنى على حكم ربهم وقضائه ومسئلته وقال مقاتل عرضوا على ربهم (قال أليس هذا بالحق) أى يقول الله يوم القيامة أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذى كنتم تنكرونه فى الدنيا وتكذبون به وتقولون لابعث ولانشور حقا (قالوا بلى وربنا) يعنى انهم اعترفوا بما كانوا ينكرونه فاجابوا وقالوا بلى والله انه لحق وقيل تقول لهم خزنة النار بامر الله أليس هذا بالحق يعنى البعث حقا فاجابوا بقولهم بلى وربنا قال ابن عباس للقيامة مواقف ففى موقف ينكرون ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين وفى موقف يعترفون بما كانوا ينكرونه فى الدنيا (قال فذوقوا العذاب) أى يقول الله لهم ذلك أو الخزنة تقول لهم ذلك بامر الله تعالى وانما خص لفظ الذوق لانهم فى كل حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق فى شدة الاحساس (بما

كنتم تكفرون) بكفركم (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) ببلوغ الآخرة وما يتصل بها أو هو مجرى على ظاهره لأن منكر البعث منكر للرؤية (حتى) غاية لكذبوا لا لخسر لأن خسرانهم لا غاية له (اذا جاءتهم الساعة) أي القيامة لأن مدة تأخرها مع تأبد ما بعدها كساعة واحدة (بغتة) فجأة وانتصابها على الحال يعني باغتة أو على المصدر كأنه قيل بغتتهم الساعة بغتة وهي ورود الشيء على صاحبه من غير علمه بوقته (قالوا يا حسرتنا) نداء تفجع معناه يا حسرة احضري فهذا أوانك (على ما فرطنا) قصرنا (فيها) في الحياة الدنيا أو في الساعة أي قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها (وهم يحملون أوزارهم) آثامهم (على ظهورهم) خص الظهر لأن المعهود حمل الأثقال على الظهور كما عهد الكسب بالأيدي وهو مجاز عن اللزوم على وجه لا يفارقهم وقيل ان الكافر اذا خرج من قبره استقبله أقبح شيء صورة وأخبثه ريحا فيقول أنا عملك السيء فطالما ركبتني في الدنيا وأنا أركبك اليوم (ألا ساء ما يزرون) بئس شيئا يحملونه وأفاد ألا تعظيم ما يذكر بعده (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) جواب لقولهم ان هي الا حياتنا الدنيا واللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع واللهو الميل عن الجد الى الهزل قيل ما أهل الحياة الدنيا الا أهل لعب ولهو وقيل ما أعمال الحياة الدنيا الا لعب ولهو لأنها لا تعقب منفعة كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة

كنتم تكفرون) يعني هذا العذاب بسبب كفركم وجحودكم البعث بعد الموت ﴿ قوله تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) يعني خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم بالمصير الى الله تعالى و بالبعث بعد الموت وهذا الخسران هو فوت الثواب العظيم في دار النعيم المقيم وحصول العذاب الأليم في دركات الجحيم (حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة) يعني جاءتهم القيامة فجأة وسميت القيامة ساعة لأنها تفجأ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد الا الله تبارك وتعالى وقيل سميت ساعة لسرعة الحساب فيها لأن حساب الخلائق يوم القيامة يكون في ساعة أو أقل من ذلك (قالوا) يعني منكري البعث وهم كفار قريش ومن سلك سبيلهم في الكفر والاعتقاد (يا حسرتنا) يعني يا ندامتنا والحسرة التلهف على الشيء الفائت وذكرت على وجه النداء للمبالغة والمراد تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة (على ما فرطنا) يعني قصرنا (فيها) يعني في الدنيا لأنها موضع التفريط في الأعمال الصالحة والمعنى يا حسرتنا على الأعمال الصالحة التي فرطنا فيها في دار الدنيا وقال محمد بن جرير الطبري الهاء والألف في قوله فيها تعود الى الصفقة ولكن اكتفى بدلالة قوله قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله عليها من ذكرها اذ كان معلوما أن الخسران لا يكون الا في صفقة بيع قد جرى ومعنى الآية قد وكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم الايمان الذي يستوجبون به رضوان الله وجنته بالكفر الذي يستوجبون به سخط الله وعقوبته وهم لا يشعرون بذلك حتى تقوم الساعة فاذا جاءتهم الساعة بغتة ورأوا ما لحقهم من الخسران في بيعهم قالوا حينئذ يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وروى الطبري بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله يا حسرتنا قال يرى أهل النار منازلهم في الجنة فيقولون يا حسرتنا وقوله تعالى (وهم يحملون أوزارهم) يعني أثقالهم (على ظهورهم) والأوزار الخطايا والذنوب وأصل الوزر الثقل والحمل يقال وزرته اذا حملته وانما قيل للذنوب أوزار لأنها تثقل ظهر من يحملها قال قتادة والسدي ان المؤمن اذا خرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيبه ريحا فيقول هل تعرفني فيقول لا فيقول أنا عملك الصالح فاركبني فقد طالما ركبتك في الدنيا فذلك قوله يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا يعني ركبانا وأما الكافر فيستقبله أقبح شيء صورة وأنتنه ريحا فيقول هل تعرفني فيقول لا فيقول أنا عملك الخبيث طالما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك فذلك معنى قوله وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم وقال عمرو بن هانئ يحشر مع كل كافر عمله في صورة رجل قبيح كلما رأى هول صورته وقبحها زاده خوفا فيقول له بئس الجليس أنت فيقول أنا عملك طالما ركبتني فلأركبنك اليوم حتى أخزيك على رؤس الخلائق فيركبه ويتخطى به الناس حتى يقف بين يدي ربه تعالى فذلك قوله تعالى وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم وقال الزجاج الثقل كما يذكر في الوزن فقد يذكر في الحال والصفة يقال ثقل علي كلام فلان يعني كرهته والمعنى أنهم يقاسون من ألم عقاب ذنوبهم مقاساة تثقل ذلك عليهم فعلى هذا القول يكون قوله وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مجازا عما يقاسونه من شدة العذاب وقيل في معنى الآية ان أوزارهم لا تزايلهم كما تقول شخصه نصب عيني أي ذكره ملازم لي (ألا ساء ما يزرون) يعني بئس الشيء شيئا يحملونه وقال ابن عباس بئس الحمل حملوا قوله عز وجل (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) أي باطل وغرور لا بقاء لها وهذا فيه رد على منكري البعث في قولهم ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين فقال الله ردا عليهم ومكذبا لهم وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وهل المراد بهذه الحياة حياة المؤمن أو الكافر قولان أحدهما أن المراد بها حياة الكافر لأن المؤمن لا يزداد بحياته في الدنيا الا خيرا لأنه يحصل في أيام حياته من الأعمال الصالحة والطاعة ما يكون سببا لحصول السعادة في الآخرة وأما الكافر فان كل حياته في الدنيا وبال عليه قال

(وللدار) مبتدأ (الآخرة) صفتها ولدار الآخرة بالاضافة شامي أي ولدار الساعة الآخرة لان الشيء لا يضاف الى صفته وخبر المبتدا على القراءتين (خير للذين يتقون) وفيه دليل على ان ما سوى أعمال المتقين لعب ولهو (أفلا يعقلون) بالتاء مدني وحفص ولما قال أبو جهل ما نكذبك يا محمد وانك عندنا لمصدق وإنما نكذب ما جئتنا به نزل (قد نعلم انه) الهاء ضمير الشان (ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك) لا ينسبونك الى الكذب وبالتخفيف نافع وعلي من أكذبه اذا وجده كاذبا (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) من اقامة الظاهر مقام المضمر وفيه دلالة على انهم ظلموا في جحودهم والباء يتعلق بيجحدون أو بالظالمين كقوله فظلموا بها والمعنى ان تكذيبك أمر راجع الى الله لانك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وانما يكذبون الله لان تكذيب الرسل تكذيب المرسل (ولقد كذبت رسل من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو دليل على ان قوله فانهم لا يكذبونك ليس بنفي لتكذيبه وانما هو من قولك لغلامك اذا أهانه بعض الناس انهم لم يهينوك وانما أهانوني (فصبروا) الصبر حبس النفس على المكروه (على ما كذبوا وأوذوا) على تكذيبهم وإيذائهم (حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله) لمواعيده من قوله ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون انا لننصر رسلنا (ولقد جاءك من نبإ المرسلين) بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين وأجاز الاخفش أن تكون من زائدة والفاعل نبأ المرسلين وسيبويه لا يجيز زيادتها في الواجب كان يكبر على النبي صلى الله عليه وسلم كفر قومه واعراضهم ويحب مجيء الآيات

ابن عباس يريد حياة أهل الشرك والنفاق والقول الثاني ان هذا عام في حياة المؤمن والكافر لان الانسان يلتذ باللعب واللهو ثم عند انقضائه تحصل له الحسرة والندامة لان الذي كان فيه من اللعب واللهو سريع الزوال لا بقاء له فبان بهذا التقدير ان المراد بهذه الحياة حياة المؤمن والكافر وانه عام فيهما وانما شبه الحياة الدنيا باللعب واللهو لسرعة زوالها وقصر عمرها كالشيء الذي يلعب به وقيل معناه ان أمر الدنيا والعمل لها لعب ولهو فاما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة وان كان وقوعه في الدنيا وقيل معناه وما أهل الحياة الدنيا الا أهل لعب ولهو لانه لا يجدي شيأ ولاشتغالهم عما أمروا به نسبوا الى اللعب واللهو وقوله تعالى (وللدار الآخرة) يعني الجنة واللام فيه لام القسم تقديره والله الدار الآخرة (خير) يعني من الدنيا وأفضل لان الدنيا سريعة الزوال والانقطاع (للذين يتقون) يعني الشرك وقيل يتقون اللعب واللهو (أفلا يعقلون) ان الآخرة خير من الدنيا فيعملون لها ﴿ قوله تعالى (قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون) يعني قد نعلم يا محمد انه ليحزنك الذي يقوله المشركون لك قال السدي التقى الاخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام فقال الاخنس لابي جهل يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس هنا أحد يسمع كلامك غيري فقال أبو جهل والله ان محمدا لصادق وما كذب محمد قط ولكن اذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فانزل الله هذه الآية وقال ناجية بن كعب قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم ما نتهمك ولا نكذبك ولكنا نكذب الذي جئت به فانزل الله هذه الآية عن علي بن أبي طالب أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به فانزل الله فيهم فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون أخرجه الترمذي من طريقين وقال في أحدهما وهذا أصح ففي هذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية عما يواجهه به قومه لانهم كانوا يعتقدون صدقه وانه ليس بكذاب وانما حملهم على تكذيبه في الظاهر الحسد والظلم (فانهم لا يكذبونك) يعني أنهم لا يكذبونك في السر لانهم قد عرفوا أنك صادق (ولكن الظالمين) يعني الكافرين (بآيات الله يجحدون) يعني في العلانية وذلك أنهم جحدوا القرآن بعد معرفتهم صدق الذي أنزل عليه لعنادهم وكفرهم كما قال تعالى في حق غيرهم وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وقيل ظاهر الآية يدل على أنهم لم يكذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وانما جحدوا آيات الله وهي القرآن الدال على صدقه فعلى هذا يكون المعنى فانهم لا يكذبونك لانهم قد عرفوا صدقك وانما جحدوا صحة نبوتك ورسالتك ﴿ قوله عز وجل (ولقد كذبت رسل من قبلك) يعني ولقد كذبت الامم الخالية رسلهم كما كذبك قومك (فصبروا على ما كذبوا وأوذوا) يعني أن الرسل عليهم السلام صبروا على تكذيب قومهم اياهم وصبروا على أذاهم فاصبر أنت يا محمد على تكذيب قومك وأذاهم لك كما صبر من كان قبلك من الرسل وهذا فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وازالة حزنه على تكذيب قومه له وأذاهم اياه (حتى أتاهم نصرنا) يعني باهلاك من كذبهم (ولا مبدل لكلمات الله) يعني ولا ناقض لما حكم الله به من اهلاك المكذبين ونصر المرسلين كما قال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون وقال الله تعالى كتب الله لاغلبن أنا ورسلي ولا خلف فيما وعد الله به وقوله تعالى (ولقد جاءك من نبإ المرسلين) يعني ولقد أنزلت عليك في القرآن من أخبار المرسلين ما فيه تسلية لك وتسكين لقلبك وقال الاخفش من هنا صلة كما تقول أصابنا من مطر وقال غيره بل هي للتبعيض لان الواصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قصص بعض الانبياء وأخبارهم كما قال تعالى

لتسلموا فنزل (وإن كان كبر عليك) عظم وشق (إعراضهم) عن الإسلام (فإن استطعت أن تبتغي نفقا) منفذا تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها (في الأرض) صفة لنفقا (أو سلما في السماء فتأتيهم) منها (بآية) فافعل وهو جواب فإن استطعت وإن استطعت وجوابها جواب وإن كان (١٤) كبر والمعنى إنك لا تستطيع ذلك والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وإنه لو استطاع أن

يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) لجعلهم بحيث يختارون الهدى ولكن لما علم أنهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك كذا قاله الشيخ أبو منصور رحمه الله (فلا تكونن من الجاهلين) من الذين يجهلون ذلك ثم أخبر أن حرصه على هدايتهم لا ينفع لعدم سمعهم كالموتى بقوله (إنما يستجيب الذين يسمعون) أي إنما يجيب دعاءك الذين يسمعون دعاءك بقلوبهم (والموتى) مبتدأ أي الكفار (يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) فحينئذ يسمعون وأما قبل ذلك فلا (وقالوا لولا نزل عليه) هلا أنزل عليه (آية من ربه) كما نقترح من جعل الصفا ذهبا وتوسيع أرض مكة وتفجير الأنهار خلالها (قل إن الله قادر على أن ينزل آية) كما اقترحوا (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية ولا يعلمون ما عليهم في الآية من البلاء لو أنزل (وما من دابة) هي اسم لما يدب وتقع على المذكر والمؤنث (في الأرض) في موضع جر صفة لدابة (ولا طائر يطير بجناحيه) قيد الطيران بالجناحين لنفي المجاز لأن غير الطائر قد يقال فيه طار إذا أسرع (إلا أمم أمثالكم) في الخلق والموت والبعث والاحتياج إلى مدبر يدبر أمرها

منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴿ قوله تعالى (وإن كان كبر عليك إعراضهم) ذكر ابن الجوزي في سبب نزول هذه الآية أن الحرث بن عامر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من قريش فقال ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات فإن فعلت آمنا بك فنزلت هذه الآية رواه أبو صالح عن ابن عباس ومعنى الآية وإن كان عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك وعن تصديقك والإيمان بك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على إيمان قومه أشد الحرص وكان إذا سألوه آية أحب أن يريهم الله ذلك طمعا في إيمانهم فقال الله عز وجل (فإن استطعت أن تبتغي) يعني تطلب وتتخذ (نفقا في الأرض) يعني سربا في الأرض والنفق سرب في الأرض تخلص منه إلى مكان آخر (أو سلما في السماء) يعني أو تتخذ مصعدا إلى السماء والسلم المصعد وهو مشتق من السلامة (فتأتيهم بآية) يعني بالآية التي سألوا عنها ومعنى الآية وإن كان كبر وعظم عليك إعراض قومك عن الإيمان بك فإن قدرت أن تذهب في الأرض أو تصعد إلى السماء فتأتيهم بآية تدلهم على صدقك فافعل وإنما حسن حذف جواب الشرط لأنه معلوم عند السامع والمقصود من هذا أن يقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم طمعه عن إيمانهم ولا يتأذى بسبب إعراضهم عنه وعن الإيمان به ويدل عليه قوله تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أخبر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم إنما تركوا الإيمان وأعرضوا عنه وأقبلوا على الكفر بمشيئة الله تعالى ونافذ قضائه فيهم وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى (فلا تكونن من الجاهلين) يعني بأن لو شاء الله لجمعهم على الهدى وأنه يؤمن بك بعضهم دون بعض وقيل معناه لا يشتد تحسرك على تكذيبهم إياك ولا تجزع من إعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم وإنما نهاه عن هذه الحال وغلظ له الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة ﴿ قوله عز وجل (إنما يستجيب الذين يسمعون) يعني المؤمنين الذين فتح الله أسماع قلوبهم فهم يسمعون الحق ويستجيبون له ويتبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمع قلبه وهو قوله (والموتى) يعني الكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون (يبعثهم الله) يعني يوم القيامة (ثم إليه يرجعون) فيجزيهم بأعمالهم (وقالوا) يعني رؤساء كفار قريش (لولا) يعني هلا (نزل عليه آية من ربه) يعني الآية التي تشهد لمحمد بالنبوة وقيل الآية المعجزة الباهرة كمثل معجزات الأنبياء (قل) يعني قل لهم يا محمد (إن الله قادر على أن ينزل آية) يعني أنه تعالى قادر على إيجاد ما طلبوه وإنزال ما اقترحوه من الآيات والمعجزات الباهرات (ولكن أكثرهم لا يعلمون) يعني ماذا عليهم في إنزالها من العذاب إن لم يؤمنوا بها وقيل معناه أنهم لا يعلمون أن الله قادر على إنزال الآيات وقيل إنهم لا يعلمون وجه المصلحة في إنزالها ﴿ قوله تعالى (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) قال العلماء جميع ما خلق الله عز وجل لا يخرج عن هاتين الحالتين إما أن يدب على الأرض أو يطير في الهواء حتى ألحقوا حيوان الماء بالطير لأن الحيتان تسبح في الماء كما أن الطير يسبح في الهواء وإنما خص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء وإن كان ما في السماء مخلوقا له لأن الاحتجاج بالمشاهد أظهر وأولى مما لا يشاهد وإنما ذكر الجناح في قوله بجناحيه للتوكيد كقولك كتبت بيدي ونظرت بعيني إلا أمم أمثالكم قال مجاهد أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها يريد أن كل جنس من الحيوان أمة فالطير أمة والدواب أمة والسباع أمة تعرف بأسمائها مثل بني آدم يعرفون بأسمائهم كما يقال الإنس والناس ويدل على أن كل جنس من الدواب أمة ما روي عن عبد الله بن مغفل

(ما فرطنا) ما تركنا (في الكتاب) في اللوح المحفوظ (من شيء) من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت أو الكتاب القرآن وقوله من شيء أي من شيء يحتاجون اليه فهو مشتمل على ما تعبدنا به عبارة واشارة ودلالة واقتضاء (ثم الى ربهم يحشرون) يعني الامم كلها من الدواب والطيور فينصف بعضها من بعض كما روي انه يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كوني ترابا وانما قال الا أمم مع افراد الدابة والطائر لمعنى الاستغراق فيهما ولما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادي على عظمته قال (والذين كذبوا بآياتنا صم) لا يسمعون كلام المنبه (وبكم) لا ينطقون بالحق خابطون (في الظلمات) أي ظلمة الجهل والحيرة والكفر غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه صم وبكم خبر الذين ودخول الواو لا يمنع من ذلك وفي الظلمات خبر آخر ثم قال ايذانا بانه فعال لما يريد (من يشأ الله يضلله) أي من يشأ الله ضلاله يضلله (ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) وفيه دلالة خلق الافعال وارادة المعاصي ونفي الاصلح (قل أرأيتكم) وتليين الهمزة مدني وتركه علي ومعناه هل علمتم ان الامر كما يقال لكم فاخبروني بما عندكم الضمير الثاني لا محل له من الاعراب والتاء ضمير الفاعل ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره أرأيتكم (ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة) من تدعون ثم بكتهم بقوله (أغير الله تدعون) أي أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم اذا أصابكم ضر أم تدعون الله دونها (ان كنتم صادقين) في ان الاصنام آلهة فادعوها لتخلصكم (بل اياه تدعون) بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة (فيكشف ما تدعون اليه) أي ما تدعونه الى كشفه (ان شاء) ان أراد أن يتفضل عليكم (وتنسون ما تشركون) وتتركون آلهتكم أو لا تذكرون آلهتكم في ذلك الوقت لان أذهانكم مغمورة بذكر ربكم وحده اذ هو القادر على كشف الضر دون غيره ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله أغير الله تدعون كأنه قيل أرأيتكم أغير الله تدعون ان أتاكم عذاب الله

مغفل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا ان الكلاب أمة من الامم لامرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي فان قلت ثبت بالآية والحديث ان الدواب والطير أمم أمثالنا وهذه المماثلة لم تحصل من كل الوجوه فيما يظهر لنا فما وجه هذه المماثلة قلت اختلف العلماء في وجه هذه المماثلة فقيل ان هذه الحيوانات تعرف الله وتوحده وتسبحه وتصلي له كما أنكم تعرفون الله وتوحدونه وتسبحونه وتصلون له وقيل انها مخلوقة لله كما أنكم مخلوقون لله عز وجل وقيل انها يفهم بعضها عن بعض ويألف بعضها بعضا كما ان جنس الانس يألف بعضهم بعضا ويفهم بعضهم عن بعض وقيل أمثالكم في طلب الرزق وتوقي المهالك ومعرفة الذكر والانثى وقيل أمثالكم في الخلق والموت والبعث بعد الموت للحساب حتى يقتص للجماء من القرناء وهو قوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء) يعني في اللوح المحفوظ لانه يشتمل جميع أحوال المخلوقات وقيل ان المراد بالكتاب القرآن يعني ان القرآن مشتمل على جميع الاحوال (ثم الى ربهم يحشرون) يعني الدواب والطير قال ابن عباس حشرها موتها وقال أبو هريرة يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كوني ترابا (م) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ۞ قوله عز وجل (والذين كذبوا بآياتنا) يعني بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل كذبوا بحجج الله وأدلته على توحيده (صم) يعني عن سماع الحق (وبكم) يعني عن النطق به والمعنى انهم في حال كفرهم وتكذيبهم كمن لا يسمع ولا يتكلم ولهذا شبه الكفار بالموتى لان الميت لا يسمع ولا يتكلم (في الظلمات) يعني في ظلمات الكفر حائرين مترددين فيها لا يهتدون سبيلا (من يشأ الله يضلله) يعني عن الايمان (ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) يعني ومن يشأ يجعله الله على دين الاسلام وفي هذا دليل على ان الهادي والمضل هو الله تعالى فمن أحب هدايته وفقه بفضله واحسانه للايمان به ومن أحب ضلالته تركه على كفره وهذا عدل منه لانه تعالى هو الفاعل المختار لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ۞ قوله تعالى (قل أرأيتكم) يعني قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين تركوا عبادة الله عز وجل وعبدوا غيره من الاصنام أخبروني تقول العرب أرأيتك بمعنى أخبرنا عن حالك وأصله أرأيتم والكاف فيه للتأكيد (ان أتاكم عذاب الله) يعني قبل الموت مثل ما نزل بالامم الماضية الكافرة من الغرق والخسف والمسخ والصواعق ونحو ذلك من العذاب (أو أتتكم الساعة) يعني القيامة (أغير الله تدعون) يعني في كشف العذاب عنكم (ان كنتم صادقين) يعني في دعواكم ومعنى الآية ان الكفار كانوا اذا نزل بهم شدة وبلاء رجعوا الى الله بالتضرع والدعاء وتركوا الاصنام فقيل لهم أترجعون الى الله في حال الشدة والبلاء ولا تعبدونه ولا تطيعونه في حال اليسر والرخاء (بل اياه تدعون) يعني بل تدعون الله ولا تدعون غيره في كشف ما نزل بكم (فيكشف ما تدعون اليه ان شاء) يعني فيكشف الضر الذي من أجله دعوتموه وانما قيد الاجابة بالمشيئة رعاية للمصلحة وان كانت الامور كلها بمشيئة الله تعالى (وتنسون ما تشركون) يعني وتتركون دعاء الاصنام التي تعبدونها فلا تدعونها لعلمكم انها لا تضر ولا تنفع وقيل معناه انكم في ترككم دعاء الاصنام بمنزلة من قد نسيها وهذا معنى

(ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك) رسلا فالمفعول محذوف فكذبوهم (فأخذناهم بالبأساء والضراء) بالبؤس والضر والاول القحط
والجوع والثانى المرض ونقصان الانفس والاموال (لعلهم يتضرعون) يتذللون ويتخشعون لربهم

قول الحسن لا يعقل وتعرضون عنه اعراض الناسى لها ۞ قوله تعالى (ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك) فى الآية محذوف والتقدير ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك يا محمد رسلا فخالفوهم وكفروا وحسن هذا الحذف لكونه معلوما عند السامع (فأخذناهم بالبأساء) يعنى بالفقر الشديد وأصله من البؤس وهو الشدة والمكروه وقيل البأساء شدة الجوع (والضراء) يعنى الامراض والاوجاع والزمانة (لعلهم يتضرعون) يعنى يخضعون ويتوبون والتضرع التخشع والتذلل والانقياد وترك التمرد وأصله من الضراعة وهى الذلة ومقصود الآية ان الله تعالى أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم انه قد أرسل من قبله رسلا الى أقوام بلغوا فى القسوة الى ان أخذوا بالبأساء والضراء وهى الشدة فى النفس والمال فلم يخضعوا ولم يتضرعوا ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (فلولا) يعنى فهلا (اذ جاءهم بأسنا تضرعوا) معناه نفى التضرع فلم يتضرعوا (ولكن قست قلوبهم) يعنى ولكن غلظت قلوبهم فلم تضرع ولم تخشع بل أقاموا على كفرهم وتكذيبهم رسلهم (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) يعنى من الكفر والتكذيب وتزيين الشيطان اغواؤه بما فى المعصية من اللذة قال ابن عباس يريد زين الشيطان الضلالة التى كانوا عليها فأصروا على معاصى الله عز وجل ۞ عز وجل (فلما نسوا ما ذكروا به) أى تركوا ما وعظوا به وقيل تركوا العمل بما أمرتهم به الرسل وانما كان النسيان بمعنى الترك لان التارك للشئ معرضا عنه كأنه قد صيره بمنزلة ما قد نسى (فتحنا عليهم أبواب كل شئ) يعنى بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة فى الرزق والعيش ومكان الضراء الصحة والسلامة فى الابدان والاجسام وذلك استدراج منه لهم وقيل فتحنا عليهم أبواب كل شئ من الخير كان مغلقا عنهم (حتى اذا فرحوا بما أوتوا) يعنى فرحوا بما أوتوا من السعة والرخاء والصحة فى الابدان والمعيشة وظنوا أن ما كان نزل بهم من الشدة لم يكن انتقاما من الله تعالى فلما لم يفتح الله عليهم ما فتح من الخير والسعة فرحوا به وظنوا أن ذلك باستحقاقهم وهذا فرح بطر كما فرح قارون بما أوتى من الدنيا (أخذناهم بغتة) يعنى جاءهم عذابنا فجأة من حيث لا يشعرون قال الحسن مكر بالقوم ورب الكعبة وقال أهل المعانى انما أخذوا فى حال الرخاء والسلامة ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية والتصرف فى ضروب اللذة فأخذناهم فى آمن ما كانوا وأعجب ما كانت الدنيا اليهم (فاذا هم مبلسون) أى آيسون من كل خير وقال الفراء المبلس اليائس المنقطع رجاؤه ولذلك يقال لمن يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون له جواب قد أبلس وقال الزجاج المبلس الشديد الحزن والحسرة وقال أبو عبيدة المبلس النادم الحزين والابلاس هو الاطراق من الحزن والندم روى عقبة بن عامر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيت الله تعالى يعطى العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته فانما ذلك استدراج ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به الآية ذكره البغوى بغير سند وأسنده الطبرى ۞ وقوله تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى آخرهم الذى يدبرهم يقال دبر فلان القوم اذا كان آخرهم والمعنى انهم استؤصلوا بالعذاب فلم تبق منهم باقية (والحمد لله رب العالمين) قال الزجاج حمد الله نفسه على ان قطع دابرهم واستأصل شأفتهم ومعنى هذا ان قطع دابرهم نعمة أنعم الله بها على الرسل الذين أرسلوا فكذبوهم فذكر الحمد تعليما للرسل ولمن آمن بهم ليحمدوا الله على كفايته اياهم شر الذين ظلموا وليحمد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ربهم اذا أهلك المشركين المكذبين وقيل معناه الثناء الكامل والشكر الدائم لله رب العالمين على انعامه على رسله وأهل طاعته باظهار حجتهم على من خالفهم واهلاك أعدائهم ... بالعذاب ۞ قوله تعالى (قل أرأيتم) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين (ان أخذ الله سمعكم) يعنى الذى تسمعون به فأصمكم حتى لا تسمعوا شيئا (وأبصاركم) يعنى وأخذ أبصاركم التى تبصرون بها فأعماكم حتى لا تبصروا شيئا

ويتوبون عن ذنوبهم فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا) أى هلا تضرعوا بالتوبة ومعناه نفى التضرع كأنه قيل فلم يتضرعوا اذ جاءهم بأسنا ولكنه جاء بلولا ليفيد انه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع الا عنادا (ولكن قست قلوبهم) فلم ينزجروا بما ابتلوا به (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وصاروا معجبين بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم (فلما نسوا ما ذكروا به) من البأساء والضراء أى تركوا الاتعاظ به ولم يزجرهم (فتحنا عليهم أبواب كل شئ) من الصحة والسعة وصنوف النعمة فتحا شاملا (حتى اذا فرحوا بما أوتوا) من الخير والنعمة (أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) آيسون متحسرون وأصله الاطراق حزنا لما أصابه أو ندما على ما فاته واذا للمفاجأة (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى اهلكوا عن آخرهم ولم يترك منهم أحد (والحمد لله رب العالمين) ايذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة وانه من أجل النعم وأجزل القسم أو احمدوا الله على اهلاك من لم يحمد الله ثم دل على قدرته وتوحيده بقوله (قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم) بأن أصمكم وأعماكم

(وختم على قلوبكم) فسلب العقول والتمييز (من إله غير الله يأتيكم به) بما أخذ وختم عليه من رفع بالابتداء وإله خبره وغير صفة لإله ويأتيكم صفة أخرى والجملة في موضع مفعولي أرأيتم وجواب الشرط محذوف (انظر كيف نصرف) لهم (الآيات) نكررها (ثم هم يصدفون) يعرضون عن الآيات بعد ظهورها والصدوف الاعراض عن الشيء (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة) (١٧)

بأن لم تظهر أماراته (أو جهرة) بأن ظهرت أماراته وعن الحسن ليلا أو نهارا (هل يهلك إلا القوم الظالمون) ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) بالجنان والنيران للمؤمنين والكفار ولم نرسلهم ليقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة والأدلة الساطعة (فمن آمن وأصلح) أي دوام على إيمانه (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فلا خوف يعقوب (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب) جعل العذاب ماسا كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى بالكفر (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله) أي قسمه بين الخلق وأرزاقه وعلى (ولا أعلم الغيب) المصب عطفا على محل عندي خزائن الله لأنه من

جملة المقول كأنه قال لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول (ولا أقول لكم إني ملك) أي لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله وعلم الغيب ودعوى الملكية وإنما أدعي ما كان لكثير من البشر وهو النبوة (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) أي ما أخبركم إلا بما أنزل الله علي (قل هل يستوي الأعمى والبصير) مثل للضال والمهتدي أو لمن اتبع ما يوحى إليه ومن لم يتبع أو لمن يدعي المستقيم وهو النبوة والمحال وهو الإلهية

شيئاً أصلا (وختم على قلوبكم) يعني حتى لا تفقهوا شيئاً أصلا ولا تعرفوا شيئاً مما تعرفون من أمور الدنيا وإنما ذكر هذه الأعضاء الثلاثة لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا ومقصود هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار وتقريره أن القادر على إيجاد هذه الأعضاء وأخذها هو الله تعالى المستحق للعبادة لا الأصنام التي تعبدونها وهو قوله تعالى (من إله غير الله يأتيكم به) يعني يأتيكم بما أخذ الله منكم لأن الضمير في به يعود على معنى الفعل ويجوز أن يعود على السمع الذي ذكر أولا ويندرج تحته غيره (انظر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره أي انظر يا محمد (كيف نصرف الآيات) يعني كيف نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة (ثم هم يصدفون) يعني يعرضون عنها مكذبين لها (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة) يعني فجأة (أو جهرة) يعني معاينة ترونه عند نزوله وقال ابن عباس ليلا أو نهارا (هل يهلك إلا القوم الظالمون) يعني المشركين لأنهم ظلموا أنفسهم بالشرك ﴿ قوله عز وجل (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين) يعني لمن آمن بالثواب (ومنذرين) يعني لمن أقام على كفره بالعقاب والمعنى ليس في إرسالهم أن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات إنما أرسلوا بالبشارة والنذارة (فمن آمن وأصلح) يعني آمن بهم وأصلح العمل (فلا خوف عليهم) يعني حين يخاف أهل النار (ولا هم يحزنون) أي إذا حزن غيرهم (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب) يعني يصيبهم العذاب (بما كانوا يفسقون) يعني بسبب ما كانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة ﴿ قوله تعالى (قل لا أقول لكم) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أقول لكم (عندي خزائن الله) نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فأمره الله تعالى أن يقول لهم إنما بعثت بشيرا ونذيرا ولا أقول لكم عندي خزائن الله جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه بحيث لا تناله الأيدي والمعنى ليس عندي خزائن رزق الله فأعطيكم منها ما تريدون لأنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم إن كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع علينا عيشنا ويغني فقرنا فأخبر أن ذلك بيد الله لا بيدي (ولا أعلم الغيب) يعني فأخبركم بما مضى وما سيقع في المستقبل وذلك أنهم قالوا له أخبرنا بمصالحنا ومضارنا في المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار فأجابهم بقوله ولا أعلم الغيب فأخبركم بما تريدون (ولا أقول لكم إني ملك) وذلك أنهم قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج النساء فأجابهم بقوله ولا أقول لكم إني ملك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر ويشاهد ما لا يشاهدون فلست أقول شيئاً من ذلك ولا أدعيه فتنكرون قولي وتجحدون أمري وإنما نفى عن نفسه الشريفة هذه الأشياء تواضعا لله تعالى واعترافا له بالعبودية وأن لا يقترحوا عليه الآيات العظام (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) يعني ما أخبركم إلا بوحي من الله أنزله علي ومعنى الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلمهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي وأنه لا يعلم الغيب فيخبر بما كان وما سيكون وأنه ليس بملك حتى يطلع على ما لا يطلع عليه البشر إنما يتبع ما يوحى إليه من ربه عز وجل فما أخبر عنه من غيب يوحي الله إليه وظاهر الآية يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يجتهد في شيء من الأحكام بل جميع أوامره ونواهيه إنما كانت بوحي من الله إليه (قل هل يستوي الأعمى والبصير) يعني المؤمن والكافر

(أفلاتتفكرون) فلاتكونوا ضالين أشباه العميان أو تجعلوا أني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر أو تجعلوا

والضال والمهتدي والعالم والجاهل (أفلا تتفكرون) يعني أنهما لا يستويان ۞ قوله عز وجل (وأنذر به) يعني وخوف بالقرآن والانذار اعلام مع تخويف (الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم) قال ابن عباس يريد المؤمنين لانهم يخافون يوم القيامة وما فيه من شدة الاهوال وقيل معنى يخافون يعلمون والمراد بهم كل معترف بالبعث من مسلم وكتابي وانما خص الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم وان كان انذاره صلى الله عليه وسلم لجميع الخلائق لان الحجة عليهم أوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر وقيل المراد بهم الكفار لانهم لا يعتقدون صحة ولذلك قال يخافون أن يحشروا الى ربهم وقيل المراد بالانذار جميع الخلائق فيدخل فيه كل مؤمن معترف بالحشر وكل كافر منكر له لانه ليس أحد الا وهو يخاف الحشر سواء اعتقد وقوعه أو كان يشك فيه ولان دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وانذاره لجميع الخلق (ليس لهم من دونه) يعني من دون الله (ولي) أي قريب ينفعهم (ولا شفيع) يعني يشفع لهم ثم ان فسرنا الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم أن المراد بهم الكفار فلا اشكال فيه لقوله تعالى ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع وان فسرنا الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم أن المراد بهم المؤمنون ففيه اشكال لانه قد ثبت بصحيح النقل شفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للمذنبين من أمته وكذلك تشفع الملائكة والانبياء والمؤمنون بعضهم لبعض والجواب عن هذا الاشكال أن الشفاعة لا تكون الا باذن الله لقوله عز وجل من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه واذا كانت الشفاعة باذن الله صح قوله ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع يعني حتى يأذن الله لهم في الشفاعة فاذا أذن فيها كان للمؤمنين ولي وشفيع (لعلهم يتقون) يعني ما نهيتهم عنه ۞ قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) قال سلمان وخباب بن الارت فينا نزلت هذه الآية جاء الاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وهما من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم قاعدا مع صهيب وبلال وعمار وخباب في نفر من ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله حقروهم فأتوه فقالوا يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب صوف لها رائحة ليس عليهم غيرها لجالسناك وأخذنا عنك فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أنا بطارد المؤمنين قالوا فانا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فأقعدهم ان شئت قال نعم قالوا فاكتب لنا عليك بذلك كتابا قال فأتي بالصحيفة ودعا عليا ليكتب قال ونحن قعود في ناحية اذ نزل جبريل عليه السلام بقوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الى قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة فكنا نقعد معه فاذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تبارك وتعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الآية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركبنا تمس ركبته فاذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وقال لنا الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات وروى عن سعد بن أبي وقاص قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لا يجترون علينا قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه أخرجه مسلم وقال الكلبي قالوا له يعني أشراف قريش اجعل لنا يوما ولهم يوما قال لا أفعل قالوا فاجعل المجلس واحدا وأقبل علينا وولّ ظهرك اليهم فأنزل الله هذه الآية وقال مجاهد قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد يعني

أن اتباع ما يوحى الي مما لابد لي منه (وأنذر به) بما يوحى (الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم) هم المسلمون المقرون بالبعث الا انهم مفرطون في العمل فينذرهم بما أوحي اليه أو أهل الكتاب لانهم مقرون بالبعث (ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) في موضع الحال من يحشروا أي يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم (لعلهم يتقون) يدخلون في زمرة أهل التقوى ولما أمر النبي عليه السلام بانذار غير المتقين ليتقوا أمر بعد ذلك بتقريب المتقين ونهى عن طردهم بقوله (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) وأثنى عليهم بانهم يواصلون دعاء ربهم أي عبادته ويواظبون عليها والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام أو معناه يصلون صلاة الصبح والعصر أو الصلوات الخمس بالغدوة شامي ووسمهم بالاخلاص في عبادتهم بقوله (يريدون وجهه) فالوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته نزلت في الفقراء بلال وصهيب وعمار وأضرابهم حين قال رؤساء المشركين لو طردت هؤلاء السقاط لجالسناك فقال عليه السلام ما أنا بطارد المؤمنين فقالوا اجعل لنا يوما ولهم يوما وطلبوا بذلك كتابا فدعا عليا رضي الله عنه ليكتب فقام الفقراء وجلسوا ناحية فنزلت فرمى عليه الصلاة والسلام بالصحيفة وأتى الفقراء فعانقهم

ابن مسعود ولما يصالك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن مسعود مر ملأ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد رضيت بهؤلاء بدلا من قومك أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا أنحن نكون تبعا لهؤلاء اطردهم فلعلك ان طردتهم أن نتبعك فنزلت هذه الآية وقال عكرمة جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحرث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر الى أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمدا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فانما هم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا اياه وتصديقنا له فأتى أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي كلموه به فقال عمر بن الخطاب لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون والى ماذا يصيرون فأنزل الله عز وجل هذه الآية وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم الى قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين فجاء عمر فاعتذر من مقالته قلت بين هذه الروايات والرواية الأولى التي عن سلمان وخباب بن الارت فرق كثير وبعد عظيم وهو ان اسلام سلمان كان بالمدينة وكان لسلام المؤلفة قلوبهم بعد الفتح وسورة الانعام مكية والصحيح ما روى عن ابن مسعود والكلبي وعكرمة في ذلك ويعضده حديث سعد بن أبي وقاص المخرج في صحيح مسلم من أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء يعني ضعفاء المسلمين والله أعلم وأما معنى الآية فقوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم يعني ولا تطرد هؤلاء الضعفاء عنك ولا تبعدهم عن مجلسك لأجل ضعفهم وفقرهم ثم وصفهم فقال تعالى الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي قال ابن عباس يعني يعبدون ربهم بالغداة والعشي يعني صلاة الصبح وصلاة العصر ويروى عنه ان المراد منه الصلوات الخمس وانما ذكر هذين الوقتين تنبيها على شرفهما ولانهم والمبون عليهما مع بقية الصلوات ولان الصلاة تشتمل على القراءة والدعاء والذكر فعبر بالدعاء عن الصلاة لهذا المعنى قال مجاهد صليت الصبح مع سعيد ابن المسيب فلما سلم الامام ابتدر الناس القاص فقال سعيد بن المسيب ما أسرع الناس الى هذا المجلس فقال مجاهد يتأولون قوله تعالى يدعون ربهم بالغداة والعشي قال أوفي هذا انما هو في الصلاة التي انصرفنا عنها الآن وقال ابن عباس ان ناسا من الفقراء كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال ناس من أشراف الناس نؤمن لك واذا صلينا فأخر هؤلاء الذين معك فليصلوا خلفنا وقيل المراد منه حقيقة الدعاء والذكر والمعنى أنهم كانوا يذكرون ربهم ويدعونه طرفي النهار يريدون وجهه يعني يطلبون بعبادتهم وطاعتهم وجه الله مخلصين في عبادتهم له وقال ابن عباس يطلبون ثواب الله تعالى (ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء) يعني لا تكلف أمرهم ولا يكلفون أمرك وقيل ما عليك حساب رزقهم فتملهم وتطردهم عنك ولا رزقك عليهم انما الرازق لجميع الخلق هو الله تعالى فلا تطردهم عنك (فتطردهم فتكون من الظالمين) يعني فإن طردتهم عنك وعن مجلسك فقوله فتطردهم جواب النفي وهو قوله ما عليك من حسابهم من شيء وقوله فتكون من الظالمين جواب النهي وهو قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم واحتج الطاعنون في عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا ان النبي صلى الله عليه وسلم لما هم بطرد الفقراء عن مجلسه لأجل الاشراف عاتبه الله على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك يقدح في العصمة وقوله فتطردهم فتكون من الظالمين والجواب عن هذا الاحتجاج ان النبي صلى الله عليه وسلم ما طردهم ولا هم بطردهم لأجل الاستخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وانما كان هذا الهم لمصلحة وهو التلطف بهؤلاء الاشراف في ادخالهم في الاسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى وهو اجتهاد منه فأعلمه الله تعالى أن ادناء هؤلاء الفقراء أولى من الهم بطردهم فقربهم منه وأدناهم وأما قوله فتطردهم فتكون من الظالمين فان الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه فيكون المعنى ان أولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب فلا تهم بطردهم

(ما عليك من حسابهم من شيء) كقوله ان حسابهم الا على ربي (وما من حسابك عليهم من شيء) وذلك أنهم طعنوا في دينهم واخلاصهم فقال حسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم اليك كما ان حسابك عليك لا يتعداك اليهم (فتطردهم) جواب النفي وهو ما عليك من حسابهم (فتكون من الظالمين) جواب النهي وهو ولا تطرد ويجوز أن يكون عطفا على فتطردهم على وجه التسبيب لان كونه ظالما مسبب عن طردهم

عنك فتضع الشيء في غير موضعه فهو من باب ترك الاصل والاولى لا من باب ترك الواجبات والله أعلم ﴿ قوله عز وجل (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) يعني وكذلك ابتلينا الغني بالفقير والفقير بالغني والشريف بالوضيع والوضيع بالشريف فكل أحد مبتلى بضده فكان ابتلاء الاغنياء الشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم الى الاسلام وتقدموا عليهم فامتنعوا من الدخول في الاسلام لذلك فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم وأما فتنة الفقراء بالاغنياء فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم فكان ذلك فتنة لهم (ليقولوا) يعني الاغنياء والشرفاء والرؤساء (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) يعني من على الفقراء والضعفاء بالاسلام ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا اعتراض من الكفار على الله تعالى فاجابهم بقوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) يعني انه تعالى أعلم بخلقه وباحوالهم وأعلم بالشاكرين من الكافرين ﴿ قوله تعالى (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) قال عكرمة نزلت في الذين نهى الله نبيه عن طردهم فكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا رآهم بدأهم بالسلام وقال عطاء نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وسالم بن أبي عبيدة ومصعب بن عمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر والارقم بن أبي الارقم وأبي سلمة بن عبد الاسد وقيل ان الآية على اطلاقها في كل مؤمن وقيل لما جاء عمر بن الخطاب واعتذر من مقالته التي تقدمت في رواية عكرمة وقال ما أردت الا الخير نزلت واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم (كتب ربكم) يعني فرض ربكم وقضى ربكم (على نفسه الرحمة) وهذا يفيد الوجوب وسبب هذا انه تعالى يتصرف في عباده كيف شاء وأراد فاوجب على نفسه الرحمة على سبيل الفضل والكرم لانه أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين (انه من عمل منكم سوأ بجهالة) قال مجاهد كل من عمل ذنبا أو خطيئة فهو جاهل واختلفوا في سبب هذا الجهل فقيل لانه جاهل بمقدار ما استحقه من العقاب وما فاته من الثواب وقيل انه وان علم ان عاقبة ذلك السوء والفعل القبيح مذمومة الا انه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل ومن آثر القليل على الكثير فهو جاهل وقيل انه لما فعل فعل الجهال نسب الى الجهل وان لم يكن جاهلا (ثم تاب من بعده) يعني من بعد ارتكابه ذلك السوء ورجع عنه (وأصلح) يعني أصلح العمل في المستقبل وقيل أخلص توبته وندم على فعله (فانه غفور) يعني لمن تاب من ذنوبه (رحيم) بعباده قال خالد بن دينار كنا اذا دخلنا على أبي العالية قال واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة الآية عن أبي سعيد الخدري قال جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وان بعضهم ليستتر ببعض من العري وقارئ يقرأ علينا اذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام علينا فلما قام علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت القارئ فسلم ثم قال ما كنتم تصنعون قلنا يا رسول الله كان قارئ لنا يقرأ علينا وكنا نستمع الى كتاب الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل بنفسه فينا ثم قال بيده هكذا فتحلقوا وبرزت وجوههم قال فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف منهم أحدا غيري ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة عام أخرجه أبو داود ﴿ وقوله عز وجل (وكذلك نفصل الآيات) يعني وكما فصلنا لك يا محمد في هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد وابطال ما هم عليه من الشرك كذلك نميز ونبين لك أدلة حججنا وبراهينا على تقرير كل حق ينكره أهل الباطل (ولتستبين) قرئ بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني وليظهر لك الحق يا محمد ويتبين لك (سبيل المجرمين) يعني طريق هؤلاء المجرمين وقرئ بالياء على الغيبة

(وكذلك فتنا بعضهم ببعض) ومثل ذلك الفتن العظيم ابتلينا الاغنياء بالفقراء (ليقولوا) اى الاغنياء (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) اى انعم الله عليهم بالايمان ونحن المقدمون والرؤساء وهم الفقراء إنكارا لان يكون أمثالهم على الحق وممنونا عليهم من بينهم بالخير ونحوه لو كان خيرا ما سبقونا اليه (أليس الله بأعلم بالشاكرين) بمن يشكر نعمته (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) اما أن يكون أمرا بتبليغ سلام الله اليهم واما أن يكون أمرا بان يبدأهم بالسلام اكراما لهم وتطييبا لقلوبهم وكذا قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) من جملة ما يقول لهم ليبشرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم ومعناه وعدكم بالرحمة وعدا مؤكدا (انه) الضمير للشأن (من عمل منكم سوأ) ذنبا (بجهالة) في موضع الحال أي عمله وهو جاهل بما يتعلق به من المضرة أو جعل جاهلا لايثاره المعصية على الطاعة (ثم تاب من بعده) من بعد السوء أو العمل (وأصلح) وأخلص توبته (فانه غفور رحيم) أنه فانه شامي وعاصم الاول بدل الرحمة والثاني خبر مبتدأ محذوف أي فشأنه أنه غفور رحيم أنه فانه مدني الاول بدل الرحمة والثاني مبتدأ أسقاه غيرهم على الاستئناف كأن الرحمة استفسرت فقيل انه من عمل منكم (وكذلك نفصل الآيات) ومعناه ... ولتستبين) بالياء حمزة وعلي وأبو بكر (سبيل المجرمين) بالنصب مدني غيره بالرفع فرفع السبيل مع التاء والياء لانها تذكر وتؤنث ونصب

السبيل مع التاء على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم يقال استبان الامر وتبين واستبنته وتبينته والمعنى ومثل ذلك التفصيل البين
آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين من هو مطبوع على قلبه ومن يرجى اسلامه ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب أن
يعامل به فصلنا ذلك التفصيل (قل اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) أي صرفت (٣١) وزجرت بادلة العقل والسمع
عن عبادة ما تعبدون من دون الله (قل لا أتبع أهواءكم) أي لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال (قد ضللت اذا) أي ان اتبعت أهواءكم فانا ضال (وما أنا من المهتدين) وما أنا من المهتدين في شيء يعني انكم كذلك ولما نفى أن يكون الهوى متبعا نبه على ما يجب اتباعه بقوله (قل اني على بينة من ربي) أي اني من معرفة ربي وانه لا معبود سواه على حجة واضحة (وكذبتم به) حيث أشركتم به غيره وقيل على بينة من ربي على حجة من جهة ربي وهو القرآن وكذبتم به بالبينة وذكر الضمير على تأويل البرهان أو البيان أو القرآن ثم عقبه بما دل على انهم أحقاء بان يعاقبوا بالعذاب فقال (ما عندي ما تستعجلون به) يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم فامطر علينا حجارة من السماء (ان الحكم الا لله) في تأخير
عذابكم (يقص الحق) حجازي وعاصم أي يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره من قص أثره الباقون يقض الحق في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل والحق أي القضاء الحق صفة لمصدر يقضي وقوله (وهو خير الفاصلين) أي القاضين بالقضاء الحق اذ الفصل هو القضاء وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين (قل لو أن عندي) أي في قدرتي وامكاني (ما تستعجلون به) من العذاب (لقضي الامر بيني وبينكم) لاهلكتكم عاجلا غضبا لربي (والله أعلم بالظالمين) فهو ينزل عليكم العذاب في وقت يعلم أنه أردع (وعنده مفاتح الغيب

ومعناه وليظهر ويتضح سبيل المجرمين يوم القيامة اذا صاروا الى النار ﴿ قوله تعالى (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين (اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) يعني نهيت أن أعبد الاصنام التي تعبدونها أنتم من دون الله وقيل تدعونها عند شدائدكم من دون الله لان الجمادات أخس من أن تعبد أو تدعى وانما كانوا يعبدونها على سبيل الهوى وهو قوله تعالى (قل لا أتبع أهواءكم) يعني في عبادة الاصنام وطرد الفقراء (قد ضللت اذا) يعني اذ عبدتها (وما أنا من المهتدين) يعني لو عبدتها (قل) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين (اني على بينة من ربي) قال ابن عباس يعني على يقين من ربي وقيل البينة الدلالة التي تفصل بين الحق والباطل والمعنى اني على بيان وبصيرة في عبادة ربي (وكذبتم به) يعني وكذبتم بالبيان الذي جئت به من عند ربي وهو القرآن والمعجزات الباهرات والبراهين الواضحات التي تدل على صحة التوحيد وفساد الشرك (ما عندي ما تستعجلون به) يعني العذاب وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم وكانوا يستعجلون به استهزاء وكانوا يقولون يا محمد ائتنا بما تعدنا يعني من نزول العذاب فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ما عندي ما تستعجلون به لان انزال العذاب لا يقدر عليه الا الله تعالى ولا يقدر أحد على تقديمه ولا تأخيره وقيل كانوا يستعجلون بالآيات التي طلبوها واقترحوها فاعلم الله ان ذلك عنده ليس عند أحد من خلقه وقيل كانوا يستعجلون بقيام الساعة ومنه قوله تعالى يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها (ان الحكم الا لله) يعني الحكم الذي يفصل به بين الحق والباطل والثواب للطائع والعقاب للعاصي أي ما الحكم المطلق الا لله ليس معه حكم فهو يفصل بين المختلفين ويقضي بانزال العذاب اذا شاء (يقص الحق) قرئ بالصاد المهملة ومعناه يقول الحق لان كل ما أخبر به فهو حق وقرئ يقض بالضاد المعجمة من القضاء يعني انه تعالى يقضي القضاء الحق (وهو خير الفاصلين) يعني وهو خير من بين وفصل وميز بين الحق والمبطل لانه لا يقع في حكمه وقضائه جور ولا حيف على أحد من خلقه (قل لو أن عندي ما تستعجلون به) يعني من انزال العذاب والاستعجال المطالبة بالشيء قبل وقته فلذلك كانت العجلة مذمومة والاسراع تقديم الشيء في وقته فلذلك كانت السرعة محمودة والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب لو أن عندي ما تستعجلون به لم أمهلكم ساعة ولكن الله حليم ذو أناة لا يعجل بالعقوبة وقوله تعالى (لقضي الامر بيني وبينكم) يعني لانفصل ما بيني وبينكم ولأتاكم ما تستعجلون به من العذاب (والله أعلم بالظالمين) يعني الله أعلم بما يستحقون من العذاب والوقت الذي يستحقونه فيه وقيل علم أنه سيؤمن بعض من كان يستعجل بالعذاب فلذلك أخر عنهم وقال والله أعلم بالظالمين وبأحوالهم ﴿ قوله عز وجل (وعنده مفاتح الغيب) المفتاح الذي يفتح به المغلاق جمعه مفاتيح ويقال فيه مفتح بكسر الميم وجمعه مفاتح والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الاشياء فهي مفتح وجمعه مفاتح فقوله وعنده مفاتح الغيب يحتمل أن يكون المراد منه المفاتيح التي يفتح بها ويحتمل أن يكون المراد منه الخزائن فعلى التفسير الاول فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لان المفاتيح هي التي يتوصل بها الى ما في الخزائن المستوثق منها بالاغلاق فمن علم كيف يفتح بها ويتوصل الى ما فيها فهو عالم وكذلك ههنا لان الله تعالى لما كان عالما بجميع المعلومات ما غاب منها وما لم يغب عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة وعلى التفسير الثاني يكون المعنى وعنده

خزائن الغيب والمراد منه القدرة الكاملة على كل الممكنات ثم اختلفت أقوال المفسرين في قوله وعنده مفاتح الغيب (لا يعلمها الا هو) فقيل مفاتح الغيب خمس وهي ما روي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتح الغيب خمس لا يعلمها الا الله تعالى لا يعلم أحد ما يكون في غد الا الله ولا يعلم أحد ما يكون في الارحام الا الله ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا ولا تدري نفس بأي أرض تموت ولا يدري أحد متى يجيء المطر وفي رواية أخرى لا يعلم أحد ما تغيض الارحام الا الله ولا يعلم ما في غد الا الله ولا يعلم متى يأتي المطر أحد الا الله ولا تدري نفس بأي أرض تموت الا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة الا الله أخرجه البخاري وقال الضحاك ومقاتل مفاتح الغيب خزائن الارض وعلم نزول العذاب وقال عطاء هو ما غاب عنكم من الثواب والعقاب وقيل هو انقضاء الآجال وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم وقيل هو علم ما لم يكن بعد أن يكون اذ يكون كيف يكون وما لا يكون ان لو كان كيف يكون وقال ابن مسعود أوتي نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شيء الا مفاتح الغيب وقال ابن عباس انها خزائن غيب السموات والارض من الاقدار والارزاق (ويعلم ما في البر والبحر) قال مجاهد البر المفاوز والقفار والبحر القرى والامصار لا يحدث فيها شيء الا وهو يعلمه وقال جمهور المفسرين هو البر والبحر المعروفان لان جميع الارض اما بر واما بحر وفي كل واحد من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه (وما تسقط من ورقة الا يعلمها) يريد ساقطة وثابتة والمعنى انه يعلم عدد ما يسقط من الورق وما بقي على الشجر من ذلك ويعلم [illegible] البطن الى أن تسقط على الارض (ولا حبة في ظلمات الارض) قيل هو الحب المعروف يكون في بطن الارض قبل أن ينبت وقيل هي الحبة التي في الصخرة التي في أسفل الارضين (ولا رطب ولا يابس) قال ابن عباس الرطب الماء واليابس البادية وقال عطاء يريد ما ينبت وما لا ينبت وقيل المراد بالرطب الحي واليابس الميت وقيل هو عبارة عن كل شيء لان جميع الاشياء اما رطبة واما يابسة فان قلت ان جميع هذه الاشياء داخلة تحت قوله وعنده مفاتح الغيب فلم أفرد هذه الاشياء بالذكر وما فائدة ذلك قلت لما قال الله تعالى وعنده مفاتح الغيب على سبيل الاجمال ذكر من بعد ذلك الاجمال ما يدل على التفصيل فذكر هذه [illegible] ليدل بها على غيرها فقدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيهما من المعادن والحيوان وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن ادراكها ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لان الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها الا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة ثم ذكر بعد ذلك مثالا يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الاشياء وانه لا يخرج شيء منها عن علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الامثال منبهة على عظمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير * وفي قوله تعالى (الا في كتاب مبين) قولان أحدهما أن الكتاب المبين هو علم الله الذي لا يغير ولا يبدل والثاني أن المراد بالكتاب المبين هو اللوح المحفوظ لان الله كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السموات والارض وفائدة احصاء الاشياء كلها في هذا الكتاب لتقف الملائكة على انفاذ علمه وفيه تنبيه بذلك على تعظيم الحساب وأعلم عباده أنه لا يفوته شيء مما يصنعون لانه من أثبت ما لا ثواب فيه ولا عقاب في كتاب فهو الى اثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع * قوله تعالى (وهو الذي يتوفاكم بالليل) يعني يقبض أرواحكم اذا نمتم بالليل (ويعلم ما جرحتم) ما كسبتم (بالنهار ثم يبعثكم فيه) أي يوقظكم فيه أي في النهار (ليقضى أجل مسمى) يعني أجلا الى الممات يريد استيفاء العمر على التمام (ثم اليه مرجعكم) في الآخرة (ثم ينبئكم) أي يخبركم (بما

(لا يعلمها الا هو) المفاتح جمع مفتح وهو المفتاح وهي خزائن العذاب والرزق أو ما غاب عن العباد من الثواب والعقاب والآجال والأحوال جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة لان المفاتح يتوصل بها الى ما في الخزائن المستوثق منها بالاغلاق والاقفال ومن علم مفاتحها وكيفية فتحها توصل اليها فأراد أنه هو المتوصل الى المغيبات وحده لا يتوصل اليها غيره كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها فهو المتوصل الى ما في المخازن قيل عنده مفاتح الغيب وعندك مفاتح العيب فمن آمن بغيبه أسبل الله الستر على عيبه (ويعلم ما في البر) من النبات والدواب (والبحر) من الحيوان والجواهر وغيرهما (وما تسقط من ورقة الا يعلمها) ما نفي ومن للاستغراق أي يعلم عددها وأحوالها قبل السقوط وبعده (ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس) عطف على ورقة وداخل في حكمها وقوله (الا في كتاب مبين) كالتكرير لقوله الا يعلمها لان معنى الا يعلمها ومعنى الا في كتاب مبين واحد وهو علم الله أو اللوح ثم خاطب الكفرة بقوله (وهو الذي يتوفاكم بالليل) أي يقبض أنفسكم عن التصرف بالتمام في المنام (ويعلم ما جرحتم بالنهار) كسبتم فيه من الآثام (ثم يبعثكم فيه) ثم يوقظكم في النهار أو التقدير ثم يبعثكم في النهار ويعلم ما جرحتم فيه فقدم الكسب لانه أهم وليس فيه أنه لا يعلم ما جرحنا بالليل ولا أنه لا يتوفانا بالنهار فدل أن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه (ليقضى أجل مسمى) ليوفي الآجال على الاستكمال (ثم اليه مرجعكم) رجوعكم بالبعث بعد الموت (ثم ينبئكم بما

تعملون

تعملون) ۞ قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) يعني وهو العالي عليهم بقدرته لأن كل من قهر شيئاً وعليه
فهو مستعل عليه بالقهر والقدرة فهو كما يقال أمر فلان فوق أمر فلان يعني أقدر منه وأغلب هذا مذهب
أهل التأويل في معنى لفظة فوق في قوله وهو القاهر فوق عباده وأما مذهب السلف فيها فإمرارها كما جاءت
من غير تكييف ولا تأويل ولا إطلاق على جهة والقاهر هو الغالب لغيره المذلل له والله تعالى هو القاهر
لخلقه وقهر كل شيء بضده فقهر الحياة بالموت والإيجاد بالإعدام والغنى بالفقر والنور بالظلمة ۞ وقوله تعالى
(ويرسل عليكم حفظة) يعني أن من جملة قهره لعباده إرسال الحفظة عليهم والمراد بالحفظة الملائكة الذين
يحفظون أعمال بني آدم من الخير والشر والطاعة والمعصية وغير ذلك من الأقوال والأفعال قيل إن مع كل
إنسان ملكين ملكاً عن يمينه وملكاً عن شماله فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين وإذا عمل سيئة قال
صاحب اليمين لصاحب الشمال اصبر عليه لعله يتوب منها فإن لم يتب منها كتبها عليه صاحب الشمال وفائدة
جعل الملائكة موكلين بالإنسان أنه إذا علم أن له حافظاً من الملائكة موكلاً به يحفظ عليه أقواله وأفعاله في
صحائف تنشر له وتقرأ عليه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد كان ذلك زاجراً له عن فعل القبيح وترك المعاصي
وقيل المراد بقوله ويرسل عليكم حفظة هم الملائكة الذين يحفظون بني آدم ويحفظون أجسادهم قال قتادة
حفظة يحفظون على ابن آدم رزقه وأجله وعمله (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) يعني أعوان ملك
الموت الموكلين بقبض أرواح البشر فإن قلت قال الله تعالى في آية الله يتوفى الأنفس حين موتها وقال في آية
أخرى قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم وقال هنا توفته رسلنا فكيف الجمع بين هذه الآيات قلت وجه الجمع
بين هذه الآيات أن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى فإذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه
ولملك الموت أعوان من الملائكة يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده فإذا وصلت إلى الحلقوم تولى
قبضها ملك الموت نفسه فحصل الجمع بين الآيات وقيل المراد من قوله توفته رسلنا ملك الموت وحده وإنما ذكر
بلفظ الجمع تعظيماً له وقال مجاهد جعلت الأرض لملك الموت مثل الطشت يتناول من حيث شاء وجعلت له
أعوان ينزعون الأنفس ثم يقبضها منهم وقال أيضاً ما من أهل بيت شعر ولا مدر إلا وملك الموت يطيف بهم كل
يوم مرتين وقيل إن الأرواح إذا كثرت عليه يدعوها فتستجيب له ۞ وقوله (وهم لا يفرطون) يعني الرسل
لا يقصرون فيما أمروا به ولا يضيعونه ۞ قوله عز وجل (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) يعني ثم رد العباد بالموت
إلى الله في الآخرة وإنما قال مولاهم الحق لأنهم كانوا في الدنيا تحت أيدي موال باطل والله مولاهم وسيدهم
ومالكهم بالحق (ألا له الحكم) يعني لا حكم إلا له (وهو أسرع الحاسبين) يعني أنه تعالى أسرع من حسب لأنه
لا يحتاج إلى فكر وروية وعقد يد فيحاسب خلقه بنفسه لا يشغله حساب بعضهم عن بعض ۞ قوله تعالى (قل
من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) يعني يا محمد قل لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام من دون الله من ذا
الذي ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه وتحيرتم وأظلمت عليكم الطرق ومن ذا الذي ينجيكم من ظلمات
البحر إذا ركبتم فيه فأخطأتم الطريق وأظلمت عليكم السبل فلم تهتدوا وقيل ظلمات البر والبحر مجاز عما
فيهما من الشدائد والأهوال وقيل الحمل على الحقيقة أولى فظلمات البر هي ما اجتمع فيه من ظلمة الليل
وظلمة السحاب وظلمة الرياح فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب
وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة
فيحصل من ذلك أيضاً الخوف الشديد من الوقوع في الهلاك فالمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة
للخوف الشديد لا يرجع الإنسان فيها إلا إلى الله سبحانه وتعالى لأنه هو القادر على كشف الكروب وإزالة

تعملون) في ليلكم ونهاركم قال بعض أهل الكلام إن لكل حاسة من هذه الحواس روحاً تقبض عند النوم ثم ترد إليها إذا ذهب النوم فأما
الروح التي تحيا بها النفس فإنه لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل والمراد بالأرواح المعاني والقوى التي تقوم
بالحواس ويكون بها
السمع والبصر والأخذ
والمشي والشم ومعنى ثم
يبعثكم فيه أي يوقظكم
ويرد إليكم أرواح الحواس
فيستدل به على منكري
البعث لأنه بالنوم يذهب
أرواح هذه الحواس ثم
يردها إليها فكذا يحيي
الأنفس بعد موتها (وهو
القاهر فوق عباده ويرسل
عليكم حفظة) ملائكة
حافظين لأعمالكم وهم
الكرام الكاتبون ليكون
ذلك أزجر للعباد عن
ارتكاب الفساد إذا
تفكروا أن صحائفهم تقرأ
على رؤوس الأشهاد (حتى
إذا جاء أحدكم الموت)
حتى غاية لحفظ الأعمال
أي وذلك دأب الملائكة
مع المكلف مدة الحياة إلى
أن يأتيه الممات (توفته
رسلنا) أي استوفت
روحه وهم ملك الموت
وأعوانه توفيه واستوفيه
بالإمالة حمزة رسلنا أبو
عمرو (وهم لا يفرطون)
لا يتوانون ولا يؤخرون
(ثم ردوا إلى الله) إلى حكمه
وجزائه أي رد المتوفون
برد الملائكة (مولاهم)
مالكهم الذي يلي عليهم
أمورهم (الحق) العدل
الذي لا يحكم إلا بالحق وهما صفتان لله (ألا له الحكم) يومئذ لا حكم فيه لغيره (وهو أسرع الحاسبين) لا يشغله حساب عن حساب يحاسب جميع
الخلق في مقدار حلب شاة وقيل الرد إلى من رباك خير من البقاء مع من آذاك (قل من ينجيكم) ينجيكم عباس (من ظلمات البر والبحر)

الشدائد وهو المراد من قوله (تدعونه تضرعا وخفية) يعني فاذا اشتد بكم الامر تخلصون له الدعاء تضرعا أي استكانة جهرا وخفية يعني سرا حالا وحالا (لئن أنجيتنا من هذه) يعني قائلين في حال الدعاء والتضرع لئن أنجيتنا من هذه الظلمات وخلصتنا من الهلاك (لنكونن من الشاكرين) يعني لك على هذه النعمة والشكر هو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها (قل الله ينجيكم منها) يعني من الظلمات والشدائد التي أنتم فيها (ومن كل كرب) يعني وهو الذي ينجيكم من كل كرب أيضا والكرب هو الغم الشديد الذي يأخذ بالنفس (ثم أنتم تشركون) يريد أنهم يقرون بأن الذي أنجاهم من هذه الشدائد هو الله تعالى ثم انهم بعد ذلك الاقرار يشركون معه الاصنام التي لا تضر ولا تنفع ۞ قوله عز وجل (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) أي قل يا محمد لقومك ان الله هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم يعني الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط (أو من تحت أرجلكم) يعني الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون وقال ابن عباس ومجاهد عذابا من فوقكم يعني أئمة السوء والسلاطين الظلمة أو من تحت أرجلكم يعني عبيد السوء وقال الضحاك من فوقكم يعني من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم يعني السفلة (أو يلبسكم شيعا) الشيع جمع شيعة وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة وأشياع وأصله من التشيع ومعنى الشيعة الذين يتبع بعضهم بعضا وقيل الشيعة هم الذين يتقوى بهم الانسان قال الزجاج في قوله أو يلبسكم شيعا يعني يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق فيجعلكم فرقا مختلفين يقاتل بعضكم بعضا وهو معنى قوله (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال ابن عباس قوله أو يلبسكم شيعا يعني الاهواء المختلفة ويذيق بعضكم بأس بعض يعني أنه يقتل بعضكم بيد بعض وقال مجاهد يعني أهواء متفرقة وهو ما كان فيهم من الفتن والاختلاف وقال ابن زيد هو الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف والاهواء وسفك بعضهم دماء بعض ثم اختلف المفسرون فيمن عني بهذه الآية فقال قوم عني بها المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم نزلت هذه الآية قال أبو العالية في قوله قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم الآية قال هن أربع وكلهن عذاب فجاءت اثنتان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة فالبسوا شيعا وأذيق بعضهم بأس بعض وبقيت اثنتان وهما لا بد واقعتان يعني الخسف والمسخ وعن أبي ابن كعب نحوه هن أربع خلال وكلهن واقع قبل يوم القيامة مضت اثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ألبسوا شيعا وأذيق بعضهم بأس بعض وثنتان واقعتان لا محالة الخسف والرجم وقال مجاهد في قوله من فوقكم أو من تحت أرجلكم لأمة محمد فعفا عنهم شيئا أو يلبسكم شيعا ما كان بينهم من الفتن والاختلاف زاد غيره ويذيق بعضكم بأس بعض يعني ما كان فيهم من القتل بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم (خ) عن جابر قال لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض قال هذا أهون أو هذا أيسر (م) عن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية حتى اذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ثم انصرف الينا فقال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها عن ابن الارت قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة فأطالها فقالوا يا رسول الله صليت صلاة لم تكن تصليها قال أجل انها صلاة رغبة ورهبة اني سألت الله فيها ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا يهلك أمتي بسنة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض

مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما أو ظلمات البر الصواعق والبحر الأمواج وكلاهما في الغيم والليل (تدعونه) حال من ضمير المفعول في ينجيكم (تضرعا) معلنين الضراعة وهو مصدر في موضع الحال وكذا (وخفية) أي مسرين في أنفسهم خيفة حيث كان أبو بكر وهما لغتان (لئن أنجانا) عاصم وبالامالة حمزة وعلى الباقون أنجيتنا والمعنى يقولون لئن خلصتنا (من هذه) الظلمات (لنكونن من الشاكرين) لله تعالى (قل الله ينجيكم) بالتشديد كوفي (منها) من الظلمات (ومن كل كرب) وغم وحزن (ثم أنتم تشركون) ولا تشكرون (قل هو القادر) هو الذي عرفتموه قادرا أو هو الكامل القدرة فاللام يحتمل العهد والجنس (على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة (أو من تحت أرجلكم) كما أغرق فرعون وخسف بقارون أو من قبل سلاطينكم وسفلتكم أو هو حبس المطر والنبات أو يلبسكم شيعا أو يخلطكم فرقا مختلفين على أهواء شتى كل فرقة منكم مشايعة لامام ومعنى خلطهم أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال (ويذيق بعضكم بأس بعض) يقتل بعضكم بعضا والبأس السيف وعنه عليه الصلاة والسلام سألت الله تعالى أن لا يبعث على أمتي عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني وأخبرني

حسن صحيح أخرجه الترمذي ﴿ وقوله تعالى (انظر كيف نصرف الآيات) أي انظر يا محمد كيف نبين دلائلنا وحججنا لهؤلاء المكذبين (لعلهم يفقهون) يعني يفهمون ويعتبرون فينزجروا ويرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ﴿ قوله تعالى (وكذب به قومك) يعني بالقرآن (وهو الحق) يعني في كونه كتابا منزلا من عند الله وقيل الضمير في به يرجع الى العذاب وهو الحق يعني انه نازل بهم ان أقاموا على كفرهم وتكذيبهم وقيل الضمير يرجع الى تصريف الآيات وهو الحق لانهم كذبوا كونها من عند الله (قل لست عليكم بوكيل) أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم واعراضكم عن قبول الحق بل انما أنا منذر والله هو المجازي لكم على أعمالكم وقيل معناه اني انما أدعوكم الى الله والى الايمان به ولم أومر بحربكم فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية السيف وقيل في معنى الآية قل لست عليكم بوكيل يعني انما أطالبكم بالظاهر من الاقرار والعمل لا بما تحويه الضمائر والاسرار فعلى هذا تكون الآية محكمة (لكل نبأ مستقر) أي لكل خبر من أخبار القرآن حقيقة ومنتهى ينتهي اليه اما في الدنيا واما في الآخرة وقيل لكل خبر يخبر الله به وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير فكان ما وعدهم به من العذاب في الدنيا وقع يوم بدر (وسوف تعلمون) يعني صحة هذا الخبر اما في الدنيا واما في الآخرة ﴿ قوله تعالى (واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) الخطاب في واذا رأيت للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى واذا رأيت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يخوضون في آياتنا يعني القرآن الذي أنزلناه اليك والخوض في اللغة هو الشروع في الماء والعبور فيه ويستعار للاخذ في الحديث والشروع فيه يقال تخاوضوا في الحديث وتفاوضوا فيه لكن أكثر ما يستعمل الخوض في الحديث على وجه اللعب والعبث وما يذم عليه ومنه قوله وكنا نخوض مع الخائضين وقيل الخطاب في واذا رأيت لكل فرد من الناس والمعنى واذا رأيت أيها الانسان الذين يخوضون في آياتنا وذلك أن المشركين كانوا اذا جالسوا المؤمنين وقعوا في الاستهزاء بالقرآن وبمن أنزله وبمن أنزل عليه فنهاهم الله أن يقعدوا معهم في وقت الاستهزاء بقوله (فأعرض عنهم) يعني فاتركهم ولا تجالسهم (حتى يخوضوا في حديث غيره) يعني حتى يكون خوضهم في غير القرآن والاستهزاء به (واما ينسينك الشيطان) يعني القعود معهم (فلا تقعد بعد الذكرى) يعني اذا ذكرت فقم عنهم ولا تقعد (مع القوم الظالمين) يعني المشركين ﴿ قوله تعالى (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) قال ابن عباس لما نزلت هذه الآية واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم قال المسلمون كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدا وفي رواية قال المسلمون انا نخاف الاثم حين نتركهم ولا ننهاهم فأنزل الله هذه الآية وما على الذين يتقون يعني يتقون الشرك والاستهزاء من حسابهم من حساب المشركين من شيء يعني ليس عليهم شيء من حسابهم ولا آثامهم (ولكن ذكرى) يعني ولكن ذكروهم ذكرى وقيل معناه ولكن عليكم أن تذكروهم (لعلهم يتقون) يعني لعل تلك الذكرى تمنعهم من الخوض والاستهزاء

﴿فصل﴾ قال سعيد بن المسيب وابن جريج ومقاتل هذه الآية منسوخة بالآية التي في سورة النساء وهي قوله تعالى وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها وذهب الجمهور الى أنها محكمة لا نسخ فيها لانها خبر والخبر لا يدخله النسخ لانها انما دلت على ان كل انسان انما يختص بحساب نفسه لا بحساب غيره وقيل انما أباح لهم القعود معهم بشرط التذكير والموعظة فلا تكون منسوخة ﴿ قوله عز وجل (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني وذر يا محمد هؤلاء

نعم بل ان فنائي بالسيف (انظر كيف نصرف الآيات) بالوعد والوعيد (لعلهم يفقهون وكذب به) بالقرآن أو بالعذاب (قومك) قريش (وهو الحق) أي الصدق أو لابد أن ينزل بهم (قل لست عليكم بوكيل) بحفيظ وكل الي أمركم انما أنا منذر (لكل نبأ) لكل شيء ينبأ به يعني انباءهم بأنهم به يعذبون وايعادهم به (مستقر) وقت استقرار وحصول لا بد منه (وسوف تعلمون) تهديد (واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) أي القرآن يعني يخوضون في الاستهزاء بها والطعن فيها وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك (فأعرض عنهم) ولا تجالسهم وقم عنهم (حتى يخوضوا في حديث غيره) غير القرآن مما يحل فحينئذ يجوز أن تجالسهم (واما ينسينك الشيطان) ما نهيت عنه ينسينك شامي نسى وأنسى واحد (فلا تقعد بعد الذكرى) بعد أن تذكر (مع القوم الظالمين وما على الذين يتقون من حسابهم) من حساب هؤلاء الذين يخوضون في القرآن تكذيبا واستهزاء (من شيء) أي وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم (ولكن) عليهم أن يذكروهم (ذكرى) اذا سمعوهم يخوضون بالقيام عنهم واظهار الكراهة لهم وموعظتهم ومحل ذكرى نصب أي ولكن يذكرونهم ذكرى أي تذكيرا أو رفع والتقدير ولكن عليهم ذكرى فذكرى مبتدأ والخبر محذوف (لعلهم يتقون) لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم (وذر الذين اتخذوا دينهم) الذي كلفوه ودعوا اليه وهو دين الاسلام (لعبا ولهوا) سخروا به واستهزؤا ومعنى ذرهم أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم

واستهزائهم واللهو ما يشغل الانسان من هوى أو طرب (وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به) وعظ بالقرآن (أن تبسل نفس بما كسبت) مخافة أن تسلم الى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها وأصل الابسال المنع (ليس لها من دون الله ولي) ينصرها بالقوة (ولا شفيع) يدفع عنها بالمسئلة ولا وقف على كسبت في الصحيح لان قوله ليس لها صفة لنفس والمعنى وذكر بالقرآن كراهة أن تبسل نفس عادمة وليا وشفيعا بكسبها (وان تعدل كل عدل) (٢٦) تصب على المصدر وان تفد كل فداء والعدل الفدية لان الفادي

المشركين الذين اتخذوا دينهم الذي أمروا به ودعوا اليه وهو دين الاسلام لعبا ولهوا وذلك حيث سخروا به واستهزؤا به وقيل انهم اتخذوا عبادة الاصنام لعبا ولهوا وقيل ان الكفار كانوا اذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه وقيل ان الله جعل لكل قوم عيدا فاتخذ كل قوم دينهم يعني عيدهم لعبا ولهوا يلعبون ويلهون فيه الا المسلمين فانهم اتخذوا عيدهم صلاة وتكبيرا وفعل الخير فيه مثل عيد الفطر وعيد النحر ويوم الجمعة (وغرتهم الحياة الدنيا) يعني انهم اتخذوا دينهم لعبا ولهوا لاجل انهم غرتهم الحياة الدنيا وغلب حبها على قلوبهم فاعرضوا عن دين الحق واتخذوا دينهم لعبا ولهوا ومعنى الآية وذر يا محمد الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا واتركهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم وهذا يقتضي الاعراض عنهم ثم نسخ ذلك الاعراض بآية السيف وهو قول قتادة والسدي وقيل انه خرج مخرج التهديد فهو كقوله ذرني ومن خلقت وحيدا وهذا قول مجاهد فعلى هذا تكون الآية محكمة وقيل المراد الاعراض عنهم ترك معاشرتهم ومخالطتهم لا ترك الانذار والتخويف ويدل عليه قوله (وذكر به) يعني وذكر بالقرآن وعظ به هؤلاء المشركين (أن تبسل نفس بما كسبت) أي لئلا تبسل نفس وأصل البسل في اللغة التحريم وضم الشيء ومنعه وهذا عليك بسل أي حرام ممنوع فمعنى تبسل نفس بما كسبت ترتهن وتحبس في جهنم وتحرم من الثواب بسبب ما كسبت من الآثام وقال ابن عباس تبسل تهلك وقال قتادة تحبس يعني في جهنم وقال الضحاك تحرق بالنار وقال ابن زيد تؤخذ يعني بما كسبت وقيل تفضح والمعنى وذكرهم بالقرآن ومواعظه وعرفهم الشرائع لكي لا تبسل نفس وترتهن في جهنم بسبب الجنايات التي اكتسبت في الدنيا وتحرم الثواب في الآخرة (ليس لها) يعني لتلك النفس التي هلكت (من دون الله ولي) أي قريب يلي أمرها (ولا شفيع) يعني يشفع لها في الآخرة (وان تعدل كل عدل) يعني وان تفد كل فداء والعدل الفداء (لا يؤخذ منها) يعني ذلك العدل وذلك الفدية (أولئك الذين) اشارة الى الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا (أبسلوا بما كسبوا) يعني أسلموا الى الهلاك بسبب ما كسبوا (لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) ذلك لهم بسبب كفرهم ﴿قوله تعالى (قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين دعوك الى دين آبائك أندعو يعني أنعبد من دون الله يعني الاصنام التي لا تنفع من عبدها ولا تضر من ترك عبادتها (ونرد على أعقابنا) يعني ونرد الى الشرك (بعد اذ هدانا الله) يعني الى دين الاسلام والتوحيد (كالذي استهوته الشياطين في الارض) يعني كالذي ذهبت به الشياطين فالقته في هوية من الارض وأصله من الهوى وهو النزول من أعلى الى أسفل (حيران) يقال حار فلان في الامر اذا تردد فيه فلم يهتد الى الصواب ولا المخرج منه (له أصحاب يدعونه الى الهدى) يعني لهذا المتحير الذي استهوته الشياطين أصحاب على الطريق المستقيم (ائتنا) يعني يقولون له ائتنا وهذا مثل ضربه الله لمن يدعو الى عبادة الاصنام التي لا تضر ولا تنفع ولمن يدعو الى عبادة الله عز وجل الذي يضر وينفع يقول مثلهما كمثل رجل في رفقة ضل به الغول والشيطان عن الطريق المستقيم فجعل أصحابه ورفقته يدعونه اليهم ويقولون هلم الى الطريق المستقيم

يعدل المفدى بمثله وكل نصب (لا يؤخذ منها) لا ضمير العدل لان العدل هنا مصدر ولا يسند اليه الاخذ وأما في قوله ولا يؤخذ منها عدل فبمعنى المفدى به فصح اسناده اليه (أولئك) اشارة الى المتخذين دينهم لعبا ولهوا وهو مبتدأ والخبر (الذين أبسلوا بما كسبوا) وقوله (لهم شراب من حميم) أي ماء مسخن بنار جهنم لأولئك والتقدير أولئك المبسلون ثابت لهم شراب من حميم أو صفة (وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) بكفرهم (قل) لابي بكر يقل لابنه عبد الرحمن وكان يدعو أباه الى عبادة الاوثان (أندعوا) أنعبد (من دون الله) الضار النافع (ما لا ينفعنا) ما لا يقدر على نفعنا ان دعوناه (ولا يضرنا) ان تركناه (ونرد) وأرد (على أعقابنا) راجعين الى الشرك (بعد اذ هدانا الله) للاسلام وأنقذنا من عبادة الاصنام (كالذي استهوته الشياطين) كالذي ذهبت به الغيلان ومردة الجن والكاف في محل النصب على الحال من الضمير في نرد على أعقابنا أي أننكص مشبهين من استهوته الشياطين وهو استفعال من هوى في الارض اذا ذهب فيها كأن معناه طلبت هويه (في الارض) في المهمه (حيران) حال من مفعول استهوته أي تائها ضالا عن الجادة لا يدري كيف يصنع (له) للمستهوي (أصحاب) رفقة (يدعونه الى الهدى) الى أن يهدوه الطريق سمي الطريق المستقيم بالهدى يقولون له (ائتنا) وقد اعتسف المهمه تابعا للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم وهذا مبني على ما يقال ان الجن تستهوي الانسان والغيلان تستولي عليه فشبه به

وجعل

وتبعوا الغيلان يدعونه اليهم فبقي حيران لا يدري أين يذهب فان أجاب الغيلان ضل وهلك وان أجاب أصحابه اهتدى وسلم (قل ان هدى الله هو الهدى) يعني ان طريق الله الذي أوضحه لعباده ودينه الذي شرعه لهم هو الهدى والنور والاستقامة لا عبادة الاصنام ففيه زجر عن عبادتها كأنه يقول لا تفعل ذلك فان هدى الله هو الهدى لا هدى غيره (وأمرنا لنسلم) أي وأمرنا أن نسلم ونخلص العبادة (لرب العالمين) لانه هو الذي يستحق العبادة لا غيره (وان أقيموا الصلاة واتقوه) يعني وأمرنا باقامة الصلاة والتقوى لان فيهما ما يقرب اليه (وهو الذي اليه تحشرون) يعني في يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم ۞ قوله عز وجل (وهو الذي خلق السموات والارض بالحق) يعني اظهارا للحق وعلى هذا تكون الباء بمعنى اللام لانه جعل صنعه دليلا على وحدانيته وقيل خلقها بكمال قدرته وشمول علمه واتقان صنعه وكل ذلك حق وقيل خلقها بكلامه الحق وهو قوله كن وفيه دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق لانه لا يخلق مخلوق بمخلوق (ويوم يقول كن فيكون) وقيل انه راجع الى خلق السموات والارض والمعنى اذكر يوم قال للسموات والارض كن فيكون وقيل يرجع الى القيامة ويدل عليه سرعة البعث والحساب كأنه قال ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون وقوموا للحساب فيقومون أحياء (قوله الحق) يعني أن قول الله تبارك وتعالى للشئ اذا أراده كن فيكون حق وصدق وهو كائن لا محالة (وله الملك يوم ينفخ في الصور) انما أخبر عن ملكه يومئذ وان كان الملك له سبحانه وتعالى خالصا في كل وقت في الدنيا والآخرة لانه لا منازع له يومئذ يدعي الملك وانه المنفرد بالملك يومئذ وان من كان يدعي الملك بالباطل من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا في الدنيا قد زال ملكهم واعترفوا بان الملك لله الواحد القهار وانه لا منازع له فيه وعلموا أن الذي كانوا يدعونه من الملك في الدنيا باطل وغرور واختلف العلماء في الصور المذكور في الآية فقال قوم هو قرن ينفخ فيه وهو لغة أهل اليمن قال مجاهد الصور قرن كهيئة البوق ويدل على صحة هذا القول ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما الصور فقال قرن ينفخ فيه أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ فكان ذلك ثقل على أصحابه فقالوا كيف نفعل يا رسول الله وكيف نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا وربما قال توكلنا على الله أخرجه الترمذي وقال أبو عبيدة الصور جمع صورة والنفخ فيها احياؤها بنفخ الروح فيها وهذا قول الحسن ومقاتل والقول الاول أصح لما تقدم في الحديث ولقوله تعالى في آية أخرى ثم نفخ فيه أخرى ولاجماع أهل السنة أن المراد بالصور هو القرن الذي ينفخ فيه اسرافيل نفختين نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب وقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة) يعني انه تعالى يعلم ما غاب عن عباده وما يشاهدونه فلا يغيب عن علمه شئ (وهو الحكيم) يعني في جميع أفعاله وتدبير خلقه (الخبير) يعني بكل ما يفعلونه من خير أو شر ۞ قوله تعالى (واذ قال ابراهيم لابيه آزر) اختلف العلماء في لفظ آزر فقال محمد بن اسحق والكلبي والضحاك آزر اسم أبي ابراهيم وهو تارح ضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة فعلى هذا يكون لابي ابراهيم اسمان آزر وتارح مثل يعقوب واسرائيل اسمان لرجل واحد فيحتمل أن يكون اسمه الاصلي آزر وتارح لقب له وبالعكس والله سماه آزر وان كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك وكان آزر أبو ابراهيم من كوثى وهي قرية من سواد الكوفة وقال سليمان التيمي آزر سب وعيب ومعناه في كلامهم المعوج وقيل الشيخ الهرم وهو بالفارسية وهذا على مذهب من يجوز أن في القرآن ألفاظا قليلة فارسية وقيل هو المخطئ فكان ابراهيم عابه وذمه بسبب كفره وزيغه عن الحق وقال سعيد بن المسيب ومجاهد آزر اسم صنم كان والد ابراهيم يعبده وانما سماه بهذا الاسم لان من عبد شيئا أو أحبه جعل اسم ذلك المعبود

الضلال عن طريق الاسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه اليه فلا يلتفت اليهم (قل ان هدى الله) وهو الاسلام (هو الهدى) وحده وما وراءه ضلال (وأمرنا) محله النصب بالعطف على محل ان هدى الله هو الهدى على أنهما مقولان كأنه قيل قل هذا القول وقل أمرنا (لنسلم لرب العالمين وان أقيموا الصلاة) والتقدير وأمرنا لان نسلم ولان أقيموا أي للاسلام ولاقامة الصلاة (واتقوه وهو الذي اليه تحشرون) يوم القيامة (وهو الذي خلق السموات والارض بالحق) بالحكمة أو محقا (ويوم يقول كن فيكون) على الخبر دون الجواب (قوله الحق) مبتدأ ويوم يقول خبره مقدما عليه كما تقول يوم الجمعة قولك الصدق أي قولك الصدق كائن يوم الجمعة واليوم بمعنى الحين والمعنى انه خلق السموات والارض بالحق والحكمة وحين يقول لشئ من الاشياء كن فيكون ذلك الشئ قوله الحق والحكمة أي لا يكون شئ من السموات والارض وسائر المكونات الا عن حكمة وصواب (وله الملك) مبتدأ وخبر (يوم ينفخ) ظرف لقوله وله الملك (في الصور) هو القرن بلغة اليمن أو جمع صورة (عالم الغيب) هو عالم الغيب (والشهادة) أي السر والعلانية (وهو الحكيم) في الافناء والاحياء (الخبير) بالحساب والجزاء (واذ قال ابراهيم لابيه آزر) هو اسم أبيه أو لقبه لانه

أو المحبوب اسمه فهو كقوله يوم ندعو كل أناس بإمامهم وقيل معناه وإذ قال ابراهيم لابيه يا عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه والصحيح هو الاول ان آزر اسم لابي ابراهيم لان الله تعالى سماه به وما نقل عن النسابين والمؤرخين ان اسمه تارخ ففيه نظر لانهم انما نقلوه عن أصحاب الاخبار وأهل السير من أهل الكتاب ولا عبرة بنقلهم وقد أخرج البخاري في افراده من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة الحديث فسماه النبي صلى الله عليه وسلم آزر أيضا ولم يقل أباه تارخ فثبت بهذا ان اسمه الاصلي آزر لا تارخ والله أعلم ۞ وقوله تعالى (أتتخذ أصناما آلهة) معناه اذكر لقومك يا محمد قول ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذي خلقك ورزقك والاصنام جمع صنم وهو التمثال الذي يتخذ من خشب أو حجارة أو حديد أو ذهب أو فضة على صورة الانسان وهو الوثن أيضا (اني أراك وقومك في ضلال مبين) يعني يقول ابراهيم لابيه آزر اني أراك وقومك الذين يعبدون الاصنام معك و يتخذونها آلهة في ضلال يعني عن طريق الحق مبين يعني بين لمن أبصر ذلك فانه لا يشك ان هذه الاصنام لا تضر ولا تنفع وهذه الآية احتجاج على مشركي العرب بأحوال ابراهيم ومحاجته لابيه وقومه لانهم كانوا يعظمون ابراهيم صلى الله عليه وسلم و يعترفون بفضله فلا جرم ذكر الله قصة ابراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه في معرض الاحتجاج على المشركين ۞ قوله عز وجل (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض) معناه وكما أريناه ابراهيم البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلال في عبادة الاصنام نريه ملكوت السموات والارض فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل في قوله وكذلك نري ابراهيم لانه تعالى كان أراه بعين البصيرة ان أباه وقومه على غير الحق فخالفهم فجزاه الله بان أراه بعد ذلك ملكوت السموات والارض فحسنت هذه العبارة لهذا المعنى والملكوت الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرهبة والرغبة والرحمة وقال ابن عباس يعني خلق السموات والارض وقال مجاهد وسعيد بن جبير يعني آيات السموات والارض وذلك انه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب وحتى رأى مكانه في الجنة فذلك قوله وآتيناه أجره في الدنيا يعني أريناه مكانه في الجنة وكشف له عن الارض حتى نظر الى أسفل الارضين ورأى ما فيها من العجائب قال البغوي وروي عن سلمان ورفعه بعضهم عن علي قال لما رأى ابراهيم ملكوت السموات والارض أبصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له تبارك وتعالى يا ابراهيم أنت رجل مجاب الدعوة فلا تدعون على عبادي فانما أنا من عبدي على ثلاث خلال اما أن يتوب الي فأتوب عليه واما أن أخرج منه نسمة تعبدني واما أن يبعث الي فان شئت عفوت وان شئت عاقبت وفي رواية وان تولى فان جهنم من ورائه قال قتادة ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الارض الجبال والشجر والبحار واختلف في هذه الرؤية هل كانت بعين البصر أو بعين البصيرة على قولين أحدهما انها كانت بعين البصر الظاهر فشق لابراهيم السموات حتى رأى العرش وشق له الارض حتى رأى ما في بطنها والقول الثاني ان هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لان ملكوت السموات والارض عبارة عن الملك وذلك لا يعرف الا بالعقل فبان بهذا ان هذه الرؤية كانت بعين البصيرة الا أن يقال المراد بملكوت السموات والارض نفس السموات والارض وقوله تعالى (وليكون من الموقنين) عطف على المعنى ومعناه وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض ليستدل به وليكون من الموقنين واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة لان الانسان في أول الحال لا ينفك عن شبهة وشك فاذا كثرت الدلائل وتوافقت صارت سببا لحصول اليقين والطمأنينة في القلب وزالت

خلاف بين النسابين ان اسم أبيه تارخ وهو عطف بيان لابيه وزنه فاعل (أتتخذ أصناما آلهة) استفهام توبيخ أي أتتخذها آلهة وهي لا تستحق الالهية (اني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك) أي وكما أريناه قبح الشرك (نري ابراهيم ملكوت السموات والارض) أي نري بصيرته لطائف خلق السموات والارض ونري حكاية حال ماضية والملكوت أبلغ من الملك لان الواو والتاء زادتا للمبالغة قال مجاهد فرجت له السموات السبع فنظر الى ما فيهن حتى انتهى نظره الى العرش وفرجت له الارضون السبع حتى نظر الى ما فيهن (وليكون من الموقنين) فعلنا ذلك أو ليستدل أو ليكون من الموقنين عيانا كما تيقن بيانا

الشبهة عند ذلك قال ابن عباس في وليكون من الموقنين جلاله الامر سره وعلانيته فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى انك لا تستطيع هذا فرده الله كما كان قبل ذلك فمعنى الآية على هذا القول وكذلك أريناه ملكوت السموات والارض ليكون ممن يوقن علم كل شيء حسا وخبرا ﴿ قوله تعالى (فلما جن عليه الليل) يقال جن الليل وأجن اذا أظلم وغطى كل شيء وأجنه الليل وجن عليه اذا ستره بسواده (رأى كوكبا قال هذا ربي)

﴿ذكر القصة في ذلك﴾

قال أهل التفسير وأصحاب الاخبار والسير ولد ابراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان الملك وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس الى عبادته وكان له كهان ومنجمون فقالوا له انه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الارض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ويقال انهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء وقال السدي رأى نمرود في منامه كأن كوكبا قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعا شديدا فدعا السحرة والكهان وسألهم عن ذلك فقالوا هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة يكون هلاكك وزوال ملكك وهلاك أهل دينك على يديه فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة بناحيته وأمر بعزل النساء عن الرجال وجعل على كل عشرة رجلا يحفظهم فاذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها لانهم كانوا لا يجامعون في الحيض فاذا طهرت من الحيض حالوا بينهما قالوا فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها فحملت بابراهيم وقال محمد بن اسحق بعث نمرود الى كل امرأة حبلى بقرية فحبسها عنده الا ما كان من أم ابراهيم فانه لم يعلم بحبلها لانها كانت جارية صغيرة لم يعرف الحبل في بطنها وقال السدي خرج نمرود بالرجال الى المعسكر وعزلهم عن النساء تخوفا من ذلك المولود فمكث بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة الى المدينة فلم يأمن عليها أحدا من قومه الا آزر فبعث اليه فأحضره عنده وقال له ان لي اليك حاجة أحب أن أوصيك بها ولم أبعثك فيها الا لثقتي بك فأقسمت عليك أن لا تدنو من أهلك فقال آزر أنا أشح على ديني من ذلك فأوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجة الملك ثم قال لو دخلت على أهلي فنظرت اليهم فلما دخل على أم ابراهيم ونظر اليها لم يتمالك حتى واقعها فحملت من ساعتها بابراهيم قال ابن عباس لما حملت أم ابراهيم قال الكهان لنمرود ان الغلام الذي أخبرناك به قد حملت به أمه الليلة فأمر نمرود بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم ابراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها قالوا فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء ثم رجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت وان الولد في موضع كذا فانطلق اليه أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سربا في النهر فواراه فيه وسد بابه بصخرة مخافة السباع وكانت أمه تختلف اليه فترضعه وقال محمد بن اسحق لما وجدت أم ابراهيم الطلق خرجت ليلا الى مغارة كانت قريبا منها فولدت فيها ابراهيم وأصلحت من شأنه ما يصلح بالمولود ثم سدت عليه باب المغارة ثم رجعت الى بيتها وكانت تختلف اليه لتنظر ما فعل فتجده حيا وهو يمص ابهامه قال أبو روق قالت أم ابراهيم لأنظرن الى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء ومن أصبع لبنا ومن أصبع سمنا ومن أصبع عسلا ومن أصبع تمرا وقال محمد بن اسحق كان آزر قد سأل أم ابراهيم عن حملها ما فعل فقالت ولدت غلاما فمات فصدقها وسكت عنها وكان ابراهيم يشب في اليوم كالشهر وفي الشهر كالسنة فلم يمكث في المغارة الا خمسة عشر شهرا حتى قال لأمه أخرجيني فأخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والارض وقال ان الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي الذي ما لي اله غيره ونظر في السماء فرأى كوكبا قال هذا ربي ثم أتبعه بصره ينظر اليه حتى غاب فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي وأتبعه بصره ينظر اليه حتى غاب ثم طلعت الشمس قال هكذا الى آخره ثم رجعت به الى أبيه آزر وقد استقامت وجهته

(فلما جن عليه الليل) أي أظلم وهو عطف على قال ابراهيم لابيه وقوله وكذلك نري ابراهيم جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه (رأى كوكبا) أي الزهرة أو المشتري وكان أبوه وقومه يعبدون الاصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم الى طريق النظر والاستدلال ويعرفهم ان النظر الصحيح مؤد الى أن شيأ منها ليس باله لقيام دليل الحدوث فيها ولان لها محدثا أحدثها ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه (قال هذا ربي) أي قال لهم هذا ربي في زعمكم أو المراد أهذا استهزاء بهم وانكارا عليهم والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت والصحيح ان هذا قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لانه أدعى الى الحق وأنجى من الشغب ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة

وعرف ربه وبرئ من دين قومه إلا أنه لم يبادئهم بذلك فلما رجع به إلى أمه أخبرته أنه ابنه وأخبرته بما صنعت
به فسر بذلك وفرح فرحاً شديداً وقيل إنه مكث في السرب سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل سبع
عشرة سنة قالوا فلما شب إبراهيم وهو في السرب قال لأمه من ربي قالت أنا قال فمن ربك قالت أبوك قال
فمن رب أبي قالت اسكت ثم رجعت إلى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذي كنا نحدث أنه يغير دين أهل الأرض
فإنه ابنك ثم أخبرته بما قال فأتاه أبوه آزر فقال له إبراهيم يا أبتاه من ربي قال أمك قال فمن رب أمي قال أنا
قال فمن ربك قال نمرود قال فمن رب نمرود فلطمه لطمة وقال له اسكت فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب
فنظر من خلال الصخرة فأبصر كوكباً فقال هذا ربي ويقال إنه قال لأبويه أخرجاني فأخرجاه من السرب حين
غابت الشمس فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم فسأل أباه ما هذه فقال إبل وخيل وغنم فقال إبراهيم
ما لهذه بد من أن يكون لها رب وخالق ثم نظر فإذا المشتري قد طلع ويقال إنها الزهرة وكانت تلك
الليلة من آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فرأى الكوكب قبل القمر فذلك قوله عز وجل فلما جن عليه
الليل يعني ستره بظلمته رأى كوكباً قال هذا ربي ثم اختلف العلماء في وقت هذه الرؤية وفي وقت هذا القول
هل كان قبل البلوغ أو بعده على قولين أحدهما أنه كان قبل البلوغ في حال طفوليته وذلك قبل قيام الحجة
عليه فلم يكن لهذا القول الذي صدر من إبراهيم في هذا الوقت اعتبار ولا يترتب عليه حكم لأن الأحكام إنما
تثبت بعد البلوغ وقيل إن إبراهيم لما خرج من السرب في حال صغره ونظر إلى السماء وما فيها من العجائب
ونظر إلى الأرض وما فيها من العجائب وكان قد خصه الله بالعقل الكامل والفطرة السليمة تفكر في نفسه
وقال لا بد لهذا الخلق من خالق مدبر وهو له الخالق ثم نظر في حال تفكره فرأى الكوكب فقال هذا
ربي على ما سبق إلى وهمه وذلك في حال طفوليته وقبل استحكام النظر في معرفة الرب سبحانه وتعالى واستدل
أصحاب هذا القول على صحته بقوله لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين قالوا وهذا يدل على نوع تحير
وذلك لا يكون إلا في حال الصغر وقبل البلوغ وقيام الحجة وهذا القول ليس بسديد ولا مرضي لأن الأنبياء
معصومون في كل حال من الأحوال وأنه لا يجوز أن يكون لله عز وجل رسول يأتي عليه وقت من الأوقات
إلا وهو بالله عارف وله موحد ومن كل معبود سواه بريء وكيف يتوهم هذا على إبراهيم
وقد عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأراه ملكوت السموات والأرض أفتراه أراه الملكوت
معتقداً هذا ربي في حالة إبراهيم صلى الله عليه وسلم من ذلك لأن منصب النبوة أعلى وأشرف من ذلك
والقول الثاني الذي عليه جمهور المحققين أن هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ إبراهيم وبعد أن
شرفه الله بالنبوة وأكرمه بالرسالة ثم اختلف أصحاب هذا القول في تأويل الآية ومعناها فذكروا فيها
وجوهاً الوجه الأول أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يستدرج قومه بهذا القول ويعرفهم جهلهم وخطأهم
في تعظيم النجوم وعبادتها لأنهم كانوا يرون أن كل الأمور إليها فأراهم إبراهيم أنه معظم ما عظموه فلما
أفل الكوكب والقمر والشمس أراهم النقص الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والأفول ليثبت
خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الإلهية ومثل هذا كمثل الحواري الذي ورد على قوم كانوا يعبدون
صنماً فأظهر تعظيمه فأكرموه لذلك حتى صاروا يصدرون عن رأيه في كثير من أمورهم إلى أن دهمهم
عدو ولا قبل لهم به فشاوروه في أمر هذا العدو فقال الرأي عندي أن تدعوا هذا الصنم حتى يكشف
عنا ما نزل بنا فاجتمعوا حول الصنم يتضرعون إليه فلم ينفعهم شيئاً فلما تبين لهم أنه لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع
دعاهم الحواري وأمرهم أن يدعوا الله عز وجل ويسألوه أن يكشف عنهم ما نزل بهم فدعوا الله
مخلصين فصرفه عنهم ما كانوا يحذرون فأسلموا جميعاً الوجه الثاني أن إبراهيم عليه السلام قال هذا
القول على سبيل الاستفهام وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه تقديره أهذا ربي الذي تزعمون واستحقه

حرف الاستفهام كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى أفإن مت فهم الخالدون يعني أفهم الخالدون والمعنى أيكون هذا ربي ودلائل النقص فيه ظاهرة الوجه الثالث ان ابراهيم عليه السلام قال ذلك على وجه الاحتجاج على قومه يقول هذا ربي في زعمكم فلما غاب قال لو كان إلها كما تزعمون لما غاب فهو كقوله ذق انك أنت العزيز الكريم يعني عند نفسك وزعمك وكما أخبر عن موسى عليه السلام بقوله تعالى انظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا يريد الهك بزعمك الوجه الرابع ان في هذه الآية اضمارا تقديره يقولون هذا ربي واضمار القول كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا أي يقولون ربنا تقبل منا الوجه الخامس ان الله تعالى قال في حقه وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ثم قال بعده فلما جن عليه الليل والفاء تقتضي التعقيب فدل هذا ان هذه الواقعة كانت بعد ان أراه الله ملكوت السموات والارض وبعد الايقان ومن كان معه بهذه المنزلة العالية الشريفة لا يليق بحاله ان يعبد الكواكب ويتخذها ربا واما الجواب عن قوله لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فان الانبياء عليهم السلام لم يزالوا يسألون الله التثبت ومنه قوله واجنبني وبني أن نعبد الاصنام وأما قوله تعالى (فلما أفل) يعني غاب والافول غيبة النيرات (قال) يعني ابراهيم (لا أحب الآفلين) يعني لا أحب ربا يغيب ويطلع لان أمارات الحدوث فيه ظاهرة ﴿ قوله تعالى (فلما رأى القمر بازغا) يعني طالعا منتشر الضوء (قال هذا ربي) معناه ما تقدم من الكلام في الكوكب (فلما أفل) يعني غاب (قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) يعني ان لم يثبتني ربي على الهدى وليس المراد انه لم يكن مهتديا لان الانبياء لم يزالوا على الهداية من أول الفطرة وفي الآية دليل على أن الهداية من الله تعالى لان ابراهيم أضاف الهداية لله تعالى (فلما رأى الشمس بازغة) يعني طالعة (قال هذا ربي) يعني هذا الطالع أو انه أشار الى الضياء والنور لانه رأى الشمس أضوأ من الكوكب والقمر وقيل انما قال هذا ولم يقل هذه لان تأنيث الشمس غير حقيقي فلهذا أتى بلفظ التذكير (هذا أكبر) يعني من الكوكب والقمر (فلما أفلت) يعني فلما غابت الشمس (قال يا قوم اني بريء مما تشركون) يعني انه لما أثبت ابراهيم عليه السلام بالدليل القطعي ان هذه النجوم ليست آلهة ولا تصلح للربوبية تبرأ منها وأظهر لقومه انه بريء مما يشركون ولما أظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم أظهر ما هو عليه من الدين الحق فقال (اني وجهت وجهي) يعني اني صرفت وجه عبادتي وقصرت توحيدي (للذي فطر السموات والارض) يعني للذي خلقهما وابتدعهما (حنيفا) يعني مائلا عن عبادة كل شيء سوى الله تعالى وأصل الحنف الميل وهو ميل عن طريق الضلال الى طريق الاستقامة وقيل الحنيف هو الذي يستقبل الكعبة في صلاته (وما أنا من المشركين) تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه ﴿ قوله عز وجل (وحاجه قومه) يعني وخاصمه قومه وذلك انه لما أظهر ابراهيم عليه السلام عيب آلهتهم التي كانوا يعبدونها وأظهر التوحيد لله عز وجل خاصمه قومه وجادلوه في ذلك فقال أتحاجوني في الله يعني أتجادلونني في توحيدي لله وقد هداني وقد تبين لي طريق الهداية الى توحيده ومعرفته وقال البغوي لما رجع ابراهيم الى أبيه وصار من الشباب بحالة تسقط عنه طمع الذاعنين وضمه آزر الى نفسه جعل آزر يصنع الاصنام ويعطيها ابراهيم ليبيعها فيذهب ابراهيم وينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد فاذا بارت عليه ذهب بها الى نهر فصوب فيه رؤسها وقال اشربي استهزاء بقومه وبما هم فيه من الضلالة حتى فشا استهزاؤه بها في قومه وأهل قريته فحاجه قومه يعني خاصمه وجادله قومه في دينه (قال) يعني ابراهيم (أتحاجوني في الله وقد هدان) يعني الى توحيده ومعرفته (ولا

(فلما أفل) غاب (قال لا أحب الآفلين) أي لا أحب عبادة الارباب المتغيرين عن حال الى حال لان ذلك من صفات الاجسام (فلما رأى القمر بازغا) مبتدئا في الطلوع (قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) نبه قومه على ان من اتخذ القمر الها فهو ضال وانما احتج عليهم بالافول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال الى حال لان الاحتجاج به أظهر لانه انتقال مع خفاء واحتجاب (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي) وانما ذكره لانه أراد الطالع أو لانه جعل المبتدأ مثل الخبر لانهما شيء واحد معنى وفيه صيانة الرب عن شبهة التأنيث ولهذا قالوا في صفات الله تعالى علام ولم يقولوا علامة وان كان الثاني أبلغ تفاديا من علامة التأنيث (هذا أكبر) من باب استعمال النصفة أيضا مع خصومه (فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون) من الاجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها وقيل هذا كان نظره واستدلاله في نفسه فحكاه الله تعالى والاول أظهر لقوله يا قوم اني بريء مما تشركون (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض) أي للذي دلت هذه المحدثات على انه منشئها (حنيفا) حال أي مائلا عن الاديان كلها الا الاسلام (وما أنا من المشركين) بالله شيأ من خلقه (وحاجه قومه) في توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه (قال أتحاجوني في الله) في توحيده أتحاجوني مدني وابن ذكوان (وقد هدان) الى التوحيد وبالياء في الوصل أبو عمرو ولما خوفوه أن معبودتهم تصيبه بسوء قال (ولا

أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئا) أي لا أخاف معبوداتكم في وقت قط لانها لا تقدر على منفعة ولا مضرة الا اذا شاء ربي أن
يصيبني منها بضر فهو قادر على أن يجعل فيما شاء نفعا وفيما شاء ضرا لا الاصنام (وسع ربي كل شيء علما)

(أخاف ما تشركون به) وذلك انهم قالوا له احذر الاصنام فانا نخاف أن تمسك بخبل أو جنون لعيبك لها فأجابهم بقوله ولا أخاف ما تشركون به فانها جمادات لا تضر ولا تنفع وانما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضر وهو قوله (الا أن يشاء ربي شيئا) يعني لكن ان يشاء ربي شيئا كان ما يشاء لانه قادر على النفع والضر وانما قال ابراهيم ذلك لاحتمال أن الانسان قد يصيبه في بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه لنسبوه الى الاصنام فنفى هذه الشبهة بقوله الا أن يشاء ربي شيئا وهذا استثناء منقطع وليس هو من الاول في شيء والمعنى ولكن ان شاء ربي شيئا كان (وسع ربي كل شيء علما) يعني أحاط علمه بكل شيء فلا يخرج شيء عن علمه (أفلا تتذكرون) يعني أفلا تعتبرون أن هذه الاصنام جمادات لا تضر ولا تنفع وان النافع الضار هو الذي خلق السموات والارض ومن فيهما (وكيف أخاف ما أشركتم) يعني وكيف أخاف الاصنام التي أشركتموها لانها جمادات لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله) يعني وأنتم لا تخافون وقد أشركتم بالله وهو من أعظم الذنوب (ما لم ينزل به عليكم سلطانا) يعني ما ليس لكم فيه حجة وبرهان (فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون) يعني يقول من أولى بالامن من العذاب في يوم القيامة الموحد أو المشرك (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) وهذا فصل قضاء الله بين ابراهيم وبين قومه يعني ان الذين يستحقون الامن يوم القيامة هم الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم وقيل هو من تمام كلام ابراهيم في المحاجة لقومه والمعنى ان الذين يحصل لهم الامن يوم القيامة هم الذين آمنوا يعني آمنوا بالله وحده ولم يشركوا به شيئا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم يعني ولم يخلطوا ايمانهم بشرك (ق) عن ابن مسعود قال لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم شق ذلك على المسلمين وقالوا أينا لا يظلم نفسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس ذلك انما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم وفي رواية ليس هو كما تظنون انما هو كما قال لقمان لابنه وذكره وقيل في معنى قوله ولم يلبسوا ايمانهم بظلم يعني ولم يخلطوا ايمانهم بشيء من معاني الظلم وذلك بان يفعل بعض ما نهى الله عنه أو يترك ما أمر الله به فعلى هذا القول تكون الآية على العموم لان الله لم يخص به معنى من معاني الظلم دون غيره والصحيح أن الظلم المذكور في هذه الآية هو الشرك لما تقدم من حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الظلم هنا بالشرك وفي الآية دليل على أن من مات لا يشرك بالله شيئا كانت عاقبته الامن من النار لقوله (أولئك) يعني الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم (لهم الامن) يوم القيامة من عذاب النار (وهم مهتدون) يعني الى سبيل الرشاد

قوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) يعني ما جرى بين ابراهيم وبين قومه واستدل على حدوث الكوكب والقمر والشمس بالافول وقيل لما قالوا لابراهيم اما تخاف عليك من آلهتنا لسبك اياها قال أولا تخافون أنتم منها اذ سويتم بين الصغير والكبير في العبادة أن يغضب الكبير عليكم وقيل انه خاصم قومه المشركين فقال لأي الفريقين أحق بالامن من يعبد الها واحدا مخلصا له الدين والعبادة أم من يعبد أربابا كثيرة فقالوا من يعبد الها واحدا فقضوا على أنفسهم فكانت هذه حجة ابراهيم عليهم (نرفع درجات من نشاء) يعني بالعلم والفهم والعقل والفضيلة كما رفعنا درجات ابراهيم حتى اهتدى الى قومه وقيل نرفع درجات من نشاء في الدنيا بالنبوة والعلم والحكمة وفي الآخرة بالثواب على الاعمال الصالحة (ان ربك حكيم عليم) يعني أنه تعالى حكيم في جميع أفعاله عليم بجميع أحوال خلقه لا يفعل شيئا الا بحكمة وعلم

قوله عز وجل (ووهبنا له اسحق ويعقوب) لما أظهر ابراهيم عليه السلام دينه وغلب خصمه بالحجج القاطعة والبراهين القوية والدلائل الصحيحة التي فهمه الله تعالى اياها وهداه اليها عند ذلك

فلا يصيب عبدا شيء من ضر أو نفع الا بعلمه (أفلا تتذكرون) فتميزوا بين القادر والعاجز (وكيف أخاف ما أشركتم) معبوداتكم وهي مأمونة الخوف (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به) باشراكه (عليكم سلطانا) حجة اذ الاشراك لا يصح أن يكون عليه حجة والمعنى وما لكم تنكرون على الامن في موضع الامن ولا تنكرون على أنفسكم الامن في موضع الخوف (فأي الفريقين) أي فريقي الموحدين والمشركين (أحق بالامن) من العذاب (ان كنتم تعلمون) ولم يقل فأينا احترازا من تزكية نفسه ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) بشرك عن الصديق رضي الله عنه (أولئك لهم الامن وهم مهتدون) تم كلام ابراهيم عليه السلام (وتلك حجتنا) اشارة الى جميع ما احتج به ابراهيم عليه السلام على قومه من قوله فلما جن عليه الليل الى وهم مهتدون (آتيناها ابراهيم على قومه) وهو خبر بعد خبر (نرفع درجات من نشاء) في العلم والحكمة وبالتنوين كوفي وفيه نقض قول المعتزلة في الاصلح (ان ربك حكيم) بالرفع (عليم) بالاهل (ووهبنا له) لابراهيم (اسحق ويعقوب

نعمه عليه واجتبائه اليه بان رفع درجته في عليين وأبقى النبوة في ذريته الى يوم الدين فقال تعالى (ووهبنا له) يعني لابراهيم (اسحق) يعني ابنا لصلبه (ويعقوب) يعني ابن اسحق وهو ولد الولد (كلا هدينا) يعني هدينا جميعهم الى سبيل الرشاد ووفقناهم الى طريق الحق والصواب (ونوحا هدينا من قبل) يعني من قبل ابراهيم أرشدنا نوحا ووفقناه للحق والصواب ومننا عليه بالهداية (ومن ذريته) اختلفوا في هذا الضمير الى من يرجع فقيل يرجع الى ابراهيم يعني ومن ذرية ابراهيم (داود وسليمان) وقيل يرجع الى نوح وهو اختيار جمهور المفسرين لان الضمير يرجع الى أقرب مذكور ولان الله ذكر في جملة هذه الذرية لوطا وهو ابن أخي ابراهيم ولم يكن من ذريته فثبت بهذا ان هاء الكناية ترجع الى نوح وقال الزجاج كلا القولين جائز لان ذكرهما جميعا قد جرى وداود هو ابن يشا وكان ممن آتاه الله الملك والنبوة وكذلك سليمان بن داود (وأيوب) هو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن اسحق بن ابراهيم (ويوسف) هو ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (وموسى) هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب (وهرون) هو أخو موسى وكان أكبر منه بسنة (وكذلك نجزي المحسنين) يعني وكما جزينا ابراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه كذلك نجزي المحسنين على احسانهم (وزكريا) هو ابن آذن بن بركيا (ويحيى) هو ابن زكريا (وعيسى) هو ابن مريم بنت عمران (والياس) قال ابن مسعود هو ادريس وله اسمان مثل يعقوب واسرائيل وقال محمد بن اسحق هو الياس بن يسان بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران وهذا هو الصحيح لان أصحاب الانساب يقولون ان ادريس جد نوح لان نوحا ابن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس ولان الله تعالى نسب الياس في هذه الآية الى نوح وجعله من ذريته (كل من الصالحين) يعني أن كل من ذكرنا وسمينا من الصالحين (واسمعيل) هو ابن ابراهيم وانما أخر ذكره الى هنا لانه ذكر اسحق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد فلهذا السبب أخر ذكر اسمعيل الى هنا (واليسع) هو ابن أخطوب بن العجوز (ويونس) هو ابن متى (ولوطا) هو ابن أخي ابراهيم (وكلا فضلنا على العالمين) يعني على عالمي زمانهم ويستدل بهذه الآية من يقول ان الانبياء أفضل من الملائكة لان العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه الملك فيقتضي أن الانبياء أفضل من الملائكة واعلم أن الله تعالى ذكرها هنا ثمانية عشر نبيا من الانبياء عليهم السلام من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل لان الواو لا تقتضي الترتيب ولكن هنا لطيفة أوجبت هذا الترتيب وهي أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الانبياء عليهم السلام بنوع من الكرامة والفضل فذكر أولا نوحا وابراهيم واسحق ويعقوب لانهم أصول الانبياء واليهم ترجع أنسابهم جميعا ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان وقد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظا وافرا ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذه أيوب عليه السلام ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف عليه السلام فانه صبر على البلاء والشدة الى أن أعطاه الله ملك مصر مع النبوة ثم من المراتب المعتبرة في تفضيل الانبياء عليهم السلام كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله تعالى موسى وهرون من ذلك بالحظ الوافر ثم من المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا والاعراض عنها وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى والياس عليهم السلام ولهذا السبب وصفهم بانهم من الصالحين ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الانبياء من لم يبق له اتباع ولا شريعة وهم اسمعيل واليسع ويونس ولوط فاذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه كان هذا الترتيب من أحسن شئ يذكر والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿ قوله تعالى (ومن آبائهم) يعني ومن آباء الذين سميناهم ومن هنا للتبعيض لان من آباء بعضهم من لم يكن مسلما (وذرياتهم) يعني ومن ذرياتهم أي بعضهم لان عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان في ذرية بعضهم من هو كافر كابن نوح (واخوانهم) يعني ومن اخوانهم والمعنى ان الله تعالى وفق من آباء المذكورين ومن

كلا هدينا) أي كلهم واتصب كلا بهدينا (ونوحا هدينا) أي وهدينا نوحا (من قبل) من قبل ابراهيم (ومن ذريته) الضمير لنوح أو لابراهيم والاول أظهر لان يونس ولوطا لم يكونا من ذرية ابراهيم (داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون) والتقدير وهدينا من ذريته هؤلاء (وكذلك نجزي المحسنين) ونجزي المحسنين جزاء مثل ذلك فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف (وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل) أي كلهم (من الصالحين) وذكر عيسى معهم دليل على ان النسب يثبت من قبل الام أيضا لانه جعله من ذرية نوح عليه السلام وهو لا يتصل به الا بالام وبذا أجيب الحجاج حين أنكر أن يكون بنو فاطمة أولاد النبي عليه السلام (واسمعيل واليسع) والليسع حيث كان بلامين حمزة وعلي (ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين) بالنبوة والرسالة (ومن آبائهم) في موضع النصب عطفا على كلا أي وفضلنا بعض آبائهم (وذرياتهم واخوانهم

أحوالهم وذرياتهم لهداية وخالص الدين وهو قوله تعالى (واجتبيناهم) يعني اخترناهم واصطفيناهم (وهديناهم) يعني وأرشدناهم (الى صراط مستقيم) أي الى دين الحق (ذلك هدى الله) قال ابن عباس ذلك دين الله الذي كان عليه هؤلاء الانبياء وقيل المراد بهدى الله التمييز الذي وقعوا به عن الشرك والاضداد والانداد (يهدي به من يشاء من عباده) يعني يوفق من يشاء من عباده ويرشده الى دينه وطاعته وخلع الاضداد والشركاء (ولو أشركوا) يعني هؤلاء الذين سميناهم (لحبط) يعني لبطل وذهب (عنهم ما كانوا يعملون) من الطاعات قبل ذلك لان الله تعالى لا يقبل مع الشرك من الاعمال شيأ ۞ قوله عز وجل (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) يعني أولئك الذين سميناهم من الانبياء أعطيناهم الكتب التي أنزلناها عليهم وآتيناهم العلم والفهم وشرفناهم بالنبوة وانما قدم ذكر الكتاب والحكمة على النبوة وان كانت النبوة هي الاصل لان منصب النبوة أشرف المراتب والمناصب فذكر أولا الكتاب والحكم لانهما يدلان على النبوة (فان يكفر بها هؤلاء) يعني فان يجحد بدلائل التوحيد والنبوة كفار قريش (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) قال ابن عباس هم الانصار وأهل المدينة وقيل هم المهاجرون والانصار وقال الحسن وقتادة هم الانبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج قال والدليل عليه قوله أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقال أبو رجاء العطاردي هم الملائكة وفيه بعد لان اسم القوم لا ينطلق الا على بني آدم وقيل هم الفرس قال ابن زيد كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكا أو نبيا أو من الصحابة أو التابعين وفي الآية دليل على أن الله تعالى ينصر نبيه صلى الله عليه وسلم ويقوي دينه ويجعله عاليا على الاديان كلها وقد جعل ذلك فهو اخبار عن الغيب ۞ قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله) يعني النبيين الذين تقدم ذكرهم لانهم هم المخصوصون بالهداية (فبهداهم اقتده) اشارة الى النبي صلى الله عليه وسلم يعني فبشرائعهم وسننهم اعمل وأصل الاقتداء في اللغة طلب موافقة الثاني للاول في فعله وقيل أمره أن يقتدي بهم في أصل الدين الذي أمرهم أن يجمعوا عليه وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن جميع النقائص التي لا تليق بجلاله في الاسماء والصفات والافعال وقيل أمره الله أن يقتدي بهم في جميع الاخلاق الحميدة والافعال المرضية والصفات الرفيعة الكاملة مثل الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم وقيل أمره أن يقتدي بهم في كلهم الا ما خصه دليل آخر وعلى هذا القول يكون في الآية دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا

﴿فصل﴾ احتج العلماء بهذه الآية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبيانه أن جميع خصال الكمال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه وكان ابراهيم صاحب كرم وبذل ومجاهدة في الله عز وجل وكان اسحق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلاء والمحن وكان داود عليه السلام وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة قال الله فيهم اعملوا آل داود شكرا وكان أيوب صاحب صبر على البلاء قال الله فيه انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وكان يوسف قد جمع بين الحالتين يعني الصبر والشكر وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزة الباهرة وكان زكريا ويحيى وعيسى والياس من أصحاب الزهد في الدنيا وكان اسماعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع واخبات ثم ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة المتفرقة فيهم فثبت بهذا البيان أنه صلى الله عليه وسلم كان أفضل الانبياء لما اجتمع فيه من الخصال التي كانت متفرقة في جميعهم والله أعلم ۞ وقوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجرا) يعني قل يا

واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ذلك) أي ما دانوا به هؤلاء المذكورون (هدى الله) دين الله (يهدي به من يشاء من عباده) فيه نقض قول المعتزلة لانهم يقولون ان الله شاء هداية الخلق كلهم لكنهم لم يهتدوا (ولو أشركوا) مع فضلهم وتقدمهم وما رفع لهم من الدرجات العلى (لحبط عنهم ما كانوا يعملون) لبطلت أعمالهم كما قال لئن أشركت ليحبطن عملك (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) يريد الجنس (والحكم) والحكمة أو فهم الكتاب (والنبوة) وهي أعلى مراتب البشر (فان يكفر بها) بالكتاب والحكم والنبوة أو بآيات القرآن (هؤلاء) أي أهل مكة (فقد وكلنا بها قوما) هم الانبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل قوله أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده أو أصحاب النبي عليه السلام أو كل من آمن به أو العجم ومعنى توكيلهم بها أنهم وفقوا للايمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه والباء في (ليسوا بها) صلة كافرين وفي (بكافرين) لتأكيد النفي (أولئك الذين هدى الله) أي الانبياء الذين مر ذكرهم (فبهداهم اقتده) فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد الا بهم وهذا معنى تقديم المفعول والمراد بهداهم طريقتهم في الايمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فهي مختلفة والهاء في اقتده للوقف تسقط في الوصل واستحسن ايثار الوقف لثبات الهاء في المصحف وعندهما حمزة وعلي في الوصل ويختلسها الشامي (قل لا أسألكم عليه) على الوحي أو على تبليغ الرسالة والدعاء الى التوحيد (أجرا) جعلا وفيه دليل على أن أخذ الاجر على تعليم القرآن

بالطلب على تبليغ الرسالة جعلا قيل لما أمره الله تعالى بالاقتداء بالنبيين وكان من جملة هداهم عدم طلب الأجر على إيصال الدين وإبلاغ الشريعة لاجرم اقتدى بهم فقال لا أسألكم عليه أجرا (ان هو) يعني ما هو يعني القرآن (الا ذكرى للعالمين) يعني أن القرآن موعظة وذكرى لجميع العالم من الجن والانس وفيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى جميع الخلق من الجن والانس وان دعوته عمت جميع الخلائق ﴿ قوله عز وجل (وما قدروا الله حق قدره) قال ابن عباس معناه ما عظموا الله حق عظمته وعنه أن معناه ما آمنوا أن الله على كل شيء قدير وقال أبو العالية ما وصفوا الله حق صفته وقال الأخفش ما عرفوا الله حق معرفته يقال قدر الشيء اذا حزره وسبره وأراد أن يعلم مقداره يقال قدره يقدره بالضم قدرا ثم يقال لمن عرف شيأ هو يقدر قدره واذا لم يعرفه بصفاته يقال فيه انه لا يقدر قدره فقوله وما قدروا الله حق قدره يصح فيه جميع الوجوه المذكورة في معناه (اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) يعني الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه حق معرفته اذ لو عرفوه حق معرفته لما قالوا هذه المقالة ثم اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية على قولين أحدهما أنها نزلت في كفار قريش وعلى هذا قول من يقول ان جميع هذه السورة مكية وهو قول السدي ويروى ذلك عن مجاهد وصححه الطبري قال لان من أول السورة الى هذا الموضع هو خبر عن المشركين من عبدة الاصنام وكان قوله وما قدروا الله حق قدره موصولا بذلك غير مفصول عنه فلا يكون قوله اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء خبرا عن غيرهم وأورد فخر الدين الرازي على هذا القول إشكالا وهو أن كفار قريش ينكرون نبوة جميع الانبياء فكيف يمكن الزامهم بنبوة موسى وأيضا فما بعد هذه الآية لا يليق بكفار قريش انما يليق بحال اليهود وأجاب عنه بان كفار قريش كانوا مختلطين باليهود وقد سمعوا منهم أن موسى جاءهم بالتوراة وبالمعجزات الباهرات وانما أنكر كفار قريش نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيمكن الزامهم بقوله قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وأجاب عن كون سياق الآية لا يليق الا بحال اليهود بان كفار قريش واليهود لما كانوا مشتركين في انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يبعد ان يكون بعض الآية خطابا لكفار قريش وبعضها خطابا لليهود والقول الثاني في سبب نزول هذه الآية وهو قول جمهور المفسرين انها نزلت في اليهود وهذا على قول من يقول ان هذه الآية نزلت بالمدينة وانها من الآيات المدنيات التي في السور المكية قال ابن عباس نزلت سورة الانعام بمكة الا ست آيات منها قوله وما قدروا الله حق قدره فانها نزلت بالمدينة ثم اختلف القائلون بهذا القول في اسم من نزلت هذه الآية فيه فقال سعيد ابن جبير جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبرا سمينا فغضب وقال والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى فقال والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس الآية قال البغوي وفي القصة أن مالك بن الصيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه وقالوا أليس ان الله أنزل التوراة على موسى فلم قلت ما أنزل الله على بشر من شيء فقال مالك بن الصيف أغضبني محمد فقلت ذلك فقالوا له وأنت اذا غضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف وقال السدي نزلت هذه الآية في فنحاص بن عازوراء اليهودي وهو قائل هذه المقالة وقال ابن عباس قالت اليهود يا محمد أنزل الله عليك كتابا قال نعم قالوا والله ما أنزل الله من السماء كتابا فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى الآية وقال محمد بن كعب القرظي جاء ناس من يهود الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محتب فقالوا يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحا يحملها من عند الله فأنزل

وروايه الحديث لا يجوز (ان هو الا ذكرى للعالمين) ما القرآن الا عظة للجن والانس (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) أي ما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده حين أنكروا بعثة الرسل والوحي اليهم وذلك من أعظم رحمته وما أرسلناك الا رحمة للعالمين روي أن جماعة من اليهود منهم مالك بن الصيف كانوا يجادلون النبي عليه السلام فقال النبي عليه السلام له أليس في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين قال نعم قال فأنت الحبر السمين فغضب وقال ما أنزل الله على بشر من شيء وحق قدره منصوب بنصب المصدر

أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء الآية التى فى سورة النساء فعند ذلك قالوا ما الخبيثة يتنازعون منهم وقالوا ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئا فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره الآية أوردها أنزل الله على بشر من شئ وأورد الراوى على هذا القول اشكالا أيضا وهو أن اليهود مقرون بانزال التوراة على موسى فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شئ مع اعترافهم بانزال التوراة ولم يخف على هذا الاشكال شئ وأجيب عنه بأن مراد اليهود انكار انزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فقط ولهذا ألزموا بما لا بد لهم من الاقرار به من انزال التوراة على موسى فقال تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) أى قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين أنكروا انزال القرآن عليك بقولهم ما أنزل الله على بشر من شئ من أنزل التوراة على موسى وفى هذا الالزام توبيخ لليهود وسوء جهلهم واقدامهم على انكار الحق الذى لا ينكر (نورا وهدى للناس) يعنى التوراة ضياء من ظلمة الضلالة وبيانا يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل أن تبدل وتغير (تجعلونه قراطيس) يكتبونه فى قراطيس مقطعة (تبدونها) يعنى القراطيس المكتوبة (وتخفون كثيرا) يعنى ويخفون كثيرا مما كتبوه فى القراطيس وهو ما عندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته فى التوراة ومما أخفوه أيضا آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم فى التوراة (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) أكثر المفسرين على أن هذا خطاب لليهود ومعناه أنكم علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من قبل قال الحسن جعل لهم علم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فضيعوه ولم ينتفعوا به وقال مجاهد هذا خطاب للمسلمين يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل الله) هذا راجع الى قوله قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى فان أجابوك يا محمد والا فقل أنت الله الذى أنزله (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) يعنى دعهم يا محمد فيما هم فيه يخوضون من باطلهم وكفرهم بالله ومعنى يلعبون يستهزؤن ويسخرون وقيل معناه يا محمد انك اذا أقمت الحجة عليهم وبلغت فى الاعذار والانذار هذا المبلغ العظيم فحينئذ لم يبق عليك من أمرهم شئ فذرهم فيما هم فيه من الخوض واللعب وفيه وعيد وتهديد للمشركين وقال بعضهم هذا منسوخ بآية السيف وفيه بعد لأنه مذكور لأجل التهديد والوعيد ۞ قوله تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) يعنى وهذا القرآن كتاب أنزلناه من عندنا عليك يا محمد كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية وأصل البركة النماء والزيادة وثبوت الخير (مصدق الذى بين يديه) يعنى من الكتب الالهية المنزلة من السماء على الانبياء يعنى أنه موافق لما فى التوراة والانجيل وسائر الكتب لأنها اشتملت جميعها على التوحيد والتنزيه ونفى كل عيب ونقيصة وتدل على البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقا لجميع الكتب المنزلة (ولتنذر) قرئ بالتاء يعنى ولتنذر يا محمد وبالياء ومعناه ولينذر الكتاب (أم القرى) يعنى مكة وفيه حذف تقديره ولتنذر أهل أم القرى وسميت مكة أم القرى لأن الارض دحيت من تحتها قاله ابن عباس وقيل لأنها أقدم القرى وأعظمها بركة وقيل لأنها قبلة أهل الارض (ومن حولها) يعنى جميع البلاد والقرى التى حولها شرقا وغربا (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) يعنى والذين يصدقون بقيام الساعة وبالمعاد والبعث بعد الموت يصدقون بهذا الكتاب وأنه منزل من عند الله عز وجل وقيل يصدقون ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك أن الذى يؤمن بالآخرة يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ومن كان كذلك فانه يرغب فى تحصيل الثواب ودفع العقاب وذلك لا يحصل الا بالنظر التام فاذا نظر وتفكر علم بالضرورة أن دين محمد أشرف الأديان وشريعته أعظم الشرائع (وهم على صلاتهم يحافظون) يعنى يداومون عليها فى أوقاتها والمعنى أن الايمان بالآخرة يحمل على الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك

(قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا) حال من الضمير فى به أو من الكتاب (وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) مما فيه نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى بعضوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة ليتمكنوا مما راموا من الابداء والاخفاء وبالياء فى الثلاثة مكى وأبو عمرو (وعلمتم) يا أهل الكتاب بالكتاب (ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) من أمور دينكم ودنياكم (قل الله) جواب أى أنزله الله فانهم لا يقدرون أن يناكروك (ثم ذرهم فى خوضهم) فى باطلهم الذى يخوضون فيه (يلعبون) حال من ذرهم أو من خوضهم (وهذا كتاب أنزلناه) على نبينا عليه السلام (مبارك) كثير المنافع والفوائد (مصدق الذى بين يديه) من الكتب (ولتنذر) وبالياء أبو بكر أى الكتاب وهو معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب كأنه قيل أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدمه من الكتب والانذار (أم القرى) مكة وسميت أم القرى لأنها سرة الارض وقبلة أهل القرى وأعظمها شأنا ولأن الناس يؤمونها (ومن حولها) أهل الشرق والغرب (والذين يؤمنون بالآخرة) يصدقون بالعاقبة ويخافونها (يؤمنون به) بهذا الكتاب فأصل الدين خوف العاقبة فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن (وهم على صلاتهم يحافظون) خصت الصلاة بالذكر لأنها علم الايمان وعماد الدين فمن حافظ عليها

يحافظ على المحافظة على الصلاة وفائدة تخصيص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات التنبيه على أنها أشرف العبادات بعد الايمان بالله تعالى فاذا حافظ العبد عليها يكون محافظا على جميع العبادات والطاعات ﴿قوله عز وجل﴾ (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني ومن أعظم خطأ وأجهل فعلا ممن اختلق على الله كذبا فزعم أن الله بعثه نبيا وهو في زعمه كذاب مبطل (أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء) قال قتادة نزلت هذه الآية في مسيلمة الكذاب ابن ثمامة وقيل مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات وكهانة وسجع ادعى النبوة باليمن وزعم أن الله أوحى اليه وكان قد أرسل الى النبي صلى الله عليه وسلم رسولين فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشهدان أن مسيلمة نبي قالا نعم فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا نائم اذ أوتيت خزائن الارض فوضع في يدي سواران من ذهب فكبرا علي وأهماني فأوحى الي أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة وفي لفظ الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت في المنام كأن في يدي سوارين فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي يقال لاحدهما مسيلمة صاحب اليمامة والعنسي صاحب صنعاء قوله فأوحى الي أن انفخهما يروى بالحاء المهملة ومعناه الرمي والدفع من نفحت الدابة برجلها اذا دفعت ورمحت ويروى بالخاء المعجمة من النفخ يريد أنه نفخهما فطارا عنه وهو قريب من الاول فأما مسيلمة الكذاب فانه ادعى النبوة باليمامة من اليمن وتبعه قوم من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات فاغتر قومه بذلك وقتل مسيلمة الكذاب في زمن خلافة أبي بكر الصديق قتله وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب وكان وحشي يقول قتلت خير الناس يعني حمزة وقتلت شر الناس يعني مسيلمة وأما الاسود العنسي بالنون فهو عيهلة بن كعب وكان يقال له ذو الخمار ادعى النبوة باليمن في آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقتل والنبي صلى الله عليه وسلم حي لم يمت وذلك قبل موته بيومين وأخبر أصحابه بقتله وقتله فيروز الديلمي فقال النبي صلى الله عليه وسلم فاز فيروز يعني بقتله الاسود العنسي فمن قال ان هذه الآية يعني قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء نزلت في مسيلمة الكذاب والاسود العنسي يقول ان هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة وهو قول لبعض علماء التفسير تقدم ذكره في أول السورة ومن قال ان هذه الآية مكية وقال انها نزلت في شأنهما يقول انها خبر عن غيب فقد ظهر ذلك فيما بعد والله أعلم ﴿ وقوله تعالى (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) الآية قال السدي نزلت في عبد الله بن أبي سرح القرشي وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فكان اذا أملى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما واذا أملى عليه عليما حكيما كتب غفورا رحيما فلما نزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين أملاها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب عبد الله من تفصيل خلق الانسان فقال تبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتبها فهكذا نزلت فشك عبد الله بن أبي سرح وقال لئن كان محمد صادقا فقد أوحي الي مثل ما أوحي اليه فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين ثم رجع عبد الله بعد ذلك الى الاسلام فأسلم قبل فتح مكة والنبي صلى الله عليه وسلم نازل بمر الظهران وقال ابن عباس نزل قوله ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله في المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذبا في ذلك الزمان وبعده لانه لا يمنع خصوص السبب من عموم الحكم (ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت) يعني ولو ترى يا محمد حال هؤلاء الظالمين اذا نزل بهم الموت لرأيت أمرا عظيما وغمراته شدائده وسكراته وغمرة كل شيء معظمه وأصلها الشيء الذي يغمر الاشياء فيغطيها ثم وضعت في موضع الشدائد والمكاره (والملائكة باسطوا أيديهم) يعني بالعذاب يضربون وجوههم وأدبارهم وقيل باسطوا أيديهم لقبض أرواحهم (أخرجوا أنفسكم) يعني يقولون لهم أخرجوا أنفسكم فان قلت

يحافظ على أخواتها ظاهرا (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) هو مالك بن الصيف (أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء) هو مسيلمة الكذاب ومن قال في موضع جر عطف على من افترى أي وممن قال (سأنزل مثل ما أنزل الله) أي سأقول وأملي هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتب الوحي وقد أملى النبي عليه السلام عليه ولقد خلقنا الانسان الى خلقا آخر فجرى على لسانه فتبارك الله أحسن الخالقين فقال عليه السلام اكتبها فكذلك نزلت فشك وقال ان كان محمد صادقا فقد أوحي الي كما أوحي اليه وان كان كاذبا فقد قلت كما قال فارتد ولحق بمكة أو النضر ابن الحارث كان يقول والطاحنات طحنا فالعاجنات عجنا فالخابزات خبزا كأنه يعارض (ولو ترى) جوابه محذوف أي لرأيت أمرا عظيما (اذ الظالمون) يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة فتكون اللام للعهد ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله (في غمرات الموت) شدائده وسكراته (والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم) أي يبسطون

أنه لا يقدر أحد على إخراج روحه من بدنه ولكن في هذا الكلام وعيد وتقريع وقيل معناه يقولون لهم أخرجوا أنفسكم كرها لأن المؤمن يحب لقاء الله تعالى بخلاف الكافر وقيل معناه يقولون لهم خلصوا أنفسكم من هذا العذاب إن قدرتم على ذلك ويكون هذا القول توبيخا لهم لأنهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب في ذلك الوقت (اليوم تجزون عذاب الهون) يعني الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) يعني ذلك الذي تجزونه بسبب ما كنتم تقولون على الله غير الحق (وكنتم عن آياته تستكبرون) يعني وبسبب ما كنتم تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدقونه ﴿قوله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى) يعني وحدانا ليس معكم زوج ولا ولد ولا أحد وهذا خبر من الله عز وجل عن حال الكفار في يوم القيامة وكيف يحشرون إلى الله وماذا يقول لهم في ذلك اليوم وفي قوله فكأنهم قد جاؤوا فرادى تقريع وتوبيخ لهم لأنهم صرفوا همتهم في الدنيا إلى تحصيل المال والولد وأفنوا أعمارهم في عبادة الأصنام فلم يغن عنهم كل ذلك شيئا يوم القيامة فجاؤوا فرادى من كل ما حصلوه في الدنيا (كما خلقناكم أول مرة) يعني جئتمونا حفاة عراة غرلا يعني قلفا كما ولدتهم أمهاتهم في أول مرة في الدنيا لا شيء عليهم ولا معهم (ق) عن ابن عباس قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين (ق) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض قال الأمر أشد من أن يهمهم ذلك روى الطبري بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة فقالت يا رسول الله واسوأتاه إن الرجال والنساء يحشرون جميعا ينظر بعضهم إلى سوأة بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض ﴿وقوله تعالى (وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) يعني وتركتم الذي أعطيناكم وملكناكم من الأموال والأولاد والخدم والخول وكل ما أنعم الله به عليكم وخولكم فيه من المال والخدم وراء ظهوركم يعني في الدنيا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) يعني أن المشركين زعموا أنهم إنما عبدوا هذه الأصنام لأنها تشفع لهم عند الله يوم القيامة لأنها شركاء الله تعالى الله عن ذلك فإذا كان يوم القيامة وبخ الله المشركين وقرعهم بهذه الآية وقوله تعالى (لقد تقطع بينكم) قرئ بنصب النون من بينكم ومعناه لقد تقطع ما بينكم من الوصل أو يكون معناه لقد تقطع الأمر بينكم وقرئ بينكم برفع النون ومعناه لقد تقطع وصلكم والبين من الأضداد يكون وصلا ويكون هجرا (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) يعني وذهب وبطل ما كنتم تكذبون في الدنيا ﴿قوله عز وجل (إن الله فالق الحب والنوى) لما تقدم الكلام على تقرير التوحيد وتقرير النبوة أردفه بذكر الدلائل الدالة على كمال قدرته وعلمه وحكمته تنبيها بذلك على أن المقصود الأعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله وأنه مبدع الأشياء وخالقها ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها وفيها تنبيه لما كانوا عليه من الإشراك الذي كانوا عليه والمعنى أن الذي يستحق العبادة دون غيره هو الله الذي فلق الحب عن النبات والنواة عن النخلة وفي معنى فالق قولان أحدهما أنه بمعنى خالق ومعنى الآية على هذا القول إن الله خالق الحب والنوى وهو قول ابن عباس في رواية الوالبي عنه وبه قال الضحاك ومقاتل قال الواحدي ذهبوا بالفالق مذهب الفاطر وأنكر الطبري هذا القول وقال لا يعرف في كلام العرب فالق الله الشيء بمعنى خلق ونقل الأزهري عن الزجاج جوازه وقيل الفالق الخالق وإذا تأملت الخلق لك أن أكثره بالانفلاق ومعنى هذا الكلام أن جميع الأشياء كانت قبل الوجود في العدم فلما أرادها الله تعالى وأخرجها من العدم إلى الوجود فكأنه فلقها وأظهرها والقول الثاني وهو قول الأكثرين أن

اليوم أيديهم يقولون هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم وهذه عبارة عن التشديد في الإرهاق من غير تنفيس وإمهال (اليوم تجزون عذاب الهون) أرادوا وقت الإماتة وما يعذبون به من شدة النزع والهون الهوان الشديد وإضافة العذاب إليه كقولك رجل سوء يريد العراقة في الهوان والتمكن فيه (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) من أن له شريكا وصاحبة وولدا وغير الحق مفعول تقولون أو وصف لمصدر محذوف أي قولا غير الحق (وكنتم عن آياته تستكبرون) فلا تؤمنون بها (ولقد جئتمونا) للحساب والجزاء (فرادى) منفردين بلا مال ولا معين وهو جمع فريد كأسير وأسارى (كما خلقناكم) في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا أي مجيئا مثل ما خلقناكم (أول مرة) على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد (وتركتم ما خولناكم) ملكناكم (وراء ظهوركم) ولم تحتملوا منه نقيرا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) في استعبادكم (لقد تقطع بينكم) وصلكم على الرفع والبين الوصل والهجر قال الشاعر فوالله لولا البين لم يكن الهوى * ولولا الهوى ما حن للبين آلف بينكم مدني وعلي وحفص أي وقع التقطع بينكم (وضل عنكم) وضاع وبطل (ما كنتم تزعمون) أنها شفعاؤكم عند الله (إن الله فالق الحب والنوى)

بالنبات

الفلق هو الشق ثم اختلفوا في معناه على قولين أحدهما وهو مروي عن ابن عباس قال فلق الحب عن السنبلة والنواة عن النخلة وهو قول الحسن والسدي وابن زيد قال الزجاج شق الحبة اليابسة والنواة اليابسة فيخرج منها ورقا أخضر والقول الثاني وهو قول مجاهد انه الشقان اللذان في الحب والنوى والحب هو الذي ليس له نوى كالحنطة والشعير والارز وما أشبه ذلك والنوى جمع نواة وهي ما كان على ضد الحب كالرطب والخوخ والمشمش وما أشبه ذلك ومعنى قوله فالق الحب والنوى أنه اذا وقعت الحبة أو النواة في الارض الرطبة ثم مر على ذلك قدر من الزمان أظهر الله تبارك وتعالى من تلك الحبة ورقا أخضر ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب ويظهر من النواة شجرة صاعدة في الهواء وعروقا ضاربة في الارض فسبحان من أوجد جميع الاشياء بقدرته وابداعه وخلقه ۞ وقوله تعالى (يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى) قال ابن عباس في رواية يخرج من النطفة بشرا حيا ويخرج النطفة الميتة من الحى وهذا قول الكلبي ومقاتل قال الكلبي يخرج النسمة الحية من النطفة الميتة ويخرج الفرخ من البيضة ويخرج النطفة الميتة والبيضة الميتة من الحى وقال ابن عباس في رواية أخرى يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن بجعل الايمان بمنزلة الحياة والكفر بمنزلة الموت وهذا قول الحسن وقيل معناه يخرج الطائع من العاصي والعاصي من الطائع وقال السدي يخرج النبات من الحب والحب من النبات وهذا اختيار الطبري لانه قال عقب قوله ان الله فالق الحب والنوى فان قلت كيف قال ومخرج الميت من الحى بلفظ اسم الفاعل بعد قوله يخرج الحى من الميت وما السبب في عطف الاسم على الفعل قلت قوله ومخرج الميت من الحى عطف على قوله فالق الحب والنوى وقوله يخرج الحى من الميت كالبيان والتفسير لقوله فالق الحب والنوى لان فلق الحب والنوى اليابس واخراج النبات والشجر منه من جنس اخراج الحى من الميت لان النامى من النبات في حكم الحيوان وقوله (ذلكم الله) يعني ذلكم الله المدبر الخالق الصانع لهذه الاشياء المحيي المميت لها (فأنى تؤفكون) يعني فأنى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذي هو خالق الاشياء كلها وفيه دليل أيضا على صحة البعث بعد الموت لان القادر على اخراج البدن من النطفة قادر على اخراجه من التراب للحساب ۞ قوله تعالى (فالق الاصباح) أى شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده والاصباح مصدر سمى به الصبح وقال الزجاج الاصباح والصبح واحد وهو أول النهار فان قلت ظاهر الآية يدل على انه تعالى فلق الصبح والظلمة هي التى تنفلق بالصبح فما معنى ذلك قلت ذكر العلماء فيه وجوها الاول أن يكون المراد فالق ظلمة الصباح وذلك لان الصبح صبحان فالصبح الاول هو البياض المستطيل الصاعد في الافق كذنب السرحان وهو الذئب ثم تعقبه ظلمة بعد ذلك ويسمى هذا الصبح الفجر الكاذب لانه يبدو في الافق الشرقي ثم يضمحل ويذهب ثم يطلع بعده الصبح الثاني وهو الضوء المستطير في جميع الافق الشرقي ويسمى الفجر الصادق لانه ليس بعده ظلمة والحاصل من هذا أن يكون المعنى فالق ظلمة الصبح الاول بنور الصبح الثاني الوجه الثاني انه تعالى كما شق ظلمة الليل بنور الصباح فكذلك يشق نور الصبح بضياء النهار فيكون معنى قوله فالق الاصباح أى فالق الصباح بنور النهار الوجه الثالث ان يراد فالق ظلمة الاصباح وهي الغبش في آخر الليل الذي يلي الصبح الوجه الرابع أن يكون المعنى فالق الاصباح الذي هو عمود الفجر اذا انصدع الفجر وانفلق وسمى الفجر فلقا بمعنى مفلوق الوجه الخامس الفلق بمعنى الخلق يعني خالق الاصباح وعلى هذا القول يزول الاشكال والصبح هو الضوء الذي به أول النهار والمعنى انه تعالى مبدئ ضوء الصبح وخالقه ومنوره ۞ وقوله تعالى (وجاعل الليل سكنا) السكن ما سكنت اليه واسترحت به يريد ان الناس يسكنون في الليل سكون راحة لان الله جعل الليل لهم كذلك قال ابن عباس ان كل ذي روح يسكن فيه لان الانسان قد أتعب نفسه في النهار فاحتاج الى زمان يستريح فيه ويسكن عن الحركة

النبات والشجر أى فالق الحب عن السنبلة والنواة عن النخلة والفالق الشق وعن مجاهد أراد الشقين اللذين في النواة والحنطة (يخرج الحى من الميت) النبات الغض النامى من الحب اليابس (ومخرج الميت من الحى) الحب اليابس من النبات النامى أو الانسان من النطفة والنطفة من الانسان أو المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن فاحتج الله عليهم بما يشاهدونه من خلقه لانهم أنكروا البعث فاعلمهم أنه الذى خلق هذه الاشياء هو يقدر على بعثهم وانما قال ومخرج الميت بلفظ اسم الفاعل لانه معطوف على فالق الحب لا على الفعل ويخرج الحى من الميت موقعه موقع الجملة المبينة لقوله فالق الحب والنوى لان فلق الحب والنوى بالنبات والشجر النابتين من جنس اخراج الحى من الميت لان النامى في حكم الحيوان دليله قوله ويحيى الارض بعد موتها (ذلكم الله) ذلكم المحيي والمميت هو الله الذى تحق له الربوبية لا الاصنام (فأنى تؤفكون) فكيف تصرفون عنه وعن توليه الى غيره بعد وضوح الامر بما ذكرنا (فالق الاصباح) هو مصدر سمى به الصبح أى شاق عمود الصبح عن سواد الليل أو خالق نور النهار (وجاعل الليل) وجعل الليل كوفي لان اسم الفاعل الذى قبله بمعنى المضى فلما كان فالق بمعنى فلق عطف عليه جعل لتوافقهما معنى (سكنا)

وذلك هو الليل (والشمس والقمر حسبانا) يعني انه تعالى قدر حركة الشمس والقمر في الفلك بحساب معين قال ابن عباس يجريان الى أجل جعل لهما يعني عدد الايام والشهور والسنين وقال الكلبي منازلهما بحسبان لا يجاوزانه حتى ينتهيا الى أقصى منازلهما (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره في هذه الآية من الاشياء التي خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله (تقدير العزيز العليم) فالعزيز اشارة الى كمال قدرته والعليم اشارة الى كمال علمه ﴿ قوله عز وجل (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) جعل ههنا بمعنى خلق يعني وان الله الذي خلق لكم هذه النجوم أدلة لتهتدوا بها اذا ضللتم الطريق وتحيرتم فما تتم النعمة على عباده بان جعل لهم النجوم ليهتدوا بها الى المسالك والطرق في البر والبحر الى حيث يريدون ويستدلون بالنجوم أيضا على القبلة فيستدلون على ما يريدون في النهار بحركة الشمس وفي الليل بحركة الكواكب ومن منافعها أيضا أنه تعالى جعلها زينة للسماء ورجوما للشياطين كما قال ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين (قد فصلنا الآيات) يعني قد بينا الآيات الدالة على توحيدنا وكمال قدرتنا (لقوم يعلمون) أن ذلك مما يستدل به على وجود الصانع المختار وكمال علمه وقدرته ﴿ (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة) يعني والله الذي ابتدأ خلقكم أيها الناس من آدم عليه السلام فهو أبو البشر كلهم وحواء مخلوقة منه وعيسى أيضا لان ابتداء خلقه من مريم وهي من بنات آدم فثبت أن جميع الخلق من آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) قرئ فمستقر بكسر القاف وفتحها فقال قرى ... فمن كسر القاف قال المستقر بمعنى القار والمعنى فمنكم مستقر يعني في الارحام ومن فتح القاف جعله مكانا فالمستقر بمعنى المقر فيكون المعنى لكم مقر وأما المستودع فهو مثل أودع فيجوز أن يكون اسما للانسان الذي استودع ذلك المكان ويجوز أن يكون المكان نفسه فمن قرأ مستقر بفتح القاف جعل المستودع مكانا والمعنى فلكم مكان استقرار ومكان استيداع ومن كسر القاف جعل المعنى منكم مستقر ومنكم مستودع يعني منكم من استقر ومنكم من استودع والفرق بين المستقر والمستودع أن المستقر أقرب الى الثبات من المستودع لان المستقر من القرار والمستودع معرض لان يرد ولهذا اختلفت عبارات المفسرين في معنى هذين اللفظين فروي عن ابن عباس أنه قال المستقر في أرحام الامهات والمستودع في أصلاب الآباء ثم قرأ ونقر في الارحام ما نشاء ويؤيد هذا القول أن النطفة لا تبقى في صلب الاب زمانا طويلا والجنين يبقى في بطن الام زمانا طويلا ولما كان المكث في بطن الام أكثر من صلب الاب حمل المستقر على الرحم والمستودع على الصلب وروي عنه أنه قال بالعكس يعني أن المستقر صلب الاب والمستودع رحم الام ووجه هذا القول أن النطفة حصلت في صلب الاب قبل رحم الام فوجب حمل المستقر على الصلب والمستودع على الرحم وقال ابن مسعود المستقر في الرحم الى أن يولد والمستودع في القبر الى أن يبعث وقال مجاهد المستقر على ظهر الارض في الدنيا لقوله ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين والمستودع عند الله في الآخرة وقال الحسن المستقر في القبر والمستودع في الدنيا وكان يقول يا ابن آدم أنت مستودع في أهلك الى أن تلحق بصاحبك يعني القبر وقيل المستودع في القبر والمستقر اما في الجنة أو النار لان المقام فيهما يقتضي الخلود والتأبيد (قد فصلنا الآيات) يعني قد بينا الدلائل الدالة على التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة (لقوم يفقهون) يعني لقوم يفهموا عن الله آياته ودلائله الدالة على توحيده لان الفقه هو الفهم ﴿ قوله عز وجل (وهو الذي أنزل من السماء ماء) يعني المطر وقيل ان الله ينزل المطر من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض (فأخرجنا به

سكنوا فيه من أول الليل لتسكنوا فيه أي ليسكن فيه الخلق عن كد المعيشة الى نوم الغفلة أو عن وحشة الخلق الى الانس بالحق (والشمس والقمر) انتصبا بإضمار فعل يدل عليه جاعل الليل أي وجعل الشمس والقمر (حسبانا) أي جعلهما على حسبان لان حساب الاوقات يعلم بدورهما وسيرهما والحسبان بالضم مصدر حسب كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب (ذلك) اشارة الى جعلهما حسبانا أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم (تقدير العزيز) الذي قهرهما وسخرهما (العليم) بتدبيرهما وتدويرهما (وهو الذي جعل لكم النجوم) خلقها (لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) أي في ظلمات الليل بالبر والبحر وأضافها اليهما لملابستها لهما أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) قد بينا الآيات الدالة على التوحيد لقوم يعلمون (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة) هي آدم عليه السلام (فمستقر ومستودع) فمستقر بالكسر مكي وبصري فمن فتح القاف كان المستودع اسم مكان مثله ومن كسرها كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول يعني فلكم مستقر في الرحم ومستودع في الصلب أو مستقر فوق الارض ومستودع تحتها أو فمنكم مستقر ومنكم مستودع (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) وانما قيل يعلمون ثم يفقهون هنا لان الدلالة ثم أظهر وهنا أدق لان انشاء الانس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة أدق فكان ذكر الفقه الدال على تدقيق النظر أوفق (وهو الذي أنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فأخرجنا به) بالماء

يعني بالماء الذي أنزلناه من السماء (نبات كل شيء) يعني كل شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات وقيل معناه أخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء غذاء كل شيء من الانعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم مما يتغذون به فيثبتون عليه وينمون (فأخرجنا منه خضرا) يريد أخضر مثل عور وأعور والاخضر هو جميع الزروع والبقول الرطبة (نخرج منه حبا متراكبا) يعني نخرج من ذلك الاخضر سنابل فيها الحب يركب بعضها فوق بعض مثل سنبل القمح والشعير والارز والذرة وسائر الحبوب وفي تقديم الزرع على النخل دليل على الافضلية ولان حاجة الناس اليه أكثر لانه القوت المألوف (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) يعني من ثمرها يقال أطلعت النخلة اذا أخرجت طلعها وطلعها كفراها قبل أن ينشق عن الاغريض والاغريض يسمى طلعا أيضا وهو ما يكون في قلب الطلع والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فاذا انشق عنه كيزانه سمي عذقا وهو القنو وجمعه قنوان مثل صنو وصنوان دانية أي قريبة التناول ينالها القائم والقاعد وقال مجاهد متدلية وقال الضحاك قصار ملتصقة بالارض وفيه اختصار وحذف تقديره ومن النخل ما قنوانها دانية قريبة ومنها ما هي بعيدة عالية فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولانها أسهل تناولا من البعيدة لان البعيدة تحتاج الى كلفة (وجنات من أعناب) يعني وأخرجنا من ذلك بساتين من أعناب (والزيتون والرمان) يعني وأخرجنا شجر الزيتون وشجر الرمان (مشتبها) قال قتادة مشتبها ورقها مختلفا ثمرها لان ورق الزيتون يشبه ورق الرمان (وغير متشابه) يعني ومنها غير متشابه في الورق والطعم واعلم ان الله تعالى ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع وانما قدم الزرع على سائر الاشجار لان الزرع غذاء وثمار الاشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه وانما قدم النخلة على غيرها لان ثمرتها تجري مجرى الغذاء وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الاشجار وانما ذكر العنب عقب النخلة لانها من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة في الاكل وسائر وجوه الاستعمال ثم ذكر عقبه الرمان لما فيه من المنافع أيضا لانه فاكهة ودواء ثم قال تعالى (انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه) يعني ونضجه وادراكه والمعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله تعالى هذه الثمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة ﴿وهو قوله (ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) يعني يصدقون ان الذي أخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على أن يحيي الموتى ويبعثهم وانما احتج الله عليهم بتصريف ما خلق ونقله من حال الى حال وهو ما يعلمونه قطعا ويشاهدونه من احياء الارض بعد موتها واخراج سائر أنواع النبات والثمار منها انه لا يقدر على ذلك أحد الا الله تعالى ليبين أنه تعالى كذلك قادر على أن يحييهم بعد موتهم ويبعثهم يوم القيامة فاحتج عليهم بهذه الاشياء لانهم كانوا ينكرون البعث ﴿قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) قال الحسن معناه أطاعوا الجن في عبادة الاوثان وهو اختيار الزجاج قال يعني انهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله وقال الكلبي نزلت في الزنادقة أثبتوا الشرك لاثنين في الخلق فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والانعام وابليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ونقل هذا القول ابن الجوزي عن ابن السائب ونقله الرازي عن ابن عباس قال الامام فخر الدين الرازي وهذا مذهب المجوس وانما قال ابن عباس هذا قول الزنادقة لان المجوس يلقبون

(نبات كل شيء) نبت كل صنف من أصناف النامي أي السبب هو الماء واحد والمسببات صنوف مختلفة (فأخرجنا منه) من النبات (خضرا) أي شيئا غضا أخضر يقال أخضر وخضر وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة (نخرج منه) من الخضر (حبا متراكبا) وهو السنبل الذي تراكب حبه (٤١) (ومن النخل من طلعها قنوان) هو رفع بالابتداء ومن النخل خبره ومن طلعها بدل منه كأنه قيل وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو جمع قنو وهو العذق ونظيره صنو وصنوان (دانية) من المجتني لانحنائها بثقل حملها أو لقصر ساقها وفيه اكتفاء أي وغير دانية لطولها كقوله سرابيل تقيكم الحر (وجنات) بالنصب عطفا على نبات كل شيء أي وأخرجنا به جنات (من أعناب) أي مع النخل وكذا (والزيتون والرمان) وجنات بالرفع الاعشى أي وثم جنات من أعناب أي مع النخل (مشتبها وغير متشابه) يقال اشتبه الشيآن وتشابها واستويا وتساويا والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرا وتقديره والزيتون متشابها وغير متشابه والرمان كذلك يعني بعضه متشابه وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم (انظروا الى ثمره اذا أثمر) اذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضعيفا لا ينتفع به (وينعه) ونضجه

أي انظروا الى حال نضجه كيف يعود شيئا جامعا للمنافع نظر اعتبار واستدلال على قدرة مقدره الله من حال الى حال (ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ثمره وكذا ما بعده حمزة وعلي جمع ثمار فهو جمع الجمع يقال ثمرة وثمار وثمار وثمر (وجعلوا لله شركاء الجن) ان جعلت لله شركاء مفعولي جعلوا كان الجن بدلا من شركاء والا كان شركاء الجن مفعولين قدم ثانيهما على

زندقة لان الكتاب الذى يزعم زردشت أنه نزل من السماء سماه بازند والمنسوب اليه زندى ثم عرب فقيل زنديق والجمع قيل زنادقة ثم ان المجوس قالوا كل ما يكون فى هذا العالم من الخير فهو من يزدان يعنى النور وجميع ما فى العالم من الشر فهو من الظلمة يعنى ابليس ثم اختلف المجوس فالاكثرون منهم على أن ابليس محدث ولهم فى كيفية حدوثه قول عجيبة والاقلون منهم قالوا انه قديم وعلى كلا القولين فقد اتفقوا على أنه شريك لله فى تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وما كان من شر فمن ابليس تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً فان قلت فعلى هذا القول انما أثبتوا لله شريكاً واحداً وهو ابليس فكيف حكى الله أنهم جعلوا لله شركاء قلت ان ابليس له أعوان من جنسه وحزبه وهم شياطين الجن يعملون أعماله فصح ما حكاه الله عنهم من انهم جعلوا له شركاء الجن ومعنى الآية وجعلوا الجن شركاء لله ولما اختلفوا فى معنى هذه الشركة فمن قال ان الآية فى كفار العرب قال انهم لما أطاعوا الجن فيما أمروهم به من عبادة الاصنام فقد جعلوهم شركاء لله ومن قال انها فى المجوس قال انهم أثبتوا الهين اثنين النور والظلمة وقيل ان كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله وهم شركاؤه فعلى هذا القول فقد جعلوا الملائكة من الجن وذلك لانهم مستورون عن الاعين وقوله (وخلقهم) فى معنى الكناية قولان أحدهما انها تعود الى الجن فيكون المعنى والله خالق الجن فكيف يكون شريك الله من هو محدث مخلوق والقول الثانى أن الكناية تعود الى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى وجعلوا الله الذى خلقهم شركاء لا يخلقون شيأ وهذا كالدليل القاطع ان المخلوق لا يكون شريكاً لله وكل ما فى الكون محدث مخلوق والله تعالى هو الخالق لجميع ما فى الكون فامتنع أن يكون لله شريك فى ملكه (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) أى اختلقوا وكذبوا يقال اختلق واخترق على فلان اذا كذب عليه وذلك ان النصارى وطائفة من اليهود ادعوا ان لله ابنا وكفار العرب ادعوا ان الملائكة بنات الله وكذبوا على الله جميعاً فيما ادعوه وقوله بغير علم كالتنبيه على ما هو الدليل القاطع على فساد هذا القول لان الولد جزء من الاب والله سبحانه وتعالى لا يتجزأ فثبت بهذا فساد قول من يدعى ان لله ولداً ثم نزه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد وعن هذه الاقاويل الفاسدة فقال تعالى (سبحانه وتعالى عما يصفون) فقوله سبحانه تنزيه لله عن كل ما لا يليق بجلاله وقوله تعالى يعنى هو المتعالى عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد أو يكون المعنى المتعالى عن اتخاذ الولد والشريك وقوله عما يصفون يعنى عما يصفونه به من الكذب ۞ قوله عز وجل (بديع السموات والارض) الابداع عبارة عن تكوين الشئ على غير مثال سبق والله تعالى خلق السموات والارض على غير مثال سبق (أنى يكون له ولد) يعنى من أين يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) لان الولد لا يكون الا من صاحبة أنثى ولا ينبغى أن تكون لله صاحبة لانه ليس كمثله شئ (وخلق كل شئ) يعنى أن الصاحبة والولد فى جملة من خلق لانه خالق كل شئ وليس كمثله شئ فكيف يكون الولد لمن لا مثل له واذا نسب الولد والصاحبة اليه فقد جعل له مثل والله تعالى منزه عن المثلية وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى (وهو بكل شئ عليم) يعنى أنه تعالى عالم بجميع خلقه لا يعزب عن علمه شئ وعلمه محيط بكل شئ ۞ قوله تعالى (ذلكم الله ربكم) يعنى ذلكم الله الذى من صفته انه خلق السموات والارض وأبدعها على غير مثال سبق وانه بكل شئ عليم هو ربكم الذى يستحق العبادة لا من تدعون من دونه من الاصنام لانها جمادات لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ولا تعلم والله تعالى هو الخالق الضار النافع (لا اله الا هو خالق كل شئ

الاولى وفائدة التقديم استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكاً أو جنياً أو غير ذلك والمعنى انهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شر بجعلوهم شركاء لله (وخلقهم) وقد خلق الجن فكيف يكون المخلوق شريكاً لخالقه والجملة حال أى وخلق الجاعلين لله شر يعبدون غيره (وخرقوا له) أى اختلقوا يقال خلق الافك وخرقه واختلقه واخترقه بمعنى أو هو من خرق الثوب اذا شقه أى اشتقوا له (بنين) كقول أهل الكتاب فى المسيح وعزير (وبنات) كقول بعض العرب فى الملائكة وخرقوا بالتشديد لتكثير مدنى لقوله بنين وبنات (بغير علم) من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوا من خطأ أو صواب ولكن رمياً بقول عن جهالة وهو حال من فاعل خرقوا أى جاهلين بما قالوا (سبحانه وتعالى عما يصفون) من الشريك والولد (بديع السموات والارض) يقال بدع الشئ فهو بديع وهو من اضافة الصفة المشبهة الى فاعلها يعنى بديع سمواته وأرضه أو هو بمعنى المبدع أى مبدعها وهو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره (أنى يكون له ولد) أو هو فاعل تعالى (ولم تكن له صاحبة) أى من أين يكون له ولد والولد لا يكون الا من صاحبة ولا صاحبة له ولان الولادة من صفات الاجسام ومخترع الاجسام لا يكون جسماً حتى يكون له ولد (وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم) أى ما من شئ الا وهو خالقه وعالمه ومن كان كذلك كان غنياً عن كل شئ والولد انما يطلبه المحتاج (ذلكم) اشارة الى الموصوف بما تقدم من الصفات وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهى (الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ) وقوله (فاعبدوه)

فاعبدوه) يعني انه هو الذي يستحق العبادة فاعبدوه وأطيعوه (وهو على كل شيء وكيل) يعني أنه هو تعالى على كل شيء مع ذلك رقيب حفيظ يقوم بأرزاق جميع خلقه ۞ قوله عز وجل (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) قال جمهور المفسرين معنى الادراك الاحاطة بكنه الشيء وحقيقته فالابصار ترى البارى جل جلاله ولا تحيط به كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به وقال سعيد بن المسيب في تفسير قوله لا تدركه الابصار لا تحيط به الابصار وقال ابن عباس كلت أبصار المخلوقين عن الاحاطة به

﴿فصل﴾ تمسك بظاهر الآية قوم من أهل البدع وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وقالوا ان الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه وان رؤيته مستحيلة عقلا لان الله أخبر أن الأبصار لا تدركه وادراك البصر عبارة عن الرؤية اذ لا فرق بين قوله أدركته ببصري ورأيته ببصري فثبت بذلك ان قوله لا تدركه الابصار بمعنى لا تراه الابصار وهذا يفيد العموم ومذهب أهل السنة ان المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة وان رؤيته غير مستحيلة عقلا واحتجوا لصحة مذهبهم بظاهر أدلة الكتاب والسنة واجماع الصحابة ومن بعدهم من سلف الأمة على اثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين في الآخرة قال الله تبارك وتعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ففي هذه الآية دليل على ان المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وقال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون قال الشافعي رحمه الله حجب قوما بالمعصية وهي الكفر فثبت ان قوما يرونه بالطاعة وهي الايمان وقال مالك لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الكفار بالحجاب وقال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فسر واحد الزيادة بالنظر الى وجه الله تبارك وتعالى يوم القيامة وأما دلائل السنة فما روي عن جرير بن عبد الله البجلي قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة البدر وقال انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم ان لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ان ناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تضامون في القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسول الله قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا يا رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكم ترونه كذلك أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي وليس عنده في أوله ان ناسا سألوا ولا في آخره ليس دونها سحاب عن أبي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة قال نعم قلت وما آية ذلك من خلقه قال يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به قلت بلى قال فالله أعظم انما هو خلق من خلق الله يعني القمر فالله أجل وأعظم أخرجه أبو داود وأما الدلائل العقلية فقد احتج أهل السنة أيضا بهذه الآية على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة وتقريره أنه تعالى تمدح بقوله لا تدركه الابصار فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل هذا التمدح لان المعدوم لا يصح التمدح به فثبت ان قوله لا تدركه الابصار يفيد المدح وهذا يدل على أنه تعالى جائز الرؤية وتحقيقه ان الشيء اذا كان في نفسه بحيث تمتنع رؤيته فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم أما اذا كان في نفسه جائز الرؤية ثم انه قدر على حجب الابصار عنه كانت القدرة دالة على المدح والعظمة فثبت ان هذه الآية دالة على انه تعالى جائز الرؤية واذا ثبت هذا أوجب القطع بان المؤمنين يرونه يوم القيامة لان موسى صلى الله عليه وسلم سأل الرؤية بقوله أرني أنظر اليك وذلك يدل على جواز الرؤية اذ لا يسأل نبي مثل موسى ما لا يجوز ويمتنع وقد علق الله الرؤية على استقرار الجبل بقوله فان استقر مكانه فسوف تراني واستقرار الجبل جائز والمعلق على الجائز جائز وأما الجواب عن تمسك المعتزلة بظاهر هذه الآية في نفي الرؤية فاعلم ان الادراك غير الرؤية لان الادراك هو الاحاطة بكنه الشيء وحقيقته والرؤية المعاينة للشيء من غير احاطة وقد تكون الرؤية بغير ادراك كما قال تعالى في قصة موسى قال أصحاب موسى انا لمدركون قال كلا

تعبدوا من دونه من بعض خلقه (وهو على كل شيء وكيل) أي هو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الارزاق والآجال رقيب على الاعمال (لا تدركه الابصار) لا تحيط به ٣ أو أبصار من سبق ذكرهم وتشبث المعتزلة بهذه الآية لا يستتب لان المنفي هو الادراك لا الرؤية والادراك هو الوقوف على جوانب المرئي وحدوده وما يستحيل عليه الحدود والجهات يستحيل ادراكه لا رؤيته فنزل الادراك من الرؤية منزلة الاحاطة من العلم ونفي الاحاطة التي تقتضي الوقوف على الجوانب والحدود لا يقتضي نفي العلم به فكذا هذا على أن مورد الآية وهو التمدح يوجب ثبوت الرؤية اذ نفي ادراك ما تستحيل رؤيته لا تمدح فيه لان كل ما لا يرى لا يدرك وانما التمدح بنفي الادراك مع تحقق الرؤية اذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية دليل ارتفاع نقيصة التناهي والحدود على الذات فكانت الآية حجة لنا عليهم ولو أمعنوا النظر فيها لاغتنموا التفصي عن عهدتها ومن ينفي الرؤية يلزمه نفي انه معلوم موجود

٣ لعل هنا سقطا وأصله (وهو يدرك الابصار) أي كل الابصار أو الخ فليحرر اه

وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم لكن قد نفوا ادراكهم اياهم ونفى موسى الادراك مع اثبات الرؤية بقوله كلا والله تعالى يجوز أن يرى في الآخرة من غير ادراك ولا احاطة لأن الادراك هو الاحاطة بالمرئي وهو ما كان محدودا وله جهات والله تعالى منزه عن الحد والجهة لأنه القديم الذي لا نهاية لوجوده فعلى هذا انه تعالى يرى ولا يدرك وقال قوم ان الآية مخصوصة بالدنيا قال ابن عباس في معنى الآية لا تدركه الابصار في الدنيا وهو يرى في الآخرة وعلى هذا القول فلا فرق بين الادراك والرؤية فاورد بدليل على هذا التخصيص قوله وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فقوله يومئذ ناضرة مقيد بيوم القيامة وعلى هذا يمكن الجمع بين الآيتين وقال السدي البصر بصران بصر معاينة وبصر علم فمعنى قوله لا تدركه الابصار لا يدركه علم العلماء وغيره ولا يحيطون به علما وهذا فيه حسن أيضا والله أعلم وقوله تعالى وهو يدرك الابصار يعني انه تعالى يرى جميع المرئيات ويبصر جميع المبصرات لا يخفى عليه شيء منها ويعلم حقيقتها ويطلع على ماهيتها فهو تعالى لا تدركه أبصار المبصرين وهو مدركها (وهو اللطيف الخبير) قال ابن عباس اللطيف بأوليائه الخبير بهم وقال الأزهري معنى اللطيف الرفيق بعباده وقيل هو الموصل الشيء بلين ورفق وقيل هو الذي ينسي عباده ذنوبهم لئلا يخجلوا وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء وقال أبو سليمان الخطابي اللطيف هو البر بعباده يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويوصل اليهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون وقال الأزهري اللطيف في أسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده وقيل هو اللطيف حيث لم يأمر عباده فوق طاقتهم وينعم عليهم فوق استحقاقهم وقيل هو اللطيف بعباده حيث يثني عليهم عند الطاعة ولم يقطع عنهم بره واحسانه عند المعصية وقيل هو الذي لطف عن أن تدركه الابصار وهو يدركها ۞ قوله تعالى (قد جاءكم بصائر من ربكم) البصائر جمع البصيرة وهي الدلالة التي توجب البصر بالشيء والعلم به والمعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والحجج التي تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل وقيل ان الآيات والبراهين ليست في أنفسها بصائر الا أنها لقوتها توجب البصائر لمن عرفها ووقف على حقائقها فلما كانت هذه الآيات والحجج والبراهين أسبابا لحصول البصائر سميت بصائر (فمن أبصر) يعني فمن عرف الآيات واهتدى بها الى الحق (فلنفسه) يعني فلنفسه أبصر ولها عمل لأنه يرد نفع ذلك عليه (ومن عمي) يعني ومن جهل ولم يعرف الآيات ولم يستدل بها الى الطريق (فعليها) يعني فعلى نفسه عمي ولها أضر وكان وبال ذلك العمى عليه لأن الله تعالى غني عن خلقه (وما أنا عليكم بحفيظ) يعني وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم انما أنا رسول من ربكم اليكم أبلغكم ما أرسلت به اليكم والله هو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم وقيل معناه لا أقدر أن أدفع عنكم ما يريده الله بكم وقيل معناه لست آخذكم بالايمان أخذ الحفيظ الوكيل وهذا كان قبل الأمر بقتال المشركين فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى القول الأول ليست منسوخة والله أعلم ۞ قوله عز وجل (وكذلك نصرف الآيات) يعني وكذلك نبين الآيات ونفصلها في كل وجه كما صرفناها فيما قبل (وليقولوا درست) يعني وكذلك نصرف الآيات لتلزمهم الحجة وليقولوا درست وقيل معناه لئلا يقولوا درست وقيل اللام فيه لام العاقبة ومعناه عاقبة أمرهم أن يقولوا درست يعني قرأت على غيرك يقال درس الكتاب يدرسه دراسة اذا أكثر قراءته وذلله للحفظ قال ابن عباس وليقولوا يعني أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن درست يعني تعلمت من يسار وجبر وكانا عبدين من سبي الروم ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله وقال الفراء معناه تعلمت من اليهود وقرئ دارست بالألف يعني قارأت أهل الكتاب من المدارسة التي هي بين اثنين يعني يقولون قرأت على أهل الكتاب وقرؤا عليك وقرئ درست بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء ومعناه ان هذه الأخبار التي

وإذ كان تعالى موجودا بلا كيفية وجهة على خلاف كل موجود لم يعتبر أن يرى بلا كيفية وجهة بخلاف كل مرئي وهذا لأن الرؤية تحقق الشيء بالبصر كما هو فإن كان المرئي في الجهة يرى فيها وإن كان لا في الجهة يرى لا فيها (وهو اللطيف) أي العالم بدقائق الامور ومشكلاتها (الخبير) العليم بظواهر الأشياء وخفياتها وهو من قبيل اللف والنشر (قد جاءكم بصائر من ربكم) البصيرة نور القلب الذي به يستبصر القلب كما أن البصر نور العين الذي به تبصر أي جاءكم من الوحي والتنبيه ما هو للقلوب كالبصائر (فمن أبصر) الحق وآمن (فلنفسه) أبصر وإياها نفع (ومن عمي) عنه وضل (فعليها) فعلى نفسه عمي وإياها ضر بالعمى (وما أنا عليكم بحفيظ) أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم الكاف في (وكذلك نصرف الآيات) في موضع نصب صفة المصدر المحذوف أي نصرف الآيات تصريفا مثل ما تلونا عليك (وليقولوا) جوابه محذوف أي وليقولوا (درست)

تلوها عليه اليهود وقد درست بمعنى قولهم درس الأثر إذا عفى وذهب أثره (ولنبينه لقوم يعلمون) يعني القرآن وقيل معناه نصرف الآيات لقوم يعلمون قال ابن عباس يريد أولياءه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد وقيل معنى الآية وكذلك نصرف الآيات ليسعد بها قوم ويشقى بها آخرون فمن أعرض عنها وقال للنبي صلى الله عليه وسلم درست أو دارست فهو شقي ومن تبين له الحق وفهم معناها وعمل بها فهو سعيد وقال أبو إسحق إن السبب الذي أداهم إلى أن قالوا درست هو تلاوة الآيات عليهم وهذه اللام تسميها أهل اللغة لام الصيرورة والمعنى صار عاقبة أمرهم أن قالوا درست فصار ذلك سببا لشقاوتهم وفي هذا دليل على أن الله تعالى جعل تصريف الآيات سببا لضلالة قوم وشقاوتهم وسعادة قوم وهدايتهم وقوله تعالى (اتبع ما أوحي إليك من ربك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك وهو القرآن فاعمل به وبلغه إلى عبادي ولا تلتفت إلى قول من يقول دارست أو درست وفي قوله اتبع ما أوحي إليك من ربك تقوية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم وإزالة الحزن الذي حصل له بسبب قولهم درست وقوله تعالى (لا إله إلا هو) أنه سبحانه وتعالى واحد فرد صمد لا شريك له وإذا كان كذلك فإنه تجب طاعته ولا يجوز تركها بسبب جهل الجاهلين وزيغ الزائغين وقوله تعالى (وأعرض عن المشركين) قيل المراد منه في الحال لا الدوام وإذا كان كذلك لم يكن النسخ وقيل المراد ترك مقاتلتهم فعلى هذا يكون الأمر بالإعراض منسوخا بآية القتال قوله عز وجل (ولو شاء الله ما أشركوا) قال الزجاج معناه لو شاء الله لجعلهم مؤمنين وهذا نص صريح في أن شركهم كان بمشيئة الله تعالى خلافا للمعتزلة في قولهم لم يرد من أحد الكفر والشرك فالآية رد عليهم (وما جعلناك عليهم حفيظا) يعني وما جعلناك يا محمد على هؤلاء المشركين رقيبا ولا حافظا تحفظ عليهم أعمالهم وقال ابن عباس في رواية عطاء وما جعلناك عليهم حفيظا تمنعهم مني ومعناه أنك لم تبعث لتحفظ المشركين من العذاب وإنما بعثت مبلغا فلا يهمنك شركهم فإن ذلك بمشيئة الله تعالى (وما أنت عليهم بوكيل) يعني وما أنت عليهم بقيم تقوم بأرزاقهم وما أنت عليهم بمسيطر فعلى التفسير الأول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى قول ابن عباس لا تكون منسوخة قوله عز وجل (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) الآية قال ابن عباس لما نزلت إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال المشركون يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدوا بغير علم وقال قتادة كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله لأنهم قوم جهلة لا علم لهم بالله عز وجل وقال السدي لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش انطلقوا بنا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان عمه يمنعه فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية وأبي ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن أبي البختري إلى أبي طالب فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمدا قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه فدعاه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبو طالب إن هؤلاء قومك وبنو عمك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يريدون قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك فقال له أبو طالب قد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرأيتم إن أعطيتكم هذا

تصرفها ومعنى درست قرأت كتب أهل الكتاب دارست مكي وأبو عمرو أي دارست أهل الكتاب درست شامي أي قدمت هذه الآية وعفت كما قالوا أساطير الأولين (ولنبينه) أي القرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلوما أو الآيات لأنها في معنى القرآن قيل اللام الثانية حقيقة والأولى لام العاقبة والصيرورة أي لتصير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا درست وهو كقوله فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وهم لم يلتقطوه للعداوة وإنما التقطوه ليصير لهم قرة عين ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة فكذلك الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا درست ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين فشبه به وقيل ليقولوا كما قيل لنبينه وعندنا ليس كذلك لما عرف (لقوم يعلمون) الحق من الباطل (اتبع ما أوحي إليك من ربك) ولا تتبع أهواءهم (لا إله إلا هو) اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي لا محل له من الإعراب أو حال من ربك مؤكدة (وأعرض عن المشركين) في الحال إلى أن يرد الأمر بالقتال (ولو شاء الله) أي إيمانهم فالمفعول محذوف (ما أشركوا) بين أنهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله ولو علم منهم اختيار الإيمان لهداهم إليه ولكن علم منهم اختيار الشرك فشاء شركهم فأشركوا بمشيئته (وما جعلناك عليهم حفيظا) مراعيا لأعمالهم مأخوذا بإجرامهم (وما أنت عليهم بوكيل) بمسلط وكان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبهم سببا لسب الله بقوله (ولا تسبوا) آلهة (الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله) منصوب على جواب النهي (عدوا) ظلما وعدوانا (بغير علم) على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به

فهل أنتم معطي كلمة ان تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم وأدت لكم الخراج قال أبو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هي قال قولوا لا إله إلا الله فأبوا ونفروا فقال أبو طالب قل غيرها يا ابن أخي فقال يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها ارادة أن يؤيسهم فقالوا لتكفن عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنك ولنشتمن من يأمرك فأنزلت ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله يعني ولا تسبوا أيها المؤمنون الأصنام التي يعبدها المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم يعني فيسبوا الله ظلما بغير علم لأنهم جهلة بالله عز وجل قال الزجاج نهوا في ذلك الوقت قبل القتال أن يلعنوا الأصنام التي كانت تعبدها المشركون وقال ابن الأنباري هذه الآية منسوخة أنزلها الله عز وجل والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة فلما قواه بأصحابه نسخ هذه الآية ونظائرها بقوله فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقيل انما نهوا عن سب الأصنام وان كان في سبها طاعة وهو مباح لما يترتب على ذلك من المفاسد التي هي أعظم من ذلك وهو سب الله عز وجل وسب رسوله وذلك من أعظم المفاسد فلذلك نهوا عن سب الأصنام وقيل لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تسبوا آلهتهم فيسبوا ربكم فأمسك المسلمون عن سب آلهتهم فظاهر الآية وان كان نهيا عن سب الأصنام فحقيقته النهي عن سب الله تعالى لأنه سبب لذلك ۞ وقوله تعالى (كذلك زينا لكل أمة عملهم) يعني كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان كذلك زينا لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية وفي هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا لا يحسن من الله خلق الكفر وتزيينه ۞ وقوله تعالى (ثم إلى ربهم مرجعهم) يعني المؤمن والكافر والطائع والعاصي (فينبئهم بما كانوا يعملون) يعني في الدنيا ويجازيهم على ذلك ۞ قوله عز وجل (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) قال محمد بن كعب القرظي والكلبي قالت قريش يا محمد انك تخبرنا أن موسى كانت له عصا يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى فأتنا بآية حتى نصدقك ونؤمن بك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي شيء تحبون قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا وابعث لنا بعض موتانا نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فعلت بعض ما تقولون أتصدقونني قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يدعو الله عز وجل أن يجعل الصفا ذهبا فجاءه جبريل فقال ما شئت ان شئت أصبح ذهبا ولكن ان لم يصدقوك لنعذبنهم وان شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يتوب تائبهم فأنزل الله عز وجل وأقسموا بالله جهد أيمانهم يعني وحلفوا بالله جهد أيمانهم يعني أوكد ما قدروا عليه من الأيمان وأشدها قال الكلبي ومقاتل اذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه (لئن جاءتهم آية) يعني كما جاء من قبلهم من الأمم (ليؤمنن بها) يعني ليصدقن بها (قل) يعني قل يا محمد (انما الآيات عند الله) يعني أن الله تعالى قادر على انزالها (وما يشعركم) يعني وما يدريكم ثم اختلف العلماء في المخاطبين بقوله وما يشعركم فقيل هو خطاب للمشركين الذين أقسموا بالله وقيل هو خطاب للمؤمنين واختلفوا في قوله (انها اذا جاءت لا يؤمنون) فقرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم انها بكسر الألف على الابتداء وقالوا تم الكلام عند قوله وما يشعركم على معنى وما يدريكم ما يكون منهم ثم ابتدأ فقال انها اذا جاءت لا يؤمنون فمن جعل الخطاب للمشركين قال معناه وما يشعركم أيها المشركون انها يعني الآيات اذا جاءت آمنتم ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه وما يشعركم أيها المؤمنون انها اذا جاءت آمنوا لأن المؤمنين كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله أن يريهم ما اقترحوا حتى يؤمنوا فخاطبهم الله بقوله وما يشعركم ثم ابتدأ فقال تعالى انها اذا جاءت لا يؤمنون وعد في

(كذلك) مثل ذلك التزيين (زينا لكل أمة) من أمم الكفار (عملهم) وهو كقوله أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو حجة لنا في الأصلح (ثم إلى ربهم مرجعهم) مصيرهم (فينبئهم بما كانوا يعملون) فيخبرهم بما عملوا ويجزيهم عليه (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) جهد مصدر وقع موقع الحال أي جاهدين في الاتيان بأوكد الأيمان (لئن جاءتهم آية) من مقترحاتهم (ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله) وهو قادر عليها لا عندي فكيف آتيكم بها (وما يشعركم) وما يدريكم (انها) أن الآية المقترحة (اذا جاءت لا يؤمنون) بها يعني أنا أعلم انها اذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تعلمون ذلك وكان المؤمنون يطمعون في ايمانهم اذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها فقال الله تعالى وما يدريكم انهم لا يؤمنون على معنى أنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون انها بالكسر مكي وبصري وأبو بكر على ان الكلام تم قبله أي وما يشعركم ما يكون منهم ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال انها اذا جاءت لا يؤمنون البتة ومنهم من جعل لا مزيدة في قراءة الفتح كقوله وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون لا تؤمنون شامي حمزة

قوم

قوم مخصوصين حكم الله عز وجل عليهم بأنهم لا يؤمنون وذلك لما سبق في علمه فيهم وقرأ الباقون أنها بفتح الألف وبه قرأ الكسائي ويحتمل الخطاب في ذلك للمؤمنين لأن المؤمنين هم الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنزال الآيات حتى يؤمن المشركون بها إذا رأوها لأن المشركين كانوا حلفوا أنهم إذا جاءتهم آية آمنوا وصدقوا واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنزال الآيات لذلك فقال الله تعالى وما يشعركم أيها المؤمنون أن الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون فعلى هذا اختلفوا في لفظة لا من قوله لا يؤمنون فقيل هي صلة والمعنى وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون وقيل هي على بابها وفيه حذف والمعنى وما يشعركم أنها إذا جاءتهم يؤمنون أو لا يؤمنون وقيل أن بمعنى لعل في قوله أنها إذا جاءت وكذلك هو في قراءة أبي بن كعب لعلها إذا جاءت وهذا سائغ في كلام العرب تقول العرب ائت السوق أنك تشتري لنا شيأ بمعنى لعلك ومنه قول عدي بن زيد

أعاذل ما يدريك أن منيتي * إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد

يعني لعل منيتي ﴿ قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) قال ابن عباس يعني ونحول بينهم وبين الإيمان فلو جئناهم بالآيات التي سألوها لما آمنوا بها والتقليب هو تحويل الشيء وتحريكه عن وجهه إلى وجه آخر لأن الله تعالى إذا صرف القلوب والأبصار عن الإيمان بقيت على الكفر (كما لم يؤمنوا به أول مرة) يعني كما لم يؤمنوا بما قبل ذلك من الآيات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغير ذلك من المعجزات الباهرات وقيل أول مرة يعني الآيات التي جاء بها موسى وغيره من الأنبياء وقال ابن عباس المرة الأولى دار الدنيا يعني لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة قبل مماتهم وفي الآية دليل على أن الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء وأن القلوب والأبصار بيده وفي تصريفه فيقيم ما شاء منها ويزيغ ما أراد منها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فمعنى قوله نقلب أفئدتهم نزيغها عن الإيمان ونقلب أبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة الصواب وإن جاءتهم الآية التي سألوها فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالله ورسوله وبما جاء من عند الله فعلى هذا تكون الكناية في به عائدة على الإيمان بالقرآن وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل سؤالهم الآيات التي اقترحوها ﴿ وقوله تعالى (ونذرهم في طغيانهم يعمهون) يعني ونترك هؤلاء المشركين الذين سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون في تمردهم على الله واعتدائهم عليه يترددون لا يهتدون إلى الحق ﴿ قوله عز وجل (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) قال ابن جريج نزلت في المستهزئين وذلك أنهم أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من قريش فقالوا يا محمد ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا فنزلت هذه الآية جوابًا لهم والمعنى ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة حتى يشهدوا لك بالرسالة (وكلمهم الموتى) يعني كما سألوا (وحشرنا عليهم كل شيء قبلا) يعني وجمعنا عليهم كل شيء قبيلا قبيلا قيل القبيل الكفيل بصحة ما نقول ما آمنوا وهو قوله (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) يعني إلا أن يشاء الله الإيمان منهم وفيه دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى حتى الإيمان والكفر وموضع المعجزة أن الأشياء المحشورة منها ناطق ومنها صامت فإذا أنطق الله الكل حتى يشهد وأله بصحة ما يقول كان ذلك في غاية الإعجاز وقيل قبلا من المقابلة والمواجهة والمعنى وحشرنا عليهم كل شيء مواجهة ومعاينة ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله أخبر الله أن الإيمان بمشيئة الله لا كما ظنوا أنهم متى شاؤا آمنوا ومتى شاؤا لم يؤمنوا وقال ابن عباس ما كانوا ليؤمنوا هم أهل الشقاء إلا أن يشاء الله هم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه أنهم يدخلون في الإيمان وصحح الطبري قول ابن عباس قال لأن الله عم بقوله ما كانوا ليؤمنوا القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن

(ونقلب أفئدتهم) عن قبول الحق (وأبصارهم) عن رؤية الحق عند نزول الآية التي اقترحوها فلا يؤمنون بها قيل هو عطف على لا يؤمنون داخل في حكم وما يشعركم أي ما يشعركم أنهم لا يؤمنون وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق (كما لم يؤمنوا به أول مرة) كما كانوا عند نزول آياتنا أولا لا يؤمنون بها (ونذرهم في طغيانهم يعمهون) قيل وما يشعركم أنا نذرهم في طغيانهم يعمهون يتحيرون (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) كما قالوا لولا أنزل علينا الملائكة (وكلمهم الموتى) كما قالوا فأتوا بآبائنا (وحشرنا عليهم) جمعنا (كل شيء قبلا) كفلاء بصحة ما بشرنا به وأنذرنا جمع قبيل وهو الكفيل قبلا مدني وشامي أي عيانا وكلاهما نصب على الحال (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) إيمانهم فيؤمنوا وهذا جواب لقول المؤمنين لعلهم يؤمنون بنزول الآية

منهم استثنى منهم أهل السعادة وهم الذين شاء لهم الايمان ﴿ قوله تعالى (ولكن أكثرهم يجهلون) يجهلون ان ذلك كذلك ويحسبون ان الايمان اليهم متى شاؤا آمنوا ومتى شاؤا كفروا وليس الامر كذلك بل الايمان والكفر بمشيئة الله تعالى فمن شاء له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وفي هذا دليل لأهل السنة ان الاشياء كلها بمشيئة الله تعالى ورد على القدرية والمعتزلة في قولهم ان الله أراد الايمان من جميع الكفار ﴿ قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا) قيل هو منسوق على قوله تعالى وكذلك زينا لكل أمة عملهم أي كما فعلنا ذلك كذلك جعلنا لكل نبي عدوا وقيل معناه كما جعلنا ان قبلك من الانبياء أعداء كذلك جعلنا لك أعداء وفيه تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له يقول الله تبارك وتعالى كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك عدوا ليعظم ثوابه على ما يكابده من أذى أعدائه وعدو واحد يراد به الجمع يعني جعلنا لكل نبي أعداء (شياطين الانس والجن) اختلف العلماء في معنى شياطين الانس والجن على قولين أحدهما ان المراد شياطين من الانس وشياطين من الجن والشيطان كل عات متمرد من الجن والانس وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء وهو قول مجاهد وقتادة قالوا وشياطين الانس أشد تمردا من شياطين الجن لان شيطان الجن اذا عجز عن اغواء المؤمن الصالح وأعياه ذلك استعان على اغوائه بشيطان الانس ليفتنه ويدل على صحة هذا القول ما روى عن أبي ذر قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تعوذت بالله من شيطان الجن والانس قلت يا رسول الله وهل للانس من شيطان قال نعم هم شر من شياطين الجن ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري وقال مالك بن دينار ان شيطان الانس أشد علي من شيطان الجن وذلك أني اذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن وشيطان الانس يجيئني فيجرني الى المعاصي عيانا القول الثاني ان الجميع من ولد ابليس وأضيف الشياطين الى الانس على معنى انهم يغوونهم وهذا قول عكرمة والضحاك والكلبي والسدي ورواية عن ابن عباس قالوا والمراد بشياطين الانس التي مع الانس وبشياطين الجن التي مع الجن وذلك ان ابليس قسم جنده قسمين فبعث فريقا منهم الى الجن وفريقا منهم الى الانس فالفريقان شياطين الجن والانس بمعنى انهم يغوونهم ويضلونهم وكلا الفريقين أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ولأوليائه من المؤمنين والصالحين ومن ذهب الى هذا القول قال يدل على صحته ان لفظ الآية يقتضي اضافة الشياطين الى الانس والجن والاضافة تقتضي المغايرة فعلى هذا يكون في الشياطين نوع مغاير للانس والجن وهم أولاد ابليس ﴿ وقوله تعالى (يوحي بعضهم الى بعض) يعني يلقي ويسر بعضهم الى بعض ويناجي بعضهم بعضا وهو الوسوسة التي يلقيها الى من يريد اغواءه فعلى القول الاول ان شياطين الانس والجن يسر بعضهم الى بعض ما يفتنون به المؤمنين والصالحين وعلى القول الثاني ان أولاد ابليس يلقى بعضهم بعضا في كل حين فيقول شيطان الانس لشيطان الجن أضللت صاحبي بكذا وكذا فاضل أنت صاحبك بمثله ويقول شيطان الجن لشيطان الانس كذلك فذلك وحي بعضهم الى بعض ﴿ وقوله (زخرف القول) يعني باطل القول والزخرف هو الباطل من الكلام الذي قد زين ووشي بالكذب وكل شيء حسن مموه مزخرف (غرورا) يعني ان الشياطين يغرون بذلك القول الكذب المزخرف غرورا وذلك ان الشياطين يزينون الاعمال القبيحة لبني آدم ويغرونهم بها غرورا (ولو شاء ربك ما فعلوه) يعني ما فعلوا الوسوسة التي يلقيها الشياطين في قلوب بني آدم والمعنى ان الله تعالى لو شاء لمنع الشياطين من القاء الوسوسة الى الانس والجن ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده بما يعلم انه الاجزل له في الثواب اذا صبر على المحنة (فذرهم وما يفترون) يعني خلهم يا محمد وما زين لهم ابليس وغرهم به من الكفر والمعاصي فاني من ورائهم ﴿ قوله تعالى (ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) قال ابن عباس ولتميل اليه وأصل الصغو في اللغة الميل يقال أصغى الى كذا اذا مال اليه ويقال صغوت أصغو وصغيت أصغى لغتان قال ابن الانباري اللام في ولتصغى متعلقة

(ولكن أكثرهم يجهلون) ان هؤلاء يؤمنون اذا جاءتهم الآية المقترحة (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا) وكما جعلنا لك أعداء من المشركين جعلنا لمن تقدمك من الانبياء أعداء لما فيه من الابتلاء الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والاجر وانتصب (شياطين الانس والجن) على البدل من عدوا أو على انه من المفعول الاول وعدوا مفعول ثان (يوحي بعضهم الى بعض) يوسوس شياطين الجن الى شياطين الانس وكذلك بعض الجن الى بعض وبعض الانس الى بعض وعن مالك بن دينار ان شيطان الانس أشد علي من شيطان الجن لاني اذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عني وشيطان الانس يجيئني فيجرني الى المعاصي عيانا وقال عليه السلام قرناء السوء شر من شياطين الجن (زخرف القول) ما يزينه من القول والوسوسة والاغراء على المعاصي (غرورا) خدعا وأخذا على غرة وهو مفعول له (ولو شاء ربك ما فعلوه) أي الايحاء يعني ولو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة ولكنه امتحن بما علم انه أجزل في الثواب (فذرهم وما يفترون) عليك وعلى الله فان الله يخزيهم وينصرك ويجزيهم (ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة)

ولتميل الى زخرف القول قلوب الكفار وهي معطوفة على غرورا أي ليغروه ولتصغى اليه (وليرضوه) لانفسهم

يقول يضمر معناه وفعلناه بهم ذلك لكي تصغى الى الباطل أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وقال غيره اللام متعلقة بيوحي تقديره يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروا بذلك ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة والضمير في اليه يرجع الى زخرف القول والمعنى ان قلوب الكفار تميل الى زخرف القول والباطل وتحبه وترضى به وهو قوله (وليرضوه) يعني يرضون ذلك القول المزخرف الباطل (وليقترفوا ما هم مقترفون) يعني وليكتسبوا من الاعمال الخبيثة ما هم مكتسبون ۞ قوله عز وجل (أفغير الله أبتغي حكما) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أفغير الله أطلب حكما قاضيا يقضي بيني وبينكم وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما فأمره الله تعالى أن يجيبهم بهذا الجواب والحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة غير أن بعض أهل المعاني قال الحكم أكمل من الحاكم لان الحاكم من شأنه أن يحكم والحكم أهل أن يتحاكم اليه وهو الذي لا يحكم الا بالحق فالله تعالى حكم لا يحكم الا بالحق ولما أنزل الله على محمد القرآن فقد حكم له بالنبوة وهو قوله تعالى (وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا) يعني مبينا فيه أمره ونهيه ووعده ووعيده وفيه الحكم بيني وبينكم (والذين آتيناهم الكتاب) يعني علماء اليهود والنصارى (يعلمون انه منزل من ربك بالحق) يعني يشهدون ان هذا القرآن منزل من عند الله وذلك لما ثبت عندهم بالدلائل الدالة على ذلك وقيل المراد بهم علماء الصحابة ورؤساؤهم مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونظرائهم يعلمون ان هذا القرآن منزل من ربك بالحق فآمنوا به وصدقوه (فلا تكونن من الممترين) يعني فلا تكونن يا محمد من الشاكين ان علماء أهل الكتاب يعلمون ان هذا القرآن حق وانه منزل من عند الله وقيل معناه فلا تكونن في شك مما قصصنا عليك انه حق وصدق فهو من باب التهييج لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط وقيل الخطاب وان كان في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم الا أن المراد به غيره والمعنى ولا تكونن أيها الانسان السامع لهذا القرآن في شك انه منزل من عند الله لما فيه من الاعجاز الذي لا يقدر على مثله الا الله تبارك وتعالى ۞ قوله تعالى (وتمت كلمت ربك) وقرئ كلمات ربك على الجمع فمن قرأ على التوحيد قال الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة اذا كانت مضبوطة بضابط واحد كقولهم قال الشاعر في كلمته يعني في قصيدته وكذلك القرآن كلمة واحدة لانه شيء واحد في اعجاز النظم وكونه حقا وصدقا ومعجزا ومن قرأ بالجمع قال لان الله قال في سياق الآية لا مبدل لكلماته فوجب الجمع في اللفظ الاول اتباعا للثاني (صدقا وعدلا) يعني صدقا فيما وعد وعدلا فيما حكم وقيل ان القرآن مشتمل على الاخبار والاحكام فهو صادق فيما أخبر عن القرون الماضية والامم الخالية وعما هو كائن الى قيام الساعة وفيما أخبر عن ثواب المطيع في الجنة وعقاب العاصي في النار وهو عدل فيما حكم من الامر والنهي والحلال والحرام وسائر الاحكام (لا مبدل لكلماته) يعني لا مغير لقضائه ولا راد لحكمه ولا خلف لمواعيده وقيل لما وصف كلماته بالتمام في قوله وتمت كلمت ربك والتمام في كلام الله لا يقبل النقص والتغيير والتبديل قال الله تعالى لا مبدل لكلماته لانها مصونة عن التحريف فضمن التغيير والتبديل باقية الى يوم القيامة وفي قوله لا مبدل لكلماته دليل على ان السعيد لا ينقلب شقيا ولا الشقي ينقلب سعيدا فالسعيد من سعد في الازل والشقي من شقي في الازل وأورد على هذا ان الكافر يكون شقيا بكفره فيسلم فينقلب سعيدا باسلامه وأجيب عنه بان الاعتبار بالخاتمة فمن ختم له بالسعادة كان قد كتب سعيدا في الازل ومن ختم له بالشقاوة كان شقيا في الازل والله أعلم ۞ وقوله تعالى (وهو السميع) يعني لما تقوله العباد (العليم) يعني باحوالهم قوله عز وجل (وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله) قال المفسرون ان المشركين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في أكل الميتة وذلك أنهم قالوا للمسلمين كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم فقال الله تعالى لنبيه

(وليقترفوا ما هم مقترفون) من الآثام (أفغير الله أبتغي حكما) أي قل يا محمد أفغير الله أطلب حاكما يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل (وهو الذي أنزل اليكم الكتاب) المعجز (مفصلا) حال من الكتاب أي مبينا فيه الفصل بين الحق والباطل والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء ثم عضد الدلالة على ان القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ما عندهم وموافقته له بقوله (والذين آتيناهم الكتاب) أي عبد الله بن سلام وأصحابه (يعلمون أنه منزل) شامي وحفص (من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) الشاكين فيه أيها السامع أو فلا تكونن من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به (وتمت كلمت ربك) أي ما تكلم به كلمات ربك حجازي وشامي وأبو عمرو أي تم كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد (صدقا) في وعده ووعيده (وعدلا) في أمره ونهيه وانتصبا على التمييز أو على الحال (لا مبدل لكلماته) لا أحد يبدل شيئا من ذلك (وهو السميع) لاقرار من أقر (العليم) باصرار من أصر أو السميع لما يقولون العليم بما يضمرون (وان تطع أكثر من في الارض) أي الكفار لانهم الاكثرون (يضلوك عن سبيل الله) دينه

(ان يتبعون الا الظن) وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم (وان هم الا يخرصون) يكذبون فى أن الله حرم عليهم كذا وأحل لهم كذا (ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى هو يعلم الكفار والمؤمنين

محمد صلى الله عليه وسلم وان تطع أكثر من فى الارض فى أكل الميتة وكان الكفار يومئذ أكثر أهل الارض يضلوك عن سبيل الله يعنى يضلوك عن دين الله الذى شرعه لك وبعثك به وقيل معناه لا تطعهم فى معتقداتهم الباطلة فانك ان تطعهم يضلوك عن سبيل الله يعنى يضلوك عن طريق الحق ومنهج الصدق ثم أخبر عن حال الكفار وما هم عليه فقال تعالى (ان يتبعون الا الظن) يعنى ان هؤلاء الكفار الذين يجادلونك ما يتبعون فى دينهم الذى هم عليه الا الظن وليسوا على بصيرة وحق فى دينهم وليسوا بقاطعين انهم على حق لانهم اتبعوا أهواءهم وتركوا التماس الصواب والحق واقتصروا على اتباع الظن والجهل (وان هم الا يخرصون) يعنى يكذبون وأصل الخرص الحزر والتخمين ومنه خرص النخلة اذا حزر كمية ثمرها على الظن من غير يقين ويسمى الكذب خرصا لما يدخله من الظنون الكاذبة وقيل ان كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص لان قائله لم يقله عن علم ويقين (ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله) يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يا محمد ان ربك هو أعلم منك ومن جميع خلقه أى الناس يضل عن سبيله (وهو أعلم بالمهتدين) يعنى وهو أعلم أيضا من كان على هدى واستقامة وسداد لا يخفى عليه شئ من أحوال خلقه فأخبر تعالى انه أعلم بالفريقين الضال والمهتدى وانه يجازى كلا بما يستحق ﴿ قوله تعالى (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) هذا جواب لقول المشركين حيث قالوا للمسلمين أنأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل ربكم فقال الله تعالى للمسلمين فكلوا أنتم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح (ان كنتم بآياته مؤمنين) وقيل كانوا يحرمون أصنافا من النعم ويحلون الميتة فقيل أحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله فعلى هذا القول تكون الآية خطابا للمشركين وعلى القول الاول تكون الآية خطابا للمسلمين وهو الاصح لقوله فى آخر الآية ان كنتم بآياته مؤمنين (ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) يعنى وأى شئ لكم فى أن لا تأكلوا وما يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهذا تأكيد فى اباحة ما ذبح على اسم الله دون غيره (وقد فصل لكم ما حرم عليكم) يعنى وقد بين لكم الحلال من الحرام فيما تطعمون وقال جمهور المفسرين المراد بقوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم المحرمات المذكورة فى قوله تعالى حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وأورد الامام فخر الدين الرازى ههنا اشكالا فقال فى سورة الانعام مكية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة وقوله وقد فصل يجب أن يكون ذلك المفصل متقدما على هذا المحل والمدنى متأخر عن المكى فيمتنع كونه متقدما ثم قال بل الاولى أن يقال قوله تعالى بعد هذه الآية قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير وهذه الآية وان كانت مذكورة بعد هذه الآية بقليل الا أن هذا القدر من التأخر لا يمنع أن يكون هو المراد قال كاتبه ولما ذكره المفسرون وجه وهو أن الله لما علم ان سورة المائدة متقدمة على سورة الانعام فى الترتيب لا فى النزول حسن عود الضمير فى قوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم الى ما هو متقدم فى الترتيب وهو قوله حرمت عليكم الميتة الآية والله أعلم بمراده ﴿ وقوله تعالى (الا ما اضطررتم اليه) يعنى الا أن تدعوكم الضرورة الى أكله بسبب شدة المجاعة فيباح لكم .... الاضطرار (وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم) يعنى وان كثيرا من الذين يجادلونكم فى أكل الميتة ويحتجون عليكم فى ذلك بقولهم أتأكلون ما تقتلون ولا تأكلون ما يذبحه الله واتماما لهذه المقالة جهلا منهم بغير علم منهم بصحة ما يقولون بل يتبعون أهواءهم ليضلوا أنفسهم وأتباعهم بذلك وقيل المراد به عمرو بن لحى فمن دونه من المشركين لانه أول من غير البحائر وسيب السوائب وأباح الميتة وغير دين ابراهيم عليه السلام (ان ربك هو أعلم بالمعتدين) يعنى ان ربك يا محمد هو أعلم بمن تعدى حدوده فأحل ما حرم الله

من رفع بالابتداء وأعلم خبرها لفظا الاستفهام والخبر صلة وموضع الجملة نصب بيعلم المقدر لا بأعلم لان أفعل لا يعمل فى الاسم الظاهر النصب بل يعمل الجر وقيل تقديره أعلم عن يضل بدليل ظهور الباء بعده فى بالمهتدين (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين) هو مسبب عن انكار اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال وذلك انهم كانوا يقولون للمسلمين انكم تزعمون انكم تعبدون الله فما قتل الله أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم فقيل للمسلمين ان كنتم متحققين بالايمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه خاصة أى على ذبحه دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات أنفه (ومالكم ألا تأكلوا) ما استفهام فى موضع رفع بالابتداء ولكم الخبر أى وأى غرض لكم فى أن لا تأكلوا (مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم) بين لكم (ما حرم عليكم) مما لم يحرم بقوله حرمت عليكم الميتة فصل وحرم كوفى غير حفص وبفتحهما مدنى وحفص وبضمهما غيرهم (الا ما اضطررتم اليه)

مما حرم عليكم فانه حلال لكم فى حال الضرورة أى شدة المجاعة الى أكله (وان كثيرا ليضلون) ليضلون كوفى • وحرم (بأهوائهم بغير علم) أى يضلون فيحرمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم من غير تعلق بشريعة (ان ربك هو أعلم بالمعتدين) بالمتجاوزين

وحرّم ما أحل الله فهو يجادلهم على سوء صنيعهم ﴿ قوله عز وجل (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) يعني وذروا أيها الناس ما يوجب الاثم وهي الذنوب والمعاصي كلها سرها وعلانيتها قليلها وكثيرها قال الربيع بن أنس نهى الله عن ظاهر الاثم وباطنه أن يعمل به سرا أو علانية وقال سعيد بن جبير في هذه الآية الظاهر منه قوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف ونكاح المحارم من الامهات والبنات والاخوات والباطن الزنا وقال السدي أما الظاهر فالزواني في الحوانيت وهن أصحاب الرايات وأما الباطن فالمرأة يتخذها الرجل صديقة فيأتيها سرا وقال الضحاك كان أهل الجاهلية يستسرون بالزنا ويرون ان ذلك حلال ما كان سرا فحرم الله السر منه والعلانية وقال ابن زيد ظاهر الاثم التجرد عن الثياب والتعري في الطواف والباطن الزنا وقال الكلبي ظاهر الاثم طواف الرجال بالبيت نهارا عراة وباطنه طواف النساء بالليل عراة وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك الى ان جاء الاسلام فنهى الله عن ذلك كله وقيل ان هذا النهي عام في جميع المحرمات التي نهى الله عنها وهو الاصح لان تخصيص العام بصورة معينة من غير دليل لا يجوز فعلى هذا القول يكون معنى الآية وذروا ما أعلنتم به وما أسررتم من الذنوب كلها قال ابن الانباري وذروا الاثم من جميع جهاته وقيل المراد بظاهر الاثم الاقدام على الذنوب من غير مبالاة وباطنه ترك الذنوب لخوف الله عز وجل لا لخوف الناس وقيل المراد بظاهر الاثم أفعال الجوارح وباطنه أفعال القلوب فيدخل في ذلك الحسد والكبر والعجب وارادة السوء للمسلمين ونحو ذلك ﴿ وقوله تعالى (ان الذين يكسبون الاثم) يعني ان الذين يعملون بما نهاهم الله عنه ويرتكبون ما حرم عليهم من المعاصي وغيرها (سيجزون) يعني في الآخرة (بما كانوا يقترفون) يعني بما كانوا يكتسبون في الدنيا من الآثام وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب وانه مخصوص بمن لم يتب لان المسلمين أجمعوا على انه اذا تاب العبد من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب وزاد أهل السنة في ذلك فقالوا المذنب اذا لم يتب فهو في خطر المشيئة ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه بفضله وكرمه ﴿ قوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال ابن عباس الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها وقال عطاء الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الاصنام انتهى

(فصل) اختلف العلماء في ذبيحة المسلم اذا لم يذكر اسم الله عليها فذهب قوم الى تحريمها سواء تركها عامدا أو ناسيا وهو قول ابن سيرين والشعبي ونقله الامام فخر الدين الرازي عن مالك ونقل عن عطاء أنه قال كل ما لم يذكر اسم الله عليه من طعام أو شراب فهو حرام احتجوا في ذلك بظاهر هذه الآية وقال الثوري وأبو حنيفة ان ترك التسمية عامدا لا تحل وان تركها ناسيا تحل وقال الشافعي تحل الذبيحة سواء ترك التسمية عامدا أو ناسيا ونقله البغوي عن ابن عباس ومالك ونقل ابن الجوزي عن أحمد روايتين فيما اذا ترك التسمية عامدا وان تركها ناسيا حلت فمن أباح كل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها قال المراد من الآية الميتات وما ذبح على اسم الاصنام بدليل أنه قال تعالى في سياق الآية (وانه لفسق) وأجمع العلماء على أن آكل ذبيحة المسلم التي ترك التسمية عليها لا يفسق واحتجوا أيضا في اباحتها بما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قلت يا رسول الله ان هنا أقواما حديثا عهدهم بشرك يأتونا بلحمان لا ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا قال اذكروا أنتم اسم الله وكلوا قالوا لو كانت التسمية شرطا للاباحة لكان الشك في وجودها مانعا من أكلها كالشك في أصل الذبح وقول الشافعي في أول الآية وان كان عاما بحسب الصيغة الا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة وهي قوله وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون علمنا ان المراد من هذا العموم هو الخصوص والفسق ذكر اسم غير الله في الذبح كما قال في آخر السورة قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه الى قوله أو فسقا أهل لغير الله به فصار هذا الفسق الذي أهل لغير الله به مفسرا لقوله وانه لفسق واذا كان كذلك كان

مَن الحق الى الباطل (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) علانيته وسره أو الزنا في الحوانيت والصديقة في السر أو الشرك الجلي والخفي (ان الذين يكسبون الاثم سيجزون) يوم القيامة (بما كانوا يقترفون) يكتسبون في الدنيا (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) عند الذبح (وانه) وان أكله (لفسق

قوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق مخصوص بما أهل لغير الله به والله أعلم ۞ وقوله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) يعني إن الشياطين يوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم ويخاصموا محمدا صلى الله عليه وسلم وذلك أن المشركين قالوا يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها فقال الله قتلها قالوا أفتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتله الكلب والصقر حلال وما قتله الله حرام فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية في تحريم الميتة كتبت فارس وهم المجوس إلى مشركي قريش أن خاصموا محمدا وقولوا له إن ما ذبحت فهو حلال وما ذبحه الله فهو حرام فأنزل الله وإن الشياطين يعني مردة الإنس وهم المجوس ليوحون إلى أوليائهم يعني مشركي قريش وكان بين فارس والعرب موالاة ومكاتبة على الروم فعلى هذا يكون المراد بالوحي المكاتبة في خفية (وإن أطعتموهم) يعني في أكل الميتة وما حرم الله عليكم (إنكم لمشركون) يعني إنكم إذا مثلهم في الشرك قال الزجاج فيه دليل على أن كل من أحل شيئا مما حرم الله أو حرم شيئا مما أحل الله فهو مشرك وإنما سمي مشركا لأنه أثبت حاكما غير الله عز وجل ومن كان كذلك فهو مشرك ۞ قوله عز وجل (أو من كان ميتا فأحييناه) يعني أو من كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإيمان وإنما جعل الكفر موتا لأنه جعل الإيمان حياة لأن صاحب بصر يهتدي به إلى رشده ولما كان الإيمان يهدي إلى الفوز العظيم والحياة الأبدية شبهه بالحياة (وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) يعني وجعلنا له نورا يستضيء به في الناس ويهتدي به إلى قصد السبيل قيل النور هو الإسلام لأنه يخلص من ظلمات الكفر ولأنه يخرجه من الظلمات إلى النور وقال قتادة هو كتاب الله القرآن لأنه بينة من الله مع المؤمن بما يعمله (كمن مثله في الظلمات) يعني كمن هو في ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة (ليس بخارج منها) يعني من تلك الظلمات وهذا مثل ضربه الله تعالى لحال المؤمن والكافر فبين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتا فأحياه وأعطاه نورا يهتدي به في مصالحه وأن الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها ليس بخارج منها فيكون متحيرا على الدوام ثم اختلف المفسرون في هذين المثالين هل هما مخصوصان بإنسانين معينين أو هما عامان في كل مؤمن وكافر فذكروا في ذلك قولين أحدهما أن الآية في رجلين معينين ثم اختلفوا فيهما فقال ابن عباس في قوله وجعلنا له نورا يمشي به في الناس يريد حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم كمن مثله في الظلمات يريد بذلك أبا جهل بن هشام وذلك أن أبا جهل رمى النبي صلى الله عليه وسلم بفرث فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وكان حمزة قد رجع من صيد وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل حمزة غضبان حتى علا أبا جهل وجعل يضربه بالقوس وجعل أبو جهل يتضرع إلى حمزة ويقول يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا فقال حمزة ومن أسفه منكم عقولا تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فأسلم حمزة يومئذ فأنزل الله هذه الآية وقال الضحاك نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل وقال عكرمة والكلبي نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل وقال مقاتل نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل وذلك أن أبا جهل قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نؤمن حتى يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت هذه الآية والقول الثاني وهو قول الحسن في آخرين أن هذه الآية عامة في حق كل مؤمن وكافر وهذا هو الصحيح لأن المعنى إذا كان حاصلا في الكل دخل فيه كل أحد ۞ وقوله تعالى (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) قال أهل السنة المزين هو الله تعالى ويدل عليه

قوله

وإن الشياطين ليوحون) ليوسوسون (إلى أوليائهم) من المشركين (ليجادلوكم) بقولهم لا تأكلون مما قتله الله وتأكلون مما تذبحون بأيديكم والآية تحرم متروك التسمية وخصت حالة النسيان بالحديث أو يجعل الناسي ذاكرا تقديرا (وإن أطعتموهم) في استحلال ما حرم الله (إنكم لمشركون) لأن من اتبع غير الله في دينه فقد أشرك به ومن حق المتدين أن لا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لما في الآية من التشديد العظيم ومن أول الآية بالميتة وبما ذكر غير اسم الله عليه لقوله أو فسقا أهل لغير الله به وقال إن الواو في وإنه لفسق للحال لأن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يحسن فيكون التقدير ولا تأكلوا منه حال كونه فسقا والفسق مجمل فبين بقوله أو فسقا أهل لغير الله به فصار التقدير ولا تأكلوا منه حال كونه مهلا لغير الله به فيكون ما سواه حلالا بالعمومات المحلة منها قوله قل لا أجد الآية فقد عدل عن ظاهر اللفظ (أو من كان ميتا فأحييناه) أي كافرا فهديناه لأن الإيمان حياة القلوب ميتا مدفى (وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) مستضيئا به والمراد به اليقين (كمن مثله) أي صفته (في الظلمات) أي خابطا فيها (ليس بخارج منها) لا يفارقها ولا يتخلص منها وهو حال فقيل المراد بهما حمزة وأبو جهل والأصح أن الآية عامة لكل من هداه الله ولكل من أضله الله فبين أن مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي وجعل مستضيئا يمشي في الناس بنور الحكمة والإيمان ومثل الكافر مثل من هو في الظلمات التي لا يتخلص منها (كذلك) أي كما زين للمؤمن إيمانه (زين للكافرين) بتزيين الله تعالى كقوله زينا لهم أعمالهم (ما كانوا يعملون)

تزيين الله لهم أعمالهم ولأن حصول الفعل متوقف على حصول الداعي وحصوله لا يكون إلا من الله تعالى فدل ذلك على أن المزين هو الله تعالى وقالت المعتزلة المزين هو الشيطان ويرده ما تقدم ۞ وقوله تعالى (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها) يعني وكما جعلنا في مكة أكابر وعظماء جعلنا في كل قرية أكابر وعظماء وقيل هو معطوف على ما قبله ومعناه كما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية أكابر جمع الأكبر ولا يجوز أن يكون مضافا لأنه لا يتم المعنى بل في الآية تقديم وتأخير تقديره وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر وإنما جعل المجرمين أكابر لأنهم أقدر على المكر والغدر وترويج الباطل بين الناس من غيرهم وإنما حصل ذلك لأجل رياستهم وذلك سنة الله أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم وجعل فساقهم أكابرهم (ليمكروا فيها) قال أبو عبيدة المكر الخديعة والحيلة والغدر والفجور وزاد بعضهم والنميمة والأيمان الكاذبة وترويج الباطل قال ابن عباس معناه ليقولوا فيها الكذب وقال مجاهد جلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقولوا هو كذاب ساحر كاهن فكان هذا مكرهم (وما يمكرون إلا بأنفسهم) يعني ما يحيق هذا المكر إلا بهم لأن وبال مكرهم يعود عليهم (وما يشعرون) يعني أن وبال ذلك المكر يعود عليهم وضرره ۞ قوله عز وجل (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) يعني النبوة وذلك أن الوليد بن المغيرة قال للنبي صلى الله عليه وسلم لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لأني أكبر منك سنا وأكثر منك مالا فأنزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فأنزل الله هذه الآية وإذا جاءتهم آية يعني حجة ودلالة واضحة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم قالوا يعني الوليد بن المغيرة وأبا جهل ابن هشام أو كل واحد من رؤساء الكفر ويدل عليه الآية التي قبلها وهي قوله وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها فكان من مكر كفار قريش أن قالوا لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله من النبوة والرسالة فقالوا هذه المقالة حسدا منهم للنبي صلى الله عليه وسلم وفي قولهم لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله قولان أحدهما وهو المشهور أن القوم أرادوا أن يحصل لهم النبوة والرسالة كما حصلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأن يكونوا متبوعين لا تابعين القول الثاني وهو قول الحسن ومنقول عن ابن عباس في المعنى وإذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم قالوا لن نؤمن لك يعني لن نصدقك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني حتى يوحى إلينا ويأتينا جبريل يصدقك بأنك رسول الله فعلى هذا القول لم يطلبوا النبوة وإنما طلبوا أن تخبرهم الملائكة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وأنه رسول من الله تعالى وعلى القول الأول أنهم طلبوا أن يكونوا أنبياء فيدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) يعني أنه تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفهم بها ويعلم من لا يستحقها وليس بأهل لها وأنتم لستم لها بأهل وإن النبوة لا تحصل لمن يطلبها خصوصا لمن عنده حسد ومكر وغدر وقال أهل المعاني الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل البعث مطاعين في قومهم لأن الطعن كان يتوجه عليهم فيقال إنما كانوا رؤساء مطاعين فاتبعهم قومهم لأجل ذلك فكان الله تعالى أعلم بمن يستحق الرسالة فجعلها ليتيم أبي طالب دون أبي جهل والوليد وغيرهما من أكابر قريش ورؤسائها ۞ وقوله تعالى (سيصيب الذين أجرموا صغار) أي ذلة وهوان وأصل الصغار هو الذل الذي يصغر إلى المرء نفسه (عند الله) يعني هذا من عند الله وقيل إن هذا الصغار ثابت لهم عند الله فعلى هذا القول إنما يحصل لهم الصغار في الآخرة وقيل معناه سيصيبهم صغار بحكم الله به عليهم في الدنيا (وعذاب شديد) يعني في الآخرة (بما

أي أعمالهم (وكذلك) أي وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها (جعلنا) صيرنا (في) كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها) ليمكروا على الناس فيها ويعملوا بالمعاصي واللام على ظاهرها عند أهل السنة وليست بلام العاقبة وخص الأكابر وهم الرؤساء لأن ما فيهم من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر من غيرهم دليله ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ثم سلى رسوله عليه السلام ووعدهم العقوبة بقوله (وما يمكرون إلا بأنفسهم) لأن مكرهم يحيق بهم (وما يشعرون) بعضهم أكابر مفعول أول والثاني في كل قرية ومجرميها بدل من أكابر والأول مجرميها والثاني أكابر والتقدير مجرميها أكابر ولما قال أبو جهل زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه نزل (وإذا جاءتهم) أي الأكابر (آية) معجزة أو آية من القرآن تأمرهم بالإيمان (قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) أي نعطى من الآيات مثل ما أعطي الأنبياء فأعلم الله تعالى أنه أعلم بمن يصلح للنبوة فقال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) مكي وحفص رسالاته غيرهما حيث مفعول به والعامل محذوف والتقدير يعلم موضع رسالته (سيصيب الذين أجرموا) من أكابرها (صغار) ذل وهوان (عند الله) في القيامة (وعذاب شديد) في الدارين من القتل والأسر وعذاب

كانوا يمكرون) يعني إنما حصل لهم هذا الصغار والعذاب بسبب مكرهم وحسدهم وطلبهم ما لا يستحقونه ﴿ قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) أي للإيمان يقال شرح الله صدره فانشرح أي وسعه لقبول الإيمان والخير فتوسع وذلك أن الإنسان إذا اعتقد في عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر مال بطبعه إليه وقوي طلبه ورغبته فيه فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانشراح الصدر وقيل الشرح الفتح والبيان يقال شرح فلان أمره إذا أوضحه وأظهره وشرح المسألة إذا [illegible] وبينها فقد ثبت أن للشرح معنيين أحدهما الفتح ومنه يقال شرح الكافر بالكفر صدرا أي [illegible] ومنه قوله تعالى ولكن من شرح بالكفر صدرا وقوله أفمن شرح الله صدره للإسلام يعني فتحه ووسعه لقبول والثاني أن الشرح نور يقذفه الله في قلب العبد فيعرف بذلك النور الحق فيقبله وينشرح صدره له و[illegible] الآية فمن يرد الله أن يهديه للإيمان بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده يوفقه له ويشرح صدره لقبوله و[illegible] عليه ويسهله له بفضله وكرمه ولطفه به وإحسانه إليه فعند ذلك يستنير الإسلام في قلبه فيضيء به ويتسع صدره ولما نزلت هذه الآية سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذفه الله في قلب ال[illegible] فينشرح له وينفسح قيل فهل لذلك أمارة قال نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والا[illegible] الموت قبل نزول الموت وأسنده الطبري عن ابن مسعود قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين [illegible] عليه هذه الآية فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام قال إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا فهل لذلك من آية يعرف بها قال الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والا[illegible] لقاء الموت ﴿ وقوله تعالى (ومن يرد) أي الله (أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) يعني يجعل صدره ضيقا حتى لا يدخله الإيمان وقال الكلبي ليس للخير فيه منفذ وقال ابن عباس إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه وإذا سمع ذكر الأصنام ارتاح إلى ذلك وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية وعنده أعرابي من كنانة فقال له ما الحرجة فيكم قال الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء فقال عمر كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير وأصل الحرج الضيق وهو مأخوذ من الحرجة وهي الأشجار الملتف بعضها على بعض حتى لا يصل إليها شيء وقرأ ابن عباس هذه الآية فقال هل هنا أحد من بني بكر قال رجل نعم قال ما الحرجة فيكم قال الوادي الكثير الشجر المستمسك الذي لا طريق فيه فقال ابن عباس كذلك قلب الكافر قال أهل المعاني لما كان القلب محلا للعلوم والاعتقادات وصف الله تعالى قلب من يريد هدايته بالانشراح والانفساح ونوره فيقبل ما أودعه من الإيمان بالله ورسوله ووصف قلب من يريد ضلالته بالضيق الذي هو خلاف الشرح والانفساح فدل ذلك على أن الله تعالى صير قلب الكافر بحيث لا يعي علما ولا استدلالا على توحيد الله تعالى والإيمان به وفي الآية دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله وإرادته حتى إيمان المؤمن وكفر الكافر ﴿ وقوله تعالى (كأنما يصعد في السماء) يعني أن الكافر إذا دعي إلى الإسلام شق عليه فكأنه قد كلف أن يصعد إلى السماء ولا يقدر على ذلك وقيل يجوز أن يكون المعنى كأن قلب الكافر يصعد إلى السماء نبوا عن الإسلام وتكبرا وقيل ضاق عليه المذهب فلم يجد إلا أن يصعد إلى السماء وليس يقدر على ذلك وقيل هو من المشقة وصعوبة الأمر فيكون المعنى أن الكافر إذا دعي إلى الإسلام فإنه يتكلف مشقة وصعوبة في ذلك كمن يتكلف الصعود إلى السماء وليس يقدر على ذلك (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) الكاف في كذلك تفيد التشبيه وفيه وجهان الأول معناه أن جعل الرجس عليهم كجعله صدورهم حرجة والمعنى كما جعلنا صدورهم ضيقة حرجة كذلك يجعل الله الرجس عليهم الوجه الثاني قال الزجاج أي مثل ما قصصنا عليك كذلك يجعل الله الرجس قال ابن عباس الرجس الشيطان أي يسلطه الله عليهم وقال مجاهد الرجس ما لا خير فيه وفي رواية عن ابن عباس أن الرجس العذاب وقال الزجاج الرجس ا[illegible]

النار (بما كانوا يمكرون) في الدنيا (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) يوسعه وينور قلبه قال عليه السلام إذا دخل النور في القلب انشرح وانفتح قيل وما علامة ذلك قال الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت (ومن يرد) أي الله (أن يضله يجعل صدره ضيقا) ضيقا مكي (حرجا) صفة لضيقا مدني وأبو بكر بالفتح في الضيق حرجا غيرهما وصفا بالمصدر (كأنما يصعد في السماء) كأنه كلف أن يصعد إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره عنه إذا ضاقت عليه الأرض فطلب مصعدا في السماء أو كعازب الرأي طائر القلب في الهواء يصعد مكي يصاعد أبو بكر وأصله يتصاعد الباقون يصعد وأصله يتصعد (كذلك يجعل الله الرجس) العذاب في الآخرة واللعنة في الدنيا (على الذين لا يؤمنون) والآية حجة لنا على المعتزلة في إرادة

الدنيا المعتدى الآخرة العذاب ﴿ قوله عز وجل (وهذا صراط ربك مستقيما) يعني وهذا الذي بينا لك يا محمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك يعني دينه الذي شرعه لعباده ورضيه لنفسه وجعله مستقيما لا اعوجاج فيه قال ابن عباس في قوله وهذا صراط ربك مستقيما يعني الاسلام وقال ابن مسعود يعني القرآن لانه يؤدي من تبعه وعمل به الى طريق الاستقامة والسداد (قد فصلنا الآيات) يعني قد فصلنا آيات القرآن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب والحلال والحرام والامر والنهي وغير ذلك من أحكام القرآن (لقوم يذكرون) يعني لمن يتذكر بها ويتعظ بما فيها من المواعظ والعبر قال عطاء يعني أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم باحسان (لهم دار السلام عند ربهم) يعني الجنة في قول جميع المفسرين قال الحسن والسدي السلام هو الله تعالى وداره الجنة ومعنى السلام في أسماء الله تعالى ذو السلام وهو جميع سلامة لانه تعالى ذو السلامة من جميع الآفات والنقائص فعلى هذا القول أضيفت الدار الى السلام الذي هو اسم الله تعالى اضافة تشريف وتعظيم كما قيل للكعبة بيت الله وللنبي صلى الله عليه وسلم عبد الله في قوله وانه لما قام عبد الله يدعوه واحتج لصحة هذا بان في اضافة الدار الى الله تعالى نهاية تشريفها وتعظيمها فكان ذكر الاضافة مبالغة في تعظيم أمرها وقيل ان السلام صفة للدار لانها دار السلامة الدائمة التي لا تنقطع فعلى هذا يكون السلام بمعنى السلامة كانه قال لهم دار السلامة التي لا يلقون فيها شيأ يكرهونه وقيل سميت بذلك لان جميع حالاتها مقرونة بالسلامة كما قال تعالى في وصفها ادخلوها بسلام آمنين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم وقال تحيتهم فيها سلام وقال سلام قولا من رب رحيم لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما وقوله عند ربهم يعني ان الجنة معدة مهيأة لهم عند ربهم حتى يوصلهم اليها (وهو وليهم بما كانوا يعملون) يعني انه تعالى يتولى أمرهم وايصال المنافع اليهم ويدفع المضار عنهم وقيل معناه أنه يتولاهم في الدنيا بالتوفيق والهداية وفي الآخرة بالجزاء والجنة وقيل الولي هو الناصر والقريب يعني انه تعالى ينصرهم في الدنيا ويقربهم في الآخرة بسبب أعمالهم الصالحة التي كانوا يتقربون بها اليه في الدنيا ﴿ قوله تعالى (ويوم يحشرهم جميعا) أي اذكر يا محمد يوم نحشر العادلين بالله الاصنام مع أوليائهم من الشياطين يعني نحشر المشركين والشياطين جميعا يوم القيامة (يا معشر الجن) فيه حذف تقديره فيقول لهم يا معشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين (قد استكثرتم من الانس) يعني من اضلالهم واغوائهم وقال ابن عباس معناه أضللتم كثيرا من الانس وهذا التفسير لا بد له من تأويل آخر لان الجن لا يقدرون على اضلال الانس واغوائهم بانفسهم لانه لا يقدر على الاجبار أحد الا الله لانه هو المتصرف في خلقه بما شاء فوجب أن يكون المعنى قد استكثرتم من الدعاء الى الاضلال مع مصادفة القبول من الانس (وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) يعني استمتع الجن بالانس والانس بالجن فاما استمتاع الانس بالجن فقال الكلبي كان الرجل في الجاهلية اذا سافر فنزل بارض قفر او خاف على نفسه من الجن قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في جوارهم وأما استمتاع الجن بالانس فهو انهم قالوا قد سدنا الانس مع الجن حتى عاذوا بنا فيزدادون بذلك شرفا في قومهم وعظما في أنفسهم وقيل استمتاع الانس بالجن هو ما كانوا يلقون اليهم من الاراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم الامور التي كانوا يهوونها وتسهيل سبلها عليهم واستمتاع الجن بالانس طاعة الانس للجن فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي وقيل استمتاع الانس بالجن فيما كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات وأصناف الطيبات ويسهلونها عليهم واستمتاع الجن بالانس هي طاعة الانس للجن فيما يأمرونهم به وينقادون لحكمهم فصاروا كالرؤساء للانس والانس كالاتباع وقيل ان قوله ربنا استمتع بعضنا ببعض هو من كلام الانس خاصة لان استمتاع الجن بالانس وبالعكس أمر نادر لا يكاد يظهر أما استمتاع الانس بعضهم ببعض فهو ظاهر فوجب حمل الكلام عليه

للعاصي (وهذا صراط ربك) أي طريقه الذي اقتضته الحكمة وسنته في شرح صدر من أراد هدايته وجعله ضيقا لمن أراد ضلاله (مستقيما) عادلا مطردا أو هو حال مؤكدة (قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) يتعظون (لهم) أي لقوم يذكرون (دار السلام) دار الله يعني الجنة أضافها الى نفسه تعظيما لها أو دار السلامة من كل آفة وكدر أو السلام التحية سميت دار السلام لقوله تحيتهم فيها سلام الا قيلا سلاما سلاما (عند ربهم) في ضمانه (وهو وليهم) محبهم أو ناصرهم على أعدائهم (بما كانوا يعملون) باعمالهم أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون أو هو وليهم في الدنيا بتوفيق الاعمال وفي العقبى بتحقيق الآمال (ويوم نحشرهم جميعا) وبالياء حفص أي واذكر يوم نحشرهم أو ويوم نحشرهم قلنا (يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس) أضللتم منهم كثيرا وجعلتموهم أتباعكم كما تقول استكثر الامير من الجنود (وقال أولياؤهم من الانس) الذين أطاعوهم واستمعوا الى وسوستهم (ربنا استمتع بعضنا ببعض) أي انتفع الانس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل اليها وانتفع الجن بالانس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم في اغوائهم

(وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) يعني ان ذلك الاستمتاع كان الى أجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة والندامة قال الحسن والسدي الأجل الموت وقيل هو وقت البعث للحساب في يوم القيامة (قال) يعني قال الله لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والانس (النار مثواكم) يعني أن النار مقركم فيها ومصيركم اليها (خالدين فيها) يعني مقيمين في نار جهنم أبدا (الا ما شاء الله) اختلفوا في معنى هذا الاستثناء فقيل معناه خالدين فيها الا قدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب الى حين دخولهم الى النار فان هذا الوقت ليسوا خالدين فيه في النار وقيل المراد من هذا الاستثناء هو أوقات نقلهم من عذاب الى عذاب آخر وذلك انهم يستغيثون من النار فينقلون الى الزمهرير ثم يستغيثون منه فينقلون الى النار فكانت مدة ذلك هي المراد من هذا الاستثناء ونقل جهور المفسرين عن ابن عباس انه قال ان هذا الاستثناء يرجع الى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون ويصدقون النبي صلى الله عليه وسلم فيخرجون من النار وقوافي هذه النار بل تكون ما في قوله الا ما شاء الله بمعنى من يعني الا من شاء الله ونقل الطبري عن ابن عباس انه كان يتأول هذا الاستثناء بان الله عز وجل جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابهم الى مشيئته وقال في هذه الآية انه لا ينبغي لاحد أن يحكم على الله في خلقه ان لا ينزلهم جنة ولا نارا قال الزجاج والقول الاول أولى لان معنى الاستثناء انما هو من يوم القيامة لان قوله ويوم نحشرهم جميعا هو يوم القيامة ثم قال خالدين فيها منذ يبعثون الا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدة محاسبتهم (ان ربك حكيم) يعني في تدبير وتصريفه اياهم في مشيئته من حال الى حال وغير ذلك من أفعاله وقيل حكيم فيما يفعله من ثواب الطائع وعقاب العاصي وفي سائر وجوه المجازاة (عليم) يعني بعواقب أمور خلقه وما هم اليه صائرون كما به قال انما هؤلاء الكفار بالخلود في النار لعلمه انهم يستحقون ذلك ﴿ قوله عز وجل (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا) الكاف في كذلك كاف التشبيه تقتضي شيأ تقدم ذكره فالتقدير كما أنزلت العذاب بالجن والانس الذين استمتع بعضهم ببعض كذلك نولي بعض الظالمين بعضا أي نسلط بعضهم على بعض فنأخذ من الظالم بالظالم كما جاء في الاثر من أعان ظالما سلطه الله عليه وقال قتادة نجعل بعضهم أولياء بعض فالمؤمن ولي المؤمن حيث كان وأين كان والكافر ولي الكافر حيث كان وأين كان وفي رواية أخرى عن قتادة قال يتبع بعضهم بعضا في النار من الموالاة وقيل معناه نولي ظلمة الانس ظلمة الجن وظلمة الجن ظلمة الانس يعني نكل بعضهم الى بعض وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية هو ان الله تعالى اذا أراد بقوم خيرا ولى عليهم خيارهم واذا أراد بقوم شرا ولى عليهم شرارهم فعلى هذا القول ان الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عز وجل عليهم ظالما مثلهم فمن أراد أن يتخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم ﴿ وقوله تعالى (بما كانوا يكسبون) يعني نسلط ظلمهم من يظلمهم بسبب أعمالهم الخبيثة التي اكتسبوها ﴿ قوله تعالى (يا معشر الجن والانس) المعشر كل جماعة أمرهم واحد والجمع معاشر (ألم يأتكم رسل منكم) اختلف العلماء في معنى هذه الآية وهل كان من الجن رسل أم لا فذهب أكثر العلماء الى انه لم يكن من الجن رسول وانما كانت الرسل من الانس وأجابوا عن قوله رسل منكم يعني من أحدكم وهم الانس فهو كقوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب وانما جاز ذلك لان ذكرهما قد جمع في قوله مرج البحرين وهو جائز في كل ما اتفق في أصله فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الانس جاز مخاطبتهما بما ينصرف الى أحد الفريقين وهم الانس وهذا قول الفراء والزجاج ومذهب جمهور أهل العلم قال الواحدي وعليه دل كلام ابن عباس لانه قال يريد بأنبياء من جنسه ولم يكن من جنس الجن أنبياء وذهب قوم الى انه أرسل الى الجن رسلا منهم كما أرسل الى الانس رسلا منهم قال الضحاك من الجن رسل كما من الانس رسل وظاهر الآية

واتباع الهوى والتكذيب بالبعث وتحسر على حالهم (قال النار مثواكم) منزلكم (خالدين فيها) حال والعامل معنى الاضافة كقوله تعالى أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين فمصبحين حال من هؤلاء والعامل في الحال معنى الاضافة اذ معنا الممازجة والمضامة والمثوى ليس بعامل لان المكان لا يعمل في شيء (الا ما شاء الله) أي يخلدون في عذاب النار الابد كله الا ما شاء الله الا الاوقات التي ينقلون فيها من عذاب السعير الى عذاب الزمهرير (ان ربك حكيم) فيما يفعل باوليائه وأعدائه (عليم) بأعمالهم فيجزي كلا على وفق عمله (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا) نتبع بعضهم بعضا في النار أو نسلط بعضهم على بعض أو نجعل بعضهم أولياء بعض (بما كانوا يكسبون) بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي ثم يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) عن الضحاك بعث الى الجن رسلا منهم كما بعث الى الانس رسلا منهم لانه قال آتيناه وعليه ظاهر النص وقال آخرون الرسل من الانس خاصة وانما قيل رسل منكم لانه لما جمع الثقلين في الخطاب صح ذلك وان كان من أحدهما كقوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان أو رسلهم رسل نبينا كقوله ولوا الى قومهم منذرين

يدل على ذلك لانه قال تعالى ألم يأتكم رسل منكم فخاطب الفريقين جميعا وأجيب عن ذلك بان الله تعالى قال يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم وهذا يقتضى كون الرسل بعضا من أبعاض هذا المجموع واذا كان الرسل من الانس كان الرسل بعضا من أبعاض هذا المجموع وكان هذا القول أولى من حمل لفظ الآية على ظاهرها فثبت بذلك كون الرسل من الانس لا من الجن ويحتمل أيضا أن يقال ان كافة الرسل كانوا من الانس لكن الله تعالى يلقى الداعية فى قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل من الانس ثم يأتوا قومهم من الجن فيخبروهم بما سمعوا من الرسل وينذروهم به كما قال تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن الى قوله فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين فكان أولئك النفر من الجن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قومهم وهذا مذهب مجاهد فانه قال الرسل من الانس والنذر من الجن ونحو ذلك قال ابن جريج وأبو عبيدة وقيل كانت الرسل يبعثون الى الجن من الجن ولكن بواسطة رسل الانس والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ﴿ وقوله تعالى (يقصون عليكم آياتى) يعنى يخبرونكم بما أوحى اليهم من آياتى الدالة على توحيدى وتصديق رسلى (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) يعنى ويحذرونكم ويخوفونكم لقاء عذابى فى يومكم هذا وهو يوم القيامة وذلك ان الله تعالى يقول يوم القيامة لكفار الجن والانس على سبيل التقريع والتوبيخ ما حرف كتابه وهو قوله تعالى يامعشر الجن والانس الآية فيجيبون بما أخبر عنهم فى قوله تعالى (قالوا) يعنى كفار الجن والانس (شهدنا على أنفسنا) اعترفوا بأن الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وأنذروهم لقاء يومهم هذا وانهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا) يعنى انما كان ذلك بسبب انهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا اليها (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) فى الدنيا فان قلت كيف أقروا على أنفسهم بالكفر فى هذه الآية وجحدوا الشرك والكفر فى قوله والله ربنا ما كنا مشركين قلت يوم القيامة يوم طويل والاحوال فيه مختلفة فاذا رأوا ما حصل للمؤمنين من الخير والفضل والكرامة أنكروا الشرك لعل ذلك الانكار ينفعهم وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر فذلك قوله تعالى وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين فان قلت لم كرر شهادتهم على أنفسهم قلت شهادتهم الاولى اعتراف منهم بما كانوا عليه فى الدنيا من الشرك والكفر وتكذيب الرسل وفى قوله وشهدوا على أنفسهم ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لانفسهم وانهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها فكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا الى الشهادة على أنفسهم بالكفر والمقصود من شرح حالهم تحذير السامعين وزجرهم عن الكفر والمعاصى ﴿ قوله عز وجل (ذلك) اشارة الى ما تقدم ذكره من بعثة الرسل اليهم وانذارهم سوء العاقبة وقال الزجاج معناه ذلك الذى قصصنا عليك من أمر الرسل وأمر عذاب من كذبهم (أن لم يكن ربك) يعنى لانه لم يكن ربك (مهلك القرى بظلم) قال الكلبى معناه لم يكن ليهلكهم بذنوبهم من قبل أن يأتيهم الرسل فتنهاهم فان رجعوا والا أتاهم العذاب وهذا قول جمهور المفسرين قال الفراء يجوز أن يكون المعنى لم يكن ليهلكهم بظلم منه (وأهلها غافلون) أى وهم غافلون فعلى قول الجمهور يكون الظلم فعلا للكفار وهو شركهم وذنوبهم التى عملوها وعلى قول الفراء انه لو أهلكهم قبل بعثة الرسل لكان ظالما والله عز وجل يتعالى عن الظلم والقول الاول أصح لانه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لاحد عليه فى شئ من أفعاله غير انه أخبر انه لا يعذب قبل بعثة الرسل ولو فعل ذلك لم يكن ظلما منه ﴿ قوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) يعنى ولكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات يعنى منازل يبلغها بعمله ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر وانما سميت درجات لتفاضلها فى الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج وهذا انما يكون فى الثواب والعقاب على قدر أعمالهم فى الدنيا فمنهم من هو أعظم ثوابا ومنهم من هو أشد عقابا وهو قول جمهور

(يقصون عليكم آياتى) يقرؤن كتبى (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) يعنى يوم القيامة (قالوا شهدنا على أنفسنا) بوجوب الحجة علينا وتبليغ الرسل الينا (وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) بالرسل (ذلك) اشارة الى ما تقدم من بعثة الرسل اليهم وهو خبر مبتدأ محذوف أى الامر ذلك (أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) تعليل أى الامر ما قصصنا عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم على أن أن مصدرية ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة والمعنى لان الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم بسبب ظلم أقدموا عليه أو ظالما على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب لكان ظالما وهو متعال عنه (ولكل) من المكلفين (درجات) منازل (مما عملوا) من جزاء أعمالهم وبه استدل أبو يوسف ومحمد رحمهما الله على أن للجن الثواب بالطاعة لانه ذكر عقيب ذكر الثقلين

المفسرين وقيل ان قوله تعالى ولكل درجات مما عملوا مختص باهل الطاعة لان لفظ الدرجة لا يليق الا بهم وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما يعملون) مختص باهل الكفر والمعاصي ففيه وعيد وتهديد لهم والقول الاول أصح لان علمه تعالى شامل لكل المعلومات فيدخل فيه المؤمن والكافر والطائع والعاصي وانه عالم على التفصيل التام فيجزى كل عامل على قدر عمله وما يليق به من ثواب أو عقاب ۞ قوله عز وجل (وربك الغنى) يعنى عن خلقه وذلك أنه تعالى لما بين ان لكل عامل بطاعة أو معصية درجة على قدر عمله بين ان تخصيص المطيعين بالثواب والعاصين بالعقاب ليس لانه محتاج الى طاعة المطيع أو منتقص بمعصية العاصي بل هو الغنى على الاطلاق وان جميع الخلق فقراء اليه (ذو الرحمة) قال ابن عباس باوليائه وأهل طاعته وقال الكلبي بخلقه ذو التجاوز عنهم فمن رحمته تأخير العذاب عن المذنبين لعلهم يتوبون ويرجعون (ان يشأ يذهبكم) يعنى يهلككم والخطاب لاهل مكة ففيه وعيد وتهديد لهم (ويستخلف) يعنى وينشئ ويخلق (من بعدكم) يعنى من بعد اهلاككم (ما يشاء) يعنى خلقا غيركم أمثل وأطوع منكم (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) اختلفت عبارات المفسرين في هذه اللفظة فقال البغوي يعنى آباءهم الماضية قرنا بعد قرن ونحوه قال الواحدي وصاحب الكشاف يعنى من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام وقال الامام فخر الدين الرازي في قوله تعالى ويستخلف من بعدكم يعنى من بعد اذهابكم لان الاستخلاف لا يكون الا على طريق البدل من فائت وأما قوله ما يشاء فالمراد منه خلق ثالث أو رابع واختلفوا فيه فقال بعضهم خلقا آخر من أمثال الجن والانس. قال القاضي وهو الوجه الاقرب لان القوم يعلمون بالعادة انه تعالى قادر على انشاء أمثال هذا الخلق فمتى حمل على خلق ثالث ورابع يكون أقوى في دلالة القدرة فكأنه تعالى نبه على ان قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التي هي الثواب فبين بهذا الطريق انه تعالى لرحمته هؤلاء الاقوام الحاضرين أبقاهم وأمهلهم ولو شاء لاماتهم وأفناهم وأبدل منهم سواهم ثم بين الله تعالى قوة قدرته على ذلك فقال كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين لان المرء اذا تفكر علم انه تعالى خلق الانسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة واذا كان كذلك فكما قدر على تصويرهم من هذه الاجسام بهذه الخاصة فكذلك يقدر على تصويرهم خلقا آخر مخالفا لهم هذا آخر كلامه وقال الطبري في قوله كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين يقول كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم ومعنى من في هذا الموضع التعقيب كما يقال في الكلام أعطيتك من دينارك ثوبا يعنى مكان الدينار ثوبا لا أن الثوب من الدينار بعض كذلك الذين خوطبوا بقوله كما أنشأكم لم يرد باخبارهم هذا الخبر أنهم أنشؤا من أصلاب قوم آخرين ولكن معنى ذلك ما ذكرنا انهم أنشؤا مكان قوم آخرين قد أهلكوا قبلهم ۞ قوله تعالى (ان ما توعدون) يعنى من مجىء الساعة والبعث بعد الموت والحشر يوم القيامة (لآت) يعنى انه كائن قريب (وما أنتم بمعجزين) يعنى بفائتين حيثما كنتم يدرككم الموت (قل) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أى قل يا محمد (يا قوم) أى قل لقومك من كفار قريش (اعملوا على مكانتكم) وقرئ مكاناتكم على الجمع والمكانة تكون مصدرا يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن وبمعنى المكان يقال مكان ومكانة كما يقال مقام ومقامة فقوله اعملوا على مكانتكم يحتمل أن يكون معناه اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وامكانكم ويحتمل أن يكون معناه اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها كما يقال للرجل اذا أمر أن يثبت على حالة مكانتك يا فلان أى اثبت على ما أنت عليه لا تتغير عنه قال ابن عباس معناه اعملوا على ناحيتكم (انى عامل) يعنى انى عامل على مكانتى التى أنا عليها وما أمرنى به ربى والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة فانى ثابت على الاسلام والمصابرة فان قلت ظاهر الآية يدل

(وما ربك بغافل عما يعملون) بالياء والتاء (وربك الغنى) عن عباده وعن عبادتهم (ذو الرحمة) عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع الدائمة (ان يشأ يذهبكم) أيها الظلمة (ويستخلف من بعدكم ما يشاء) من الخلق المطيع (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام (ان ما) ما بمعنى الذى (توعدون) من البعث الحساب والثواب والعقاب (لآت) حتما أى لكائن (وما أنتم بمعجزين) بفائتين لهم من مات فقد تكون مصدرا يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن وبمعنى المكان يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة وقوله (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم) يحتمل اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وامكانكم واعملوا على جهتكم وحالكم التى أنتم عليها ويقال للرجل اذا أمر أن يثبت على حاله على مكانتك يا فلان أى اثبت على ما أنت عليه (انى عامل) على مكانتى التى أنا

على أمر الكفار بالاقامة على ما هم عليه من الكفر ودلت الآية وقلت معنى هذا الامر الوعيد والتهديد والمبالغة فى الزجر عما هم عليه من الكفر فكأنه قال أقيموا على ما أنتم عليه من الكفر ان رضيتم لأنفسكم العذاب الدائم فهو كقوله تعالى اعملوا ما شئتم فقيه تفويض أمر العمل اليهم على سبيل الزجر والتهديد وليس فيه اطلاق لهم فى عمل ما أرادوه من الكفر والمعاصى ﴿ وقوله تعالى (فسوف تعلمون) يعنى لمن تكون العاقبة المحمودة لنا أو لكم وقيل معناه فسوف تعلمون عند نزول العذاب بكم أينا كان على الحق فى عمله نحن أم أنتم (من تكون له عاقبة الدار) يعنى فسوف تعلمون عند القيامة لمن تكون عاقبة الدار وهى الجنة (انه لا يفلح الظالمون) قال ابن عباس معناه انه لا يسعد من كفر بى وأشرك ثم فى هذه الآية قولان أحدهما انها محكمة وهذا على قول من يقول ان المراد بقوله اعملوا على مكانتكم الوعيد والتهديد والقول الثانى انها منسوخة بآية السيف وهذا على قول من يقول ان المراد بها ترك القتال ﴿ قوله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا) الآية لما بين الله عز وجل قبح طريقة الكفار وما كانوا عليه من انكار البعث وغير ذلك عقبه بذكر أنواع من جهالاتهم وأحكامهم الفاسدة تنبيها على ضعف عقولهم وفساد ما كانوا عليه فى الجاهلية فقال تعالى وجعلوا لله مما ذرأ يعنى مما خلق من الحرث يعنى الزرع والثمر والانعام يعنى ومن الانعام وهى الابل والبقر والغنم نصيبا يعنى قسما وجزءا قال المفسرون كان المشركون فى الجاهلية يجعلون لله من حروثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيبا وللاصنام نصيبا فما جعلوه من ذلك لله صرفوه الى الضيفان والمساكين وما جعلوه للاصنام أنفقوه على خدمها فان سقط شئ مما جعلوه لله فى نصيب الاوثان تركوه وقالوا ان الله غنى عن هذا وان سقط شئ من نصيب الاوثان فيما جعلوه لله ردوه الى الاوثان وقالوا انها محتاجة اليه وكانوا اذا هلك شئ مما جعلوه لله لم يبالوا به واذا انتقص شئ مما جعلوه للاوثان جبروه بما جعلوه لله فذلك قوله وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا وفيه اختصار تقديره وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا وللاصنام نصيبا (فقالوا هذا لله بزعمهم) يعنى قولهم الذى هو بغير حقيقة لان معنى الزعم حكاية قول يكون مظنة الكذب ولذلك لا يجئ الا فى موضع ذم لقائليه وانما نسبوا الى الكذب فى قولهم هذا لله بزعمهم وان كانت الاشياء كلها لله لاضافتهم نصيب الاصنام مع نصيب الله وهو قولهم (وهذا لشركائنا) يعنى الاصنام وانما سموا الاصنام شركاء لانهم جعلوا لها نصيبا من أموالهم ينفقونه عليها (فما كان لشركائهم) يعنى ما جعلوه لها من الحرث والانعام (فلا يصل الى الله) يعنى فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه فى الضيفان (وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) والمعنى انهم كانوا يفردون ما جعلوه للاصنام مما جعلوه لله ولا يفردون ما جعلوه لله مما جعلوه للاصنام وقال قتادة كانوا اذا أصابتهم سنة أى قحط وشدة استعانوا بما جعلوه لله وأكلوا منه ووفروا ما جعلوه لشركائهم ولم يأكلوا منه شيأ وقال الحسن والسدى كانوا اذا هلك ما جعلوه لشركائهم أخذوا بدله مما جعلوه لله ولا يفعلون ذلك فيما جعلوه لشركائهم ولذلك ذمهم الله تعالى فقال (ساء ما يحكمون) يعنى بئس ما يحكمون ويقضون وذلك انهم رجحوا جانب الأصنام على جانب الله تعالى فى الرعاية والحفظ وهذا سفه منهم وقيل ان الاشياء كلها لله عز وجل وهو خالقها فلما جعلوا للاصنام جزأ من ملكه وهى لا تملك ولا تخلق ولا تضر ولا تنفع نسبوا الى الاساءة فى الحكم والمقصود من ذلك بيان ما كانوا عليه فى الجاهلية من هذه الاحكام الفاسدة التى لم يرد بها شرع ولا نص ولا يحسنها عقل ﴿ قوله عز وجل (وكذلك) عطف على قوله وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا يعنى كما جعلوا لله

تعملون انى عامل كفركم وعداوتكم لى فانى ثابت على الاسلام وعلى مصابرتكم وهو أمر تهديد ووعيد دليله قوله (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) أى فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة وهذا طريق لطيف فى الانذار (انه لا يفلح الظالمون) أى الكافرون مكاناتكم حيث كان أبو بكر يكون حمزة وعلى وموضع من رفع اذا كان بمعنى أى وعلق عنه فعل العلم أو نصب اذا كان بمعنى الذى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا) أى وللاصنام نصيبا فاكتفى بدلالة قوله تعالى (فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) بزعمهم على وكذا ما بعده أى زعموا انه لله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة (فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله) أى لا يصل الى الوجوه التى كانوا يصرفونه اليها من قرى الضيفان والتصدق (على المساكين وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) من انفاقهم عليها والاجراء على سدنتها روى انهم كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله وأشياء منهما لآلهتهم فاذا رأوا ما جعلوا لله زاكيا ناميا رجعوا فجعلوه للاصنام واذا زكا ما جعلوه للاصنام تركوه لها وقالوا ان الله غنى وانما ذاك لحبهم آلهتهم وايثارهم لها وفى قوله مما ذرأ اشارة الى ان الله كان أولى بان يجعل له الزاكى لانه هو الذى ذرأه ثم ذمهم بقوله (ساء ما يحكمون) فى ايثارهم آلهتهم على الله وعملهم على ما لم يشرع لهم وموضع ما رفع أى ساء الحكم حكمهم أو نصب أى ساء حكما حكمهم (وكذلك

زين لكثير من المشركين) أي كما زين لهم تحريم ما ذكر من الحرث والأنعام (قتل) مفعول من (أولادهم شركاؤهم) هو فاعل زين وفي قراءة بالضم مبني للمفعول ورفع قتل ونصب أولادهم به وجر شركائهم بإضافته وفيه الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ولا يضر وإضافة القتل إلى الشركاء لأمرهم به (ليردوهم) ليهلكوهم بالإغواء (وليلبسوا) يخلطوا (عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه)

جهلا منهم كذلك زين لكثير منهم قتل أولادهم شركاؤهم والمعنى أن جعلهم لله نصيبا من أموالهم ولشركائهم نصيبا بأنه الجهل عرفه إذ تالى المهم لا نهم جعلوا الأصنام مثله في استحقاق النصيب وكذلك قتل أولادهم في نهاية الجهالة أيضا لكنه قال ومثل ذلك الذي فعلوه في القسم جهلا وخطأ وضلالا (زين) يعني حسن (لكثير من المشركين قتل أولادهم) يعني دفن البنات أحياء مخافة العار (شركاؤهم) يعني شياطينهم أمروهم أن يقتلوا أولادهم خشية العيلة وسميت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من معصية الله وقتل الأولاد فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم وإضافة الشركاء إلى المشركين لأنهم أطاعوهم واتخذوهم أربابا وقيل الكلبي شركاؤهم سدنة آلهتهم يعني خدامها وهم الذين كانوا يزينون ويحسنون للكفار قتل الأولاد وكان الرجل في الجاهلية يقوم فيحلف لئن ولد له كذا وكذا غلاما لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله فعلى هذا القول الشركاء هم السدنة وخدام الأصنام سموا شركاء لأنهم أشركوهم في الطاعة (ليردوهم) يعني ليهلكوهم بذلك الفعل الذي أمروهم به والإرداء في اللغة الإهلاك قال ابن عباس ليردوهم في النار (وليلبسوا عليهم دينهم) يعني وليخلطوا عليهم دينهم قال ابن عباس ليدخلوا عليهم الشك في دينهم وكانوا على دين إسمعيل عليه السلام فرجعوا عنه بتلبيس الشياطين وإنما فعلوا ذلك ليزيلوهم عن الدين الحق الذي كان عليه إسمعيل وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام فوضعوا لهم هذه الأوضاع الفاسدة وزينوها لهم (ولو شاء الله ما فعلوه) يعني ولو شاء الله لعصمهم من ذلك الفعل القبيح الذي زين لهم من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد وأخبر الله تعالى أن جميع الأشياء بمشيئته وإرادته إذ لو لم يشأ ما فعلوا ذلك (فذرهم) يعني فاتركهم يا محمد (وما يفترون) وما يختلقون من الكذب فإن الله لهم بالمرصاد ﴿ قوله تعالى (وقالوا) يعني المشركين (هذه أنعام وحرث حجر) أي حرام وأصله المنع لأنه منع من الانتفاع به بتحريمه وقيل هو من التضييق والحبس كانوا يحبسون أشياء من أنعامهم وحروثهم لآلهتهم قال مجاهد يعني بالأنعام البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي (لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) يعني أنها كانت لخدام الأصنام والرجال دون النساء (وأنعام حرمت ظهورها) يعني الحوامي وهي الأنعام التي حموا ظهورها عن الركوب فكانوا لا يركبونها (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) يعني لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح وإنما كانوا يذكرون عليها اسم الأصنام وقيل معناه لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل الخير لأنه لما جرت العادة بذكر الله على فعل كل خير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير (افتراء عليه) يعني أنهم كانوا يفعلون هذه الأفعال ويزعمون أن الله أمرهم بها وذلك اختلاق وكذب على الله عز وجل (سيجزيهم بما كانوا يفترون) فيه وعيد وتهديد لهم على افترائهم على الله الكذب ﴿ قوله عز وجل (وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) يعني ما قال ابن عباس وقتادة والشعبي أرادوا أجنة البحائر والسوائب فما ولد منها حيا فهو خالص للرجال دون النساء وما ولد منها ميتا أكله الرجال والنساء جميعا وهو قوله تعالى (وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء)

دليل على أن الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى (فذرهم وما يفترون) وما يفترونه من الإفك أو وافتراءهم لأن ضرر ذلك الافتراء عليهم لا عليك ولا علينا (وقالوا هذه أنعام وحرث) للأوثان (حجر) حرام فعل بمعنى المفعول كالذبح والطحن ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات وكانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا (لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء والزعم قول بالظن يشوبه الكذب (وأنعام حرمت ظهورها) هي البحائر والسوائب والحوامي (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) حالة الذبح وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام (افتراء عليه) هو مفعول له أو حال أي قسموا أنعامهم فقالوا هذه أنعام حجر وهذه أنعام محرمة الظهور وهذه أنعام لا يذكر اسم الله عليها ونسبوا ذلك إلى الله افتراء عليه (سيجزيهم بما كانوا يفترون) وعيد ودخلت
(وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث وما ولد ميتا اشترك فيه الذكور والإناث وأنث خالصة وهو خبر ما للحمل على المعنى لأن ما في معنى الأجنة وذكر ومحرم حملا على اللفظ أو التاء للمبالغة كنسابة (وإن يكن ميتة) أي وإن يكن ما في بطونها ميتة وإن تكن ميتة أبو بكر أي وإن تكن الأجنة ميتة وإن تكن ميتة شامي على كان التامة وتذكير الضمير في فيه لأن الميتة لعدم الفصل وتذكير الضمير في (فهم فيه شركاء)

وأدخلت الهاء في خالصة لتأكيد المبالغة كقولهم رجل علامة ونسابة وقال الفراء دخلت الهاء لتأنيث الانعام لان ما في بطونها مثلها فأنث بتأنيثها وقال الكسائي خالص وخالصة واحد مثل وعظ وموعظة وقيل اذا كان اللفظ عبارة عن مؤنث جاز تأنيثه على المعنى وتذكيره على اللفظ كما في هذه الآية فانه أنث خالصة على المعنى وذكر ومحرم على اللفظ (سيجزيهم وصفهم) يعني سيكافئهم بسبب وصفهم على الله الكذب (انه حكيم عليم) فيه وعيد وتهديد يعني انه تعالى حكيم فيما يفعله عليم بقدر استحقاقهم ﴿قوله تعالى (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم) قال عكرمة نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر وكان الرجل يشارط الرجل على أن يستحيي جارية ويئد أخرى فاذا كانت الجارية التي تؤأد غدا الرجل أو راح من عند امرأته وقال لها أنت علي كظهر أمي ان رجعت اليك ولم تئديها فتخد لها في الارض خدا وترسل الى نسائها فيجتمعن عندها ثم يتداولنها حتى اذا أبصرنه راجعا دسستها في حفرتها ثم سوّت عليها التراب وقال قتادة هذا من صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبي والفاقة ويغذو كلبه أما سبب الخسران المذكور في قوله قد خسر الذين قتلوا أولادهم أن الولد نعمة عظيمة أنعم الله بها على الوالد فاذا تسبب الرجل في ازالة هذه النعمة عنه وابطالها فقد استوجب الذم وخسر في الدنيا والآخرة أما خسارته في الدنيا فقد سعى في نقص عدده وازالة ما أنعم الله به عليه وأما خسارته في الآخرة فقد استحق بذلك العذاب العظيم وقوله سفها بغير علم يعني فعلوا ذلك للسفاهة وهي الخفة والجهالة المذمومة وسبب حصول هذه السفاهة هو قلة العلم وعدمه لان الجهل كان هو الغالب عليهم قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا سموا جاهلية ﴿وقوله تعالى (وحرموا ما رزقهم الله) يعني البحائر والسوائب والحامي وبعض الحروث وبعض ما في بطون الانعام وهذا أيضا من أعظم الجهالة (افتراء على الله) يعني أنهم فعلوا هذه الافعال المذمومة وزعموا أن الله أمرهم بذلك وهذا افتراء على الله وكذب وهذا أيضا من أعظم الجهالة لان الجراءة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ولهذا قال تعالى (قد ضلوا) يعني في فعلهم عن طريق الحق والرشاد (وما كانوا مهتدين) يعني الى طريق الحق والصواب في فعلهم (خ) عن ابن عباس قال اذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الانعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم الى قوله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴿قوله عز وجل (وهو الذي أنشأ جنات معروشات) يعني والله الذي ابتدع وخلق جنات يعني بساتين معروشات (وغير معروشات) يعني مسموكات مرتفعات وغير مرتفعات وأصل العرش في اللغة شيء مسقف يجعل عليه الكرم وجمعه عروش يقال عرشت الكرم أعرشه عرشا وعرشته تعريشا اذا جعلته كهيئة السقف واعترش العنب العريش اذا علاه وركبه واختلفوا في معنى قوله معروشات وغير معروشات فقال ابن عباس المعروشات ما انبسط على الارض وانتشر مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ ونحو ذلك وغير معروشات ما قام على ساق ونسق كالنخل والزرع وسائر الشجر وقال الضحاك كلاهما في الكرم خاصة لان منه ما يعرش ومنه ما لم يعرش بل يبقى على وجه الارض منبسطا وقيل المعروشات ما غرسه الناس في البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير معروشات هو ما أنبته الله في البراري والجبال من كرم أو شجر (والنخل والزرع) يعني وأنشأ النخل والزرع وهو جميع الحبوب التي تقتات وتدخر (مختلفا أكله) يعني به اختلاف الطعوم في الثمار كالحلو والحامض والجيد والردىء ونحو ذلك (والزيتون والرمان متشابها) يعني في المنظر (وغير متشابه) يعني في الطعم كالرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف وقيل ان ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرهما مختلفة في الجنس والطعم (كلوا من ثمره اذا أثمر) لما ذكر ما أنعم الله به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع من الثمار ذكر ما هو المقصود الاصلي وهو الانتفاع بها فقال تعالى كلوا من ثمره اذا أثمر وهذا أمر اباحة وتمسك بهذا بعضهم فقال الامر قد يرد

شركاء (سيجزيهم وصفهم) جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم (انه حكيم) في جزائهم (عليم) باعتقادهم (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر قتلوا مكي وشامي (سفها بغير علم) لخفة أحلامهم وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم لاهم (وحرموا ما رزقهم الله) من البحائر والسوائب وغيرها (افتراء على الله) مفعول له (قد ضلوا وما كانوا مهتدين) الى الصواب (وهو الذي أنشأ) خلق (جنات) من الكروم (معروشات) مسموكات مرفوعات (وغير معروشات) متروكات على وجه الارض لم تعرش يقال عرشت الكرم اذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه القضبان (والنخل والزرع مختلفا) في اللون والطعم والحجم والرائحة وهو حال مقدرة لان النخل وقت خروجه لا أكل فيه حتى يكون مختلفا وهو كقوله فادخلوها خالدين (أكله) أكله حجازي وهو ثمره الذي يؤكل والضمير للنخل والزرع داخل في حكمه لانه معطوف عليه أو لكل واحد (والزيتون والرمان متشابها) في اللون (وغير متشابه) في الطعم (كلوا من ثمره) من ثمر كل واحد وفائدة (اذا أثمر) أن يعلم أن أول وقت الاباحة وقت

الى غير الوجوب لان هذه الصيغة مفيدة لدفع الحرج وقال بعضهم المقصود اباحة الاكل قبل اخراج الحق لانه تعالى لما أوجب الزكاة فى الحبوب والثمار كان يحتمل أن يحرم على المالك أن يأكل منها شيأ قبل اخراج الواجب فيها لمكان شركة الفقراء والمساكين معه فاباح الله أن يأكل قبل اخراجه لان رعاية النفس متقدمة على رعاية حق الغير وقيل انما قال تعالى كلوا من ثمره اذا أثمر بصيغة الامر ليعلم أن المقصود من خلق هذه الاشياء التى أمر الله بها على عباده هو الاكل (وآتوا حقه يوم حصاده) يعنى يوم جذاذه وقطعه واختلفوا فى هذا الحق المأمور باخراجه فقال ابن عباس وأنس بن مالك هو الزكاة المفروضة وهو قول طاوس والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب ومحمد بن الحنفية وقتادة قال قتادة فى قوله وآتوا حقه يوم حصاده أى من الصدقة المفروضة ذكر لنا أن نبى الله محمدا صلى الله عليه وسلم سن فيما سقت السماء والعين السائحة أو سقاه النيل والسدى أو كان بعلا العشر كاملا وان سقى بنضح أو سانية فنصف العشر وهذا فيما يكال من الثمرة أو الزرع و بلغ خمسة أوسق وذلك ثلثمائة صاع فقد وجب فيها حق الزكاة وفى رواية عن ابن عباس فى قوله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده قال هو العشر ونصف العشر فان قلت على هذا التفسير اشكال وهو ان فرض الزكاة كان بالمدينة وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل قوله وآتوا حقه يوم حصاده على الزكاة المفروضة قلت ذكر ابن الجوزى فى تفسيره عن ابن عباس وقتادة أن هذه الآية نزلت بالمدينة فعلى هذا القول تكون الآية محكمة نزلت فى حكم الزكاة وان قلنا ان هذه الآية مكية تكون منسوخة بآية الزكاة لانه قد روى عن ابن عباس أنه قال نسخت آية الزكاة كل صدقة فى القرآن وقيل فى قوله تعالى وآتوا حقه يوم حصاده انه حق سوى الزكاة فرض يوم الحصاد وهو اطعام من حضر وترك ما سقط من الزرع والتمر وهذا قول على بن الحسين وعطاء ومجاهد وحماد قال ابراهيم هو الضغث وقال الربيع هو لقاط السنبل وقال مجاهد كانوا يجيئون بالعذق عند الصرام فيأكل منه من مر وقال يزيد بن الاصم كان أهل المدينة اذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيعلقونه فى جانب المسجد فيجىء المسكين فيضرب بعصاه فما سقط منه أكله فعلى هذا القول هل هذا الامر أمر وجوب أو استحباب وندب فيه قولان أحدهما انه أمر وجوب فيكون منسوخا بآية الزكاة و بقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث الاعرابى هل على غيرها قال لا الا أن تطوع والقول الثانى أنه أمر ندب واستحباب فتكون الآية محكمة وقال سعيد بن جبير كان هذا حقا يؤمر باخراجه فى ابتداء الاسلام ثم صار منسوخا بايجاب العشر ولقول ابن عباس نسخت آية الزكاة كل صدقة فى القرآن واختار هذا القول الطبرى وصححه واختار الواحدى والرازى القول الاول وصححاه فان قلت فعلى القول الاول كيف تؤدى الزكاة يوم الحصاد والحب فى السنبل وانما يجب الاخراج بعد التنقية وا [illegible] قدروا أداء اخراج الواجب منه يوم الحصاد فانه قريب من زمان التنقية والجفاف ولان النخل يجب الحق منه يوم حصاده وهو الصرام والزرع محمول عليه الا أنه لا يمكن اخراج الحق منه الا بعد [illegible] معناه وآتوا حقه الذى وجب يوم حصاده بعد التصفية وقيل ان فائدة ذكر الحصاد ان الحق [illegible] الزرع و بلوغه انما يجب يوم حصاده وحصوله فى يد مالكه لا فيما يتلف من الزرع قبل حصوله فى يد ما [illegible]

وقوله تعالى (ولا تسرفوا) الاسراف تجاوز الحد فيما يفعله الانسان وان كان فى الانفاق أشهر وقال [illegible] السرف تجاوز ما حد لك وسرف المال انفاقه فى غير منفعة ولهذا قال سفيان ما أنفقت فى غير طاعة سرف وان كان قليلا قال ابن عباس فى رواية عنه عمد ثابت بن قيس بن شماس فصرم [illegible] يوم واحد ولم يترك لاهله شيأ فانزل الله هذه الآية ولا تسرفوا قال السدى معناه لا تعطوا أموالكم [illegible] فقراء قال الزجاج فعلى هذا لو أعطى الانسان كل ماله ولم يوصل الى عياله شيأ فقد أسرف لا [illegible] الحديث ابدأ بمن تعول وقال سعيد بن المسيب معناه لا تمنعوا الصدقة فتأويل الآية على هذا القول لا تجاوز

الملاح الشجر الثمر ولا يتوهم انه لا يباح الا اذا أدرك (وآتوا حقه) عشره وهو حجة أبى حنيفة رحمه الله فى تعميم العشر (يوم حصاده) بصرى وشامى وعاصم و بكسر الحاء غيرهم وهما لغتان (ولا تسرفوا) باعطاء الكل وتضييع العيال وقوله كلوا الى

(انه لا يحب المسرفين) اعتراض (ومن الانعام حمولة وفرشا) عطف على جنات أي وأنشأ من الانعام ما يحمل الاثقال ومايفرش للذبح أو الحمولة الكبار التي تصلح للحمل والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم لانها دانية من الارض مثل الفرش المفروش عليها (كلوا مما رزقكم الله) أي ما أحل الله لكم منها ولا تحرموها كما في الجاهلية (ولا (٦٣) تتبعوا خطوات الشيطان) طرقه

في التحليل والتحريم كفعل أهل الجاهلية (انه لكم عدو مبين) فاتهموه على دينكم (ثمانية أزواج) بدل من حمولة وفرشا (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) زوجين اثنين يريد الذكر والانثى والواحد اذا كان وحده فهو فرد واذا كان معه غيره من جنسه سمي كل واحد منهما زوجا وهما زوجان بدليل قوله خلق الزوجين الذكر والانثى ويدل عليه قوله ثمانية أزواج ثم فسرها بقوله من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين والضأن والمعز جمع ضائن وماعز كتاجر وتجر وفتح عين المعز مكي وشامي وأبو عمرو وهما لغتان والهمزة في (قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) للانكار والمراد بالذكرين الذكر من الضأن والذكر من المعز وبالانثيين الانثى من الضأن والانثى من المعز والمعنى انكار أن يحرم الله من جنسي الغنم ضأنها ومعزها

شيأ من نوعي ذكورها واناثها ولا مما تحمل الاناث وذلك انهم كانوا يحرمون ذكورة الانعام تارة واناثها طورا وأولادها كيفما كانت ذكورا أو اناثا أو مختلطة تارة وكانوا يقولون قد حرمها الله فانكر ذلك عليهم وانتصب آلذكرين بحرم وكذا أم الانثيين أي أم حرم الانثيين وكذا أي أم ما اشتملت (نبئوني بعلم) أخبروني بامر معلوم من جهة الله يدل على تحريم ما حرمتم (ان كنتم صادقين) في أن الله حرمه (ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين) منهما (حرم أم الانثيين) منهما (أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) أم

الحد في البخل والامساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة وهذان القولان يشتركان في أن المراد من الاسراف مجاوزة الحد الا أن الاول في البذل والاعطاء والثاني في الامساك والبخل وقال مقاتل معناه لا تشركوا الاصنام في الحرث والانعام وهذا القول أيضا يرجع الى مجاوزة الحد لان من شرك الاصنام في الحرث والانعام فقد جاوز ما حد له وقال الزهري معناه لا تنفقوا في معصية الله عز وجل وقال مجاهد الاسراف ما قصرت به في حق الله تعالى ولو كان أبو قبيس ذهبا فانفقته في طاعة الله لم تكن مسرفا ولو أنفقت درهما أو مدا في معصية الله كنت مسرفا وقال ابن زيد انما خوطب بهذا السلطان نهي أن يأخذ من رب المال فوق الذي ألزم الله ماله يقول الله عز وجل للسلاطين لا تسرفوا أي لا تأخذوا بغير حق فكانت الآية بين السلطان وبين الناس ﴿ وقوله تعالى (انه لا يحب المسرفين) فيه وعيد وزجر عن الاسراف في كل شيء لان من لا يحبه الله فهو من أهل النار ﴿ قوله تعالى (ومن الانعام) يعني وأنشأ من الانعام (حمولة) وهي كل ما يحمل عليها من الابل (وفرشا) يعني صغار الابل التي لا تحمل قال ابن عباس الحمولة هي الكبار من الابل والفرش هي الصغار من الابل وقال في رواية أخرى عنه ذكرها الطبري أما الحمولة فالابل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه وأما الفرش فالغنم وقال الربيع بن أنس الحمولة الابل والبقر والفرش المعز والضأن فالحمولة كل ما يحمل عليها من الانعام والفرش ما لا يصلح للحمل سمي فرشا لانه يفرش للذبح ولانه قريب من الارض لصغره (كلوا مما رزقكم الله) يعني كلوا مما أحل الله لكم من هذه الانعام والحرث (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) يعني لا تسلكوا طريقه وآثاره في تحريم الحرث والانعام كفعل أهل الجاهلية (انه) يعني الشيطان (لكم عدو مبين) يعني انه مبين العداوة لكم ثم بين الحمولة والفرش فقال عز وجل (ثمانية أزواج) يعني وأنشأ من الانعام ثمانية أزواج يعني ثمانية أصناف والزوج في اللغة الفرد اذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الاثنين فيقال الذكر زوج والانثى زوج (من الضأن اثنين) يعني الذكر والأنثى والضأن ذوات الصوف من الغنم والواحد ضائن والانثى ضائنة والجمع ضوائن (ومن المعز اثنين) يعني الذكر والانثى والمعز ذوات الشعر من الغنم والواحد ماعز والجمع معزى (قل آلذكرين حرم أم الانثيين) استفهام انكار أي قل يا محمد لهؤلاء الجهلة آلذكرين من الضأن والمعز حرم عليكم أم الانثيين منهما فان كان حرم الذكرين من الغنم فكل ذكورها حرام وان كان حرم الانثيين منهما فكل اناثها حرام (أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) يعني أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين من الضأن والمعز فانها لا تشتمل الا على ذكر أو أنثى (نبئوني) أي اخبروني وفسروا لي ما حرمتم (بعلم ان كنتم صادقين) يعني أن الله حرم ذلك عليكم (ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين) وهذه أربعة أزواج أخر بقية الثمانية (قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) وتفسيرها كتفسير الآية التي تقدم وفي هاتين الآيتين تقريع وتوبيخ من الله تعالى لاهل الجاهلية بتحريمهم ما لم يحرمه الله وذلك انهم كانوا يقولون هذه أنعام وحرث حجر وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال كما أخبر الله عنهم في كتابه فلما جاء الاسلام وثبتت الاحكام جادلوا النبي

ما فصل لأنها (أم كنتم شهداء) أم منقطعة أي بل كنتم شهداء (إذ وصاكم الله بهذا) يعني أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا
ولما كانوا لا يؤمنون برسول الله وهم يقولون الله حرم هذا الذي نحرمه تهكم بهم في قوله أم

صلى الله عليه وسلم وكان خطيبهم مالك بن عوف الجشمي فقال يا محمد بلغنا أنك تحرم أشياء مما كان آباؤنا يفعلونه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرمتم أصنافا من النعم على غير أصل وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها فمن أين جاء هذا التحريم من قبل الذكر أم من قبل الأنثى فسكت مالك بن عوف وتحير ولم يتكلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما لك يا مالك لا تتكلم فقال بل أنت تكلم وأسمع منك قال العلماء فلو قال جاء التحريم من قبل الذكر بسبب الذكور وجب أن يحرم جميع الذكور ولو قال بسبب الأنوثة وجب أن يحرم جميع الإناث وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم الكل لأن الرحم لا يشتمل إلا على ذكر وأنثى وأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع أو بالبعض دون البعض فمن أين ذلك التحريم فاحتج الله على بطلان دعواهم بهاتين الآيتين وأعلم نبيه صلى الله عليه وسلم أن كل ما قالوه من ذلك وأضافوه إلى الله فهو كذب على الله وأنه لم يحرم شيئا من ذلك وإنهم اتبعوا في ذلك أهواءهم وخالفوا أمر ربهم وذكر الإمام فخر الدين في معنى الآية وجهين آخرين ونسبهما إلى نفسه فقال إن هذا الكلام ما ورد على الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الإنكار يعني أنكم لا تقرون بنبوة نبي ولا تعرفون شريعة شارع فكيف تحكمون بأن هذا يحل وهذا يحرم والوجه الثاني أن حكمهم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي مخصوص بالإبل فالله تعالى بين أن النعم عبارة عن هذه الأنواع الأربعة وهي الضأن والمعز والبقر والإبل فلما لم يحكموا بهذه الأحكام في هذه الأنواع الثلاثة وهي الضأن والمعز والبقر فكيف خصصتم الإبل بهذا الحكم دون هذه الأنواع الثلاثة ۞ قوله تعالى (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين يزعمون أن الله حرم عليهم ما حرموا من أنعامهم من الأنعام والحرث هل شاهدتم الله حرم هذا عليكم ووصاكم به فإنكم لا تقرون بنبوة أحد من الأنبياء فكيف تثبتون هذه الأحكام وتنسبونها إلى الله عز وجل ولما احتج الله عليهم بهذه الحجة وبين أنه لا مستند لهم في ذلك قال تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) يعني فمن أشد ظلما وأبعد عن الحق ممن يكذب على الله ويضيف تحريم ما لم يحرمه الله إلى الله ليضل الناس بذلك ويصدهم عن سبيل الله جهلا منه إذ ليس هو على بصيرة وعلم في ذلك الذي ابتدعه ونسبه إلى الله ويقول إن الله أمر به قيل أراد به عمرو بن لحي لأنه أول من غير البحائر وسيب السوائب وغير دين إبراهيم عليه السلام ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدع شيئا لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك إلى الله لأن اللفظ عام ولا وجه للتخصيص فكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) يعني أن الله لا يرشد ولا يوفق من كذب على الله وأضاف إليه ما لم يشرعه

۞ قوله عز وجل (قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه) اعلم أنه لما بين الله تعالى فساد طريقة أهل الجاهلية وما كانوا عليه من التحليل والتحريم من عند أنفسهم واتباع أهوائهم فيما أحلوه وحرموه من المطعومات أتبعه بالبيان الصحيح في ذلك وبين أن التحريم والتحليل لا يكون إلا بوحي سماوي وشرع نبوي فقال تعالى قل أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين الذين يحلون ويحرمون من عند أنفسهم لا أجد فيما أوحي إلي وقيل إنهم قالوا فما المحرم إذا فنزل قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما يعني شيئا محرما على طاعم يطعمه يعني على آكل يأكله (إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا) يعني سائلا مصبوبا (أو لحم خنزير فإنه رجس) أي نجس (أو فسقا أهل لغير الله به) يعني ما ذبح على غير اسم الله تعالى فبين الله تعالى في هذه الآية

بمعنى أعرفتم التوصية به مشاهدين لأنكم لا تؤمنون بالرسل (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فنسب إليه تحريم ما لم يحرم (ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) أي الذين في علمه أنهم يختمون على الكفر ووقع الفاصل بين بعض المعدود وبعضه اعتراضا غير أجنبي من المعدود وذلك أن الله تعالى منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم فالاعتراض بالاحتجاج على من حرمها يكون تأكيدا للتحليل والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد (قل لا أجد فيما أوحي إلي) أي في ذلك الوقت أو في وحي القرآن لأن وحي السنة قد حرم غيره أو من الأنعام لأن الآية في رد البحيرة وأخواتها وأما الموقوذة والمتردية والنطيحة فمن الميتة وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يثبت بوحي الله وشرعه لا بهوى الأنفس (محرما) طعاما محرما أكله (على طاعم يطعمه) على آكل يأكله (إلا أن يكون ميتة) إلا أن يكون الشيء المحرم ميتة أن تكون مكي وشامي وحمزة ميتة شامي (أو دما مسفوحا) مصبوبا سائلا فلا يحرم الدم الذي في اللحم والكبد والطحال (أو لحم خنزير فإنه رجس) نجس (أو فسقا) عطف على المنصوب قبله وقوله فإنه رجس اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه (أهل لغير الله به) منصوب المحل صفة لفسقا أي رفع الصوت على ذبحه باسم غير الله وسمي

التحريم والتحليل لا يكون إلا بالوحي منه وإن المحرمات محصورة في الأربعة الأشياء المذكورة في هذه الآية وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح على غير اسم الله وهذا مبالغة في أن التحريم لا يخرج عن هذه الأربعة وذلك أنه ثبت أنه لا طريق إلى معرفة المحرمات إلا بالوحي وثبت أن الله تعالى نص في هذه الآية على هذه الأربعة الأشياء ولهذا اختلف العلماء في حكم هذه الآية فذهب بعضهم إلى ظاهرها وأنه لا يحرم شيء من سائر المطعومات والحيوان إلا ما ذكر في هذه الآية يروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير وهو ظاهر مذهب مالك واحتجوا على ذلك بأن هذه الآية محكمة لأنها خبر والخبر لا يدخله النسخ واحتجوا بأن هذه الآية وإن كانت مكية لكن بعدها آية مدنية وهي قوله تعالى في سورة البقرة إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وكلمة إنما تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية في الحكم وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا التحريم لا يختص بهذه الأشياء المنصوص عليها في هذه الآية فإن المحرم بنص الكتاب هو ما ذكر في هذه الآية وقد حرمت السنة أشياء يجب القول بها منها تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير عن المقدام بن معديكرب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله تعالى أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ولأبي داود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا فبعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو وتلا قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة الآية أخرجه أبو داود (م) عن ابن عباس قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير (م) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية (ق) عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل وفي رواية أكلنا من خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمار الأهلي من جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل الهر وأكل ثمنه وقد استثنى الشارع من الميتة السمك والجراد ومن الدم الكبد والطحال وأباح أكل ذلك وقد تقدم دليله والأصل في ذلك عند الشافعي أن كل ما لم يرد فيه نص بتحريم أو تحليل فما كان أمر الشرع بقتله كما ورد في الصحيح خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم وهي الحية والعقرب والفأرة والحدأة والكلب العقور وروي عن سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الوزغ أخرجه البخاري ومسلم وسماه فويسقا وعن ابن عباس قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والصرد أخرجه أبو داود فهذا كله حرام لا يحل أكله وما سوى ذلك فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادة العرب فما يستطيبه الأغلب منهم فهو حلال وما يستخبثه الأغلب منهم ولا يأكلونه فهو حرام لأن الله خاطبهم بقوله أحل لكم الطيبات فما استطابوه فهو حلال فهذا تقرير ما يحل ويحرم من المطعومات وأما الجواب عن هذه الآية الكريمة فمن وجوه أحدها أن يكون المعنى لا أجد محرما مما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وغيرها إلا ما أوحي إلي في هذه الآية الوجه الثاني أن يكون المراد وقت نزول هذه الآية لم يكن محرما غير ما ذكر ونص عليه في هذه الآية ثم

حرم بعد ذلك أشياء أخر الوجه الثالث يحتمل أن هذا اللفظ العام مخصص بدليل آخر وهو ما ورد في السنة الوجه الرابع أن ما ذكر في هذه الآية محرم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وهو ما ورد في السنة من المحرمات والله أعلم ﴿بقي في الآية أحكام﴾ في قوله تعالى أو دمًا مسفوحًا وهو ما سال من الحيوان في حال الحياة أو عند الذبح فأما ذلك الدم فحرام نجس وما سوى ذلك كالكبد والطحال فإنهما حلال لأنهما دمان جامدان وقد ورد الحديث بإباحتهما وكذا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل قال عمران بن حدير سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال لا بأس بذلك إنما نهى عن الدم المسفوح وقال إبراهيم النخعي لا بأس بالدم في عرق أو مخ إلا المسفوح وقال عكرمة لولا هذه الآية لتتبع المسلمون من العروق ما تتبع اليهود ۞ وقوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) لما بين الله المحرمات في هذه الآية أباح أكلها عند الاضطرار من غير بغي ولا عدوان ۞ وفي قوله (فإن ربك غفور رحيم) دليل على الرخصة وإباحته عند الاضطرار ۞ قوله تعالى (وعلى الذين هادوا) يعني اليهود (حرمنا كل ذي ظفر) قال ابن عباس هو البعير والنعامة ونحو ذلك من الدواب وقيل كل ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والإوز والبط قال القتيبي هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب وسمي الحافر ظفرًا على الاستعارة (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) يعني شحم الجوف وهي الثروب وشحم الكليتين (إلا ما حملت ظهورهما) يعني إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما من الشحم فإنه غير محرم عليهم وقال السدي وأبو صالح الألية مما حملت ظهورهما وهذا القول مخصص بالغنم لأن البقر ليس لها ألية (أو الحوايا) وهي المباعر في قول ابن عباس وجمهور المفسرين واحدتها حاوية وحوية وقيل الحوايا المباعر والمصارين وهي الدوائر التي تكون في بطن الشاة والمعنى أن الشحم الملتصق بالمباعر والمصارين غير محرم على اليهود (أو ما اختلط بعظم) يعني من شحم الألية لأنه اختلط بالعصعص وكذا الشحم المختلط بالعظام التي تكون في الجنب والرأس والعين فكل هذا حلال على اليهود فحاصل هذا أن الذي حرم عليهم شحم الثروب وشحم الكلية وما سوى ذلك فهو حلال عليهم (ق) عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح بمكة إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لا هو حرام ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه قوله جملوه يعني أذابوه يقال أجملت الشحم وجملته إذا أذبته وجملته أكثر وأفصح ۞ وقوله تعالى (ذلك جزيناهم) أي ذلك التحريم جزيناهم عقوبة لهم (ببغيهم) يعني بسبب بغيهم وظلمهم وهو قتل الأنبياء وأخذ الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل (وإنا لصادقون) يعني في الإخبار عن بغيهم وفي الإخبار عن تخصيصهم بهذا التحريم (فإن كذبوك) يعني فإن كذبك اليهود يا محمد فيما أخبرناك أنا حرمنا عليهم وأحللنا لهم مما بيناه في هذه الآية المتقدمة (فقل ربكم ذو رحمة واسعة) يعني في تأخير العقوبة عنكم فإن رحمته تسع المسيء والمحسن فلا يعجل بالعقوبة على من كفر به أو عصاه (ولا يرد بأسه) يعني ولا يرد عذابه ونقمته إذا جاء وقتهما (عن القوم المجرمين) يعني الذين كذبوا الأنبياء وهم الكفار واليهود ۞ وقوله عز وجل (سيقول الذين أشركوا) لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله أخبر الله تعالى عنهم بما سيقولونه فقال تعالى سيقول الذين أشركوا يعني مشركي قريش والعرب (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) يعني من قبل قال المفسرون جعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجة على إقامتهم على الكفر والشرك وقالوا إن الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله فلولا أنه رضي بما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك (ولا حرمنا من شيء) يعني ما حرموه من البحائر والسوائب وغير ذلك فقال الله

لوسيلة في باب العتق (فمن اضطر) فمن دعته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات (غير باغ) على مضطر مثله تارك لمواساته (ولا عاد) متجاوز قدر حاجته من تناوله (فإن ربك غفور رحيم) لا يؤاخذه (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر) أي ماله أصبع من دابة أو طائر ويدخل فيه الإبل والنعام (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) أي حرمنا عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه وكل شيء منه ولم نحرم من البقر والغنم إلا الشحوم وهي الثروب وشحوم الكلى (إلا ما حملت ظهورهما) إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السحفة (أو الحوايا) أو ما اشتمل على الأمعاء واحدها حاويا أو حوية (أو ما اختلط بعظم) وهو الألية أو المخ (ذلك) مفعول ثان لقوله (جزيناهم) والتقدير جزيناهم ذلك (ببغيهم) بسبب ظلمهم (وإنا لصادقون) فيما أخبرنا به وكيف نشكر من سنته معاقبتهم لتحريم الحلال ومعصيته سالفًا لمحلل الحرام حيث قال وعفا عنكم فالآن باشروهن (فإن كذبوك) فيما أوحينا إليك من هذا (فقل ربكم ذو رحمة واسعة) مهلة للمكذبين ولا يعاجلهم بالعقوبة (ولا يرد بأسه) عذابه مع سعة رحمته (عن القوم المجرمين) إذا جاء ولا تغتر بسعة رحمته عن خوف نقمته (سيقول الذين أشركوا) إخبار بما سوف يقولونه (لو شاء الله) أن لا نشرك (ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء)

عز وجل رداً وتكذيباً لهم (كذلك كذب الذين من قبلهم) يعني من كفار الامم الخالية الذين كانوا قبل قومك كذبوا أنبياءهم وقالوا مثل قول هؤلاء (حتى ذاقوا بأسنا) يعني عذابنا

﴿فصل﴾ استدل القدرية والمعتزلة بهذه الآية فقالوا ان القوم لما قالوا لو شاء الله ما أشركنا كذبهم الله ورد عليهم بقوله كذلك كذب الذين من قبلهم وأيضاً فان الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار صريح مذهب الجبرية وهو قولهم لو شاء الله منا أن لا نشرك لم نشرك ولمنعنا عن هذا الكفر وحيث لم يمنعنا عنه ثبت انه مريد له واذا أراده منا امتنع تركه منا وأجيب عن هذا بان الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار انهم قالوا لو شاء الله ما أشركنا ثم ذكر عقيبه كذلك كذب الذين من قبلهم وهذا التكذيب ليس هو في قولهم لو شاء الله ما أشركنا بل ذلك القول حق وصدق ولكن الكذب في قولهم ان الله أمرنا به ورضي ما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الاعراف واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها فرد الله تعالى عليهم بقوله قل ان الله لا يأمر بالفحشاء والدليل ان التكذيب في قولهم ان الله أمرنا بهذا ورضيه منا لا في قولهم لو شاء الله ما أشركنا قوله كذلك كذب الذين من قبلهم بالتشديد ولو كان خبراً من الله عن كذبهم في قولهم لو شاء الله ما أشركنا لقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان ينسبهم الى الكذب لا الى التكذيب وقال الحسين بن الفضل لو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله واجلالاً له ومعرفة منهم بما يقولون لما عابهم بذلك ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيباً وجدلاً من غير معرفة بالله وبما يقولون وقيل في معنى الآية انهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة وهو قوله لو شاء الله ما أشركنا الا أنهم كانوا يعدونه عذراً لانفسهم ويجعلونه حجة لهم في ترك الايمان والرد عليهم في ذلك ان أمر الله بمعزل عن مشيئته وارادته فان الله تعالى مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد فعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته فان مشيئته لا تكون عذراً لاحد عليه في فعله فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ومع هذا يبعث الرسل الى العبد ويأمره بالايمان وورود الامر على خلاف الارادة غير ممتنع فالحاصل أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى في شركهم وكفرهم فاخبر الله تعالى أن هذا التمسك فاسد باطل فانه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى في كل الامور دفع دعوة الانبياء عليهم السلام والله أعلم ۞ وقوله تعالى (قل هل عندكم من علم) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لو شاء الله ما أشركنا ولكنه رضي ما نحن عليه من الشرك هل عندكم يعني بدعواكم ما تدعون من علم يعني من حجة وكتاب يوجب اليقين من العلم (فتخرجوه لنا) يعني فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه كما بينا لكم خطأ قولكم وفعلكم وتناقض ذلك واستحالته في المعقول (ان تتبعون الا الظن) يعني فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله عليكم وتحسبون أنكم على حق وانما هو باطل (وان أنتم الا تخرصون) يعني وما أنتم في ذلك كله الا تكذبون وتقولون على الله الباطل ۞ وقوله تعالى (قل فلله الحجة البالغة) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين حين عجزوا عن اظهار علم أو حجة لهم فلله الحجة البالغة يعني التامة على خلقه بانزال الكتاب وارسال الرسل قال الربيع بن أنس لا حجة لاحد عصى الله أو أشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده (فلو شاء لهداكم أجمعين) يعني فلو شاء الله لوفقكم أجمعين للهداية ولكنه لم يشأ ذلك وفيه دليل على أنه تعالى لم يشأ ايمان الكافر ولو شاء لهداه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون) يعني هاتوا وادعوا شهداءكم وهلم كلمة دعوة الى الشيء يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والذكر والانثى وفيها لغة أخرى يقال للواحد هلم وللاثنين هلما وللجمع هلموا وللانثى هلمي واللغة الاولى أفصح (أن الله حرم هذا) وهذا تنبيه من الله باستدعاء الشهود من الكافرين على تحريم ما حرموه على أنفسهم وقالوا ان الله حرمه ليظهر ان لا شاهد لهم على

ولكن شاء فلهذا عذرنا يعنون ان شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله لهم بمشيئته ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك (كذلك كذب الذين من قبلهم) أي كتكذيبهم اياك كان تكذيب المتقدمين رسلهم وتشبثوا بمثل هذا فلم ينفعهم ذلك اذ لم يقولوه عن اعتقاد بل قالوا ذلك استهزاء ولانهم جعلوا مشيئته حجة لهم على انهم معذورون به وهذا مردود لان الاقرار بالمشيئة ٢ أو معنى المشيئة هنا الرضا كما قال الحسن أي ما رضي الله منا ومن آبائنا الشرك والشرك مراد الله غير مرضي ألا ترى أنه قال فلو شاء لهداكم أجمعين أخبر أنه لو شاء منهم الهدى لآمن كلهم ولكن لم يشأ من الكل الايمان بل شاء من البعض الايمان ومن البعض الكفر فيجب حمل المشيئة هنا على ما ذكرنا دفعاً للتناقض (حتى ذاقوا بأسنا) حتى أنزلنا عليهم العذاب (قل هل عندكم من علم) من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم (فتخرجوه لنا) فتظهروه (ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون) تكذبون (قل فلله الحجة البالغة) عليكم بأوامره ونواهيه ولا حجة لكم على الله بمشيئته (فلو شاء لهداكم أجمعين) أي ولو شاء هدايتكم وبه تبطل صولة المعتزلة (قل هلم شهداءكم) هاتوا شهداءكم وقربوهم ويستوي في هذه الكلمة الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين وبنو تميم تؤنث وتجمع (الذين يشهدون أن الله حرم هذا) أي ...

ذلك وإنما اختلقوه من عند أنفسهم (فإن شهدوا فلا تشهد معهم) وهذا تنبيه أيضا على كونهم كاذبين في شهادتهم فلا تشهد أنت يا محمد معهم لأنهم في شهادتهم كاذبون (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) يعني ان وقع منهم شهادة فإنما هي باتباع الهوى فلا تتبع أنت يا محمد أهواءهم ولكن اتبع ما أوحي اليك من كتابي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (والذين لا يؤمنون بالآخرة) أي ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة (وهم بربهم يعدلون) يعني يشركون ۞ قوله عز وجل (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) لما بين الله تعالى فساد مقالة الكفار فيما زعموا ان الله أمرهم بتحريم ما حرموه على أنفسهم فكأنهم سألوا وقالوا أي شيء حرم الله فأمر الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تعالوا وتعال من الخاص الذي صار عاما وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم وقيل أصله أن يدعو الانسان الى مكان مرتفع وهو من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكأنه دعاه الى ما فيه رفعة وشرف ثم كثر في الاستعمال والمعنى تعالوا وهلموا أيها القوم أتل عليكم يعني أقرأ ما حرم ربكم عليكم يعني الذي حرم ربكم عليكم حقا يقينا لا شك فيه ولا ظنا ولا كذبا كما تزعمون انتم بل هو وحي أوحاه الله الى (أن لا تشركوا به شيئا) فإن قلت ترك الاشراك واجب فما معنى قوله أن لا تشركوا به شيئا لأنه كالتفصيل لما أجمل في قوله حرم ربكم عليكم وذلك لا يجوز قلت الجواب عنه من وجوه الوجه الأول أن يكون موضع أن رفع معناه هو أن لا تشركوا الوجه الثاني أن يكون محله النصب واختلفوا في وجه انتصابه فقيل معناه حرم عليكم أن تشركوا وتكون لا صلة وقيل ان حرف لا على أصلها ويكون المعنى أتل عليكم تحريم الشرك أي لا تشركوا ويكون المعنى أوصيكم أن لا تشركوا لأن قوله وبالوالدين احسانا محمول على أوصيكم بالوالدين احسانا الوجه الثالث أن يكون الكلام قد تم عند قوله حرم ربكم ثم قال عليكم أن لا تشركوا على الاغراء أو بمعنى فرض عليكم أن لا تشركوا به شيئا ومعنى هذا الاشراك الذي حرمه الله ونهى عنه هو ان يجعل لله شريكا من خلقه أو يطيع مخلوقا في معصية الخالق أو يريد بعبادته رياء وسمعة ومنه قوله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ۞ وقوله عز وجل (وبالوالدين احسانا) أي وفرض عليكم ووصاكم بالوالدين احسانا وإنما ثنى بالوصية بالاحسان الى الوالدين لأن أعظم النعم على الانسان نعمة الله لأنه هو الذي أخرجه من العدم الى الوجود وخلقه وأوجده بعد ان لم يكن شيئا ثم بعد نعمة الله نعمة الوالدين لأنهما السبب في وجود الانسان ولما لهما عليه من حق التربية والشفقة والحفظ من المهالك في حال صغره (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) يعني من خوف الفقر والاملاق الاقتار والمراد بالقتل وأد البنات وهن أحياء فكانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية فنهاهم الله تعالى عن ذلك وحرمه عليهم (نحن نرزقكم وإياهم) يعني لا تئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فإني رازقكم وإياهم لأن الله تعالى اذا تكفل برزق الوالد والولد وجب على الوالد القيام بحق الولد وتربيته والاتكال في أمر الرزق على الله عز وجل (ولا تقربوا الفواحش) يعني الزنا (ما ظهر منها وما بطن) يعني علانيته وسره وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا في العلانية ولا يرون به بأسا في السر فحرم الله تعالى الزنا في السر والعلانية وقيل ان الأولى أن يحمل لفظ الفواحش على العموم في جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره لأن المعنى الموجب لهذا النهي هو كونه فاحشة فحمل اللفظ على العموم أولى من تخصيصه بنوع من الفواحش وأيضا فإن السبب اذا كان خاصا لا يمنع من حمل اللفظ على العموم وفي قوله ما ظهر منها وما بطن دقيقة وهي ان الانسان اذا احترز عن المعاصي في الظاهر ولم يحترز منها في الباطن دل ذلك على ان احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته فيما أمر به ونهى عنه ولكن لأجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم ومن كان كذلك استحق العقاب

منهم (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) من وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أن من كذب بآيات الله فهو متبع للهوى اذ لو تبع الدليل لم يكن الا مصدقا بالآيات موحدا لله (والذين لا يؤمنون بالآخرة) هم المشركون (وهم بربهم يعدلون) يسوون الأصنام (قل) للذين حرموا الحرث والأنعام (تعالوا) هو من الخاص الذي صار عاما فأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر حتى عم (أتل ما حرم ربكم) الذي حرمه ربكم (عليكم)٢ ما من صلة حرم (أن لا تشركوا به شيئا) أن مفسرة لفعل التلاوة ولا للنهي (وبالوالدين احسانا) وأحسنوا بالوالدين احسانا ولما كان إيجاب الاحسان تحريما لترك الاحسان ذكر في المحرمات وكذا حكم ما بعده من الأوامر (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) من أجل فقر ومن خشيته كقوله خشية املاق (نحن نرزقكم وإياهم) لأن رزق العبيد على مولاهم (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها) ما بينك وبين الخلق (وما بطن) ما بينك وبين الله ما ظهر بدل من الفواحش

٢ قوله في الهامش ما من صلة حرم هكذا بالأصل الذي بأيدينا ولعله سقط منه لفظة أو قيل بأنه إشارة الى وجه ثان وهو أن ما استفهامية تدل عليه عبارة الكشاف ولتراجع

(ولاتقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) كالقصاص والقتل على الردة والرجم (ذلكم وصاكم به) أى المذكور مفصلا أمركم ربكم بحفظه (لعلكم تعقلون) لتعقلوا عظمها عند الله (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن) الا بالخصلة التي هي أحسن وهي حفظه وتثميره (حتى يبلغ أشده) أشده مبلغ حلمه فادفعوه اليه وواحده شد كفلس وأفلس (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) بالسوية والعدل (لانكلف نفسا الا وسعها) الا ما يسعها ولا تعجز عنه وانما اتبع الامر بايفاء الكيل والميزان ذلك لان مراعاة الحد من القسط الذى لا زيادة فيه ولا نقصان مما فيه حرج فامر ببلوغ الوسع وان ما وراءه معفو عنه (واذا قلتم فاعدلوا) فاصدقوا (ولو كان ذا قربى) ولو كان المقول له أو عليه فى شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل كقوله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين (وبعهد الله) يوم الميثاق أو فى الامر والنهى والوعد والوعيد والنذر واليمين (أوفوا ذلكم) أى ما مر (وصاكم به لعلكم تذكرون) بالتخفيف حيث كان حمزة وعلى وحفص على حذف احدى التاءين غيرهم بالتشديد وأصله تتذكرون فادغم التاء الثانية فى الذال أى أمركم به لتتعظوا (وأن هذا صراطى) ولان هذا صراطى فهو علة للاتباع بتقدير اللام (وان) بالتخفيف شامى وأصله وانه على أن الهاء ضمير الشان والحديث (وان) على الابتداء حمزة وعلى (مستقيما) حال

العقاب ومن ترك المعصية ظاهرا أو باطنا لاجل خوف الله وتعظيما لامره استوجب رضوان الله وثوابه (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) حرم الله تعالى قتل النفس الا بالحق وقتلها من جملة الفواحش المقدم ذكرها فى قوله تعالى ولا تقربوا الفواحش وانما أفرد قتل النفس بالذكر تعظيما لامر القتل وانه من أعظم الفواحش والكبائر وقيل انما أفرده بالذكر لانه تعالى أراد أن يستثنى منه ولا يمكن ذلك الاستثناء من جملة الفواحش الا بالافراد فلذلك قال ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق وهى التى أبيح قتلها من ردة أو قصاص أو زنا بعد احصان وهو الذى يوجب الرجم (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة ۞ وقوله تعالى (ذلكم) يعنى ما ذكر من الاوامر والنواهى المحرمات (وصاكم به) يعنى أمركم به وأوجبه عليكم (لعلكم تعقلون) يعنى لكى تفهموا ما فى هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فتعملوا بها ۞ قوله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن) يعنى ولا تقربوا مال اليتيم الا بما فيه صلاحه وتثميره وتحصيل الربح له قال مجاهد هو التجارة فيه وقال الضحاك هو أن يسعى له فيه ولا يأخذ من ربحه شيأ هذا اذا كان القيم بالمال غنيا غير محتاج فلو كان الوصى فقيرا فله أن يأكل بالمعروف (حتى يبلغ أشده) يعنى احفظوا مال اليتيم الى أن يبلغ أشده فاذا بلغ أشده فادفعوا اليه ماله فاما الاشد فهو استحكام قوة الشباب والسن حتى يتناهى فى الشباب الى حد الرجال قال الشعبى ومالك الاشد الحلم حين تكتب له الحسنات وتكتب عليه السيآت وقال أبو العالية حتى يعقل وتجتمع قوته وقال الكلبى الاشد هو ما بين ثمان عشرة سنة الى ثلاثين سنة وقيل الى أربعين وقيل الى ستين سنة وقال الضحاك الاشد عشرون سنة وقال السدى الاشد ثلاثون سنة وقال مجاهد الاشد ثلاث وثلاثون سنة وهذه الاقوال التى نقلت عن المفسرين فى هذه الآية انما هى نهاية الاشد لا ابتداؤه والمراد بالاشد فى هذه الآية هو ابتداؤه بلوغ الحلم مع ايناس الرشد وهذا هو المختار فى تفسير هذه الآية ۞ وقوله تعالى (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) يعنى بالعدل من غير زيادة ولا نقصان (لا نكلف نفسا الا وسعها) يعنى طاقتها وما يسعها فى ايفاء الكيل والميزان وانما لم يكلف المعطى أن يعطى أكثر مما وجب عليه ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه حتى لا تضيق نفسه عنه بل أمر كل واحد بما يسعه مما لا حرج عليه فيه (واذا قلتم فاعدلوا) يعنى فى الحكم والشهادة (ولو كان ذا قربى) يعنى المحكوم عليه وكذا المشهود عليه وقيل ان الامر بالعدل فى القول هو أعم من الحكم والشهادة بل يدخل فيه كل قول حتى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر من غير زيادة فيه ولا نقصان وأداء الامانة وغير ذلك من جميع الاقوال التى يعتمد فيها العدل والصدق (وبعهد الله أوفوا) يعنى ما عهد الى عباده ووصاهم به وأوجبه عليهم أو ما أوجبه الانسان على نفسه كنذر ونحوه فيجب الوفاء به (ذلكم) يعنى الذى ذكر فى هذه الآيات (وصاكم به) يعنى بالعمل به (لعلكم تذكرون) يعنى لعلكم تتعظون وتتذكرون فتأخذون ما أمرتكم به ۞ قوله عز وجل (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) يعنى وان هذا الذى وصيتكم به وأمرتكم به فى هاتين الآيتين هو صراطى يعنى طريقى ودينى الذى ارتضيته لعبادى مستقيما يعنى قويما لا اعوجاج فيه فاتبعوه يعنى فاعملوا به وقيل ان الله تعالى لما بين فى الآيتين المتقدمتين ما وصى به مفصلا أجمله فى هذه الآية اجمالا يقتضى دخول جميع ما تقدم ذكره فيه ويدخل فيه أيضا جميع احكام الشريعة وكل ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من دين الاسلام وهو المنهج القويم والصراط المستقيم والدين الذى ارتضاه الله لعباده المؤمنين

(ولا تتبعوا السبل) الطرق المختلفة في الدين من اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات (فتفرق بكم عن سبيله) فتفرقكم أيادي سبا عن صراط الله المستقيم وهو دين الاسلام روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خط خطا مستويا ثم قال هذا سبيل الرشد وصراط الله فاتبعوه ثم خط على كل جانب ستة خطوط ممالة ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه فاجتنبوها وتلا هذه الآية ثم يصير كل واحد من الاثنى عشر طريقا ستة طرق فتكون اثنين وسبعين وعن ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب وعن كعب ان هذه الآيات لاول شيء في التوراة (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) لتكونوا على رجاء اصابة التقوى ذكر أولا تعقلون ثم تذكرون ثم تتقون لانهم اذا عقلوا تفكروا ثم تذكروا أي اتعظوا فاتقوا المحارم (ثم آتينا موسى الكتاب تماما) أي ثم أخبركم انا آتينا أو هو عطف على ثم قل أي قل آتينا وثم مع الجملة تأتي بمعنى الواو كقوله ثم الله شهيد (على الذي احسن) على من كان محسنا صالحا يريد جنس المحسنين دليله قراءة عبد الله على الذين أحسنوا أو أراد به موسى عليه السلام أي تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ في كل ما أمر به (وتفصيلا لكل شيء) وبيانا مفصلا لكل ما يحتاجون اليه في دينهم (وهدى ورحمة لعلهم) أي بني اسرائيل (بلقاء ربهم يؤمنون) يصدقون أي بالبعث والحساب وبالرؤية (وهذا) أي القرآن (كتاب أنزلناه مبارك) كثير الخير (فاتبعوه واتقوا) مخالفته (لعلكم ترحمون) لترحموا (أن تقولوا) كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا

وأمرهم باتباع جمله وتفصيله (ولا تتبعوا السبل) يعني الطرق المختلفة والاهواء المضلة والبدع الرديئة وقيل السبل المختلفة مثل اليهودية والنصرانية وسائر الملل والاديان المخالفة لدين الاسلام (فتفرق بكم عن سبيله) يعني فتميل بكم هذه الطرق المختلفة المضلة عن دينه وطريقته التي ارتضاها لعباده روى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه وقرأ وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل الآية (ذلكم وصاكم به) يعني باتباع دينه وصراطه الذي لا اعوجاج فيه (لعلكم تتقون) يعني الطرق المختلفة والسبل المضلة قال ابن عباس هذه الآيات محكمات في جميع الكتب لم ينسخهن شيء وهن محرمات على بني آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار وعن ابن مسعود قال من سره أن ينظر الى الصحيفة التي عليها خاتم محمد صلى الله عليه وسلم فليقرأ هؤلاء الآيات قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الآيات الى قوله لعلكم تتقون أخرجه الترمذي قال حديث حسن غريب ۞ قوله تعالى (ثم آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة فان قلت ايتان موسى الكتاب كان قبل نزول القرآن وحرف ثم للتعقيب فما معنى ذلك قلت دخلت ثم لتأخير الخبر لا لتأخير النزول والمعنى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم وهو كذا وكذا الى قوله تعالى لعلكم تتقون ثم أخبركم انا آتينا موسى الكتاب وقيل ان المحرمات المذكورة في قوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم محرمات على جميع الامم وجميع الشرائع فتقدير الكلام ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديما وحديثا ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب يعني بعد ايجاب هذه المحرمات وقيل معناه قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ثم قل بعد ذلك يا محمد انا آتينا موسى الكتاب فحذفت لفظة قل لدلالة الكلام عليها ۞ وقوله تعالى (تماما على الذي أحسن) اختلف أهل التفسير فيه فقيل معناه تماما على المحسنين من قومه فيكون الذي بمعنى من أي تماما على من أحسن من قومه لانه كان منهم محسن ومسيء ويدل على قراءة ابن مسعود تماما على الذين أحسنوا وقيل معناه تماما على كل من أحسن أي أتممنا فضيلة موسى على المحسنين وهم الانبياء والمؤمنون أي أتممنا فضله عليهم بالكتاب وقيل الذي أحسن هو موسى ويكون الذي بمعنى ما أي على ما أحسن وتقديره وآتينا موسى الكتاب اتماما للنعمة عليه لاحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الامر وقيل الاحسان بمعنى العلم وتقديره آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن موسى من العلم والحكمة زيادة له على ذلك وقيل معناه تماما مني على احساني الى موسى (وتفصيلا لكل شيء) يعني وفيه بيان لكل شيء يحتاج اليه من شرائع الدين وأحكامه (وهدى) يعني وفيه هدى من الضلالة (ورحمة) يعني أنزلناه عليهم رحمة مني عليهم (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) قال ابن عباس لكي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب ۞ قوله عز وجل (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) يعني القرآن لانه كثير الخير والنفع والبركة ولا يتطرق اليه نسخ (فاتبعوه) يعني فاعملوا بما فيه من الاوامر والنواهي والاحكام (واتقوا) يعني مخالفته (لعلكم ترحمون) يعني لكي يكون الغرض بالتقوى رحمة الله وقيل معناه لكي ترجوا على جزاء التقوى (أن تقولوا) يعني لئلا تقولوا وقيل معناه كراهية أن تقولوا يعني أنزلنا اليك الكتاب كراهية أن

تقولوا

تقولوا (انما أنزل الكتاب) وقيل يجوز أن تكون أن متعلقة بما قبلها فيكون المعنى واتقوا أن تقولوا وهذا خطاب لاهل مكة والمعنى واتقوا يا أهل مكة أن تقولوا انما أنزل الكتاب والكتاب اسم جنس لان المراد به التوراة والانجيل (على طائفتين من قبلنا) يعني اليهود والنصارى (وان كنا) أي وقد كنا وقيل وانه كنا (عن دراستهم) يعني قراءتهم (لغافلين) يعني لا علم لنا بما فيها لانها ليست بلغتنا والمراد بهذه الآية اثبات الحجة على أهل مكة وقطع عذرهم بانزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بلغتهم والمعنى وأنزلنا القرآن بلغتهم لئلا يقولوا يوم القيامة ان التوراة والانجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيهما فقطع الله عذرهم بانزال القرآن عليهم بلغتهم (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) وذلك ان جماعة من الكفار قالوا لو أنزل علينا ما أنزل على اليهود والنصارى لكنا خيرا منهم وأهدى وانما قالوا ذلك لاعتمادهم على صحة عقولهم وجودة فهمهم وذهنهم قال الله عز وجل (فقد جاءكم بينة من ربكم) يعني هذا القرآن فيه بيان وحجة واضحة تعرفونها (وهدى) يعني من الضلالة (ورحمة) يعني وهو رحمة ونعمة أنعم الله بها عليكم (فمن أظلم) أي لا أحد أظلم وأكفر (ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) يعني وأعرض عنها (سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) يعني أسوأ العذاب وأشده (بما كانوا يصدفون) أي ذلك العذاب بجزائهم بسبب اعراضهم وتكذيبهم بآيات الله ﴿قوله تعالى﴾ (هل ينظرون) يعني هل ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرسل وانكارهم القرآن وصدهم عن آيات الله وهو استفهام معناه النفي وتقدير الآية انهم لا يؤمنون بك الا اذا جاءتهم احدى هذه الامور الثلاث فاذا جاءتهم احداها آمنوا وذلك حين لا ينفعهم ايمانهم (الا أن تأتيهم الملائكة) يعني لقبض أرواحهم وقيل أن تأتيهم بالعذاب (أو يأتي ربك) يعني للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة وقد تقدم الكلام في معنى الآية في سورة البقرة عند قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام بما فيه كفاية وان المجيء والذهاب على الله محال فيجب امرارها بلا تكييف (أو يأتي بعض آيات ربك) قال جمهور المفسرين هو طلوع الشمس من مغربها ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض أخرجه مسلم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله أو يأتي بعض آيات ربك قال طلوع الشمس من مغربها أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه عن صفوان بن عسال المرادي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم باب من قبل المغرب مسيرة عرضه أو قال يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والارض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا رآها الناس آمن من عليها وفي رواية فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا اجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا (م) عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذاكرون قلنا الساعة فقال انها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس الى

(انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) أي أهل التوراة وأهل الانجيل وهذا دليل على ان المجوس ليسوا باهل كتاب (وان كنا عن دراستهم) عن تلاوة كتبهم (لغافلين) لا علم لنا بشيء من ذلك ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية والاصل وانه كنا عن دراستهم غافلين على أن الهاء ضمير الشأن والخطاب لاهل مكة والمراد اثبات الحجة عليهم بانزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كيلا يقولوا يوم القيامة ان التوراة والانجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا وكنا غافلين عما فيهما (أو تقولوا) كراهة ان تقولوا (لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا وغزارة حفظنا الايام العرب (فقد جاءكم بينة من ربكم) أي ان صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم فقد جاءكم ما فيه البيان الساطع والبرهان القاطع فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف (وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله) بعدما عرف صحتها وصدقها (وصدف عنها) أي أعرض (سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) وهو النهاية في النكاية (بما كانوا يصدفون) باعراضهم (هل ينظرون) أي أقمنا حجج الوحدانية وثبوت الرسالة وأبطلنا ما يعتقدون من الضلالة فما ينتظرون في ترك الايمان بعدها (الا أن تأتيهم الملائكة) أي ملائكة الموت لقبض أرواحهم يأتيهم حمزة وعلي (أو يأتي ربك) أي أمر ربك وهو العذاب أو القيامة وهذا لان الاتيان متشابه واتيان أمره منصوص عليه محكم فيرد اليه (أو يأتي بعض آيات ربك) أي اشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك

يحشرهم (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالأعمال قبل ست طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أنسه بعد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على أثرها قريبا وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود في تفسير هذه الآية قال تصبحون والشمس والقمر من ههنا من قبل المغرب كالبعيرين القرينين زاد في رواية عنه فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا وبسنده عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما أتدرون أين تذهب هذه الشمس قالوا الله ورسوله أعلم قال انها تذهب الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي فارجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها لا تنكر الناس منها شيأ حتى تنتهي فتخر ساجدة في مستقرها تحت العرش فيقال لها اطلعي من مغربك فتصبح طالعة من مغربها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون أي يوم ذلك قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا وبسنده عن أبي ذر قال كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم على حمار فنظر الى الشمس حين غربت فقال انها تغرب في عين حمئة تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش حتى يأذن لها فاذا أراد أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول يا رب ان مسيري بعيد فيقول لها اطلعي من حيث غربت فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل وروى بسنده عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية من العشيات فقال لهم عباد الله توبوا الى الله قبل أن يأتيكم بعذاب فانكم توشكون ان تروا الشمس من قبل المغرب فاذا فعلت حبست التوبة وطوي العمل فقال الناس هل لذلك من آية يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان آية تلك الليلة أن تطول كقدر ثلاث ليال فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون لهم ثم يقضون صلاتهم والليل مكانه لم ينقض ثم يأتون مضاجعهم فينامون حتى اذا استيقظوا والليل مكانه فاذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم فاذا أصبحوا فطال عليهم رأت أعينهم طلوع الشمس فبيناهم ينظرونها اذ طلعت عليهم من قبل المغرب فاذا فعلت ذلك لم ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل قال ابن عباس لانه لا ينفع مشركا ايمانه عند الآيات وينفع أهل الايمان عند الآيات ان كانوا ا. كتسبوا خيرا قبل ذلك وقال ابن الجوزي قيل ان الحكمة في طلوع الشمس من مغربها ان الملحدة والمنجمين زعموا ان ذلك لا يكون فيريهم الله قدرته فيطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق فيتحقق عجزهم وقيل بل ذلك بعض الآيات الثلاث الدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها يروى عن ابن مسعود انه قال التوبة معروضة على ابن آدم ان قبلها ما لم تخرج احدى ثلاث الدابة أو طلوع الشمس من مغربها أو يأجوج ومأجوج وروي عن عائشة قالت اذا خرج أول الآيات طرحت التوبة وحبست الحفظة وشهدت الاجساد على الاعمال وروي عن أبي هريرة في قوله تعالى أو يأتي بعض آيات ربك قال هي مجموع الآيات الثلاث طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض ورواه مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض وأصح الاقوال في ذلك ما تظاهرت عليه الاحاديث الصحيحة وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه طلوع الشمس من مغربها وقوله تعالى (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل) يعني لا ينفع من كان مشركا

(يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها) لانه ليس بايمان اختياري بل هو ايمان دفع العذاب والبأس عن أنفسهم (لم تكن آمنت من قبل) صفة نفسا

إيمانه ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة (أو كسبت في إيمانها خيرا) يعني أو عملت قبل ظهور هذه الآية خيرا من عمل صالح وتصديق قال الضحاك من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك فأما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لأنها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذابا على أمة فآمنوا وصدقوا فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك لمعاينتهم الأهوال والشدائد التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة وقوله (قل انتظروا) يعني ما وعدتم به من مجيء الآية فيه وعيد وتهديد (إنا منتظرون) يعني ما وعدكم ربكم من العذاب يوم القيامة أو قبله في الدنيا قال بعض المفسرين وهذا إنما يتطرق من تأخر في الوجود من المشركين والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الوقت والمراد بهذا أن المشركين إنما يمهلون قدر مدة الدنيا فإذا ماتوا أو ظهرت الآيات لم ينفعهم الإيمان وحلت بهم العقوبة اللازمة أبدا وقيل إن قوله قل انتظروا إنا منتظرون المراد منه الكف عن قتال الكفار فتكون الآية منسوخة بآية القتال وعلى القول الأول تكون الآية محكمة قوله عز وجل (إن الذين فرقوا) وقرئ فارقوا (دينهم وكانوا شيعا) يعني أحزابا متفرقة في الضلالة ومعنى فرقوا دينهم أنهم لم يجتمعوا عليه وكانوا مختلفين فيه ومن قرأ فارقوا دينهم يعني جعلوا دينهم وهو دين إبراهيم الحنيفية السهلة أديانا مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الأصنام ونحو ذلك من الأديان المختلفة ومن قرأ فارقوا دينهم قال معناه باينوه وتركوه من المفارقة للشيء وقيل إن معنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد في الحقيقة وهو أن من فرق دينه فأقر ببعض وأنكر بعضا فقد فارق دينه في الحقيقة ثم اختلفوا في المعنى بهذه الآية فقال الحسن هم جميع المشركين لأن بعضهم عبدوا الأصنام وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وبعضهم عبدوا الملائكة وقالوا إنهم بنات الله وبعضهم عبدوا الكواكب فكان هذا تفريق دينهم وقال مجاهد هم اليهود وقال ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك هم اليهود والنصارى لأنهم تفرقوا فكانوا فرقا مختلفة وقال أبو هريرة في هذه الآية هم أهل الضلالة من هذه الأمة وروي ذلك مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء وليسوا منك هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة أسنده الطبري فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع المضلة وروي عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع والأهواء من هذه الأمة ذكره البغوي بغير سند عن العرباض بن سارية قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل بوجهه علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا فقال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة أخرجه أبو داود والترمذي * عن معاوية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة زاد في رواية وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله أخرجه أبو داود * عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا من هي يا رسول الله قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي أخرجه الترمذي قال الخطابي في هذا الحديث دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من

(أو كسبت في إيمانها خيرا) أي إخلاصا كما لا يقبل إيمان الكافر بعد طلوع الشمس من مغربها لا يقبل إخلاص المنافق أيضا أو توبته وتقديره لا ينفع إيمان من لم يؤمن ولا توبة من لم يتب قبل (قل انتظروا) إحدى الآيات الثلاث (إنا منتظرون) بكم إحداها (إن الذين فرقوا دينهم) اختلفوا فيه وصاروا فرقا كما اختلفت اليهود والنصارى وفي الحديث افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي السواد الأعظم وفي رواية وهي ما أنا عليه وأصحابي وقيل فرقوا دينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض فارقوا دينهم حمزة وعلي أي تركوا (وكانوا شيعا) فرقا كل فرقة تشيع إماما

الله والدين إذ جعلهم من أمته وقوله تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه التجارى تفاعل من الجري وهو الوقوع في الأهواء الفاسدة والبدع المضلة تشبيها بجري الفرس والكلب قال ابن مسعود إن أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وروى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا ﴿ وقوله تعالى (لست منهم في شيء) يعني في قتال الكفار فعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية القتال وهذا على قول من يقول إن المراد من الآية اليهود والنصارى والكفار ومن قال المراد من الآية أهل الأهواء والبدع من هذه الأمة قال معناه لست منهم في شيء أي أنت منهم بريء وهم منك برآء تقول العرب إن فعلت كذا فلست منك ولست مني أي كل واحد منا بريء من صاحبه (إنما أمرهم إلى الله) يعني في الجزاء والمكافأة (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) يعني إذا وردوا القيامة ﴿ قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) يعني عشر حسنات أمثالها (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) يعني مثلها في مقابلتها واختلفوا في هذه الحسنة والسيئة على قولين أحدهما أن الحسنة قول لا إله إلا الله والسيئة هي الشرك بالله وأورد على هذا القول أن كلمة التوحيد لا مثل لها حتى يجعل جزاء قائلها عشر أمثالها وأجيب بأن جزاء الحسنة قدر معلوم عند الله فهو يجازي على قدر إيمان المؤمن بما شاء من الجزاء وإنما قال عشر أمثالها للترغيب في الإيمان لا للتحديد وكذلك جزاء السيئة بمثلها من جنسها والقول الثاني أن اللفظ عام في كل حسنة يعملها العبد أو سيئة وهذا أولى لأن حمل اللفظ على العموم أولى قال بعضهم التقدير بالعشرة ليس للتحديد لأن الله يضاعف لمن يشاء في حسناته إلى سبعمائة ويعطي من يشاء بغير حساب وإعطاء الثواب لعامل الحسنة فضل من الله تعالى هذا مذهب أهل السنة وجزاء السيئة بمثلها عدل منه سبحانه وتعالى وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) يعني لا ينقص من ثواب الطائع ولا يزاد على عقاب العاصي (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله تعالى (م) عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر ومن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى وإذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة لفظ البخاري وفي لفظ مسلم عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها وإذا تحدث عبدي بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة فإنما تركها من جرّاي زاد الترمذي من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴿ قوله عز وجل (قل) يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك (إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم) يعني قل لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين (دينا قيما) يعني هداني صراطا مستقيما دينا قيما وقيل يحتمل أن يكون محمولا على المعنى تقديره وعرفني دينا قيما يعني دينا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ وقيل قيما ثابتا مقوما بالأمور معاشي ومعادي وقيل هو من قام وهو أبلغ من القائم (ملة إبراهيم) والملة الدين والشريعة يعني هداني وعرفني دين

لها (لست منهم في شيء) أي من السؤال عنهم وعن تفرقهم أو من عقابهم (إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) فيجازيهم على ذلك (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) تقديره عشر حسنات أمثالها إلا أنه أقيم صفة الجنس المميز مقام الموصوف (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون) بنقص الثواب وزيادة العقاب (قل إنني هداني ربي) ربي أبو عمرو ومدني (إلى صراط مستقيم دينا) نصب على البدل من محل إلى صراط مستقيم لأن معناه هداني صراطا بدليل قوله ويهديكم صراطا مستقيما (قيما) فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من القائم قيما كوفي وشامي وهو مصدر بمعنى القيام وصف به (ملة إبراهيم) عطف بيان

(حنيفا) حال من ابراهيم (وما كان من المشركين) بالله يا معشر قريش (قل ان صلاتي ونسكي) أي عبادتي والناسك العابد أو ذبحي أو حجي (ومحياي ومماتي) وما آتيه في حياتي وأموت عليه من الايمان والعمل الصالح (لله رب العالمين) خالصة لوجهه محياي ومماتي بسكون الياء الأول وفتح الثاني مدني وبعكسه غيره (لا شريك له) في شيء من ذلك (وبذلك) الاخلاص (أمرت وأنا أول المسلمين) لان اسلام كل نبي متقدم على اسلام أمته (قل أغير الله أبغي ربا) جواب عن دعائهم له الى عبادة آلهتهم والهمزة للانكار أي منكر أن أطلب ربا غيره وتقديم المفعول للاشعار بأنه أهم (وهو رب كل شيء) وكل من دونه مربوب ليس في الوجود من له الربوبية غيره (ولا تكسب كل نفس الا عليها) جواب عن قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا تؤخذ نفس آثمة بذنب نفس أخرى (ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) من الاديان التي فرقتموها (وهو الذي جعلكم خلائف الارض) لان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فأمته قد خلفت سائر الامم أو لان بعضهم يخلف بعضا أو هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها (ورفع بعضكم فوق بعض) في الشرف والرزق وغير ذلك (درجات) مفعول ثان أو التقدير الى درجات أو هي واقعة موقع المصدر كأنه قيل رفعة بعد رفعة (ليبلوكم فيما آتاكم) فيما أعطاكم من نعمة الجاه والمال كيف تشكرون تلك النعمة وكيف يصنع الشريف بالوضيع والغني بالفقير والمالك

ابراهيم وشريعته (حنيفا) الاصل في الحنيف الميل وهو ميل عن الضلالة الى الاستقامة والعرب تسمي كل من اختتن أو حج حنيفا تنبيها على أنه على دين ابراهيم عليه السلام (وما كان من المشركين) يعني ابراهيم صلى الله عليه وسلم وفيه رد على كفار قريش لانهم يزعمون أنهم على دين ابراهيم فأخبر الله تعالى ان ابراهيم لم يكن من المشركين وممن يعبد الاصنام (قل ان صلاتي) أي قل يا محمد ان صلاتي (ونسكي) قال مجاهد وسعيد ابن جبير والضحاك والسدي أراد بالنسك في هذا الموضع الذبيحة في الحج والعمرة وقيل النسك العبادة والناسك العابد وقيل المناسك أعمال الحج وقيل النسك كل ما يتقرب به الى الله تعالى من صلاة وحج وذبح وعبادة ونقل الواحدي عن ابن الاعرابي قال النسك سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة وقيل للمتعبد ناسك لانه خلص نفسه من دنس الآثام وصفاها كالسبيكة الخالصة من الخبث وفي قوله ان صلاتي ونسكي دليل على ان جميع العبادات يؤديها العبد على الاخلاص لله ويؤكد هذا قوله لله رب العالمين لا شريك له وفيه دليل على ان جميع العبادات لا تؤدى الا على وجه التمام والكمال لان ما كان لله لا ينبغي أن يكون الا كاملا تاما مع اخلاص العبادة له فما كان بهذه الصفة من العبادات كان مقبولا (ومحياي ومماتي) أي حياتي وموتي بخلق الله وقضائه وقدره أي هو يحييني ويميتني وقيل معناه ان محياي بالعمل الصالح ومماتي اذا مت على الايمان لله وقيل معناه ان طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله وحاصل هذا الكلام ان الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين ان صلاته ونسكه وسائر عباداته وحياته وموته كلها واقعة بخلق الله وقضائه وقدره والمراد بقوله (لله رب العالمين لا شريك له) يعني في العبادة والخلق والقضاء والقدر وسائر أفعاله لا يشاركه فيها أحد من خلقه (وبذلك أمرت) يعني قل يا محمد وبهذا التوحيد أمرت (وأنا أول المسلمين) قال قتادة يعني من هذه الامة وقيل معناه وأنا أول المستسلمين لقضائه وقدره ۞ قوله عز وجل (قل أغير الله أبغي ربا) أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك أغير الله أطلب سيدا أو الها (وهو رب كل شيء) يعني وهو سيد كل شيء ومالكه لا يشاركه فيه أحد وذلك ان الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ارجع الى ديننا قال ابن عباس كان الوليد بن المغيرة يقول اتبعوا سبيلي أحمل عنكم أوزاركم فقال الله عز وجل ردا عليه (ولا تكسب كل نفس الا عليها) يعني ان اثم الجاني عليه لا على غيره (ولا تزر وازرة وزر أخرى) يعني لا تؤاخذ نفس آثمة باثم أخرى ولا تحمل نفس حاملة حمل أخرى ولا يؤاخذ أحد بذنب آخر (ثم الى ربكم مرجعكم) يعني يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) يعني في الدنيا من الاديان والملل ۞ قوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف الارض) يعني والله الذي جعلكم يا أمة محمد خلائف في الارض فان الله أهلك من كان قبلكم من الامم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم في الارض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم وذلك لان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وهو آخرهم وأمته آخر الامم (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) يعني انه تعالى خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل فجعل منهم الحسن والقبيح والغني والفقير والشريف والوضيع والعالم والجاهل والقوي والضعيف وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لاجل العجز أو الجهل أو البخل فان الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص وانما هو لاجل الابتلاء والامتحان ۞ وهو قوله تعالى (ليبلوكم فيما آتاكم) يعني يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر وهو أعلم بأحوال عباده والمعنى يبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته والعبد والحر وغيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب لان العبد اما أن يكون مقصرا فيما كلف به واما أن يكون موفيا ما أمر به فان كان مقصرا كان

نصيبه التخويف والترغيب ﴿وهو قوله تعالى (ان ربك سريع العقاب) يعني لاعدائه بإهلاكهم في الدنيا وانما وصف العقاب بالسرعة لان كل ما هو آت فهو قريب وان كان العبد موفيا حقوق الله تعالى فيما أمره به أو نهاه عنه كان نصيبه الترغيب والتشريف والتكريم ﴿وهو قوله تعالى (وانه لغفور) يعني لذنوب أوليائه وأهل طاعته (رحيم) يعني بجميع خلقه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة الاعراف﴾

نزلت بمكة روى ذلك عن ابن عباس وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقتادة وروى عن ابن عباس أيضا انها مكية الا خمس آيات أولها واسألهم عن القرية التي كانت وبه قال قتادة وقال مقاتل ثمان آيات في سورة الاعراف مدنية أولها واسألهم عن القرية الى قوله واذ أخذ ربك من بني آدم وهي مائتان وست آيات وثلاثة آلاف وثلثمائة وخمس وعشرون كلمة وأربعة عشر ألف حرف وعشرة أحرف

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿قوله عز وجل (المص) قال ابن عباس معناه أنا الله أفصل وعنه أنا الله أعلم وأفصل وعنه ان المص قسم أقسم الله به وهو اسم من أسماء الله تعالى وقال قتادة المص اسم من أسماء القرآن وقال الحسن هو اسم السورة وقال السدي هو بعض اسمه تعالى المصور وقال أبو العالية الالف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق وصبور وقيل هي حروف مقطعة استأثر الله تعالى بعلمها وهي سره في كتابه العزيز وقيل هي حروف اسمه الاعظم وقيل هي حروف تحتوي معاني دل الله بها خلقه على مراده وقد تقدم بسط الكلام على معاني الحروف المقطعة أوائل السور في أول سورة البقرة ﴿وقوله تعالى (كتاب أنزل اليك) يعني هذا كتاب أنزله الله اليك يا محمد وهو القرآن (فلا يكن في صدرك حرج منه) يعني فلا يضق صدرك بالابلاغ وتأدية ما أرسلت به الى الناس (لتنذر به) يعني أنزلت اليك الكتاب يا محمد لتنذر به من أمرتك بإنذاره (وذكرى للمؤمنين) يعني ولتذكر وتعظ به المؤمنين وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم تقديره كتاب أنزلناه اليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه قال ابن عباس فلا تكن في شك منه لان الشك لا يكون الا من ضيق الصدر وقلة الاتساع توجيهما حصل له ﴿قوله تعالى (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم) أي قل يا محمد لقومك اتبعوا أيها الناس ما أنزل اليكم من ربكم يعني من القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان قال الحسن يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم والله ما نزلت آية الا وهو يحب أن تعلم فيم أنزلت وما معناها وبنحوه قال الزجاج أي اتبعوا القرآن وما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فانه مما أنزل لقوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ومعنى الآية ان الله تعالى لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالانذار في قوله لتنذر به كان معنى الكلام أنذر لقومك وقل لهم اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك وقيل معناه لتنذر به وتذكر به المؤمنين فتقول لهم اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم وقيل هو خطاب للكفار أي اتبعوا أيها المشركون ما أنزل اليكم من ربكم واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والشرك ويدل عليه قوله تعالى (ولا تتبعوا من دونه أولياء) يعني ولا تتخذوا الذين يدعونكم الى الكفر والشرك أولياء فتتبعوهم

بالملوك (ان ربك سريع العقاب) لمن كفر نعمته (وانه لغفور رحيم) لمن قام بشكرها ووصف العقاب بالسرعة لان ما هو آت قريب وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ ثلاث آيات من أول الانعام حين يصبح وكل الله تعالى به سبعين ألف ملك يحفظونه وكتب له مثل أعمالهم الى يوم القيامة ﴿سورة الاعراف مكية وهي مائتان وخمس آيات بصري وست كوفي ومدني﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم المص﴾ قال الزجاج المختار في تفسيره ما قال ابن عباس رضي الله عنهما أنا الله أعلم وأفصل (كتاب) خبر مبتدا محذوف أي هو كتاب (أنزل اليك) صفته والمراد بالكتاب السورة (فلا يكن في صدرك حرج) شك فيه وسمي الشك حرجا لان الشاك ضيق الصدر حرجه كما ان المتيقن منشرح الصدر منفسحه أي لا شك في انه منزل من الله أو حرج منه بتبليغه لانه كان يخاف قومه وتكذيبهم له واعراضهم عنه وأذاهم فكان يضيق صدره من الاذى ولا ينشط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم والنهي متوجه الى الحرج وفيه من المبالغة ما فيه والفاء للعطف أي هذا الكتاب أنزلته اليك فلا يكن بعد انزاله حرج في صدرك واللام في (لتنذر به) متعلق بأنزل أي أنزل اليك لانذارك به أو بالنهي لانه اذا لم يخفهم أنذرهم وكذا اذا أيقن انه من عند الله شجعه اليقين على الانذار به لان صاحب اليقين جسور متوكل على ربه (وذكرى للمؤمنين) والمحل في محل النصب باضمار فعلها أي لتنذر به وتذكر تذكيرا فالذكرى اسم بمعنى التذكير أو الرفع بالعطف على كتاب أي هو كتاب وذكرى للمؤمنين أو بانه خبر مبتدا محذوف أو الجر بالعطف على محل لتنذر أي للانذار وللذكرى (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم) أي القرآن والسنة (ولا تتبعوا من دونه) من دون الله (أولياء) أي ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والانس فيحملوكم على عبادة

الاوثان والاهواء والبدع (قليلاماتذكرون) حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره وقليلا نصب بتذكرون أى تذكرون تذكرا قليلا ومامزيدة لتوكيد القلة تتذكرون شامى (وكم) مبتدأ (من قرية) تبيين والخبر (أهلكناها) أى أردنا اهلاكها كقوله اذا قمتم الى الصلاة (فجاءها) جاء أهلها (بأسنا) عذابنا (بياتا) مصدر واقع موقع الحال بمعنى

بائتين يقال بات بياتا حسنا (أوهم قائلون) حال معطوفة على بياتا كأنه قيل فجاءهم بأسنا بائتين أوقائلين وانما قيل هم قائلون بلاواو ولا يقال جاءنى زيد هوفارس بغير واو لانه لما عطف على حال قبلها حذفت الواو استثقالا لاجتماع حرفى عطف لان واو الحال هى واو العطف استعيرت للوصل وخص هذان الوقتان لانهما وقت الغفلة فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع وقوم لوط عليه السلام أهلكوا بالليل وقت السحر وقوم شعيب عليه السلام وقت القيلولة وقيل بياتا ليلا أى ليلا وهم نائمون أونهارا وهم قائلون (فما كان دعواهم) دعاؤهم وتضرعهم (اذجاءهم بأسنا) لما جاءهم أوائل العذاب (الا أن قالوا انا كناظالمين) اعترفوا بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك ودعواهم اسم كان وأن قالوا الخبر ويجوز العكس (فلنسألن الذين أرسل اليهم) أرسل مسند الى اليهم أى فلنسألن المرسل اليهم وهم الامم عما أجابوا به رسلهم (ولنسألن المرسلين) عما أجيبوا به (فلنقصن عليهم) على الرسل والمرسل اليهم ما كان منهم (بعلم) عالمين باحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم (وما كنا غائبين) عنهم وعما وجد منهم ومعنى السؤال التوبيخ والتقريع والتقرير اذا فاهوا بالسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم

والنهى ولاتتولوا من دونه شياطين الانس والجن فيأمروكم بعبادة الاصنام واتباع البدع والاهواء الفاسدة (قليلاماتذكرون) يعنى ماتتعظون الاقليلا ﴿ قوله تعالى (وكم من قرية أهلكناها) لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالانذار والابلاغ وأمر أمته باتباع ما أنزله اليهم حذرهم نقمته وبأسه ان لم يتبعوا ما أمروابه فذكر فى هذه الآية مافى ترك المتابعة والاعراض عن أمره من الوعيد فقال تعالى وكم من قرية أهلكناها قيل فيه حذف تقديره وكم من أهل قرية لان المقصود بالاهلاك أهل القرية لاالقرية وقيل ليس فيه حذف لان اهلاك القرية اهلاك لاهلها (فجاءها بأسنا) يعنى عذابنا فان قلت مجىء البأس وهو العذاب انما يكون قبل الاهلاك فكيف قال أهلكناها فجاءها بأسنا قلت معناه وكم من قرية حكمنا باهلاكها فجاءها بأسنا وقال الفراء الهلاك والبأس قد يقعان معا كما يقال أعطيتنى فاحسنت الى فلم يكن الاحسان قبل الاعطاء ولابعده وانما وقعا معا وقال غيره لافرق بين قولك أعطيتنى فاحسنت الى أو أحسنت الى فأعطيتنى فيكون أحدهما بدلا من الآخر (بياتا) يعنى فجاءها عذابنا ليلا قبل أن يصبحوا (أوهم قائلون) من القيلولة وهى نوم نصف النهار أواستراحة نصف النهار وان لم يكن معها نوم والمعنى فجاءها بأسنا غفلة وهم غير متوقعين له ليلا وهم نائمون أونهارا وهم قائلون وقت الظهيرة وكل ذلك وقت الغفلة ومقصود الآية أنه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم من غير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب وفيه وعيد وتخويف للكفار كأنه قيل لهم لاتغتروا باسباب الامن والراحة فان عذاب الله اذا نزل نزل دفعة واحدة (فما كان دعواهم) يعنى فما كان دعاء أهل القرية التى جاءها بأسنا والدعوى تكون بمعنى الادعاء وبمعنى الدعاء قال سيبويه تقول العرب اللهم أشركنا فى صالح دعوى المؤمنين ومنه قوله تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم (إذ جاءهم بأسنا) يعنى عذابنا (الا أن قالوا انا كناظالمين) يعنى انهم لم يقدروا على رد العذاب عنهم وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية وذلك حين لاينفع الاعتراف (فلنسألن الذين أرسل اليهم) يعنى يسأل الامم الذين أرسلت اليهم الرسل ماذا عملتم فيما جاءتكم به الرسل (ولنسألن المرسلين) يعنى ولنسألن الرسل الذين أرسلناهم الى الامم هل بلغتم رسالاتنا وأديتم الى الامم ما أمرتم بتأديته اليهم أم قصرتم فى ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى هذه الآية يسأل الله تعالى الناس عما أجابوا به المرسلين ويسأل المرسلين عما بلغوا وعنه أنه قال يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون وقال السدى يسأل الامم بما عملوا فيما جاءت به الرسل ويسأل الرسل هل بلغوا ما أرسلوا به فان قلت قد أخبر عنهم فى الآية الاولى بانهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم فى قوله انا كناظالمين فما فائدة هذا السؤال مع اعترافهم على أنفسهم بذلك قلت لما اعترفوا بانهم كانوا ظالمين مقصرين سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم والتقصير والمقصود من هذا التقريع والتوبيخ للكفار فان قلت فما الفائدة فى سؤال الرسل مع العلم بانهم قد بلغوا رسالات ربهم الى من أرسلوا اليهم من الامم قلت اذا كان يوم القيامة تنكر الكفار تبليغ الرسالة من الرسل فقالوا ما جاءنا من بشير ولانذير فكان مسئلة الرسل على وجه الاستشهاد بهم على من أرسلوا اليهم من الامم أنهم قد بلغوا رسالات ربهم الى من أرسلوا اليهم من الامم فتكون هذه المسئلة كالتقريع والتوبيخ للكفار أيضا لانهم أنكروا تبليغ الرسل فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم ﴿ وقوله تعالى (فلنقصن عليهم بعلم) يعنى ولنخبرن الرسل ومن أرسلوا اليهم عن يقين بما عملوا فى الدنيا (وما كنا غائبين) يعنى عنهم وعن أفعالهم

وعن الرسل فيما بلغوا وعن الامم فيما أجابوا فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين وبين قوله فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين واذا كان عالما فما فائدة هذا السؤال قلت فائدة سؤال الامم والرسل مع علمه سبحانه وتعالى بجميع المعلومات التقريع والتوبيخ للكفار لانهم اذا أقروا على أنفسهم كان أبلغ في المقصود فاما سؤال الاسترشاد والاستثبات فهو منفي عن الله عز وجل لانه عالم بجميع الاشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها فهو العالم بالكليات والجزئيات وعلمه بظاهر الاشياء كعلمه بباطنها ﴿ قوله تعالى (والوزن يومئذ الحق) يعني والوزن يوم سؤال الامم والرسل وهو يوم القيامة العدل وقال مجاهد المراد بالوزن هنا القضاء ومعنى الحق العدل وذهب جمهور المفسرين الى أن المراد بالوزن وزن الاعمال بالميزان وذلك ان الله عز وجل ينصب ميزانا له لسان وكفتان كل كفة قدر ما بين المشرق والمغرب قال ابن الجوزي جاء في الحديث ان داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه اياه فقال الهي من يقدر أن يملأ كفته حسنات فقال يا داود اذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة وقال حذيفة جبريل صاحب الميزان يوم القيامة فيقول له ربه عز وجل زن بينهم ورد من بعضهم على بعض وليس ثم ذهب ولا فضة فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة فان لم يكن له حسنة أخذ من سيئات المظلوم فيرد على سيئات الظالم فيرجع الرجل وعليه مثل الجبل فان قلت أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد فما الحكمة في وزنها قلت فيه حكم منها اظهار العدل وان الله عز وجل لا يظلم عباده ومنها امتحان الخلق بالايمان بذلك في الدنيا واقامة الحجة عليهم في العقبى ومنها تعريف العباد ما لهم من خير وشر وحسنة وسيئة ومنها اظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ثم في صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى ثم اختلف العلماء في كيفية الوزن فقال بعضهم توزن صحائف الاعمال المكتوبة فيها الحسنات والسيئات ويدل على ذلك حديث البطاقة وهو ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل سيخلص رجلا من أمتي على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئا أظلمتك كتبتي الحافظون فيقول لا يا رب فيقول أفلك عذر فيقول لا يا رب فيقول الله تبارك وتعالى بلى ان لك عندنا حسنة فانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول احضر وزنك فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فانه لا ظلم عليك اليوم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء أخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل وقال ابن عباس يؤتى بالاعمال الحسنة على صورة حسنة وبالاعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان فعلى قول ابن عباس ان الاعمال تتصور صورا وتوضع تلك الصور في الميزان ويخلق الله تعالى في تلك الصور ثقلا وخفة ونقل البغوي عن بعضهم انما توزن الاشخاص واستدل لذلك بما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة أخرجاه في الصحيحين وهذا الحديث ليس فيه دليل على ما ذكر من وزن الاشخاص في الميزان لان المراد بقوله لا يزن عند الله جناح بعوضة مقداره وحرمته لا وزن جسده والصحيح قول من قال ان صحائف الاعمال توزن أو نفس الاعمال تتجسد وتوزن والله أعلم بحقيقة ذلك ﴿ وقوله تعالى (فمن ثقلت موازينه) جمع ميزان وأورد على هذا انه ميزان واحد فما وجه الجمع وأجيب عنه بان العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد وقيل انه ينصب لكل عبد ميزان وقيل انما جمعه لان الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين واللسان ولا يتم الوزن الا باجتماع ذلك كله وقيل هو جمع موزون يعني من رجحت أعماله الحسنة الموزونة التي لها وزن وقدر (فأولئك

(والوزن) أي وزن الاعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها وهو مبتدأ وخبره (يومئذ) أي يوم يسأل الله الامم ورسلهم حذفت الجملة وعوض عنها التنوين (الحق) أي العدل صفته ثم قيل توزن صحف الاعمال بميزان له لسان وكفتان اظهارا للنصفة وقطعا للمعذرة وقيل هو عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل والله أعلم بكيفيته (فمن ثقلت موازينه) جمع ميزان أو موزون أي من رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات أو ما توزن به حسناتهم (فأولئك

هم المفلحون) يعني هم الناجون غدا والفائزون بثواب الله وجزائه (ومن خفت موازينه) يعني موازين أعماله وهم الكفار بدليل قوله تعالى (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) يعني غبنوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله تعالى وكرامته (بما كانوا بآياتنا يظلمون) يعني بسبب ذلك الخسران انهم كانوا بحجج الله وأدلة توحيده يجحدون ولا يقرون بها روي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه انه حين حضره الموت قال في وصيته لعمر بن الخطاب انما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غدا أن يكون ثقيلا وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدا أن يكون خفيفا ۞ قوله عز وجل (ولقد مكناكم في الارض) يعني ولقد مكناكم أيها الناس في الارض والمراد من التمكين التمليك وقيل معناه جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا وأقدرناكم على التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة يعني به جميع وجوه المنافع التي تحصل بها الارزاق وتعيشون بها أيام حياتكم وهي على قسمين أحدهما ما أنعم الله تعالى به على عباده من الزرع والثمار وأنواع المآكل والمشارب والثاني ما يتحصل من المكاسب والارباح في أنواع التجارات والصنائع وكلا القسمين في الحقيقة انما يحصل بفضل الله وانعامه واقداره وتمكينه لعباده من ذلك فثبت بذلك ان جميع معايش العالم انعام من الله تعالى على عباده وكثرة الانعام توجب الطاعة للمنعم بها والشكر له ثم انه تعالى بين انه مع هذا الافضال على عباده وانعامه عليهم لا يقومون بشكره كما ينبغي فقال تعالى (قليلا ما تشكرون) يعني على ما صنعت اليكم وأنعمت به عليكم وفيه دليل على انهم قد يشكرون لان الانسان قد يذكر نعم الله فيشكره عليها فلا يخلو في بعض الاوقات من الشكر على النعم وحقيقة الشكر تصور النعمة واظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها ۞ قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) يعني ولقد خلقناكم أيها الناس المخاطبون بهذا الخطاب وقت نزوله في ظهر أبيكم آدم ثم صورناكم في أرحام النساء صورا مخلوقة فان قلت على هذا التفسير يكون قوله ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم يقتضي ان الامر بالسجود لآدم كان وقع بعد خلق المخاطبين بهذا الخطاب وتصويرهم لان كلمة ثم للتراخي ومعلوم ان الامر ليس كذلك بل كان السجود لآدم عليه الصلاة والسلام قبل خلق ذريته قلت يحتمل أن يكون المعنى ولقد خلقناكم ثم صورناكم أيها المخاطبون ثم أخبرناكم انا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فتكون كلمة ثم تفيد ترتيب خبر على خبر ولا تفيد ترتيب المخبر به على الخبر وقيل في معنى الآية ولقد خلقناكم يعني آدم ثم صورناكم يعني ذريته وهذا قول ابن عباس وقال مجاهد ولقد خلقناكم يعني آدم ثم صورناكم يعني في ظهره وعلى هذين القولين انما ذكر آدم بلفظ الجمع على التعظيم أو لانه أبو البشر فكان في خلقه خلق من خرج من صلبه وقيل ان الخلق والتصوير يرجع الى آدم عليه الصلاة والسلام وحده والمعنى ولقد خلقناكم يعني آدم حكمنا بخلقه ثم صورناكم يعني آدم صورة من طين (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) يعني بعد اكمال خلقه وقد تقدم في سورة البقرة الكلام في معنى هذا السجود وانه كان على سبيل التحية والتعظيم لآدم لا حقيقة السجود وقيل بل كان حقيقة السجود وان المسجود له هو الله تعالى وانما كان آدم كالقبلة للساجدين وقيل بل كان المسجود له وكان ذلك بأمر الله تعالى وهل كان هذا الامر بالسجود لجميع الملائكة أو لبعضهم فيه خلاف تقدم ذكره في سورة البقرة وقوله تعالى (فسجدوا) يعني الملائكة (الا ابليس) يعني فسجد الملائكة لآدم الا ابليس (لم يكن من الساجدين) يعني لهو ظاهر الآية يدل على ان ابليس كان من الملائكة لان الله تعالى استثناه منهم وكان الحسن يقول ان ابليس لم يكن من الملائكة لانه خلق من نار والملائكة من نور وانما استثناه من الملائكة لانه كان مأمورا بالسجود لآدم مع الملائكة فلما لم يسجد أخبر الله تعالى عنه انه لم يكن من الساجدين لآدم فلهذا استثناه منهم ۞ قوله تعالى (قال ما منعك أن لا تسجد اذ أمرتك) يعني قال الله

هم المفلحون) الفائزون (ومن خفت موازينه) هم الكفار فانه لا ايمان لهم ليعتبر معه عمل فلا يكون في ميزانهم خير فتخف موازينهم (فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) يجحدون فالآيات الحجج والظلم بها وضعها في غير موضعها أي جحودها وترك الانقياد لها (ولقد مكناكم في الارض) جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا أو مكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها والوجه تصريح الياء لانها أصلية بخلاف صحائف فالياء فيها زائدة وعن نافع انه همز تشبيها بصحائف (قليلا ما تشكرون) مثل قليلا ما تذكرون (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) أي خلقنا أباكم آدم عليه السلام طينا غير مصور ثم صورناه بعد ذلك دليله (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين) ممن سجد لآدم عليه السلام (قال ما منعك أن لا تسجد) ما رفع أي أي شيء منعك من السجود ولا زائدة بدليل ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ومثله لئلا يعلم أهل الكتاب أي ليعلم (اذ أمرتك) فيه دليل على ان الامر للوجوب والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به للتوبيخ ولاظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله

عزوجل لابليس أي شيء منعك من السجود لآدم اذ أمرتك يعني على هذا التأويل تكون كلمة لا في قوله أن لاتسجد صلة زائدة وانما دخلت للتوكيد والتقدير مامنعك أن تسجد فهو كقوله لا أقسم أي أقسم وقوله وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون أي يرجعون وقوله لئلا يعلم أهل الكتاب أي ليعلم أهل الكتاب وهذا قول الكسائي والفراء والزجاج والاكثرين وقيل ان كلمة لاههنا ليست صلة مفيدة وليست بزائدة لانه لايجوز أن يقال ان كلمة من كتاب الله زائدة ولامعنى لها وعلى هذا القول حكى الواحدي عن أحمد بن يحيي ان لا في هذه الآية ليست زائدة ولا توكيدا لان معنى قوله مامنعك أن لاتسجد من قال لك لاتسجد فحمل نظم الكلام على معناه وهذا القول حكاه أبو بكر عن الفراء وقال الطبري الصواب في ذلك أن يقال ان في الكلام محذوفا تقديره مامنعك من السجود فأحوجك أن لاتسجد فترك ذكر أحوجك استغناء عنه بمعرفة السامعين به ونقل الامام فخر الدين الرازي عن القاضي قال ذكر الله تعالى المنع وأراد الداعي فكأنه قال مادعاك الى أن لاتسجد لان مخالفة أمر الله تعالى عظيمة يتعجب منها ويسئل عن الداعي اليها فان قلت لم سأله عن المانع له من السجود وهو أعلم به قلت انما سأله للتوبيخ والتقريع له ولاظهار معاندته وكفره وافتخاره بأصله وحسده لآدم عليه الصلاة والسلام ولذلك لم يتب الله عليه (قال) يعني قال ابليس مجيبا الله تعالى عما سأله عنه (أنا خير منه) فان قلت قوله أنا خير منه ليس بجواب عما سأله عنه في قوله تعالى مامنعك أن لاتسجد فلم يجب عما منعه من السجود فانه كان ينبغي له أن يقول منعني كذا وكذا ولكنه قال أنا خير منه قلت استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم وفيها دليل على موضع الجواب وهو قوله (خلقتني من نار وخلقته من طين) والنار خير من الطين وأنور وانما قال أنا خير منه لما رأى انه أشد منه قوة وأفضل منه أصلا وذلك لفضل الجنس الذي خلق منه وهو النار على الطين الذي خلق منه آدم عليه الصلاة والسلام بجهل عدو الله ابليس وجه الحق وأخطأ طريق الصواب لان من المعلوم ان من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب وهذا الذي حمل الخبيث ابليس مع الشقاء الذي سبق له من الله تعالى في الكتاب السابق على الاستكبار على السجود لآدم عليه الصلاة والسلام والاستخفاف بأمر ربه فأورده ذلك العطب والهلاك ومن المعلوم أن في جوهر الطين الرزانة والاناة والصبر والحلم والحياء والتثبت وهذا كان الداعي لآدم عليه الصلاة والسلام مع السعادة السابقة التي سبقت له من الله تعالى في الكتاب السابق الى التوبة من خطيئته ومسئلته ربه العفو عنه والمغفرة ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان أول من قاس ابليس فأخطأ وقال ابن سيرين أيضا ماعبدت الشمس والقمر الا بالمقاييس وأصل هذا القياس الذي قاسه ابليس لعنه الله تعالى لما رأى ان النار أفضل من الطين وأقوى فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ولم يدر أن الفضل لمن جعله الله فاضلا وان الافضلية والخيرية لاتحصل بسبب فضيلة الاصل والجوهر وأيضا الفضيلة انما تحصل بسبب الطاعة وقبول الامر فالمؤمن الحبشي خير من الكافر القرشي فان الله تعالى خص صفيه آدم عليه الصلاة والسلام بأشياء لم يخص بها غيره وهو انه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأورثه الاجتباء والتوبة والهداية الى غير ذلك مما خص الله تعالى به آدم عليه الصلاة والسلام للعناية التي سبقت له في القدم وأورث ابليس كبره اللعنة والطرد للشقاوة التي سبقت له في القديم ۞ وقوله تعالى (قال فاهبط منها) يعني قال الله تعالى لابليس لعنه الله اهبط من الجنة وقيل من السماء الى الارض والهبوط الانزال والانحدار من فوق على سبيل القهر والهوان والاستخفاف (فما يكون لك أن تتكبر فيها) يعني فليس لك أن تتكبر في الجنة عن أمري وطاعتي لانه لاينبغي أن يسكن في الجنة أو في السماء متكبر مخالف لامر الله عز وجل فأما غير الجنة والسماء فقد يسكنها المستكبرون عن طاعة الله تعالى وهم الكفار الساكنون في الارض (فاخرج انك

وتحقيره أصل آدم عليه السلام (قال أنا خير منه خلقتني من نار) وهي جوهر نوراني (وخلقته من طين) وهو ظلماني وقد أخطأ الخبيث بل الطين أفضل لرزانته ووقاره ومنه الحلم والحياء والصبر وذلك دعاه الى التوبة والاستغفار وفي النار الطيش والحدة والترفع وذلك دعاه الى الاستكبار والتراب عدة الممالك والنار عدة المهالك والنار مظنة الخيانة والافناء والتراب مئنة الامانة والانماء والطين يطفئ النار ويتلفها والنار لاتتلفه وهذه فضائل غفل عنها ابليس حتى زل بفاسد من المقاييس وقول نافي القياس أول من قاس ابليس قياس على ان القياس عند مثبته مردود عند وجود النص وقياس ابليس عناد للامر المنصوص فكان الجواب لما منعك أن يقول منعني كذا وانما قال أنا خير منه لانه لما استأنف قصة وأخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم عليه السلام وعلة فضله عليه فعلم منها الجواب كأنه قال منعني من السجود فضلي عليه وزيادة عليه وهي انكار الامر واستبعاد أن يكون مثله مأمورا بالسجود لمثله اذ سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب (قال فاهبط منها) من الجنة أو من السماء لانه كان فيها وهي مكان المطيعين والمتواضعين والفاء في فاهبط جواب لقوله أنا خير منه أي ان كنت تتكبر فاهبط (فما يكون لك) فما يصح لك (أن تتكبر فيها) وتعصي (فاخرج انك

من الصاغرين) من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه يذمك كل إنسان ويلعنك كل لسان لتكبرك وبه علم أن الصغار لازم للاستكبار (قال أنظرني إلى يوم يبعثون) أمهلني إلى يوم البعث وهو وقت النفخة الأخيرة (قال إنك من المنظرين) إلى النفخة الأولى وإنما أجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاء وفيه تقريب لقلوب الأحباب أي هذا بري بمن يسيئني فكيف بمن يحبني وإنما جسره على السؤال مع وجود الزلة منه في الحال علمه بحلم ذي الجلال (قال فبما أغويتني) أضللتني أي فبسبب إغوائك إياي والباء تتعلق بفعل القسم المحذوف تقديره فبسبب إغوائك أقسم أو تكون الباء للقسم أي فأقسم بإغوائك (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) لأعترضن لهم على طريق الإسلام مترصداً للرد متعرضاً للصد كما يتعرض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة وانتصابه على الظرف كقولك ضرب زيد الظهر أي على الظهر وعن طاوس أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل قدري فقال له طاوس تقوم أو تقام فقام الرجل فقيل له أتقول هذا الرجل فقيه فقال إبليس أفقه منه قال رب بما أغويتني وهو يقول أنا أغوي نفسي (ثم لآتينهم من بين أيديهم) أشككهم في الآخرة (ومن خلفهم) أرغبهم في الدنيا (وعن أيمانهم) من قبل الحسنات (وعن شمائلهم) من قبل السيئات وهو جمع شمال يعني ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الأغلب وعن شقيق ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد من بين يدي فيقول لا تخف فإن الله غفور رحيم فأقرأ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ومن خلفي فيخوفني الضيعة على مخلفي فأقرأ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها وعن يميني فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ والعاقبة للمتقين وعن شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة وقال في الأولين من لابتداء الغاية وفي الأخيرين عن لأن عن تدل على الانحراف

من الصاغرين) يعني إنك من الأذلاء المهانين والصغار الذل والمهانة قال الزجاج استكبر عدو الله إبليس فابتلاه الله تعالى بالصغار والذلة وقيل كان له ملك الأرض فأخرجه الله تعالى منها إلى جزائر البحر الأخضر وعرشه فيه فلا يدخل الأرض إلا خائفاً كهيئة السارق مثل شيخ عليه أطمار رثة يروع فيها حتى يخرج منها (قال) يعني قال إبليس عند ذلك (أنظرني) يعني أخرني وأمهلني فلا تمتني (إلى يوم يبعثون) يعني من قبورهم وهي النفخة الآخرة عند قيام الساعة وهذا من خبث إبليس لعنه الله لأنه سأل ربه الإمهال وقد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله إلى البقاء في الدنيا ولكنه كره أن يذوق الموت فطلب البقاء والخلود لم يجب إلى ما سأل بل (قال) الله تعالى له (إنك من المنظرين) يعني من المؤخرين الممهلين وقد بين الله تعالى مدة النظر والمهلة في سورة الحجر فقال تعالى إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم وذلك هو النفخة الأولى حين يموت الخلائق كلهم فإن قلت فما وجه قوله إنك من المنظرين وليس أحد بمنظر سواه قلت معناه أن الذين تقوم عليهم الساعة منظرون إلى ذلك الوقت فأنت منهم (قال) يعني إبليس (فبما أغويتني) يعني فبأي شيء أضللتني وعلى هذا تكون ما استفهامية وتم الكلام عند قوله أغويتني ثم ابتدأ فقال (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) وقيل هي باء القسم تقديره فبإغوائك إياي وقيل معناه فبما أوقعت في قلبي الغي الذي كان سبب هبوطي إلى الأرض من السماء وأضللتني عن الهدى لأقعدن لهم صراطك المستقيم يعني لأجلسن على طريقك القويم وهو طريق الإسلام وقيل المراد بالصراط المستقيم الطريق الذي يسلكونه إلى الجنة وذلك بأن أوسوس لهم وأزين لهم الباطل وما يكسبهم المآثم وقيل المراد بالصراط المستقيم هنا الطريق إلى مكة لأمنعهم من الهجرة وقيل إرادة الحج والقول الأول أولى لأنه أعم ومعنى الآية لأردن بني آدم عن عبادتك وطاعتك ولأغوينهم ولأضلنهم كما أضللتني عن سبرة بن أبي الفاكه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له في طريق الإسلام فقال تسلم وتذر دين آبائك وآباء آبائك فعصاه وأسلم وقعد له بطريق الهجرة فقال تهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول فعصاه فهاجر وقعد له بطريق الجهاد فقال تجاهد فهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فعصاه فجاهد قال فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أخرجه النسائي وقوله تعالى إخباراً عن إبليس (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) قال ابن عباس من بين أيديهم يعني من قبل الآخرة فأشككهم فيها ومن خلفهم يعني من قبل الدنيا فأرغبهم فيها وعن أيمانهم أشبه عليهم أمر دينهم وعن شمائلهم أشهي لهم المعاصي وإنما جعل الآخرة من بين أيديهم في هذا القول لأنهم مقبلون إليها وواردون عليها فعلى هذا الاعتبار الدنيا خلفهم لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم وقال ابن عباس في رواية عنه من بين أيديهم من قبل دنياهم يعني أزينها في قلوبهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فأقول لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار وعن أيمانهم من قبل حسناتهم وعن شمائلهم من قبل سيئاتهم وإنما جعل الدنيا من بين أيديهم في هذا القول لأن الإنسان يسعى فيها ويشاهدها فهي حاضرة

بين يديه والآخرة نائية عنه فهي خلفه وقال الحكم بن عتبة من بين أيديهم يعني من قبل الدنيا يزينها لهم ومن خلفهم من قبل الآخرة فيثبطهم عنها وعن أيمانهم يعني من قبل الحق فيصدهم عنه وعن شمائلهم من قبل الباطل فيزينه لهم وقال قتادة أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها وعن أيمانهم من قبل حسناتهم فبطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله تعالى وقال مجاهد يأتيهم من بين أيديهم وعن أيمانهم حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون ومعنى هذا من حيث يبصرون يعلمون أنهم يخطئون ومن حيث لا يبصرون أنهم يخطئون ولا يعلمون أنهم يخطئون وقيل من بين أيديهم يعني فيما بقي من أعمارهم فلا يقدمون فيه طاعة ومن خلفهم يعني فيما مضى من أعمارهم ولا يتوبون عما أسلفوا فيه من معصية وعن أيمانهم يعني من قبل الغنى فلا ينفقون ولا يشكرون ومن خلفهم يعني من قبل الفقر فلا يمتنعون فيه من محظور رماوه وقال شقيق البلخي ما من صباح إلا ويأتيني الشيطان من الجهات الأربع من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي أما من بين يدي فيقول لا تخف فإن الله غفور رحيم فأقرأ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وأما من خلفي فيخوفني من وقوع أولادي في الفقر فأقرأ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها وأما من قبل يميني فيأتيني من قبل الثناء فأقرأ والعاقبة للمتقين وأما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون وقيل إن ذكر هذه الجهات الأربع إنما أريد بها التأكيد والمبالغة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم وأنه لا يقصر في ذلك ومعنى الآية على هذا القول ثم لآتينهم من جميع الوجوه الممكنة بجميع الاعتبارات وقوله (ولا تجد أكثرهم شاكرين) يعني ولا تجد يا رب أكثر بني آدم شاكرين لك على نعمك التي أنعمت بها عليهم وقال ابن عباس معناه ولا تجد أكثرهم موحدين فإن قلت كيف علم الخبيث إبليس ذلك حتى قال ولا تجد أكثرهم شاكرين قلت قاله ظناً فأصاب ومنه قوله تعالى ولقد صدق عليهم إبليس ظنه وقيل إنه كان عازماً على المبالغة في تزيين الشهوات وتحسين القبائح وعلم ميل بني آدم إلى ذلك فقال هذه المقالة وقيل إنه رآه مكتوباً في اللوح المحفوظ فقال هذه المقالة على سبيل اليقين والقطع والله أعلم بمراده ۞ قوله عز وجل (قال اخرج منها) أي قال الله تعالى لإبليس حين طرده عن بابه وأبعده عن جنابه وذلك بسبب لعنته وعصيانه أخرج منها يعني من الجنة فإنه لا ينبغي أن يسكن فيها العصاة (مذؤوما) يعني معيباً والذأم أشد العيب (مدحورا) يعني مطروداً مبعداً وقال ابن عباس صغيراً ممقوتاً وقال قتادة لعيناً مقيتاً وقال الكلبي ملوماً مقصياً من الجنة ومن كل خير (لمن تبعك منهم) يعني من بني آدم (لأملأن جهنم منكم أجمعين) اللام لام القسم أقسم الله تعالى أن من تبع إبليس من بني آدم وأطاعه منهم أن يملأ جهنم منه ومن كفر من بني آدم وإبليس وذريته ومن تبعه منهم ۞ قوله تعالى (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أي وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وذلك بعد أن أهبط منها إبليس وأخرجه وطرده من الجنة (فكلا من حيث شئتما) يعني فكلا من ثمار الجنة من أي مكان شئتما فإن قلت قال في سورة البقرة وكلا بالواو وقال هنا فكلا بالفاء فما الفرق قلت قال الإمام فخر الدين الرازي إن الواو تفيد الجمع المطلق والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ففي سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) تقدم في سورة البقرة الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى ۞ قوله تعالى (فوسوس لهما الشيطان) يعني فوسوس إليهما والوسوسة حديث يلقيه الشيطان في قلب الإنسان يقال وسوس إذا تكلم كلاماً خفياً مكرراً وأصله من صوت الحلي ومعنى وسوس لهما فعل الوسوسة

(ولا تجد أكثرهم شاكرين) مؤمنين قاله ظناً فأصاب لقوله ولقد صدق عليهم إبليس ظنه أو سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى إياهم (قال اخرج منها) من الجنة أو من السماء (مذؤوما) معيباً من ذأمه إذا ذمه والذأم والذم العيب (مدحورا) مطروداً مبعداً من رحمة الله واللام في (لمن تبعك منهم) موطئة للقسم وجوابه (لأملأن جهنم) وهو ساد مسد جواب الشرط (منكم) منك ومنهم فغلب ضمير المخاطب (أجمعين ويا آدم) وقلنا يا آدم بعد إخراج إبليس من الجنة (اسكن أنت وزوجك الجنة) اتخذاها مسكناً (فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا) فتصيرا (من الظالمين فوسوس لهما الشيطان) وسوس إذا تكلم كلاماً خفياً يكرره وهو غير متعد ورجل موسوس بكسر الواو ولا يقال موسوس بالفتح ولكن موسوس له وموسوس إليه وهو الذي يلقي إليه الوسوسة ومعنى وسوس له فعل الوسوسة لأجله ووسوس إليه ألقاها إليه

وألقاها ليبس فان قلت كيف وسوس اليهما وآدم وحواء في الجنة وابليس قد أخرج منها فلت ذكر الامام فخر الدين الرازي في الجواب عن هذا السؤال عن الحسن أنه قال كان يوسوس في الارض الى السماء الى الجنة بالقوة القوية التي جعلها الله تعالى له وقال أبو مسلم الاصبهاني بل كان آدم وابليس في الجنة لان هذه الجنة كانت بعض جنات الارض والذي يقوله بعض الناس من أن ابليس دخل في جوف الحية فدخلت به الحية الى الجنة فقصة مشهورة ركيكة وقال آخرون ان آدم وحواء ربما قربا من باب الجنة وكان ابليس واقفا من خارج الجنة على بابها فقرب أحدهما من الآخر فحصلت الوسوسة هناك * فان قلت ان آدم عليه الصلاة والسلام قد عرف ما بينه وبين ابليس من العداوة فكيف قبل قوله * قلت يحتمل أن يقال ان ابليس لقي آدم مرارا كثيرة ورغبه في أكل هذه الشجرة بطرق كثيرة منها قوله نيل الخلد ومنها قوله وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين فلأجل هذه المواظبة والمداومة على هذا التمويه أثر كلام ابليس في آدم حتى أكل من الشجرة (ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما) يعني ليظهر لهما ما غطي وستر من عوراتهما وقوله ما ووري مأخوذ من المواراة وهي الستر يقال واريته بمعنى سترته والسوأة فرج الرجل والمرأة سمي بذلك لان ظهوره يسوء الانسان وفي الآية دليل على ان كشف العورة من المنكرات المحرمات واللام في قوله ليبدي لهما لام العاقبة وذلك لان ابليس لم يقصد بالوسوسة ظهور عوراتهما وانما كان حملهما على المعصية فقط فكان عاقبة أمرهما ان بدت عوراتهما (وقال) يعني وقال ابليس لآدم وحواء (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة) يعني عن الاكل من هذه الشجرة (الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) يعني انما نهاكما عن هذه الشجرة لكي لا تكونا ملكين من الملائكة تعلمان الخير والشر أو تكونا من الباقين الذين لا يموتون وانما أطمع ابليس آدم بهذه الآية لانه علم ان الملائكة لهم المنزلة والقرب من العرش فاستشرف لذلك آدم وأحب أن يعيش مع الملائكة لطول أعمارهم أو يكون مع الخالدين الذين لا يموتون أبدا * فان قلت ظاهر الآية يدل على ان الملك أفضل من الانبياء لان آدم عليه الصلاة والسلام طلب أن يكون من الملائكة وهذا يدل على فضلهم عليه * قلت ليس في ظاهر الآية ما يدل على ذلك لان آدم عليه الصلاة والسلام لما طلب أن يكون من الملائكة كان ذلك الطلب قبل أن يتشرف بالنبوة وكانت هذه الواقعة قبل نبوة آدم عليه الصلاة والسلام فطلب أن يكون من الملائكة أو من الخالدين وعلى تقدير أن تكون هذه الواقعة في زمان النبوة بعد ان شرف بها آدم انما طلب أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم لا لانهم أفضل منه يعني بالتحقيق بهم في الفضل لانه طلب اما أن يكون من الملائكة لطول أعمارهم أو من الخالدين الذين لا يموتون أبدا وقوله تعالى (وقاسمهما) أي وأقسم وحلف لهما وهذا من المفاعلة التي تختص بالواحد (اني لكما لمن الناصحين) قال قتادة حلف لهما بالله تعالى حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله فقال اني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما وقال بعض العلماء من خادعنا بالله خدعنا له (فدلاهما بغرور) يعني فخدعهما بغرور يقال ما زال فلان يدلي فلانا بغرور يعني ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل قال الازهري وأصله ان الرجل العطشان يتدلى في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه والغرور واظهار النصح مع ابطان الغش وهو ان ابليس حطهما من منزلة الطاعة الى حالة المعصية لان التدلي لا يكون الا من علو الى أسفل ومعنى الآية ان ابليس لعنه الله تعالى غر آدم باليمين الكاذبة وكان آدم عليه الصلاة والسلام يظن ان أحدا لا يحلف بالله كاذبا وابليس أول من حلف بالله كاذبا فلما حلف ابليس ظن آدم انه صادق فاغتر به (فلما ذاقا الشجرة) يعني طعما من ثمرة الشجرة

(ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما) ليكشف لهما ما ستر عنهما من عوراتهما وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور وأنه لم يزل مستقبحا في الطباع والعقول فان قلت ما للواو المضمومة في ووري لم تقلب همزة كما أبدلت في أويصل تصغير واصل وأصله وويصل فقلبت الواو همزة كراهة لاجتماع واوين قلت لان الثانية مدة كألف وارى فكما لم يجب همزها في واعد لم يجب في ووري وهذا لان الواوين اذا تحركتا ظهر فيهما من الثقل ما لا يكون فيهما اذا كانت الثانية ساكنة وهذا مدرك بالضرورة فالتزموا ابدالها في موضع الثقل لا في غيره وقرأ عبد الله أوري بالقلب (وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين) الا كراهة ان تكونا ملكين تعلمان الخير والشر وتستغنيان عن الغذاء وقرئ ملكين لقوله وملك لا يبلى (أو تكونا من الخالدين) من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين (وقاسمهما) وأقسم لهما (اني لكما لمن الناصحين) وأخرج قسم ابليس على زنة المفاعلة لانه لما كان منه القسم ومنهما التصديق فكأنها من اثنين (فدلاهما) فنزلهما الى الاكل من الشجرة (بغرور) بما غرهما به من القسم بالله وانما يخدع المؤمن بالله وعن ابن عمر رضي الله عنهما من خدعنا بالله انخدعنا له (فلما ذاقا الشجرة) وجدا طعمها آخذين في الأكل منها وهي السنبلة أو الكرم

وفيه دليل على أنهما تناولا اليسير من ذلك قصداً إلى معرفة طعمه لأن الذوق يدل على الأكل اليسير (بدت لهما سوآتهما) يعني ظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس رضي الله عنهما قبل أن ازدردا أخذتهما العقوبة والعقوبة أن ظهرت لهما عوراتهما وتهافت عنهما لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما ووري عنه من عورة صاحبه وكانا لا يريان ذلك وقال وهب كان لباسهما من النور لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوآتهما وقال قتادة كان لباس آدم في الجنة ظفراً كله فلما وقع في الخطيئة قشط عنه وبقيت أظفاره (وطفقا) يعني وأقبلا وجعلا (يخصفان عليهما من ورق الجنة) يعني أنهما أقبلا على سوآتهما يرقعان ويلزقان عليهما من ورق الجنة وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب وقال الزجاج يجعلان ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما وفي الآية دليل على أن كشف العورة من ابن آدم قبيح ألا ترى أنهما بادرا إلى الستر لعورتهما لما تقرر في عقلهما من قبح كشفها روي عن أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان آدم صلى الله عليه وسلم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت به شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال لها أرسليني قالت لست مرسلتك فناداه ربه يا آدم أمني تفر قال لا يا رب ولكني استحييتك ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري من طريق مرفوعاً وموقوفاً ﴿ قوله تعالى (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) يعني أن الله تعالى نادى آدم وحواء وخاطبهما ألم أنهكما عن أكل ثمر هذه الشجرة (وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) يعني ألم أعلمكما أن الشيطان قد أبان عداوته لكما بترك السجود حسداً وعداوة قال ابن عباس رضي الله عنهما لما أكل آدم من الشجرة قيل له لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها قال حواء أمرتني قال فإني أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً فرنت حواء عند ذلك رنة فقيل لها الرنة عليك وعلى بناتك وقال محمد بن قيس ناداه ربه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك قال أطعمتني حواء فقال لحواء لم أطعمتيه قالت أمرتني الحية فقال للحية لم أمرتها قالت أمرني إبليس فقال الله تعالى أما أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة فتدمين كل شهر وأما أنت يا حية فأقطع رجليك فتمشين على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك وأما أنت يا إبليس فملعون مطرود مدحور يعني من الرحمة وقيل ناداه ربه يا آدم أما خلقتك بيدي أما نفخت فيك من روحي أما أسجدت لك ملائكتي أما أسكنتك جنتي في جواري ﴿ قوله عز وجل (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) هذا إخبار من الله عز وجل عن آدم عليه الصلاة والسلام وحواء عليها السلام واعترافهما على أنفسهما بالذنب والندم على ذلك والمعنى قالا ربنا إنا ظلمنا أنفسنا بالأكل من الشجرة التي نهيتنا عنها وخالفنا أمرك وطاعة عدونا وعدوك فيما لم يكن لنا أن نطيعه فيه من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها (وإن لم تغفر لنا) يعني وإن لم تستر لنا ذنبنا (وترحمنا) يعني وتتفضل علينا برحمتك (لنكونن من الخاسرين) يعني من الهالكين قال وهب قال آدم يا رب أرأيت إن تبت إليك واستغفرتك قال إذاً أدخلك الجنة وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله أن ينظره فأعطى كل واحد منهما ما سأل قال الضحاك في قوله ربنا ظلمنا أنفسنا قال هي الكلمات التي تلقاها آدم عليه الصلاة والسلام من ربه عز وجل

﴿فصل﴾ وقد استدل من يرى صدور الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية وأجيب عنه بأن درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الرفعة والعلو والمعرفة بالله عز وجل مما حملهم على الخوف منه والإشفاق من المؤاخذة بما لم يؤاخذ به غيرهم وأنهم ربما عوتبوا بأمور صدرت منهم على سبيل التأويل والسهو فهم بسبب ذلك خائفون وجلون وهي ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم وسيئات بالنسبة إلى كمال طاعتهم لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصي غيرهم فكان ما صدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم وعمارة بواطنهم بالوحي السماوي والذكر القدسي وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله عز وجل ذنوباً

(بدت لهما سوآتهما) ظهرت لهما عوراتهما لتهافت اللباس عنهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر وقيل كان لباسهما من جنس الأظفار أي كالظفر بياضاً في غاية اللطف واللين فبقي عند الأظفار تذكراً للنعم وتجديداً للندم (وطفقا) وجعلا يقال طفق يفعل كذا أي جعل (يخصفان عليهما من ورق الجنة) يخصفان على عورتهما من ورق التين أو الموز ورقة فوق ورقة لتستراها كما تخصف النعل (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) هذا عتاب من الله وتنبيه على الخطأ وروي أنه قال لآدم عليه السلام ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة فقال بلى ولكن ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً قال فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كداً فأهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وعجن وطحن وخبز (وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فيه دليل لنا

وهي حسنات بالنسبة إلى غيرهم كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين يعني أنهم يرونها بالنسبة إلى أحوالهم كالسيئات وهي حسنات لغيرهم وقد تقدم في سورة البقرة أن أكل آدم من الشجرة هل كان قبل النبوة أو بعدها والخلاف فيه فأغنى عن الإعادة والله أعلم ۞ قوله تعالى (قال اهبطوا) قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله إن الذي تقدم ذكره هو آدم وحواء وإبليس فقوله اهبطوا يجب أن يتناول هؤلاء الثلاثة وقال الطبري قال الله تعالى لآدم وحواء وإبليس والحية اهبطوا يعني من السماء إلى الأرض قال السدي رحمه الله قوله تعالى اهبطوا يعني إلى الأرض آدم وحواء وإبليس والحية (بعضكم لبعض عدو) يعني أن العداوة ثابتة بين آدم وإبليس والحية وذرية كل واحد من آدم وإبليس (ولكم في الأرض مستقر) يعني موضع قرار تستقرون فيه وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى ولكم في الأرض مستقر يعني القبور (ومتاع إلى حين) يعني ولكم فيها متاع تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا أو إلى انقضاء آجالكم ومعنى الآية أن الله عز وجل لما أمر آدم وحواء وإبليس والحية بالهبوط أعلمهم إذا أهبطهم إلى الأرض أن بعضهم لبعض عدو وأن لهم في الأرض موضع قرار يستقرون فيه إلى انقضاء آجالهم ثم يقبرون في قبورهم إلى انقطاع الدنيا وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ومتاع إلى حين يعني إلى يوم القيامة وإلى انقطاع الدنيا (قال فيها تحيون) يعني قال الله عز وجل لآدم وذريته وإبليس وأولاده فيها تحيون يعني في الأرض تعيشون أيام حياتكم (وفيها تموتون) يعني وفي الأرض تكون وفاتكم وموضع قبوركم (ومنها تخرجون) يعني ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم للحساب يوم القيامة ۞ قوله عز وجل (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم) اعلم أن الله عز وجل لما أمر آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض وجعلها مستقرا لهم أنزل عليهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح الدين والدنيا فكان مما أنزل عليهم اللباس الذي يحتاج إليه في الدين والدنيا أما منفعته في الدين فإنه يستر العورة وستر العورة شرط في صحة الصلاة وأما منفعته في الدنيا فإنه يمنع الحر والبرد فامتن الله على عباده بأن أنزل عليهم لباسا يواري سوآتهم فقال تعالى يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم يعني لباسا تسترون به عوراتكم فإن قلت ما معنى قوله قد أنزلنا عليكم لباسا قلت ذكر العلماء فيه وجوها أحدها أنه بمعنى خلق أي خلقنا لكم لباسا أو بمعنى رزقناكم لباسا الوجه الثاني أن الله تعالى أنزل المطر من السماء وهو سبب نبات اللباس فكأنه أنزله عليهم الوجه الثالث أن جميع بركات الأرض منسوبة إلى السماء وإلى الإنزال كما قال تعالى وأنزلنا الحديد (وريشا) الريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كالثياب للإنسان فاستعير للإنسان لأنه لباسه وزينته والمعنى وأنزلنا عليكم لباسين لباسا يواري سوآتكم ولباسا يزينكم لأن الزينة غرض صحيح كما قال تعالى لتركبوها وزينة وقال ولكم فيها جمال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله جميل يحب الجمال واختلفوا في معنى الريش المذكور في الآية فقال ابن عباس رضي الله عنهما وريشا يعني مالا وهو قول مجاهد والضحاك والسدي لأن المال مما يتزين به ويقال تريش الرجل إذا تمول وقال ابن زيد الريش الجمال وهو يرجع إلى الزينة أيضا وقيل إن الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب والمتاع مما يلبس أو يفرش والريش أيضا المتاع والأموال عندهم وربما استعملوه في الثياب والكسوة دون سائر المال يقال إنه لحسن الريش أي لحسن الثياب وقيل الريش والرياش يستعمل أيضا في الخصب ورفاهية العيش (ولباس التقوى) اختلف العلماء في معناه فمنهم من حمله على نفس الملبوس وحقيقته ومنهم من حمله على المجاز أما من حمله على نفس الملبوس فاختلفوا أيضا في معناه فقال ابن الأنباري لباس التقوى هو اللباس الأول وإنما أعاده إخبارا أن ستر العورة من التقوى وذلك خير وقيل إنما أعاده لأجل أن بعض من كان من العرب في الجاهلية كانوا يتعبدون بالتعري وخلع الثياب في الطواف بالبيت فأخبر أن ستر العورة في الطواف هو لباس التقوى وذلك

وإبليس هبط من قبل ويحتمل أنه هبط إلى السماء ثم هبطوا جميعا إلى الأرض (بعضكم لبعض عدو) في موضع الحال أي متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه (ولكم في الأرض مستقر) استقرار أو موضع استقرار (ومتاع) واستمتاع بعيش (إلى حين) إلى انقضاء آجالكم وعن ثابت البناني لما أهبط آدم عليه السلام وحضرته الوفاة وأحاطت به الملائكة جعلت حواء تدور حولهم فقال لها خلي ملائكة ربي فإنما أصابني ما أصابني فيك فلما توفي غسلته الملائكة بماء وسدر وترا وحنطته وكفنته في وتر من الثياب وحفروا له قبرا ودفنوه بسرنديب بأرض الهند وقالوا لبنيه هذه سنتكم بعده (قال فيها تحيون) في الأرض (وفيها تموتون ومنها تخرجون) للثواب والعقاب تخرجون مرة وعلى (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا) جعل ما في الأرض منزلا من السماء لأن أصله من الماء وهو منها (يواري سوآتكم) يستر عوراتكم (وريشا) لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته أي أنزلنا عليكم لباسين لباسا يواري سوآتكم ولباسا يزينكم (ولباس التقوى) ولباس الورع الذي يقي العقاب وهو مبتدأ وخبره الجملة وهي

خير وقال زيد بن علي رحمه الله تعالى لباس التقوى آلات الحرب التي تتقى بها في الحروب كالدرع والمغفر ونحو ذلك وقيل لباس التقوى هو الصوف والخشن من الثياب التي يلبسها أهل الزهد والورع وقيل هو ستر العورة في الصلاة وأما من حمل لباس التقوى على المجاز فاختلفوا في معناه فقال قتادة والسدي لباس التقوى هو الايمان لان صاحبه يتقى به من النار وقال ابن عباس رضي الله عنهما لباس التقوى هو العمل الصالح وقال الحسن رضي الله عنه هو الحياء لانه يحث على التقوى وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لباس التقوى هو السمت الحسن وقال عروة بن الزبير رضي الله عنه لباس التقوى خشية الله وقال الكلبي هو العفاف فعلى هذه الاقوال ان لباس التقوى خير لصاحبه اذا أخذ به مما خلق الله من لباس التجمل وزينة الدنيا وهو قوله تعالى (ذلك خير) يعني ان لباس التقوى خير من لباس الجمال والزينة وأنشدوا في المعنى

اذا أنت لم تلبس ثيابا من التقى ۞ عريت وان وارى القميص قميص

وقوله تعالى (ذلك من آيات الله) يعني انزال اللباس عليكم يا بني آدم من آيات الله الدالة على معرفته وتوحيده (لعلهم يذكرون) يعني لعلهم يذكرون نعمته عليهم فيشكرونها ۞ قوله تعالى (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) قيل هذا خطاب للذين كانوا يطوفون بالبيت عراة والمعنى لا يخدعنكم بغروره ولا يضلنكم فيزين لكم كشف عوراتكم في الطواف وانما ذكر قصة آدم هنا لشدة عداوة ابليس له ليحذر بذلك أولاد آدم فقال تعالى يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة يعني آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام والمعنى ان من قدر على اخراج أبويكم من الجنة بوسوسته وشدة عداوته فبأن يقدر على فتنتكم بطريق الاولى فحذر الله عز وجل بني آدم وأمرهم بالاحتراز من وسوسة الشيطان وغروره وتزيينه القبائح وتحسينه الافعال الرديئة في قلوب بني آدم فهذه فتنته التي نهى الله تعالى عباده عنها وحذرهم منها ۞ وقوله تعالى (ينزع عنهما لباسهما) انما أضاف نزع اللباس الى الشيطان وان لم يباشر ذلك لان نزع لباسهما كان بسبب وسوسة الشيطان وغروره فاسند اليه واختلفوا في اللباس الذي نزع عنهما فقال ابن عباس رضي الله عنهما كان لباسهما الظفر فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وبقيت الاظفار تذكرة وزينة ومنافع وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى كان لباس آدم وحواء نورا وقال مجاهد كان لباسهما التقى وفي رواية عنه التقوى وقيل ان لباسهما من ثياب الجنة وهذا القول أقرب لان اطلاق اللباس ينصرف اليه ولان النزع لا يكون الا بعد اللبس (ليريهما سوآتهما) يعني ليرى آدم عورة حواء وترى حواء عورة آدم وكان قبل ذلك لا يرى بعضهم سوأة بعض (انه يراكم هو وقبيله) يعني ان ابليس يراكم يا بني آدم هو وقبيله انما أعاد الكناية في قوله هو ليحسن العطف والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضهم بعضا وقال الليث كل جيل من جن أو انس قبيل ومعنى يراكم هو وقبيله أي هو ومن نسله وحكى أبو عبيدة عن أبي زيد القبيل ثلاثة فصاعدا من قوم شتى والجمع قبل والقبيلة بنو أب واحد وقال الطبري قبيله يعني صنفه وجيله الذي هو منهم وهو واحد يجمع على قبل وهم الجن وقال مجاهد الجن والشياطين وقال ابن زيد قبيله نسله وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو وولده ۞ وقوله (من حيث لا ترونهم) يعني أنتم يا بني آدم قال العلماء رحمهم الله ان الله تعالى خلق في عيون الجن ادراكا يرون بذلك الادراك الانس ولم يخلق في عيون الانس هذا الادراك فلم يروا الجن وقالت المعتزلة الوجه في ان الانس لا يرون

(ذلك خير) لانه قيل ولباس التقوى هو خير لان أسماء الاشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع الى عود الذكر أو ذلك صفة للمبتدأ وخير خبر المبتدأ [...] كأنه قال ولباس التقوى المشار اليه خير أو لباس التقوى خبر مبتدأ محذوف أي وهو لباس التقوى أي ستر العورة لباس المتقين ثم قال ذلك خير وقيل ولباس أهل التقوى من الصوف والخشن ولباس التقوى مدني وشامي وعلي عطفا على لباسا أي وأنزلنا عليكم لباس التقوى (ذلك من آيات الله) الدالة على فضله ورحمته على عباده يعني انزال اللباس (لعلهم يذكرون) فيعرفوا عظيم النعمة فيه وهذه الاشياء واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت وخصف الورق عليها اظهارا للمنة فيما خلق من اللباس ولما في العري من الفضيحة واشعارا بان التستر من التقوى (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) لا يخدعنكم ولا يضلنكم بان لا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها (ينزع عنهما لباسهما) حال أي أخرجهما نازعا لباسهما بان كان سببا في ان نزع عنهما والنهي في الظاهر للشيطان وفي المعنى لبني آدم أي لا تتبعوا الشيطان فيفتنكم (ليريهما سوآتهما) عوراتهما (انه) الضمير للشان والحديث (يراكم هو) تعليل للنهي وتحذير من فتنته بانه بمنزلة العدو المداجي يكيدكم من حيث لا تشعرون (وقبيله) وذريته أو وجنوده من الشياطين وهو عطف على الضمير في يراكم المؤكد بهو ولم يعطف عليه لان معمول الفعل هو المستكن دون هذا البارز وانما يعطف على ما هو معمول الفعل (من حيث لا ترونهم) قال ذو النون ان كان هو يراك من حيث لا تراه فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه وهو الله الكريم الستار الرحيم الغفار

لا يرون الجن رقة أجسام الجن ولطافتها والوجه في رؤية الجن للإنس كثافة أجسام الإنس والوجه في رؤية الجن بعضهم بعضا أن الله تعالى قوى شعاع أبصار الجن وزاد فيها حتى يرى بعضهم بعضا ولو جعل في أبصارنا هذه القوة لرأيناهم ولكن لم يجعلها لنا وحكى الواحدي وابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وجعلت صدور بني آدم مساكن لهم إلا من عصمه الله تعالى كما قال تعالى الذي يوسوس في صدور الناس فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم وقال مجاهد قال إبليس جعل لنا أربع نرى ولا نرى ونخرج من تحت الثرى ويعود شيخنا فتى وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى إن عدوا تراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصمه الله تعالى (إنا جعلنا الشياطين أولياء) يعني أعوانا وقرناء (للذين لا يؤمنون) قال الزجاج يعني سلطناهم عليهم يزيدون في غيهم ۞ قوله عز وجل (وإذا فعلوا فاحشة) قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد هي طوافهم بالبيت عراة الرجال والنساء وقال عطاء هي الشرك والفاحشة اسم لكل فعل قبيح فيدخل فيه جميع المعاصي والكبائر فيمكن حملها على الإطلاق وإن كان السبب مخصوصا بما ورد من طوافهم عراة ولما كانت هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها ويعتقدون أنها طاعات وهي في نفسها فواحش ذمهم الله تعالى عليها ونهاهم عنها فاحتجوا عن هذه الأفعال بما أخبر الله عنهم وهو ۞ قوله تعالى (قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) فذكروا لأنفسهم عذرين أحدهما التقليد وهو قولهم وجدنا على هذا الفعل آباءنا وهذا التقليد باطل لأنه لا أصل له والعذر الثاني قولهم والله أمرنا بها وهذا العذر أيضا باطل وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) والمعنى أن هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها هي في أنفسها قبيحة منكرة فكيف يأمر الله تعالى بها فالله لا يأمر بالفحشاء بل يأمر بما فيه مصالح العباد ثم قال تعالى ردا عليهم (أتقولون على الله ما لا تعلمون) يعني أتسمعتم كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون ۞ قوله تعالى (قل أمر ربي بالقسط) أي قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون أمر ربي بالقسط يعني بالعدل وهذا قول مجاهد والسدي وقال ابن عباس رضي الله عنهما بلا إله إلا الله فالأمر بالقسط في هذه الآية يشتمل على معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله وأنه واحد لا شريك له (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) فإن قلت قل أمر ربي بالقسط خبر وقوله وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد أمر وعطف الأمر على الخبر لا يجوز فما معناه قلت فيه إضمار وحذف تقديره قل أمر ربي بالقسط وقال أقيموا وجوهكم عند كل مسجد فحذف قال لدلالة الكلام عليه ومعنى الآية في قول مجاهد والسدي وجهوا وجوهكم حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة وقال الضحاك معناه إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي أو في مسجد قومي وقيل معناه اجعلوا سجودكم لله خالصا (وادعوه مخلصين له الدين) أي واعبدوه مخلصين العبادة والطاعة والدعاء لله عز وجل لا لغيره (كما بدأكم تعودون) قال ابن عباس رضي الله عنهما إن الله عز وجل بدأ خلق بني آدم مؤمنا وكافرا كما قال تعالى هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا وعلى هذا القول قوله في سياق الآية فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة فإنه كالتفسير له ويدل على صحة ذلك ما روي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث كل عبد على ما مات عليه أخرجه مسلم زاد البغوي في روايته المؤمن على إيمانه والكافر على كفره وقال محمد بن كعب من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة كما أن إبليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة ومن ابتدئ خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل بأعمال أهل

(إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) فيه دلالة خلق الأفعال (وإذا فعلوا فاحشة) ما تبالغ في قبحه من الذنوب وهو طوافهم بالبيت عراة وشركهم (قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) أي إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فقلدوهم وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها حيث أقرنا عليها إذ لو كرهها لنقلنا عنها وهما باطلان لأن أحدهما تقليد للجهال والثاني افتراء على ذي الجلال (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) إذ المأمور به لا بد أن يكون حسنا وإن كان فيه على مراتب على ما عرف في أصول الفقه (أتقولون على الله ما لا تعلمون) استفهام إنكار وتوبيخ (قل أمر ربي بالقسط) بالعدل وبما هو حسن عند كل عاقل فكيف يأمر بالفحشاء (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) وقيل أقيموا وجوهكم أي اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود (وادعوه) واعبدوه (مخلصين له الدين) أي الطاعة مبتغين بها وجهه خالصا (كما بدأكم تعودون) كما أنشأكم

الشقاوة كان السحرة كانوا يعملون عمل أهل الشقاوة ثم صاروا إلى السعادة ويصحح هذا القول ما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة أخرجه مسلم وقال الحسن ومجاهد معنى الآية كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئا فأحياكم ثم يميتكم كذلك تعودون أحياء يوم القيامة ويشهد لصحة هذا القول ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين أخرجه البخاري ومسلم ۞ وقوله تعالى (فريقا هدى) يعني هداهم الله إلى الإيمان به ومعرفته ووفقهم لطاعته وعبادته (وفريقا حق عليهم الضلالة) يعني وخذلهم ولم يهدهم وحقت عليهم الضلالة بما سبقت لهم في الأزل أنهم أشقياء وفيه دليل على أن الهدى والضلالة من الله عز وجل ويدل عليه ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل أخرجه الترمذي ۞ وقوله تعالى (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) يعني أن الفريق الذين حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين نصراء وأولياء وأطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصي والمعنى أن الداعي الذي دعاهم إلى الكفر والمعاصي هو أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله لأن الشياطين لا يقدرون على إضلال أحد وقوله (ويحسبون أنهم مهتدون) يعني أنهم مع ضلالتهم يظنون ويحسبون أنهم على هداية وحق وفيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند في الكفر سواء ۞ قوله عز وجل (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يعيرني تطوافا تجعله على فرجها وتقول

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية خذوا زينتكم عند كل مسجد أخرجه مسلم وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل وذكر الحديث وفي رواية أخرى عنه فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا وقال مجاهد كان حي من أهل اليمن كان أحدهم إذا قدم حاجا أو معتمرا يقول لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت فيه فيقول من يعيرني مئزرا فإن قدر عليه وإلا طاف عريانا فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون خذوا زينتكم عند كل مسجد وقال الزهري إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس وهم قريش وأحلافهم فمن جاء من غير الحمس وضع ثيابه وطاف في ثوب أحمسي ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه فإن لم يجد من يعيره من الحمس فإنه يلقي ثيابه ويطوف عريانا وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها إذا قضى طوافه وحرمها أي جعلها حراما عليه فلذلك قال الله تعالى خذوا زينتكم عند كل مسجد والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة قال مجاهد ما يواري عورتك ولو عباءة وقال الكلبي الزينة ما يواري العورة عند كل مسجد لطواف وصلاة وقوله تعالى خذوا زينتكم أمر وظاهره الوجوب وفيه دليل على أن ستر العورة واجب في الصلاة والطواف وفي كل حال ۞ وقوله تعالى (وكلوا واشربوا) قال الكلبي كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله فأنزل الله عز وجل وكلوا واشربوا يعني اللحم والدسم (ولا تسرفوا) يعني بتحريم ما لم يحرم عليكم من أكل اللحم والدسم قال ابن عباس رضي الله عنهما كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وقال علي بن الحسين بن واقد قد جمع الله الطب كله

ابتداء خلقكم احتج عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق والمعنى أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم فاعبدوه مخلصين (فريقا هدى) وهم المسلمون (وفريقا) أي وأضل فريقا (حق عليهم الضلالة) وهم الكافرون (ثم) بين الفريق الذي حق عليهم الضلالة (اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) أي أنصارا (ويحسبون أنهم مهتدون) والآية حجة لنا على أهل الاعتزال في الهداية والإضلال (يا بني آدم خذوا زينتكم) لباس زينتكم (عند كل مسجد) كلما صليتم وقيل الزينة المشط والطيب والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة لأن الصلاة مناجاة الرب فيستحب لها التزين والتعطر كما يجب التستر والتطهر (وكلوا) من اللحم والدسم (واشربوا ولا تسرفوا) بالشروع في الحرام أو في مجاوزة الشبع

في نصف آية فقال وكلوا واشربوا ولا تسرفوا وفي الآية دليل على أن جميع المطعومات والمشروبات حلال إلا ما خصه الشرع بدليل في التحريم لأن الأصل في جميع الأشياء الإباحة إلا ما حظره الشارع وثبت تحريمه بدليل منفصل (إنه لا يحب المسرفين) يعني أن الله تعالى لا يحب من أسرف في المأكول والمشروب والملبوس وفي هذه الآية وعيد وتهديد لمن أسرف في هذه الأشياء لأن محبة الله تعالى عبارة عن رضاه عن العبد وإيصال الثواب إليه وإذا لم يحبه علم أنه تعالى ليس هو راضياً عنه فدلت الآية على الوعيد الشديد في الإسراف ﴿ قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) يعني قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة من حرم عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتلبسوها في الطواف وغيره ثم في تفسير الزينة قولان أحدهما وهو قول جمهور المفسرين أن المراد من الزينة هنا اللباس الذي يستر العورة والقول الثاني ذكره الإمام فخر الدين الرازي أنه يتناول جميع أنواع الزينة فيدخل تحته جميع أنواع الملبوس والحلي ولولا أن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخلا في هذا العموم ولكن النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال دون النساء (والطيبات من الرزق) يعني ومن حرم الطيبات من الرزق التي أخرجها الله لعباده وخلقها لهم ثم ذكروا في معنى الطيبات في هذه الآية أقوالاً أحدها أن المراد بالطيبات اللحم والدسم الذي كانوا يحرمونه على أنفسهم أيام الحج معظمين بذلك حجهم فرد الله تعالى عليهم بقوله قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق والقول الثاني وهو قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة أن المراد بذلك ما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب قال ابن عباس رضي الله عنهما إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله تعالى من الزرع وغيرها وهو قول الله تعالى قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً وهو هذا وأنزل الله قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق والقول الثالث أن الآية على العموم فيدخل تحته كل ما يستلذ ويشتهى من سائر المطعومات إلا ما نهي عنه وورد نص بتحريمه (قل هي للذين آمنوا) يعني قل يا محمد إن الطيبات التي أخرج الله من رزقه للذين آمنوا (في الحياة الدنيا) غير خالصة لهم لأنه يشركهم فيها المشركون (خالصة) لهم (يوم القيامة) يعني لا يشركهم فيها أحد لأنه لا حظ للمشركين يوم القيامة في الطيبات من الرزق وقيل معناه خالصة لهم يوم القيامة من التكدير والتنغيص والغم لأنه قد يقع لهم في الحياة الدنيا في تناول الطيبات من الرزق كدر وتنغيص فأعلمهم أنها خالصة لهم في الآخرة من ذلك كله (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) يعني كذلك نبين الحلال مما أحللت والحرام مما حرمت لقوم علموا أني أنا الله وحدي لا شريك لي فأحلوا حلالي وحرموا حرامي ﴿ قوله عز وجل (قل إنما حرم ربي الفواحش) جمع فاحشة وهي ما قبح وفحش من قول أو فعل والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من الثياب ويطوفون بالبيت عراة ويحرمون أكل الطيبات مما أحل الله لهم إن الله لم يحرم ما تحرمونه أنتم بل أحله الله لعباده وطيبه لهم وإنما حرم ربي الفواحش من الأفعال والأقوال (ما ظهر منها وما بطن) يعني علانيته وسره (ق) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه أصل الغيرة ثوران القلب وهيجان الحفيظة بسبب المشاركة فيما يختص به الإنسان ومنه غيرة أحد الزوجين

(إنه لا يحب المسرفين) وعن ابن عباس رضي الله عنهما كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وكان للرشيد طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين بن واقد ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان فقال له علي قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه وهو قوله وكلوا واشربوا (٨٩) ولا تسرفوا فقال النصراني ولم يرد عن رسولكم شيء في الطب فقال قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة وهي قوله عليه السلام المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عودته فقال النصراني ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً ثم استفهم إنكاراً على محرم الحلال بقوله (قل من حرم زينة الله) من الثياب وكل ما يتجمل به (التي أخرج لعباده) أي أصلها يعني القطن من الأرض والقز من الدود (والطيبات من الرزق) والمستلذات من المآكل والمشارب وقيل كانوا إذا أحرموا حرموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا) غير خالصة لهم لأن المشركين شركاؤهم فيها (خالصة يوم القيامة) لا يشركهم فيها أحد ولم يقل للذين آمنوا ولغيرهم لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة والكفار تبع لهم خالصة بالرفع نافع فهي مبتدأ خبره للذين آمنوا وفي الحياة الدنيا ظرف للخبر أو خالصة خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف أي هي خالصة وغيره نصبها على الحال من الضمير الذي في الظرف الذي هو الخبر أي هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال خلوصها يوم القيامة (كذلك نفصل الآيات) نميز الحلال من الحرام (لقوم يعلمون) أنه لا شريك له (قل إنما حرم ربي الفواحش) ربي حمزة الفواحش ما تفاحش قبحه أي تزايد (ما ظهر منها وما بطن)

على الآخر لاختصاص كل واحد منهما بما صاحبه ولا يرضى أن يشاركه أحد فيه وقد يذهب عنه ويعمس سره وأما المحرمات وصف الله الفواحش بما هو معلوم من ذلك وغير معلوم ويدل على ذلك قوله ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقد يحتمل أن تكون غيرته تغيير حال فاعل ذلك بعقاب والله أعلم ﴿ وقوله تعالى (والإثم) يعني وحرم الإثم واختلفوا في الفرق بين الفاحشة والإثم فقيل الفواحش الكبائر لأنه قد فاحش قبحها وتزايد والإثم عبارة عن الصغائر من الذنوب فعلى هذا يكون معنى الآية قل إنما حرم ربي الكبائر والصغائر ورده قل أن الفاحشة اسم لما يجب فيه الحد من الذنوب والإثم اسم لما لا يجب فيه الحد وهذا القول قريب من الأول واعترض على هذين القولين بأن الإثم في أصل اللغة الذنب فيدخل فيه الكبائر والصغائر وقيل إن الفاحشة اسم للكبيرة والإثم اسم لمطلق الذنب سواء كان كبيرا أو صغيرا والفائدة فيه أنه تعالى لما حرم الكبيرة بقوله قل إنما حرم ربي الفواحش أردفه بتحريم مطلق الذنب لئلا يتوهم متوهم أن التحريم مقصور على الكبائر فقط وقيل إن الفاحشة وإن كانت بحسب اللغة اسما لكل ما تفاحش من قول أو فعل لكنه في عرف العرف مخصوص بالزنا لأنه إذا أطلق لفظ الفاحشة فهم منه الزنا فعلى هذا يجب حمل لفظ الفاحشة على الزنا وأما الإثم فقد قيل إنه اسم من أسماء الخمر وقول الحسن وعطاء قال الجوهري قد يسمى الخمر إثما واستدل عليه بقول الشاعر

شربت الإثم حتى ضل عقلي * كذاك الإثم يذهب بالعقول

وقال ابن سيده صاحب المحكم وعندي أن تسمية الخمر بالإثم صحيح لأن شربها إثم وهذا المعنى أظهر الفرق بين العقلاء وأنكر أبو بكر بن الأنباري تسمية الخمر بالإثم قال لأن العرب ما سمته إثما في جاهلية ولا في إسلام ولكن قد تكون الخمر داخلة تحت الإثم لقوله قل فيهما إثم كبير ﴿ وقوله تعالى (والبغي) أي وحرم البغي (بغير الحق) والبغي هو الظلم والكبر والاستطالة على الناس ومجاوزة الحد في ذلك كله ومعنى البغي بغير الحق هو أن يطلب ما ليس له عن قدرة فإذا طلب ماله بحق خرج من أن يكون بغيا (وأن تشركوا) أي وحرم أن تشركوا (بالله ما لم ينزل به سلطانا) فيه تهكم بالمشركين والكفار لأنه لا يجوز أن ينزل حجة وبرهانا بأن تشرك به غيره لأن الإقرار بشيء ليس على ثبوته حجة ولا برهان ممتنع فلما امتنع حصول الحجة والبينة على صحة القول بالشرك وجب أن يكون باطلا على الإطلاق * فإن قلت البغي والإشراك داخلان تحت الفاحشة والإثم لأن الشرك من أعظم الفواحش وأعظم الإثم وكذا البغي أيضا من الفواحش والإثم * قلت إنما أفردهما بالذكر للتنبيه على عظم قبحهما كأنه قال من الفواحش المحرمة البغي والشرك من جملته ثم نصه له ﴿ وقوله (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) تقدم تفسيره ﴿ قوله تعالى (ولكل أمة أجل) الأجل الوقت المؤقت لانقضاء وقت الشيء في هذا الأجل المذكور في الآية قولان أحدهما أنه أجل العذاب والمعنى أن لكل أمة كذبت رسلها وقتا معينا وأجلا مسمى أمهلهم الله إلى ذلك الوقت (فإذا جاء أجلهم) يعني فإذا حل وقت عذابهم (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعني ولا يؤخرون ولا يمهلون قدر ساعة ولا أقل من ساعة وإنما ذكرت الساعة لأنها أقل أسماء الأوقات في العرف وهذا حين سألوا نزول العذاب فأخبرهم الله تعالى أن لهم وقتا لا بد منه لذلك الوقت وهو وقت أجلهم كما تقدم وأنهم لا يؤخرون عنه ساعة ولا يتقدمون والقول الثاني أن المراد بهذا الأجل هو أجل الحياة والعمر فإذا انتهى ذلك الأجل وحضر الموت فلا يؤخر ساعة ولا يتقدم ساعة وعلى هذا القول يلزم أن يكون لكل واحد أجل لا يقع فيه تقديم ولا تأخير وإنما قال تعالى لكل أمة ولم يقل لكل أحد لأن أعمار أهل كل عصر كأنهم كانوا في مقدار العمر وعلى هذا القول أيضا يكون المقتول ميتا بأجله خلافا لمن يقول إن القاتل قطع عليه أجله ﴿ قوله عز وجل (يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم) هي إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط

سرها وعلانيتها (والإثم) أي شرب الخمر أو كل ذنب (والبغي) والظلم والكبر (بغير الحق) متعلق بالبغي محل (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) فيه النصب كأنه قال حرم الفواحش وحرم الشرك ينزل بالتخفيف مكي وبصري وفيه تهكم إذ لا يجوز أن ينزل برهانا على أن يشرك به غيره (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وأن تقولوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره (ولكل أمة أجل) وقت معين بأنهم فيه عذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا وهو وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) قيد ساعة لأنها أقل ما يستعمل في الإمهال (يا بني آدم إما يأتينكم) هي إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط لأن ما للشرط ولذا لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة (رسل منكم

وجواب

وسواء هذا الشرط هو الفاء وما بعده من الشرط والجزاء وهو قوله فمن اتقى وأصلح يعني منكم وانما قال رسل بلفظ الجمع وان كان المراد به واحدا وهو النبي صلى الله عليه وسلم لانه خاتم الانبياء وهو مرسل الى كافة الخلق فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم فعلى هذا يكون الخطاب في قوله يا بني آدم لاهل مكة ومن يلحق بهم وقيل أراد جميع الرسل وعلى هذا الخطاب في قوله يا بني آدم عام في كل بني آدم وانما قال منكم يعني من جنسكم ومثلكم من بني آدم لان الرسول اذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم لانهم يعرفونه ويعرفون أحواله فاذا أتاهم بما لا يليق بقدرته أو بقدرة أمثاله علم أن ذلك الذي أتى به معجزة له وحجة على من خالفه (يقصون عليكم آياتي) يعني يقرؤن عليكم كتابي وأدلة أحكامي وشرائعي التي شرعت لعبادي (فمن اتقى) يعني فمن اتقى الشرك ومخالفة رسلي (وأصلح) يعني العمل الذي أمرته به رسلي فعمل بطاعتي وتجنب معصيتي وما نهيته عنه (فلا خوف عليهم) يعني حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب (ولا هم يحزنون) يعني على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها (والذين كذبوا بآياتنا) يعني ومن جحدوا آياتنا وكذبوا رسلنا (واستكبروا عنها) يعني واستكبروا عن الايمان بها وبما جاءت به رسلنا (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعني لا يخرجون منها أبدا ﴿قوله تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني فمن أعظم ظلما ممن يقول على الله ما لم يقله أو يجعل له شريكا من خلقه وهو منزه عن الشريك والولد (أو كذب بآياته) يعني أو كذب بالقرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) يعني ينالهم حظهم مما قدر لهم وكتب في اللوح المحفوظ واختلفوا في ذلك النصيب على قولين أحدهما أن المراد به هو العذاب الذين لهم في الكتاب ثم اختلفوا فيه فقال الحسن والسدي ما كتب لهم من العذاب وقضى عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون وقال ابن عباس في رواية عنه كتب لمن يفتري على الله كذبا أن وجهه مسود وقال الزجاج هو المذكور في قوله فأنذرتكم نارا تلظى وفي قوله اذ الاغلال في أعناقهم فهذه الاشياء هي نصيبهم من الكتاب على قدر ذنوبهم في كفرهم والقول الثاني أن المراد بالنصيب المذكور في الكتاب هو شيء سوى العذاب ثم اختلفوا فيه فقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى عنه وعن مجاهد وسعيد بن جبير وعطية في قوله ينالهم نصيبهم من الكتاب قالوا هو السعادة والشقاوة وقال ابن عباس ما كتب عليهم من الاعمال وقال في رواية أخرى عنه من عمل خيرا جوزي به ومن عمل شرا جوزي به وقال قتادة جزاء أعمالهم التي عملوها وقيل معنى ذلك ينالهم نصيبهم مما وعدوا في الكتاب من خير أو شر قاله مجاهد والضحاك وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا وقال الربيع بن أنس ينالهم ما كتب لهم في الكتاب من الرزق وقال محمد بن كعب القرظي عمله ورزقه وعمره وقال ابن زيد ينالهم نصيبهم من الكتاب من الاعمال والارزاق والاعمار فاذا فرغ هذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم وصحح الطبري هذا القول الآخر وقال لان الله تعالى أتبع ذلك بقوله حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم فابان ان الذي ينالهم هو ما قدر لهم في الدنيا فاذا فرغ توفتهم رسل ربهم قال الامام فخر الدين رحمه الله تعالى وانما حصل الاختلاف لان لفظ النصيب محتمل لكل الوجوه وقال بعض المحققين حمله على العمر والرزق أولى لانه تعالى بين أنهم وان بلغوا في الكفر ذلك المبلغ العظيم فانه ليس بمانع أن ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر تفضلا من الله سبحانه وتعالى لكي يصلحوا ويتوبوا ﴿قوله تعالى (حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) يعني حتى اذا جاءت هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب رسلنا يعني ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم لان لفظ الوفاة يفيد هذا المعنى (قالوا) يعني قال الرسل وهم الملائكة للكفار (أينما كنتم تدعون من دون الله) وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت لا سؤال استعلام والمعنى أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ادعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم وقيل ان هذا يكون في الآخرة والمعنى حتى

يقصون عليكم آياتي) يقرؤن عليكم كتبي وهو في موضع رفع صفة لرسل وجواب الشرط (فمن اتقى) الشرك (وأصلح) العمل منكم (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أصلا فلا خوف يعقوب (والذين كذبوا) منكم (بآياتنا واستكبروا عنها) تعظموا عن الايمان بها (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون فمن أظلم) فمن أشنع ظلما (ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) من تقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) ما كتب لهم من الارزاق والاعمار (حتى اذا جاءتهم رسلنا) ملك الموت وأعوانه وحتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له وهي حتى التي يبتدأ بعدها الكلام والكلام هنا الجملة الشرطية وهي اذا جاءتهم رسلنا (يتوفونهم) يقبضون أرواحهم وهو حال من الرسل أي متوفيهم وما في (قالوا أينما كنتم تدعون) في خط المصحف موصولة بأين وحقها أن تكتب مفصولة لانها موصولة والمعنى أين الآلهة الذين تعبدون (من دون الله) ليذبوا عنكم

اذا جاءتهم رسلنا يعني ملائكة العذاب يتوفونهم يعني يستوفون عددهم عند حشرهم الى النار قالوا أينما كنتم تدعون يعني شركاء وأولياء تعبدونهم من دون الله فادعوهم ليدفعوا عنكم ما جاءكم من أمر الله (قالوا) يعني الكفار مجيبين للرسل (ضلوا عنا) يعني بطلوا وذهبوا عنا وتركونا عند حاجتنا اليهم فلم ينفعونا (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) يقول الله تعالى وشهد هؤلاء الكفار عند معاينة العذاب أنهم كانوا جاحدين وحدانية الله واعترفوا على أنفسهم بذلك ﴿ قوله عز وجل (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس) يقول الله عز وجل يوم القيامة لمن افترى عليه الكذب وجعل له شريكا من خلقه ادخلوا في أمم يعني في جملة أمم قد خلت يعني قد مضت وسلفت وانما قال قد خلت ولم يقل قد خلوا لانه أطلق الضمير على الجماعة يعني في جملة جماعة قد خلت من قبلكم من الجن والانس (في النار) أي ادخلوا جميعا في النار التي هي مستقركم ومأواكم وانما عنى بالامم الجماعات والاحزاب وأهل الملل الكافرة من الجن والانس (كلما دخلت أمة) يعني كلما دخلت جماعة النار (لعنت أختها) يعني كلما دخلت أمة النار لعنت أختها من أهل ملتها في الدين لا في النسب قال السدي كلما دخلت أهل ملة النار لعنوا أصحابهم على ذلك الدين فيلعن المشركون المشركين واليهود اليهود والنصارى النصارى والصابئون الصابئين والمجوس المجوس تلعن الآخرة الاولى (حتى اذا اداركوا) يعني تداركوا وتلاحقوا (فيها جميعا) يعني تلاحقوا واجتمعوا في النار جميعا وأدرك بعضهم بعضا واستقروا في النار (قالت أخراهم لأولاهم) قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني قال آخر كل أمة لاولها وقال السدي قالت أخراهم الذين كانوا في آخر الزمان لاولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين وقال مقاتل يعني قال آخرهم دخولا النار وهم الاتباع لاولهم دخولا وهم القادة لان القادة يدخلون النار أولا (ربنا هؤلاء أضلونا) يعني تقول الاتباع ربنا هؤلاء القادة والرؤساء أضلونا عن الهدى وزينوا لنا طاعة الشيطان وقيل انما قال المتأخرون ذلك لانهم كانوا يعتقدون تعظيم المتقدمين من أسلافهم فسلكوا سبيلهم في الضلالة واتبعوا طريقهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلالة فلما كان يوم القيامة وتبين لهم فساد ما كانوا عليه قالوا ربنا هؤلاء أضلونا لانا اتبعنا سبيلهم (فآتهم عذابا ضعفا من النار) أي أضعف عليهم العذاب قال أبو عبيدة الضعف هو مثل الشيء مرة واحدة قال الازهري والذي قاله أبو عبيدة هو ما يستعمله الناس في مجاز كلامهم وأما كتاب الله فهو عربي مبين فيرد تفسيره الى موضوع كلام العرب الضعف في كلامهم ما زاد وليس بمقصور على مثلين وجائز في كلام العرب هذا ضعفه أي مثلاه وثلاثة أمثاله لان الضعف في الاصل زيادة غير محصورة وأولى الاشياء به أن يجعل عشرة أمثاله فأقل الضعف محصور وهو المثل وأكثره غير محصور وقال الزجاج في تفسير هذه الآية فآتهم عذابا ضعفا أي مضاعفا لان الضعف في كلام العرب على ضربين ٭ أحدهما المثل والآخر أن يكون في معنى تضعيف الشيء أي زيادته (قال) يعني قال الله تعالى (لكل ضعف) يعني لاولاكم ضعف ولاخراكم ضعف وقيل معناه للتابع ضعف وللمتبوع ضعف لانهم قد دخلوا في الكفر جميعا (ولكن لا تعلمون) يعني ما أعد الله لكل فريق من العذاب وقرئ بالياء ومعناه ولكن لا يعلم كل فريق ما أعد الله تعالى من العذاب للفريق الآخر (وقالت أولاهم) يعني في الكفر وهم القادة (لاخراهم) يعني الاتباع (فما كان لكم علينا من فضل) يعني قد ضللتم كما ضللنا وكفرتم كما كفرنا وقيل في معنى الآية وقالت كل أمة سلفت في الدنيا لاخراها الذين جاؤا من بعدهم فسلكوا سبيل من مضى قبلهم فما كان لكم علينا من فضل وقد علمتم ما حل بنا من عقوبة الله بسبب كفرنا ومعصيتنا بما جاءتكم بذلك الرسل والنذر فما رجعتم عن ضلالتكم وكفركم (فذوقوا العذاب)

(قالوا ضلوا عنا) غابوا عنا فلا نراهم (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) اعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة التي هي لتحقيق الخبر (قال ادخلوا) أي يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار ادخلوا (في أمم) في موضع الحال أي كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم (قد خلت) مضت (من قبلكم من الجن والانس) من كفار الجن والانس (في النار) متعلق بادخلوا (كلما دخلت أمة) النار (لعنت أختها) شكلها في الدين أي التي ضلت بالاقتداء بها (حتى اذا اداركوا فيها) أصله تداركوا أي تلاحقوا واجتمعوا في النار فأبدلت التاء دالا وسكنت للادغام ثم أدخلت همزة الوصل (جميعا) حال (قالت أخراهم) منزلة وهي الاتباع والسفلة (لاولاهم) منزلة وهي القادة والرؤس ومعنى لاولاهم لاجل أولاهم لان خطابهم مع الله لا معهم (ربنا) يا ربنا (هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا) مضاعفا (من النار قال لكل ضعف) للقادة بالغواية والاغواء وللاتباع بالكفر والاقتداء (ولكن لا تعلمون) ما لكل فريق منكم من العذاب لا يعلمون أبو بكر أي لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق (وقالت أولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل) عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة لكل ضعف أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وأنا متساوون في استحقاق الضعف (فذوقوا العذاب)

وهذا يحتمل أن يكون من قول القادة للاتباع والامة الاولى للاخرى التى بعدها ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى يعنى يقول الله للجميع فذوقوا العذاب (بما كنتم تكسبون) يعنى بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والاعمال الخبيثة ﴿ قوله عز وجل (ان الذين كذبوا بآياتنا) يعنى كذبوا بدلائل التوحيد فلم يصدقوا بها ولم يتبعوا رسلنا (واستكبروا عنها) أى وتكبروا عن الايمان بها والتصديق لها وأنفوا عن اتباعها والانقياد لها والعمل بمقتضاها تكبرا (لاتفتح لهم أبواب السماء) يعنى لاتفتح لارواحهم اذا خرجت من أجسادهم ولا يصعد لهم الى الله عز وجل فى وقت حياتهم قول ولا عمل لان أرواحهم وأقوالهم وأعمالهم كلها خبيثة وانما يصعد الى الله تعالى الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه قال ابن عباس رضى الله عنهما لاتفتح أبواب السماء لارواح الكفار وتفتح لارواح المؤمنين وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا قال لايصعد لهم قول ولا عمل وقال ابن جريج لاتفتح أبواب السماء لاعمالهم ولا لارواحهم وروى الطبرى بسنده عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها الى السماء قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة الا قالوا ماهذه الروح الخبيثة قال فيقولون فلان بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها الى السماء فيستفتحون له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وقيل فى معنى الآية لاتنزل عليهم البركة والخير لان ذلك لاينزل الا من السماء فاذا لم تفتح لهم أبواب السماء فلا ينزل عليهم من البركة والخير والرحمة شئ ﴿ وقوله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) الولوج الدخول والجمل معروف وهو الذكر من الابل وسم الخياط ثقب الابرة قال الفراء الخياط والمخيط ما يخاط به والمراد به الابرة فى هذه الآية وانما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لانه أكبر من سائر الحيوانات جسما عند العرب قال الشاعر ＊ جسم الجمال وأحلام العصافير ＊ وصف من هجاهم بعظم الجسم مع صغر العقل جسم الجمل من أعظم الاجسام وثقب الابرة من أضيق المنافذ فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه فى ثقب الابرة الضيق محالا وكذلك دخول الكفار الجنة محال ولما وصف الله دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط وكان وقوع هذا الشرط محالا ثبت أن الموقوف على المحال محال فوجب بهذا الاعتبار ان دخول الكفار الجنة مأيوس منه قطعا وقال بعض أهل المعانى لما علق الله تعالى دخولهم الجنة بولوج الجمل فى سم الخياط وهو خرق الابرة كان ذلك نفيا لدخولهم الجنة على التأبيد وذلك لان العرب اذا علقت ما يجوز كونه بما لايجوز كونه استحال كون ذلك الجائز وهذا كقولك لا آتيك حتى يشيب الغراب ويبيض القار ومنه قول الشاعر

اذا شاب الغراب أتيت أهلى ＊ وصار القار كاللبن الحليب

﴿ قوله تعالى (وكذلك نجزى المجرمين) أى ومثل الذى وصفنا نجزى المجرمين يعنى الكافرين لانه تقدم من صفتهم أنهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على أنهم الكفار ولما بين الله عز وجل أن الكفار لا يدخلون الجنة أبدا بين انهم من أهل النار ووصف ما أعد لهم فيها فقال تعالى (لهم من جهنم مهاد) يعنى لهم من نار جهنم فراش وأصل المهاد المتمهد الذى يقعد عليه ويضطجع عليه كالفراش والبساط (ومن فوقهم غواش) جمع غاشية وهى الغطاء كاللحاف ونحوه ومعنى الآية ان النار محيطة بهم من تحتهم ومن فوقهم قال محمد بن كعب القرظى والضحاك والسدى المهاد الفراش والغواشى اللحف (وكذلك نجزى الظالمين) يعنى وكذلك نكافئ ونجازى المشركين الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها ﴿ قوله عز وجل (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا الا وسعها) لما ذكر الله تعالى وعيد الكافرين وما أعد لهم فى الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعد لهم فى الآخرة فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات يعنى والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحى الله اليه وتنزيله عليه

(بما كنتم تكسبون) بكسبكم وكفركم وهو من قول القادة للسفلة ولا وقف على فضل أو من قول الله لهم جميعا والوقف على فضل (ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء) أى لايؤذن لهم فى صعود السماء ليدخلوا الجنة اذ هى فى السماء أو لا يصعد لهم عمل صالح ولا تنزل عليهم البركة أو لا تصعد أرواحهم اذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين الى السماء وبالتاء مع التخفيف أبو عمرو وبالياء معه حمزة وعلى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) حتى يدخل البعير فى ثقب الابرة أى لا يدخلون الجنة أبدا لانه علقه بما لا يكون والخياط والمخيط ما يخاط به وهو الابرة (وكذلك) ومثل ذلك الجزاء الفظيع الذى وصفنا (نجزى المجرمين) أى الكافرين بدلالة التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها (لهم من جهنم مهاد) فراش (ومن فوقهم غواش) أغطية جمع غاشية (وكذلك نجزى الظالمين) أنفسهم بالكفر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا الا وسعها) طاقتها والتكليف الزام ما فيه كلفة

من شرائع دينه وعملوا ما أمرهم به وأطاعوه في ذلك وتجنبوا ما نهاهم عنه لا نكلف نفسا إلا وسعها يعني لا نكلف نفسا إلا ما يسعها من الأعمال وما تسهل عليها وتدخل في طوقها ووسعها وما لا حرج فيه عليها ولا ضيق قال الزجاج الوسع ما تقدر عليه وقيل معناه إلا ما افترض عليها يعني الذي افترض عليها من وسعها الذي تقدر عليه ولا تحرج فيه رفعه غلط من قال إن الوسع بذل المجهود قاله كثير من أصحاب المعاني إن قوله تعالى لا نكلف نفسا إلا وسعها اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر والتقدير والذين آمنوا وعملوا الصالحات (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) لا نكلف نفسا إلا وسعها وإنما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر لأنه من جنس هذا الكلام لأنه تعالى لما ذكر عملهم الصالح ذكر أن ذلك العمل في وسعهم وطاقتهم غير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها يتوصل إليها بالعمل الصالح السهل من غير مشقة كلفة ولا صعوبة وقال قوم من أصحاب المعاني هو من تمام الخبر وموضعه رفع والعائد محذوف كأنه قال لا نكلف نفسا منهم إلا وسعها فحذف العائد للعلم به ۞ قوله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل) يعني وقلعنا وأخرجنا ما في صدور المؤمنين من غش وحسد وحقد وعداوة كانت بينهم في الدنيا ومعنى الآية أزلنا تلك الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في الدنيا فجعلناهم إخوانا على سرر متقابلين لا يحسد بعضهم بعضا على شيء خص الله به بعضهم دون بعض ومعنى نزع الغل تصفية الطباع وإسقاط الوساوس ودفعها عن أن ترد على القلب وروي عن علي رضي الله عنه قال فينا والله أهل بدر نزلت ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين وروي عنه أيضا أنه قال إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم ونزعنا ما في صدورهم من غل وقيل إن الحسد والغل يزول بدخولهم الجنة (خ) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا وقال السدي في هذه الآية إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يشحبوا بعدها أبدا وقيل إن درجات أهل الجنة متفاوتة في العلو والكمال فبعض أهل الجنة أعلى من بعض فأخرج الله عز وجل الغل والحسد من صدورهم وأزاله عنهم ونزعه من قلوبهم فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب العالية وأورد على هذا القول كيف يعقل أن الإنسان يرى الدرجات العالية والنعم العظيمة وهو محروم عنها إلا يميل إليها ولا يحمل نظيره إليها ولا يغتم بسبب حرمانه منها إن كان في لذة ونعيم وأجيب عن هذا بأن الله تعالى قد نزع الغل والحسد من قلوب أهل الجنة حتى يكمل لهم اللذة والسرور حتى أن أحدهم لا يرى نفسه إلا في كمال وزيادة في النعيم الذي هو فيه فرضي بما هو فيه ولا يحسد أحدا أبدا ويدوم نعيمه ولذته وكمل سروره وبهجته ۞ وقوله تعالى (تجري من تحتهم الأنهار) لما أخبر الله تعالى بما أنعم به على أهل الجنة من إزالة الغل والحسد والحقد من صدورهم أخبر بما أنعم به عليهم من اللذات والخيرات والمسرات (وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا) يعني أن المؤمنين إذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذي وفقنا وأرشدنا للعمل الذي هذا ثوابه وتفضل علينا بهذه رحمته وإحسانه وصرف عنا عذاب جهنم بفضله وكرمه فله الحمد على ذلك (وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) يعني وما كنا لنرشد لذلك العمل الذي هذا ثوابه لولا أنه أرشدنا الله إليه ووفقنا بفضله ومنه وكرمه وفي الآية دليل على أن المهتدي من هداه الله ومن لم يهده الله فليس بمهتد (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) يعني أن أهل النعيم إذا دخلوا الجنة ورأوا ما أعد الله لهم فيها من النعيم قالوا لقد جاءت رسل ربنا بالحق يعني أنهم رأوا وأيقنوا ما وعدهم به الرسل عيانا (ونودوا أن تلكم

أي بشيء (أولئك) مبتدأ والخبر (أصحاب الجنة) والجملة خبر الذين ولا نكلف نفسا إلا وسعها اعتراض بين المبتدأ والخبر (هم فيها خالدون ونزعنا ما في صدورهم من غل) حقد كان بينهم في الدنيا فلم يبق بينهم إلا التوادد والتعاطف وعن علي رضي الله عنه إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم (تجري من تحتهم الأنهار) حال من هم في صدورهم والعامل فيها معنى الإضافة (وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا) لما هو وسيلة إلى هذا الفوز العظيم وهو الإيمان (وما كنا) ما كنا بغير واو شامي على أنها جملة موضحة للأولى (لنهتدي لولا أن هدانا الله) اللام لتوكيد النفي أي وما كان يصح أن نكون مهتدين لولا هداية الله وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) فكان لطفا لنا وتنبيها على الاهتداء فاهتدينا يقولون ذلك سرورا بما نالوا وإظهارا لما اعتقدوا (ونودوا أن تلكم

الجنة

ل ة) يعني ونادى منادياً أهل الجنة ان هذه الجنة التي كانت الرسل وعدتكم بها في الدنيا واختلفوا في المنادي
يل هو الله عز وجل وقيل الملائكة ينادون بامر الله عز وجل وقيل هذا النداء يكون في الجنة (م) عن أبي
عيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة
لجنة نادى مناد ان لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وان لكم أن تشبوا فلا
رموا أبدا وان لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما
نتم تعملون وقوله تعالى (أورثتموها بما كنتم تعملون) روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه
لم قال ما من أحد الا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فاما الكافر فانه يرث المؤمن منزله من النار والمؤمن
ث الكافر منزله من الجنة زاد في رواية فذلك قوله تعالى أورثتموها بما كنتم تعملون قال بعضهم لما سمى
الكافر ميتا بقوله أموات غير أحياء وسمى المؤمن حيا بقوله لينذر من كان حيا وفي الشرع ان الاحياء
رث الاموات فقال أورثتموها يعني ان المؤمن حي وهو يرث الكافر منزله من الجنة لانه في حكم الميت وقيل
ماه ان أمرهم يؤل الى الجنة كما ان الميراث يؤل الى الوارث وقيل أورثتموها عن الاعمال الصالحة التي
لتموها لان الجنة جعلت لهم جزاء وثوابا على الاعمال ولا يعارض هذا القول ما ورد عن النبي صلى الله عليه
م انه قال لن يدخل الجنة أحد بعمله وانما يدخلها برحمة الله فان دخول الجنة برحمة الله واقتسام المنازل
درجات بالاعمال وقيل ان العمل الصالح لن يناله المؤمن ولن يبلغه الا برحمة الله تعالى وتوفيقه واذا كان
مل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة في الحقيقة برحمة الله تعالى وجعلها الله ثوابا وجزاء لهم على تلك
عمال الصالحة التي عملوها في دار الدنيا والله أعلم ۞ قوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) يعني
دى أهل الجنة أهل النار وهذا النداء انما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار تقول
ل الجنة يا أهل النار (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا) يعني ما وعدنا في الدنيا على ألسنة رسله من الثواب
الايمان به وبرسله وطاعته حقا (فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا) يعني من العذاب على الكفر (قالوا نعم)
قال أهل النار مجيبين لاهل الجنة نعم وجدنا ذلك حقا فان قلت هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل
ار أو من البعض للبعض قلت ظاهر قوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار يفيد العموم والجمع اذا قابل
ع يوزع الفرد على الفرد فكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في دار الدنيا فان
ت اذا كانت الجنة في السماء والنار في الارض فكيف يمكن ان يبلغ هذا النداء وكيف يصح ان يقع قلت
الله تعالى قادر على أن يقوي الاصوات والاسماع فيصير البعيد كالقريب ۞ وقوله تعالى (فأذن مؤذن
هم) يعني نادى مناد وأعلم لان أصل الاذان في اللغة الاعلام والمعنى نادى مناداً أسمع الفريقين وهذا
نادي من الملائكة وقيل انه اسرافيل صاحب الصور ذكره الواحدي (أن لعنة الله على الظالمين) يعني
ول المؤذن أن لعنة الله على الظالمين ثم فسر الظالمين من هم فقال تعالى (الذين يصدون عن سبيل الله)
ي الذين يمنعون الناس عن الدخول في دين الاسلام (ويبغونها عوجا) يعني ويحاولون ان يغيروا دين الله
طريقته التي شرع لعباده ويبدلونها وقيل معناه انهم يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله وذلك انهم
بوا سبيل الله بالصلاة لغير الله وتعظيم ما لم يعظمه الله فأخطؤا الطريق وضلوا عن السبيل (وهم بالآخرة
كافرون) يعني وهم بكون الآخرة واقعة جاحدون منكرون لها ۞ قوله عز وجل (وبينهما حجاب) يعني بين

نة) ان مخففة من الثقيلة واسمها محذوف والجملة بعدها خبرها تقديره ونودوا بانه تلكم الجنة والهاء ضمير الشأن أو بمعنى أي كأنه قيل
يل لهم تلكم الجنة (أورثتموها) أعطيتموها وهو حال من الجنة والعامل فيها ما في تلك من معنى الاشارة (بما كنتم تعملون) سماها ميراثا
ها لا تستحق بالعمل بل هي محض فضل الله وعده على الطاعات كالميراث من الميت ليس بعوض عن شيء بل هو صلة
خالصة وقال الشيخ أبو منصور رحمه الله ان المعتزلة خالفوا الله فيما أخبر ونوحا عليه السلام وأهل الجنة والنار وابليس لانه قال الله تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء وقال نوح عليه السلام ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم وقال أهل الجنة وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وقال أهل النار لو هدانا الله لهديناكم وقال ابليس فبما أغويتني (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا) أن مخففة من الثقيلة أو مفسرة وكذلك أن لعنة الله على الظالمين (ما وعدنا ربنا) من الثواب (حقا) حال (فهل وجدتم ما وعد ربكم) من العذاب (حقا) وتقديره وعدكم ربكم فحذف كم لدلالة وعدنا ربنا عليه وانما قالوا لهم ذلك شماتة باصحاب النار واعترافا بنعم الله تعالى (قالوا نعم) وبكسر العين حيث كان علي (فأذن مؤذن بينهم) نادى مناد وهو ملك يسمع أهل الجنة
والنار (أن لعنة الله على الظالمين) أن لعنة مكي وشامي وحمزة وعلي (الذين يصدون) يمنعون (عن سبيل الله) دينه (ويبغونها عوجا)
مفعول ثان ليبغون أي ويطلبون لها الاعوجاج والتناقض (وهم بالآخرة) بالدار الآخرة (كافرون وبينهما) وبين الجنة والنار
[illegible]

الجنة والنار وقيل بين أهل الجنة وأهل النار حجاب وهو المذكور في قوله تعالى فضرب بينهم بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب قال مجاهد الاعراف حجاب بين الجنة والنار وقال السدى و حجاب هو السور وهو الاعراف وقوله (وعلى الاعراف رجال) الاعراف جمع عرف وهو كل مرتفع من الارض ومنه قيل عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من الجسد سمى بذلك لانه بسبب ارتفاعه صار أعرف وأبين مما انخفض وقال السدى انما سمى الاعراف لان أصحابه يعرفون الناس وقال ابن عباس رضي الله عنهما الاعراف الشئ المشرف وعنه قال الاعراف سور كعرف الديك وعنه ان الاعراف جبل بين الجنة والنار يحبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار واختلف العلماء في صفة الرجال الذين أخبر الله انهم على الاعراف وما السبب الذي من أجله صاروا هنالك فروى عن حذيفة انه سئل عن أصحاب الاعراف فقال هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم فقصرت بهم سيآتهم عن الجنة وتخلفت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله تعالى فيهم قال بعضهم انما جعلوا على الاعراف لانها درجة متوسطة بين الجنة والنار فهم لا من أهل الجنة ولا من أهل النار لكن الله تعالى يدخلهم الجنة بفضله ورحمته لانه ليس في الآخرة دار الا الجنة أو النار وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيآته أكثر بواحدة دخل النار وان الميزان يخف ويثقل بمثقال حبة من خردل ومن استوت حسناته وسيآته كان من أصحاب الاعراف فوقفوا على الاعراف فاذا نظروا الى أهل الجنة نادوا سلام عليكم واذا نظروا الى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فهنالك يقول الله تعالى لم يدخلوها وهم يطمعون فكان الطمع دخولا قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه اذا عمل العبد حسنة كتب له بها عشر واذا عمل سيئة لم تكتب له الا واحدة ثم قال هلك من غلب آحاده عشراته وقال ابن عباس رضي الله عنهما الاعراف سور بين الجنة والنار وأصحاب الاعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم فهم بذلك المكان حتى اذا أراد الله تعالى أن يعافيهم انطلق بهم الى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فالقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى اذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال تمنوا ما شئتم فيتمنون حتى اذا انقطعت أمنيتهم قال لهم لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفا فيدخلون الجنة ذكره ابن جرير في تفسيره وقال شرحبيل بن سعد أصحاب الاعراف قوم خرجوا في الغزو من غير اذن آبائهم ورواه الطبري بسنده الى يحيى بن شبل مولى لبني هاشم عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الاعراف فقال هم قوم قتلوا عصاة لآبائهم فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة زاد في رواية فهم آخر من يدخل الجنة وذكر ابن الجوزي أنهم قوم رضى آباؤهم دون أمهاتهم وأمهاتهم دون آبائهم ورواه عن ابراهيم وذكر عن أبي صالح مولى التوأمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم أنهم أولاد الزنا وقيل انهم الذين ماتوا في الفترة وفيه بعد لان آخر أمر أصحاب الاعراف الى الجنة وهؤلاء الذين ماتوا في الفترة الله أعلم بحالهم وهو يتولى أمرهم وقيل انهم أولاد المشركين الذين ماتوا أطفالا وهذا القول يرجع معناه الى القول الذي قبله لانه داخل في حكمه فهذه الاقوال تدل على أن أصحاب الاعراف دون أهل الجنة في الدرجات وان كانوا يدخلون الجنة برحمة الله تعالى وقال مجاهد أصحاب الاعراف قوم صالحون فقهاء علماء فعلى هذا القول انما يكون لبثهم على الاعراف على سبيل النزهة أو ليرى غيرهم شرفهم وفضلهم وقيل انهم أنبياء حكاه ابن الانباري وانما أجلسهم الله على ذلك المكان العالي تمييزا لهم على سائر أهل القيامة واظهارا لفضلهم وعلو مرتبتهم وليكونوا مشرفين على أهل الجنة والنار ومطلعين على أحوالهم ومقادير ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار وقال أبو مجلز أصحاب الاعراف ملائكة يعرفون الفريقين بسيماهم يعني

(وعلى الاعراف) على أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار وهي أعاليه جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك (رجال) من أفاضل المسلمين أو من آخرهم دخولا في الجنة لاستواء حسناتهم وسيآتهم أو من لم يرض عنها أحد أبويه أو أطفال المشركين

يعرفون أهل الجنة وأهل النار فقيل لأبي مجلز ان الله تعالى يقول وعلى الاعراف رجال وأنت تقول انهم ملائكة فقال ان الملائكة ذكور ليسوا باناث وضعف الطبري قول أبي مجلز قال لان لفظ الرجال في لسان العرب لا يطلق الا على الذكور من بني آدم دون اناثهم ودون سائر الخلق وحاصل هذه الاقوال ان أصحاب الاعراف أفضل من أهل الجنة لانهم أعلى منهم منزلة وأفضل وقيل انما أجلسهم الله في ذلك المكان العالي ليميزوا بين أهل الجنة وبين أهل النار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ۞ قوله عز وجل (يعرفون كلا بسيماهم) يعني أن أصحاب الاعراف يعرفون أهل الجنة بسيماهم وذلك ببياض وجوههم ونضرة النعيم عليهم ويعرفون أهل النار بسيماهم وذلك بسواد وجوههم وزرقة عيونهم والسيما العلامة الدالة على شئ وأصله من السمة قال ابن عباس رضي الله عنهما أصحاب الاعراف اذا رأوا أصحاب الجنة عرفوهم ببياض الوجوه واذا رأوا أصحاب النار عرفوهم بسواد الوجوه فان قلت ان أصحاب الاعراف من استوت حسناتهم وسيآتهم وهم دون أهل الجنة في الدرجة كان وقوفهم على الاعراف ليكونوا درجة متوسطة بين الجنة والنار فاذا رأوا أهل الجنة وعرفوهم ببياض وجوههم نادوهم أن سلام عليكم وهو قوله تعالى (ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم) يعني نادى أصحاب الاعراف أصحاب الجنة أن سلام عليكم سلمتم من الآفات وحصل لكم الامن والسلامة واذا رأوا أهل النار يعرفونهم بسواد وجوههم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين وان قلنا ان أصحاب الاعراف هم الاشراف والافاضل من أهل الجنة كان جلوسهم على الاعراف ليطلعوا على أهل الجنة وأهل النار ثم لينقلهم الله عز وجل الى الدرجات العلية في الجنة ۞ وقوله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون) يعني في دخول الجنة قال الحسن ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم الا لكرامة يريدها بهم ۞ قوله تعالى (واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) يعني واذا صرفت أبصار أصحاب الاعراف تلقاء أصحاب النار يعني تجاههم وحيالهم فنظروا اليهم والى سواد وجوههم وما هم فيه من العذاب (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) يعني الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وقال ابن عباس رضي الله عنهما ان أصحاب الاعراف اذا نظروا الى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين والمعنى ان أصحاب الاعراف اذا نظروا الى أهل النار وما فيه من العذاب تضرعوا الى الله تعالى وسألوه أن لا يجعلهم منهم ۞ قوله تعالى (ونادى أصحاب الاعراف رجالا) يعني ونادى أصحاب الاعراف رجالا كانوا عظماء في الدنيا وهم من أهل النار (يعرفونهم بسيماهم) يعني بسيما أهل النار (قالوا) يعني أصحاب الاعراف لهؤلاء الذين عرفوهم في النار (ما أغنى عنكم جمعكم) يعني ما كنتم تجمعون من الاموال والعدد في الدنيا (وما كنتم تستكبرون) يعني وما أغنى عنكم تكبركم عن الايمان شيأ قال الكلبي ينادونهم وهم على السور يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان ثم ينظرون الى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزؤن بهم مثل سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم فيقول أصحاب الاعراف لاولئك الكفار (أهؤلاء) لفظة استفهام يعني أهؤلاء الضعفاء (الذين أقسمتم) بالله (لا ينالهم الله برحمة) يعني أنكم حلفتم انهم لا يدخلون الجنة وقد دخلوا الجنة ثم يقول الله تعالى لاصحاب الاعراف (ادخلوا الجنة) بفضلي ورحمتي (لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقيل ان أصحاب الاعراف اذا قالوا لاصحاب النار ما أخبر الله عنهم قال لهم أهل النار ان أولئك دخلوا الجنة وأنتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون انهم لا يدخلون الجنة ولا ينالهم الله برحمة فتقول الملائكة لاهل النار أهؤلاء يعني أصحاب الاعراف الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ثم تقول الملائكة لاصحاب الاعراف ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ۞ قوله عز وجل (ونادى

(يعرفون كلا) من زمرة السعداء والاشقياء (بسيماهم) بعلامتهم قيل سيما المؤمنين بياض الوجوه ونضارتها وسيما الكافرين سواد الوجوه وزرقة العيون (ونادوا) أي أصحاب الاعراف (أصحاب الجنة أن سلام عليكم) انه سلام أو أي سلام وهو تهنئة منهم لاهل الجنة (لم يدخلوها) أي أصحاب الاعراف ولا محل له لانه استئناف كأن سائلا سأل عن أصحاب الاعراف فقيل لم يدخلوها (وهم يطمعون) في دخولها أو له محل وهو صفة لرجال (واذا صرفت أبصارهم) أبصار أصحاب الاعراف وفيه ان صارفا يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا (تلقاء) ظرف أي ناحية (أصحاب النار) ورأوا ماهم فيه من العذاب (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) فاستعاذوا بالله وفزعوا الى رحمته أن لا يجعلهم معهم (ونادى أصحاب الاعراف رجالا) من رؤس الكفرة (يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم) المال أو كثرتكم واجتماعكم وما نافية (وما كنتم تستكبرون) واستكباركم على الحق وعلى الناس ثم يقولون لهم (أهؤلاء) مبتدأ (الذين) خبر مبتدأ مضمر تقديره هؤلاء هم الذين (أقسمتم) حلفتم في الدنيا والمشار اليهم فقراء المؤمنين كصهيب وسلمان ونحوهما (لا ينالهم الله برحمة) جواب أقسمتم وهو داخل في صلة الذين تقديره أقسمتم عليهم بأن لا ينالهم الله برحمة أي لا يدخلهم الجنة يحتقرونهم لفقرهم فيقال لاصحاب الاعراف (ادخلوا الجنة) وذلك بعد أن نظروا الى الفريقين وعرفوهم بسيماهم وقالوا ما قالوا (لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) ونادى

أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) قال ابن عباس رضي الله عنهما لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج فقالوا يا رب إن لنا قرابات من أهل الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فيأذن لهم فينظرون إلى قراباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم وينظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل النار فلم يعرفوهم لسواد وجوههم فينادون أي أصحاب النار بأسمائهم فينادي الرجل أباه وأخاه فيقول قد احترقت أفض علي من الماء فيقال لهم أجيبوهم فيقولون (إن الله حرمهما على الكافرين) ومعنى الآية أن أهل النار يستغيثون بأهل الجنة إذا استقروا فيها وذلك عند نزول البلاء بأهل النار وما يلقون من شدة العطش والجوع عقوبة لهم من الله على ما سلف منهم في الدنيا من الكفر والمعاصي يقول أهل النار لأهل الجنة يا أهل الجنة أفيضوا علينا من الماء يعني صبوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله يعني وأطعمونا مما رزقكم الله وصبوا علينا من طعام الجنة فيجيبهم أهل الجنة بقولهم (إن الله حرمهما على الكافرين) وهذا الجواب يفيد الحرمان قال بعضهم لما كانت شهواتهم في الدنيا في لذة الأكل والشرب عذبهم الله في الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه في الدنيا من طلب الأكل والشرب فأجيبوا بأن الله حرمهما على الكافرين يعني طعام الجنة وشرابها ثم وصف الكافرين فقال تعالى (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) يعني أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم ولهوا عنه وأصل اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه يقال لهوت بكذا ولهيت عن كذا أي اشتغلت عنه قال ابن عباس رضي الله عنهما هم المستهزئون وذلك أنهم كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعاهم إليه وهزؤا به استهزاء بالله عز وجل وقيل هو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحائر والسوائب والمكاء والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التي كانوا يعملونها في الجاهلية وقيل معنى دينهم عيدهم اتخذوه لهوا ولعبا لا يذكرون الله فيه (وغرتهم الحياة الدنيا) يعني وخدعتهم عاجل ما هم فيه من خصب العيش ولذته وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الإيمان بالله ورسله وعن الأخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية وهم على ذلك والغرة غفلة في اليقظة وهو طمع الإنسان في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات فإذا حصل له ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص لأنه غريق في الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال (فاليوم) يعني يوم القيامة (ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) يعني فاليوم نتركهم في العذاب المهين جياعا عطاشا كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسدي قال ابن عباس رضي الله عنهما نسيهم من الخير ولم ينسهم من الشر وقيل معناه نعاملهم معاملة من نسي فنتركهم في النار كما تركوا العمل وأعرضوا عن الإيمان إعراض الناسي سمى الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لأن الله تعالى لا ينسى شيئا فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها ويكون المراد من هذا النسيان أن الله تعالى لا يجيب دعاءهم ولا يرحم ضعفهم وذلتهم بل يتركهم في النار كما تركوا الإيمان والعمل (وما كانوا بآياتنا يجحدون) يعني ونتركهم في النار كما كانوا بأدلة وحدانيتنا يكذبون ﴿ قوله تعالى (ولقد جئناهم بكتاب) يعني ولقد جئنا هؤلاء الكفار بالقرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد (فصلناه على علم) أي بيناه على علم منا بما نفصله ونبينه (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) أي جعلنا القرآن هاديا وذا رحمة لقوم يؤمنون (هل ينظرون) يعني هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآياتنا وجحدوها ولم يؤمنوا بها (إلا تأويله) يعني هل ينظرون ويتوقعون إلا ما وعدوا به على ألسنة الرسل من العذاب وأن مصيرهم إلى النار والتأويل ما يؤول إليه الشيء (يوم يأتي تأويله) يعني يوم القيامة لأنه يوم الجزاء وما تؤول إليه أمورهم (يقول الذين نسوه من قبل) يعني يقول الذين تركوا العمل بالقرآن ولم يؤمنوا به يوم القيامة عند معاينة العذاب (قد جاءت رسل ربنا بالحق)

أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء) إن مفسرة وفيه دليل على أن الجنة فوق النار (أو مما رزقكم الله) من غيره من الأشربة لتدخل في حكم الإفاضة أو أريد وألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقولك ❊ علفتها تبنا وماء باردا ❊ أي وسقيتها وإنما سألوا ذلك مع يأسهم عن الإجابة لأن المتحير ينطق بما يفيد وبما لا يفيد (قالوا إن الله حرمهما على الكافرين) هو تحريم منع كما في وحرمنا عليه المراضع وتقف هنا إن رفعت أو نصبت ما بعده ذما وإن جررته وصفا للكافرين فلا (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) فحرموا وأحلوا ما شاؤا أو دينهم عيدهم (وغرتهم الحياة الدنيا) اغتروا بطول البقاء (فاليوم ننساهم) نتركهم في العذاب (كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) أي كنسيانهم وجحودهم (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه) ميزنا حلاله وحرامه ومواعظه وقصصه (على علم) عالمين بكيفية تفصيل أحكامه (هدى ورحمة) حال من منصوب فصلناه كما أن على علم حال من مرفوعه (لقوم يؤمنون هل ينظرون) ينتظرون (إلا تأويله) إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبيين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد (يوم يأتي تأويله) اقروا
يقول الذين نسوه من قبل) تركوه وأعرضوا عنه (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أي تبين وصح أنهم جاؤا بالحق فأقروا حين لا ينفعهم

أقروا على أنفسهم واعترفوا حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف والإقرار والمعنى أن الكفار أقروا بأن الذي جاءت به الرسل من الإيمان والتصديق والحشر والنشر والبعث يوم القيامة والثواب والعقاب حق وصدق وإنما أقروا بهذه الأشياء لأنهم شاهدوها وعاينوها وذلك حين لا ينفعهم ولما رأوا أنفسهم في العذاب قالوا (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل) يعني أنه ليس لنا طريق إلى الخلاص مما نحن فيه من العذاب إلا أن يشفع لنا شفيع بسؤال فيسأل شفاعته فيما نحن فيه فنخلص من هذا العذاب أو نرد إلى الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل فيها فنبدل الكفر بالتوحيد والإيمان والمعاصي بالطاعة والإنابة (قد خسروا أنفسهم) يعني أن الذي طلبوه لا يحصل لهم فتبين خسرانهم وإهلاكهم أنفسهم لأنهم كانوا في الدنيا أول مرة لم يعملوا بطاعة الله ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان لسابق علم الله تعالى فيهم (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعني وبطل وذهب عنهم ما كانوا يزعمون ويكذبون في الدنيا من أن الأصنام تشفع لهم فلما أفضوا إلى الآخرة ذهب ذلك عنهم وعلموا أنهم كانوا في دعواهم كاذبين

﴿قوله عز وجل (إن ربكم الله) يعني إن سيدكم ومالككم ومصلح أموركم وموصل الخيرات إليكم والذي يدفع عنكم المكاره هو الله (الذي خلق السموات والأرض) أصل الخلق في اللغة التقدير ويستعمل في ابداع الشيء من غير أصل سبق ولا ابتداء تقدم فقوله خلق السموات والأرض يعني أبدعهما وأنشأ خلقهما على غير مثال سبق ووجدا أوجدهما (في ستة أيام) فإن قلت اليوم عبارة عن مقدار من الزمان وذلك المقدار هو من طلوع الشمس إلى غروبها فكيف قال في ستة أيام ولم يكن شمس ولا سماء قلت معناه في مقدار ستة أيام فهو كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا يعني على مقدار البكر والعشي في الدنيا لأن الجنة لا ليل فيها ولا نهار واختلف العلماء في اليوم الذي ابتدأ الله عز وجل بخلق الأشياء فيه فقيل بدأ يوم السبت وهو قول محمد بن إسحاق وغيره ويدل على صحة هذا القول ما روى مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وخلق الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل وهذا الحديث وإن كان في صحيح مسلم ففيه مقال وقد أنكره بعض العلماء لما فيه من المخالفة للآية الكريمة لأن الله تعالى يقول خلق السموات والأرض في ستة أيام وقال في آية أخرى ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام فدل بهذين النصين على أن جميع الخلق تم وكمل في ستة أيام والذي في الحديث أن بعض الخلق وقع في سبعة أيام وذلك مجموع أيام الأسبوع فلهذا السبب أنكره من أنكره من العلماء وقد ذكر الأزهري في كتابه تهذيب اللغة ما يقوي الحديث فقال وقال ابن الأنباري السبت القطع وسمي يوم السبت لأن الله تعالى ابتدأ الخلق يوم السبت وقطع فيه بعض خلق السموات والأرض وقيل إن ابتداء الخلق كان يوم الأحد وهو قول عبد الله بن سلام وكعب الأحبار والضحاك ومجاهد واختاره ابن جرير الطبري قال الطبري خلق الله السموات والأرض في ستة أيام وذلك يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وروى بسنده عن مجاهد قال بدأ خلق العرش والماء والهواء وخلقت الأرض من الماء وبدأ الخلق يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وجمع الخلق في يوم الجمعة فتهودت اليهود في يوم السبت ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون ويعضد هذا القول ما حكاه صاحب المحكم ابن سيده قال وسمي سابع الأسبوع سبتا لأن ابتداء الخلق كان من يوم الأحد إلى يوم الجمعة ولم يكن في السبت خلق قال أصحاب الأخبار والسير والتواريخ إن الله تعالى خلق التربة التي هي الأرض بلا دحو ولا بسط في يوم الأحد والاثنين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين وهما الثلاثاء والأربعاء ثم دحا الأرض وبسطها

(فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) جواب الاستفهام (أو نرد) جملة معطوفة على جملة قبلها داخلة معها في حكم الاستفهام كأنه قيل فهل لنا من شفعاء أو هل نرد ورافعه وقوعه موقعا يصلح للاسم كقولك ابتداء هل يضرب زيد أو عطفه على تقدير هل يشفع لنا شافع أو هل نرد (فنعمل) جواب الاستفهام أيضا (غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) ما كانوا يدعونه من الأصنام (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) أراد السموات والأرض وما بينهما وقد فصلها في حم السجدة أي من الأحد إلى الجمعة لاعتبار الملائكة شيئا فشيئا وللإعلام بالتأني في الأمور ولأن لكل عمل يوما ولأن إنشاء شيء بعد شيء أدل على عالم مدبر مريد يصرفه على اختياره ويجريه على مشيئته

وطحاها وأخرج ماءها ومرعاها وخلق دوابها ووحشها وجميع ما فيها في يومين يوم الخميس والجمعة وخلق
آدم في يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة وقيل خلق الله عز وجل التربة يوم الاحد ثم
استوى الى السماء فخلقها وجميع ما فيها يوم الاثنين والثلاثاء ثم مد الارض ودحاها يوم الاربعاء والخميس
وخلق آدم يوم الجمعة وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء ثم أهبطهما الى الارض في آخر ساعة من يوم الجمعة
وقيل أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وما سيكون وما خلق وما هو خالق الى يوم القيامة ثم
خلق الظلمة والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات وما فيها
من نجوم وشمس وقمر ثم مد الارض وبسطها من التربة التي خلقها أولا ثم خلق جميع ما فيها من جبال وشجر
ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط الى الارض فتكامل
جميع الخلق في ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول جمهور العلماء وقيل في ستة أيام من أيام الدنيا
فان قلت ان الله عز وجل قادر على أن يخلق جميع الخلق في لحظة واحدة ومنه قوله تعالى وما أمرنا الا واحدة
كلمح بالبصر فما الفائدة في خلق السموات والارض في ستة أيام وما الحكمة في ذلك قلت ان الله سبحانه
وتعالى وان كان قادرا على خلق جميع الاشياء في لحظة واحدة الا أنه تعالى جعل لكل شيء حدا محدودا ووقتا
معلوما فلا يدخل في الوجود الا في ذلك الوقت والمقصود من ذلك تعليم عباده التثبت والتأني في الامور وقال
سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والارض في لمحة ولحظة فخلقهن في ستة أيام تعليما
لخلقه التثبت والتأني في الامور كما في الحديث التأني من الله والعجلة من الشيطان وقيل ان الشيء اذا أحدث
دفعة واحدة فلعله أن يخطر ببال بعضهم أن ذلك الشيء انما وقع على سبيل الاتفاق فاذا أحدث شيأ بعد شيء
على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة وقيل ان الله تعالى أراد أن يوقع في
كل يوم أمرا من أمره حتى تستعظمه الملائكة وغيرهم ممن شاهده وقيل ان التعجيل في الخلق أبلغ في القدرة
وأقوى في الدلالة والتثبت أبلغ في الحكمة فأراد الله تعالى اظهار حكمته في خلق الاشياء بالتثبت كما أظهر
قدرته في خلق الاشياء بكن فيكون ۞ وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) العرش في اللغة السرير وقيل
هو ما علا فأظل وسمي مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش
على الاستعارة والمجاز يقال فلان ثل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه قال الراغب في كتابه مفردات
القرآن وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر الا بالاسم على الحقيقة وليس هو كما تذهب اليه أوهام العامة
فانه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى الله عن ذلك وليس كما قال قوم انه الفلك الاعلى والكرسي فلك
الكواكب وأما استوى بمعنى استقر فقد رواه البيهقي في كتابه الاسماء والصفات روايات كثيرة عن جماعة
من السلف وضعفها كلها وقال أما الاستواء فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لا يفسرونه ولا يتكلمون فيه
كنحو مذهبهم في أمثال ذلك وروى بسنده عن عبد الله بن وهب أنه قال كنا عند مالك بن أنس فدخل
رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه قال فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع
رأسه فقال الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال له كيف وكيف عنه مرفوع وأنت رجل سوء
صاحب بدعة أخرجوه فأخرج الرجل وفي رواية يحيى بن يحيى قال كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال
يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه فأطرق مالك برأسه حتى علته الرحضاء ثم قال الاستواء
غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك الا مبتدعا فأمر به أن يخرج
وروى البيهقي بسنده عن ابن عيينة قال كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت
عنه قال البيهقي والآثار عن السلف في مثل هذا كثيرة وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعي رضي الله
تعالى عنه واليه ذهب أحمد بن حنبل والحسين بن الفضل البجلي ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابي قال

(ثم استوى) استولى
(على العرش) أضاف
الاستيلاء الى العرش وان
كان سبحانه وتعالى
مستوليا على جميع المخلوقات
لان العرش أعظمها
وأعلاها وتفسير العرش
بالسرير والاستواء
بالاستقرار كما تقوله المشبهة
باطل لانه تعالى كان قبل
العرش ولا مكان وهو الآن
كما كان لان التغيير من
صفات الاكوان والمنقول
عن الصادق والحسن وأبي
حنيفة ومالك رضي الله
عنهم ان الاستواء معلوم
والتكييف فيه مجهول
والايمان به واجب والجحود
له كفر والسؤال عنه بدعة

إليه ورى أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم به الى الله عز وجل وذكر حديث مالك بن أنس مع الرجل الذى سأله عن الاستواء وقد تقدم وروى عن سفيان الثورى والاوزاعى والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهة اقروها كما جاءت بلا كيف وقال الامام فخر الدين الرازى رحمه الله بعد ذكره الدلائل العقلية والسمعية انه لا يمكن حمل قوله تعالى ثم استوى على العرش على الجلوس والاستقرار وشغل المكان والحيز وعند هذا حصل للعلماء الراسخين مذهبان الاول القطع بكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة ولا نخوض فى تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها الى الله تعالى وهو الذى قررناه فى تفسير قوله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به وهذا المذهب هو الذى نختاره ونقول به ونعتمد عليه والمذهب الثانى انا نخوض فى تأويله على التفصيل وفيه قولان ملخصان الاول ما ذكره القفال فقال العرش فى كلامهم هو السرير الذى يجلس عليه الملك ثم جعل ثل العرش كناية عن نقض الملك يقال ثل عرشه أى انتقض ملكه واذا استقام له ملكه واطرد أمره ونفذ حكمه قالوا استوى على عرشه واستوى على سرير ملكه هذا ما قاله القفال والذى قاله القفال حق وصواب ثم قال والله تعالى دل على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره العالم على الوجه الذى ألفوه من ملوكهم واستقر فى قلوبهم تنبيها على عظمة الله جل جلاله وكمال قدرته وذلك مشروط بنفى التشبيه والمراد منه نفاذ القدرة وجريان المشيئة قال ويدل على صحة هذا قوله فى سورة يونس ثم استوى على العرش يدبر الامر فقوله يدبر الامر جرى مجرى التفسير لقوله ثم استوى على العرش وأورد على هذا القول أن الله تعالى لم يكن مستويا على الملك قبل خلق السموات والارض والله تعالى منزه عن ذلك وأجيب عنه بان الله تعالى كان قبل خلق السموات والارض مالكها لكن لا يصح أن يقال شبع زيد الا بعد أكله الطعام فاذا فسر العرش بالملك صح أن يقال انه تعالى انما استوى على ملكه بعد خلق السموات والارض والقول الثانى أن يكون استوى بمعنى استولى وهذا مذهب المعتزلة وجماعة من المتكلمين واحتجوا عليه بقول الشاعر

قد استوى بشر على العراق ❊ من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا القول انما خص العرش بالاخبار عنه بالاستيلاء عليه لانه أعظم المخلوقات ورد هذا القول بان العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى وانما يقال استولى فلان على كذا اذا لم يكن فى ملكه ثم ملكه واستولى عليه والله تعالى لم يزل مالكا للاشياء كلها ومستوليا عليها فاى تخصيص للعرش هنا دون غيره من المخلوقات ونقل البيهقى عن أبى الحسن الاشعرى أن الله تعالى فعل فى العرش فعلا سماه استواء كما فعل فى غيره فعلا سماه رزقا ونعمة وغيرهما من أفعاله ثم لم يكيف الاستواء الا أنه جعله من صفات الفعل لقوله تعالى ثم استوى على العرش وثم للتراخى والتراخى انما يكون فى الافعال وأفعال الله تعالى توجد بلا مباشرة منه اياها ولا حركة وحكى الاستاذ أبو بكر بن فورك عن بعض أصحابنا أنه قال استوى بمعنى علا من العلو قال ولا يريد بذلك علوا بالمسافة والتحيز والكون فى المكان متمكنا فيه ولكن يريد معنى نفى التحيز عنه وأنه ليس مما يحويه طبق أو يحيط به قطر ووصف الله تعالى بذلك طريقه الخبر ولا نتعدى ما ورد به الخبر قال البيهقى رحمه الله تعالى وهو على هذه الطريقة من صفات الذات وكلمة ثم تعلقت بالمستوى عليه لا بالاستواء قال وقد أشار أبو الحسن الاشعرى الى هذه الطريقة حكاية فقال قال بعض أصحابنا انه صفة ذات قال وجوابى هو الاول وهو أن الله تعالى مستو على عرشه وأنه فوق الاشياء بائن منها بمعنى أنه لا تحله ولا يحلها ولا يماسها ولا يشبهها وليست البينونة بالعزلة تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علوا كبيرا وقد قال بعض أصحابنا ان الاستواء صفة لله تعالى تنفى الاعوجاج عنه وروى أن ابن الاعرابى جاءه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن ما معنى قوله

تعالى الرحمن على العرش استوى. قال انه مستوٍ على عرشه كما أخبر. فقال الرجل انما معنى قوله استوى أي استولى فقال له ابن الاعرابي ما يدريك أن العرب لا تقول استولى فلان على الشيء حتى يكون له فيه مضاد فأيهما غلب قيل لمن غلب قد استولى عليه والله تعالى لا مضاد له فهو على عرشه كما أخبر لا كما تظنه البشر والله أعلم ﴿ وقوله تعالى (يغشى الليل النهار) يعني أنه تعالى يأتي بالليل على النهار فيغطيه ويلبسه حتى يذهب بنوره وفيه حذف تقديره ويغشي النهار الليل وانما لم يذكر النهار لدلالة الكلام عليه (يطلبه حثيثا) يعني سريعا وذلك أنه اذا كان يعقب أحدهما الآخر ويخلفه فكأنه يطلبه حكى الامام فخر الدين الرازي عن القفال أنه قال ان الله تعالى لما أخبر عباده باستوائه على العرش أخبر عن استمرار أمور المخلوقات على وفق مشيئته وأراهم ذلك فيما يشاهدونه منها لينضم العيان الى الخبر وتزول الشبهة من كل الجهات قال الامام واعلم أنه سبحانه وتعالى وصف هذه الحركة بالسرعة الشديدة وذلك لان تعاقب الليل والنهار انما يحصل بحركة الفلك الاعظم وتلك الحركة أشد الحركات سرعة فان الانسان اذا كان في أشد عدوه فبمقدار رفع رجله ووضعها يتحرك الفلك الاعظم ثلاثة آلاف ميل وهي ألف فرسخ فلهذا قال تعالى يطلبه حثيثا لسرعة حركته (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) معنى التسخير التذليل وقال الزجاج وخلق هذه الاشياء جارية في مجاريها بأمره وقال المفسرون يعني بتسخيرهن تذليلهن لما يراد منهما من طلوع وغروب وسير ورجوع اذ ليس هي قادرات بأنفسهن وانما هن يتصرفن في متصرفاتهن على ارادة المدبر لهن الحكيم في تدبيرهن وتصريفهن على ما أراد منهن والمراد بالامر في قوله بأمره نفاذ ارادته لان الغرض من هذه الآية تبيين عظمة قدرته ومنهم من حمل الامر على الامر الذي هو الكلام وقال ان الله تعالى أمر هذه الاجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة الى انقضاء الدنيا وخراب هذا العالم فان قلت ان الشمس والقمر من النجوم فلم أفردهما بالذكر ثم عطف عليهما ذكر النجوم قلت انما أفردهما بالذكر لبيان شرفهما على سائر الكواكب لما فيهما من الاشراق والنور وسيرهما في المنازل لتعرف الاوقات فهو كقوله من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فعطف جبريل وميكال على ذكر الملائكة وان كانا من الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما على غيرهما من الملائكة ﴿ وقوله تعالى (ألا له الخلق والامر) يعني له الخلق لانه خالقهم وله أن يأمر فيهم بما أراد وله أن يحكم فيهم بما شاء وعلى هذا المعنى الامر هنا الذي هو نقيض النهي واستخرج سفيان بن عيينة من هذا المعنى ان كلام الله عز وجل ليس بمخلوق فقال ان الله تعالى فرق بين الخلق والامر فمن جمع بينهما فقد كفر يعني من جعل الامر الذي هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر لان المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله وقيل معناه ان جميع ما في العالم لله عز وجل والخلق له لانه خلقهم وجميع الامور تجري بقضائه وقدره فهو مجريها ومنشئها فلا يبقى بعد هذا لاحد شيء وقيل المراد بالامر هنا الارادة لان الغرض من الآية تعظيم القدرة وفي الآية دليل على انه لا خالق الا الله عز وجل ففيه رد على من يقول ان للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم فأخبر الله انه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا الشمس والقمر والكواكب وله الامر المطلق وليس لاحد أمر غيره فهو الآمر والناهي الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لاحد من خلقه عليه. (تبارك الله) يعني تمجد وتعظم وارتفع وقال الزجاج تبارك تفاعل من البركة ومعنى البركة الكثرة من كل خير وقيل معناه تعالى وتعظم الله (رب العالمين) يعني انه هو الذي يستحق التعظيم وذلك ان الله تعالى لما افتتح هذه الآية بقوله ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض وذكر أشياء من عظيم خلقه وان له الخلق والامر والنهي والقدرة عليهم ختم الآية بالثناء عليه لانه هو المستحق للمدح المطلق والثناء والتعظيم وقال ابن عباس رضي الله عنهما معناه جاء بكل بركة وقيل تبارك معناه تقدس والتقديس الطهارة وقيل معناه باسمه يتبرك في كل شيء وقال المحققون معنى هذه الصفة ثبت

(يغشى الليل النهار) بغشى حمزة وعلي وأبو بكر أي يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل (يطلبه حثيثا) حال من الليل أي سريعا والطالب هو الليل كأنه لسرعة مضيه يطلب النهار (والشمس والقمر والنجوم) أي وخلق الشمس والقمر والنجوم (مسخرات) حال أي مذللات والشمس والقمر والنجوم مسخرات شامي والشمس مبتدأ والبقية معطوفة عليها والخبر مسخرات (بأمره) هو أمر تكوين ولما ذكر أنه خلقهن مسخرات بأمره قال (ألا له الخلق والامر) أي هو الذي خلق الاشياء وله الامر (تبارك الله) كثر خيره أو دام بره من البركة النماء أو من البروك الثبات ومنه البركة (رب العالمين)

ودام كما لم يزل ولا يزال وأصل البركة الثبوت ويقال تبارك الله ولا يقال متبارك ولا مبارك لانه لم يرد
به التوقيف ﴿ قوله عز وجل (ادعوا ربكم) قيل معناه اعبدوا ربكم لان معنى الدعاء طلب الخير من الله تعالى
وهذه صفة العبادة ولانه تعالى عطف عليه قوله وادعوه خوفا وطمعا والمعطوف يجب أن يكون مغايرا
للمعطوف عليه وقيل المراد به حقيقة الدعاء وهو الصحيح لان الدعاء هو السؤال والطلب وهو نوع من أنواع
العبادة لان الداعي لا يقدم على الدعاء الا اذا عرف من نفسه الحاجة الى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله
وعرف أن ربه تبارك وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته وهو قادر على ايصالها الى الداعي فعند ذلك يعرف
العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهو المراد من قوله تعالى (تضرعا) يعني ادعوا
ربكم تذللا واستكانة وهو اظهار الذل الذي في النفس والخشوع يقال ضرع فلان لفلان اذا ذل له وخشع
وقال الزجاج تضرعا يعني تملقا وحقيقته ان تدعوه خاشعين متعبدين بالدعاء له تعالى (وخفية) يعني
سرا في أنفسكم وهو ضد العلانية والادب في الدعاء أن يكون خفيا لهذه الآية قال الحسن بين دعوة السر
ودعوة العلانية سبعون ضعفا ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت ان كان الا همسا
بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول ادعوا ربكم تضرعا وخفية وان الله تعالى ذكر عبدا صالحا رضي فعله
فقال تعالى اذ نادى ربه نداء خفيا (ق) عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس اربعوا على أنفسكم
انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم والذي تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق
راحلته قال أبو موسى رضي الله عنه وأنا خلفه أقول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم في نفسي فقال يا عبد
الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى يا رسول الله قال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
قوله صلى الله عليه وسلم اربعوا على أنفسكم معنى ارفقوا بها واقصروا عن الصياح في الدعاء ﴿ وقوله تعالى
(انه لا يحب المعتدين) يعني في الدعاء وقال أبو مجلز هم الذين يسألون منازل الانبياء عن عبد الله بن مغفل انه
سمع ابنه يقول اللهم اني أسألك القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها فقال أي بني سل الله الجنة وتعوذ به من
النار فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون في هذه الامة قوم يعتدون في الطهور والدعاء
أخرجه أبو داود وقال ابن جريج الاعتداء رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء وقيل الاعتداء مجاوزة الحد
في كل شئ فكل من خالف أمر الله ونهيه فقد اعتدى ودخل تحت قوله تعالى انه لا يحب المعتدين وفرع بعض
أرباب الطريقة على قوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية هل الافضل اظهار العبادات أم لا فذهب بعضهم
الى ان اخفاء الطاعات والعبادات أفضل من اظهارها لهذه الآية ولكونها أبعد عن الرياء وذهب بعضهم الى
أن اظهارها أفضل ليقتدي به الغير فيعمل مثل عمله وتوسط الشيخ محمد بن علي الحكيم الترمذي فقال ان كان
خائفا على نفسه من الرياء فالاولى اخفاء العبادات صونا لعمله عن البطلان وان كان قد بلغ في الصفاء وقوة
اليقين الى التمكين بحيث صار مباينا شائبة الرياء كان الاولى في حقه الاظهار لتحصيل فائدة الاقتداء به
وذهب بعضهم الى أن اظهار العبادات المفروضات أفضل من اخفائها فالصلاة المكتوبة في المسجد أفضل من
صلاته في بيته وصلاة النفل في البيت أفضل من صلاته في المسجد وكذا اظهار الزكاة أفضل من اخفائها واخفاء
صدقة التطوع أفضل من اظهارها ويقاس على هذا سائر العبادات ﴿ قوله تعالى (ولا تفسدوا في الارض
بعد اصلاحها) يعني ولا تفسدوا أيها الناس في الارض بالمعاصي والكفر والدعاء الى غير طاعة الله بعد اصلاح
الله اياها ببعثة الرسل وبيان الشرائع والدعاء الى طاعة الله تعالى وهذا معنى قول الحسن والسدي والضحاك
والكلبي وقال ابن عطية لا تعصوا في الارض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بسبب معاصيكم فعلى هذا يكون
معنى قوله بعد اصلاحها يعني بعد اصلاح الله اياها بالمطر والخصب وقيل معنى الآية ولا تفسدوا في الارض شيئا

(ادعوا ربكم تضرعا وخفية) نصب على الحال أي ذوي تضرع وخفية والتضرع تفعل من الضراعة وهي الذل أي تذللا وتملقا قال عليه السلام انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انما تدعون سميعا قريبا انه معكم أينما كنتم عن الحسن بين دعوة السر والعلانية سبعون ضعفا (انه لا يحب المعتدين) المجاوزين ما أمروا به في كل شئ من الدعاء وغيره وعن ابن جريج الرافعين أصواتهم بالدعاء وعنه الصياح في الدعاء مكروه وبدعة وقيل هو الاسهاب في الدعاء وعن النبي صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم اني أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل ثم قرأ انه لا يحب المعتدين (ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها) أي بالمعصية بعد الطاعة أو بالشرك بعد التوحيد أو

بعد ان أصلحه الله تعالى فيدخل فيه المنع من إتلاف النفس بالقتل أو إفسادها بقطع بعض الأعضاء وإفساد الأموال بالغصب والسرقة وأخذها من الغير بوجوه الحيل وإفساد الأديان بالكفر واعتقاد البدع والأهواء المضلة وإفساد الأنساب بالإقدام على الزنا وإفساد العقول بسبب شرب المسكر وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة فمنع الله من إدخال المفاسد في ماهيتها ۞ وقوله تعالى (وادعوه خوفا وطمعا) أصل الخوف انزعاج في الباطن لما لا يؤمن من المضار وقيل هو توقع مكروه يحصل فيما بعد والطمع توقع محبوب يحصل لمؤمل المعنى وادعوه خوفا من عقابه وطمعا فيما عنده من جزيل ثوابه وقال ابن جريج معناه خوف العدل وطمع الفضل وقيل معناه ادعوه خوفا من الرياء في الذكر والدعاء وطمعا في الإجابة فإن قلت قال في أول الآية ادعوا ربكم تضرعا وخفية وقال هنا وادعوه وهذا هو عطف الشيء على نفسه فما فائدة ذلك قلت الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى ادعوا ربكم أي ليكن الدعاء مقرونا بالتضرع والإخبات وقوله وادعوه خوفا وطمعا أي فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين فكانت الآية الأولى في بيان شرط صحة الدعاء والآية الثانية في بيان فائدة الدعاء وقيل معناه كونوا جامعين في أنفسكم بين الخوف والرجاء في أعمالكم كلها ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله في العبادة والدعاء وإن اجتهدتم فيهما (إن رحمت الله) أصل الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وتستعمل تارة في الرقة المجردة عن الإحسان وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة وإذا وصف بها الباري جل وعز فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة فرحمة الله عز وجل عبارة عن الإفضال والإنعام على عباده وإيصال الخير إليهم وقيل هي إرادة إيصال الخير والنعمة إلى عباده فعلى القول الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال وعلى القول الثاني تكون من صفات الذات (قريب من المحسنين) قال سعيد بن جبير الرحمة ههنا الثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ وقيل إن تأنيث الرحمة ليس بحقيقي وما كان كذلك جاز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة وكون الرحمة قريبة من المحسنين لأن الإنسان في كل ساعة من الساعات في إدبار عن الدنيا وإقبال على الآخرة وإذا كان كذلك كان الموت أقرب إليه من الحياة وليس بينه وبين رحمة الله التي هي الثواب في الآخرة إلا الموت وهو قريب من الإنسان قوله عز وجل (وهو الذي يرسل الرياح) هذا عطف على ما قبله والمعنى إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض وهو الذي يرسل الرياح (نشرا) قرئ نشرا بالنون أراد جمع نشور وهي الريح الطيبة الهبوب التي تهب من كل ناحية وقيل هو جمع ناشر يقال أنشر الله الريح بمعنى أحياها قال الفراء النشر الريح الطيبة اللينة التي تنشئ السحاب وقال ابن الأنباري النشر المنتشرة الواسعة الهبوب وقيل النشر خلاف الطي فيحتمل أنها كانت بانقطاعها كالمطوية فانتشرت بمعنى أرسلت وقرئ بشرا بالباء جمع بشيرة وهي التي تبشر بالمطر والريح هو الهواء المتحرك يمنة ويسرة والرياح أربعة الصبا وهي الشرقية والدبور وهي الغربية والشمال وهي التي تهب من تحت القطب الشمالي والجنوب وهي القبلية وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن الرياح ثمان أربع منها عذاب وهي القاصف والعاصف والصرصر والعقيم وأربع منها رحمة وهي الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات (بين يدي رحمته) يعني أمام المطر الذي هو رحمة وإنما سماه رحمة لأنه سبب لحياة الأرض الميتة قال أبو بكر بن الأنباري رحمه الله تعالى اليدان تستعملهما العرب في المجاز على معنى التقدمة تقول هذه تكون في الفتن بين يدي الساعة يريدون قبل أن تقوم الساعة تشبيها وتمثيلا بما إذا كانت يدا الإنسان تتقدمانه كذلك الرياح تتقدم المطر وتؤذن به عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله ما بلغكم في الريح فلم يرجعوا إليه شيئا فبلغني الذي سأل عمر عنه من أمر الريح فاستحثثت راحلتي حتى أدركت عمر وكنت في مؤخر الناس فقلت يا أمير المؤمنين أخبرت أنك سألت عن الريح فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالظلم بعد العدل (وادعوه خوفا وطمعا) حالان أي خائفين من الرد طامعين في الإجابة أو من النيران وفي الجنان أو من الفراق وفي التلاق أو من غيب العاقبة وفي ظاهر الهداية أو من العدل وفي الفضل (إن رحمت الله قريب من المحسنين) ذكر قريب على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم أو لأنه صفة موصوف محذوف أي شيء قريب أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي أو للإضافة إلى المذكر (وهو الذي يرسل الرياح) الريح مكي وحمزة وعلي (نشرا) حمزة وعلي مصدر نشر وانتصابه إما لأن أرسل ونشر متقاربان فكأنه قيل نشرها نشرا وإما على الحال أي منشورات بشرا عاصم تخفيف بشرا جمع بشير لأن الرياح تبشر بالمطر نشرا شامي تخفيف نشر كرسل ورسل وهو قراءة الباقين جمع نشور أي ناشرة للمطر (بين يدي رحمته) أي نعمته وهو الغيث الذي هو من

يقول الريح من روح الله تعالى تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فاذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله من خيرها واستعيذوا بالله من شرها رواه الشافعي رضي الله عنه بطوله وأخرجه أبو داود في المسند عنه وقال كعب الاحبار لو حبس الله الريح عن عباده ثلاثة أيام لانتن أكثر أهل الأرض وقوله تعالى (حتى اذا أقلت سحابا ثقالا) يقال أقل فلان الشئ اذا حمله واشتقاق الاقلال من القلة فان من يرفع شيأ يراه قليلا والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء سمي سحابا لانسحابه في الهواء والمعنى حتى اذا حملت هذه الرياح سحابا ثقالا بما فيه من الماء قال السدي ان الله تبارك وتعالى يرسل الرياح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين وهما طرفا السماء والارض حيث يلتقيان فتخرجه من ثم ثم تنشره فتبسطه في السماء كيف يشاء ثم تفتح له أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ثم يمطر السحاب بعد ذلك وقيل ان الله تعالى دبر بحكمته ان الرياح تحرك تحريكا شديدا فتثير السحاب ثم يضم بعضه الى بعض فيتراكم و ينعقد ويحمل الماء ثم تسوقه الى حيث يشاء الله عز وجل وهو قوله تعالى (سقناه لبلد ميت) يعني الى بلد فتكون اللام بمعنى الى وقيل معناه لاجل حياة بلد ميت وانما قال سقناه لان لفظ السحاب مذكر وان كان جمع سحابة فكان ورود الكناية عنه على سبيل التذكير جائزا نظرا الى اللفظ قال الازهري رحمه الله تعالى قال الليث البلد كل موضع من الارض عامر أو غير عامر خال أو مسكون والطائفة منها بلدة والجمع بلاد وغيرها والمفازة تسمى بلدة لكونها مسكن الوحش والجن قال الاعشى

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة ۞ للجن بالليل في حافاتها زجل

ومعنى الآية انا سقنا السحاب الى بلد ميت محتاج لانزال الماء لم ينزل فيه غيث ولم تنبت فيه خضرة (فأنزلنا به الماء) اختلفوا في الضمير في قوله تعالى به الى ماذا يعود فقال الزجاج رحمه الله وابن الانباري جائز أن يكون المعنى فانزلنا بالبلد الميت الماء وجائز أن يكون المعنى وأنزلنا بالسحاب الماء لان السحاب آلة لنزول الماء (فأخرجنا به) يعني بذلك الماء لان انزال الماء كان سببا لاخراج الثمرات وقيل يحتمل أن يكون المعنى فاخرجنا بذلك الميت (من كل الثمرات) يعني وأخرجنا بذلك البلد بعد موته وجدبه من أصناف الثمار والزروع (كذلك نخرج الموتى) يعني كما أحيينا البلد الميت كذلك نخرج الموتى أحياء من قبورهم بعد فنائهم ودروس آثارهم واختلفوا في وجه التشبيه فقيل ان الله تعالى كما يخلق النبات بواسطة انزال المطر كذلك يحيي الموتى بواسطة انزال المطر أيضا قال أبو هريرة وابن عباس رضي الله عنهما ان الناس اذا ماتوا في النفخة الاولى أمطر الله تعالى عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحيوان أربعين سنة فينبتون كما ينبت الزرع من الماء وفي رواية أربعين يوما فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى اذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم النوم فينامون في قبورهم فاذا نفخ في الصور النفخة الثانية عاشوا ثم يحشرون من قبورهم وهم يجدون طعم النوم في رؤسهم وأعينهم كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه فعند ذلك يقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا فيناديهم المنادي هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون قال مجاهد اذا أراد الله تعالى أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى تنشق الارض ثم يرسل الارواح فتعود كل روح الى جسدها فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر كاحيائه الارض به وقيل انما وقع التشبيه باصل الاحياء والمعنى انه تعالى كما أحيا هذا البلد الميت بعد خرابه وموته فانبت فيه الزرع والشجر وجعل فيه الثمر كذلك يحيي الله الموتى ويخرجهم من قبورهم أحياء بعد ان كانوا أمواتا ورمما بالية لان من قدر على اخراج الثمر الرطب من الخشب اليابس قادر على أن يحييهم ويخرجهم من قبورهم الى حشرهم ونشرهم (لعلكم تذكرون) الخطاب لمنكري البعث يقول انكم شاهدتم الاشجار وهي مزهرة مورقة مثمرة في أيام الربيع والصيف ثم انكم شاهدتموها يابسة عارية من تلك الازهار والاوراق والثمار ثم ان الله تعالى أحياها مرة أخرى فالقادر على

أجل النعم (حتى اذا أقلت) حملت ورفعت واشتقاق الاقلال من القلة لان الرافع المطيق يرى ما يرفعه قليلا (سحابا ثقالا) بالماء جمع سحابة (سقناه) الضمير للسحاب على اللفظ ولو حمل على المعنى كالثقال لانث كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل ثقيلا (لبلد ميت) لاجل بلد ليس فيه مطر ولسقيه ميت مدني وحمزة وعلي وحفص (فأنزلنا به الماء) بالسحاب أو بالسوق وكذلك (فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك) مثل ذلك الاخراج وهو اخراج الثمرات (نخرج الموتى لعلكم تذكرون) فيؤديكم التذكر الى الايمان بالبعث اذ لا فرق بين الاخراجين لان كل واحد منهما اعادة الشئ بعد انشائه

أحياهم ليعلموا أنه قادر على إحياء الأجساد بعد موتها والمعنى إنما وصفت ما وصفت من التشبيه والتمثيل لكي تعتبروا وتتذكروا وتعلموا أن من قدر على ذلك كان هو الذي يعيد ويحيي ﴿ قوله تعالى (والبلد الطيب) يعني والأرض الطيبة التربة السهلة السمحة (يخرج نباته باذن ربه) يعني اذا أصابه المطر أخرج نباته باذن الله عز وجل (والذي خبث لا يخرج) يعني والبلد الذي خبث أرضه فهي سبخة لا يخرج يعني لا يخرج نباته (الا نكدا) يعني عسرا بمشقة وكلفة قال الشاعر في المعنى فلم انسانا .

لا تنجز الوعد ان وعدت وان • أعطيت أعطيت تافها نكدا

يعني بالتافه القليل وبالنكد العسير ومعناه انك ان أعطيت أعطيت القليل بعسر ومشقة قال المفسرون هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالأرض الحرة الطيبة وشبه نزول القرآن على قلب المؤمن بنزول المطر على الأرض الطيبة فاذا نزل المطر عليها أخرجت أنواع الأزهار والثمار وكذلك المؤمن اذا سمع القرآن آمن به وانتفع به وظهرت منه الطاعات والعبادات وأنواع الأخلاق الحميدة وشبه الكافر بالأرض الرديئة الغليظة السبخة التي لا ينتفع بها وان أصابها المطر فكذلك الكافر اذا سمع القرآن لا ينتفع به ولا يصدقه ولا يزيده الا عتوا وكفرا وان عمل الكافر حسنة في الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع بها في الآخرة قال ابن عباس رضي الله عنهما هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول هو طيب وعمله طيب كما ان البلد الطيب ثمره طيب ثم ضرب مثل الكافر كالبلدة السبخة المالحة التي خرجت منها البركة فالكافر خبيث وعمله خبيث وقال مجاهد هذا مثل ضربه الله تعالى لآدم وذريته كلهم منهم خبيث وطيب ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله عز وجل ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله تعالى الذي أرسلت به خرجاه في الصحيحين ﴿ وقوله تعالى (كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) يعني كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والايمان آية بعد آية وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله تعالى على انعامه عليهم بالهداية وحيث جنبهم سبيل الضلالة وانما خص الشاكرين بالذكر لانهم هم الذين انتفعوا بسماع القرآن ﴿ قوله عز وجل (لقد أرسلنا نوحا الى قومه) اعلم ان الله تبارك وتعالى لما ذكر في الآيات المتقدمة دلائل آثار قدرته وغرائب خلقه وصنعه الدالة على توحيده وربوبيته وأقام الدلالة القاطعة على صحة البعث بعد الموت أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم مع أممهم وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن اعراض قومه فقط عن قبول الحق بل قد أعرض عنه سائر الأمم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على ان عاقبة أولئك الذين كذبوا الرسل كانت الى الخسار والهلاك في الدنيا وفي الآخرة الى العذاب العظيم فمن كذب بمحمد صلى الله عليه وسلم من قومه كانت عاقبته مثل أولئك الذين خلوا من قبله من الأمم المكذبة وفي ذكر هذه القصص دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يلق أحدا من علماء زمانه فلما أتى بمثل هذه القصص والأخبار عن القرون الماضية والأمم الخالية مما لم ينكره عليه أحد علم بذلك انه انما أتى به من عند الله عز وجل وانه أوحي اليه ذلك فكان ذلك دليلا واضحا وبرهانا قاطعا على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى لقد أرسلنا نوحا الى قومه لقد أرسلنا نوحا جواب قسم محذوف تقديره والله لقد أرسلنا نوحا وهو نوح ابن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس عليه الصلاة والسلام ومعنى أرسلنا بعثنا وهو أول نبي بعثه الله

(والبلد الطيب) الأرض الطيبة التراب (يخرج نباته باذن ربه) بتيسيره وهو موضع الحال كأنه قيل يخرج نباته حسنا وافيا لانه واقع في مقابلة نكدا (والذي خبث) صفة للبلد أي والبلد الخبيث (لا يخرج) أي نباته فحذف للاكتفاء (الا نكدا) هو الذي لا خير فيه وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ وهو المؤمن ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك وهو الكافر وهذا التمثيل واقع على أثر مثل ذلك المطر وانزاله بالبلد الميت واخراج الثمرات به على طريق الاستطراد (كذلك) مثل ذلك التصريف (نصرف الآيات) نرددها ونكررها (لقوم يشكرون) نعمة الله وهم المؤمنون ليتفكروا فيها ويعتبروا بها (لقد أرسلنا) جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا (نوحا الى قومه) أرسل وهو ابن خمسين سنة وكان نجارا وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو اسم ادريس عليه السلام

(فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) غيره على بالرفع على المحل كأنه قيل مالكم اله غيره فلا تعبدوا معه غيره والجر على اللفظ (انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو الطوفان (قال الملأ) أى الأشراف والسادة (من قومه انا لنراك فى ضلال مبين) أى بين فى ذهاب عن طريق الصواب والرؤية رؤية القلب (قال ياقوم ليس بى ضلالة) ولم يقل ضلال كما قالوا لان الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ فى نفى الضلال عن نفسه كأنه قال ليس بى شئ من الضلال ثم استدرك لتأكيد نفى الضلالة فقال (ولكنى رسول من رب العالمين) لان كونه رسولا من الله مبلغ رسالاته فى معنى كونه على الصراط المستقيم فكان فى الغاية القصوى من الهدى (أبلغكم رسالات ربى) ما أوحى الى فى الأوقات المتطاولة أو فى المعانى المختلفة من الاوامر والنواهى والمواعظ والبشائر والنذائر أبلغكم أبو عمرو وهو كلام مستأنف بيان لكونه رسول رب العالمين (وأنصح لكم) وأقصد صلاحكم باخلاص يقال نصحته ونصحت له وفى زيادة اللام مبالغة ودلالة على امحاض النصيحة وحقيقة النصح ارادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك أو النهاية فى صدق العناية (وأعلم من الله مالا تعلمون) أى من صفاته يعنى قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وان بأسه لا يرد عن القوم المجرمين (أوعجبتم) الهمزة للانكار والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف كأنه قيل أكذبتم وعجبتم (أن جاءكم) من أن جاءكم (ذكر) موعظة (من ربكم على رجل منكم) على لسان رجل منكم أى من جنسكم وذلك لانهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون ما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين يعنون ارسال البشر ولو شاء ربنا لانزل ملائكة (لينذركم) ليحذركم عاقبة الكفر (ولتتقوا) ولتوجد منكم التقوى وهى الخشية بسبب الانذار (ولعلكم ترحمون) ولترحموا بالتقوى ان وجدت منكم (فكذبوه)

تعالى بعد ادريس وكان نوح عليه الصلاة والسلام نجارا وقيل معنى الارسال ان الله تعالى حمله رسالة ليؤديها الى قومه فعلى هذا التقدير فالرسالة تكون متضمنة للبعث أيضا ويكون البعث كالتابع لانه الأصل قال ابن عباس رضى الله عنهما بعثه الله وهو ابن أربعين سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة وقيل وهو ابن مائة سنة وقال ابن عباس رضى الله عنهما سمى نوحا لكثرة ما ناح على نفسه واختلفوا فى سبب نوحه فقيل لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لمراجعته ربه فى شأن ابنه كنعان وقيل لانه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى اليه أعبتنى أم عبت الكلب (فقال) يعنى نوحا لقومه (ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) يعنى اعبدوا الله تعالى فانه هو الذى يستحق العبادة لا غيره فانه ليس لكم اله معبود سواه فانه هو الذى يستوجب أن يعبد (انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) يعنى ان لم تقبلوا ما آمركم به من عبادة الله تعالى واتباع أمره وطاعته واليوم الذى خافه عليهم هو اما يوم الطوفان واهلاكهم فيه أو يوم القيامة انما قال أخاف على الشك وان كان على يقين من حلول العذاب بهم ان لم يؤمنوا به لانه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم أيعاجلهم أم يتأخر عنهم العذاب الى يوم القيامة (قال الملأ) وهم الجماعة الاشراف (من قومه انا لنراك) يعنى يا نوح (فى ضلال مبين) يعنى فى خطأ وزوال عن الحق بين (قال) يعنى نوحا (ياقوم ليس بى ضلالة) يعنى ما بى ما تظنون من الضلال (ولكنى رسول من رب العالمين) يعنى هو أرسلنى اليكم لانذركم وأخوفكم ان لم تؤمنوا به وهو قوله (أبلغكم رسالات ربى) يعنى تحذيرى اياكم عقابه على كفركم ان لم تؤمنوا به (وأنصح لكم) يقال نصحته ونصحت له كما يقال شكرته وشكرت له والنصح ارادة الخير لغيره كما يريده لنفسه وقيل النصح تحرى قول أو فعل فيه صلاح الغير وقيل حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه والمعنى انه قال أبلغكم جميع تكاليف الله وشرائعه وأرشدكم الى الوجه الاصلح والاصوب لكم وأدعوكم الى ما دعانى اليه وأحب لكم ما أحب لنفسى قال بعضهم والفرق بين ابلاغ الرسالة وبين النصيحة هو أن تبليغ الرسالة أن يعرفهم جميع أوامر الله تعالى ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى أوجبها الله تعالى عليهم وأما النصيحة فهو أن يرغبهم فى قبول تلك الاوامر والنواهى والعبادات ويحذرهم عقابه ان عصوه (وأعلم من الله مالا تعلمون) يعنى وأعلم انكم ان عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان والغرق فى الدنيا ويعذبكم فى الآخرة عذابا عظيما وقيل أعلم ان مغفرة الله تعالى لمن تاب وعقوبته لمن أصر على الكفر وقيل لعل الله تعالى أطلعه على سر من أسراره فقال وأعلم من الله مالا تعلمون (أوعجبتم) الالف ألف استفهام والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف وهذا الاستفهام استفهام انكار معناه أكذبتم وعجبتم (أن جاءكم ذكر من ربكم) يعنى وحيا من ربكم (على رجل منكم) تعرفونه وتعرفون نسبه وذلك لان كونه منهم يزيل التعجب وقيل المراد بالذكر الكتاب الذى أنزله الله تعالى على نوح عليه الصلاة والسلام سماه ذكرا كما سمى القرآن ذكرا وقيل المراد بالذكر المعجزة التى جاء بها نوح عليه السلام فعلى هذا تكون على بمعنى مع أى مع رجل منكم قال الفراء على هنا بمعنى مع (لينذركم) يعنى جاءكم لاجل أن ينذركم (ولتتقوا) أى ولاجل أن تتقوا (ولعلكم ترحمون) لان المقصود من ارسال الرسل الانذار والمقصود من الانذار التقوى عن كل مالا ينبغى والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة فى الدار الآخرة (فكذبوه)

فنسبوه الى الكذب (فأنجيناه والذين معه) وكانوا أربعين رجلا أو أربعين امرأة وقيل تسعة بنوه سام وحام ويافث وستة ممن آمن به (فى الفلك) يتعلق بمعه كأنه قيل والذين صحبوه فى الفلك (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين) عن الحق يقال أعمى فى البصر وعم فى البصيرة (والى عاد) وأرسلنا الى عاد وهو عطف على نوح (أخاهم) واحدا منهم من قولك يا أخا العرب للواحد منهم وانما جعل واحدا منهم لانهم عن رجل منهم أفهم فكانت الحجة عليهم ألزم (هودا) عطف بيان لاخاهم وهو هود بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح (قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون) وانما لم يقل فقال كما فى قصة نوح عليه السلام لانه على تقدير سؤال سائل قال فما قال لهم هود فقيل قال يا قوم اعبدوا الله وكذلك (قال الملأ الذين كفروا من قومه) وانما وصف الملأ بالذين كفروا دون الملا من قوم نوح لان فى أشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد فاريدت التفرقة بالوصف ولم يكن فى أشراف قوم نوح عليه السلام مؤمن (انا لنراك فى سفاهة) فى خفة حلم وسخافة عقل حيث تهجر دين قومك الى دين آخر وجعلت السفاهة ظرفا مجازا يعنى انه متمكن فيها غير منفك عنها (وانا لنظنك من الكاذبين) فى ادعائك رسالة (قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح) فيما أدعوكم اليه (أمين) على ما أقول لكم وانما قال هنا وأنا لكم ناصح أمين لقولهم وانا لنظنك من الكاذبين أى ليقابل الاسم الاسم وفى اجابة الانبياء عليهم السلام من نسبهم الى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والاغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بان خصومهم أضل الناس وأسفههم أدب حسن وخلق عظيم واخبار الله تعالى ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم

يعنى فكذبوا نوحا (فأنجيناه) يعنى من الطوفان والغرق (والذين معه) يعنى من آمن به من قومه معه (فى الفلك) يعنى فى السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين) قال ابن عباس رضى الله عنهما عميت قلوبهم عن معرفة الله تعالى وقال الزجاج عموا عن الحق والايمان يقال رجل عم فى البصيرة وأعمى فى البصر وأنشدوا قول زهير

وأعلم ما فى اليوم والامس قبله * ولكننى عن علم ما فى غد عم

قال مقاتل عموا عن نزول العذاب بهم وهو الغرق ۞ قوله تعالى (والى عاد أخاهم هودا) أى وأرسلنا الى عاد وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وهى عاد الاولى أخاهم هودا يعنى أخاهم فى النسب لا فى الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وقال ابن اسحق هو هود بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح واتفقوا على ان هودا عليه الصلاة والسلام لم يكن أخاهم فى الدين ثم اختلفوا فى سبب الاخوة من أين حصلت فقيل انه كان واحدا من القبيلة فيتوجه قوله أخاهم لانه واحد منهم وقيل انه لم يكن من القبيلة ثم ذكروا فى تفسير هذه الاخوة وجهين . الاول قال الزجاج انه كان من بنى آدم ومن جنسهم لا من الملائكة ويكفى هذا القدر فى تسمية الاخوة والمعنى انا أرسلنا الى عاد واحدا من جنسهم من البشر ليكون الفهم والانس بكلامه أتم وأكمل ولم نبعث اليهم من غير جنسهم مثل ملك أو الجن والثانى أنه أخاهم يعنى صاحبهم والعرب تسمى صاحب القوم أخاهم وكانت منازل عاد بالاحقاف باليمن والاحقاف الرمل الذى عند عمان وحضرموت (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) أى اعبدوا الله وحده ولا تجعلوا معه الها آخر فانه ليس لكم اله غيره والفرق بين قوله فى قصة نوح فقال وههنا قال ان نوحا كان مواظبا على دعوة قومه غير متوان فيها لان الفاء تدل على التعقيب وأما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح فى المبالغة فى الدعاء فأخبر الله تعالى عنه بقوله قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره (أفلا تتقون) يعنى أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره ولما كانت هذه القصة منسوقة على قصة قوم نوح وقد علموا ما حل بهم من الغرق حسن قوله هنا أفلا تتقون يعنى أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب ولما لم يكن قبل واقعة قوم نوح نبى حسن تخويفهم من العذاب فقال هناك انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة) يعنى انا لنراك يا هود فى حمق وجهالة وضلالة عن الحق والصواب أخبر الله تعالى عن قوم نوح انهم قالوا له انا لنراك فى ضلال مبين وأخبر عن قوم هود انهم قالوا له انا لنراك فى سفاهة والفرق بينهما ان نوحا لما خوف قومه بالطوفان وطفق فى عمل السفينة قال له قومه عند ذلك انا لنراك فى ضلال مبين حيث تتعب فى اصلاح سفينة فى أرض ليس فيها من الماء شئ وأما هود عليه السلام فانه لما زيف عبادة الاصنام ونسب من عبدها الى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله وقالوا انا لنراك فى سفاهة (وانا لنظنك من الكاذبين) يعنى فى ادعائك انك رسول من عند الله (قال) يعنى قال هود لهؤلاء الملأ الذين نسبوه الى السفه (يا قوم ليس بى سفاهة) يعنى ليس الامر كما تدعون ان بى سفاهة (ولكنى رسول من رب العالمين) يعنى اليكم (أبلغكم رسالات ربى) يعنى أؤدى اليكم ما أرسلنى به من أوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه (وأنا لكم ناصح) يعنى فيما آمركم به من عبادة الله عز وجل وترك عبادة ما سواه

ويبدلون آذياطم على مايكون منهم (اوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أي خلفتموهم في الارض أو في مساكنهم واذ مفعول به وليس بظرف أي اذكروا وقت استخلافكم (وزادكم في الخلق بسطة) طولا وامتدادا فكان أقصرهم ستين ذراعا وأطولهم مائة ذراع بصطة حجازي وعاصم وعلي (فاذكروا آلاء الله) في استخلافكم وبسطة أجرامكم وماسواهما من عطاياه وواحد الآلاء الى نحو اني والآناء (لعلكم تفلحون) ومعنى المجيء في (قالوا أجئتنا) أن يكون لهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء قبل المبعث فلما أوحي اليه جاء قومه يدعوهم (لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء في اتخاذ الاصنام شركاء معهم حبا لما نشؤا عليه (فأتنا بما تعدنا) من العذاب (ان كنت من الصادقين) ان العذاب نازل بنا (قال قد وقع) أي قد نزل (عليكم) جعل المتوقع الذي لابد من نزوله بمنزلة الواقع كقولك لمن طلب اليك بعض المطالب قد كان (من ربكم رجس) عذاب (وغضب) سخط (أتجادلونني في أسماء سميتموها) في أشياء ماهي الا أسماء ليس تحتها مسميات لانكم تسمون الاصنام آلهة وهي خالية عن معنى الالوهية (أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان) حجة (فانتظروا) نزول العذاب (اني معكم من المنتظرين) ذلك (فأنجيناه والذين معه) أي من آمن به (برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) الدابر الاصل أو الكائن خلف الشيء وقطع دابرهم استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم (وما كانوا مؤمنين) فائدة نفي الايمان عنهم مع اثبات التكذيب بآيات الله الاشعار بان الهلاك خص المكذبين وقصتهم ان عادا قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت وكانت لهم أصنام يعبدونها صداء وصمود والهباء فبعث الله اليهم هودا فكذبوه فأمسك القطر عنهم ثلاث سنين وكانوا اذا نزل بهم بلاء طلبوا الى الله الفرج منه عند

(أمين) يعني على تبليغ الرسالة وأداء النصح والامين الثقة على ما ائتمن عليه حكى الله عن نوح عليه الصلاة والسلام انه قال وأنصح لكم وحكى عن هود عليه الصلاة والسلام انه قال وأنا لكم ناصح فالاول بصيغة الفعل والثاني بصيغة اسم الفاعل والفرق بينهما ان صيغة الفعل تدل على تجدد النصح ساعة بعد ساعة فكان نوح يدعو قومه ليلا ونهارا كما أخبر الله عنه بقوله قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال وأنصح لكم وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا قال وأنا لكم ناصح أمين والمدح للنفس بأعظم صفات المدح غير لائق بالعقلاء وانما فعل هود ذلك وقال هذا القول لانه كان يجب عليه اعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم في قولهم وانا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالامانة وانه أمين في تبليغ ما أرسل به من عند الله ففيه تقرير للرسالة والنبوة وفيه دليل على جواز مدح الانسان نفسه في موضع الضرورة الى مدحها (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) يعني أعجبتم أن أنزل الله وحيه على رجل تعرفونه لينذركم بأس ربكم ويخوفكم عقابه (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) يعني واذكروا نعمة الله عليكم اذ أهلك قوم نوح وجعلكم تخلفونهم في الارض (وزادكم في الخلق بسطة) يعني طولا وقوة قال الكلبي والسدي كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا وقيل سبعين ذراعا وعن ابن عباس رضي الله عنهما ثمانين ذراعا وقال مقاتل اثنى عشر ذراعا وقال وهب كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة (فاذكروا آلاء الله) يعني نعم الله وفيه اضمار تقديره فاذكروا نعمة الله عليكم واعملوا عملا يليق بذلك الانعام وهو أن تؤمنوا به وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الاصنام (لعلكم تفلحون) يعني لكي تفوزوا بالفلاح وهو البقاء في الآخرة (قالوا) يعني قال قوم هود مجيبين له (أجئتنا) ياهود (لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) يعني من الاصنام (فأتنا بما تعدنا) يعني من العذاب (ان كنت من الصادقين) يعني في قولك انك رسول الله (قال) يعني قال هود مجيبا لهم (قد وقع) يعني نزل ووجب (عليكم من ربكم رجس وغضب) أي عذاب وسخط (أتجادلونني) يعني أتخاصمونني (في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) يعني وضعتم لها أسماء من عند أنفسكم والمراد منه الاستفهام على سبيل الانكار عليهم لانهم سموا الاصنام بالآلهة وذلك معدوم فيها (ما نزل الله بها من سلطان) يعني من حجة وبرهان على هذه التسمية وانما سميتموها أنتم من عند أنفسكم بغير دليل (فانتظروا) يعني العذاب (اني معكم من المنتظرين) يعني نزول العذاب بكم (فأنجيناه) يعني فأنجينا هودا عند نزول العذاب بقومه (والذين معه برحمة منا) يعني وأنجينا أتباعه الذين آمنوا به وصدقوه لانهم كانوا مستحقين للرحمة (وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) يعني وأهلكنا الذين كذبوا هودا من قومه وأراد بالآيات معجزات هود عليه الصلاة والسلام الدالة على صدقه وهذا اهلاك استئصال فهلكوا جميعا ولم يبق منهم واحد (وما كانوا مؤمنين) يعني لانهم لم يكونوا مصدقين بالله ولا برسوله هود عليه الصلاة والسلام

﴿ذكر قصة عاد على ما ذكره محمد بن اسحق وأصحاب السير والاخبار﴾

قالوا جميعا كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله تعالى فيهم هودا عليه الصلاة والسلام الاحقاف

والاحقاف الرمل فيما بين عمان وحضرموت من أرض اليمن وكانوا قد فشوا في الارض كلها وقهروا أهلها
بفضل قوتهم التي جعلها الله فيهم وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله عز وجل صنم يقال له صداء
وصنم يقال له صمود وصنم يقال له الهباء فبعث الله عز وجل فيهم هودا عليه الصلاة والسلام وهو من أوسطهم
نسبا وأفضلهم موضعا فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه الها غيره وان يكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم
بغير ذلك فيما ذكر فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس فآمنوا به وهم يسير يكتمون
ايمانهم وكان ممن صدقه وآمن به رجل يقال له مرثد بن سعد بن عفير وكان يكتم ايمانه فلما عتوا على الله
وكذبوا نبيهم وأكثروا في الارض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية وأتخذوا المصانع لعلهم يخلدون فلما
فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس في ذلك الزمان اذا نزل بهم بلاء
وجهد يطلبون الفرج من الله عز وجل وذلك عند بيته الحرام بمكة مؤمنهم ومشركهم وكان يجتمع بمكة ناس
كثير مختلفة أديانهم وكل معظم لمكة معترف بحرمتها ومكانها من الله عز وجل وكان البيت معروفا مكانه من
الحرم وكان سكان مكة يومئذ العماليق وانما سموا العماليق لان أباهم كان عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح
وكان سيد العماليق يومئذ رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت أم معاوية كلهدة بنت الخيبري وهو رجل
من عاد وكانت عاد أخوال معاوية سيد العماليق فلما قحطت عاد وقل عنهم المطر قالوا جهزوا منكم وفدا الى
مكة ليستسقوا لكم فانكم قد هلكتم فبعثوا قيل بن عنز ونعيم بن هزال من هذيل وعقيل بن صندين بن عاد
الاكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما يكتم اسلامه وجلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر سيد
العماليق ولقمان بن عاد فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه جماعة من قومه فبلغ عدد وفد عاد سبعين
رجلا فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا
أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر فلما رأى
معاوية بن بكر طول مقامهم عنده وقد بعثهم قومهم يتغوثون لهم من البلاء الذي أصابهم شق ذلك عليه
وقال هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي نازلون علي والله ما أدري كيف أصنع فاني
أستحي ان آمرهم بالخروج لما بعثوا اليه فيظنوا أنه ضيق مني بمكانهم عندي وقد هلك من وراءهم من
قومهم جهدا وعطشا فالوشكى ذلك من أمرهم الى قينتيه الجرادتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون من
قاله لعل ذلك أن يحركهم فقال معاوية

ألا يا قيل ويحك قم فهينم * لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد ان عادا * قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير * فقد أمست نساؤهم أيامى
وان الوحش تأتيهم جهارا * ولا تخشى لعادي سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم * نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم * ولا لقوا التحية والسلاما

فلما قال معاوية هذا الشعر وغنتهم به الجرادتان وعرف القوم ما غنتا به قال بعضهم لبعض يا قوم انما بعثكم
قومكم ليتغوثوا بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال
مرثد بن سعد بن عفير انكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن ان أطعتم نبيكم وتبتم الى ربكم سقيتم وأظهر
اسلامه عند ذلك وقال في ذلك

عصت عاد رسولهم فأمسوا * عطاشا ما تبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود * يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشد * فأبصرنا الهدى وجلى العماء

بيته الحرام فأوفدوا اليه
قيل بن عنز ونعيم بن هزال
ومرثد بن سعد وكان يكتم
ايمانه بهود عليه السلام
وأهل مكة اذ ذاك العماليق
أولاد عمليق بن لاوذ بن
سام بن نوح وسيدهم
معاوية بن بكر فنزلوا عليه
بظاهر مكة فقال لهم مرثد
لن تسقوا حتى تؤمنوا بهود
فخلفوا مرثدا وخرجوا
فقال قيل اللهم اسق عادا ما
كنت تسقيهم فأنشأ الله
سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء
وسوداء ثم ناداه مناد من
السماء يا قيل اختر لنفسك
ولقومك فاختار السوداء
ظنا منه انها أكثر
ماء فخرجت على عاد من
واد لهم فاستبشروا وقالوا
هذا عارض ممطرنا فجاءتهم
منها ريح عقيم فأهلكتهم
ونجا هود والمؤمنون معه
فأتوا مكة فعبدوا الله فيها
حتى ماتوا

وان اله هود هو الهى ❊ على الله التوكل والرجاء

زاد في رواية

لقد حكم الاله وليس جورا ❊ وحكم الله ان غلب الهواء

على عاد وعاد شر قوم ❊ فقد هلكوا وليس لهم بقاء

وانى لن أفارق دين هود ❊ طوال الدهر أو يأتى الفناء

فقال جلهمة بن الخيبرى يجيب المرثد بن سعد حين فرغ من مقالته وعرف انه اتبع دين هود وآمن به

ألا يا سعد انك من قبيل ❊ ذوى كرم وأمك من ثمود

فانا لانطيعك مابقينا ❊ ولسنا فاعلين لما تريد

أتأمرنا لنترك دين رفد ❊ ورمل والصداء مع الصمود

ونترك دين آباء كرام ❊ ذوى رأى ونتبع دين هود

لايخفى مافى قافية البيت الثانى

ثم قال جلهمة لمعاوية بن بكر وأبيه بكر احبسا عنا مرثدا فلا يقدمن معنا مكة فانه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم خرجوا الى مكة يستسقون بها لعاد فلما ولوا الى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعوا الله بشئ مما خرجوا اليه فلما انتهى اليهم قام يدعو الله ربها وفد عاد يدعونه فقال مرثد اللهم أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فيما يدعوك به وفد عاد وقام قيل بن عتر رأس وفد عاد يدعو فقال اللهم أعط قيلا ماسألك وقال الوفد معه واجعل سؤلنا مع سؤله وكان قد تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد وكان سيد عاد حتى اذا فرغوا من دعواتهم قام لقمان وقال اللهم انى جئتك وحدى فى حاجتى فاعطنى سؤلى وسأل طول العمر فعمر عمر سبعة أنسر وقال قيل بن عتر حين دعا يا الهنا ان كان هود صادقا فاسقنا فانا قد هلكنا فانشأ الله تعالى سحائب ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء ياقيل اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب فقال قيل قد اخترت السحابة السوداء فانها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادا رمددا لايبقى من آل عاد أحدا وساق الله تعالى السحابة السوداء التى اختارها قيل بما فيها من النقمة الى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول الله عز وجل بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شئ أى كل شئ مرت به من رجالها وكان أول من أبصر ما فيها وعرف انها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد فلما عرفت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت فلما ان أفاقت قالوا لها ماذا رأيت قالت رأيت الريح فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فلم تدع من آل عاد أحدا الا أهلكته واعتزل هود ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ما يصيبه ومن معه من الريح الا ما تلين عليه الجلود وتلذ به الانفس وانها لتمر بالظعن من عاد فتحملهم بين السماء والارض وتدمغهم بالحجارة وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية ابن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده اذا أقبل اليه رجل على ناقة فى ليلة مقمرة وذلك مساء ثالثة من مصاب عاد فاخبرهم الخبر فقالوا له أين فارقت هودا وأصحابه فقال فارقتهم بساحل البحر وكانهم شكوا فيما حدثهم به فقالت هذيلة بنت بكر صدق ورب الكعبة وقال السدى بعث الله عز وجل على عاد الريح العقيم فلما دنت منهم نظروا الى الابل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والارض فلما رأوها تبادروا الى البيوت فدخلوها وأغلقوا الابواب فجاءت الريح فقلعت أبوابهم ودخلت عليهم فاهلكتهم فيها ثم أخرجتهم من البيوت ولما أهلكتهم أرسل الله عليهم طيرا أسود فنقلهم الى البحر فالقاهم فيه وقيل ان الله تعالى أمر الريح فامالت عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام يسمع لهم أنين تحت الرمل ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل ثم احتملتهم فرمت بهم فى البحر ولم تخرج ريح قط الا بمكيال الا يومئذ فانها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها وفى الحديث انها خرجت على مثل خرق الخاتم وقيل ان مرثد بن سعد ولقمان بن

عاد وقيل ان عادا حين دعوا بمكة قيل لهم قد أعطيتم مناكم فاختاروا لانفسكم غير أنه لا سبيل الى الخلود ولا بد من الموت فقال مرثد اللهم أعطني برا وصدقا فأعطي ذلك وقال لقمان اللهم أعطني عمرا فقيل له اختر فاختار عمر سبعة أنسر فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة وكان يأخذ الذكر لقوته فيربيه حتى يموت فاذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة وكان السابع من النسور اسمه لبد فلما مات لبد مات لقمان معه وأما قيل فانه اختار لنفسه ما يصيب قومه فقيل له انه الهلاك فقال لا أبالي لا حاجة لي في البقاء بعد قومي فأصابه الذي أصاب عادا فأهلك ومن معه من الوفد الذين خرجوا يستسقون لعاد فأتت الريح لما خرجوا من الحرم فأهلكتهم جميعا فلما أهلك الله عادا ارتحل هود ومن معه من المؤمنين من أرضهم بعد هلاك قومه الى موضع يقال له الشحر من أرض اليمن فنزل هناك ثم أدركه الموت فدفن بأرض حضرموت يروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن قبر هود عليه الصلاة والسلام بحضرموت في كثيب أحمر وقال عبد الرحمن بن سابط بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وان قبر هود وصالح وشعيب واسمعيل عليهم الصلاة والسلام في تلك البقعة ويروى أن كل نبي من الانبياء اذا أهلك قومه جاء هو والصالحون من قومه معه الى مكة يعبدون الله تعالى حتى يموتوا بها قوله عز وجل (والى ثمود أخاهم صالحا) يعني وأرسلنا الى ثمود وهو ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عابر وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام الى وادي القرى وما حوله ومعنى الكلام والى بني ثمود أخاهم صالحا لان ثمود قبيلة قال أبو عمرو بن العلاء سميت ثمود لقلة مائها والثمد الماء القليل وقيل سموا ثمودا باسم أبيهم الذي ينسبون اليه أخاهم صالحا يعني في النسب لا في الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود (قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) يعني قال لهم صالح حين أرسله الله تعالى اليهم يا قوم وحدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئا فما لكم من اله يستحق أن يعبد سواه (قد جاءتكم بينة من ربكم) يعني جاءتكم حجة من ربكم وبرهان على صدق ما أقول وأدعو اليه من عبادة الله تعالى وأن لا تشركوا به شيئا وعلى تصديقي بأني رسول الله اليكم ثم بين تلك البينة فقال (هذه ناقة الله لكم آية) يعني علامة تدل على صدقي قال العلماء رحمهم الله تعالى ووجه كون هذه الناقة آية على صدق صالح ومعجزة له خارقة للعادة أنها خرجت من صخرة في الجبل وكونها لا من ذكر ولا من أنثى وكمال خلقها من غير حمل ولا تدريج لانها خلقت في ساعة وخرجت من الصخرة وقيل لانه كان لها شرب يوم ولجميع قبيلة ثمود شرب يوم وهذا من المعجزة أيضا لان ناقة تشرب ما تشربه قبيلة معجزة وكانوا يحلبونها في يوم شربها ما قدر ما يكفيهم جميعهم ويقوم لهم مقام الماء وهذا أيضا معجزة وقيل ان سائر الوحوش والحيوانات كانت تمتنع من شرب الماء في يوم شرب الناقة وتشرب الحيوانات الماء في غير يوم الناقة وهذا أيضا معجزة وانما أضافها الى الله تعالى في قوله هذه ناقة الله على سبيل التفضيل والتشريف كما قال بيت الله وقيل لان الله تعالى خلقها بغير واسطة ذكر وأنثى وقيل لانه لم يملكها أحد الا الله تعالى وقيل لانها كانت حجة الله على قوم صالح (فذروها تأكل في أرض الله) يعني فذروا الناقة تأكل العشب من أرض الله فان الارض لله والناقة أيضا لله وليس لكم في أرض الله شيء لانه هو الذي أنبت العشب فيها (ولا تمسوها بسوء) يعني ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من أنواع الاذى ولا تعقروها (فيأخذكم عذاب أليم) يعني بسبب عقرها وأذاها (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) يعني ان الله أهلك عادا وجعلكم تخلفونهم في الارض وتعمرونها (وبوأكم) يعني وأسكنكم وأنزلكم (في الارض تتخذون من سهولها قصورا) يعني تبنون القصور من سهولة الارض لان القصور انما تبنى من اللبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين (وتنحتون الجبال بيوتا) يعني وتشقون بيوتا من الجبال وقيل كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء وهذا يدل على أنهم كانوا متنعمين مترفهين (فاذكروا آلاء الله) أي فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها

(والى ثمود) وأرسلنا الى ثمود وقرئ والى ثمود بتأويل الحي أو باعتبار الاصل لانه اسم أبيهم الأكبر ومنع الصرف بتأويل القبيلة وقيل سميت ثمود لقلة مائها من الثمد وهو الماء القليل وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام (أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) آية ظاهرة شاهدة على صحة نبوتي فكأنه قيل ما هذه البينة فقال (هذه ناقة الله) وهذه اضافة تخصيص وتعظيم لانها بتكوينه تعالى بلا صلب ولا رحم (لكم آية) حال من الناقة والعامل معنى الاشارة في هذه كأنه قيل أشير اليها آية ولكم بيان لمن هي له آية وهي ثمود لانهم عاينوها (فذروها تأكل في أرض الله) أي الارض أرض الله والناقة ناقة الله فذروها تأكل في أرض ربها من نبات ربها فليس عليكم مؤنتها (ولا تمسوها بسوء) ولا تضربوها ولا تعقروها ولا تطردوها اكراما لآية الله (فيأخذكم) جواب النهي (عذاب أليم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم) ونزلكم والمباءة المنزل (في الارض) في أرض الحجر بين الحجاز والشام (تتخذون من سهولها قصورا) غرفا للصيف (وتنحتون الجبال بيوتا) للشتاء وبيوتا حال مقدرة نحو خط هذا الثوب قميصا اذ الجبل لا يكون بيتا في حال النحت ولا الثوب قميصا في حال الخياطة (فاذكروا آلاء الله

ولا تعثوا في الارض مفسدين) روى ان عادا لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوها في الارض وعمروا أعمارا طوالا فنحتوا البيوت من الجبال خشية الانهدام قبل الممات وكانوا في سعة من العيش فعتوا على الله وأفسدوا في الارض وعبدوا الاوثان فبعث الله اليهم صالحا وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا فدعاهم الى الله فلم يتبعه الا قليل منهم مستضعفون فانذرهم فسألوه أن يخرج من صخرة بعينها ناقة عشراء فصلى ودعا ربه فتمخضت تمخض النتوج بولدها فخرجت منها ناقة كما شاؤا فآمن به جندع ورهط من قومه (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) وقال شامى (للذين استضعفوا) للذين استضعفهم رؤساء الكفار (لمن آمن منهم) بدل من الذين استضعفوا باعادة الجار وفيه دليل على أن البدل حيث جاء كان في تقدير عادة العامل والضمير في منهم راجع الى قومه وهو يدل على أن استضعافهم كان مقصورا على المؤمنين أو الى الذين استضعفوا وهو يدل على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) قالوه على سبيل السخرية (قالوا انا بما أرسل به مؤمنون) وانما صار هذا جوابا لهم لانهم سألوهم عن العلم بارساله فجعلوا ارساله أمرا معلوما مسلما كأنهم قالوا العلم بارساله وبما أرسل به لا شبهة فيه وانما الكلام في وجوب الايمان به فنخبركم انا به مؤمنون (قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون) فوضعوا آمنتم به موضع أرسل به ردا لما جعله المؤمنون معلوما مسلما (فعقروا الناقة) أسند

العقر الى جميعهم وان كان العاقر قدار بن سالف لانه كان برضاهم وكان قدار أحمر أزرق قصيرا كما كان فرعون كذلك وقال عليه السلام يا على أشقى الاولين عاقر ناقة صالح وأشقى الآخرين قاتلك (وعتوا عن أمر ربهم) وتولوا عنه واستكبروا وأمر ربهم ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله فذروها تأكل في أرض الله أو شأن ربهم وهو دينه (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا) من العذاب (ان كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة) الصيحة التي زلزلت لها الارض واضطربوا لها (فأصبحوا في دارهم) أى مساكنهم (جاثمين) ميتين قعودا يقال الناس جثم قعود لا حراك بهم ولا يتكلمون (فتولى عنهم) لما عقروا الناقة (وقال يا قوم) عند فراقه اياهم (لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) الآمرين بالهدى لاستحلاء الهوى والنصيحة

(ولا تعثوا في الارض مفسدين) قال قتادة معناه ولا تسيروا في الارض مفسدين فيها والعثو أشد الفساد وقيل أراد به عقر الناقة وقيل هو على ظاهره فيدخل فيه النهى عن جميع أنواع الفساد (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) يعنى قال الاشراف الذين تعظموا عن الايمان بصالح (للذين استضعفوا) يعنى المساكين (لمن آمن منهم) يعنى قال الاشراف المتعظمون فى أنفسهم لاتباعهم الذين آمنوا بصالح وهم الضعفاء من قومه (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) يعنى أن الله أرسله الينا واليكم (قالوا انا بما أرسل به مؤمنون) يعنى قال الضعفاء انا بما أرسل الله به صالحا من الدين والهدى والحق مصدقون (قال الذين استكبروا) يعنى عن أمر الله والايمان به وبرسوله صالح (انا بالذى آمنتم به كافرون) أى جاحدون منكرون (فعقروا الناقة) يعنى فعقرت ثمود الناقة والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقرا لان ناحر البعير يعقره ثم ينحره (وعتوا عن أمر ربهم) أى تكبروا عن أمر ربهم وعصوه والعتو الغلو فى الباطل والتكبر عن الحق والمعنى أنهم عصوا الله وتركوا أمره فى الناقة وكذبوا نبيهم صالحا عليه الصلاة والسلام (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا) يعنى من العذاب (ان كنت من المرسلين) يعنى ان كنت كما تزعم أنك رسول الله فان الله تعالى ينصر رسله على أعدائه وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مكذبين فى كل ما أخبرهم به من العذاب فعجل الله لهم ذلك فقال تعالى (فأخذتهم الرجفة) قال الفراء والزجاج الرجفة الزلزلة الشديدة العظيمة وقال مجاهد والسدى هى الصيحة فيحتمل أنهم أخذتهم الزلزلة من تحتهم والصيحة من فوقهم حتى هلكوا وهو قوله تعالى (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) يعنى فأصبحوا فى أرضهم وبلدهم جاثمين ولذلك وحد الدار كما يقال دار الحرب أى بلد الحرب ودار بنى فلان بمعنى موضعهم ومجمعهم وجمع فى آية أخرى فقال فى ديارهم لانه أراد بالدار ما لكل واحد منهم من الديار والمساكن وقوله جاثمين يعنى باركين على الركب والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للبعير وجثوم الطير هو وقوعه لاطئا بالارض فى حال نومه وسكونه بالليل والمعنى انهم أصبحوا جاثمين على وجوههم موتى لا يتحركون (فتولى عنهم) يعنى فأعرض عنهم صالح وفى وقت هذا التولى قولان أحدهما أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم والفاء للتعقيب فدل على أنه حصل هذا التولى بعد جثومهم وهو موتهم والقول الثانى أنه تولى عنهم وهم أحياء قبل موتهم وهلاكهم ويدل عليه أنه خاطبهم (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) وهذا الخطاب لا يليق الا بالاحياء فعلى هذا القول يحتمل أن يكون فى الآية تقديم وتأخير تقديره فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين وأجاب أصحاب القول الاول عن هذا أنه خاطبهم بعد هلاكهم وموتهم توبيخا وتقريعا كما خاطب النبى صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر حين ألقوا فى القليب فجعل يناديهم بأسمائهم الحديث فى الصحيح

وفيه فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم أقواما قد جيفوا فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون
وقيل انما خاطبهم صالح بذلك ليكون عبرة لمن يأتى من بعدهم فيتزجر عن مثل تلك الطريقة التى كانوا عليها

﴿ذكر قصة ثمود على ما ذكره محمد بن اسحق ووهب بن منبه وغيرهما من أصحاب السير والاخبار﴾

قالوا جميعا ان عادا لما هلكت وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها واستخلفوا فى الارض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا حتى ان أحدهم ليبنى المسكن من المدر فينهدم والرجل حى فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا وكانوا فى سعة من العيش والرخاء فعتوا وأفسدوا فى الارض وعبدوا غير الله فبعث الله تعالى اليهم صالحا نبيا وكانوا قوما عربا وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم بيتا وحسبا فبعثه الله تعالى اليهم وهو غلام فلم يزل يدعوهم الى الله تعالى والى عبادته حتى شمط وكبر فلم يتبعه منهم الا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقا على ما يقول فقال صالح أى آية تريدون فقالوا تخرج معنا الى عيدنا وكان لهم عيد يخرجون فيه أصنامهم وذلك فى يوم معلوم من السنة وقالوا تدعو الهك وندعو آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح نعم فخرجوا بأصنامهم الى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح فى شئ مما يدعو به ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة لصخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء والمخترجة ما شاكلت البخت من الابل فان فعلت آمنا بك وصدقناك فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت لتصدقنى ولتؤمنن بى قالوا نعم قال فصلى صالح عليه الصلاة والسلام ركعتين ودعا ربه عز وجل فتمخضت الصخرة كما تمخض النتوج بولدها ثم تحركت الهضبة عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوا ووصفوا غير أنه لا يعلم ما بين جنبيها الا الله عز وجل عظما وهم ينظرون اليها ثم نتجت سقبا مثلها فى العظم فآمن به جندع بن عمرو ورهط معه من قومه وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب وكانا صاحبى أوثانهم ورباب بن ضمير وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود فلما خرجت الناقة من الصخرة قال لهم صالح هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت الناقة ومعها سقبها فى أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء غبا فاذا كان يوم ورودها وضعت رأسها فى بئر فى الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها فلا تدع قطرة ثم ترفع رأسها فتتفحج لهم فيحلبون ما شاؤا منها من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملؤا أوانيهم كلها ثم تصدر الناقة من غير الفج الذى وردت منه ولا تقدر أن تصدر من حيث وردت حتى اذا كان من الغد كان يوم ثمود فيشربون ما شاء الله من الماء ويدخرون ما شاؤا ليوم الناقة فهم على ذلك فى سعة ودعة وكانت الناقة تصيف اذا كان الحر بظهر الوادى فتهرب منها مواشيهم الابل والبقر والغنم فتهبط الى بطن الوادى فتكون فى حره وجدبه واذا كان الشتاء فتشتو الناقة فى بطن الوادى فتهرب المواشى الى ظهره فتكون فى البرد والجدب فاضر ذلك بمواشيهم للامر الذى يريده الله بهم والبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فاجمعوا على عقرها وكانت امرأتان من ثمود يقال لاحداهما عنيزة بنت غنم بن مجلز وتكنى بام غنم وكانت عجوزا مسنة وهى امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت ذات بنات حسان وذات مال من ابل وبقر وغنم والمرأة الاخرى يقال لها صدقة بنت المختار وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه الصلاة والسلام وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت بمواشيهما فتحيلتا فى عقر الناقة فدعت صدقة رجلا من ثمود يقال له الحباب لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها ان هو فعل فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج بن المحيا وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة وكانت من أحسن الناس

صبحة تدرأ الفضيحة ولكنها وخيمة تورث السخيمة روى ان عقرهم الناقة كان يوم الاربعاء فقال صالح تعيشون بعده ثلاثة أيام تصفر وجوهكم أول يوم وتحمر فى الثانى وتسود فى الثالث ويصيبكم العذاب فى الرابع وكان كذلك روى أنه خرج فى مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكى فلما علم انهم هلكوا رجع بمن معه فسكنوا ديارهم

وجهوا أكثرهم مالا فاجابها الى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف وكان رجلا أحمر أزرق قصيرا ويزعمون انه كان ابن زانية ولم يكن لسالف ولكنه ولد على فراشه فقالت عنيزة لقدار أي بناتي شئت أعطيتك على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزا منيعا في قومه (ق) عن عبد الله بن زمعة رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة قوله انبعث أي قام بسرعة والعارم الخبيث الشرير والعرامة الشدة والقوة والشراسة والمنيع الممتنع عن أراده قال أصحاب الاخبار فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستنفرا غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل صخرة أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها فخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها فسفرت عن وجهها وكانت من أحسن الناس وجها لتراها قدار ثم حثته على عقرها وأغرته به فشد قدار على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة فقصد سقبها من الجبل ثم طعن قدار في لبتها فنحرها فخرج أهل البلد فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبها ذلك انطلق هاربا حتى أتى جبلا منيعا يقال له صور وقيل قارة وأتى صالح عليه الصلاة والسلام فقيل له أدرك الناقة فقد عقرت فأقبل نحوها وخرج أهل البلدة يتلقونه ويعتذرون اليه ويقولون يا نبي الله انما عقرها فلان ولا ذنب لنا فقال صالح انظروا هل تدركون فصيلها فان أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب فخرجوا في طلبه فرأوه على الجبل فذهبوا ليأخذوه فأوحى الله تعالى الى الجبل ان تطاول فتطاول حتى ما تناله الطير وجاء صالح عليه الصلاة والسلام فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم رغا ثلاثا ثم انفجرت الصخرة فدخلها فقال صالح لكل رغوة أجل يوم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب وقال ابن اسحق تبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع بن مهرج وأخوه ذؤاب فرماه مصدع بسهم فأصاب قلبه ثم جذبه فأنزله وألقوا لحمه مع لحم أمه وقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام انتهكتم حرمة الله فابشروا بعذاب الله ونقمته قالوا وهم يهزؤن به ومتى ذلك يا صالح وما آية ذلك وكانوا يسمون الايام في ذلك الوقت الاحد أول والاثنين أهون والثلاثاء دبار والاربعاء جبار والخميس مؤنس والجمعة العروبة والسبت شيار وكانوا عقروا الناقة يوم الاربعاء فقال لهم صالح عليه الصلاة والسلام حين قالوا ذلك تصبحون غداة يوم مؤنس ووجوهكم مصفرة ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ثم تصبحون يوم شيار ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول فلما قال لهم صالح ذلك قال التسعة الذين عقروا الناقة هلموا فلنقتل صالحا فان كان صادقا عجلناه قبلنا وان كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليقتلوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطؤا على أصحابهم أتوا منزل صالح عليه الصلاة والسلام فوجدوهم وقد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه وقالوا لا تقتلوه أبدا انه قد وعدكم العذاب انه نازل بكم بعد ثلاث فان كان صادقا لم تزيدوا ربكم الا غضبا عليكم وان كان كاذبا فانتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم فأيقنوا بالعذاب وعرفوا ان صالحا قد صدقهم فطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ولحق بحي من بطون ثمود يقال لهم بنو غنم فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب وهو مشرك فغيبه فلم يقدروا عليه وكانوا يعمدون الى أصحاب صالح ليدلوهم عليه فقال رجل من أصحاب صالح يقال له ميدع بن هرم يا نبي الله انهم يعذبوننا لندلهم عليك أفندلهم عليك قال نعم فدلوهم عليه فأتوا أبا هدب فكلموه في أمر صالح فقال هو عندي وليس لكم اليه سبيل فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم ما نزل بهم من العذاب فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون في وجوههم فلما أمسوا صاحوا

بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل فلما أصبحوا في اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم فصاحوا وضجوا وبكوا وأيقنوا أنه العذاب فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب فلما أصبحوا في اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار فصاحوا جميعاً ألا قد حضركم العذاب فلما كانت ليلة الأحد خرج صالح عليه الصلاة والسلام ومن أسلم معه من بين أظهرهم إلى الشام فنزل رملة فلسطين فلما أصبحوا في اليوم الرابع تكفنوا وتحنطوا وألقوا بأنفسهم إلى الأرض يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرون من أين يأتيهم العذاب فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة عظيمة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وهلكوا جميعاً إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت سالف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه الصلاة والسلام فأطلق الله تعالى رجليها بعدما عاينت العذاب وما أصاب ثمود فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى فأخبرتهم بما عاينت من العذاب الذي بثمود ثم استسقت ماء فسقيت فلما شربت ماتت في الحال وذكر السدي في عقر الناقة فقال أوحى الله عز وجل إلى صالح عليه الصلاة والسلام أن قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك صالح فقالوا ما كنا لنفعل فقال صالح إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه فقالوا لا يولد لنا في هذا الشهر ولد إلا قتلناه قال فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر أولاد فذبحوهم ثم ولد للعاشر ولد فأبى أن يذبحه لأنه كان لم يولد له قبل ذلك ولد وكان الولد الذي ولد له أحمر أزرق فنبت نباتاً سريعاً فكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا الغلام فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أبنائهم فتقاسموا بالله يعني فتحالفوا بالله لنبيتنه وأهله وقالوا نخرج فترى الناس أنا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثم نرجع إلى الغار فنكون فيه حتى ننصرف إلى رحلنا فنقول ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقونا ويظنون أنا قد خرجنا إلى السفر وكان صالح لا ينام معهم في القرية بل كان يبيت في مسجد له خارج القرية فإذا أصبح أتاهم فيعظهم ويذكرهم فإذا أمسى خرج إلى مسجده فيتعبد فيه قال فانطلق التسعة إلى الغار فدخلوا فسقط عليهم فقتلهم فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على أمرهم لينظروا ما فعل أولئك النفر فرأوهم وهم رضخ فرجعوا إلى القرية يصيحون ما رضي صالح بقتل أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة وقال ابن إسحاق كان التسعة قد تقاسموا على تبييت صالح بعد عقر الناقة وقال السدي وغيره لما ولد للعاشر ولد سماه قدار فكان يشب شباباً سريعاً فلما كبر جلس مع أناس يشربون الخمر فأرادوا ماء ليمزجوا به شرابهم وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة فوجدوا الماء قد شربته الناقة فاشتد ذلك عليهم وقالوا ما نصنع نحن بلبن هذه الناقة ولو كنا نأخذ هذا الماء الذي تشربه الناقة فنسقيه لأنعامنا وزروعنا كان خيراً لنا فقال ابن العاشر هل لكم أن أعقرها لكم قالوا نعم فعقرها (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي وفي رواية لمسلم لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ثم ذكر مثله ولهما عنه أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة وللبخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء وفي بعض الأحاديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسألوا رسولكم الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية

(ولوطا اذ قال لقومه) أي واذكر لوطا اذ بدل منه (أتأتون الفاحشة) أتعملون السيئة المتمادية في القبح (ماسبقكم بها) ماعملها قبلكم
والباء للتعدية ومنه قوله عليه السلام سبقك بها عكاشة (من أحد) من زائدة لتأكيد النفي وافادة معنى الاستغراق
(من العالمين) من للتبعيض وهذه جملة مستأنفة أنكر عليهم أولا بقوله أتأتون الفاحشة ثم وبخهم عليها فقال أنتم أول من عملها وقوله تعالى (أئنكم لتأتون الرجال) بيان لقوله أتأتون الفاحشة والهمزة مثلها في أتأتون للانكار انكم على الاخبار مدني وحفص يقال أتى المرأة اذا غشيها (شهوة) مفعول له أي للاشتهاء لا حامل لكم عليه الا مجرد الشهوة ولا ذم أعظم منه لانه وصف لهم بالبهيمية (من دون النساء) أي لا من النساء (بل أنتم قوم مسرفون) أضرب عن الانكار الى الاخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وهو انهم قوم عادتهم الاسراف وتجاوز الحدود في كل شئ فمن ثم اسرفوا في باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد الى غير المعتاد (وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم) أي لوطا ومن آمن معه يعني ما أجابوه بما يكون جوابا عما كلمهم به لوط من انكار الفاحشة ووصفهم بصفة الاسراف الذي هو أصل
الشر ولكنهم جاؤا بشئ آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر باخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم (انهم أناس يتطهرون) يدعون
الطهارة ويدعون فعلنا الخبيث عن ابن عباس رضي الله عنهما عابوهم بما يتمدح به (فأنجيناه وأهله) ومن يختص به من دونه من المؤمنين

فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم مرتقى الفصيل من القارة فعتوا عن أمر ربهم وعقروها فاهلكهم الله من تحت أديم السماء منهم في مشارق الارض ومغاربها الا رجلا واحدا يقال له أبو رغال وهو أبو ثقيف كان في حرم الله فمنعه حرم الله تعالى من عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من ذهب وأراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أبي رغال فنزل القوم وابتدروه باسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح الى حضرموت فلما دخلوها مات صالح فسمي حضرموت ثم بنوا أربعة آلاف مدينة وسموها حاضوراء وقال قوم من أهل العلم توفي صالح عليه الصلاة والسلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأقام في قومه عشرين سنة ۞ قوله تعالى (ولوطا) يعني وأرسلنا لوطا وقيل معناه واذكر يا محمد لوطا وهو لوط بن هاران بن تارخ وهو ابن أخي ابراهيم وابراهيم عمه (اذ قال لقومه) يعني أهل سدوم واليهم كان قد أرسل وذلك ان لوطا عليه السلام لما هاجر مع عمه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الى الشام فنزل ابراهيم عليه الصلاة والسلام أرض فلسطين ونزل لوط الاردن أرسله الله تعالى الى أهل سدوم يدعوهم الى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله تعالى (أتأتون الفاحشة) يعني أتعملون الفعلة الخسيسة التي هي غاية في القبح وكانت فاحشتهم اتيان الذكران في أدبارهم (ماسبقكم بها من أحد من العالمين) من الاولى زائدة لتوكيد النفي وافادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض والمعنى ماسبقكم أيها القوم بهذه الفعلة الفاحشة أحد من العالمين قبلكم وفي هذا الكلام توبيخ لهم وتقريع على فعلهم تلك الفاحشة قال عمرو بن دينار ماتزا ذكر على ذكر في الدنيا الا كان من قوم لوط (أئنكم لتأتون الرجال) يعني في أدبارهم (شهوة من دون النساء) يعني ان أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء (بل أنتم) يعني أيها القوم (قوم مسرفون) أي مجاوزون الحلال الى الحرام وانما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث لان الله تبارك وتعالى خلق الانسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا وجعل النساء محلا للشهوة وموضع النسل فاذا تركهن الانسان وعدل عنهن الى غيرهن من الرجال فكأنما قد أسرف وجاوز واعتدى لانه وضع الشئ في غير محله وموضعه الذي خلق له لان أدبار الرجال ليست محلا للولادة التي هي مقصودة بتلك الشهوة المركبة في الانسان وكانت قصة قوم لوط على ماذكره محمد بن اسحق وغيره من أهل الاخبار والسير انه كانت قرى قوم لوط مخصبة ذات زروع وثمار لم يكن في الارض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم وضيقوا عليهم فعرض لهم ابليس في صورة شيخ وقال لهم اذا فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فأبوا فلما ألح الناس عليهم قصدوهم فاصابوا غلمانا حسانا صباحا فاخبثوا واستحكم ذلك فيهم قال الحسن كانوا لا ينكحون الا الغرباء وقيل استحكم ذلك الفعل فيهم حتى نكح بعضهم بعضا وقال الكلبي ان أول من عمل به عمل قوم لوط ابليس وذلك لان بلادهم أخصبت فقصدها أهل البلدان فتمثل لهم ابليس في صورة شاب أمرد فدعا الى نفسه فكان أول من نكح في دبره فامر الله تعالى السماء أن تحصبهم والأرض أن تخسف بهم ۞ قوله عز وجل (وما كان جواب قومه) يعني وما كان جواب قوم لوط للوط اذ وبخهم على فعلهم القبيح وركوبهم ما حرم الله تعالى عليهم من العمل الخبيث (الا أن قالوا) يعني قال بعضهم لبعض (أخرجوهم من قريتكم) يعني اخرجوا لوطا وأتباعه وأهل دينه من بلدكم (انهم أناس يتطهرون) يعني انهم أناس يتنزهون عن فعلكم وعن أدبار الرجال لانها موضع النجاسة ومن تركها فقد تطهر وقيل ان البعد عن المعاصي والآثام يسمى طهارة فمن تباعد عنها فقد تطهر فلهذا قال انهم أناس يتطهرون أي من فعل المعاصي والآثام (فأنجيناه وأهله)

(الا امرأته كانت من الغابرين) من الباقين في العذاب والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكانت كافرة موالية لاهل سدوم وروى انها التفتت فاصابها حجر فماتت (وأمطرنا عليهم مطرا) وأرسلنا عليهم نوعا من المطر عجيبا قالوا أمطر الله عليهم الكبريت والنار وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت حجارة على مسافريهم وقال أبو عبيدة أمطر في العذاب ومطر في الرحمة (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) الكافرين (والى مدين) أرسلنا الى مدين وهو اسم قبيلة (أخاهم شعيبا) يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين (قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) أي معجزة وان لم تذكر في القرآن (فأوفوا الكيل والميزان) أتموهما والمراد فأوفوا الكيل ووزن الميزان أو يكون الميزان كالميعاد بمعنى المصدر (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) ولا تنقصوا حقوقهم بتطفيف الكيل ونقصان الوزن وكانوا يبخسون الناس كل شئ في مبايعتهم وبخس يتعدى الى مفعولين وهما الناس وأشياءهم تقول بخست زيدا حقه أي نقصته اياه (ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها) بعد الاصلاح فيها أي لا تفسدوا فيها بعد ما أصلح فيها الصالحون من الانبياء والاولياء واضافته كاضافة بل مكر الليل والنهار أي بل مكركم في الليل والنهار (ذلكم) اشارة الى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والافساد في الارض (خير لكم) في الانسانية وحسن الاحدوثة (ان كنتم مؤمنين) مصدقين لي في قولي (ولا تقعدوا بكل صراط) بكل طريق (توعدون) وتخوفونه من آمن بشعيب بالعذاب (وتصدون عن سبيل الله) عن العبادة (من آمن به) بالله وقيل كانوا يقطعون الطرق وقيل كانوا عشارين

يعني فأنجينا لوطا ومن آمن به واتبعه على دينه وقيل المراد باهله المتصلون به بسبب النسب أو المراد باهله ابنتاه (الا امرأته) يعني زوجته (كانت من الغابرين) يعني كانت من الباقين في العذاب لانها كانت كافرة وقيل معناه كانت من الباقين المعمرين قد أتى عليها دهر طويل ثم هلكت مع من هلك من قوم لوط وانما قال من الغابرين ولم يقل من الغابرات لانها هلكت مع الرجال فغلب ذكر الرجال فقال من الغابرين (وأمطرنا عليهم مطرا) يعني حجارة من سجيل قد عجنت بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وأمطرت وقال أبو عبيدة يقال في العذاب أمطرت وفي الرحمة مطرت (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) يعني انظر يا محمد كيف كان عاقبة هؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله وعملوا الفواحش كيف أهلكناهم قال مجاهد نزل جبريل عليه السلام فادخل جناحيه تحت مدائن قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم اتبعوا بالحجارة وقوله فانظر كيف كان عاقبة المجرمين وان كان هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لكن المراد به غيره من أمته ليعتبروا بما جرى على أولئك فينزجروا بذلك الاعتبار عن الافعال القبيحة والفواحش الخبيثة ۞ قوله عز وجل (والى مدين أخاهم شعيبا) يعني وأرسلنا الى مدين وأكثر المفسرين على ان مدين اسم رجل وهو مدين بن ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فعلى هذا يكون المعنى وأرسلنا الى ولد مدين ومدين اسم القبيلة كما يقال بنو تميم وبنو عدي وبنو أسد وقيل مدين اسم للماء الذي كانوا عليه وقيل هو اسم للمدينة وعلى هذين القولين يكون المعنى وأرسلنا الى أهل مدين والصحيح هو الاول لقوله أخاهم شعيبا يعني في النسب لا في الدين وشعيب هو ابن نويب بن مدين بن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قاله عطاء وقال محمد بن اسحق هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم عليه السلام وأم ميكيل بنت لوط عليه السلام وقيل هو شعيب بن يثرون بن نويب بن مدين بن ابراهيم عليه السلام وكان شعيب أعمى وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه وكان قومه أهل كفر وبخس في المكيال والميزان (قال) يعني شعيب (يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) يعني قد جاءتكم حجة وبرهان من ربكم بحقيقة ما أقول وصدق ما أدعي من النبوة والرسالة اليكم لانه لا بد لكل نبي من معجزة تدل على صدق ما جاء به من عند الله غير ان تلك المعجزة التي كانت لشعيب لم تذكر في القرآن وليست كل آيات الانبياء مذكورة في القرآن وقيل أراد بالبينة مجيء شعيب بالرسالة اليهم وقيل أراد بالبينة الموعظة وهي قوله (فأوفوا الكيل والميزان) يعني فأتموا الكيل والميزان وأعطوا الناس حقوقهم ۞ وهو قوله (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) يعني لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم اياها فتطففوا الكيل والوزن يقال بخس فلان في الكيل والوزن اذا نقصه وطففه (ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها) يعني بعد ان أصلحها الله تعالى ببعثة الرسل واقامة العدل وكل نبي يبعث الى قوم فهو صلاحهم (ذلكم) يعني الذي ذكرت لكم وأمرتكم به من الايمان بالله ووفاء الكيل والميزان وترك الظلم والبخس (خير لكم) يعني مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس (ان كنتم مؤمنين) يعني ان كنتم مصدقين بما أقول (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) يعني ان شعيبا قال لقومه الكفار ولا تقعدوا على كل طريق من الدين والحق تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم على ذلك وذلك انهم كانوا يجلسون على الطرقات ويخوفون من يريد الايمان بالله وبرسوله شعيب وهو قوله تعالى (وتصدون عن سبيل الله من آمن به) يعني وتمنعون من يريد الايمان بالله وتقولون ان شعيبا كذاب

(وتبغونها) وتطلبون السبيل الله (عوجا) أي تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة لتصدوهم عن سلوكها ومحل توعدون وما عطف عليه النصب على الحال أي لا تقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله وباغين عوجا (واذكروا اذ كنتم قليلا) اذ مفعول به غير ظرف أي واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلا عددكم (فكثركم) الله ووفر عددكم وقيل ان مدين بن ابراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله في نسلها بالبركة والنماء فكثروا (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) آخر أمر من أفسد قبلكم من الامم كقوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا) فانتظروا (حتى يحكم الله بيننا) أي بين الفريقين بان ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله تعالى منهم أو هو حث للمؤمنين على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من المشركين الى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم أو هو خطاب للفريقين أي ليصبر المؤمنون على أذى الكفار والكافرون على ما يسوءهم من ايمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب (وهو خير الحاكمين) لان حكمه حق وعدل لا يخاف فيه الجور (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) أي ليكونن أحد الأمرين اما اخراجكم واما عودكم في الكفر (قال) شعيب (أولو كنا كارهين) الهمزة للاستفهام والواو للحال تقديره أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا ومع كوننا كارهين قالوا نعم ثم قال شعيب (قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم) وهو قسم على تقدير حذف اللام أي والله لقد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم (بعد اذ نجانا الله منها) خلصنا الله فان قلت كيف قال شعيب ان عدنا في ملتكم والكفر على الانبياء عليهم السلام محال قلت أراد عود قومه الا انه نظم نفسه

ويخوفونه بالقتل قال ابن عباس كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من أتى عليهم ان شعيبا الذي تريدونه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم (وتبغونها عوجا) يعني وتريدون اعوجاج الطريق عن الحق وعدولها عن القصد وقيل معناه وتلتمسون لها الزيغ والضلال ولا تستقيمون على طريق الهدى والرشاد (واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم) يعني ان شعيبا عليه الصلاة والسلام ذكرهم نعمة الله عليهم قال الزجاج يحتمل ذلك ثلاثة أوجه كثر عددكم وكثركم بالغنى بعد الفقر وكثركم بالقوة بعد الضعف ووجه ذلك انهم اذا كانوا فقراء ضعفاء فهم بمنزلة القليل والمعنى انه كثركم بعد القلة وأعزكم بعد الذلة فاشكروا نعمة الله تعالى عليكم وآمنوا به (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) يعني وانظروا وانظروا اعتبار ما نزل بمن كان قبلكم من الامم السالفة والقرون الخالية حين عتوا على ربهم وعصوا رسله من العذاب والهلاك وأقرب الامم اليكم قوم لوط فانظروا كيف أرسل الله تعالى عليهم حجارة من السماء لما عصوه وكذبوا رسله (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا) يعني وان اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين فرقة آمنت بي وصدقت برسالتي وفرقة كذبت وجحدت برسالتي (فاصبروا) فيه وعيد وتهديد (حتى يحكم الله بيننا) يعني حتى يقضي الله ويفصل بيننا فيعز المؤمنين المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم (وهو خير الحاكمين) يعني انه حاكم عادل منزه عن الجور والميل والحيف في حكمه وانما قال خير الحاكمين لانه قد يسمى بعض الاشخاص حاكما على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم في الحقيقة فلهذا قال وهو خير الحاكمين (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) يعني قال الجماعة من أشراف قومه الذين تكبروا عن الايمان بالله وبرسوله وتعظموا عن اتباع شعيب (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) يعني أن قوم شعيب أجابوه بان قالوا لابد من أحد أمرين اما اخراجك ومن تبعك على دينك من بلدنا أو لترجعن الى ديننا وملتنا وما نحن عليه وهذا فيه اشكال وهو ان شعيبا عليه الصلاة والسلام لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع الى ما كان عليه فما معنى قوله أو لتعودن في ملتنا وأجيب عن هذا الاشكال بان اتباع شعيب كانوا قبل الايمان به على ملة أولئك الكفار فخاطبوا شعيبا وأتباعه جميعا فدخل هو في الخطاب وان لم يكن على ملتهم قط وقيل معناه لتصيرن الى ملتنا فوقع العود على معنى الابتداء كما تقول قد عاد على من فلان مكروه بمعنى قد لحقني منه ذلك وان لم يكن قد سبق منه مكروه وهو كما قال الشاعر

فان تكن الأيام أحسن مدة ❊ الي فقد عادت لهن ذنوب

أراد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد ان ذنوبا كانت لهن قبل الاحسان ❁ وقوله تعالى (قال أولو كنا كارهين) أي لا نعود في ملتكم وان أكرهتمونا وأجبرتمونا على الدخول فيها فلا نقبل ولا ندخل (قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها) يعني ان شعيبا أجاب قومه اذ دعوه ومن آمن به الى العود الى ملتهم والدخول فيها فقال قد افترينا يعني قد اختلقنا على الله كذبا وتخرصنا عليه من القول باطلا ان نحن رجعنا الى ملتكم وقد علمنا فساد ما أنتم عليه من الملة والدين وقد أنقذنا الله وخلصنا منها وبصرنا خطأها وهذا أيضا فيه من الاشكال مثل ما في الاول وهو ان شعيبا عليه الصلاة والسلام ما كان في ملتهم قط حتى يقول ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها والجواب عنه مثل ما أجيب عن الاشكال الاول وهو أن تقول ان الله

نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة لأن شعيبا لم يكن قط في ملتهم وإن كان ربما كانوا عليه من الكفر فأجرى الكلام على حكم التغليب وقيل معنى نجانا الله منها علمنا قبح ملتكم وفسادها فكأنه نجانا منها ﴿ وقوله تعالى اخبارا عنه (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) يعني وما يكون لنا أن نرجع الى ملتكم ونترك الحق الذي نحن عليه إلا أن يشاء الله ربنا يعني إلا أن يكون قد سبق لنا في علم الله أن نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله وقدره فينا وينفذ سابق مشيئته علينا وقال الواحدي معنى العود هنا الابتداء والذي عليه أهل العلم والسنة في هذه الآية أن شعيبا وأصحابه قالوا ما كنا لنرجع الى ملتكم بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار إلا أن يريد الله إهلاكنا فأمورنا راجعة الى الله غير خارجة عن قبضته يسعد من يشاء بالطاعة ويشقي من يشاء بالمعصية وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر ألا ترى الى قول الخليل عليه الصلاة والسلام واجنبني وبني أن نعبد الأصنام وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قال الزجاج رحمه الله تعالى المعنى وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها وتصديق ذلك قوله (وسع ربنا كل شيء علما) يعني أنه تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون وما سيكون وأنه تعالى كان عالما في الأزل بجميع الأشياء فالسعيد من سعد في علم الله تعالى والشقي من شقي في علم الله تعالى (على الله توكلنا) أي على الله نعتمد وإليه نستند في أمورنا كلها فإنه الكافي لمن توكل عليه والمعنى على الله توكلنا لا على غيره فكأنه ترك الأسباب ونظر الى مسبب الأسباب (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) لما أيس شعيب من إيمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال ربنا افتح أي اقض وافصل واحكم بيننا وبين قومنا بالحق يعني بالعدل الذي لا جور فيه ولا ظلم ولا حيف (وأنت خير الفاتحين) يعني خير الحاكمين قال الفراء إن أهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح وقال غيره من أهل اللغة هي لغة مراد وأنشد لبعضهم في ذلك

ألا أبلغ بني عصم رسولا ﴿ فإني عن فتى حكم غني ٧

أراد أني غني عن حاكمهم وقاضيهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أدري ما معنى قوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول تعال أفاتحك يعني أقاضيك وهذا قول قتادة والسدي وابن جريج وجمهور المفسرين أن الفاتح هو القاضي والحاكم سمي بذلك لأنه يفتح أغلاق الإشكال بين الخصوم ويفصلها وقال الزجاج وجائز أن يكون معناه ربنا أظهر أمرنا حتى ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف والمراد منه أن ينزل عليهم عذابا يدل على كونهم مبطلين وعلى كون شعيب وقومه محقين وعلى هذا الوجه فالفتح يراد به الكشف والتمييز (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا) يعني وقال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم لئن اتبعتم شعيبا على دينه وتركتم دينكم وملتكم وما أنتم عليه (إنكم إذا لخاسرون) يعني إنكم مغبونون في فعلكم (فأخذتهم الرجفة) يعني الزلزلة الشديدة (فأصبحوا في دارهم جاثمين) قال ابن عباس وغيره فتح الله عليهم بابا من جهنم فأرسل عليهم حرا شديدا من جهنم فأخذ بأنفاسهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا في الأسراب ليبردوا فيها فوجدوها أشد حرا من الظاهر فخرجوا هربا الى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم وهي الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الأرض من تحتهم فاحترقوا كاحتراق الجراد في المقلى وصاروا رمادا وروي أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا وقال قتادة بعث الله شعيبا الى أصحاب الأيكة والى أهل مدين فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة وأما أهل مدين فأخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا جميعا قال أبو عبد الله البجلي كان أبو جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت

في جلتهم وإن كان بريئا من ذلك اجراء للكلام على حكم التغليب (وما يكون لنا) وما ينبغي لنا وما يصح (أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) إلا أن يكون سبق في مشيئته أن نعود فيها إذ الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى خيرها وشرها (وسع ربنا كل شيء علما) تمييز أي هو عالم بكل شيء فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول وقلوبهم كيف تنقلب (على الله توكلنا) في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لازدياد الإيقان (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) أي احكم والفتاحة الحكومة والقضاء بالحق بفتح الأمر المغلق فلذا سمي فتحا ويسمي أهل عمان القاضي فتاحا (وأنت خير الفاتحين) كقوله وهو خير الحاكمين (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) مغبونون لفوات فوائد البخس والتطفيف باتباعه لأنه ينهاكم عنهما ويأمركم بالإيفاء والتسوية وجواب القسم الذي وطأته اللام في لئن اتبعتم وجواب الشرط إنكم إذا لخاسرون فهو ساد مسد الجوابين (فأخذتهم الرجفة) الزلزلة (فأصبحوا في دارهم جاثمين) ميتين

٧ هكذا بالاصل ولعله عن فتى فتح حتى يتم الاستشهاد اهـ مصححه

ملوك

ملوك مدين وكان ملكهم في زمن شعيب يوم الظلة اسمه كلمن فلما هلك قالت ابنته شعرا تبكيه وترثيه به

كلمن هدم ركني * هلكه وسط المحله

سيد القوم أتاه * هلك نار تحت ظله * جعلت نارا عليهم * دارهم كالمضمحله

۞ وقوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) يعني كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوما من الدهر يقال غنيت بالمكان أي أقمت به والمغاني المنازل التي بها أهلها واحدها مغنى قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة * في ظل ملك ثابت الأوتاد

أراد أقاموا فيها وقيل في معنى الآية كأن لم يعيشوا فيها متنعمين مستغنين يقال غني الرجل اذا استغنى وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) يعني خسروا أنفسهم بهلاكهم (فتولى عنهم) يعني فأعرض عنهم شعيب شاخصا من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم) يعني انه قال لهم ذلك لما أيقن بنزول العذاب بقومه واختلفوا هل كان ذلك القول قبل نزول العذاب أو بعده على قولين سبقا في قصة صالح عليه الصلاة والسلام ۞ وقوله (فكيف آسى) يعني أحزن (على قوم كافرين) والأسى أشد الحزن وانما اشتد حزنه على قومه لأنهم كانوا كثيرين وكان يتوقع منهم الاجابة والايمان فلما نزل بهم ما نزل من العذاب عزى نفسه فقال فكيف أحزن على قوم كافرين لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم باصرارهم على الكفر وقيل في معنى الآية ان شعيبا قال لقد أعذرت اليكم في الابلاغ والنصيحة والتحذير فلم تسمعوا قولي ولم تقبلوا نصحي فكيف أحزن عليكم يعني انكم لستم مستحقين لأن يحزن عليكم فعلى القول الأول انه حصل لشعيب حزن على قومه وعلى القول الثاني لم يحزن عليهم والله أعلم ۞ وقوله تعالى (وما أرسلنا في قرية من نبي) فيه اضمار وحذف تقديره فكذبوه (الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) قال ابن مسعود البأساء الفقر والضراء المرض وهو معنى قول الزجاج فانه قال البأساء كل ما نالهم من الشدة في أموالهم والضراء كل ما نالهم من الأمراض وقيل البأساء الشدة وضيق العيش والضراء الضر وسوء الحال (لعلهم يضرعون) يعني انما فعلنا ذلك بهم لكي يتضرعوا ويتوبوا والتضرع الخضوع والانقياد لأمر الله عز وجل والمراد من هذه الآية ان الله عز وجل لما عرف نبيه صلى الله عليه وسلم أحوال الأنبياء مع أممهم المكذبة وقص عليه من أخبارهم وعرفه سنته في الأمم الذين خلوا من قبله وما صاروا اليه من الهلاك والعذاب عرفه في هذه الآية انه قد أرسل رسلا الى أمم أخر فكذبوا رسلهم فأخذهم بالبأساء والضراء كما فعل بمن كذب رسله وفيه تخويف وتحذير لكفار قريش وغيرهم من الكفار لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ثم بين تعالى انه لا يجري تدبيره في أهل القرى على نمط واحد وسنة واحدة وانما يدبرهم بما يكون الى الايمان أقرب وهو قوله تعالى (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) لأن ورود النعمة على البدن والمال بعد الشدة والضيق يستدعي الانقياد للطاعة والاشتغال بالشكر قال أهل اللغة السيئة كل ما يسوء صاحبه والحسنة كل ما يستحسنه الطبع والعقل فالسيئة والحسنة هنا الشدة والرخاء والمعنى انه تعالى بدل مكان البأساء والضراء النعمة والسعة والخصب والصحة في الأبدان فأخبر الله تعالى في هذه الآية انه يأخذ أهل المعاصي والكفر تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله (حتى عفوا) يعني انه فعل ذلك بهم حتى كثروا وكثرت أموالهم يقال عفا الشعر اذا كثر وطال قال مجاهد حتى كثرت أموالهم وأولادهم (وقالوا) يعني من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا الى الرخاء والسعة (قد مس آباءنا

(الذين كذبوا شعيبا) مبتدأ خبره (كأن لم يغنوا فيها) لم يقيموا فيها غنى بالمكان أقام (الذين كذبوا شعيبا) مبتدأ خبره (كانوا هم الخاسرين) لا من قالوا لهم انكم اذا لخاسرون وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص كأنه قيل الذين كذبوا شعيبا هم المخصوصون بأن أهلكوا كأن لم يقيموا في دارهم لأن الذين اتبعوا شعيبا قد أنجاهم الله الذين كذبوا شعيبا هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه فهم الرابحون وفي التكرار مبالغة واستعظام لتكذيبهم ولما جرى عليهم (فتولى عنهم) بعد أن نزل بهم العذاب (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى) أحزن (على قوم كافرين) اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال كيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم أو أراد لقد أعذرت لكم في الابلاغ والتحذير مما حل بكم فلم تصدقوني فكيف آسى عليكم (وما أرسلنا في قرية من نبي) يقال لكل مدينة قرية وفيه حذف أي فكذبوه (الا أخذنا أهلها بالبأساء) بالبؤس والفقر (والضراء) الضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم أو هما نقصان النفس والمال (لعلهم يضرعون) ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة والصحة (حتى عفوا) كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم من قولهم عفا النبات اذا كثر ومنه قوله عليه السلام واعفوا اللحى (وقالوا قد مس آباءنا

(الضراء والسراء) أي قالوا هذه عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء وقد مس آباءنا نحو ذلك وما هو بعقوبة الذنب فكونوا على ما أنتم عليه (فأخذناهم بغتة) فجأة (وهم لا يشعرون) بنزول العذاب واللام في (ولو أن أهل القرى) إشارة إلى أهل القرى التي دل عليها وما أرسلنا في قرية من نبي كأنه قال ولو أن أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا (آمنوا) بدل كفرهم (واتقوا) الشرك مكان ارتكابه (لفتحنا عليهم) لفتحنا شامي (بركات من السماء والأرض) أراد المطر والنبات أو لآتيناهم بالخير من كل وجه (ولكن كذبوا) الأنبياء (فأخذناهم بما كانوا يكسبون) (١٢٢) بكفرهم وسوء كسبهم ويجوز أن تكون اللام للجنس (أفأمن أهل القرى) يريد الكفار منهم (أن يأتيهم بأسنا) عذابنا (بياتا) ليلا أي وقت بيات يقال بات بياتا (وهم نائمون أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى) نهارا والضحى في الأصل ضوء الشمس إذا أشرقت والفاء والواو في أفأمن وأوأمن حرفا عطف دخل عليهما همزة الإنكار والمعطوف عليه فأخذناهم بغتة وقوله ولو أن أهل القرى إلى يكسبون اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وإنما عطفت بالفاء لأن المعنى فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة بعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى أو أمن شامي وحجازي على العطف بأو والمعنى إنكار الأمن من أحد هذين الوجهين من إتيان العذاب ليلا أو ضحى فإن قلت كيف دخل همزة الاستفهام على حرف العطف وهو ينافي الاستفهام قلت التنافي في المفرد لا في عطف جملة على جملة لأنه على استئناف جملة بعد جملة (وهم يلعبون) يشتغلون بما لا يجدي لهم (أفأمنوا) تكرير لقوله أفأمن أهل القرى (مكر الله) أخذه العبد اى من حيث لا يشعر وعن الشبلي قدس الله روحه العزيز مكره بهم تركه إياهم على ما هم عليه وقالت ابنة الربيع بن خثيم لأبيها ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام قال يا بنتاه إن أباك يخاف البيات أراد قوله أن يأتيهم بأسنا بياتا (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) إلا الكافرون الذين خسروا أنفسهم حتى صاروا إلى النار (أولم يهد) يبين (للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) أن لو نشاء مرفوع بأنه فاعل يهد وأن مخففة من الثقيلة أي أولم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثونهم أرضهم هذا الشأن وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين وإنما عدى فعل الهداية باللام لأنه بمعنى التبيين (ونطبع)

(الضراء والسراء) يعني أنهم قالوا هكذا عادة الدهر قديما وحديثا لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فإنهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء والسراء قال الله تعالى (فأخذناهم بغتة) يعني أخذناهم فجأة آمن ما كانوا ليكون ذلك أعظم لحسرتهم (وهم لا يشعرون) يعني بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة اعتبار من سمعها لينزجر عما هو عليه من الذنوب ﴿ قوله عز وجل (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) لما بين الله تعالى في هذه الآية الأولى أن الذين عصوا وتمردوا أخذهم بعذابه بين في هذه الآية أنهم لو آمنوا يعني بالله وبرسله وأطاعوه فيما أمرهم به واتقوا يعني ما نهى الله تعالى عنه وحرمه عليهم (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) فبركات السماء المطر وبركات الأرض النبات والثمار وجميع ما فيهما من الخيرات والأنعام والأرزاق والأمن والسلامة من الآفات وكل ذلك من فضل الله تعالى وإحسانه على عباده وأصل البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء وسمي المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه وكذا ثبوت البركة في نبات الأرض لأنه نشأ عن بركات السماء وهي المطر وقال البغوي أصل البركة المواظبة على الشيء أي تابعنا عليهم بالمطر من السماء والنبات من الأرض ورفعنا عنهم القحط والجدب (ولكن كذبوا) يعني فعلنا بهم ذلك ليؤمنوا فما آمنوا ولكن كذبوا يعني الرسل (فأخذناهم) يعني بأنواع العذاب (بما كانوا يكسبون) يعني أخذناهم بسبب كسبهم الأعمال الخبيثة ﴿ قوله تعالى (أفأمن أهل القرى) هو استفهام بمعنى الإنكار وفيه وعيد وتهديد وزجر والمراد بالقرى مكة وما حولها وقيل هو عام في كل أهل القرى الذين كفروا وكذبوا (أن يأتيهم بأسنا) يعني عذابنا (بياتا) يعني ليلا (وهم نائمون أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى) يعني نهارا لأن الضحى صدر النهار (وهم يلعبون) يعني وهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم والمقصود من الآية أن الله خوفهم بنزول العذاب وهم في غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت الذي يغلب على الإنسان التشاغل فيه بأمور الدنيا وأمور الدنيا كلها لعب ويحتمل أن يكون المراد خوضهم في كفرهم وذلك لعب أيضا لأنه يضر ولا ينفع (أفأمنوا مكر الله) يعني استدراجه إياهم بما أنعم عليهم من الدنيا وقيل المراد أن يأتيهم عذابه من حيث لا يشعرون وعلى هذا الوجه فيكون بمعنى التحذير وسمي هذا العذاب مكرا لنزوله وهم في غفلة عنه لا يشعرون به (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) يعني أنه لا يأمن أن يكون ما أعطاهم من النعمة مع كفرهم استدراجا إلا من خسر في آخرته وهلك مع الهالكين (أولم يهد) يعني أولم يبين (للذين يرثون الأرض من بعد) هلاك (أهلها) الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) يعني لو نشاء أخذناهم وعاقبناهم بسبب كفرهم (ونطبع)

أي ونختم (على قلوبهم فهم لا يسمعون) يعني لا يسمعون موعظة ولا يقبلون الايمان ونطبع منقطع عما قبله والمعنى ونحن نطبع على قلوبهم ويجوز أن يكون معطوفا على الماضي ولفظه لفظ المستقبل والمعنى ولو شئنا طبعنا على قلوبهم (تلك القرى) يعني هذه القرى التي ذكرناها لك يا محمد أمرها وأمر أهلها وهي قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب (نقص عليك من أنبائها) يعني نخبرك عنها وعن أخبار أهلها وما كان من أمرهم وأمر رسلهم الذين أرسلوا اليهم لتعلم يا محمد انا لننصر رسلنا والذين آمنوا معهم على أعدائنا وأعدائهم من أهل الكفر والعناد وكيف أهلكناهم بكفرهم وبمخالفتهم رسلهم فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتحذير لكفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصابهم (ولقد جاءتهم) يعني لأهل تلك القرى (رسلهم بالبينات) يعني جاءتهم رسلهم بالمعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) اختلف أهل التفسير في معنى ذلك فقيل معناه فما كان هؤلاء المشركون الذين أهلكناهم من أهل القرى ليؤمنوا عند ارسالنا اليهم رسلهم بما كذبوا من قبل ذلك وهو يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم عليه السلام فأقروا باللسان وأضمروا التكذيب وهذا معنى قول ابن عباس والسدي قال السدي آمنوا كرها يوم أخذ الميثاق وقال مجاهد فما كانوا لو أحييناهم بعد اهلاكهم ومعاينتهم العذاب ليؤمنوا بما كذبوا من قبل هلاكهم وقيل معناه فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق لهم في علم الله انهم يكذبون به حين أخرجهم من صلب آدم عليه الصلاة والسلام قال أبي بن كعب كان سبق لهم في علمه يوم أقروا له بالميثاق انهم لا يؤمنون به وقال الربيع بن أنس يحق على العباد أن يأخذوا من العلم ما أبدى لهم ربهم وان لا يتناولوا علم ما أخفى الله تعالى عنهم فان علمه نافذ فيما كان وفيما يكون وفي ذلك قال تعالى ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين قال نفذ علمه فيهم أيهم المطيع من العاصي حيث خلقهم في صلب آدم عليه الصلاة والسلام قال الطبري وأولى الاقوال بالصواب قول أبي بن كعب والربيع بن أنس وذلك ان من سبق في علم الله انه لا يؤمن به فلا يؤمن أبدا وقد كان سبق في علم الله لمن هلك من الامم الذين قص خبرهم في هذه السورة انهم لا يؤمنون أبدا فأخبر عنهم انهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم مكذبون به في سابق علمه قبل مجيء الرسل عند مجيئهم اليهم (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) يعني كما طبع الله على قلوب كفار الامم الخالية وأهلكهم كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم انهم لا يؤمنون من قومك (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) يعني وما وجدنا لأكثر الامم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك يا محمد من وفاء بالعهد الذي عهدناه اليهم وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق قال ابن عباس انما أهلك الله أهل القرى لانهم لم يكونوا حفظوا ما أوصاهم به (وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) أي وما وجدنا أكثرهم الا فاسقين خارجين عن طاعتنا وأمرنا ﴿ قوله عز وجل (ثم بعثنا من بعدهم) يعني ثم بعثنا من بعد الانبياء الذين تقدم ذكرهم وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام (موسى بآياتنا) يعني بحججنا وأدلتنا الدالة على صدقه مثل اليد والعصا ونحو ذلك من الآيات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام (الى فرعون وملئه) قيل ان كل من ملك مصر كان يسمى فرعون في ذلك الزمان مثل ما كان يسمى ملك الفرس كسرى وملك الروم قيصر وملك الحبشة النجاشي وكان اسم فرعون الذي أرسل اليه موسى عليه الصلاة والسلام الوليد بن مصعب بن الريان وكان ملك القبط والملأ أشراف قومه وانما خصوا بالذكر لانه اذا آمن الأشراف آمن الاتباع (فظلموا بها) يعني فجحدوا بها لان الظلم وضع الشيء في غير موضعه وكانت هذه

مستأنف أي ونحن نختم (على قلوبهم فهم لا يسمعون) الوعظ (تلك القرى نقص عليك من أنبائها) كقوله هذا بعلي شيخا في انه مبتدأ وخبر وحال أو تكون القرى صفة تلك ونقص خبرا والمعنى تلك القرى المذكورة من قوم نوح الى قوم شعيب نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات (فما كانوا ليؤمنوا) عند مجيء الرسل بالبينات (بما كذبوا من قبل) بما كذبوا من آيات الله من قبل مجيء الرسل أو فما كانوا ليؤمنوا الى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولا حين جاءتهم الرسل أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل اليهم الى أن ماتوا مصرين مع تتابع الآيات واللام لتأكيد النفي (كذلك) مثل ذلك الطبع الشديد (يطبع الله على قلوب الكافرين) لما علم منهم أنهم يختارون الثبات على الكفر (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الضمير للناس على الاطلاق يعني ان أكثر الناس نقضوا عهد الله وميثاقه في الايمان والآية اعتراض أو للامم المذكورين فانهم كانوا اذا عاهدوا الله في ضر ومخافة لئن أنجيتنا لنؤمنن ثم أنجاهم نكثوا (وان) الشان والحديث (وجدنا أكثرهم لفاسقين) خارجين عن الطاعة والوجود بمعنى العلم بدليل دخول أن المخففة واللام الفارقة ولا يجوز ذلك الا في المبتدأ والخبر والافعال الداخلة عليهما (ثم بعثنا من بعدهم) الضمير للرسل في قوله ولقد جاءتهم رسلهم أو للامم (موسى بآياتنا) بالمعجزات الواضحات (الى فرعون وملئه فظلموا بها) فكفروا بآياتنا أجرى الظلم مجرى

الكفر لانهما من وادوا حد بان الشرك لظلم عظيم أو فلما رأ الناس بسببها بين آ فوامن آمن أولانه اذا وجب الايمان بها فكفروا بدل
الايمان كان كفرهم بها ظلما حيث وضعوا الكفر غير موضعه وهو موضع الايمان (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) حيث صاروا مغرقين
(وقال موسى يافرعون) يقال لملوك مصر الفراعنة كما يقال لملوك فارس الاكاسرة وكأنه قال ياملك مصر واسمه قابوس أو الوليد بن
مصعب بن الريان (انى رسول من رب العالمين) اليك قال فرعون كذبت فقال موسى (حقيق على أن لاأقول على الله الا الحق) أى أنا حقيق
على قول الحق أى واجب على قول الحق أن أكون قائله والقائم به حقيق على نافع أى واجب على ترك القول على

الآيات معجزات ظاهرة قاهرة فكفروا بها ووضعوا الكفر موضع الايمان (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى انظر يامحمد بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم (وقال موسى يافرعون انى رسول من رب العالمين) يعنى ان موسى عليه الصلاة والسلام لما دخل على فرعون دعاه الى الله تعالى والى الايمان به وقال له انى رسول أى مرسل اليك والى قومك من رب العالمين يعنى ان الله الذى خلق السموات والأرض وخلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم هو الذى أرسلنى اليك (حقيق) أى واجب (على أن لاأقول على الله الا الحق) يعنى أنى رسول والرسول لايقول على الله الا الحق فى وصفه وتنزيهه وتوحيده وانه لا اله غيره (قدجئتكم ببينة من ربكم) يعنى ببرهان على صدقى فيما أدعى من الرسالة والمراد ببينته معجزته وهى العصا واليد البيضاء ثم ان موسى عليه الصلاة والسلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم فقال (فارسل معى بنى اسرائيل) يعنى خل عنهم وأطلقهم من أسرك وكان فرعون قد استعبد بنى اسرائيل واستعملهم فى الاعمال الشاقة مثل ضرب اللبن ونقل التراب ونحو ذلك من الاعمال الشاقة (قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين) يعنى ان فرعون قال لموسى عليه الصلاة والسلام بعد تبليغ الرسالة ان كنت جئت من عند من أرسلك ببينة تدل على صدقك فأتنى بها وأحضرها عندى لتصح دعواك ويثبت صدقك فيما قلت (فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين) أى بين والثعبان الذكر من الحيات وصفه هنا بأنه ثعبان والثعبان من الحيات العظيم الضخم ووصفه فى آية أخرى بأنه جان والجان الحية الصغيرة والجمع بين هذين الوصفين أنها كانت فى عظم الجثة كالثعبان العظيم وفى خفة الحركة كالحية الصغيرة وهى الجان قال ابن عباس والسدى ان موسى لما ألقى العصا صارت حية عظيمة صفراء شعراء فاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعا وارتفعت من الارض بقدر ميل وقامت على ذنبها واضعة لحيها الاسفل فى الارض ولحيها الأعلى على سور القصر وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب فرعون عن سريره هاربا وأحدث وقيل انه أحدث فى ذلك اليوم أربعمائة مرة وقيل انها أخذت قبة فرعون بين أنيابها وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا وقتل بعضهم بعضا فمات منهم فى ذلك اليوم خمسة وعشرون ألفا ودخل فرعون البيت وصاح ياموسى أنشدك بالذى أرسلك أن تأخذها وأنا أومن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فعادت فى يده عصا كما كانت وفى كون الثعبان مبينا وجوه الاول انه تميز وتبين ذلك عما عملته السحرة من التمويه والتلبيس وبذلك تتميز معجزات الانبياء عليهم الصلاة والسلام عن تمويه السحرة وتخييلهم الوجه الثانى انهم شاهدوا العصا قد انقلبت حية ولم يشتبه ذلك عليهم فلذلك قال ثعبان مبين أى بين الوجه الثالث ان ذلك الثعبان لما كان معجزة لموسى عليه الصلاة والسلام كان من أعظم الآيات التى أبانت صدق قول موسى عليه الصلاة والسلام فى أنه رسول من رب العالمين ۞ وقوله تعالى (ونزع يده) النزع فى اللغة عبارة عن اخراج الشئ عن مكانه والمعنى انه أخرج يده من جيبه أو من تحت جناحه (فاذا هى بيضاء للناظرين) قال ابن

الله الا الحق أى الصدق وعلى هذه القراءة تقف على العالمين وعلى الاول يجوز الوصل على جعل حقيق وصف الرسول وعلى بمعنى الباء كقراءة أبى أى انى رسول خليق بان لاأقول أو يعلق على بمعنى الفعل فى الرسول اى انى رسول حقيق جدير بالرسالة أرسلت على أن لاأقول على الله الا الحق (قدجئتكم ببينة من ربكم) بما يبين رسالتى (فارسل معى بنى اسرائيل) فخلهم يذهبوا معى راجعين الى الأرض المقدسة التى هى وطنهم وذلك ان يوسف عليه السلام لما توفى غلب فرعون على نسل الاسباط واستعبدهم فانقذهم الله بموسى عليه السلام وكان بين اليوم الذى دخل يوسف عليه السلام مصر واليوم الذى دخله موسى أربعمائة عام مع بعض (قال ان كنت جئت بآية) من عند من أرسلك (فأت بها ان كنت

من الصادقين) فأتنى بها لتصح دعواك ويثبت صدقك فيها (فألقى موسى) عليه السلام (عصاه) من يده عباس
(فاذا هى) اذا هذه للمفاجأة وهى من ظروف المكان بمنزلة ثم وهناك (ثعبان) حية عظيمة (مبين) ظاهر أمره روى انه كان ذكرا فاغرا فاه
بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل فى الارض والاعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك
وحمل على الناس فمات منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا فصاح فرعون ياموسى خذه وأنا أومن بك فأخذه موسى فعاد عصا (ونزع
يده) من جيبه (فاذا هى بيضاء للناظرين) أى فاذا هى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة الا اذا كان بياضا عجيبا خارجا عن العادة

عباس وغيره أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعني من غير برص وقيل ان موسى عليه الصلاة والسلام أدخل يده تحت جيبه ثم نزعها منه وقيل أخرج يده من تحت ابطه فاذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس وكان موسى عليه الصلاة والسلام آدم اللون ثم ردها الى جيبه فاخرجها فاذا هي كما كانت ولما كان البياض المفرط عيبا في الجسد وهو البرص قال الله تعالى في آية أخرى بيضاء من غير سوء يعني من غير برص والمعنى فاذا هي بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة الا اذا كان بياضها بياضا عجيبا خارجا عن العادة يتعجب منه

﴿فصل في بيان المعجزة وكونها دليلا على صدق الرسل﴾ اعلم ان الله تبارك وتعالى كان قادرا على خلق المعرفة والايمان في قلوب عباده ابتداء من غير واسطة ولكن أرسل اليهم رسلا تعرفهم معالم دينهم وجميع تكليفاته وذلك الرسول واسطة بين الله عز وجل وبين عباده يبلغهم كلامه ويعرفهم أحكامه وجاز أن تكون تلك الواسطة من غير البشر كالملائكة مع الانبياء وجاز أن تكون الواسطة من جنس البشر كالانبياء مع أممهم ولا مانع لهذا من جهة العقل واذا جاز هذا في دليل العقل وقد جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بمعجزات دالة على صدقهم فوجب تصديقهم في جميع ما أتوا به لان المعجزة مع التحدي من النبي قائمة مقام قول الله عز وجل صدق عبدي فاطيعوه واتبعوه ولان معجز النبي شاهد على صدقه في مقاله وسميت المعجزة معجزة لان الخلق عجزوا عن الاتيان بمثلها وهي على ضربين فضرب منها هو على نوع قدرة البشر ولكن عجزوا عنه فتعجيزهم عنه دل على انه من فعل الله ودل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم كتمني الموت في قوله فتمنوا الموت ان كنتم صادقين فلما صرفوا عن تمنيه مع قدرتهم عليه علم انه من عند الله ودل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم الضرب الثاني ما هو خارج عن قدرة البشر كاحياء الموتى وقلب العصا حية واخراج ناقة من صخرة وكلام الشجر والجماد والحيوان ونبع الماء من بين الأصابع وغير ذلك من المعجزات التي عجز البشر عن مثلها فاذا أتى النبي بشيء من تلك المعجزات الخارقة للعادات علم ان ذلك من عند الله وان الله عز وجل هو الذي أظهر ذلك المعجز على يديه ليكون حجة له على صدقه فيما يخبر به عن الله عز وجل وقد ثبت بدليل العقل والبرهان القاطع ان الله تعالى قادر على خلق الاشياء وابداعها من غير أصل سبق لها واخراجها من العدم الى الوجود وانه قادر على قلب الاعيان وخوارق العادات والله تعالى أعلم ۞ قوله عز وجل (قال الملأ من قوم فرعون ان هذا) يعني موسى (لساحر عليم) يعني انه ليأخذ باعين الناس حتى يخيل لهم ان العصا صارت حية ويرى الشيء بخلاف ما هو عليه كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون وانما قالوا ذلك لان السحر كان هو الغالب في ذلك الزمان فلما أتى بما يعجز عنه غيره قالوا ان هذا لساحر عليم فان قلت قد أخبر الله تعالى في هذه السورة ان هذا الكلام من قول الملأ لفرعون وقال في سورة الشعراء وقال فرعون للملأ حوله ان هذا لساحر عليم فكيف الجمع بينهما قلت لا يمتنع أن يكون قاله فرعون أولا ثم انهم قالوه بعده فاخبر الله تعالى عنهم هنا وأخبر عن فرعون في سورة الشعراء وقيل يحتمل ان فرعون قال هذا القول ثم ان الملأ من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم انهم بلغوه الى العامة فاخبر الله عز وجل هنا عن الملأ وأخبر هناك عن فرعون ۞ وقوله (يريد أن يخرجكم من أرضكم) يعني يريد موسى أن يخرجكم أيها القبط من أرض مصر (فماذا تأمرون) يعني فاي شيء تشيرون أن نفعل به وقيل ان قوله فماذا تأمرون من قول الملأ لان كلام فرعون تم عند قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم فقال الملأ مجيبين لفرعون فماذا تأمرون وانما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك في التعظيم والتفخيم والمعنى فما ترون أن نفعل به والقول الاول أصح لسياق الآية التي بعدها وهو قوله تعالى (قالوا أرجه وأخاه) يعني أخر أمرهما ولا تعجل فيهما فيصير عليك لا لك والارجاء التأخير في اللغة وقيل معنى أرجه احبسه وأخاه وهذا القول ضعيف لان الارجاء في اللغة هو التأخير لا الحبس ولان

يجمع الناس للنظر اليه روي أنه أرى فرعون يده وقال ما هذه فقال يدك ثم أدخلها في جيبه ونزعها فاذا هي بيضاء غلب شعاعها شعاع الشمس وكان موسى عليه السلام آدم شديد الادمة (قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم) عالم بالسحر ماهر فيه قد خيل الى الناس العصا حية والآدم أبيض وهذا الكلام قد عزي الى فرعون في سورة الشعراء وانه قاله للملأ وهنا عزي اليهم فيحتمل انه قد قاله هو وقالوا هم فحكى قوله ثمة وقولهم هنا أو قاله ابتداء فتلقنه منه الملأ فقالوه لاعقابهم (يريد أن يخرجكم من أرضكم) يعني مصر (فماذا تأمرون) تشيرون من آمرته فأمرني كذا اذا شاورته فأشار عليك برأي وهو من كلام فرعون قاله للملأ لما قالوا له ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم (قالوا أرجه) بسكون الهاء عاصم وحمزة أي أخر واحبس أي أخر أمره ولا تعجل أو كانه هم بقتله فقالوا أخر قتله واحبسه ولا تقتله ليتبين سحره عند الخلق (وأخاه) هرون

فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد أن رأى من أمر العصا ما رأى (وأرسل في المدائن) جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان أي أقام به يعني مدائن صعيد مصر (حاشرين) يعني رجالا يحشرون اليك السحرة من جميع مدائن الصعيد والمعنى أنهم قالوا لفرعون أرسل الى هذه المدائن رجالا من أعوانك وهم الشرط يحشرون اليك من فيها من السحرة وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد فان غلبهم موسى صدقناه واتبعناه وان غلبوه علمنا أنه ساحر فذلك قوله (يأتوك) يعني الشرط (بكل ساحر) وقرئ سحار والفرق بين الساحر والسحار أن الساحر هو المبتدئ في صناعة السحر فيتعلم ولا يعلم والسحار هو المعلم الذي يتعلم منه السحر وقيل الساحر من يكون سحره مرة دون وقت والسحار الذي يدوم سحره ويعمل في كل وقت (عليم) يعني ماهر بصناعة السحر وقال ابن عباس رضي الله عنهما وابن اسحق والسدي لن فرعون لما رأى من سلطان الله وقدرته في العصا قال انا لا نغالب موسى الا بمن هو أشد منه سحرا فاتخذ غلمانا من بني اسرائيل وبعث بهم الى مدينة يقال لها الغرما يعلمونهم السحر فعلموهم سحرا كثيرا وواعد فرعون موسى موعدا ثم بعث الى السحرة فجاؤا ومعهم معلمهم فقال فرعون للمعلم ماذا صنعت قال قد علمتهم سحرا لا يطيقه سحر أهل الارض الا أن يكون أمرا من السماء فانه لا طاقة لهم به ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك ساحرا الا أتى به واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط وهما رئيسا القوم وسبعون من بني اسرائيل وقال الكلبي كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى وكانوا سبعين غير رئيسهم وقال كعب الاحبار كانوا اثني عشر ألفا وقال محمد بن اسحق كانوا خمسة عشر ألفا وقال عكرمة كانوا سبعين ألفا وقال محمد بن المنكدر كانوا ثمانين ألفا وقال السدي كانوا بضعا وثمانين ألفا ويقال لرئيس القوم شمعون وقيل يوحنا ۞ قوله عز وجل (وجاء السحرة فرعون) يعني لما اجتمعوا وجاؤا الى فرعون (قالوا ان لنا لأجرا) يعني جعلا وعطاء تكرمنا به (ان كنا نحن الغالبين) يعني لموسى قال الامام فخر الدين الرازي ولقائل أن يقول كان حق الكلام أن يقول وجاء السحرة فرعون فقالوا بالفاء وجوابه هو على تقدير سائل سأل ما قالوا اذ جاؤا فأجيب بقوله قالوا ان لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين يعني لموسى (قال نعم) يعني قال لهم فرعون لكم الاجر والعطاء (وانكم لمن المقربين) يعني ولكم المنزلة الرفيعة عندي مع الاجر والمعنى ان فرعون قال للسحرة اني لا أقتصر معكم على الاجر بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة اني أجعلكم من المقربين عندي قال الكلبي تكونون أول من يدخل علي وآخر من يخرج من عندي (قالوا) يعني السحرة (يا موسى اما أن تلقي) يعني عصاك (واما أن نكون نحن الملقين) يعني عصينا وحبالنا في هذه الآية دقيقة لطيفة وهي ان السحرة راعوا مع موسى عليه الصلاة والسلام حسن الأدب حيث قدموه على أنفسهم في الالقاء لاجرم ان الله عز وجل عوضهم حيث تأدبوا مع نبيه موسى صلى الله عليه وسلم أن من عليهم بالايمان والهداية لما راعوا الادب أولا وأظهروا ما يدل على رغبتهم في ذلك (قال) يعني قال لهم موسى (ألقوا) يعني أنتم فقدمهم على نفسه في الالقاء فان قلت كيف جاز لموسى أن يأمر بالالقاء وقد علم ان السحر وفعل السحر غير جائز قلت ذكر العلماء رحمهم الله تعالى فيه أجوبة أحدها ان معناه ان كنتم محقين في فعلكم فالقوا والا فلا تلقوا الجواب الثاني انما أمرهم بالالقاء لتظهر معجزته لانهم اذا لم يلقوا حبالهم وعصيهم لم تظهر معجزة موسى في عصاه الجواب الثالث ان موسى علم انهم لا بد أن يلقوا تلك الحبال والعصي وانما وقع التخيير في التقديم والتأخير فأذن لهم في التقديم لتظهر معجزته أيضا عليهم لانه لو ألقى أولا لم يكن له غلبة وظهور عليهم فلهذا المعنى أمرهم بالالقاء أولا (فلما ألقوا) يعني حبالهم وعصيهم (سحروا أعين الناس) يعني صرفوا أعين الناس عن ادراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل وهذا هو السحر وهذا هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر وبين معجزة الانبياء عليهم الصلاة والسلام التي هي فعل الله وذلك لان السحر

(وأرسل في المدائن حاشرين) جامعين (يأتوك بكل ساحر عليم) سحار حمزة وعلي أي يأتوك بكل ساحر عليم مثله في المهارة أو بخير منه (وجاء السحرة فرعون) يريد فأرسل اليهم فحضروا (قالوا ان لنا لاجرا) على الخبر واثبات الاجر ٧ العظيم حجازي وحفص ولم يقل فقالوا لانه على تقدير سؤال سائل ما قالوا اذ جاؤا فأجيب بقوله قالوا ان لنا لاجرا جعلا على الغلبة والتنكير للتعظيم كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر عظيم (ان كنا نحن الغالبين قال نعم) ان لكم لاجرا (وانكم لمن المقربين) عندي فتكونون أول من يدخل وآخر من يخرج وكانوا ثمانين ألفا أو سبعين ألفا أو بضعة وثلاثين ألفا (قالوا يا موسى اما أن تلقي) عصاك (واما أن نكون نحن الملقين) لما معنا فيه دلالة على ان رغبتهم في أن يلقوا قبله حيث أكد ضميرهم المتصل بالمنفصل وعرف الخبر (قال) لهم موسى عليه السلام (ألقوا) تخييرهم اياه أدب حسن راعوه معه كما يفعل المناظرون قبل ان يتحاوروا في الجدال وقد سوغ لهم موسى ما رغبوا فيه ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم واعتمادا على ان المعجزة لن يغلبها سحر أبدا (فلما ألقوا سحروا أعين الناس)

قلب الاعين وصرفها عن ادراك ذلك الشئ والمعجزة قلب عين الشئ عن حقيقته كقلب عصا موسى عليه الصلاة والسلام حية تسعى (واسترهبوهم) يعنى أرهبوهم وأفزعوهم بما فعلوه من السحر وهذا قوله تعالى (وجاؤا) يعنى السحرة (بسحر عظيم) وذلك انهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فاذا هى حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا ويقال انهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصى زئبقا أيضا وألقوها على الارض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس أنها حيات ويقال ان الارض كانت سعتها ميلا فى ميل فصارت كلها حيات وأفاعى ففزع الناس من ذلك وأوجس فى نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه الصلاة والسلام لاجل سحرهم لانه عليه الصلاة والسلام كان على يقين وثقة من الله تعالى أنهم لن يغلبوه وهو غالبهم وكان عالما بان كل ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى من ذلك بل كان خوفه عليه الصلاة والسلام لاجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوا من أمر تلك الحيات خاف موسى عليه الصلاة والسلام أن يتفرقوا قبل ظهور معجزته وحجته فلذلك أوجس فى نفسه خيفة موسى ۞ قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك) يعنى فألقاها (فاذا هى تلقف) يعنى تبتلع (ما يأفكون) يعنى ما يكذب فيه السحرة لان أصل الافك قلب الشئ عن غير وجهه ومنه قيل للكذاب أفاك لانه يقلب الكلام عن وجهه الصحيح الى الباطل قال المفسرون أوحى الله عز وجل الى موسى عليه الصلاة والسلام أن لا تخف وألق عصاك فألقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق قال ابن زيد كان اجتماعهم بالاسكندرية فيقال بلغ ذنب الحية من وراء البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا فاذا هى تلقف يعنى تبتلع كل شئ أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم وعصيهم واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل وقصدت القوم الذين حضروا ذلك الجمع ففزعوا ووقع الزحام بينهم فمات من ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت فى يده عصا كما كانت أول مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا انه من أمر السماء وليس بسحر وعرفوا ان ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين وذلك قوله تعالى (فوقع الحق) يعنى فظهر الحق الذى جاء به موسى (وبطل ما كانوا يعملون) يعنى من السحر وذلك ان السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا ولما فقدت وتلاشت فى عصا موسى علموا ان ذلك من أمر الله وقدرته (فغلبوا هنالك) يعنى فعند ذلك غلب فرعون وسحرته وجموعه (وانقلبوا صاغرين) يعنى ورجعوا ذليلين مقهورين (وألقى السحرة ساجدين) يعنى ان السحرة لما عاينوا من عظيم قدرة الله تعالى ما ليس فى قدرتهم مقابلته وعلموا انه ليس بسحر خروا لله ساجدين وذلك ان الله عز وجل ألهمهم معرفته والايمان به (قالوا آمنا برب العالمين) فقال فرعون اياى تعنون فقالوا بل (رب موسى وهرون) قال مقاتل قال موسى لكبير السحرة تؤمن بى ان غلبتك فقال لآتين بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتنى لأومنن بك وقيل ان الحبال والعصى التى كانت مع السحرة كانت حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعتها عصا موسى كلها قال بعضهم لبعض هذا أمر خارج عن حد السحر وما هو الا من أمر السماء فآمنوا به وصدقوه فان قلت كان يجب أن يأتوا بالايمان قبل السجود فما فائدة تقديم السجود على الايمان قلت لما قذف الله عز وجل فى قلوبهم الايمان والمعرفة خروا وسجدوا لله تعالى شكرا على هدايتهم اليه وعلى ما ألهمهم من الايمان بالله وتصديق رسوله ثم أظهروا بعد ذلك ايمانهم وقيل لما رأوا عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه فى أمر العصا وانه ليس يقدر على ذلك أحد من البشر زالت كل شبهة كانت فى قلوبهم بادروا الى السجود لله تعظيما لشأنه لما رأوا من عظيم قدرته ثم انهم أظهروا الايمان باللسان قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك من أمر السماء وليس بسحر

أرادوها بالحيل والشعوذة وتخيلوا الباطل الحقيقة بخلاف فروى انهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا فاذا هى أمثال الحيات قد ملأت الارض وركب بعضها بعضا (واسترهبوهم) وأرهبوهم ارهابا شديدا كأنهم استدعوا رهبتهم بالحيلة (وجاؤا بسحر عظيم) فى باب السحر أو فى عين من رآه (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف) تبتلع تلقف حفص (ما يأفكون) ما موصولة أو مصدرية يعنى ما يأفكونه أى يقلبونه عن الحق الى الباطل ويزورونه أو افكهم تسمية للمأفوك بالافك روى أنها لما تلقفت ملء الوادى من الخشب والحبال ورفعها موسى رجعت عصا كما كانت وأعدم الله بقدرته تلك الاجرام العظيمة أو فرقها أجزاء لطيفة قالت السحرة لو كان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا (فوقع الحق) فحصل وثبت (وبطل ما كانوا يعملون) من السحر (فغلبوا هنالك) أى فرعون وجنوده والسحرة (وانقلبوا صاغرين) وصاروا أذلاء مبهوتين (وألقى السحرة ساجدين) وخروا سجدا لله كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم أو لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا فكانوا أول النهار كفارا سحرة وفى آخره شهداء بررة (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) هو بدل مما قبله

(قال فرعون آمنتم به) على الخبر حفص وهمزة التوبيخ منه فهم وبهمزتين كوفي غير حفص ... الاستبعاد (قبل أن آذن لكم) قبل اذني لكم (ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) ان صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا الى الصحراء لغرض لكم وهو أن تخرجوا من مصر القبط وتسكنوا بني

خروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون ﴿ قوله عز وجل (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم) يعني قال فرعون للسحرة آمنتم بموسى وصدقتموه قبل أن آمركم به وآذن لكم فيه (ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة) يعني ان هذا الصنع الذي صنعتموه أنتم وموسى في مدينة مصر قبل خروجكم الى هذا الموضع وذلك ان فرعون رأى موسى يحدث كبير السحرة فظن فرعون ان موسى وكبير السحرة قد تواطآ عليه وعلى أهل مصر وهو قوله (لتخرجوا منها أهلها) وتستولوا عليها أنتم (فسوف تعلمون) فيه وعيد وتهديد يعني فسوف تعلمون ما أفعل بكم ثم فسر ذلك الوعيد فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) وهو أن تقطع احدى اليدين واحدى الرجلين فيخالف بينهما في القطع (ثم لأصلبنكم أجمعين) يعني على شاطئ نيل مصر قال ابن عباس رضي الله عنهما أول من صلب وأول من قطع الايدي والارجل فرعون (قالوا) يعني مجيبين لفرعون حين وعدهم بالقتل (انا الى ربنا منقلبون) يعني انا الى ربنا راجعون واليه صائرون في الآخرة (وما تنقم منا) وما تكره منا وما تطعن علينا وقال عطاء معناه وما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه (الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) ثم فزعوا الى الله تعالى وسألوه الصبر على تعذيب فرعون إياهم فقالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) أي اصبب علينا صبرا كاملا تاما ولهذا أتى بلفظ التنكير يعني صبرا وأي صبر عظيم (وتوفنا مسلمين) يعني واقبضنا على دين الاسلام وهو دين خليلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضي الله عنهما كانوا في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء قال الكلبي ان فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم وقال غيره انه لم يقدر عليهم لقوله تعالى لا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴿ قوله تعالى (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى) يعني وقال جماعة من أشراف قوم فرعون لفرعون أتدع موسى (وقومه) من بني اسرائيل (ليفسدوا في الارض) يعني أرض مصر وأراد بالافساد فيها انهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قوله (ويذرك وآلهتك) يعني ويذرك ليذرك ويذر آلهتك فلا يعبدك ولا يعبدها قال ابن عباس رضي الله عنهما كانت لفرعون بقرة كان يعبدها وكان اذا رأى بقرة حسنة أمرهم بعبادتها ولذلك أخرج لهم السامري عجلا وقال السدي كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناما وكان يأمرهم بعبادتها وقال لهم أنا ربكم ورب هذه الاصنام وذلك قوله أنا ربكم الاعلى والاولى أن يقال ان فرعون كان دهريا منكرا لوجود الصانع فكان يقول مدبر هذا العالم السفلي هي الكواكب فاتخذ أصناما على صورة الكواكب وكان يعبدها ويأمر بعبادتها وكان يقول في نفسه انه هو المطاع والمخدوم في الارض فلهذا قال أنا ربكم الاعلى وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه وابن عباس والشعبي والضحاك ويذرك وإلاهتك بكسر الالف ومعناه ويذرك وعبادتك فلا يعبدك لان فرعون كان يعبد ولا يعبد وقيل أراد بالالاهة الشمس والكواكب لانه كان يعبدها قال الشاعر

تروحنا من اللعباء قصرا ۞ وأعجلنا الالاهة أن تؤوبا

أراد بالالاهة الشمس (قال) يعني فرعون مجيبا لقومه حين قالوا له أتذر موسى وقومه (سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) يعني نتركهن أحياء وذلك ان قوم فرعون لما أرادوا اغراء فرعون على قتل موسى وقومه ... موسى ازال العذاب بقومه ولم يقدر فرعون أن يفعل بموسى عليه الصلاة والسلام شيئا أرادوا به لقوة موسى عليه السلام عاينه من المعجزة فعدل الى قومه فقال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وقال ابن

اسرائيل (فسوف تعلمون) وعيد أجمله ثم فصله بقوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) من كل شق طرفا (ثم لأصلبنكم أجمعين) هو أول من قطع من خلاف وصلب (قالوا انا الى ربنا منقلبون) فلا نبالي بالموت لانقلابنا الى لقاء ربنا ورحمته أو انا جميعا يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب الى الله فيحكم بيننا (وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) وما تعيب منا الا الايمان بآيات الله أرادوا وما تعيب منا الا ما هو أصل المناقب والمفاخر وهو الايمان ومنه قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ۞ بهن فلول من قراع الكتائب

(ربنا أفرغ علينا صبرا) أي اصبب صبا ذريعا والمعنى هب لنا صبرا واسعا وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء افراغا (وتوفنا مسلمين) ثابتين على الاسلام (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض) أرض مصر بالاستعلاء فيها وتغيير دين أهلها لانه وافق السحرة على الايمان ستمائة ألف نفر (ويذرك وآلهتك) عطف على ... عباس ...

يفسدوا قيل صنع فرعون لقومه أصناما وأمرهم أن يعبدوها تقربا اليه كما يعبد عبدة الاصنام الاصنام ويقولون ليقربونا الى الله زلفى

لذلك قال أنا ربكم الاعلى (قال) فرعون مجيبا للملأ سنقتل أبناءهم ...

(وإنا فوقهم قاهرون) سنقتل أبناءهم أي سنعيد عليهم قتل الأبناء ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي تحدث المنجمون بذهاب ملكنا على يده فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) قال لهم ذلك حين جزعوا من قول فرعون سنقتل أبناءهم تسلية لهم ووعدا بالنصر عليهم (إن الأرض) اللام للعهد أي أرض مصر أو للجنس فيتناول أرض مصر تناولا أوليا (لله يورثها من يشاء من عباده) فيه تمنيته إياهم أرض مصر (والعاقبة للمتقين) بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط وأخليت هذه الجملة عن الواو لأنها جملة مستأنفة بخلاف قوله وقال الملأ لأنها معطوفة على ما سبقها من قوله قال الملأ من قوم فرعون (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى إلى أن استنبئ وإعادته عليهم بعد ذلك وذلك اشتكاء من فرعون واستبطاء لوعد النصر (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض) تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر (فينظر كيف تعملون) فيرى الكائن منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم وعن عمرو بن عبيد أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان وطلب المنصور زيادة لعمرو فلم توجد فقرأ عمرو هذه الآية ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال قد بقي فينظر كيف تعملون (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) بالقحط وهن سبع سنين والسنة من الأسماء الغالبة كالدابة والنجم (ونقص من الثمرات) قيل السنون لأهل البوادي ونقص الثمرات للأمصار (لعلهم يذكرون) ليتعظوا فينتبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر ولأن الناس في حال الشدة أضرع خدودا وأرق أفئدة وقيل عاش فرعون أربعمائة سنة لم ير مكروها في ثلاثمائة وعشرين سنة ولو أصابه في تلك المدة وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية

عباس رضي الله عنهما كان قد ترك القتل في بني إسرائيل بعدما ولد موسى فلما جاءهم موسى بالرسالة وكان من أمره ما كان قال فرعون أعيدوا عليهم القتل فأعادوا القتل على بني إسرائيل والمعنى أن فرعون قال إنا نتقوى على موسى بقومه فنحن نسعى في تقليل عدد قومه بالقتل لتقل شوكته ثم بين فرعون أنه قادر على ذلك بقوله (وإنا فوقهم قاهرون) يعني بالغلبة والقدرة عليهم، ولما نزل ببني إسرائيل ما نزل شكوا إلى موسى ما نزل بهم (قال موسى لقومه) يعني لما شكوا إليه (استعينوا بالله واصبروا) يعني استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء فإن الله هو الكافي لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم (إن الأرض لله) يعني أرض مصر وإن كانت الأرض كلها لله تعالى (يورثها من يشاء من عباده) وهذا إطماع من موسى عليه الصلاة والسلام لبني إسرائيل أن يهلك فرعون وقومه ويملك بنو إسرائيل أرضهم وبلادهم بعد إهلاكهم وهو قوله تعالى (والعاقبة للمتقين) يعني أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم وقيل أراد الجنة يعني أن عاقبة المتقين الصائرين إلى الجنة (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) قال ابن عباس رضي الله عنهما لما آمنت السحرة مع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل والمعنى أن بني إسرائيل لما سمعوا ما قاله فرعون ووعدهم به من القتل مرة ثانية قالوا لموسى قد أوذينا من قبل أن تأتينا يعني بالرسالة وذلك أن بني إسرائيل كانوا مستضعفين في يد فرعون وقومه وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة إلى نصف النهار فلما جاء موسى بالرسالة وجرى ما جرى شدد فرعون في استعمالهم فكان يستعملهم جميع نهارهم وأعاد القتل عليهم فقالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يعني بالرسالة وظاهر هذا الكلام يوهم أن بني إسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر والجواب عن هذا الإيهام أن موسى عليه الصلاة والسلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا أن ذلك يكون على الفور فلما رأوا أنه قد زادت الشدة عليهم قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه (قال) موسى مجيبا لهم (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) يعني فرعون وقومه (ويستخلفكم في الأرض) يعني ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم (فينظر كيف تعملون) يعني فيرى ربكم كيف تعملون من بعدهم قال الزجاج فيرى وقوع ذلك منهم لأن الله تعالى لا يجازيهم على ما يعلمه منهم وإنما يجازيهم على ما يقع منهم ﴿ قوله عز وجل (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) يعني بالقحط والجدب تقول العرب مستهم السنة يعني أخذهم الجدب في السنة ويقال أسنتوا كناية عن أجدبوا قال الشاعر * ورجال مكة مسنتون عجاف * ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ومعنى الآية ولقد أخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة (ونقص من الثمرات) يعني وإتلاف الغلات بالآفات قال قتادة أما السنون فلأهل البوادي وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار (لعلهم يذكرون) يعني لعلهم يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل من الخير ثم بين الله تعالى

انهم عند نزول العذاب وتلك المحن عليهم والشدة لم يزدادوا الا تمردا وكفرا فقال تعالى (فاذا جاءتهم الحسنة) يعنى الخصب والسعة والعافية والسلامة من الآفات (قالوا لنا هذه) أى نحن مستحقون لها ونحن أهلها على العادة التى جرت لنا فى سعة الارزاق وصحة الابدان ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم فيشكروه على انعامه (وان تصبهم سيئة) يعنى القحط والجدب والمرض والبلاء ورأوا ما يكرهون فى أنفسهم (يطيروا) يعنى يتشاءموا وأصله يتطيروا والتطير التشاؤم فى قول جميع المفسرين (بموسى ومن معه) يعنى انهم قالوا ما أصابنا بلاء الا حين رأيناهم وما ذلك الا بشؤم موسى وقومه قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر كان ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة لم ير مكروها قط ولو كان حصل له فى تلك المدة جوع يوم أو حمى ليلة أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية قط (ألا انما طائرهم عند الله) يعنى ان ما يصيبهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله قال ابن عباس رضى الله عنهما طائرهم ما قضى لهم وقدر عليهم من وفى رواية عنه شؤمهم عند الله تعالى ومعناه انما جاءهم بكفرهم بالله وقيل الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله من عذاب النار (ولكن أكثرهم لا يعلمون) يعنى ان ما أصابهم من الله تعالى وانما قال أكثرهم لا يعلمون لان أكثر الخلق يضيفون الحوادث الى الاسباب ولا يضيفونها الى القضاء والقدر ﴿ قوله تعالى (وقالوا) يعنى قوم فرعون وهم القبط لموسى عليه السلام (مهما تأتنا به من آية) يعنى من عند ربك فهى عندنا سحر وهو قولهم (لتسحرنا بها) يعنى لتصرفنا عما نحن عليه من الدين (فما نحن لك بمؤمنين) يعنى بمصدقين وكان موسى عليه الصلاة والسلام رجلا حديدا مستجاب الدعوة فدعا عليهم فاستجاب الله عز وجل دعاءه فقال تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) قال ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن اسحق دخل كلام بعضهم فى بعض قالوا لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه الا الاقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عز وجل عليهم الآيات فأخذهم أولا بالسنين وهو القحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك من المعجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال يارب ان عبدك فرعون علا فى الارض وبغى وعتا وان قومه قد نقضوا العهد رب فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم آية وعبرة فبعث الله عليهم الطوفان وهو الماء فأرسل الله عليهم المطر من السماء وبيوت بنى اسرائيل وبيوت القبط مختلطة مشتبكة فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء الى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الماء فى بيوت بنى اسرائيل شئ وركد الماء على أرضهم فلم يقدروا على الحرث ولم يعملوا شيأ ودام ذلك الماء عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت وقال مجاهد وعطاء الطوفان الموت وقال وهب الطوفان الطاعون بلغة أهل اليمن وقال أبو قلابة الطوفان الجدرى وهم أول من عذبوا به ثم بقى فى الارض وقال مقاتل الطوفان الماء طغا فوق حروثهم وفى رواية ابن عباس رضى الله عنهما ان الطوفان أمر من الله عز وجل طاف بهم فعند ذلك قالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا المطر فنحن نؤمن بك ونرسل معك بنى اسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فرفع عنهم الطوفان وأنبت الله لهم تلك السنة شيأ لم ينبته قبل ذلك من الكلا والزرع والثمر وأخصبت بلادهم فقالوا ما كان هذا الماء الا نعمة علينا فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زروعهم وثمارهم وورق الشجر وأكل الابواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والامتعة وأكل المسامير الحديد فى الابواب وغيرها وابتلى الجراد بالجوع فكان لا يشبع وامتلأت دور القبط منه ولم يصب بنى اسرائيل من ذلك شئ فعجوا وضجوا وقالوا يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك وأعطوه عهد الله وميثاقه بذلك

(فاذا جاءتهم الحسنة) الصحة والخصب (قالوا لنا هذه) أى هذه التى نستحقها (وان تصبهم سيئة) جدب ومرض (يطيروا) أصله يتطيروا فادغمت التاء فى الطاء لانهما من طرف اللسان وأصول الثنايا (بموسى ومن معه) تشاءموا بهم وقالوا هذه بشؤمهم ولولا مكانهم لما أصابتنا وانما دخل اذا فى الحسنة وعرفت الحسنة وان فى السيئة ونكرت السيئة لان جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته وأما السيئة فلا تقع الا فى الندرة ولا يقع الا شئ منها (ألا انما طائرهم) سبب خيرهم وشرهم (عند الله) فى حكمه ومشيئته والله هو الذى يقدر ما يصيبهم من الحسنة والسيئة قل كل من عند الله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أصل مهما ماما فما الاولى للجزاء ضمت اليها ما المزيدة المؤكدة للجزاء فى قولك متى ما تخرج أخرج أينما تكونوا فاما تذهبن بك الا ان الالف قلبت هاء استثقالا لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصرى وهو فى موضع النصب بتأتنا أى أيما تأتنا ومن آية تبيين لهما والضمير فى به وبها راجع الى مهما الا ان الاول ذكر على اللفظ والثانى أنث على المعنى لانها فى معنى الآية وانما سموها آية اعتبارا لتسمية موسى أو قصدوا بذلك الاستهزاء (فأرسلنا عليهم الطوفان) ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل قيل طفا الماء فوق حروثهم وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يرون شمسا ولا قمرا ولا يقدر أحد أن يخرج من داره وقيل دخل الماء فى بيوت القبط

فدعا

فدعا موسى ربه عز وجل فكشف الله عنهم الجراد بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى السبت وفي الخبر
مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم ويقال ان موسى عليه السلام خرج الى الفضاء فأشار بعصاه
نحو المشرق والمغرب فرجع الجراد من حيث جاء وكان قد بقي من زروعهم وثمارهم بقية فقالوا قد بقي لنا
ما هو كافينا فما نحن بتاركي دينكم فلم يفوا بما عاهدوا عليه وعادوا الى أعمالهم الخبيثة فأقاموا شهرا
في عافية ثم بعث الله عز وجل عليهم القمل واختلفوا فيه فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله
عنهما ان القمل هو السوس الذي يخرج من الحنطة وقال مجاهد وقتادة والسدي والكلبي القمل الدبى وهو
صغار الجراد الذي لا أجنحة له وقال أبو عبيدة هو الحمنان وهو ضرب من القراد وقال عطاء الخراساني هو
القمل بعينه وكان الحسن يقرأ بفتح القاف وسكون الميم قال أصحاب الأخبار أمر الله عز وجل موسى عليه
الصلاة والسلام ان يمشي الى كثيب رمل أعفر بقرية من قرى مصر تسمى عين الشمس فمشى الى ذلك
الكثيب فضربه بعصاه فانثال عليهم القمل فتتبع ما بقي من حروثهم وزروعهم وثمارهم فأكلها كلها ولحس
الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيمصه فاذا أكل أحدهم طعاما امتلأ قملا قال سعيد بن
المسيب القمل السوس الذي يخرج من الحبوب وكان الرجل منهم يخرج بعشرة أجربة الى الرحى فلا يرد
منها ثلاثة أقفزة فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل وأخذت أشعارهم وأبشارهم وحواجبهم وأشفار
عيونهم ولزم جلودهم كأنه الجدري عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا الى موسى انا نتوب فادع لنا ربك
يكشف عنا هذا البلاء فدعا موسى ربه فرفع الله عنهم القمل بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت الى
السبت فنكثوا بعد ذلك ورجعوا الى أخبث ما كانوا عليه من الأعمال الخبيثة وقالوا ما كنا قط أحق أن
نستيقن انه ساحر منا اليوم يجعل الرمل دوابا فدعا موسى عليهم بعدما أقاموا شهرا في عافية فأرسل الله عليهم
الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحد اناء ولا طعاما الا وجد فيه
الضفادع وكان الرجل منهم يجلس في الضفادع فتبلغ الى حلقه فاذا أراد أن يتكلم يثب الضفدع فيدخل
في فيه وكانت تثب في قدورهم فتفسد طعامهم عليهم وتطفئ نيرانهم وكان أحدهم اذا اضطجع ركبته
الضفادع حتى يكون عليه ركاما فلا يستطيع أن ينقلب الى شقه الآخر واذا أراد أن يأكل سبقه الضفدع
الى فيه ولا يعجن أحدهم عجينا الا امتلأت ضفادع ولا يفتح قدرا الا امتلأت ضفادع فلقوا من ذلك بلاء شديدا
وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كانت الضفادع برية فلما أرسلها الله عز وجل على آل
فرعون وسمعت وأطاعت وجعلت تقذف أنفسها في القدور وهي تغلي وفي التنانير وهي تفور
فأثابها الله عز وجل بحسن طاعتها برد الماء فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا الى موسى عليه الصلاة والسلام ما يلقون
من الضفادع وقالوا هذه المرة نتوب ولا نعود فأخذ موسى عليه السلام عليهم العهود والمواثيق ثم دعا الله
عز وجل فكشف عنهم الضفادع بعدما أقامت عليهم سبعا من السبت الى السبت فأقاموا شهرا في عافية ثم نقضوا
العهد وعادوا الى كفرهم فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام فأرسل الله عز وجل عليهم الدم فسال النيل
عليهم دما عبيطا وصارت مياههم كلها دما وكل ما يستقون من الآبار والأنهار يجدونه دما عبيطا فشكوا
ذلك الى فرعون وقالوا ليس لنا شراب الا الدم فقال سحركم فقالوا من أين يسحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا
شيئا من الماء الا دما عبيطا فكان فرعون يجمع بين القبطي والاسرائيلي على اناء واحد فيكون ما يلي
الاسرائيلي ماء وما يلي القبطي دما ويغرفان الجرة فيها الماء فيخرج للقبطي دما وللاسرائيلي ماء حتى ان
المرأة من آل فرعون تأتي الى المرأة من بني اسرائيل حين جهدهم العطش فتقول لها اسقيني من مائك فتصب
لها من قربتها فيصير في الاناء دما حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم مجيه في فيّ فتفعل ذلك فيصير دما ثم ان
فرعون اعتراه العطش حتى انه ليضطر الى مضغ الأشجار الرطبة فاذا مضغها صار ماؤها دما فمكثوا على ذلك

حتى قاموا في الماء الى تراقيهم من جلس غرق ولم يدخل بيوت بني اسرائيل من الماء قطرة و هو الجدري أو الطاعون

سبعة أيام لا يشربون الا الدم وقال زيد بن أسلم الدم الذي سلطه الله عز وجل عليهم كان الرعاف فأتوا موسى عليه الصلاة والسلام وشكوا اليه ما يلقون وقالوا ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنحن نؤمن بك ونرسل معك بني اسرائيل فدعا موسى عليه الصلاة والسلام ربه فكشف عنهم ذلك فلم يؤمنوا فذلك قوله تعالى فأرسلنا عليهم الطوفان (والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات) يعني يتبع بعضها بعضا وتفصيلها ان كل عذاب كان يقوم عليهم أسبوعا وبين كل عذابين مدة شهر (فاستكبروا) يعني عن الايمان فلم يؤمنوا (وكانوا قوما مجرمين) يعني آل فرعون ﴿ قوله تعالى (ولما وقع عليهم الرجز) يعني ولما نزل بهم العذاب الذي ذكر في الآية المتقدمة من الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس التي تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى مات منهم في يوم واحد سبعون ألفا فأمسوا وهم لا يتدافنون (ق) عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني اسرائيل أو على من كان قبلكم فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ﴿ وقوله تعالى (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) يعني بما أوصاك وقيل بما أنبأك وقيل بما عهد عندك من اجابة دعوتك (لئن كشفت عنا الرجز) يعني العذاب الذي وقع بنا (لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل) يعني لنتبعنك فيما جئت به ولنخلين بني اسرائيل حتى يذهبوا حيث شاؤا (فلما كشفنا عنهم الرجز) يعني بدعوة موسى عليه الصلاة والسلام (الى أجل هم بالغوه) يعني الى الوقت الذي أجل لهم وهو وقت اهلاكهم بالغرق في اليم (اذا هم ينكثون) يعني اذا هم ينقضون العهد الذي التزموه فلم يفوا به واعلم أن ما ذكره الله تعالى في هذه الآيات هي معجزات في الحقيقة دالة على صدق موسى عليه الصلاة والسلام ووجه ذلك أن العذاب كان مختصا بآل فرعون دون بني اسرائيل فاختصاصه بالقبطي دون الاسرائيلي معجز وكون بني اسرائيل في أمان منه وعافية وقوم فرعون في شدة وعذاب وبلاء مع اتحاد المكان معجز أيضا فان اعترض معترض وقال ان الله تعالى علم من حال آل فرعون أنهم لا يؤمنون بتلك المعجزات فما الفائدة في توالها عليهم واظهار الكثير منها فالجواب على مذهب أهل السنة ان الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل وأما على قول المعتزلة في رعاية المصلحة فلعله تعالى علم من قوم فرعون ان بعضهم كان يؤمن بتوالي تلك المعجزات وظهورها فلهذا السبب والاها عليهم والله أعلم بمراده ﴿ قوله عز وجل (فانتقمنا منهم) يعني كافأناهم عقوبة لهم على سوء صنيعهم وأصل الانتقام في اللغة سلب النعمة بالعذاب (فأغرقناهم في اليم) والمعنى أنه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم فلما بلغوا الاجل الذي أجل لهم انتقم منهم بان أهلكهم بالغرق فذلك قوله فأغرقناهم في اليم يعني في البحر واليم الذي لا يدرك قعره وقيل هو لجة البحر ومعظم مائه قال الازهري اليم معروف لا تكاد تعرفه العرب ويقع اسم اليم على البحر الملح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى فاقذفيه في اليم والمراد به نيل مصر وهو عذب (بأنهم كذبوا بآياتنا) يعني أهلكناهم وأغرقناهم بسبب انهم كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق نبينا (وكانوا عنها) يعني عن آياتنا (غافلين) يعني معرضين وقيل كانوا عن حلول النقمة بهم غافلين ولما كان الاعراض عن الآيات وعدم الالتفات اليها كالغفلة عنها سموا غافلين تجوزا لان الغفلة ليست من فعل الانسان ﴿ قوله عز وجل (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) يعني ومكنا القوم الذين كانوا يقهرون ويغلبون على أنفسهم وهو أن فرعون وقومه كانوا قد تسلطوا على بني اسرائيل

(والجراد) فأكلت زروعهم وثمارهم وسقوف بيوتهم وثيابهم ولم يدخل بيوت بني اسرائيل منها شيء (والقمل) يعني الدبى وهو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها أو البراغيث أو كبار القردان (والضفادع) وكانت تقع في طعامهم وشرابهم حتى اذا تكلم الرجل تقع في فيه (والدم) أي الرعاف وقيل مياههم انقلبت دما حتى ان القبطي والاسرائيلي اذا اجتمعا على اناء فيكون ما يلي الاسرائيلي ماء وما يلي القبطي دما وقيل سال عليهم النيل دما (آيات) حال من الاشياء المذكورة (مفصلات) مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله أو مفرقات بين كل آيتين شهر (فاستكبروا) عن الايمان بموسى (وكانوا قوما مجرمين ولما وقع عليهم الرجز) العذاب الاخير وهو الدم أو العذاب المذكور واحدا بعد واحد (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) ما مصدرية أي بعهده عندك وهو النبوة والباء تتعلق بادع أي ادع الله لنا متوسلا اليه بعهده عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن ولنرسلن معك بني اسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل) الى حد من الزمان (هم بالغوه) لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الامهال وكشف العذاب الى حلوله (اذا هم ينكثون) جواب لما أي فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث ولم يؤخروه (فانتقمنا منهم) هو ضد الانعام كما ان العقاب هو ضد الثواب (فأغرقناهم في اليم) هو البحر الذي لا يدرك قعره أو هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم لان المستنفعين به يقصدونه (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أي كان اغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) هم بنو ...

فعلوا بأعدائهم واستخدموهم فصيروهم مستضعفين تحت أيديهم (مشارق الأرض ومغاربها) يعني أرض الشام ومصر وأراد بمشارقها ومغاربها جميع جهاتها ونواحيها وقيل أراد بمشارق الأرض ومغاربها الأرض المقدسة وهو بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب وقيل أراد جميع جهات الأرض وهو اختيار الزجاج قال لأن داود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما كانا من بني إسرائيل وقد ملكا الأرض ﴿ وقوله عز وجل (التي باركنا فيها) يدل على أنها الأرض المقدسة يعني باركنا فيها بالثمار والأشجار والزروع والخصب والسعة (وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل) يعني وجبت كلمة الله وهي وعده إياهم بالنصر على عدوهم والتمكين في الأرض من بعدهم وقيل كلمة الله هي قوله ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض الآية والحسنى صفة للكلمة وهي تأنيث الأحسن ومعناها تمام ما وعدهم به من تمكينهم في الأرض وإهلاك عدوهم (بما صبروا) يعني إنما حصل لهم ذلك التمام وهو ما أنعم الله تعالى به عليهم من إنجاز وعده لهم بسبب صبرهم على دينهم وأذى فرعون لهم (ودمرنا) يعني وأهلكنا والتدمير الإهلاك بالاستئصال (ما كان يصنع فرعون وقومه) في أرض مصر من العمارات والبنيان (وما كانوا يعرشون) يعني يسقفون من ذلك البنيان وقيل معناه ما كانوا يبنون من البيوت والقصور وقال الحسن وما كانوا يعرشون من الثمار والأعناب ﴿ قوله عز وجل (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر) يعني وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد إهلاك فرعون وقومه وإغراقهم فيه يقال جاز الوادي وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره وقال الكلبي عبر موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكرا لله تعالى (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) يعني فمر بنو إسرائيل بعد مجاوزة البحر على قوم يعكفون أي يقيمون ويواظبون على أصنام لهم يعني تماثيل لهم كانوا يعبدونها من دون الله قال ابن جريج كانت تلك الأصنام تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل وقال قتادة كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولا بالرقة يعني بالرقة ساحل البحر وقيل كان أولئك القوم من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه الصلاة والسلام بقتالهم (قالوا) يعني قال بنو إسرائيل لموسى لما رأوا ذلك التمثال (يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) يعني كما لهم أصنام يعبدونها ويعظمونها فاجعل لنا أيضا صنما نعبده ونعظمه قال البغوي رحمه الله ولم يكن ذلك شكا من بني إسرائيل في وحدانية الله تعالى وإنما معناه اجعل لنا شيئا نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى وظنوا أن ذلك لا يضر الديانة وكان ذلك لشدة جهلهم وقال غيره هذا يدل على غاية جهل بني إسرائيل وذلك أنهم توهموا أنه يجوز عبادة غير الله تعالى بعد ما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وهي الآيات التي توالت على قوم فرعون حتى أغرقهم الله تعالى في البحر بكفرهم وعنادهم غير الله تعالى فحملهم جهلهم على أن قالوا لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فرد عليهم موسى عليه الصلاة والسلام بقوله (قال إنكم قوم تجهلون) يعني تجهلون عظمة الله تعالى وأنه لا يستحق أن يعبد سواه لأنه هو الذي أنجاكم من فرعون وقومه وأغرقهم في البحر وأنجاكم منه عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى غزوة حنين مر بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان

إسرائيل كان يستعبدهم فرعون وقومه بالقتل والاستخدام (مشارق الأرض ومغاربها) يعني أرض مصر والشام (التي باركنا فيها) بالخصب وسعة الأرزاق وكثرة الأنهار والأشجار (وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل) هو قوله عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض أو ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض إلى ما كانوا يحذرون والحسنى تأنيث الأحسن صفة للكلمة وعلى صلة تمت أي مضت عليهم واستمرت من قولك تم على الأمر إذا مضى عليه (بما صبروا) بسبب صبرهم وحسبك به حاثا على الصبر ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج (ودمرنا) أهلكنا (ما كان يصنع فرعون وقومه) من العمارات وبناء القصور (وما كانوا يعرشون) من الجنات أو ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره وبضم الراء شامي وأبو بكر وهذا آخر قصة فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله ثم أتبعه قصة بني إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من فرعون ومعاينتهم الآيات العظام ومجاوزتهم البحر من عبادة البقر وغير ذلك ليتسلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مما رآه من بني إسرائيل بالمدينة (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر) روي أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعدما أهلك الله فرعون وقومه فصاموه شكرا لله (فأتوا على قوم) فمروا عليهم (يعكفون على أصنام لهم) يواظبون على عبادتها وكانت تماثيل بقر وبكسر الكاف حمزة وعلي (قالوا يا موسى اجعل لنا إلها) صنما نعكف عليه (كما لهم آلهة) أصنام يعكفون عليها وما كافة للكاف ولذلك وقعت الجملة بعدها قال يهودي لعلي رضي الله عنه اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه فقال قلتم اجعل لنا إلها ولم تجف أقدامكم (قال إنكم قوم تجهلون) تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى فوصفهم بالجهل المطلق وأكده

(ان هؤلاء) يعني عبدة تلك التماثيل (متبر) مهلك من التبار (ما هم فيه) أي يتبر الله ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي وفي ايقاع هؤلاء اسمالان وتقديم خبر المبتدا من الجملة الواقعة خبرا لها وسم لعبدة الاصنام بانهم هم المعرضون للتبار وانه لا يعدوهم البتة (وباطل ما كانوا يعملون) أي ما عملوا من عبادة الاصنام باطل مضمحل (قال أغير الله أبغيكم الها) أي أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبودا (وهو فضلكم على العالمين) حال أي على عالمي زمانكم (واذ أنجيناكم من آل فرعون) أنجاكم شامي (يسومونكم سوء العذاب) يبغونكم شدة العذاب من سام السلعة اذا طلبها وهو استئناف لا محل له أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون (يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم) يقتلون نافع (وفي ذلكم) أي في الانجاء أو في العذاب (بلاء) نعمة أو محنة (من ربكم عظيم وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) لاعطاء التوراة (وأتممناها بعشر) روي أن موسى عليه الصلاة والسلام وعد بني اسرائيل وهو بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما وهي شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك فأوحى الله اليه أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك فأمره أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك (فتم ميقات ربه) ما وقته له من الوقت وضربه له (أربعين ليلة) نصب على [illegible] الحال أي تم بالغا هذا العدد ولقد أجمل ذكر الاربعين في البقرة وفصلها هنا (وقال موسى لأخيه هرون) هو عطف بيان لأخيه (اخلفني في قومي) كن خليفتي فيهم (وأصلح) ما يجب أن يصلح من أمور بني اسرائيل (ولا تتبع سبيل المفسدين) ومن دعاك منهم الى الافساد فلا تتبعه ولا تطعه

الله هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم أخرجه الترمذي ۞ وقوله تعالى (ان هؤلاء متبر ما هم فيه) أي مهلك والتتبير الاهلاك (وباطل ما كانوا يعملون) البطلان عبارة عن عدم الشيء اما بعدم ذاته أو بعدم فائدته ونفعه والمراد من بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم من ذلك العمل نفع ولا يدفع عنهم ضرا لانه عمل لغير الله تعالى فكان باطلا لا نفع فيه (قال أغير الله أبغيكم الها) لما قال بنو اسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام اجعل لنا الها كما لهم آلهة حكم عليهم بالجهالة وقال مجيبا لهم على سبيل التعجب والانكار عليهم أغير الله أبغيكم الها يعني أطلب لكم وأبغي لكم الها (وهو فضلكم على العالمين) والمعنى أن الاله ليس هو شيئا يطلب ويلتمس ويتخير بل الاله هو الذي فضلكم على العالمين لانه القادر على الانعام والافضال فهذا هو الذي يستحق أن يعبد ويطاع لا عبادة غيره ومعنى قوله فضلكم على العالمين يعني على عالمي زمانكم وقيل فضلهم بما خصهم به من الآيات الباهرة التي لم تحصل لغيرهم وان كان غيرهم أفضل منهم ۞ قوله عز وجل (واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) هذه الآية تقدم تفسيرها في سورة البقرة والفائدة في ذكرها في هذا الموضع أنه تعالى هو الذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره حتى تقولوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة ۞ قوله عز وجل (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) يعني وواعدنا موسى عليه الصلاة والسلام لمناجاتنا ثلاثين ليلة وهي ذو القعدة (وأتممناها بعشر) يعني عشر ذي الحجة وهذا قول ابن عباس ومجاهد قال المفسرون ان موسى عليه الصلاة والسلام وعد بني اسرائيل اذا أهلك الله تعالى عدوهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله عز وجل فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما أهلك الله تعالى فرعون سأل موسى ربه عز وجل أن ينزل عليه الكتاب الذي وعد به بني اسرائيل فأمره أن يصوم ثلاثين يوما فصامها فلما تمت أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب وقيل بل أكل من ورق الشجر فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله أن يصوم عشر ذي الحجة وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك فكانت فتنة بني اسرائيل في تلك العشر التي زادها الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام وقيل ان الله تعالى أمر موسى عليه الصلاة والسلام ان يصوم ثلاثين يوما ويعمل فيها ما يتقرب به الى الله ثم كلمه وأعطاه الالواح في العشر التي زادها فلهذا قال وأتممناها بعشر وهذا التفصيل الذي ذكر هنا هو تفصيل ما أجمل في سورة البقرة وهو قوله تعالى واذ واعدنا موسى أربعين ليلة فذكره هناك على الاجمال وذكره هنا على التفصيل ۞ وقوله تعالى (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) يعني فتم الوقت الذي قدره الله لصوم موسى عليه الصلاة والسلام وعبادته أربعين ليلة لان الميقات هو الوقت الذي قدر أن يعمل فيه عمل من الاعمال ولهذا قيل مواقيت الحج (وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي) يعني كن أنت خليفتي فيهم من بعدي حتى أرجع اليك (وأصلح) يعني وأصلح أمور بني اسرائيل واحملهم على عبادة الله تعالى وقال ابن عباس رضي الله عنهما يريد الرفق بهم والاحسان اليهم (ولا تتبع سبيل المفسدين) يعني ولا تسلك طريق المفسدين في الارض ولا تطعهم والمقصود من هذا الامر التأكيد لان هرون عليه الصلاة والسلام لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين فهو كقوله ولكن ليطمئن قلبي

وكقولك لاقعدن له بمعنى لاقعدن على طريقه وفى المواضع لاقعدن في طريقه على ما أنت عليه من التعوذ ﴿ قوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا) يعني للوقت الذي وقتناه ان يأتي فيه لمناجاتنا وهو قوله (وكلمه ربه) وفي هذه الآية دليل على ان الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام واختلف الناس في كلام الله تعالى فقال الزمخشري كلمه ربه عز وجل من غير واسطة كما يكلم الملك وتكليمه ان يخلق الكلام منطوقا به في بعض الاجرام كما خلقه مخطوطا في الالواح هذا كلامه وهذا مذهب المعتزلة ولا شك في بطلانه وفساده لان الشجرة او ذلك الجرم لا يقول اني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهبت الحنابلة ومن وافقهم الى ان كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة وانه قديم وذهب جمهور المتكلمين الى أن كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والاصوات وتلك الصفة قديمة أزلية والقائلون بهذا القول قالوا ان موسى عليه الصلاة والسلام سمع تلك الصفة الازلية الحقيقية وقالوا كما انه لا يبعد رؤية ذاته وليست جسما ولا عرضا كذلك لا يبعد سماع كلامه مع أن كلامه ليس بصوت ولا حرف ومذهب أهل السنة وجمهور العلماء من السلف والخلف ان الله تعالى متكلم بكلام قديم وسكتوا عن الخوض في تأويله وحقيقته قال أهل التفسير والاخبار لما جاء موسى عليه الصلاة والسلام لميقات ربه تطهر وطهر ثيابه وصام ثم أتى طور سيناء وفي القصة ان الله تعالى أنزل ظلة تغشت الجبل على أربع فراسخ من كل ناحية وطرد عنه الشيطان وهوام الارض ونحى عنه الملكين وكشط له السماء فرأى الملائكة قياما في الهواء ورأى العرش بارزا وأدناه ربه حتى سمع صريف الاقلام على الالواح وكلمه الله تبارك وتعالى وناجاه وأسمعه كلامه وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلم الله تعالى به موسى فاستحلى كلام ربه عز وجل واشتاق الى رؤيته (قال رب أرني أنظر اليك) قال الزجاج فيه اختصار تقديره أرني نفسك أنظر اليك وقال ابن عباس معناه اعطني أنظر اليك وانما سأل موسى عليه الصلاة والسلام الرؤية مع علمه بان الله تعالى لا يرى في الدنيا لما هاج به من الشوق وفاض عليه من أنوار الجلال حتى استغرق في بحر المحبة فعند ذلك سأل الرؤية وقيل انما سأل الرؤية ظنا منه بانه تعالى يرى في الدنيا فتعالى الله عن ذلك (قال لن تراني) يعني ليس لبشر ان يراني في الدنيا ولا يطيق النظر الي في الدنيا ومن نظر الي في الدنيا مات فقال موسى عليه الصلاة والسلام الهي سمعت كلامك فاشتقت الى النظر اليك ولأن أنظر اليك ثم أموت أحب الي من أن أعيش ولا أراك وقال السدي لما كلم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام غاص عدو الله ابليس الخبيث في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى فوسوس اليه ان مكلمك شيطان فعند ذلك سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه الرؤية فقال رب أرني أنظر اليك قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام لن تراني

﴿فصل﴾ وقد تمسك من نفى الرؤية من أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية وهو قوله تعالى لن تراني قالوا لن تكون للتأبيد والدوام ولا حجة لهم في ذلك ولا دليل ولا يشهد لهم في ذلك كتاب ولا سنة وما قالوه في أن لن تكون للتأبيد خطأ بين ودعوى على أهل اللغة اذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل اللغة والعربية ولم ينقل به أحد منهم ويدل على صحة ذلك قوله تعالى في صفة اليهود ولن يتمنوه أبدا مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة يدل عليه قوله تعالى ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك وقوله يا ليتها كانت القاضية فان قالوا ان لن معناها تأكيد النفي كلا التي تنفي في المستقبل قلنا ان صح هذا التأويل فيكون معنى لن تراني تحمولا على الدنيا أي لن تراني في الدنيا جمعا بين دلائل الكتاب والسنة فانه قد ثبت في الحديث الصحيح ان المؤمنين يرون ربهم عز وجل يوم القيامة في الدار الآخرة وأيضا فان موسى عليه الصلاة والسلام كان عارفا بالله تعالى وبما يجب ويجوز ويمتنع على الله عز وجل وفي الآية دليل على انه سأل الرؤية فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها موسى عليه الصلاة والسلام فحيث سألها علمنا ان الرؤية جائزة على الله تعالى وأيضا فان الله عز وجل علق رؤيته على أمر جائز والمعلق على الجائز جائز فيلزم من

(ولما جاء موسى لميقاتنا) لوقتنا الذي وقتناه وحددنا ومعنى اللام الاختصاص أي اختص بمجيئه لميقاتنا (وكلمه ربه) بلا واسطة ولا كيفية وروي انه كان يسمع الكلام من كل جهة وذكر الشيخ في التأويلات أن موسى عليه السلام سمع صوتا دالا على كلام الله تعالى وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمعه صوتا تولى تخليقه من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسبا لاحد من الخلق وغيره يسمع صوتا مكتسبا للعباد فيفهم منه كلام الله تعالى فلما سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه فسأل الرؤية بقوله (قال رب أرني أنظر اليك) ثاني مفعول أرني محذوف أي أرني ذاتك أنظر اليك يعني مكني من رؤيتك بان تتجلى لي حتى أراك أرني مكي وبكسر الراء مختلسة أبو عمرو وبكسر الراء مشبعة غيرهما وهو دليل لاهل السنة على جواز الرؤية فان موسى عليه السلام اعتقد أن الله تعالى يرى حتى سأله واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله كفر (قال لن تراني)

ذلك كون الرؤية في نفسها جائزة وإنما قال ذلك لأنه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل وهو قوله تعالى (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) وهو أمر جائز الوجود في نفسه وإذا كان كذلك ثبت أن رؤيته جائزة الوجود لأن استقرار الجبل غير مستحيل عند التجلي إذا جعل الله تعالى له قوة على ذلك والمعلق بما لا يستحيل لا يكون محالاً والله أعلم بمراده قال وهب ومحمد بن إسحق لما سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل الرؤية أرسل الله الضباب والرياح والصواعق والرعد والبرق والظلمة حتى أحاطت بالجبل الذي عليه موسى عليه الصلاة والسلام أربعة فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى أهل السموات أن يعترضوا على موسى عليه الصلاة والسلام فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد فقال موسى رب إني كنت عن هذا غنياً ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه مثل الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع العبد الضعيف موسى بن عمران مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة في رأسه وجسده ثم قال لقد ندمت على مسئلتي فهل ينجيني مما أنا فيه شيء فقال له خير الملائكة ورئيسهم يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطوا على موسى واعترضوا عليه فهبطوا عليه أمثال النسور لهم قصف ورجف ولجب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس لهم جلب كجلب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ففزع موسى واشتد فزعه وأيس من الحياة فقال له خير الملائكة ورئيسهم مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا تصبر عليه ثم أمر الله ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لا يشبههم شيء من الذين مروا قبلهم ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا قبلهم فاصطكت ركبتاه وأرعد قلبه واشتد بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم يا ابن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الخامسة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره لم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفاً واشتد حزنه وكثر بكاؤه فقال له خير الملائكة ورئيسهم يا ابن عمران مكانك حتى ترى ما لا تصبر عليه ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه فهبطوا عليه وفي يد كل واحد منهم مثل النخلة الطويلة نار أشد ضوءاً من الشمس ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من الملائكة كلهم يقولون بشدة أصواتهم سبوح قدوس رب العزة أبداً لا يموت في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه فلما رآهم موسى عليه الصلاة والسلام رفع صوته يسبح معهم وهو يبكي ويقول رب اذكرني ولا تنس عبدك فلا أدري أأنفلت مما أنا فيه أم لا إن خرجت احترقت وإن أقمت مت فقال له كبير الملائكة ورئيسهم قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي سألت ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدا نور العرش انصدع الجبل من عظمة الرب سبحانه وتعالى ورفعت الملائكة أصواتهم جميعاً يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة أبداً لا يموت فارتج الجبل لشدة أصواتهم واندك واندكت كل شجرة كانت فيه وخر العبد الضعيف موسى صعقاً على وجهه ليس معه روحه فأرسل الله تعالى برحمته الروح فتغشته وقلب عليه الحجر الذي كان جلس عليه موسى فصار عليه كهيئة القبة لئلا يحترق موسى عليه الصلاة والسلام وأقامت الروح عليه مثل اللامة فلما أفاق موسى قام يسبح ويقول آمنت بك وصدقت أنه لا يراك أحد فيحيا ومن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك أنت رب الأرباب وملك الملوك والإله العظيم لا يعدلك شيء ولا يقوم لك شيء تبت إليك الحمد لك لا شريك لك ما أعظمك وما أجلك يا رب العالمين وقوله ۞ قوله تعالى (فلما تجلى ر

بالسؤال بمعنى أنية من العلماء والسؤال بمعنى يأتيه وهو دليل لنا أيضاً لأنه لم يقل لن أُرى ليكون نفياً للجواز ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنه ليس بمرئي إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه) أي على حاله (فسوف تراني) وهو دليل لنا أيضاً لأنه علق الرؤية باستقرار الجبل وهو ممكن وتعليق الشيء بما هو ممكن يدل على إمكانه كالتعليق بالممتنع يدل على امتناعه والدليل على أنه ممكن قوله جعله دكاً ولم يقل اندك وما أوجده تعالى كان جائزاً أن لا يوجد لو لم يوجده لأنه مختار في فعله ولأنه تعالى ما آيسه عن ذلك ولا عاتبه عليه ولو كان ذلك محالاً لعاتبه كما عاتب نوحاً عليه السلام بقوله إني أعظك أن تكون من الجاهلين حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق (فلما تجلى ربه

للجبل) أي ظهر وبان ظهورا بلا كيف قال الشيخ أبو منصور رحمه الله معنى التجلي للجبل ما قاله الاشعري انه تعالى خلق في الجبل حياة
وعلما ورؤية حتى رأى ربه وهذا نص في اثبات كونه مرئيا وبهذه الوجوه يتبين جهل منكرى الرؤية وقولهم بان موسى عليه السلام
كان عالما بانه لا يرى ولكن طلب قومه أن يريهم ربه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فطلب الرؤية ليبين الله
تعالى انه ليس بمرئي باطل اذ لو كان كما زعموا لقال أرهم ينظروا اليك ثم يقول له لن يروني ولا مه الولم تكن جائزة لما أخر
موسى عليه السلام الرد عليهم بل كان يرد عليهم وقت قرع كلامهم سمعه لما فيه من التقرير على الكفر وهو عليه السلام بعث لتغييره لا لتقريره ألا ترى انهم لما قالوا له اجعل لنا الها كما لهم آلهة لم يمهلهم بل رد عليهم من ساعته بقوله انكم قوم تجهلون (جعله دكا) مدكوكا مصدر بمعنى المفعول كضرب الامير والدق والدك اخوان دكاء حمزة وعلى أي مستوية بالارض لا أكمة فيها وناقة دكاء لا سنام لها (وخر موسى صعقا) حال أي سقط مغشيا عليه (فلما أفاق) من صعقته (قال سبحانك تبت اليك) من السؤال في الدنيا (وأنا أول المؤمنين) بعظمتك وجلالك وبأنك لا تعطى الرؤية في الدنيا مع جوازها وقال الكعبي والاصم معنى قوله أرني أنظر اليك أرنى آية أعلمك بها بطريق الضرورة كأنى أنظر اليك لن تراني لن تطيق معرفتي بهذه الصفة ولكن انظر الى الجبل فانى أظهر له آية فان ثبت الجبل لتجليها واستقر مكانه فسوف تثبت لها وتطيقها وهذا فاسد لانه قال أرنى أنظر اليك ولم يقل اليها وقال لن تراني ولم يقل لن ترآيتي وكيف يكون معناه لن ترآيتي وقد أراه أعظم الآيات حيث جعل الجبل دكا (قال ياموسى انى اصطفيتك على الناس) اخترتك على أهل زمانك (برسالاتى) هي أسفار التوراة برسالتي حجازى (وبكلامى) وبتكليمي اياك

للجبل جعله دكا) قال ابن عباس ظهر نور ربه للجبل فصار ترابا واسم الجبل زبير وقال الضحاك أظهر الله عز وجل من نور الحجب مثل منخر الثور وقال عبد الله بن سلام وكعب الاحبار ما تجلى للجبل من عظمة الله تعالى الا مثل سم الخياط حتى صار دكا وقال السدي ما تجلى الا قدر الخنصر يدل عليه ما روى ثابت عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال هكذا ووضع الابهام على المفصل الاعلى من الخنصر فساخ الجبل ذكره البغوي هكذا بغير سند وأخرجه الترمذي أيضا عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا قال حماد هكذا وأمسك بطرف ابهامه على أنملة اصبعه اليمنى فساخ الجبل وخر موسى عليه السلام صعقا وقال الترمذي حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه الا من حديث حماد بن سلمة وروى عن سهل بن سعد الساعدي ان الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر الدرهم فجعل الجبل دكا يعني مستويا بالارض وقال ابن عباس جعله ترابا وقال سفيان ساخ الجبل حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه وقال عطية العوفي صار رملا هائلا وقال الكلبي جعله دكا يعني كسرا جبالا صغارا وقيل انه صار لعظمة الله تعالى ستة أجبل فوقع ثلاثة بالمدينة وهي أحد وورقان ورضوى ووقع ثلاثة بمكة وهي ثور وثبير وحراء ۞ وقال تعالى (وخر موسى صعقا) قال ابن عباس والحسن يعني مغشيا عليه وقال قتادة يعني ميتا والاول أصح لقوله (فلما أفاق) والميت لا افاقة له انما يقال أفاق من غشيته قال الكلبي صعق موسى عليه الصلاة والسلام يوم الخميس وهو يوم عرفة وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر وقال الواقدي لما خر موسى صعقا قالت ملائكة السموات مالابن عمران وسؤال الرؤية وفي بعض الكتب ان ملائكة السموات أتوا موسى وهو في غشيته فجعلوا يركلونه بأرجلهم ويقولون يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة فلما أفاق يعني من غشيته ورجع عقله اليه وعرف انه سأل أمرا عظيما لا ينبغي له (قال سبحانك) يعني تنزيها لك من النقائص كلها (تبت اليك) يعني من مسئلتى الرؤية بغير اذنك وقيل من سؤال الرؤية في الدنيا وقيل لما كانت الرؤية مخصوصة بمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعها قال سبحانك تبت اليك يعني من سؤالي ما ليس لي وقيل لما سأل الرؤية ومنعها قال تبت اليك يعني من هذا السؤال وحسنات الابرار سيآت المقربين (وأنا أول المؤمنين) يعني بانك لا ترى في الدنيا وقيل وأنا أول المؤمنين يعني من بني اسرائيل بقي في الآية سؤالات الاول ان الرؤية بعين النظر فكيف قال أرني أنظر اليك وعلى هذا يكون التقدير أرني حتى أراك والجواب عنه ان معنى قوله أرني اجعلني متمكنا من رؤيتك حتى أنظر اليك وأراك السؤال الثاني كيف قال لن تراني ولم يقل لن تنظر الي حتى يكون مطابقا لقوله أنظر اليك والجواب ان النظر لما كان مقدمة الرؤية كان المقصود هو الرؤية لا النظر الذي لا رؤية معه السؤال الثالث كيف استدرك وكيف اتصل الاستدراك من قوله ولكن انظر الى الجبل بما قبله والجواب ان المقصود منه تعظيم أمر الرؤية وان أحدا لا يقوى على رؤيته تعالى الا من قواه الله تعالى بمعونته وتأييده ألا ترى انه لما ظهر أثر التجلي للجبل اندك وتقطع فهذا هو المراد من هذا الاستدراك لانه يدل على تعظيم أمر الرؤية والله أعلم بمراده ۞ قوله عز وجل (قال ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) يعني قال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام ياموسى انى

اخترتك واتخذتك صفوة والاصطفاء الاستخلاص من الصفوة والاجتباء والمعنى انى فضلتك واجتبيتك على الناس وفى هذا تسلية لموسى عليه الصلاة والسلام عن منع الرؤية حين طلبها لان الله تعالى عدد عليه نعمه التى أنعم بها عليه وأمره أن يشتغل بشكرها كأنه قال له ان كنت منعت من الرؤية التى طلبت فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيقن صدرك بسبب منع الرؤية وانظر الى سائر أنواع النعم التى خصصتك بها وهى الاصطفاء على الناس برسالاتى وبكلامى يعنى من غير واسطة لان غيره من الرسل منع كلام الله تعالى الا بواسطة الملك فان قلت كيف قال اصطفيتك على الناس برسالاتى مع ان كثيرا من الانبياء قد ساواه فى الرسالة قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال جوابين أحدهما ذكره البغوى فقال لما لم تكن الرسالة على العموم فى حق الناس كافة استقام قوله اصطفيتك على الناس وان شاركه فيها غيره كما يقول الرجل للرجل خصصتك بمشورتى وان كان قد شاور غيره اذا لم تكن المشورة على العموم فيكون مستقيما وفى هذا الجواب نظر لان من جملة من اصطفاه الله برسالته محمدا صلى الله عليه وسلم وهو أفضل من موسى عليه الصلاة والسلام فلا يستقيم هذا الجواب الجواب الثانى ذكره الامام فخر الدين الرازى فقال ان الله تعالى بين انه خصه بمجموع أمرين وهما الرسالة مع الكلام بغير واسطة وهذا المجموع ما حصل لغيره فثبت انه انما حصل التخصيص ههنا لانه سمع ذلك الكلام بغير واسطة وانما كان الكلام بغير واسطة سببا لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر لان من سمع كلام الملك العظيم من فيه كان أعلى وأشرف ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب وهذا الجواب فيه نظر أيضا لان محمدا صلى الله عليه وسلم اصطفاه برسالته وكلمه ليلة المعراج بغير واسطة وفرض عليه وعلى أمته الصلوات وخاطبه يا محمد يدل عليه قوله فأوحى الى عبده ما أوحى ورفعه الى حيث سمع صريف الاقلام وهذا كله يدل على مزيد الفضل والشرف على موسى عليه الصلاة والسلام وغيره من الانبياء فلا يستقيم هذا الجواب أيضا والذى يعتمد فى الجواب عن هذا السؤال ان الله اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام برسالته وبكلامه على الناس الذين كانوا فى زمانه وذلك انه لم يكن فى ذلك الوقت أعلى منصبا ولا أشرف ولا أفضل منه وهو صاحب الشريعة الظاهرة وعليه نزلت التوراة فدل ذلك على انه اصطفاه على ناس زمانه كما اصطفى قومه على عالمى زمانهم وهو قوله تعالى يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وانى فضلتكم على العالمين قال المفسرون يعنى على عالمى زمانهم ۞ وقوله تعالى (فخذ ما آتيتك) يعنى ما فضلتك وأكرمتك به (وكن من الشاكرين) يعنى على انعامى عليك وفى القصة ان موسى عليه الصلاة والسلام كان بعد ما كلمه ربه لا يستطيع أحد أن ينظر اليه لما غشى وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته أنا لم أرك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت ادع الله أن يجعلنى زوجتك فى الجنة قال ذلك لك ان لم تتزوجى بعدى فان المرأة لآخر أزواجها ۞ قوله تعالى (وكتبنا له فى الالواح) قال ابن عباس يريد ألواح التوراة والمعنى وكتبنا لموسى فى ألواح التوراة قال البغوى وفى الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنا عشر ذراعا وجاء فى الحديث خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده وقال الحسن كانت الالواح من خشب وقال الكلبى من زبرجدة خضراء وقال سعيد بن جبير من ياقوتة حمراء وقال ابن جريج من زمرد أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى جاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذى كتب به الذكر واستمد من نهر النور وقال الربيع بن أنس كانت الالواح من زبرجد وقال وهب أمره الله بقطع ألواح من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده ثم شقها باصبعه وسمع موسى عليه الصلاة والسلام صريف الاقلام بالكلمات العشر وكان ذلك فى أول يوم من ذى الحجة وكان طول الالواح عشرة أذرع على طول موسى وقيل ان موسى خر صعقا يوم عرفة فأعطاه الله التوراة يوم النحر وهذا أقرب الى الصحيح واختلفوا فى عدد الالواح فروى عن ابن عباس

(فخذ ما آتيتك) أعطيتك من شرف النبوة والحكمة (وكن من الشاكرين) على النعمة فى ذلك فهى من أجل النعم قيل خر موسى صعقا يوم عرفة وأعطى التوراة يوم النحر ولما كان هرون وزيرا وتابعا لموسى تخصص الاصطفاء بموسى عليه

انها كانت سبعة ألواح وروى عنه انها لوحان واختاره الفراء قال وانما جمعت على عادة العرب في اطلاق الجمع على الاثنين وقال وهب كانت عشرة ألواح وقال مقاتل كانت تسعة وقال الربيع بن أنس نزلت التوراة وهي وقر سبعين بعيرا يقرأ الجزء منه في سنة ولم يقرأها الا أربعة نفر موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى عليهم الصلاة والسلام والمراد بقوله لم يقرأها يعني لم يحفظها أو يقرأها عن ظهر قلب الا هؤلاء الاربعة وقال الحسن هذه الآية في التوراة بألف آية يعني قوله (وكتبنا له في الالواح من كل شيء) يعني يحتاج اليه من أمر ونهي (موعظة) يعني نهيا عن الجهل وحقيقة الموعظة التذكير والتحذير مما يخاف عاقبته (وتفصيلا لكل شيء) يعني وتبيينا لكل شيء من الامر والنهي والحلال والحرام والحدود والاحكام مما يحتاج اليه من أمور الدين وروى الطبري بسنده عن وهب بن منبه قال كتبه يعني في التوراة لا تشرك بي شيأ من أهل السماء ولا من أهل الارض فان كل ذلك خلقي ولا تحلف باسمي كاذبا فان من حلف باسمي كاذبا فلا أزكيه ووقر والديك وروى البغوي باسناد الثعلبي عن كعب الاحبار ان موسى عليه الصلاة والسلام نظر في التوراة فقال اني أجد أمة خير الامم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الاول والكتاب الآخر ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الاعور الدجال رب اجعلهم أمتي قال هي أمة محمد يا موسى فقال رب اني لاجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس المحكمون اذا أرادوا أمرا قالوا نفعل ان شاء الله فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال رب اني أجد في التوراة أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الاولون يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال يا رب اني أجد أمة اذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله واذا هبط وادياحمد الله الصعيد لهم طهور والارض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال يا رب اني أجد أمة اذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة بمثلها وان عملها كتبت بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال يا رب اني أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلا أجد أحدا منهم الا مرحوما فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد قال رب اني أجد أمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصفون في صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدوي النحل لا يدخل النار أحد منهم أبدا الا من يرى الحساب مثل ما يرى الحجر من وراء البحر فاجعلهم أمتي قال هي أمة محمد فلما عجب موسى من الخير الذي أعطاه الله عز وجل محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته قال يا ليتني من أصحاب محمد فأوحى الله اليه ثلاث آيات يرضيه بهن يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي الى قوله سأريكم دار الفاسقين ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون قال فرضي موسى كل الرضا ۞ وقوله تعالى (فخذها بقوة) يعني وقلنا لموسى عليه الصلاة والسلام اذ كتبنا له في الالواح من كل شيء خذها بجد واجتهاد وقيل معناه خذها بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة لان من أخذ شيأ بضعف نية أداه الى الفتور (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) قال ابن عباس يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا أمثالها ويعملوا بمحكمها ويقفوا عند متشابهها وكان موسى عليه الصلاة والسلام أشد عبادة من قومه فأمر بما لم يؤمروا به وقيل ظاهر قوله وأمر قومك يأخذوا بأحسنها يدل على ان بين التكليفين فرقا ليكون في هذا الفصل فائدة وهي ان التكليف كان على موسى أشد لانه تعالى لم يرخص له ما رخص لغيره من قومه فان قلت ظاهر قوله تعالى يأخذوا بأحسنها يدل على ان فيها ما ليس بحسن وذلك لم يقل به أحد فما معنى قوله يأخذوا بأحسنها قلت ان التكليف كله حسن وبعضه أحسن كالقصاص حسن ولكن العفو أحسن

السلام (وكتبنا له في الالواح) الالواح التوراة جمع لوح وكانت عشرة ألواح وقيل سبعة وكانت من زمرد وقيل من خشب نزلت من السماء فيها التوراة (من كل شيء) في محل النصب على انه مفعول كتبنا (موعظة وتفصيلا لكل شيء) بدل منه والمعنى كتبنا له كل شيء كان بنو اسرائيل محتاجين اليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الاحكام وقيل أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير لم يقرأها كلها الا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى (فخذها) فقلنا له خذها عطفا على كتبنا والضمير للالواح أو لكل شيء لانه في معنى الاشياء (بقوة) بجد وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أي فيها ما هو حسن وأحسن كالقصاص والعفو والانتصار والصبر فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب كقوله واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم

(سأريكم دار الفاسقين) دار فرعون وقومه وهي مصر ومنازل عاد وثمود والقرون المهلكة كيف أقفرت منهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم أو جهنم (سأصرف عن آياتي) عن فهمها قال ذو النون قدس الله روحه أبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن (الذين يتكبرون) (١٤٠) يتطاولون عن قبول الحق وحقيقته التكلف للكبرياء التي اختصت بالباري عزت قدرته (في الأرض بغير الحق) هو حال أي يتكبرون غير محقين لان التكبر بالحق لله وحده (وان يروا كل آية) من الآيات المنزلة عليهم (لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد) طريق صلاح الامر أو طريق الهدى الرشد حمزة وعلي وهما كالسقم والسقم (لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي) الضلال (يتخذوه سبيلا) ومحل (ذلك) الرفع أي ذلك الصرف (بأنهم كذبوا بآياتنا) بسبب تكذيبهم (وكانوا عنها غافلين) غفلة عناد واعراض لا غفلة سهو وجهل (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) هو من اضافة المصدر الى المفعول به أي ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها (حبطت أعمالهم) خبر والذين (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) وهو تكذيب الاهوال تكذيب الارسال (واتخذ قوم موسى من بعده) من بعد ذهابه الى الطور (من حليهم) وانما نسب اليهم مع انها كانت عواري في أيديهم لان الاضافة تكون لادنى ملابسة وفيه دليل على ان من حلف أن لا يدخل دار فلان فدخل دارا استعارها حنث على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم وفيه دليل على ان الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها ثم المتخذ هو السامري ولكنهم رضوا به فأسند الفعل اليهم والحلي جمع حلي وهو اسم ما يتحسن به من الذهب والفضة حليهم حمزة وعلي بالاتباع

ذلك الانتصار حسن والصبر أحسن منه فأمروا أن يأخذوا بالاشد على أنفسهم ليكون ذلك أعظم في الثواب وكقوله اتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وكقوله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وقيل ان الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح والاحسن الاخذ بالاشد والاشق على النفس وقيل ما أمروا بأخذه والأحسن ﴿وقوله تعالى (سأريكم دار الفاسقين) قال مجاهد يعني مصيركم في الآخرة وقال الحسن وعطاء يريد جهنم يحذركم أن تكونوا مثلهم وقال قتادة سأدخلكم الشأم فأريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا الله تعالى لتعتبروا بها وقال عطية العوفي يعني دار فرعون وقومه وهي مصر وقال السدي يعني منازل الكفار وقال الكلبي هي منازل عاد وثمود والقرون الذين هلكوا فكانوا يمرون عليها اذا سافروا ﴿قوله عز وجل (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق) قال ابن عباس يريد الذين يتجبرون على عبادي ويحاربون أوليائي سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها حتى لا يؤمنوا بي عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم الحق وقال سفيان بن عيينة سأمنعهم فهم القرآن وقيل معناه سأصرفهم عن التفكر في خلق السموات والارض وما فيهما من الآيات والعبر وقيل حكم الآية لاهل مصر خاصة وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام والاكثرون على ان الآية عامة وفيه دليل لمذهب أهل السنة على ان الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويصرف عن آياته وقبول الحق من يشاء ويوفق بالتفكر في آياته وقبول الحق من يشاء لانه القادر على ما يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ومعنى الذين يتكبرون الذين يرون أنهم أفضل الخلق وان لهم من الحق ما ليس لغيرهم والتكبر على هذه الصفة لا يكون الا لله عز وجل لانه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لاحد سواه فالتكبر في حق الله عز وجل صفة مدح وفي حق المخلوقين صفة ذم لانه تكبر بما ليس له ولا يستحقه وقيل التكبر اظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم في حق جميع العباد وقوله يتكبرون من الكبر لا من التكبر أي يفعلون التكبر ويرون أنهم أفضل من غيرهم فلذلك قال يتكبرون في الارض بغير الحق بل بالباطل (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد) يعني طريق الحق والهدى والسداد والصواب (لا يتخذوه سبيلا) يعني لا يختاروه لانفسهم طريقا يسلكونه الى الهداية (وان يروا سبيل الغي) يعني طريق الضلال (يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) يعني ذلك الذي اختاروه لانفسهم من ترك الرشد واتباع الغي بسبب أنهم كذبوا بآيات الله الدالة على توحيده (وكانوا عنها غافلين) يعني عن التفكر فيها والاتعاظ بها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) يعني ولقاء الدار الآخرة التي فيها الثواب والعقاب (حبطت أعمالهم) يعني بطلت فصارت كأن لم تكن والمعنى انه قد يكون في الذين يكذبون بآيات الله من يعمل البر والاحسان والخير فبين الله تعالى بهذه الآية ان ذلك ليس ينفعهم مع كفرهم وتكذيبهم بآيات الله وانكارهم الدار الآخرة والبعث (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) يعني هل يجزون في العقبى الا جزاء العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا ﴿قوله تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده) يعني من بعد انطلاق موسى الى الجبل لمناجاة ربه عز وجل (من حليهم) يعني التي استعاروها من قوم فرعون وذلك ان بني اسرائيل كان لهم عيد فاستعاروا من القبط الحلي ليتزينوا به في عيدهم فبقي عندهم الى أن أهلك الله فرعون وقومه

فبقي

(عجلا) مفعول اتخذ (جسدا) بدلا منه أي جسدا ذا لحم ودم كسائر الأجساد (له خوار) هو صوت البقر والمفعول الثاني محذوف أي إلها ثم عجب من عقولهم السخيفة فقال (ألم يروا) حين اتخذوه إلها (أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) أي لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل حتى لا يختاروه على من لو كان البحر مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته وهو الذي هدى الخلق

إلى سبيل الحق بما ركز في العقول من الأدلة وبما أنزل في الكتب ثم ابتدأ فقال (اتخذوه) إلها وأقدموا على هذا الأمر المنكر (وكانوا ظالمين) (ولما سقط في أيديهم) ولما اشتد ندمهم على عبادة العجل وأصله أن من اشتد ندمه أن يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها لأن فاه وقع فيها وسقط مسند إلى في أيديهم وهو من باب الكناية وقال الزجاج معناه سقط الندم في أيديهم أي في قلوبهم وأنفسهم كما يقال حصل في يده مكروه وإن استحال أن يكون في اليد تشبيها لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين (ورأوا أنهم قد ضلوا) وتبينوا ضلالهم تبينا كأنهم أبصروه بعيونهم (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا حمزة وعلي وانتصاب ربنا على النداء (لنكونن من الخاسرين) المغبونين في الدنيا والآخرة (ولما رجع موسى) من الطور (إلى قومه) بني إسرائيل (غضبان) حال من موسى (أسفا) حال أيضا أي حزينا (قال بئسما خلفتموني) قمتم مقامي وكنتم خلفائي (من بعدي) والخطاب لعبدة العجل من السامري وأشياعه أو لهرون ومن معه من المؤمنين ويدل عليه قوله اخلفني في قومي والمعنى بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله أو حيث لم تكفوا من عبادة غير الله وفاعل بئس مضمر يفسره ما خلفتموني في

من الحلي لبني إسرائيل ملكا لهم فصنعت قال أخذتموه من حليهم فلما تبنى موسى عليهم جمع السامري ذلك الحلي وكان رجلا مطاعا في بني إسرائيل فذلك قوله تعالى واتخذ قوم موسى والمتخذ هو واحد منهم نسب الفعل إلى الكل لأنه كان برضاهم فكأنهم أجمعوا عليه وكان السامري رجلا صائغا فصاغ لهم (عجلا جسدا) يعني من ذلك الحلي وهو الذهب والفضة وألقى في فم العجل من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فتحول عجلا جسدا لحما ودما (له خوار) هو صوت البقر وهذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور أهل التفسير وقيل كان جسدا لا روح فيه وكان يسمع منه صوت وقيل إن ذلك الصوت كان حفيف الريح وذلك أنه جعل مجوفا ووضع في جوفه أنابيب على وضع مخصوص فإذا هبت الريح دخلت في تلك الأنابيب فيسمع لها صوت كصوت البقر والقول الأول أصح لأنه كان يخور وقيل إنه خار مرة واحدة وقيل إنه كان يخور كثيرا وكلما خار سجدوا له وإذا سكت رفعوا رؤوسهم وقال وهب كان يسمع منه الخوار ولا يتحرك وقال السدي كان يخور ويمشي (ألم يروا) يعني الذين عبدوا العجل وقيل إن بني إسرائيل كلهم عبدوا العجل إلا هرون عليه الصلاة والسلام بدليل قوله تعالى واتخذ قوم موسى من بعده وهذا يفيد العموم وقيل إن بعضهم عبدوا العجل وهو الصحيح وأجيب عن قوله واتخذ قوم موسى أنه خرج على الأغلب وكذا قوله ألم يروا (أنه) يعني العجل الذي عبدوه (لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) يعني أن هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب ولا يهدي إلى رشد ولا يقدر على ذلك ومن كان كذلك كان جمادا أو حيوانا عاجزا وعلى كلا التقديرين لا يصلح لأن يعبد (اتخذوه وكانوا ظالمين) يعني لأنفسهم حيث أعرضوا عن عبادة الله تعالى الذي يضر وينفع واشتغلوا بعبادة العجل الذي لا يضر ولا ينفع ولا يتكلم ولا يهديهم إلى رشد وصواب قوله عز وجل (ولما سقط في أيديهم) يعني ولما ندموا على عبادة العجل تقول العرب لكل نادم على أمر سقط في يده وذلك لأن من شأن من اشتد ندمه على أمر أن يعض على يده ثم يضرب على خده فتصير يده مسقوطا فيها لأن السقوط عبارة عن النزول من أعلى إلى أسفل (ورأوا أنهم قد ضلوا) يعني وتيقنوا أنهم على الضلالة في عبادتهم العجل (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) يعني يتب علينا ويتجاوز عنا (لنكونن من الخاسرين) يعني الذين خسروا أنفسهم بوضعهم العبادة في غير موضعها وهذا كلام من اعترف بعظيم ما أقدم عليه من الذنب وندم على ما صدر منه ورغب إلى الله تعالى في إقالة عثرته واعترافهم على أنفسهم بالخسران إن لم يغفر لهم ربهم ويرحمهم كلام التائب النادم على ما فرط منه وإنما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام إليهم وهو قوله تعالى (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) يعني ولما رجع موسى عليه الصلاة والسلام من مناجاة ربه إلى قومه بني إسرائيل رجع غضبان أسفا لأن الله تعالى كان قد أخبره أنه قد فتن قومه وأن السامري قد أضلهم فكان موسى في حال رجوعه غضبان أسفا قال أبو الدرداء الأسف أشد الغضب وقال ابن عباس والسدي الأسف الحزين والأسيف الحزين قال الواحدي والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت وإذا جاءك ما تكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنا والأخرى غضبا فعلى هذا كان موسى عليه الصلاة والسلام غضبان على قومه لأجل عبادتهم العجل أسفا حزينا لأن الله تعالى فتنهم وأن الله تعالى قد أعلمه بذلك فالحزن لأجل ذلك (قال) يعني موسى عليه الصلاة والسلام لقومه (بئسما خلفتموني من بعدي)

اى بئس الفعل فعلتم بعد قراق اياكم هذا الخطاب يحتمل أن يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه أولهرون والمؤمنين من بنى اسرائيل فعلى الاحتمال الاول فى انه خطاب لعبدة العجل يكون المعنى بئسما خلفتمونى حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله وعلى الاحتمال الثانى وهو أن يكون الخطاب لهرون ومن معه من المؤمنين يكون المعنى بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى وقد رأيتم منى الامر بتوحيد الله تعالى واخلاص العبادة له ونفى الشرك عنه وحمل بنى اسرائيل على ذلك ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف ﴿ وقوله (أعجلتم أمر ربكم) معنى العجلة التقدم بالشئ قبل وقته ولذلك صارت مذمومة والسرعة غير مذمومة لان معناها عمل الشئ فى أول وقته ولقائل أن يقول لو كانت العجلة مذمومة لم يقل موسى عليه الصلاة والسلام وعجلت اليك رب لترضى ومعنى الآية أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له وقال الحسن أعجلتم وعد ربكم الذى وعدكم من الاربعين وذلك أنهم قدروا انه لما مضت أربعون ليلة ولم يأت موسى ظنوا أنه قد مات وقيل معناه أعجلتم سخط ربكم بعبادة العجل وقال الكلبى معناه أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم ﴿ ولما ذكر الله تعالى أن موسى عليه الصلاة والسلام رجع الى قومه غضبان أسفا ذكر بعده ما وجد من الغضب فقال تعالى (وألقى الألواح) يعنى التى فيها التوراة وكان حاملا لها فألقاها من شدة الغضب قالت الرواة وأصحاب الاخبار كانت التوراة سبعة أسباع فلما ألقى موسى الالواح تكسرت فرفع منها ستة أسباع وبقى سبع واحد فرفع منها ما كان من أخبار الغيب وبقى ما فيه المواعظ والاحكام والحلال والحرام وروى أن الله تعالى أخبر موسى عليه الصلاة والسلام بفتنة قومه وعرف موسى عليه الصلاة والسلام أن ما أخبره الله سبحانه وتعالى به حق وصدق ومع ذلك لم يلق التوراة من يده فلما رجع الى قومه وعاين ذلك وشاهده ألقى التوراة وهذا كما قيل ليس الخبر كالمعاينة (وأخذ برأس أخيه يجره اليه) قيل انه أخذ بشعر رأسه ولحيته من شدة غضبه وقال ابن الانبارى لما رجع موسى عليه الصلاة والسلام ووجد قومه مقيمين على المعصية أكبر ذلك واستعظمه فأقبل على أخيه هرون باللوم ومد الى رأسه يده فجذبه اليه لأنه لم يلحق به فيعرفه خبر بنى اسرائيل فيرجع ويتلافاهم فأعلمه هرون عليه السلام انه انما أقام بين أظهرهم خوفا على نفسه من القتل وهو قوله تعالى (قال) يعنى هرون (ابن أم) انما قال هرون لموسى ابن أم وان كانا لأب وأم ليرققه ويستعطفه (ان القوم) يعنى الذين عبدوا العجل (استضعفونى) أى استذلونى وقهرونى (وكادوا يقتلوننى) أى وقربوا وهموا أن يقتلونى (فلا تشمت بى الاعداء) الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان بفلان اذا سر بمكروه نزل به والمعنى لا تسر الاعداء بما تنالنى من مكروه (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) يعنى الذين عبدوا العجل (قال رب اغفر لى) يعنى قال موسى عليه الصلاة والسلام لما تبين له عذر أخيه هرون قال رب اغفر لى ما صنعت الى أخى هرون بعدما ظهر من الوجدة عليه فى وقت الغضب (ولاخى) يعنى واغفر لاخى هرون ان كان وقع منه تقصير فى الانكار على عبدة العجل (وأدخلنا) يعنى جميعا (فى رحمتك) يعنى فى سعة رحمتك (وأنت أرحم الراحمين) وهذا فيه دليل على الرغبة فى الدعاء لان من هو أرحم الراحمين تؤمل منه الرحمة وفيه تقوية لطمع الداعى فى نجاح طلبته (ان الذين اتخذوا العجل) يعنى الها معبودا من دون الله (سينالهم غضب

راجعين من غير تلبث وخفف من بعد ذهابى قوله خلفتمونى من بعدى حلفتمونى من بعد ما رأيتمونى من توحيد الله ونفى الشركاء عنه أو من بعد ما كنت أحمل بنى اسرائيل على التوحيد وأكفهم عن عبادة البقر حين قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة ومن حق الخلفاء أن يسيروا سيرة المستخلف (أعجلتم) أسبقتم بعبادة العجل (أمر ربكم) وهو اتيانى لكم مأمورا به بعد أربعين ليلة وأصل العجلة طلب الشئ قبل حينه وقيل عجلتم بمعنى تركتم (وألقى الألواح) من شدة الغضب فحدث عليه عند استماعه حديث العجل غضبا لله وكان فى نفسه شديد الغضب وكان هرون ألين منه جانبا ولذلك كان أحب الى بنى اسرائيل من موسى فتكسرت فرفعت ستة أسباعها وبقى سبع واحد وكان فيما رفع تفصيل كل شئ وفيما بقى هدى ورحمة (وأخذ برأس أخيه) بشعر رأسه غضبا عليه حيث لم يمنعهم من عبادة العجل (يجره اليه) غضبا عليه لا هوانا به وهو حال من موسى (قال ابن أم) بنى الابن مع الام على الفتح كخمسة عشر وبكسر الميم حمزة وعلى وشامى لان أصله أمى فحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة وكان ابن امه وأبيه وانما ذكر الام لانها كانت مؤمنة ولان ذكرها ادعى الى العطف (ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى) اى انى لم آل جهدا فى كفهم بالوعظ والانذار ولكنهم استضعفونى وهموا بقتلى (فلا تشمت بى الاعداء) الذين عبدوا العجل اى لا تفعل بى ما هو أمنيتهم من الاستهانة بى والاساءة الى (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) اى قرينا لهم بغضبك على فلما اتضح له عذر أخيه (قال رب اغفر لى ولاخى) ليرضى أخاه وينفى الشماتة عنه باظهار أنه معه فى الدعاء والمعنى اغفر لى ما فرط منى فى حق أخى ولاخى ان كان فرط فى حسن الخلافة (وأدخلنا فى رحمتك) عصمتك فى الدنيا وجنتك فى الآخرة (وأنت أرحم الراحمين ان الذين اتخذوا العجل) الها (سينالهم غضب

من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا) يعنى سينالهم عقوبة من ربهم وهوان بسبب كفرهم وعبادتهم العجل وذلك فى عاجل الحياة الدنيا ثم للمفسرين فى هذه الآية قولان أحدهما ان المراد بالذين اتخذوا العجل الذين باشروا عبادته وعلى هذا القول ففى الآية سؤال وهو أن أولئك الاقوام الذين اتخذوا العجل تابوا الى الله تعالى بقتلهم أنفسهم كما أمر الله فتاب عليهم فكيف ينالهم الغضب والذلة مع التوبة والجواب أن ذلك الغضب انما حصل لهم فى الدنيا وهو نفس القتل فكان ذلك القتل غضبا عليهم والمراد بالذلة هو اسلامهم أنفسهم للقتل واعترافهم على نفسهم بالضلال والخطأ فان قلت السين فى قوله سينالهم للاستقبال فكيف تكون للماضى قلت هذا الكلام انما هو خبر عما أخبر الله به موسى عليه الصلاة والسلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم أخبره الله فى ذلك الوقت انه سينالهم غضب من ربهم وذلة فكان هذا الكلام سابقا لوقوعه وهو القتل الذى أمرهم الله به بعد ذلك وقال ابن جريج فى هذه الآية ان هذا الغضب والذلة لمن مات منهم على عبادة العجل وان فر من القتل وهذا الذى قاله ابن جريج وان كان له وجه لكن جميع المفسرين على خلافه القول الثانى ان المراد بالذين اتخذوا العجل اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس هم الذين أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم وآباؤهم هم الذين عبدوا العجل وأراد بالغضب عذاب الآخرة وبالذلة فى الدنيا الجزية وقال عطية العوفى سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد بالغضب والذلة ما أصاب بنى النضير وبنى قريظة من القتل والجلاء وعلى هذا القول ففى تقرير الآية وجهان الاول ان العرب تعير الابناء بقبائح أفعال الآباء كما تفعل ذلك فى المناقب فتقول للابناء فعلتم كذا وكذا وانما فعل ذلك من مضى من آبائهم فكذلك ههنا وصف اليهود الذين كانوا على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بانهم اتخذوا العجل وان كان آباؤهم فعلوا ذلك ثم حكم على اليهود الذين كانوا فى زمنه بانهم سينالهم غضب من ربهم فى الآخرة وذلة فى الحياة الدنيا الوجه الثانى ان تكون الآية من باب حذف المضاف والمعنى ان الذين اتخذوا العجل وباشروا عبادته سينال أولادهم الخ ثم حذف المضاف لدلالة الكلام عليه ۞ وقوله تعالى (وكذلك نجزى المفترين) يعنى وكما جزينا هؤلاء الذين اتخذوا العجل كذلك نجزى كل من افترى على الله كذبا وعبد غيره وقال أبو قلابة هى والله جزاء كل مفتر الى يوم القيامة ان يذله الله وقال سفيان بن عيينة هذا فى كل مبتدع الى يوم القيامة وقال مالك بن أنس ما من مبتدع الا وهو يجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية قال والمبتدع مفتر فى دين الله (والذين عملوا السيآت) يعنى عملوا الاعمال السيئة ويدخل فى ذلك كل ذنب صغير وكبير حتى الكفر فما دونه (ثم تابوا من بعدها) يعنى ثم رجعوا الى الله من بعد أعمالهم السيئة (وآمنوا) يعنى وصدقوا بالله تعالى وانه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب (ان ربك) يا محمد أو يا أيها الانسان التائب (من بعدها) يعنى من بعد توبتهم (لغفور رحيم) يعنى انه تعالى يغفر الذنوب ويرحم التائبين وفى الآية دليل على ان السيآت باسرها صغيرها وكبيرها مشتركة فى التوبة وان الله تعالى يغفرها جميعا بفضله ورحمته وتقدير الآية ان من أتى بجميع السيآت ثم تاب الى الله وأخلص التوبة فان الله يغفرها له ويقبل توبته وهذا من أعظم البشائر للمذنبين التائبين ۞ قوله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب) يعنى سكن لان السكوت أصله الامساك عن الشئ ولما كان السكوت بمعنى السكون استعير فى سكون الغضب لان الغضب لا يتكلم لكنه لما كان بفورته دالا على ما فى نفس المغضب كان بمنزلة الناطق فاذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة السكوت عما كان متكلما به وقيل معناه ولما سكت موسى عن الغضب فهو من المقلوب كما تقول أدخلت القلنسوة فى رأسى والمعنى أدخلت رأسى فى القلنسوة والقول الاول أصح لانه قول أهل اللغة والتفسير (أخذ الالواح) يعنى التى ألقاها قال الامام فخر الدين وظاهر هذا يدل على ان الالواح لم تتكسر ولم يرفع من التوراة

من ربهم) هو ما أمروا به من قتل أنفسهم توبة (وذلة فى الحياة الدنيا) خروجهم من ديارهم فالغربة تذل الاعناق أو ضرب الجزية عليهم (وكذلك نجزى المفترين) الكاذبين على الله ولا فرية أعظم من قول السامرى هذا الهكم واله موسى (والذين عملوا السيآت) من الكفر والمعاصى (ثم تابوا) رجعوا الى الله (من بعدها وآمنوا) وأخلصوا الايمان (ان ربك من بعدها) أى السيآت أو التوبة (لغفور) لستور عليهم محاء لما كان منهم (رحيم) منعم عليهم بالجنة وان مع اسمها وخبرها خبر والذين وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل وغيرهم عظم جناياتهم أولا ثم أردفها بعظم رحمته ليعلم أن الذنوب وان عظمت فعفوه أعظم ولما كان الغضب لشدته كانه هو الآمر لموسى بما فعل قيل (ولما سكت عن موسى الغضب) وقال الزجاج معناه سكن وقرئ به (أخذ الالواح)

شيء (وفي نسختها) النسخ عبارة عن النقل والتحويل فإذا نسخت كتابا من كتاب حرفا بحرف فقد نقلت ما في الأصل إلى الفرع فعلى هذا قيل أراد بها الألواح لأنها نسخت من اللوح المحفوظ وقيل أراد بها النسخة المكتتبة من الألواح التي أخذها موسى بعد ما تكسرت وقال ابن عباس وعمرو بن دينار لما ألقى موسى الألواح فتكسرت صام أربعين يوما فردت عليه في لوحين وفيهما ما في الأولى بعينها فيكون نسخها نقلها وعلى قول من قال إن الألواح لم تتكسر وأخذها موسى بعينها بعد ما ألقاها يكون معنى وفي نسختها المكتوب فيها (هدى ورحمة) قال ابن عباس يعني هدى من الضلالة ورحمة من العذاب (للذين هم لربهم يرهبون) يعني للخائفين من ربهم ﴿ قوله عز وجل (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) الاختيار افتعال من لفظ الخير يقال اختار الشيء إذا أخذ خيره وخياره والمعنى واختار موسى من قومه فحذف كلمة من وذلك سائغ في العربية لدلالة الكلام عليه قال أصحاب الأخبار إن موسى عليه الصلاة والسلام اختار من كل سبط من قومه ستة نفر فكانوا اثنين وسبعين فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وقيل إنه لم يجد إلا ستين شيخا فأوحى الله إليه أن يختار من الشباب عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخا فأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه واختلف أهل التفسير في ذلك الميقات فقيل إنه الميقات الذي كلمه فيه ربه وسأل فيه الرؤية وذلك أنه لما خرج إلى طور سيناء أخذ معه هؤلاء السبعين فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى أحاط بالجبل كله ودخل موسى فيه وقال للقوم ادنوا فدنوا حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجدا وسمعوا الله تعالى وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل كذا ولا تفعل كذا فلما انكشف الغمام أقبلوا على موسى وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهي المراد من الرجفة المذكورة في هذه الآية وقال السدي إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار موسى من قومه سبعين رجلا ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة فإنك قد كلمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي وقال محمد ابن إسحق اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ثم خرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال السبعون فيما ذكر لي حين فعلوا ما أمرهم به وخرجوا مع موسى لميقات ربه اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا فكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجدا فسمعوا الله وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ من أمره وانكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا له لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهي الرجفة فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه يقول رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي وقال ابن عباس كان الله أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلا فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم فكان فيما دعوا الله أن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي وقيل إنما أخذتهم الرجفة من أجل أنهم ادعوا على موسى أنه قتل هرون قال علي بن أبي طالب انطلق موسى وهرون إلى سفح جبل فنام هرون على سرير فتوفاه الله فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له أنت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه وكان هرون حسن الخلق محببا في

إلى ألقاها (وفي نسختها) وفيما نسخ منها أي كتب فعلة بمعنى مفعول كالخطبة (هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) دخلت اللام لتقدم المفعول وضعف عمل الفعل فيه باعتباره (واختار موسى قومه) أي من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل (سبعين رجلا) قيل اختار من اثني عشر سبطا من كل سبط ستة فبلغوا اثنين وسبعين رجلا فقال ليتخلف منكم رجلان فقعد كالب ويوشع (لميقاتنا) لاعتذارهم عن عبادة العجل

بنى اسرائيل فقال لهم موسى اختاروا من شئتم فاختاروا سبعين رجلا فلما انتهوا اليه قالوا اياهرون من قتلك قال ما قتلنى أحد ولكن الله توفانى فأخذتهم الرجفة فجعل موسى يرجع يمينا وشمالا ويقول رب لوشئت أهلكتهم من قبل واياى الآية قال فأحياهم الله عز وجل وقيل انما أخذتهم الرجفة لتركهم فراق عبدة العجل لا لانهم كانوا من عبدته قال ابن عباس انما تناولتهم الرجفة لانهم لم يزايلوا القوم حين نصبوا العجل وما كرهوا أن يجامعوهم عليه قال ابن جريج فلما خرجوا ودعوا الله أماتهم ثم أحياهم وقال مجاهد واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا الميقات الموعد فلما أخذتهم الرجفة بعد ان خرج موسى بالسبعين من قومه يدعون الله ويسألونه ان يكشف عنهم البلاء فلم يستجب لهم علم موسى أنهم قد أصابوا من المعصية ما أصاب قومهم وقال محمد بن كعب القرظى لم يستجب لهم من أجل أنهم لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف فأخذتهم الرجفة فماتوا ثم أحياهم الله ﴿ وقوله تعالى (فلما أخذتهم الرجفة) أصل الرجف الاضطراب الشديد الذى يحصل معه التغير والهلاك ولهذا اختلفوا فى تلك الرجفة التى حصلت لهؤلاء هل كان معها موت أم لا فظاهر الروايات التى تقدمت انهم ماتوا بسبب تلك الرجفة وقال وهب بن منبه لم تكن تلك الرجفة موتا ولكن القوم لما رأوا تلك الهيئة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا له وزراء على الخير سامعين له مطيعين فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه فكشف الله عنهم تلك الرجفة فاطمأنوا وسمعوا كلام الله فذلك قوله تعالى فلما أخذتهم الرجفة (قال) يعنى موسى (رب) أى يارب (لوشئت أهلكتهم من قبل) يعنى من قبل عبادتهم العجل (واياى) وذلك أنه خاف أن يتهمه بنو اسرائيل على السبعين اذا رجع اليهم وماهم معه ولم يصدقوه بأنهم ماتوا فقال رب لوشئت أهلكتهم من قبل يعنى قبل خروجهم الى الميقات واياى معهم فكان بنو اسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) قال الفراء ظن موسى انهم أهلكوا باتخاذ أصحاب العجل العجل فقال أتهلكنا بما فعل السفهاء منا يعنى عبدة العجل وانما أهلكوا بسبب مسئلتهم الرؤية وهى قولهم أرنا الله جهرة وهذا قول الكلبى وجماعة وقال جماعة من أهل العلم لا يجوز أن يظن موسى ان الله تعالى يهلك قوما بذنوب غيرهم ولكن قوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا استفهام بمعنى الجحد أى لست تفعل ذلك وهذا قول ابن الانبارى وقال المبرد هذا استفهام استعطاف أى لا تهلكنا (ان هى الا فتنتك) قال الواحدى الكناية فى هى تعود الى الفتنة كما تقول ان هو الا زيد والمعنى ان تلك الفتنة التى وقع فيها السفهاء لم تكن الا فتنتك أى اختبارك وابتلاءك وهذا تأكيد لقوله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا لان معناه لا تهلكنا بفعلهم فان تلك الفتنة كانت اختبارا منك وابتلاء أضللت بها قوما فافتتنوا وهديت قوما فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك وهو المراد من قوله (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) قال الواحدى وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التى لا يبقى لهم معها عذر (أنت ولينا) يعنى أنت يارب ناصرنا وحافظنا وهذا يفيد الحصر أى لا ولى لنا ولا ناصر ولا حافظ الا أنت (فاغفر لنا) سأل موسى عليه الصلاة والسلام لنفسه ولقومه الغفران أما لنفسه فلقوله ان هى الا فتنتك وهذا فيه اقدام على الحضرة المقدسة وأما لقومه فلقولهم أرنا الله جهرة وفى هذا اقدام على الحضرة المقدسة فلهذا السبب سأل موسى عليه الصلاة والسلام الغفران له ولقومه (وارحمنا) أى واشملنا برحمتك التى وسعت كل شئ (وأنت خير الغافرين) يعنى ان كل من سواك انما يغفر الذنب طلبا للثناء الجميل أو لدفع ضرر وأما أنت يارب فتغفر ذنوب عبادك لا لطلب عوض ولا غرض بل لمحض الفضل والكرم فأنت خير الغافرين ﴿ قوله تعالى (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) يعنى قال موسى فى دعائه واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة أى واجعلنا ممن كتبت له حسنة وهى ثواب الاعمال الصالحة وفى الآخرة أى واكتب لنا فى الآخرة مغفرة لذنوبنا (انا هدنا اليك) قال ابن عباس معناه انا تبنا

(فلما أخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة (قال رب لوشئت أهلكتهم من قبل) بما كان منهم من عبادة العجل (واياى) لقتلى القبطى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أتهلكنا عقوبة بما فعل الجهال منا وهم أصحاب العجل (ان هى الا فتنتك) ابتلاؤك وهو راجع الى قوله انا قد فتنا قومك من بعدك فقال موسى هى تلك الفتنة التى أخبرتنى بها وهى ابتلاء الله تعالى عباده بما شاء ونبلوكم بالشر والخير فتنة (تضل بها) بالفتنة (من تشاء) من علمت منهم اختيار الضلالة (وتهدى) بها (من تشاء) من علمت منهم اختيار الهدى (أنت ولينا) مولانا القائم بامورنا (فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا) وأثبت لنا واقسم (فى هذه الدنيا حسنة) عافية وحياة طيبة أو توفيقا فى الطاعة (وفى الآخرة) الجنة (انا هدنا اليك) تبنا اليك وهاد اليك يهود اذا رجع وتاب والهود جمع هائد وهو التائب

اليك وهذا قول جميع المفسرين وأصل الهود الرجوع وفي قال بعضهم وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم فلما نسخت شريعتهم صار اسم ذم وهو لازم لهم (قال) يعني قال الله عز وجل لموسى عليه الصلاة والسلام (عذابي أصيب به من أشاء) يعني من خلقي وليس لاحد علي اعتراض لان الكل عبيدي ومن تصرف في خالص حقه فليس لاحد عليه اعتراض (ورحمتي وسعت كل شيء) يعني ان رحمته سبحانه وتعالى عمت خلقه كلهم وقال بعضهم هذا من العام أريد به الخاص فرحمة الله عمت البر والفاجر في الدنيا وهي للمؤمنين خاصة في الآخرة وقيل هي للمؤمنين خاصة في الدنيا والآخرة ولكن الكافر يرزق ويدفع عنه ببركة المؤمن لسعة رحمة الله له فاذا كان يوم القيامة وجبت للمؤمنين خاصة قال جماعة من المفسرين لما نزلت ورحمتي وسعت كل شيء تطاول ابليس اليها وقال أنا من ذلك الشيء فنزعها الله تعالى من ابليس فقال تعالى (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) فأيس ابليس منها وقالت اليهود نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا فنزعها الله من اليهود وأثبتها لهذه الامة فقال تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الامي الآية وقال نوف البكالي لما اختار موسى من قومه سبعين رجلا قال الله تعالى لموسى أجعل لكم الارض مسجدا وطهورا وتصلون حيث أدركتكم الصلاة الا عند مرحاض أو حمام أو قبر وأجعل السكينة في قلوبكم وأجعلكم تقرؤن التوراة عن ظهر قلوبكم يقرؤها الرجل والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير فقال موسى ذلك لقومه فقالوا لا نريد أن نصلي الا في الكنائس ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا ولا نريد أن نقرأها الا نظرا قال الله تعالى فسأكتبها للذين يتقون الى قوله المفلحون فجعلها الله تعالى لهذه الامة فقال موسى رب اجعلني نبيهم قال نبيهم منهم قال اجعلني منهم قال انك لن تدركهم قال موسى يارب أتيتك بوفد بني اسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا فأنزل الله تعالى ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون فرضي موسى أما التفسير فقوله الذين يتقون يعني الشرك وسائر ما نهوا عنه لان جميع التكاليف محصورة في نوعين الاول التروك وهي الاشياء التي يجب على الانسان تركها والاحتراز عنها ولا يقربها واليه الاشارة بقوله تعالى الذين يتقون والثاني الافعال المأمور بها وتلك الاعمال بدنية وقلبية أما البدنية فاليها الاشارة بقوله ويؤتون الزكاة وهذه الآية وان كانت في حق المال لكن يختص البدن اخراجها والاعمال القلبية كالايمان والمعرفة واليها الاشارة بقوله تعالى والذين هم بآياتنا يؤمنون ۞ وقوله عز وجل (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) ذكر الامام فخر الدين الرازي في معنى هذه التبعية وجهين أحدهما أن المراد بذلك أن يتبعوه باعتقاد نبوته من حيث وجدوا صفته في التوراة اذ لا يجوز أن يتبعوه في شرائعه قبل أن يبعث الى الخلق وفي قوله والانجيل أن المراد وسيجدونه مكتوبا في الانجيل لان من المحال أن يجدوه فيه قبل ما أنزل الله الانجيل الوجه الثاني أن المراد من لحق من بني اسرائيل زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فبين تعالى أن هؤلاء اللاحقين لا يكتب لهم رحمة الآخرة الا اذا اتبعوه قال وهذا القول أقرب لان اتباعه قبل أن يبعث لا يمكن فبين بهذه الآية ان هذه الرحمة لا يفوز بها من بني اسرائيل الا من اتقى وآتى الزكاة وآمن بآيات الله في زمن موسى عليه الصلاة والسلام ومن كانت هذه صفته في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مع ذلك متبعا للنبي صلى الله عليه وسلم في شرائعه فعلى هذين الوجهين يكون المراد بقوله الذين يتبعون الرسول من بني اسرائيل خاصة وجمهور المفسرين على خلاف ذلك فانهم قالوا المراد بهم جميع أمته الذين آمنوا به واتبعوه وسواء كانوا من بني اسرائيل أو غيرهم وأجمع المفسرون على ان المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ووصفه بكونه رسولا لانه الواسطة بين الله وبين خلقه المبلغ رسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه اليهم ثم وصفه بكونه نبيا وهذا لأنها من أعلى المراتب وأشرفها وذلك يدل على انه رفيع الدرجات عند الله المخبر عنه ثم

(قال عذابي) من صفته اني (أصيب به من أشاء) أي لا أعفو عنه (ورحمتي وسعت كل شيء) أي من صفة رحمتي أنها واسعة تبلغ كل شيء ما من مسلم ولا كافر الا وعليه أثر رحمتي في الدنيا (فسأكتبها) أي هذه الرحمة (للذين يتقون) الشرك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم (ويؤتون الزكاة) المفروضة (والذين هم بآياتنا) بجميع كتبنا (يؤمنون) لا يكفرون بشيء منها (الذين يتبعون الرسول) الذي نوحي اليه كتابا مختصا به وهو القرآن (النبي) صاحب المعجزات (الامي الذي يجدونه) أي يجدون نعته أولئك الذين يتبعونه من بني اسرائيل (مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل)

وصفه بالامي قال ابن عباس هو نبيكم صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب قال الزجاج في معنى الامي هو الذي على صفة أمة العرب لان العرب أكثرهم لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب والنبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك فلهذا وصفه الله تعالى بكونه أميا وصح في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب قال أهل التحقيق وكونه صلى الله عليه وسلم كان أميا من أكبر معجزاته وأعظمها وبيانه أنه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا الكتاب العظيم الذي أعجزت الخلائق فصاحته وبلاغته وكان يقرؤه عليهم بالليل والنهار من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ولا تغيير فدل ذلك على معجزته وهو قوله تعالى سنقرئك فلا تنسى وقيل انه لو كان يحسن الكتابة ثم انه أتى بهذا القرآن العظيم لكان متهما فيه لاحتمال أنه كتبه ونقله عن غيره فلما كان أميا وأتى بهذا القرآن العظيم الذي فيه علم الاولين والآخرين والمغيبات دل ذلك على كونه معجزة له صلى الله عليه وسلم وأيضا فان الكتابة تعين الانسان على الاشتغال بالعلوم وتحصيلها ثم انه أتى بهذه الشريعة الشريفة والآداب الحسنة مع علوم كثيرة وحقائق دقيقة من غير مطالعة كتب ولا اشتغال على أحد فدل ذلك على كونه معجزة له صلى الله عليه وسلم وقيل في معنى الامي الذي هو منسوب الى أمة كأنه لم يخرج بعد عما ولدته عليه وقيل سمي أميا لانه منسوب الى أم القرى وهي مكة وقوله تعالى الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يعني يجدون صفته ونعته ونبوته مكتوبة عندهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسدا منهم له وحرصا على زوال رياستهم وقد حملهم ما كانوا يخافونه من زوال رياستهم وفوات المال والهوان (خ) عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال أجل انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا

﴿ شرح غريب ألفاظ الحديث ﴾

الفظ السيئ الخلق والغليظ الجافي القاسي وقوله سخاب بالسين والصاد هو كثير الصياح في الاسواق والاعوجاج ضد الاستقامة وأراد بالملة العوجاء الكفر والقلب الاغلف الذي لا يصل اليه شيء ينفعه شبهه بالاغلف كأنه في غلاف وروى البغوي بسنده عن كعب الاحبار قال اني أجد في التوراة مكتوبا محمد رسول الله لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة ولكن يعفو ويصفح أمته الحامدون يحمدون الله في كل منزلة ويكبرونه على كل نجد يأتزرون على أنصافهم ويوضئون أطرافهم صفهم في الصلاة وصفهم في القتال سواء مناديهم ينادي في جو السماء لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ۞ وقوله تعالى (يأمرهم بالمعروف) يعني بالايمان وتوحيد الله (وينهاهم عن المنكر) يعني عن الشرك بالله وقيل المعروف ما عرف في الشريعة والسنة والمنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة وقال عطاء يأمرهم بالمعروف بخلع الانداد ومكارم الاخلاق وصلة الارحام وينهاهم عن المنكر عن عبادة الاوثان وقطع الارحام (ويحل لهم الطيبات) يعني بذلك ما كان محرما عليهم في التوراة من الطيبات وهو لحوم الابل وشحم الغنم والمعز والبقر وقيل هو ما كانوا يحرمونه على أنفسهم في الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي وقيل هي المستلذات التي تستطيبها الانفس (ويحرم عليهم الخبائث) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يريد الميتة والدم ولحم الخنزير وقيل هو كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس فان الاصل في المضار الحرمة الا ما له دليل متصل بالحل (ويضع عنهم اصرهم) يعني ثقلهم وأصل الاصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه عن الحركة لثقله والمراد بالاصر هنا العهد والميثاق الذي أخذ على بني اسرائيل

(يأمرهم بالمعروف) بخلع الأنداد وانصاف العباد (وينهاهم عن المنكر) عبادة الاصنام وقطيعة الارحام (ويحل لهم الطيبات) ما حرم عليهم من الاشياء الطيبة كالشحوم وغيرها أو ما طاب في الشريعة مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح وما خلا كسبه من السحت (ويحرم عليهم الخبائث) ما يستخبث كالدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به أو ما خبث في الحكم كالربا والرشوة ونحوهما من المكاسب الخبيثة (ويضع عنهم اصرهم) هو الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه عن الحراك لثقله والمراد التكاليف الصعبة كقتل النفس في توبتهم وقطع الاعضاء الخاطئة آصارهم

أن يعملوا بما في التوراة من الاحكام فكانت تلك الشدائد (والاغلال التي كانت عليهم) يعني ويضع الاثقال والشدائد التي كانت عليهم في الدين والشريعة وذلك مثل قتل النفس في التوبة وقطع الاعضاء الخاطئة وقرض النجاسة عن البدن والثوب بالمقراض وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الدية وترك العمل في السبت وان صلاتهم لا تجوز الا في الكنائس وتتبع العروق في اللحم وغير ذلك من الشدائد التي كانت على بني اسرائيل شبهت بالاغلال مجازا لان التحريم يمنع من الفعل كما ان الغل يمنع من الفعل وقيل شبهت بالاغلال التي تجمع اليد الى العنق كما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل فكذلك لا تمتد الى الحرام الذي نهيت عنه وكانت هذه الاثقال في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام فلما جاء محمد عليه الصلاة والسلام نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام بعثت بالحنيفية السهلة السمحة (فالذين آمنوا به) يعني بمحمد عليه الصلاة والسلام (وعزروه) يعني وقروه وعظموه وأصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه واجلاله ودفع الاعداء عنه وهو قوله (ونصروه) يعني على أعدائه (واتبعوا النور الذي أنزل معه) يعني القرآن سمي القرآن نورا لان به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة الى ضياء اليقين والعلم (أولئك هم المفلحون) يعني هم الناجون الفائزون بالهداية ۞ قوله تعالى (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي قل يا محمد للناس اني رسول الله اليكم جميعا لا الى بعضكم دون بعض ففي الآية دليل على عموم رسالته الى كافة الخلق لان قوله يا أيها الناس خطاب عام يدخل فيه جميع الناس ثم أمره الله عز وجل بان يقول اني رسول الله اليكم جميعا وهذا يقتضي كونه مبعوثا الى جميع الناس (ق) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل أحمر وأسود وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الارض طيبة وطهورا ومسجدا فايما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ونصرت بالرعب على العدو بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة وفي رواية أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا فايما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد من قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة وقوله في الرواية الاولى وبعثت الى كل أحمر وأسود قيل أراد بالاحمر العجم وبالاسود العرب وقيل أراد بالاحمر الانس وبالاسود الجن فعلى هذا تكون رسالته صلى الله عليه وسلم عامة الى كافة الخلق من الانس والجن (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فضلت على الانبياء بستة أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا وأرسلت الى الخلق كافة وختم بي النبيون ۞ وقوله تعالى (الذي له ملك السموات والارض) لما أمر الله عز وجل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقول يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا أردفه بما يدل على صحة دعواه يعني أن الذي له ملك السموات والارض وهو مدبرهما ومالك أمرهما هو الذي أرسلني اليكم وأمرني بان أقول لكم اني رسول الله اليكم جميعا (لا اله الا هو يحيي ويميت) وصف الله نفسه بالالهية وأنه لا شريك له فيها وأنه القادر على احياء خلقه واماتتهم ومن كان كذلك فهو القادر على ارسال الرسل الى خلقه (فآمنوا بالله ورسوله) لما أمر الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقول للناس اني رسول الله اليكم جميعا أمر الله جميع خلقه بالايمان به وبرسوله وذلك لان الايمان بالله هو الاصل والايمان برسوله فرع عنه فلهذا ابدأ بالايمان بالله ثم ثنى بالايمان برسوله فقال فآمنوا بالله ورسوله ثم وصفه فقال تعالى (النبي الامي) تقدم معناهما (الذي يؤمن بالله وكلماته) قال قتادة يعني آياته وهو القرآن وقال مجاهد والسدي أراد بكلماته عيسى بن مريم لانه خلق

شامي على الجمع (والاغلال التي كانت عليهم) هي الاحكام الشاقة كتعيين القضاء بالقصاص عمدا كان أو خطأ من شرع الدية وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب واحراق الغنائم وظهور الذنوب على أبواب البيوت وشبهت بالغل للزومها لزوم الغل (فالذين آمنوا به) بمحمد صلى الله عليه وسلم (وعزروه) وعظموه أو منعوه من العدو حتى لا يقوى عليه عدو وأصل العزر المنع ومنه التعزير لانه منع عن معاودة القبيح كالعذر فهو المنع (ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه) أي القرآن ومع متعلق باتبعوا أي واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته (أولئك هم المفلحون) الفائزون بكل خير والناجون من كل شر (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم) بعث كل رسول الى قومه خاصة وبعث محمد صلى الله عليه وسلم الى كافة الانس وكافة الجن (جميعا) حال من اليكم (الذي له ملك السموات والارض) في محل النصب باضمار أعني وهو نصب على المدح (لا اله الا هو) بدل من الصلة وهي له ملك السموات والارض وكذلك (يحيي ويميت) وفي لا اله الا هو بيان للجملة قبلها لان من ملك العالم كان هو الاله على الحقيقة وفي يحيي ويميت بيان لاختصاصه بالالهية اذ لا يقدر على الاحياء والاماتة غيره (فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته) أي الكتب المنزلة

بقوله

بقوله كن فكان وقيل هو على العموم يعني يؤمن بجميع كلمات الله تعالى (واتبعوه) يعني واقتدوا به أيها الناس فيما يأمركم به وينهاكم عنه وقيل المتابعة على قسمين متابعة في الأقوال ومتابعة في الأفعال أما المتابعة في الأقوال فبأن يمتثل التابع جميع أوامر المتبوع على طريق الأمر والنهي والترغيب والترهيب وأما المتابعة في الأفعال فبأن يقتدي به في جميع أفعاله وآدابه إلا ما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت بالدليل أنه من خصائصه فلا متابعة فيه ﴿وقوله تعالى (لعلكم تهتدون) يعني لكي تهتدوا وترشدوا وتصيبوا الحق والصواب في متابعتكم إياه ﴿قوله عز وجل (ومن قوم موسى) يعني من بني إسرائيل (أمة) أي جماعة (يهدون بالحق) يعني يهتدون بالحق ويستقيمون عليه ويعملون به ويرشدون إليه (وبه يعدلون) يعني وبالحق يحكمون وبالعدل يأخذون ويعطون وينصفون واختلفوا في هؤلاء من هم فقيل هم الذين أسلموا من بني إسرائيل مثل عبد الله بن سلام وأصحابه فإنهم آمنوا بموسى والتوراة وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن واعترض على هذا بأنهم كانوا قليلين ولفظ الأمة يقتضي الكثرة وأجيب عنه بأنهم لما كانوا مخلصين في الدين جاز إطلاق لفظ الأمة عليهم كما في قوله إن إبراهيم كان أمة وقيل هم قوم ثبتوا على الدين الحق الذي جاء به موسى عليه الصلاة والسلام قبل التحريف والتبديل ودعوا الناس إليه وقال السدي وابن جريج وجماعة من المفسرين إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ففتح الله لهم نفقا في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج قال ابن عباس ساروا في السرب سنة ونصفا رواه الطبري وحكى البغوي عن الكلبي والضحاك والربيع قالوا هم قوم خلف الصين بأقصى الشرق على نهر يسمى نهر الأردن ليس لأحد منهم مال دون صاحبه يمطرون بالليل ويصحون بالنهار ويزرعون ولا يصل إليهم أحد منا وهم على الحق وذكر أن جبريل ذهب بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء به فكلمهم فقال لهم جبريل هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبي الأمي فآمنوا به وقالوا يا رسول الله إن موسى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ مني عليه السلام فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم موسى وأقرأهم عشر سور من القرآن نزلت عليه بمكة وأمرهم بالصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت وهذه الحكاية ضعيفة من وجوه الأول قولهم إن أحدا منا لا يصل إليهم وإذا كان كذلك فمن ذا الذي أوصل خبرهم إلينا الوجه الثاني قولهم إن جبريل ذهب بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء به وهذا لم يرد به نقل صحيح ولا رواه أحد من أئمة الحديث ولا يلتفت إلى قول الإخباريين والقصاص في ذلك الوجه الثالث قولهم إنهم بلغوا النبي صلى الله عليه وسلم سلام موسى وقد صح في حديث المعراج أنه سلم عليه في السماء السادسة وأيضا قولهم وأقرأهم عشر سور وقد نزل عليه بمكة أكثر من ذلك وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يأمرهم بها قبل فرضها فإذا ثبت ما ذكرناه بطلان هذه الرواية فالمختار في تفسير هذه الآية أنها إما أن تكون نزلت في قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك وإما أن تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه والله أعلم بمراده ﴿قوله تعالى (وقطعناهم) يعني وفرقنا بني إسرائيل (اثنتي عشرة أسباطا) يعني من أولاد يعقوب لأن يعقوب هو إسرائيل وأولاده الأسباط وكانوا اثني عشر ولدا (أمما) يعني جماعات وقبائل (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه) يعني في التيه (أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست) يعني فانفجرت وقيل عرقت وهو الانبجاس (منه) أي من الحجر (اثنتا عشرة عينا) يعني لكل سبط عين (قد علم كل أناس مشربهم)

(واتبعوه لعلكم تهتدون) ولم يقل فاتبعوني بعد قوله إني رسول الله إليكم لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ولما في الالتفات من مزية البلاغة وليعلم أن الذي وجب الإيمان به هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائنا من كان أنا أو غيري إظهارا للنصفة وبعادا من العصبية لنفسه (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق) أي يهدون الناس محقين أو بسبب الحق الذي هم عليه (وبه يعدلون) وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون قيل هم قوم وراء الصين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج أو هم عبد الله بن سلام وأضرابه (وقطعناهم) وصيرناهم قطعا أي فرقا وميزنا بعضهم من بعض (اثنتي عشرة أسباطا) كقولك اثنتي عشرة قبيلة والأسباط أولاد الولد جمع سبط وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولدا من ولد يعقوب عليه السلام ثم مميز ما عدا العشرة مفرد فكان ينبغي أن يقال اثني عشر سبطا لكن المراد وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة وكل قبيلة أسباط لا سبط فوضع أسباطا موضع قبيلة (أمما) بدل من اثنتي عشرة أي وقطعناهم أمما لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر) فضرب (فانبجست) فانفجرت (منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم) هو اسم جمع غير تكسير

(وظللنا عليهم الغمام) وجعلناه ظليلا عليهم في التيه (وأنزلنا عليهم المن والسلوى) وقلنا لهم (كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا)
أي وما رجع الينا ضرر ظلمهم (١٥٠) بكفرانهم النعم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ولكن كانوا يضرون أنفسهم ويرجع

وبال ظلمهم اليهم (وإذ قيل لهم) واذكر إذ قيل لهم (اسكنوا هذه القرية) بيت المقدس (وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم) تغفر لكم مدني وشامي خطيئاتكم مدني خطاياكم أبو عمرو وخطيئتكم شامي (سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون) ولا تناقض بين قوله اسكنوا هذه القرية وكلوا منها في هذه السورة وبين قوله في سورة البقرة ادخلوا هذه القرية فكلوا لوجود الدخول والسكنى وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها فهم جامعون بينهما وترك ذكر الرغد لا يناقض اثباته وقوله نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين موعد بشيئين بالغفران وبالزيادة وطرح الواو لا يخل بذلك لأنه استئناف مرتب على قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد المحسنين وكذلك زيادة منهم زيادة بيان وأرسلنا وأنزلنا ويظلمون ويفسقون من واد واحد (واسألهم) واسأل اليهود (عن القرية)
أيلة أو مدين وهذا السؤال للتقريع بقديم كفرهم (التي كانت حاضرة البحر) قريبة منه

يعني لا يدخل سبط على سبط في مشربهم (وظللنا عليهم الغمام) يعني في التيه يقيهم حر الشمس (وأنزلنا عليهم المن) هو الترنجبين (والسلوى) جنس من الطير جعل الله ذلك طعاما لهم في التيه (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أي وقلنا كلوا (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) في الكلام حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة الكلام عليه تقديره كلوا من طيبات ما رزقناكم فأجروا ذلك وسئموه وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوا غيره لأن المكلف إذا أمر بشيء فتركه وعدل عنه إلى غيره يكون عاصيا بفعل ذلك فلهذا قال وما ظلمونا يعني وما أدخلوا علينا نقصا بسؤالهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعني بمخالفتهم ما أمروا به وقد تقدم بسط الكلام على هذه الآية في سورة البقرة ۞ وقوله تعالى (وإذ قيل لهم) يعني واذكر يا محمد لقومك إذ قيل لهم يعني لبني إسرائيل (اسكنوا هذه القرية) يعني بيت المقدس وقال في سورة البقرة ادخلوا هذه القرية ولا منافاة بينهما لأن كل ساكن في موضع لا بد له من الدخول إليه (وكلوا منها حيث شئتم) يعني وكلوا من ثمار القرية وزروعها وحبوبها وبقولها حيث شئتم وأين شئتم وقال في البقرة فكلوا بالفاء وهنا بالواو والفرق بينهما أن الدخول حالة مقتضية للأكل عقبه فحسن دخول الفاء التي هي للتعقيب ولما كانت السكنى حالة استمرار حسن دخول الواو عقب السكنى فيكون الأكل حاصلا متى شاؤوا ولهذا قال في سورة البقرة رغدا ولم يقله هنا لأن الأكل عقب الدخول ألذ وأكمل فأما الأكل مع السكنى والاستمرار فليس كذلك فحسن دخول لفظ رغدا هناك بخلاف هنا (وقولوا حطة) أي حط عنا ذنوبنا (وادخلوا الباب سجدا) وقال في البقرة عكس هذا اللفظ ولا منافاة في ذلك لأن المقصود من ذلك تعظيم أمر الله وإظهار الخضوع والخشوع لهم فلم يتفاوت الحال بسبب التقديم والتأخير (نغفر لكم خطيئاتكم) يعني نغفر لكم ذنوبكم ولم نؤاخذكم بها وإنما قال هنا خطيئاتكم وفي البقرة خطاياكم لأن المقصود غفران ذنوبهم سواء كانت قليلة أو كثيرة إذا أتوا بالدعاء والتضرع (سنزيد المحسنين) وقال في سورة البقرة وسنزيد بالواو ومعناه أنه قد وعد المسيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب وإسقاط الواو لا يخل بهذا المعنى لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل وماذا بعد الغفران فقيل له سنزيد المحسنين (فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم) يعني غير الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أمر الله من بني إسرائيل فقالوا قولا غير الذي قيل لهم وأمروا به وذلك أنهم أمروا أن يقولوا حطة فقالوا حنطة في شعيرة فكان ذلك تبديلهم وتغييرهم (فأرسلنا عليهم رجزا من السماء) يعني بعثنا عليهم عذابا من السماء أهلكهم ولا منافاة بين قوله تعالى هنا أرسلنا وبين قوله في سورة البقرة أنزلنا لأنهما لا يكونان إلا من أعلى إلى أسفل وقيل بينهما فرق وهو أن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بذلك فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب قليلا ثم أرسله عليهم كثيرا (بما كانوا يظلمون) يعني أن إرسال العذاب عليهم بسبب ظلمهم ومخالفتهم أمر الله وقال في البقرة بما كانوا يفسقون والجمع بينهما أنهم لما ظلموا أنفسهم بما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى وقد تقدمت هذه القصة أيضا في تفسير سورة البقرة ۞ قوله عز وجل (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي سل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك عن حال أهل القرية وهذا السؤال سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استفهام لأنه عليه الصلاة والسلام كان قد علم حال أهل هذه القرية بوحي الله عز وجل إليه وإخباره إياه بحالهم وإنما المقصود بهذا السؤال تقريع اليهود على إقدامهم على الكفر والمعاصي قديما وأن إصرارهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وإنكار نبوته ومعجزاته ليس شيئا قد حدث منهم في زمانه بل إصرارهم على الكفر كان حاصلا لأسلافهم في قديم الزمان وفي الأخبار

(اذ يعدون في السبت) اذ يتجاوزون حد الله فيه وهو اصطيادهم في يوم السبت وقد نهوا عنه اذ يعدون في محل الجر بدل من القرية والمراد بالقرية أهلها كأنه قيل واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت وهو من بدل الاشتمال (اذ تأتيهم) منصوب بيعدون

بهذه القصة معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لانه كان أميا لا يقرأ الكتب القديمة ولم يعرف أخبار الاولين ثم أخبرهم بما جرى لاسلافهم في قديم الزمان وانهم بسبب مخالفتهم أمر الله عز وجل مسخوا قردة وخنازير واختلفوا في هذه القرية فقال ابن عباس ٢ هي قرية بين مصر والمدينة والمغرب وقيل بين مدين والطور على شاطئ البحر وقال الزهري هي طبرية الشام وفي رواية عن ابن عباس قال هي مدين وقال وهب هي ما بين مدين وعيوني يعني القرية التي كانت على ساحل البحر وقريبة منه (اذ يعدون في السبت) يعني يتجاوزون حد الله فيه وما أمرهم به من تعظيمه فخالفوا أمر الله وصادوا فيه السمك (اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا) يعني ظاهرة على الماء كثيرة وقال الضحاك تأتيهم متتابعة يتبع بعضها بعضا وقيل كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش البيض السمان (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) يعني الحيتان (كذلك نبلوهم) اي مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم ونحن أعلم بحالهم (بما كانوا يفسقون) يعني ان ذلك الابتلاء والاختبار بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله وما أمروا به قال أهل التفسير ان اليهود أمروا بيوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا به وهو أن الله أمرهم بتعظيمه ونهاهم عن العمل فيه وحرم عليهم فيه الصيد فلما أراد الله أن يبتليهم كانت الحيتان تظهر لهم في يوم السبت ينظرون اليها في البحر فاذا انقضى السبت ذهبت فلم تر الى السبت المقبل فلما ابتلوا به وسوس اليهم الشيطان وقال ان الله لم ينهكم عن الاصطياد وانما نهاكم عن الاكل فاصطادوا وقيل انه وسوس اليهم انكم انما نهيتم عن الاخذ فاتخذوا حياضا على ساحل البحر وسوقوا اليها الحيتان يوم السبت فاذا كان يوم الاحد خذوها ففعلوا ذلك زمانا ثم انهم تجرؤا على السبت وقالوا ما نرى السبت الا قد حل لنا فاصطادوا فيه وأكلوا وباعوا وصار أهل القرية أثلاثا ثلاثة وكانوا نحوا من سبعين ألفا فثلث نهوا عن الاصطياد وثلث سكتوا ولم ينهوا وقالوا للناهين لم تعظون قوما الله مهلكهم وثلث هم أصحاب الخطيئة الذين خالفوا أمر الله واصطادوا وأكلوا وباعوا فلما لم ينتهوا عما هم فيه من المعصية قال الناهون لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بينهم بجدار للناهين باب يدخلون ويخرجون منه وللعاصين باب ولعنهم داود عليه الصلاة والسلام وكانوا في زمنه فأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان لهم لشأنا لعل الخمر قد غلبتهم فعلوا على الجدار الذي بينهم فاذا هم قد مسخوا قردة ففتحوا عليهم الباب ودخلوا اليهم فصار القردة يعرفون أنسابهم من الناس ولم يعرف الناس أنسابهم من القردة فجعلت القردة تأتي أنسابها من الناس فتشم ثيابها فيقول لهم أحباؤهم ألم ننهكم فتقول القردة برأسها نعم فنجا الناهون وهلك سائرهم فذلك قوله تعالى (واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم) واختلفوا في القائلين هذه المقالة فقال بعض المفسرين ان أهل القرية افترقوا ثلاث فرق فرقة اعتدت وأصابت الخطيئة وفرقة نهتهم عن ذلك الفعل وفرقة أمسكت عن الصيد وسكتت عن موعظة المعتدين وقالوا للناهين لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا يعني انهم لاموهم على موعظة قوم يعلمون أنهم غير متعظين ولا منزجرين فقالت الفرقة الناهية للذين لاموهم معذرة الى ربكم يعني ان موعظتنا اياهم معذرة الى ربكم لان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب علينا فوعظناهم لا عذر لنا عند الله (ولعلهم يتقون) أي وجائز عندنا أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ما هم فيه من الصيد وقال بعضهم ان أهل القرية كانوا فرقتين فرقة نهت وزجرت عن السوء وفرقة عملت بالسوء فعلى هذا يكون الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم الفرقة المعتدية وذلك ان الفرقة الناهية قالوا للفرقة المعتدية اتقوا الله قبل أن ينزل بكم عذاب شديد ان لم تنتهوا عما أنتم فيه

أو بدل بعد بدل (حيتانهم) جمع حوت أبدلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها (يوم سبتهم شرعا) ظاهرة على وجه الماء جمع شارع حال من الحيتان والسبت مصدر سبتت اليهود اذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد والمعنى اذ يعدون في تعظيم هذا اليوم وكذا قوله يوم سبتهم معناه يوم تعظيمهم أمر السبت ويدل عليه (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) ويوم ظرف لا تأتيهم (كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بفسقهم (واذ قالت) معطوف على اذ يعدون وحكمه حكمه في الاعراب (أمة منهم) جماعة من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعد ما ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم لآخرين لا يقلعون عن وعظهم (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) وانما قالوا ذلك لعلمهم ان الوعظ لا ينفع فيهم (قالوا معذرة الى ربكم) أي موعظتنا ابلاء عذر الى الله لئلا ننسب في النهي عن المنكر الى التفريط معذرة حفص على انه مفعول له أي وعظناهم للمعذرة (ولعلهم يتقون) ولطمعنا في أن يتقوا

٢ (قوله هي قرية بين مصر والمدينة والمغرب) في نسخة هي ايلة بين مصر والمدينة والعرب تسمي المدينة قرية وقال الزهري الخ اه

فقالت لهم الفرقة المعتدية لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا والمعنى لم تعظونا وقد علمتم ان الله مهلكنا أو منزل بنا عذابه والقول الاول أصح لانهم لو كانوا فرقتين لكان قولهم معذرة الى ربكم خطابا من الناهية للمعتدية ۞ وقوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به) أي فلما تركوا ما وعظوا به (أنجينا الذين ينهون عن السوء) وهم الفرقة الناهية (وأخذنا الذين ظلموا) يعني الفرقة المعتدية العاصية (بعذاب بئيس) أي شديد وجيع من البأس وهو الشدة (بما كانوا يفسقون) يعني أخذناهم بالعذاب بسبب فسقهم واعتدائهم وخروجهم عن طاعتنا روى عكرمة عن ابن عباس قال أسمع الله يقول أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا أدري ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكي قال عكرمة فقلت له جعلني الله فداك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم وان لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم قال فأعجبه قولي ورضي به وأمر لي ببردين فكسانيهما وقال نجت الساكتة وقال يمان بن رباب نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون والذين قالوا معذرة وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان وهذا قول الحسن وقال ابن زيد نجت الناهية وهلكت الفرقتان وهذه الآية أشد آية في ترك النهي عن المنكر ۞ وقوله تعالى (فلما عتوا عما نهوا عنه) قال ابن عباس أبوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الاباء والعصيان والمعنى فلما عتوا عما نهوا يعني عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا في العصيان من اعتدائهم في السبت واستحلالهم ما حرم الله عليهم من صيد السمك في يوم السبت وأكله (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) يعني صاغرين مبعدين من كل خير قال قتادة لما عتوا عما نهوا عنه مسخهم الله فصيرهم قردة تتعاوى بعدما كانوا رجالا ونساء وقال ابن عباس جعل الله منهم القردة والخنازير فزعم ان شبان القوم صاروا قردة وان المشيخة صاروا خنازير وقيل انهم بقوا ثلاثة أيام ينظر الناس اليهم ثم هلكوا جميعا ۞ وقوله تعالى (واذ تأذن ربك) الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم ومعنى تأذن أذن والاذان الاعلام يعني أعلم ربك وقيل معناه قال ربك وقيل حكم ربك وقيل آلى ربك بمعنى أقسم ربك (ليبعثن عليهم) اللام في قوله ليبعثن جواب القسم لان قوله واذ تأذن ربك جار مجرى القسم لكونه جزما وجواب القسم ليبعثن عليهم واختلفوا في الضمير في عليهم الى من يرجع فقيل يقتضي أن يكون راجعا الى قوله فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين لكن قد علم ان الذين مسخوا لم يبق منهم أحد فيحتمل أن يكون المراد الذين بقوا منهم فالحق الذل بهم وقيل بان المراد سائر اليهود من بعدهم لان الذين بقوا من أهل القرية كانوا صالحين والذي بعثه الله على اليهود هو بختنصر وسنجاريب وملوك الروم فساموهم سوء العذاب وقيل المراد بقوله ليبعثن عليهم اليهود الذين كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي بعثه الله عليهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته فالزم من لم يسلم منهم الصغار والذلة والهوان والجزية لازمة لليهود الى يوم القيامة وأورد على هذا بان في آخر الزمان يكون لهم عزة وذلك عند خروج الدجال لان اليهود أتباعه وأشياعه وأجيب عنه بان ذلك العز الذي يحصل لهم هو في نفسه غاية الذلة لانهم يتبعون لحية الدجال فيزدادون كفرا على كفرهم فاذا أهلك الدجال أهلكهم المسلمون وقتلوهم جميعا فذلك هو الذلة والصغار المشار اليه بقوله تعالى ليبعثن عليهم (الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) وهذا نص في أن العذاب انما يحصل لهم في الدنيا مستمرا عليهم الى يوم القيامة ولهذا فسر هذا العذاب بالاهانة والذلة وأخذ الجزية منهم فاذا أفضوا الى الآخرة كان عذابهم أشد وأعظم وهو قوله تعالى (ان ربك لسريع العقاب) يعني لمن أقام على الكفر فيه دليل على انه يجمع لهم مع ذلة الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمرا عليهم في الدنيا والآخرة ثم ختم الآية بقوله تعالى (وانه لغفور رحيم) يعني لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل في دين الاسلام

(فلما نسوا) أي أهل القرية تركوا (ما ذكروا به) ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه (أنجينا الذين ينهون عن السوء) عن العذاب الشديد (وأخذنا الذين ظلموا) الراكبين للمنكر والذين قالوا لم تعظون من الناجين فعن الحسن نجت فرقتان وهلكت فرقة وهم الذين أخذوا الحيتان (بعذاب بئيس) شديد يقال بؤس يبؤس بأسا اذا اشتد فهو بئيس بئس شامي بيس مدني بيئس على وزن فيعل أبو بكر غير حماد (بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أي جعلناهم قردة أذلاء مبعدين وقيل فلما عتوا تكرير لقوله فلما نسوا والعذاب البئيس هو المسخ قيل صار الشبان قردة والشيوخ خنازير وكانوا يعرفون أقاربهم ويبكون ولا يتكلمون والجمهور على انها ماتت بعد ثلاث وقيل بقيت وتناسلت (واذ تأذن ربك) أي أعلم وأجرى مجرى فعل القسم ولذا أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله (ليبعثن عليهم) أي كتب على نفسه ليسلطن على اليهود (الى يوم القيامة من يسومهم) من يوليهم (سوء العذاب) فكانوا يؤدون الجزية الى المجوس الى أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم فلا تزال مضروبة عليهم الى آخر الدهر (ان ربك لسريع العقاب) للكفار (وانه لغفور رحيم) للمؤمنين

(قوله

(وقطعناهم فى الارض) وفرقناهم فيها فلا تخلو بلد عن فرقة (أمما منهم الصالحون)

﴿ قوله تعالى (وقطعناهم فى الارض أمما) يعنى وفرقنا بنى اسرائيل فى الارض جماعات متفرقة فلا تجد بلدا الا وفيه من اليهود طائفة وجماعة قال ابن عباس كل أرض يدخلها قوم من اليهود (منهم الصالحون) يعنى من هؤلاء الذين وصفهم الله من بنى اسرائيل صالحون وهم من آمن بالله ورسوله وثبت منهم على دينه قبل مبعث عيسى عليه الصلاة والسلام وانما وصفهم بذلك قبل ارتدادهم عن دينهم وكفرهم بربهم ذكره الطبرى ولم يذكر غيره وروى البغوى وغيره من المفسرين عن ابن عباس ومجاهد ان المراد بالصالحين الذين أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم من اليهود وآمنوا به والصحيح ماذكره الطبرى يدل عليه قوله بعد فخلف من بعدهم خلف والخلف انما كان بعد هؤلاء الذين وصفهم بالصلاح من بنى اسرائيل ﴿ وقوله تعالى (ومنهم دون ذلك) يعنى الذين كفروا من بنى اسرائيل وبدلوا وغيروا (وبلوناهم) يعنى جميعا الصالح وغيره وهى بلوى اختبار وامتحان (بالحسنات) يعنى الخصب والعافية (والسيئات) يعنى الجدب والشدة (لعلهم يرجعون) يعنى لكى يرجعوا الى طاعة ربهم ويتوبوا اليه قال أهل المعانى كل واحدة من الحسنات والسيئات تدعو الى طاعة الله تعالى أما النعمة فيزداد عليها شكرا فيرغب فى الطاعة وأما الشدة فيخاف سوء عاقبتها فيرهب منها ﴿ قوله تعالى (فخلف من بعدهم) يعنى من بعد هؤلاء الذين وصفناهم (خلف) يعنى خلف سوء يعنى حدث من بعدهم وتبدل منهم بدل سوء يقال منه هو خلف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها اكثر ما يقال فى المدح بفتح اللام وفى الذم بسكونها وقد تحرك فى الذم وتسكن فى المدح قال حسان بن ثابت فى المدح

لنا القدم الاولى اليك وخلفنا ۞ لاولنا فى طاعة الله تابع

فسكن اللام فى قوله وخلفنا وهو يريد المدح وقال لبيد فى الذم

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ۞ وبقيت فى خلف كجلد الاجرب

بفتح اللام وهو يريد الذم وأصله من الفساد يقال خلف اللبن اذا فسد وتغير فى السقاء ويقال للردىء من القول خلف وخلف الشئ تغير ومنه خلوف فم الصائم والمعنى جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذى يجىء بعد قرن كان قبله (ورثوا الكتاب) يعنى انتقل اليهم الكتاب عن آبائهم والمراد بالكتاب التوراة (يأخذون عرض هذا الادنى) العرض بفتح الراء جميع متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير والمعنى انهم كانوا يأخذون الرشا فى الاحكام على تبديل الكلام وتغييره وذلك الذى يأخذونه من حطام الدنيا هو الشئ التافه الخسيس الحقير لان الدنيا باسرها فانية حقيرة والراغب فيها أحقر منها فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا فى الاحكام ويعلمون أنها حرام ثم انهم مع اقدامهم على هذا الذنب العظيم يصرون عليه (ويقولون سيغفر لنا) يعنى ذنوبنا فيتمنون على الله الامانى الباطلة الكاذبة عن شداد بن أوس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى أخرجه الترمذى وقال فى قوله عليه الصلاة والسلام دان نفسه يعنى حاسبها فى الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة وموضع الاستشهاد من الحديث على الآية قوله وتمنى على الله الامانى لان اليهود كانوا يقدمون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمنى بعينه ﴿ وقوله تعالى (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) وهذا اخبار عن حرصهم على الدنيا واصرارهم على الذنوب والمعنى أنهم اذا أتاهم شئ من الدنيا أخذوه حلالا كان أو حراما ويتمنون على الله المغفرة وان وجدوا من الغد مثله أخذوه قال السدى كانت بنو اسرائيل لا يستقضون قاضيا الا ارتشى فى الحكم فيقال له ما بالك ترتشى فيقول

الذين آمنوا منهم بالمدينة أو الذين وراء الصين (ومنهم دون ذلك) ومنهم ناس دون ذلك الوصف مقطوعون عنه وهم الفسقة وعلى دون ذلك الرفع وهو صفة لموصوف محذوف أى ومنهم ناس منحطون عن الصلاح (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) بالنعم والنقم والخصب والجدب (لعلهم يرجعون) ينتهون فيثيبون (فخلف من بعدهم) من بعد المذكورين (خلف) وهم الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلف بدل السوء بخلاف الخلف فهو الصالح (ورثوا الكتاب) التوراة ووقفوا على ما فيها من الاوامر والنواهى والتحليل والتحريم ولم يعملوا بها (يأخذون عرض هذا الادنى) هو حال من الضمير فى ورثوا والعرض المتاع أى حطام هذا الشئ الادنى يريد الدنيا وما يتمتع به منها وهو من الدنو بمعنى القرب لانه عاجل قريب والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا فى الاحكام وعلى تحريف الكلم وفى قوله هذا الادنى تخسيس وتحقير (ويقولون سيغفر لنا) لا يؤاخذنا الله بما أخذنا والفعل مسند الى الاخذ أو الى الجار والمجرور أى لنا (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) الواو للحال أى يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون الى مثل فعلهم غير تائبين

(ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) أي الميثاق المذكور في الكتاب (أن لا يقولوا على الله الا الحق) أي أخذ عليهم الميثاق في كتابهم أن لا يقولوا على الله الا الصدق وهو عطف بيان لميثاق الكتاب (ودرسوا ما فيه) وقرؤا ما في الكتاب وهو عطف على ألم يؤخذ عليهم لانه تقرير فكأنه قيل أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه (والدار الآخرة خير) من ذلك العرض الخسيس (للذين يتقون) الرشا والمحارم (أفلا يعقلون) انه كذلك وبالتاء مدني وحفص (والذين يمسكون الكتاب) بسكون أبو بكر والامساك والتمسك والاعتصام والتعلق بشئ (وأقاموا الصلاة) خص الصلاة مع ان التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة لانها عماد الدين والذين مبتدأ والخبر (انا لا نضيع أجر المصلحين) انا لا نضيع أجرهم وجاز أن يكون مجرورا عطفا على للذين يتقون وانا لا نضيع اعتراض (واذ نتقنا الجبل فوقهم) واذكر اذ قلعناه ورفعناه كقوله ورفعنا فوقكم الطور (كأنه ظلة) هي كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب (وظنوا أنه واقع بهم) وعلموا انه ساقط عليهم وذلك انهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم وكان فرسخا في فرسخ وقيل لهم ان قبلتموها بما فيها والا ليقعن عليكم فلما نظروا الى الجبل خر كل رجل منهم ساجدا على حاجبه الايسر وهو ينظر بعينه اليمنى الى الجبل فرقا من سقوطه فلذلك لا ترى يهوديا يسجد الا على حاجبه الايسر ويقولون هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة وقلنا لهم (خذوا ما آتيناكم) من الكتاب (بقوة) وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه (واذكروا ما فيه) من الاوامر والنواهي ولا تنسوه (لعلكم تتقون) ما أنتم عليه (واذ أخذ ربك من بني آدم) أي واذكر اذ أخذ (من ظهورهم) بدل من بني آدم والتقدير واذ أخذ ربك من ظهور بني آدم (ذرياتهم) ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم اخراجهم من أصلاب آبائهم (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى

سيعمر لي فيطعن عليه الآخرون فاذا مات أو نزع من الحكم وجعل مكانه آخر فمن كان يطعن عليه ارتشى أيضا يقول الله عز وجل وان يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) يعني ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين في أحكامهم العهود والمواثيق في الكتاب وهو التوراة (أن لا يقولوا على الله الا الحق) يعني انا أخذنا عليهم الميثاق على أن يقولوا الحق فقالوا الباطل وخالفوا أمر الله وهو قولهم سيغفر لنا والمراد من هذا التوبيخ والتقريع لليهود في ادعائهم على الله الباطل قال ابن عباس هو ما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها (ودرسوا ما فيه) يعني ما في الكتاب والمعنى انهم ذاكرون لما أخذ عليهم من العهود والمواثيق في الكتاب لانهم دارسون له لم يتركوه ولكن درسوه وضيعوا العمل به (والدار الآخرة) يعني وما في الدار الآخرة مما أعد الله لاوليائه وأهل طاعته العاملين بما أمرهم الله به من كتابه ولم يغيروا ولم يبدلوا ولم يرتشوا في الاحكام (خير للذين يتقون) يعني يتقون الله ويخافون عقابه (أفلا يعقلون) يعني أفلا يعقل هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا أن ما في الآخرة خير وأبقى لاهل دار المتقين (والذين يمسكون بالكتاب) يقال مسكت بالشئ وتمسكت به واستمسكت به وأمسكت به والمراد بالتمسك بالكتاب العمل بما فيه من احلال حلاله وتحريم حرامه واقامة حدوده والتمسك بأحكامه نزلت هذه الآية في الذين أسلموا من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه لانهم تمسكوا بالكتاب الاول ولم يحرفوه ولم يغيروه فأداهم ذلك التمسك الى الايمان بالكتاب الثاني وهو القرآن (وأقاموا الصلاة) يعني وداوموا على اقامتها في مواقيتها وانما أفردها بالذكر وان كانت الصلاة داخلة في التمسك بالكتاب تنبيها على عظم قدرها وانها من أعظم العبادات بعد الايمان بالله وبرسوله (انا لا نضيع أجر المصلحين) ۞ قوله عز وجل (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) يعني واذكر يا محمد اذ قلعنا الجبل فرفعناه فوق بني اسرائيل كأنه ظلة يعني سحابة فوقهم كالظلة والظلة كل ما علا الانسان كالسقف ونحوه (وظنوا) أي وعلموا وأيقنوا (أنه واقع بهم) يعني الجبل (خذوا) يعني وقلنا لهم خذوا واضمار القول كثير في القرآن وكلام العرب (ما آتيناكم) يعني التوراة (بقوة) يعني بجد واجتهاد (واذكروا ما فيه) يعني واعملوا بما فيه من الاحكام (لعلكم تتقون) قال أصحاب الاخبار ان بني اسرائيل لما أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة أمر الله عز وجل جبريل فرفع جبلا عظيما حتى صار على رؤسهم كالظلة فلما نظروا الى الجبل فوق رؤسهم خروا ساجدين فسجد كل واحد منهم على خده وحاجبه الايسر وجعل ينظر بعينه اليمنى الى الجبل خوفا أن يسقط عليه ولذلك لا تسجد اليهود الا على شق وجوههم الايسر ۞ قوله تعالى (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) الآية عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر ابن الخطاب سئل عن قوله سبحانه وتعالى واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم الآية قال سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان

الله سبحانه وتعالى اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار أخرجه مالك في الموطأ وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الاسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلا قلت ذكر الطبري في بعض طرق هذا الحديث الرجل فقال عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة وجعل بين عيني كل انسان وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يارب من هذا قال داود فقال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال يارب زده من عمري أربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انقضى عمر آدم الا أربعين جاءه ملك الموت فقال آدم أولم يبق من عمري أربعون سنة قال أولم تعطها ابنك داود فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فأكل من الشجرة فنسيت ذريته وخطئ فخطئت ذريته أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وأما تفسير الآية فقوله سبحانه وتعالى وإذ أخذ ربك يعني واذكر يا محمد اذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم يعني من ظهور بني آدم وانما لم يذكر ظهر آدم وان كان الله سبحانه وتعالى أخرج جميع الذرية من ظهره لان الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهر بعض على نحو ما يتوالد الابناء من الآباء فلذلك قال سبحانه وتعالى من بني آدم من ظهورهم فاستغنى عن ذكر ظهر آدم عليه السلام لما علم انهم كلهم بنو آدم وأخرجوا من ظهره فترك ذكر ظهر آدم استغناء ثم للعلماء في تفسير هذه الآية مذهبان أحدهما وهو مذهب أهل التفسير والأثر وظاهر ما جاءت به الروايات عن السلف فيما روي عن ابن عباس من طرق كثيرة وروايات مختلفة رواها عنه الطبري بأسانيد فمنها عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا وقال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين وعن ابن عباس في هذه الآية قال مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة بنعمان هذا الذي وراء عرفة وأخذ ميثاقهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا وعن ابن عباس أيضا قال ان أول ما أهبط الله آدم الى الارض أهبطه بدهناء أرض الهند فمسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو بارئها الى يوم القيامة ثم أخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين زاد في رواية عنه جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة وفي رواية عنه قال لما خلق الله آدم أخذ ميثاقه أنه ربه وكتب رزقه وأجله ومصائبه واستخرج ذريته كالذر وكتب أرزاقهم وآجالهم ومصائبهم وفي رواية عنه قال ان الله عز وجل مسح صلب آدم فاستخرج كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ وتكفل لهم بالارزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد كل من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الاول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الاول ومن مات صغيرا ولم يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الاول على الفطرة وروى الطبري بسنده عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين وقال ابن عباس أخرج ذرية آدم من ظهره فكلمهم الله وأنطقهم فقال ألست بربكم قالوا بلى ثم أعادها في صلبه فليس أحد من الخلق الا وقد تكلم فقال ربي الله وان القيامة لن تقوم حتى يولد من كان يومئذ أشهد على نفسه وقال السدي أخرج الله آدم من الجنة ولم يهبطه من السماء ثم انه مسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج منه

كهيئة الذر بيضاء فقال ادخلوا الجنة برحمتي ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه كهيئة الذر سوداء فقال
ادخلوا النار ولا أبالي فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ثم أخذ منهم الميثاق فقال ألست بربكم
قالوا بلى فأطاعه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية زاد في رواية وذلك حيث يقول وله أسلم
من في السموات والأرض طوعا وكرها وقال محمد بن كعب القرظي أقرت بالايمان والمعرفة الارواح قبل خلق
أجسادها وقال مقاتل مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منها ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ثم مسح
صفحة ظهره اليسرى فأخرج منها ذرية سوداء كهيئة الذر يتحركون فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ثم قال لهم
ألست بربكم قالوا بلى فقال للبيض هؤلاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين وقال للسود هؤلاء في النار ولا أبالي
وهم أصحاب الشمال ثم أعادهم جميعا في صلب آدم فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق جميعا
وروي أن الله سبحانه وتعالى قال لهم جميعا اعلموا أنه لا إله لكم غيري وأنا ربكم لا رب لكم غيري فلا تشركوا
بي شيئا فإني سأنتقم ممن أشرك بي ولم يؤمن بي وإني مرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدي وميثاقي ومنزل
عليكم كتابا فتكلموا جميعا وقالوا شهدنا أنك ربنا لا رب لنا غيرك فأخذ بذلك مواثيقهم ثم كتب آجالهم
وأرزاقهم ومصائبهم فنظر إليهم آدم عليه السلام فرأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال
رب هلا سويت بينهم فقال إني أحب أن أشكر فلما قررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعادهم إلى
صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ منه الميثاق وقال الزجاج وجائز أن يكون الله سبحانه وتعالى جعل
لأمثال الذر عقلا وفهما تعقل به كما قال تبارك وتعالى في النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم وكما قال
وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وقال ابن الانباري مذهب أصحاب الحديث وكبراء أهل العلم في هذه
الآية أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم صور كالذر وأخذ عليهم الميثاق أنه
خالقهم وأنهم مصنوعه فاعترفوا بذلك وقبلوه وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما
جعل للجبال عقولا حتى خوطبوا بقوله يا جبال أوبي معه وكما جعل للبعير عقلا حتى سجد للنبي صلى الله عليه
وسلم وكذلك الشجرة سمعت لأمره وانقادت ومعنى قوله ألست بربكم على هذا التفسير قال الله سبحانه
وتعالى للذرية ألست بربكم فهو إيجاب للربوبية عليهم قالوا بلى يعني قالت الذرية بلى أنت ربنا فهو جواب
منهم له وإقرار له بالربوبية واعتراف على أنفسهم بالعبودية (شهدنا) فيه قولان أحدهما أنه لما أقروا له
بالربوبية قال الله عز وجل للملائكة اشهدوا قالوا شهدنا على إقرارهم فعلى هذا القول يحسن الوقف على
قوله سبحانه وتعالى بلى لأن كلام الذرية قد تم وانقطع وقوله شهدنا كلام مستأنف والقول الثاني أن قوله
سبحانه وتعالى شهدنا من كلام الذرية والمعنى شهدنا على أنفسنا بهذا الاقرار وعلى هذا لا يحسن الوقف على
بلى لتعلقه بما بعده ۞ وقوله سبحانه وتعالى (أن يقولوا) وقرئ بالتاء على خطاب الذرية ومعناه لئلا تقولوا
أيها الذرية (يوم القيامة إنا كنا عن هذا) يعني الميثاق (غافلين) وقرئ أن يقولوا بالياء على الغيبة ومعناه
لئلا يقولوا أي الذرية إنا كنا عن هذا غافلين والمذهب الثاني في معنى هذه الآية وهو مذهب أهل الكلام
والنظر أنه سبحانه وتعالى أخرج الذرية وأنشأهم بعد أن كانوا نطفا في أصلاب الآباء وهم أولاد بني آدم
فأخرج الذرية إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقول وأراهم
عجائب خلقه وغرائب صنعه ودلائل وحدانيته فبهذا الاشهاد صاروا كأنهم قالوا بلى وأشهدهم على أنفسهم
أنه ربهم وذلك بما أظهر لهم من دلائل آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم وبارئهم
وربهم ونافذ الحكم فيهم فلما عرفوا ذلك دعاهم ذلك إلى التصديق بوحدانيته وربوبيته فقالوا بلى شهدنا على
أنفسنا أنك أنت ربنا وإلهنا فعلى هذا القول يكون قولهم بلى شهدنا على أنفسنا على المجاز لا على الحقيقة
وهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور في كلام العرب فكل من بلغ وعقل فقد أخذ عليه الميثاق بما

(شهدنا) هذا من باب التمثيل ومعنى ذلك أنه نصب لهم الادلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الهدى والضلالة فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم ألست بربكم وكأنهم قالوا بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك (أن يقولوا) مفعول له أي فعلنا ذلك من نصب الادلة الشاهدة على صحتها المقول كراهة أن يقولوا (يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين) لم ننبه عليه

جعل

جعل فيه من السبب الذي يؤخذ به الميثاق وهو العقل والتكليف فيكون معنى الآية وإذ يأخذ ربك من بني آدم ذريتهم بعدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقل الذي يكون به الفهم والتكليف الذي يترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة فإن قلت فما المختار من هذين المذهبين في تفسير هذه الآية قلت المذهب الأول هو المختار لأنه مذهب جمهور المفسرين من السلف وورد الحديث بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم فإن قلت إذا كان المختار في تفسير هذه الآية هو مذهب السلف في ذلك وأن الله تعالى أخرج الذرية من ظهر آدم لأخذ الميثاق عليهم كما ورد في الحديث أيضا فكيف يحمل تفسير ألفاظ هذه الآية على هذا القول قلت قد صح الحديث بأن الله مسح ظهر آدم فأخرج ذريته وأخذ عليهم الميثاق ولا منافاة بين الآية والحديث كما تقدم في تفسير ألفاظ الآية من أن الله أخرج ذرية آدم من ظهره على سبيل التوالد بعضهم من بعض كما في الخارج وكلهم راجعون إلى ظهر آدم الذي هو أصلهم فبهذا الطريق أمكن الجمع بين الآية والحديث إذ ليس في معنى ألفاظ الآية ما يدل على بطلان ذلك ونفيه وقد ورد الحديث بثبوت ذلك وصحته فوجب المصير إليه والأخذ به جمعا بين الآية والحديث وحكى الواحدي عن صاحب النظم أنه قال ليس بين قوله عليه الصلاة والسلام إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه تعالى إذا أخرجهم من ظهر آدم فقد أخرجهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية كذرية بعضهم من بعض قال وتحصيل الفائدة بهذا الفصل بأنه تعالى أثبت الحجة على كل منفوس ممن بلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذي أخذه عليهم وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التي نصبها والرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ وقال غيره فائدة أخذ الميثاق عليهم في القدم أن من مات منهم صغيرا أدخل الجنة بإقراره بالميثاق الأول وهذا على قول من يقول إن أطفال المشركين يدخلون الجنة إذا ماتوا صغارا فأما من لا يحكم لهم بالجنة فإنه يقول هم ممن كان من أهل الشقاوة من الذرية السوداء وإنما أقروا بالمعرفة كرها فلم يغن عنهم ذلك شيئا ومن بلغ وعقل لم يغن عنه إقراره بالميثاق الأول شيئا حتى يؤمن ويصدق عند بلوغه وعقله بأن الله ربه وخالقه ويصدق رسله فيما جاؤوا به من عنده وإنما فعل ذلك لئلا يقول الكفار إنا كنا عن هذا الميثاق أو الإيمان بأن الله ربنا غافلين أو لئلا تقول أخلافهم إنما أشرك آباؤنا ونحن نسير على آثارهم ظنا منهم أن الحق ما كانوا عليه فإن قلت إن ذلك الميثاق لا يذكره أحد اليوم فكيف يكون حجة عليهم اليوم أو فكيف يذكرونه يوم القيامة حتى يحتج عليهم به قلت لما أخرج الذرية من صلب آدم ركب فيهم العقول وأخذ عليهم الميثاق فلما أعيدوا إلى صلب آدم بطل ما ركب فيهم فتوالدوا ناسين لذلك الميثاق لاقتضاء الحكمة الإلهية نسيانهم له ثم ابتدأهم بالخطاب على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام وأصحاب الشرائع فقام ذلك مقام الذكر إذ الدار دار تكليف وامتحان ولو لم ينسوه لانتفت المحنة والابتلاء والتكليف فقامت الحجة عليهم لإمدادهم بالرسل وإعلامهم بجريان أخذ الميثاق عليهم وبذلك قامت الحجة عليهم أيضا يوم القيامة لإخبار الرسل إياهم بذلك الميثاق في الدنيا فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمته الحجة ولم تسقط الحجة عنهم بنسيانهم وعدم حفظهم بعد إخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات الباهرات ﷺ وقوله تعالى (أو يقولوا) يعني الذرية (إنما أشرك آباؤنا من قبل) يعني إنما أخذ الميثاق عليهم لئلا يقول المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل (وكنا ذرية من بعدهم) يعني وكنا أتباعا لهم فاقتدينا بهم في الشرك (أفتهلكنا) يعني أفتعذبنا (بما فعل المبطلون) قال المفسرون هذا قطع لعذر الكفار فلا يستطيع أحد من الذرية أن يقول يوم القيامة إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ونقضوا العهد والميثاق وكنا نحن الذرية من بعدهم فقلدناهم واقتدينا بهم وكنا في غفلة عن هذا الميثاق فلا ذنب لنا فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل ذلك وقد أخذ عليهم جميعا الميثاق وجاءتهم الرسل وذكروهم به وثبتت الحجة عليهم بذلك يوم القيامة وأما الذين حملوا معنى الآية على أن المراد منه مجرد نصب الدلائل وهو مذهب

(أو يقولوا) أو كراهة أن يقولوا (إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فاقتدينا بهم لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه والاقتداء بالآباء كما لا عذر لآبائهم في الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أي كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك وتركه

أهل النظرة فكروا ومعناه ان الله نصب هذه الدلائل وأظهرها للعقول لئلا يقولوا انما أشركنا على سبيل التقليد لآبائنا لان نصب أدلة التوحيد قائم معهم فلا عذر لهم في الاعراض عنه والاقبال على تقليد الآباء في الشرك ﴿ وقوله تعالى (وكذلك نفصل الآيات) يعني لتتدبرها العباد فيرجعوا الى الحق والايمان ويعرضوا عن الباطل والكفر وهو المراد من قوله (ولعلهم يرجعون) يعني عن الشرك الى التوحيد وقيل معناه ولعلهم يرجعون الى الميثاق الاول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه ﴿ قوله عز وجل (واتل عليهم) يعني واقرأ على قومك يا محمد (نبأ) يعني خبر (الذي آتيناه آياتنا) اختلفوا فيه فقال ابن عباس هو بلعم بن باعوراء وقال مجاهد بلعام بن باعر وقال ابن مسعود هو بلعم بن ابر قال عطية قال ابن عباس انه كان من بني اسرائيل وفي رواية أخرى عنه أنه كان من الكنعانيين من بلد الجبارين وقال مقاتل هو من مدينة البلقاء وكانت قصته على ماذكره ابن عباس ومحمد بن اسحق والسدي وغيرهم من أصحاب الاخبار والسير قالوا ان موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام اليه وكان عنده اسم الله الاعظم فقالوا ان موسى رجل حديد وان معه جنودا كثيرة وانه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني اسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع الله أن يردهم عنا فقال ويلكم نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم واني ان فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي فراجعوه وألحوا عليه فقال حتى أؤامر ربي وكان لا يدعو حتى يؤامر ربه في المنام فآمر في المنام فقيل له لا تدع عليهم فقال لقومه اني قد آمرت ربي فنهاني أن أدعو عليهم فأهدوا اليه هدية فقبلها وراجعوه فقال حتى أؤامر ربي فآمر فلم يوح اليه شيء فقال قد آمرت ربي فلم يوح الي شيء فقالوا لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك أول مرة فلم يزالوا يتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن فركب أتانا له متوجها الى جبل يطلعه على عسكر بني اسرائيل يقال لذلك الجبل جبل حسبان فلما سار عليها غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت وركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فضربها حتى أذلقها فاذن الله عز وجل لها في الكلام وأنطقها له فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعام أتدري أين تذهب أما ترى الملائكة أمامي يردونني عن وجهي هذا أتذهب الى نبي الله والمؤمنين فتدعو عليهم فلم ينزع فخلى الله سبيل الاتان فانطلقت به حتى اذا أشرفت به على جبل حسبان ومعه قومه جعل يدعو فلم يدع بشيء الا صرف الله به لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير الا صرف الله به لسانه الى بني اسرائيل فقال له قومه يا بلعام أتدري ما تصنع انما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا ما لا أملكه هذا شيء قد غلب الله عليه واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لقومه قد ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق لي الا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال ثم قال جملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن الى عسكر بني اسرائيل ليبعنها عليهم ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فانه ان زنى رجل منهم بواحدة منهن كفيتموهم ففعلوا ذلك فلما دخل النساء على العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستي بنت صور على رجل من عظماء بني اسرائيل يقال له زمري بن شلوم وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فقام الى المرأة وأخذ بيدها حين أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عليه السلام وقال اني لأظنك أنك تقول هذه حرام عليك فقال أجل هي حرام عليك لا تقربها قال والله اني لا أطيعك في هذا ثم قام ودخل بها الى قبته فوقع عليها فأرسل الله عز وجل الطاعون على بني اسرائيل في ذلك الوقت وكان فنحاص بن العيزار بن هرون وكان صاحب أمر موسى وكان رجلا قد أعطي بسطة في الخلق وقوة في البطش وكان غائبا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يجوس في بني اسرائيل فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما وهو رافعهما الى السماء وقد

صنعنا (وكذلك) ومثل ذلك التفصيل البليغ (نفصل الآيات) لهم (ولعلهم يرجعون) عن شركهم نفصلها الى هنا ذهب المحققون من أهل التفسير منهم الشيخ أبو منصور والزجاج والزمخشري وذهب جمهور المفسرين الى ان الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهر آدم مثل الذر وأخذ عليهم الميثاق أنه ربهم بقوله ألست بربكم فأجابوه ببلى قالوا وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها وقال ابن عباس رضي الله عنهما أخرج الله من ظهر آدم ذريته وأراه اياهم كهيئة الذر وأعطاهم العقل وقال هؤلاء ولدك آخذ عليهم الميثاق ان يعبدوني قيل كان ذلك قبل دخول الجنة بين مكة والطائف وقيل بعد النزول من الجنة وقيل في الجنة والحجة للاولين انه قال من بني آدم من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم ولانا لا نتذكر ذلك فأنى يصير حجة ذرياتهم مدني وبصري وشامي أن تقولوا أو تقولوا أبو عمرو (واتل عليهم) على اليهود (نبأ الذي آتيناه آياتنا) هو عالم من علماء بني اسرائيل وقيل هو بلعم بن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله

آخذ الحربة بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم
هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون من بني إسرائيل فحسب من مات منهم في ذلك الطاعون فيما بين
أن أصاب ذلك الرجل المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك سبعون ألفا في ساعة واحدة من النهار
فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل لولد فنحاص من كل ذبيحة يذبحونها القبة والذراع واللحي لاعتماده بالحربة
على خاصرته وأخذه إياها بذراعه وإسناده إياها إلى لحيته ويعطونهم البكر من كل أموالهم لأنه كان بكر العيزار
وفي بلعام أنزل الله عز وجل واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا الآية وقال مقاتل إن ملك البلقاء قال لبلعام ادع
الله على موسى فقال بلعام إنه من أهل ديني ولا أدعو عليه فنصب له خشبة ليصلبه عليها فلما رأى ذلك
خرج على أتان له ليدعو على موسى فلما عاين عسكرهم وقفت به الأتان فضربها فقالت لم تضربني إني
مأمورة وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع إلى الملك فأخبره بذلك فقال لتدعون عليه أو لأصلبنك فما
فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة فاستجيب له ووقع موسى ومن معه من بني إسرائيل في
التيه بدعاء بلعام عليه فقال موسى يا رب بأي ذنب وقعت في التيه قال بدعاء بلعام قال فكما سمعت دعاءه علي
فاسمع دعائي عليه فدعا موسى عليه السلام أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان فنزع الله سبحانه وتعالى منه
المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء فذلك قوله سبحانه وتعالى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فإن
قلت هذه القصة ذكرها جماعة من المفسرين وفيها أن موسى عليه السلام دعا على بلعام بأن ينزع عنه الاسم
الأعظم والإيمان وكيف يجوز لموسى عليه السلام مع علو منصبه في النبوة أن يدعو على إنسان بالكفر بعد
الإيمان أو يرضى له بذلك قلت الجواب عنه من وجوه أحدها منع صحة هذه القصة لأنها من الإسرائيليات
ولا يلتفت إلى ما سطره أهل الأخبار إذا خالف الأصول الوجه الثاني أن سبب وقوع بني إسرائيل في التيه هو
عبادتهم العجل أو قولهم لموسى عليه السلام اجعل لنا إلها فكان ذلك هو سبب وقوعهم في التيه لا دعاء بلعام
عليهم الوجه الثالث على تقدير صحة هذه القصة وأن موسى عليه السلام دعا على بلعام وأن موسى عليه السلام
لم يدع عليه إلا بعد أن ثبت عنده أن بلعام كفر وارتد عن الإيمان بدعائه على موسى وإيثاره الحياة الدنيا
فدعا عليه بما يليق بحاله والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك كله والمقصود من ذلك تنزيه منصب النبوة
عما ينقله أصحاب الأخبار في كتبهم من غير تطرقه ولا بحث عن معناه وقال عبد الله بن عمرو بن العاص
وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي وكانت قصته أنه كان قد قرأ
الكتب القديمة وعلم أن الله سبحانه وتعالى مرسل رسولا فرجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد
صلى الله عليه وسلم وشرفه الله بالنبوة حسده وكفر به وكان أمية صاحب حكمة وشعر ومواعظ حسنة فقصد
بعض الملوك فلما رجع مر على قتلى بدر فسأل عنهم فقيل له قتلهم محمد فقال لو كان نبيا ما قتل أقرباءه
فلما مات أمية أتت أخته فارعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
وفاة أخيها فقالت بينا هو راقد أتاه آتيان فكشطا سقف البيت ونزلا فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند
رجليه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه أوعى قال وعى قال أزكى قال أبى قالت فسألته عن ذلك فقال
خير أريد بي فصرف عني ثم غشي عليه فلما أفاق من غشيته قال شعرا

كل عيش وإن تطاول دهرا ... صائر مرة إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ... في قلال الجبال أرعى الوعولا
إن يوم الحساب يوم عظيم ... شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشديني من شعر أخيك فأنشدته بعض قصائده فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم آمن شعره وكفر قلبه فأنزل الله عز وجل واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها الآية

وفي رواية عن ابن عباس انها نزلت في البسوس وهو رجل من بني اسرائيل وكان قد أعطي ثلاث دعوات مستجابات وكانت له امرأة له منها أولاد فقالت له اجعل لي منها دعوة فقال لك منها واحدة فما تريدين قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني اسرائيل فدعا لها فصارت أجمل النساء فلما علمت أنه ليس في نساء بني اسرائيل مثلها رغبت عنه فغضبت فدعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان فجاء بنوها الى أبيهم وقالوا ليس لنا على هذا الامر قرار فقد صارت أمنا كلبة نباحة والناس تعيرنا بذلك فادع الله أن يردها الى حالها الاول فدعا الله فعادت كما كانت فذهبت فيها الدعوات جميعا والقولان الاولان أشهر وقال الحسن وابن كيسان نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم نعته وصفته كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروه وقال قتادة هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله وقوله تعالى آتيناه آياتنا قال ابن عباس كان يعلم اسم الله الأكبر وقال ابن زيد كان لا يسأل الله شيئا الا أعطاه وقال السدي كان يعلم اسم الله الأعظم وفي رواية أخرى عن ابن عباس انه أوتي كتابا وقيل ان الله آتاه حجة وأدلة وهي الآيات التي أوتيها (فانسلخ منها) يعني خرج من الآيات التي كان الله آتاه اياها كما تنسلخ الحية من جلدها وقال ابن عباس نزع منه العلم (فأتبعه الشيطان) يعني لحقه وأدركه وصيره الشيطان تابعا لنفسه في معصية الله يخالف أمر ربه ويطيع الشيطان وهواه ۞ قوله تعالى (فكان من الغاوين) يعني من الهالكين الضالين بما خالف به وأطاع هواه وشيطانه ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ولو شئنا لرفعناه بها) يعني رفعنا درجته ومنزلته بتلك الآيات التي أوتيها وقال ابن عباس لرفعناه بعلمه بها وقال مجاهد وعطاء معناه ولو شئنا لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات (ولكنه أخلد الى الارض) يعني ولكنه سكن الى الدنيا ومال اليها ورضي بها وأصله من الخلود وهو الدوام والمقام والارض هنا عبارة عن الدنيا لان الارض عبارة عن المفاوز والقفار وفيها المدن والضياع والمعادن والنبات ومنها يستخرج ما يعاش به في الدنيا فالدنيا كلها هي الارض (واتبع هواه) يعني انه أعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات واتبع الهوى فخسر دنياه وآخرته ووقع في هاوية الردى والهلاك وهذه الآية من أشد الآيات على العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس ويتبعون الهوى وذلك لان الله عز وجل خص هذا الرجل بآياته وحكمته وعلمه اسمه الاعظم وجعل دعاءه مستجابا ثم انه لما اتبع هواه وركن الى الدنيا ورضي بها عوضا عن الآخرة نزع منه ما كان أعطيه وانسلخ من الدين فخسر الدنيا والآخرة ومن الذي يسلم من الميل الى الدنيا واتباع الهوى الا من عصمه الله بالورع وثبته بالعلم ونصره بتوفيقه عن كعب بن مالك الانصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه أخرجه الترمذي ۞ ثم ضرب الله عز وجل مثلا لهذا الرجل الذي آتاه آياته فانسلخ منها واتبع هواه فقال تعالى (فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) يقال لهث الكلب يلهث اذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند الاعياء والتعب وهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن آتاه الله آياته وحكمته فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات وهو الكلب في أخس أحواله وهو اللهث لان الكلب في حال لهثه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها كذلك العالم الذي يتبع هواه لا يقدر على نفع نفسه ولا ضرها في الآخرة لان التمثيل به على انه يلهث على كل حال ان حملت عليه أو تركته كان لاهثا وذلك عادة منه وطبيعة وهي مواظبته على اللهث دائما فكذلك من آتاه الله العلم والدين وأغناه عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة ثم انه مال اليها وطلبها كانت حالته كحال الكلب اللاهث وقيل ان العالم اذا توصل بعلمه الى طلب الدنيا فانه يظهر علومه عند أهلها ويدلع لسانه في تقرير تلك العلوم وبيانها وذلك لاجل ما يحصل عنده من حرارة الحرص الشديد وشدة العطش

(فانسلخ منها) فخرج من الآيات وأدركه وصار قرينا له (فكان من الغاوين) فصار من الضالين الكافرين روي ان قومه طلبوا منه ان يدعو على موسى ومن معه فأبى فلم يزالوا به حتى فعل وكان عنده اسم الله الاعظم (ولو شئنا لرفعناه) الى منازل الابرار من العلماء (بها) بتلك الآيات (ولكنه أخلد الى الارض) مال الى الدنيا ورغب فيها (واتبع هواه) في ايثار الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها (فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه) أي تزجره وتطرده (يلهث أو تتركه) غير مطرود (يلهث) والمعنى فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث به سواء حمل عليه أي شد عليه وهيج فطرد أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه وذلك ان سائر الحيوان لا يكون منه اللهث الا اذا حرك أما الكلب فيلهث في الحالين فكان مقتضى الكلام ان يقال ولكنه أخلد الى الارض فحططناه ووضعنا منزلته فوضع هذا التمثيل موضع فحططناه أبلغ حط ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال كأنه قيل كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثا في الحالين وقيل لما دعا بلعم على موسى خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب وقيل معناه هو ضال وعظ أو ترك وعن عطاء من علم ولم يعمل فهو كالكلب ينبح ان طرد أو ترك

العطش

التوصل الى الفوز بمطلوبه من الدنيا فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الذى أدلع لسانه من اللهث فى غير حاجة ولا ضرورة ومعنى ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أى ان شددت عليه وأهجته لهث وان تركته على حاله لهث لان اللهث طبيعة أصلية فيه وكذلك حال الحريص على الدنيا ان وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه وان تركته ولم تعظه فهو حريص أيضا لان الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما ان اللهث طبيعة لازمة للكلب (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعنى ان المثل الذى ضربناه للذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فعم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها فوجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث انهم اذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا وان تركوا لم يهتدوا أيضا بل هم ضلال فى كل حال ثم قال سبحانه وتعالى (فاقصص القصص) وهذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى فاقصص القصص يا محمد على قومك أى اخبار من كفر بآيات الله (لعلهم يتفكرون) يعنى فيتعظون وقيل هذا المثل لكفار مكة وذلك انهم كانوا يتمنون هاديا يهديهم ويدعوهم الى طاعة الله عز وجل فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى الله والى طاعته وهم يعرفونه ويعرفون صدقه كذبوه ولم يقبلوا منه ثم قال سبحانه وتعالى (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعنى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا (وأنفسهم كانوا يظلمون) يعنى بتكذيبهم بآياتنا ﴿ قوله عز وجل (من يهد الله فهو المهتدى) يعنى من يرشده الله الى دينه فهو المهتدى وقيل معناه من يتول الله هدايته وارشاده فهو المهتدى (ومن يضلل) يعنى ومن يتولى ضلاله (فأولئك هم الخاسرون) يعنى فى الآخرة وفى الآية دليل على ان الله سبحانه وتعالى هو الهادى المضل ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (ولقد ذرأنا) يعنى خلقنا (لجهنم كثيرا من الجن والانس) أخبر الله سبحانه وتعالى انه خلق كثيرا من الجن والانس للنار وهم الذين حقت عليهم الكلمة الازلية بالشقاوة ومن خلقه الله للنار فلا حيلة له فى الخلاص منها واستدل البغوى على صحة هذا التأويل بما روى عن عائشة قالت دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنازة صبى من الانصار فقلت يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال أو غير ذلك يا عائشة ان الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم أخرجه مسلم قال الشيخ محى الدين النووى فى شرح مسلم أجمع من يعتد به من علماء المسلمين ان من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة لانه ليس مكلفا وتوقف فيهم بعض من لا يعتد به لحديث عائشة هذا وأجاب العلماء عنه بانه لعله صلى الله عليه وسلم نهاها عن المسارعة الى القطع من غير ان يكون عندها دليل قاطع كما أنكر على سعد بن أبى وقاص لقطة انى لاراه مؤمنا فقال أو مسلما الحديث ويحتمل انه صلى الله عليه وسلم قال هذا قبل ان يعلم ان أطفال المسلمين فى الجنة فلما علم ذلك قال به وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب قال الاكثرون هم فى النار تبعا لآبائهم وتوقف طائفة فيهم والثالث وهو الصحيح الذى ذهب اليه المحققون انهم من أهل الجنة ويستدل له باشياء منها حديث ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم حين رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة وحوله أولاد الناس فقالوا يا رسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين رواه البخارى فى صحيحه ومنها قوله سبحانه وتعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول الرسول حتى يبلغ وهذا متفق عليه والله أعلم وفى الآية دليل واضح لصحة مذهب أهل السنة فى ان الله خالق أعمال العباد جميعها خيرها وشرها لان الله سبحانه وتعالى بين بصريح اللفظ انه خلق كثيرا من الجن والانس للنار ولا مزيد على بيان الله عز وجل لان العاقل لا يختار لنفسه دخول النار فلما عمل بما يوجب دخول النار به علم ان له من يضطره الى ذلك العمل الموجب الى دخول النار وهو الله عز وجل وقيل اللام فى لجهنم للعاقبة أى عاقبتهم جهنم ثم وصفهم

(ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة وذكر القرآن المعجز وما فيه وبشروا الناس باقتراب مبعثه (فاقصص القصص) أى قصص بلعم الذى هو نحو قصصهم (لعلهم يتفكرون) فيحذرون مثل عاقبته اذا ساروا نحو سيرته (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى مثلا القوم فحذف المضاف وفاعل ساء مضمر أى ساء المثل مثلا وانتصاب مثلا على التمييز (وأنفسهم كانوا يظلمون) معطوف على كذبوا فيدخل فى حيز الصلة أى الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم أو منقطع عن الصلة أى وما ظلموا الا أنفسهم بالتكذيب وتقديم المفعول به للاختصاص أى خصوا أنفسهم بالظلم لم يتعد الى غيرها (من يهد الله فهو المهتدى) حمل على اللفظ (ومن يضلل) أى ومن يضلله (فأولئك هم الخاسرون) حمل على المعنى ولو كان الهدى من الله البيان كما قالت المعتزلة لاستوى الكافر والمؤمن اذ البيان ثابت فى حق الفريقين فدل انه من الله تعالى التوفيق والعصمة والمعونة ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس) هم الكفار من الفريقين المعرضون عن تدبر آيات الله والله تعالى علم منهم اختيار الكفر فشاء منهم الكفر وخلق فيهم ذلك وجعل مصيرهم جهنم لذلك ولا تنافى بين هذا وبين قوله وما خلقت الجن

فقال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها) يعني لا يفهمون بها ولا يعقلون بها وأصل الفقه في اللغة الفهم والعلم بالشيء ثم صار علماً على اسم العلم في الدين لشرفه على غيره من العلوم يقال فقه الرجل يفقه فهو فقيه إذا ومعنى الآية لهم قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله ولا يتدبرونها ولا يعلمون بها الخير والهدى لاعراضهم عن الحق وتركهم قبوله (ولهم أعين لا يبصرون بها) يعني لا يبصرون بها طريق الحق والهدى ولا ينظرون بها في آيات الله وأدلة توحيده (ولهم آذان لا يسمعون بها) يعني لا يسمعون آيات القرآن ومواعظه فيعتبرون بها قال أهل المعاني ان الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ولهم أعين يبصرون بها المرئيات وآذان يسمعون بها الكلمات وهذا لا يشك فيه ولما وصفهم الله عز وجل بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس المدركة علم بذلك ان المراد بذلك يرجع الى مصالح الدين وما فيه نفعهم في الآخرة وحاصل هذا الكلام انهم مع وجود هذه الحواس لا ينتفعون بها فيما ينفعهم في أمور الدين والعرب تقول مثل ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ومنه قول الشاعر

وعوراء الكلام صممت عنها * وانى ان أشاء بها سميع

فإنما أثبت له صمما مع وجود السمع قال مجاهد لهم قلوب لا يفقهون بها شيئا من أمر الآخرة ولهم أعين لا يبصرون بها الهدى ولهم آذان لا يسمعون بها الحق ۞ ثم ضرب لهم مثلا فقال سبحانه وتعالى (أولئك كالانعام) يعني ان الذين ذرأهم لجهنم وهم الذين حقت عليهم الكلمة الازلية كالانعام وهي البهائم التي لا تفهم ولا تعقل وذلك لان الانسان وسائر الحيوانات مشتركون في هذه الحواس الثلاثة التي هي البصر والسمع وانما فضل الانسان على سائر الحيوانات بالعقل والادراك والفهم المؤدي الى معرفة الحق من الباطل والخير والشر فاذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه فلا فرق بينه وبين الانعام التي لا تدرك شيئا ۞ ثم قال تعالى (بل هم أضل) يعني بل ان الكفار أضل من الانعام لان الانعام تعرف ما ينفعها والكافر لا يعرف ذلك فصار أضل من الانعام ولان الانعام لم تعط القوة العقلية والانسان قد أعطيها فاذا لم يستعمل العقل فيما ينفعه صار أخس حالا من الانعام وقيل ان الانعام مطيعة لله عز وجل والكافر غير مطيع لله عز وجل فصارت الانعام أفضل منه ۞ ثم قال الله تعالى (أولئك هم الغافلون) يعني عن ضرب هذه الامثال لهم ۞ قوله سبحانه وتعالى (ولله الاسماء الحسنى) قال مقاتل ان رجلا دعا الله في صلاته ودعا الرحمن فقال بعض مشركي مكة قال ابن الجوزي هو أبو جهل ان محمدا وأصحابه يزعمون انهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية ولله الاسماء الحسنى والحسنى تأنيث الاحسن ومعنى الآية ان أسماء الله سبحانه وتعالى المقدسة كلها حسنى وليس المراد ان فيها ما ليس بحسن والمعنى ان الاسماء الحسنى ليست الا لله لان هذا اللفظ يفيد الحصر وقيل ان الاسماء ألفاظ دالة على معان فهي انما تحسن بمعانيها معنى الحسن في حق الله تبارك وتعالى الا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال وهي محصورة في نوعين أحدهما عدم افتقاره الى غيره الثاني افتقار غيره اليه وانه هو المسمى بالاسماء الحسنى (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة والله وتر يحب الوتر وفي رواية من أحصاها وفي رواية أخرى لله تسعة وتسعون اسما مائة الا واحدا لا يحفظها أحد الا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر قال البخاري أحصاها حفظها وفي رواية الترمذي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا اله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت

والانس الا ليعبدون لانه انما خلق منهم للعبادة من علم انه يعبده وأما من علم انه يكفر به فانما خلقه لما علم انه يكون منه فالحاصل ان من علم منه في الازل انه يكون منه العبادة خلقه للعبادة ومن علم منه أنه يكون منه الكفر خلقه لذلك وكم من عام يراد به الخصوص وقول المعتزلة بان هذه لام العاقبة أي لما كان عاقبتهم جهنم جعل كانهم خلقوا لها فرارا عن ارادة المعاصي عدول عن الظاهر (لهم قلوب لا يفقهون بها) الحق ولا يتفكرون (ولهم أعين لا يبصرون بها) الرشد (ولهم آذان لا يسمعون بها) الوعظ (أولئك كالانعام) في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتفكر (بل هم أضل) من الانعام لانهم كابروا العقول وعاندوا الرسول وارتكبوا الفضول فالانعام تطلب منافعها وتهرب عن مضارها وهم لا يعلمون مضارهم حيث اختاروا النار وكيف يستوي المكلف المأمور والمخلى المعذور فالآدمي روحاني شهواني سماوي أرضي فان غلب روحه هواه فاق ملائكة السموات وان غلب هواه روحه فاقته بهائم الارض (أولئك هم الغافلون) الكاملون في الغفلة (ولله الاسماء الحسنى) التي هي أحسن الاسماء لانها تدل على

الحسيب

الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيي المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الاول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور قال الترمذى حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه الا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث قال وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الاسماء الى فى هذا الحديث قال ابن الاثير وفى رواية ذكرها رزين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون فقال ان الله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسما الحديث قال الشيخ محيي الدين النووى رحمه الله تعالى اتفق العلماء على ان هذا الحديث ليس فيه حصر لاسمائه سبحانه وتعالى وليس معناه انه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وانما المقصود من الحديث ان هذه التسعة والتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة فالمراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء ولهذا جاء فى الحديث الآخر أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربى المالكى عن بعضهم ان لله ألف اسم قال ابن العربى وهذا قليل وقوله صلى الله عليه وسلم من أحصاها دخل الجنة تقدم فيه قول البخارى ان معناه حفظها وهو قول أكثر المحققين ويعضده الرواية الاخرى من حفظها دخل الجنة وقيل المراد من الاحصاء العد أى عدها فى الدعاء بها وقيل معناه من أطاقها وأحسن المراعاة لها والمحافظة على ما تقتضيه وصدق بمعانيها وعمل بمقتضاها دخل الجنة وقيل معنى أحصاها أحضر باله عند ذكرها معناها وتفكر فى مدلولها معتبرا متدبرا اذا كرا راغبا راهبا معظما لها ولمسمياتها ومقدسا للذات الله سبحانه وتعالى وأن يخطر بباله عند ذكر كل اسم الوصف الدال عليه وقوله وان الله وتر يحب الوتر الوتر الفرد ومعناه فى وصف الله تعالى أنه الواحد الذى لا شريك له ولا نظير وفيه تفضيل الوتر فى الاعمال لان أكثر الطاعات وتر وفيه دليل على أن أشهر أسمائه سبحانه وتعالى الله لاضافة الاسماء اليه فيقال الرؤف والكريم واللطيف من أسماء الله ولا يقال من أسماء الرؤف والكريم واللطيف الله وقد قيل ان لفظة الله هو الاسم الاعظم قال أبو القاسم القشيرى فيه دليل على ان الاسم هو المسمى اذ لو كان غيره لكانت الاسماء لغيره وقد قال ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال الامام فخر الدين الرازى دلت الآية على ان الاسم غير المسمى لانها تدل على ان أسماء الله كثيرة لان لفظ الاسماء لفظ الجمع وهو يفيد الثلاثة فما فوقها فثبت ان أسماء الله كثيرة ولا شك ان الله واحد فلزم القطع بان الاسم غير المسمى وأيضا قوله سبحانه وتعالى ولله الاسماء الحسنى يقتضى اضافة الاسماء الى الله واضافة الشئ الى نفسه محال وقال غيره الاسم عبارة عن اللفظ الدال على الشئ المسمى به فهو غيره وقال أهل الامة انما جعل الاسم تنويها على المعنى لان المعنى تحت الاسم والتسمية غير الاسم لان التسمية عبارة عن وضع اللفظ المعين لتعريف ذات الشئ والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة والفرق ظاهر قال العلماء وكما يجب تنزيه الله عن جميع النقائص فكذلك يجب تنزيه أسمائه أيضا ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (فادعوه بها) يعنى ادعوا الله بأسمائه التى سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله فيه دليل على ان أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية ومما يدل على صحة هذا القول ويؤكده انه يجوز أن يقال يا جواد ولا يجوز أن يقال يا سخى ويجوز أن يقال يا عالم ولا يجوز أن يقال يا عاقل ويجوز أن يقال يا حكيم ولا يجوز أن يقال يا طبيب وللدعاء شرائط منها أن يعرف الداعى معانى الاسماء التى يدعو بها ويستحضر فى قلبه عظمة المدعو

معان حسنة فمنها ما يستحقه بحقائقه كالقديم قبل كل شئ والباقى بعد كل شئ والقادر على كل شئ والعالم بكل شئ والواحد الذى ليس كمثله شئ ومنها ما تستحسنه الانفس لآثارها كالغفور والرحيم والشكور والحليم ومنها ما يوجب التخلق به كالفضل والعفو ومنها ما يوجب مراقبة الاحوال كالسميع والبصير والمقتدر ومنها ما يوجب الاجلال كالعظيم والجبار والمتكبر (فادعوه بها) فسموه بتلك الاسماء

سبحانه وتعالى و يخلص النية في دعائه مع كثرة التعظيم والتبجيل والتقديس فهو يعزم المسئلة مع رجاء الاجابة و يعترف لله سبحانه وتعالى بالربوبية ويسجل على نفسه بالعبودية فاذا فعل العبد ذلك عظم موقع الدعاء وكان له تأثير عظيم (وذروا الذين يلحدون في أسمائه) معنى الالحاد في اللغة الميل عن القصد والعدول عن الاستقامة وقال ابن السكيت الملحد العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه يقال ألحد في الدين ولحد اذا عدل عنه ومال الى غيره قال المحققون الالحاد يقع في أسماء الله تعالى على وجوه أحدها اطلاق أسماء الله عز وجل على غيره وذلك ان المشركين سموا أصنامهم بالآلهة واشتقوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فسموا اللات والعزى ومناة واشتقاق اللات من الاله والعزى من العزيز ومناة من المنان وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد الوجه الثاني وهو قول أهل المعاني ان الالحاد في أسماء الله هو تسميته بما لم يسم به نفسه ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة لان أسماء الله سبحانه وتعالى كلها توقيفية كما تقدم فلا يجوز فيها غير ما ورد في الشرع بل يدعو الله بأسمائه التي وردت في الكتاب والسنة على وجه التعظيم الوجه الثالث مراعاة حسن الادب في الدعاء فلا يجوز أن يقال يا ضار يا مانع يا خالق القردة على الانفراد بل يقال يا ضار يا نافع يا معطي يا مانع يا خالق الخلق الوجه الرابع أن يسمى الله المسلم باسم لا يعرف معناه فانه ربما باسم لا يليق اطلاقه الا على جلال الله سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يسمى بما فيه من القرابة ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (سيجزون ما كانوا يعملون) يعني في الآخرة ففيه وعيد وتهديد لمن ألحد في أسماء الله عز وجل ﴿ قوله عز وجل (وممن خلقنا أمة) يعني جماعة وعصابة (يهدون بالحق و به يعدلون) قال ابن عباس يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم المهاجرون والانصار والتابعون لهم باحسان قال قتادة بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ هذه الآية قال هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون (ق) عن معاوية قال وهو يخطب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك وفي الآية دليل على أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به و يهدي اليه (والذين كذبوا بآياتنا) يريد به جميع المكذبين بآيات الله وهم الكفار وقيل المراد بهم أهل مكة والاول أولى لان صيغة العموم تتناول الكل الا ما دل الدليل على خروجه عنه (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) قال الازهري سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لا يحتسبون وذلك ان الله سبحانه وتعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون اليه ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون وقيل معناه سنقربهم الى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لانهم كانوا اذا أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم من أبواب الخير والنعمة في الدنيا فيزدادون بذلك تماديا في الغي والضلال و يتدرجون في الذنوب والمعاصي فيأخذهم الله أخذة واحدة أغفل ما يكونون عليه وقال الضحاك معناه كلما جددوا معصية جددنا نعمة وقال الكلبي نزين أعمالهم ثم نهلكهم بها وقال سفيان الثوري نسبغ عليهم النعم ثم نسلبهم الشكر وروى أن عمر بن الخطاب لما حمل اليه كنوز كسرى قال اللهم اني أعوذ بك أن أكون مستدرجا فاني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون قال أهل المعاني الاستدراج ان يتدرج الشيء الى الشيء في خفية قليلا قليلا ومنه درج الصبي اذا قارب بين خطاه في المشي ومنه درج الكتاب اذا طواه شيئا بعد شيء (وأملي لهم) يعني وأمهلهم وأطيل مدة أعمارهم والاملاء في اللغة الامهال واطالة المدة والمعنى اني أطيل مدة أعمارهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي ولا أعاجلهم بالعقوبة ولا أفتح لهم باب التوبة (ان كيدي متين) يعني ان أخذي شديد والمتين من كل شيء هو القوي الشديد وقال ابن عباس معناه ان مكري شديد قال المفسرون نزلت هذه الآية في المستهزئين من قريش وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمهلهم ثم قتلهم في ليلة واحدة وفي هذه الآية دليل على مسئلة القضاء والقدر وأن الله

(وذروا الذين يلحدون في أسمائه) واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه نحو أن يقولوا يا سخي يا رفيق لانه لم يسم نفسه بذلك ومن الالحاد تسميته بالجسم والجوهر والعقل والعلة يلحدون حمزة لحد وألحد مال (سيجزون ما كانوا يعملون وممن خلقنا) للجنة لانه في مقابلة ولقد ذرأنا لجهنم (أمة يهدون بالحق و به يعدلون) في أحكامهم قيل هم العلماء والدعاة الى الدين وفيه دلالة على ان اجماع كل عصر حجة (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم) سنستدنيهم قليلا قليلا الى ما يهلكهم (من حيث لا يعلمون) ما يراد بهم وذلك ان يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي فكلما جدد الله عليهم نعمة ازدادوا بطرا وجددوا معصية فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ظانين أن ترادف النعم أثرة من الله تعالى وتقريب وانما هو خذلان منه وتبعيد وهو استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد والاستنزال درجة بعد درجة (وأملي لهم) عطف على سنستدرجهم وهو داخل في حكم السين أي أمهلهم (ان كيدي متين) أخذي شديد سماه كيدا لانه شبيه بالكيد من حيث أنه في الظاهر احسان وفي الحقيقة خذلان ولما نسبوا النبي صلى الله عليه وسلم الى الجنون نزل

(أولم يتفكروا ما بصاحبهم) محمد عليه السلام وما نافية بعد وقف أى أولم يتفكروا فى قولهم ثم بين عنه الجنون بقوله ما بصاحبهم (من جنة) جنون (ان هو الا نذير مبين) منذر من الله موضح انذاره (أولم ينظروا) نظر استدلال (فى ملكوت السموات والارض) الملكوت الملك العظيم (وما خلق الله من شئ) وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشئ من أجناس لا يحصرها العدد (وأن عسى) ان مخففة من الثقيلة وأصله وأنه عسى والضمير ضمير الشأن وهو فى موضع الجر بالعطف على ملكوت والمعنى أولم ينظروا فى ان الشان والحديث عسى (أن يكون قد اقترب أجلهم) ولعلهم يموتون عما قريب فيسارعوا الى النظر وطلب الحق وما ينجيهم قبل مفاجاة الاجل وحلول العقاب (فباى حديث بعده) بعد القرآن (يؤمنون) اذا لم يؤمنوا به وهو متعلق بعسى أن يكون قد اقترب أجلهم كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون الايمان بالقرآن قبل الفوت وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وباى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به (من يضلل الله فلا هادى له) أى يضلله الله (ويذرهم) بالياء عراقى وبالجزم حمزة وعلى عطفا على محل فلا هادى له كأنه قيل من يضلل الله لا يهده أحد ويذرهم والرفع على الاستئناف أى وهو يذرهم الباقون بالنون (فى طغيانهم) كفرهم (يعمهون) يتحيرون ولما سألت اليهود أو قريش عن الساعة متى تكون نزل (يسألونك عن الساعة) وهى من الاسماء الغالبة كالنجم للثريا وسميت القيامة الساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لانها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق (أيان) متى واشتقاقه من أى فعلان منه لان معناه أى وقت (مرساها) ارساؤها مصدر ومثل المدخل بمعنى الادخال أو وقت ارسائها أى اثباتها والمعنى متى يرسيها الله (قل انما علمها عند ربى) أى علم وقت ارسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحدا من ملك مقرب ولا نبى مرسل ليكون ذلك أدعى الى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الاجل الخاص وهو وقت الموت لذلك

سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ۞ قوله سبحانه وتعالى (أولم يتفكروا ما بصاحبهم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (من جنة) يعنى من جنون قال قتادة ذكر لنا ان نبى الله صلى الله عليه وسلم قام على الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذا فخذا يا بنى فلان يا بنى فلان انى لكم نذير مبين وكان يحذرهم بأس الله ووقائعه فقال قائلهم ان صاحبكم هذا المجنون بات يصوت الى الصباح فانزل الله عز وجل أولم يتفكروا والتفكر التأمل واعمال الخاطر فى عاقبة الامر والمعنى أولم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم من جنة والجنة حالة من الجنون وادخال لفظة من فى قوله من جنة يوجب أن لا يكون به نوع من أنواع الجنون وانما نسبوه الى الجنون وهو برئ منه لانهم رأوا انه صلى الله عليه وسلم خالفهم فى الاقوال والافعال لانه كان معرضا عن الدنيا ولذاتها مقبلا على الآخرة ونعيمها مشتغلا بالدعاء الى الله عز وجل وانذارهم بأسه ونقمته ليلا ونهارا من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه الى الجنون فبرأه الله سبحانه وتعالى من الجنون فقال تعالى (ان هو) يعنى ما هو (الا نذير مبين) ثم حثهم على النظر المؤدى الى العلم بالوحدانية فقال سبحانه وتعالى (أولم ينظروا) يعنى نظر اعتبار واستدلال (فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ) والمقصود التنبيه على ان الدلالة على الوحدانية ووجود الصانع القديم غير مقصورة على ملك السموات والارض بل كل شئ خلقه الله سبحانه وتعالى ففيه دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى وآثار قدرته كما قال الشاعر

وفى كل شئ له آية ۞ تدل على انه واحد

(وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) والمعنى ولعل أجلهم يكون قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل ان يؤمنوا فيصيروا الى النار واذا كان الامر كذلك وجب على العاقل المبادرة الى التفكر والاعتبار والنظر المؤدى الى الفوز بالنعيم المقيم (فبأى حديث بعده) يعنى بعد القرآن (يؤمنون) يعنى يصدقون والمعنى فبأى كتاب بعد الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يصدقون وليس بعد محمد نبى ولا بعد كتابه كتاب لانه خاتم الانبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ۞ ثم ذكر علة اعراضهم عن الايمان فقال سبحانه وتعالى (من يضلل الله فلا هادى له) يعنى ان اعراض هؤلاء عن الايمان لاضلال الله اياهم فلو هداهم لآمنوا (ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) يعنى ويتركهم فى ضلالتهم وتماديهم فى الكفر يترددون متحيرين لا يهتدون سبيلا ۞ قوله عز وجل (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) قال قتادة قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان بيننا وبينك قرابة فأسر الينا متى الساعة فانزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن عباس قال جبل بن أبى قشير وشمول بن زيد وهما من اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد أخبرنا متى الساعة ان كنت نبيا كما تقول فانا نعلم متى الساعة فانزل الله عز وجل يسألونك عن الساعة يعنى عن خبر القيامة سميت ساعة لانها تقوم فى ساعة غفلة بغتة أو لان حساب الخلائق ينقضى فيها فى ساعة واحدة أيان سؤال استفهام عن الوقت الذى تقوم فيه الساعة ومعناه متى مرساها قال ابن عباس يعنى منتهاها أى متى وقوعها قال والساعة الوقت الذى تموت فيه الخلائق وأصل الارساء الثبات يقال رسا يرسو اذا ثبت (قل) أى قل لهم يا محمد (انما علمها عند ربى) أى لا يعلم الوقت الذى تقوم فيه الا الله استأثر الله بعلمها

فلم يطلع عليه أحداً ومن حديث الايمان والاسلام والاحسان وسؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤل عنها بأعلم من السائل قال المحققون وسبب اخفاء علم الساعة ووقت قيامها عن العباد ليكونوا على خوف وحذر منها لانهم اذا لم يعلموا متى يكون ذلك الوقت كانوا على وجل وخوف واشفاق منها فيكون ذلك أدعى لهم الى الطاعة والتوبة وأزجر لهم عن المعصية (لا يجليها لوقتها الا هو) قال مجاهد لا يأتي بها الا هو وقال السدي لا يرسلها لوقتها الا هو والتجلية اظهار الشيء بعد خفائه والمعنى لا يظهرها لوقتها المعين الا الله ولا يقدر على ذلك غيره (ثقلت في السموات والارض) يعني ثقل أمرها وخفي على أهل السموات والارض وكل شيء خفي فهو ثقيل شديد وقال الحسن اذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والارض وانما ثقلت عليهم لان فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب (لا تأتيكم الا بغتة) يعني فجأة على حين غفلة من الخلق (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته الى فيه فلا يطعمها اللقحة بفتح اللام وكسرها الناقة القريبة العهد بالنتاج قوله يليط حوضه ويروى يلوط حوضه يعني يصلحه يقال لاط حوضه يليطه أو يلوطه اذا طينه وأصله من اللصوق والأكلة بضم الهمزة اللقمة ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (يسئلونك كأنك حفي عنها) يعني يسألك قومك عن الساعة كأنك حفي بهم يعني بارّ بهم شفيق عليهم فعلى هذا القول فيه تقديم وتأخير تقديره يسئلونك عنها كأنك حفي بهم قال ابن عباس يقول كان بينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم وقال ابن عباس لما سأل الناس محمداً صلى الله عليه وسلم عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون ان محمداً صلى الله عليه وسلم حفي بهم فأوحى الله عز وجل اليه انما علمها عنده استأثر بعلمها فلم يطلع عليها ملكاً ولا رسولاً وقيل معناه يسئلونك عنها كأنك حفي بها أي عالم بها من قولهم أحفيت في المسئلة اذا ألحفت في السؤال عنها حتى علمتها (قل) يعني قل يا محمد (انما علمها عند الله) يعني استأثر الله بعلمها فلا يعلم متى الساعة الا الله عز وجل فان قلت قوله سبحانه وتعالى يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وقوله سبحانه وتعالى ثانياً يسئلونك كأنك حفي عنها فيه تكرار قلت ليس فيه تكرار لان السؤال الاول سؤال عن وقت قيام الساعة والسؤال الثاني سؤال عن أحوالها من ثقلها وشدائدها فلم يلزم التكرار فان قلت عبر عن الجواب في السؤال الاول بقوله تعالى علمها عند ربي وعن الجواب في السؤال الثاني بقوله تعالى علمها عند الله فهل من فرق بين الصورتين في الجوابين قلت فيه فرق لطيف وهو انه لما كان السؤال الاول واقعاً عن وقت قيام الساعة عبر عن الجواب فيه بقوله تعالى علم وقت قيامها عند ربي ولما كان السؤال الثاني واقعاً عن أحوالها وشدائدها وثقلها عبر عن الجواب فيه بقوله سبحانه وتعالى عند الله لانه أعظم الاسماء (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعني لا يعلمون أن علمها عند الله وانه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه وقيل ولكن أكثر الناس لا يعلمون السبب الذي من أجله أخفى علم وقت قيامها المغيب عن الخلق ﴿ قوله سبحانه وتعالى (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً) قال ابن عباس ان أهل مكة قالوا يا محمد الا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل ان يغلو فتشتري به فتربح فيه عند الغلاء وبالارض التي يريد ان تجدب فترحل عنها الى ما قد أخصبت فأنزل الله عز وجل قل لا أملك أي قل يا محمد لا أملك ولا أقدر لنفسي نفعاً أي اجتلاب نفع بان أربح فيما أشتريه ولا ضراً يعني ولا أقدر ان أدفع عن نفسي ضراً نزل بها بان ارتحل الى الارض الخصبة وأترك الجدبة (الا ما شاء الله) يعني ان أملكه وأقدر عليه (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) يعني ولو كنت أعلم وقت الخصب والجدب لاستكثرت من المال (وما مسني السوء)

(لا يجليها لوقتها الا هو) كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمهم شأن الساعة ويتمنى أن يتجلى له علمها ويشق عليه خفاؤها وثقل عليه أو ثقلت فيها لان أهلها يخافون شدائدها وأهوالها (لا تأتيكم الا بغتة) فجأة على غفلة منكم (يسئلونك كأنك حفي عنها) كأنك عالم بها وحقيقته كأنك بليغ في السؤال عنها لان من بالغ في المسئلة عن الشيء والتنقير عنه استحكم علمه فيها وأصل هذا التركيب المبالغة ومنه احفاء الشارب أو عنها متعلق بيسئلونك أي يسئلونك عنها كأنك حفي أي عالم بها (قل انما علمها عند الله) وكرر يسئلونك وانما علمها عند الله للتأكيد ولزيادة كأنك حفي عنها وعلى هذا تكرير العلماء في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة منهم محمد بن الحسن رحمه الله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) انه المختص بالعلم بها (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله) هو اظهار للعبودية وبراءة عما يختص بالربوبية من علم الغيب أي أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كالمماليك الا ما شاء مالكي من النفع لي والدفع عني

(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) أي لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسني شيء منها ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب وقيل الغيب الاجل والخير

يعني الضر والفقر والجوع وقال ابن جريج معناه لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا من الهدى والضلالة ولو كنت أعلم الغيب بدوقت الموت لاستكثرت من الخير يعني من العمل الصالح وقيل ان أهل مكة لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة أنزل الله تعالى الآية الاولى وهذه الآية ومعناه أنا لا أدعي علم الغيب حتى أخبركم عن وقت قيام الساعة وذلك لما طالبوه بالاخبار عن الغيوب فذكر أن قدرته قاصرة عن علم الغيب فان قلت قد أخبر صلى الله عليه وسلم عن المغيبات وقد جاءت أحاديث في الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته صلى الله عليه وسلم فكيف الجمع بينه وبين قوله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير قلت يحتمل أن يكون قاله صلى الله عليه وسلم على سبيل التواضع والادب والمعنى لا أعلم الغيب الا أن يطلعني الله عليه ويقدره لي ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلعه الله عز وجل على الغيب فلما أطلعه الله عز وجل أخبر به كما قال تعالى فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ثم بعد ذلك أظهره الله سبحانه وتعالى على أشياء من المغيبات فأخبر عنها ليكون ذلك معجزة له ودلالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وقوله وما مسني السوء يعني الجنون وذلك أنهم نسبوه الى الجنون وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من تحصيل الخير واحترزت عن الشر حتى أصير بحيث لا يمسني السوء وقيل معناه ولو كنت أعلم الغيب لأعلمتكم بوقت قيام الساعة حتى تؤمنوا وما مسني السوء يعني قولكم لو كنت نبيا لعلمت متى تقوم الساعة (ان أنا الا نذير) يعني ما أنا الا رسول أرسلني الله اليكم أنذركم وأخوفكم عقابه ان لم تؤمنوا (وبشير) يعني وأبشر بثوابه (لقوم يؤمنون) يعني يصدقون

❁ قوله عز وجل (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) يعني آدم عليه السلام (وجعل منها زوجها) يعني وخلق منها زوجها حواء وقد تقدم كيفية خلق حواء من ضلع آدم في أول سورة النساء (ليسكن اليها) يعني ليأنس بها ويأوي (فلما تغشاها) يعني واقعها وجامعها كني به عن الجماع أحسن كناية لان الغشيان اتيان الرجل المرأة وقد غشيها وتغشاها اذا علاها وتجللها (حملت حملا خفيفا) يعني النطفة والمني لان أول ما تحمل النطفة وهي خفيفة عليها (فمرت به) يعني انها استمرت بذلك الحمل فقامت وقعدت وهو خفيف عليها (فلما أثقلت) أي صارت الى حال الثقل وكبر ذلك الحمل ودنت مدة ولادتها (دعوا الله ربهما) يعني ان آدم وحواء دعوا الله ربهما (لئن آتيتنا صالحا) يعني لئن أعطيتنا بشرا سويا مثلنا (لنكونن من الشاكرين) يعني لك على انعامك علينا قال المفسرون لما أهبط آدم وحواء الى الارض ألقيت الشهوة في نفس آدم فأصاب حواء فحملت من ساعتها فلما ثقل الحمل وكبر الولد أتاها ابليس فقال لها ما الذي في بطنك قالت ما أدري قال اني أخاف أن يكون بهيمة أو كلبا أو خنزيرا أترين في الارض الا بهيمة أو نحوها قالت اني أخاف بعض ذلك قال وما يدريك من أين يخرج أمن دبرك أم من فيك أو يشق بطنك فيقتلك فخافت حواء من ذلك وذكرته لآدم فلم يزالا في غم من ذلك ثم عاد اليها ابليس فقال لها اني من الله بمنزلة فان دعوت الله أن يجعله خلقا سويا مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث وكان اسم ابليس في الملائكة الحرث فذكرت ذلك حواء لآدم عليه السلام فقال لعله صاحبنا الذي قد علمت فعاودها ابليس فلم يزل بهما حتى غرهما فلما ولدت سمياه عبد الحرث وقال ابن عباس كانت حواء تلد لآدم فيسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاهما ابليس فقال ان سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث فولدت فسمياه عبد الحرث فعاش عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حملت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحرث فسمته فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث عمر بن ابراهيم عن قتادة وقال قد رواه بعضهم ولم يرفعه وقوله وذلك

العمل والسوء الوجل وقيل لاستكثرت لاعتددت من الخصب للجدب والسوء الفقر وقدم (ان أنا الا نذير وبشير) ان أنا الا عبد أرسلت نذيرا وبشيرا وما من شأني أن أعلم الغيب واللام في (لقوم يؤمنون) يتعلق بالنذير والبشير لان النذارة والبشارة انما ينفعان فيهم أو بالبشير وحده والمتعلق بالنذير محذوف أي الا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) هي نفس آدم عليه السلام (وجعل منها زوجها) حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه (ليسكن اليها) ليطمئن ويميل لان الجنس الى الجنس أميل خصوصا اذا كان بعضا منه كما يسكن الانسان الى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه وذكر ليسكن بعد ما أنث في قوله واحدة وخلق منها زوجها ذهابا الى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم (فلما تغشاها) جامعها (حملت حملا خفيفا) خف عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والاذى ولم تستثقله كما يستثقلنه (فمرت به) فمضت به الى وقت ميلاده من غير اخداج ولا ازلاق أو حملت حملا خفيفا يعني النطفة فمرت به فقامت به وقعدت (فلما أثقلت) حان وقت ثقل حملها (دعوا الله ربهما) دعاء آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ اليه فقالا (لئن آتيتنا صالحا) لئن وهبت لنا ولدا سويا قد صلح بدنه أو ولدا ذكرا لان الذكورة من الصلاح (لنكونن من الشاكرين) لك والضمير في

من وحي الشيطان يعني من وسوسته وخديعته كلما بأنه خدعهما مرتين مرة في الجنة ومرة في الارض قال ابن عباس لما ولدت أول ولد أتاه ابليس فقال اني سأنصح لك في شأن ولدك هذا تسميه عبد الحرث وكان اسمه في السماء الحرث فقال آدم أعوذ بالله من طاعتك اني أطعتك في أكل الشجرة فأخرجتني من الجنة فلن أطيعك فمات ولده ثم ولدت بعد ذلك ولدا آخر فقال أطعني والامات كما مات الاول فعصاه فمات ولده فقال لا أزال أقتلهم حتى تسميه عبد الحرث فلم يزل به حتى سماه عبد الحرث فذلك قوله تعالى (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال ابن عباس أشركاه في طاعته في غير عبادة ولم يشركا بالله ولكن أطاعاه وقال قتادة أشركا في الاسم ولم يشركا في العبادة وقال عكرمة ما أشرك آدم ولا حواء وكان لا يعيش لهما ولد فأتاهما الشيطان فقال ان سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث فهو قوله تعالى جعلا له شركاء فيما آتاهما قرئ شركا بكسر الشين مع التنوين ومعناه شركة قال أبو عبيدة معناه حظا ونصيبا وقرئ شركاء بضم الشين مع المد جمع شريك يعني ابليس عبر عن الواحد بلفظ الجمع يعني جعلا له شريكا اذ سميا ولدهما عبد الحرث قال العلماء ولم يكن ذلك شركا في العبادة ولا أن الحرث رب لهما لان آدم عليه الصلاة والسلام كان نبيا معصوما من الشرك ولكن قصدا بتسميتهما الولد بعبد الحرث ان الحرث كان سبب نجاة الولد وسلامته وسلامة أمه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك كما قال الشاعر

* واني لعبد الضيف ما دام ثاويا * أخبر عن نفسه انه عبد الضيف ما أقام عنده مع بقاء الحرية عليه وانما أراد بالعبودية خدمة الضيف والقيام بواجب حقوقه كما يقوم العبد بواجب حقوق سيده وقد يطلق اسم الرب بغير الالف واللام على غير الله كقول يوسف عليه الصلاة والسلام لعزيز مصر انه ربي أحسن مثواي أراد به التربية ولم يرد به أنه ربه ومعبوده فكذلك هنا وانما أخبر عن آدم عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه وتعالى جعلا له شركاء فيما آتاهما لان حسنات الابرار سيآت المقربين ولان منصب النبوة أشرف المناصب وأعلاها فعاتبه الله على ذلك لانه نظر الى السبب ولم ينظر الى المسبب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه قال العلماء وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله فيما آتاهما ۞ ثم ابتدأ في الخبر عن الكفار بقوله تعالى (فتعالى الله عما يشركون) نزه نفسه سبحانه وتعالى عن اشراك المشركين من أهل مكة وغيرهم وهذا على العموم ولو أراد آدم وحواء لقال سبحانه وتعالى فتعالى الله عما يشركان على التثنية لا على الجمع وقال بعض أهل المعاني ولو أراد به ما سبق في معنى الآية فيستقيم أيضا من حيث انه كان الاولى بهما أن لا يفعلا ما أتيا به من الاشراك في التسمية فكان الاولى أن يسمياه عبد الله لا عبد الحرث وفي معنى الآية قول آخر وهو أنه راجع الى جميع المشركين من ذرية آدم وهو قول الحسن وعكرمة ومعناه وجعل أولادهما له شركاء فحذف ذكر الاولاد وأقامهما مقامهم كما أضاف فعل الآباء الى الابناء بقوله ثم اتخذتم العجل واذ قتلتم نفسا فعيرهم به يعني اليهود الذين كانوا موجودين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك من فعل آبائهم وقال عكرمة خاطب كل واحد من الخلق بقوله هو الذي خلقكم من نفس واحدة أي خلق كل واحد من أبيه وجعل منها زوجها أي وجعل من جنسها زوجها آدمية مثله وهذا قول حسن الا أن القول الاول أصح لانه قول السلف مثل ابن عباس ومجاهد وسعيد بن المسيب وغيرهم من المفسرين وورد الحديث بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وقيل هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوهم ونصروهم وقال ابن كيسان هم الكفار سموا أولادهم بعبد العزى وعبد شمس وعبد الدار ونحو ذلك ۞ وقوله سبحانه وتعالى (أيشركون) قرئ بالتاء على خطاب الكفار وقرئ بالياء على الغيبة (ما لا يخلق شيأ) يعني ابليس والاصنام (وهم يخلقون) أي وهم مخلوقون فان قلت كيف وحد يخلق ثم جمع فقال وهم يخلقون قلت ان لفظة ما تقع على الواحد والاثنين والجمع فهي من صيغ الوحدان بحسب ظاهر اللفظ ومحتملة للجمع بحسب المعنى فوحد قوله

آتيتنا ولنكونن لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما (فلما آتاهما صالحا) أعطاهما ما طلباه من الولد السوى (جعلا له شركاء) أي جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وكذلك (فيما آتاهما) أي آتى أولادهما دليله (فتعالى الله عما يشركون) حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريئان من الشرك ومعنى اشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناف وعبد شمس ونحو ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم أو يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم آل قصي أي هو الذي خلقكم من نفس واحدة قصي وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن اليها فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوى جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الاربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار والضمير في أيشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك شركا مدني وأبو بكر أي ذوي شرك وهم الشركاء (أيشركون ما لا يخلق شيأ) يعني الاصنام (وهم يخلقون) جريت الاصنام مجرى أولى العلم بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم اياها آلهة والمعنى أيشركون ما لا يقدر

مالايخلق رعاية لحكم ظاهر اللفظ وجمع قوله وهم يخلقون رعاية لجانب المعنى فان قلت كيف جمع بالواو
والنون من لايعقل وهو جمع من يعقل من الناس قلت لما اعتقد عابدو الاصنام أنها تعقل وتميز ورد هذا
الجمع بناء على مايعتقدونه ويتصورونه ۞ وقوله تعالى (ولا يستطيعون لهم نصرا) يعنى أن الاصنام لاتقدر
على نصر من أطاعها وعبدها ولا تصر من عصاها والنصر المعونة على الاعداء والمعنى أن المعبود الذى تجب
عبادته يكون قادرا على ايصال النفع ودفع الضر وهذه الاصنام ليست كذلك فكيف يليق بالعاقل أن
يعبدها ۞ ثم قال تعالى (ولا أنفسهم ينصرون) يعنى ولايقدرون على أن يدفعوا عن أنفسهم مكروها فان
من أراد كسرها قدر عليه وهى لاتقدر على دفعه عنها ۞ ثم خاطب المؤمنين فقال سبحانه وتعالى (وان
تدعوهم الى الهدى) يعنى وان تدعوا أيها المؤمنون المشركين الى الهدى (لايتبعوكم) لان الله سبحانه
وتعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلون الهداية (سواء عليكم أدعوتموهم) الى الدين والهداية (أم أنتم
صامتون) أى ساكتون عن دعائهم فهم فى كلا الحالين لايؤمنون وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما بين فى
الآية المتقدمة عجز الاصنام بين فى هذه أنه لاعلم لها بشئ البتة والمعنى أن هذه الاصنام التى يعبدها المشركون
معلوم من حالها أنها لاتضر ولاتنفع ولا تسمع من دعاها الى خير وهدى ثم قوى هذا المعنى بقوله سبحانه
وتعالى سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون وذلك أن المشركين كانوا اذا وقعوا فى شدة وبلاء تضرعوا
لاصنامهم فاذا لم تكن لهم الى الاصنام حاجة سكتوا وصمتوا فقيل لهم لافرق بين دعائكم للاصنام أو
سكوتكم عنها فانها عاجزة فى كل حال ۞ قوله سبحانه وتعالى (ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم)
يعنى ان الاصنام التى يعبدها هؤلاء المشركون انما هى مملوكة لله أمثالهم وقيل انها مسخرة مذللة مثل
ما أنتم مسخرون مذللون قال مقاتل فى قوله سبحانه وتعالى عباد أمثالكم انها الملائكة والخطاب مع قوم
كانوا يعبدون الملائكة والقول الاول أصح وفيه سؤال وهو أنه وصفها بانها عباد مع أنها جماد والجواب أن
المشركين لما ادعوا أن الاصنام تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا كونها عاقلة فاهمة فوردت هذه الالفاظ
على وفق معتقدهم تبكيتا لهم وتوبيخا ولذلك قال عز وجل (فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم
صادقين) فى كونها آلهة وجواب آخر وهو أن هذا اللفظ انما ورد فى معرض الاستهزاء بالمشركين والمعنى
أن قصارى هذه الاصنام التى تعبدونها أحياء عاقلة على معتقدكم فهم عباد الله أمثالكم ولا فضل لهم عليكم
فلم عبدتموهم وجعلتموهم آلهة وجعلتم أنفسكم لهم عبيدا ۞ ثم وصفهم بالعجز فقال تعالى (ألهم أرجل
يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) يعنى ان قدرة
الانسان المخلوق انما تكون بهذه الجوارح الاربعة فانها آلات يستعين بها الانسان فى جميع أموره
والاصنام ليس لها شئ من هذه الاعضاء والجوارح فهم مفضلون عليها بهذه الاعضاء لان الرجل الماشية
أفضل من الرجل العاجزة عن المشى وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين
الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الادراك والاذن السامعة أفضل من الاذن العاجزة عن السمع فظهر
بهذا البيان أن الانسان أفضل من هذه الاصنام العاجزة بكثير بل لافضل لها البتة لانها حجارة وجماد
لاتضر ولاتنفع واذا كان الامر كذلك فكيف يليق بالانسان العاقل الافضل أن يشتغل بعبادة الاخس
الادون الارذل الذى لافضل له البتة ولايضر ولاينفع فامتنع بهذه الحجة كون الاصنام آلهة ۞ ثم قال
تعالى (قل ادعوا شركاءكم) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا شركاءكم هذه الاصنام التى تعبدونها
حتى يتبين عجزها (ثم كيدون) يعنى أنتم وشركاؤكم وهذا متصل بما قبله فى استكمال الحجة عليهم لانهم لما
قرعوا بعبادة من لايملك ضرا ولا نفعا قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم قل ان معبودى يملك الضر والنفع فلو

على خلق شئ وهم يخلقون لان الله خالقهم أو الضمير فى وهم يخلقون للعابدين أى أيشركون مالايخلق شيأ
وهم مخلوقوا الله فليعبدوا خالقهم أو العابدين والمعبودين وجمعهم كأولى العلم تغليبا للعابدين (ولا يستطيعون لهم) لعبدتهم (نصرا ولا أنفسهم ينصرون) فيدفعون عنها مايعتريها من الحوادث كالكسر وغيره بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم (وان تدعوهم) وان تدعوا هذه الاصنام (الى الهدى) الى ماهو هدى ورشاد والى أن يهدوكم أى وان تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى (لايتبعوكم) الى مرادكم وطلبتكم ولايجيبوكم كما يجيبكم الله لايتبعوكم نافع (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) عن دعائهم فى أنه لافلاح معهم ولايجيبونكم والعدول عن الجملة الفعلية الى الاسمية لرؤس الآى (ان الذين تدعون من دون الله) أى تعبدونهم وتسمونهم آلهة (عباد أمثالكم) أى مخلوقون مملوكون أمثالكم (فادعوهم) لجلب نفع أو دفع ضر (فليستجيبوا لكم) فليجيبوا (ان كنتم صادقين) فى انهم آلهة ثم أبطل أن يكونوا عبادا
أمثالهم فقال (ألهم أرجل يمشون بها) مشيكم (أم لهم أيد يبطشون بها) يتناولون بها (أم لهم
أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) أى فلم تعبدون ماهو دونكم (قل ادعوا شركاءكم) واستعينوا بهم فى عداوتى (ثم كيدون)

اجتهدتم في كيدي لم تصلوا الى ضري لان الله يدفع عني وقال الحسن كانوا يخوفونه بآلهتهم فقال الله تعالى قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون (فلا تنظرون) أي لا تمهلون واعجلوا في كيدي أنتم وشركاؤكم (ان وليي الله) يعني ان الذي يتولى حفظي ونصري عليكم هو الله (الذي نزل الكتاب) يعني القرآن والمعنى كما أيدني بانزال القرآن علي كذلك يتولى حفظي ونصري (وهو يتولى الصالحين) يعني يتولاهم بنصره وحفظه فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم قال ابن عباس يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيأ ولا يعصونه وفي هذا مدح للصالحين لان من تولاه الله بحفظه فلا يضره شيء ۞ قوله عز وجل (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) هذه الآية قد تقدم تفسيرها والفائدة في تكريرها أن الآية الاولى مذكورة على جهة التقريع والتوبيخ وهذه الآية مذكورة على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وهو الله الذي يتولى الصالحين بنصره وحفظه وبين هذه الاصنام وهي ليست كذلك فلا تكون معبودة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) قال الحسن المراد بهم المشركون ومعناه وان تدعوا أيها المؤمنون المشركين الى الهدى لا يسمعوا دعاءكم لان آذانهم قد صمت عن سماع الحق وتراهم ينظرون اليك يا محمد وهم لا يبصرون يعني ببصائر قلوبهم وذهب أكثر المفسرين الى أن هذه الآية أيضا واردة في صفات الاصنام لانها جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر ۞ قوله تعالى (خذ العفو) العفو هنا الفضل وما جاء بلا كلفة والمعنى اقبل الميسور من أخلاق الناس ولا تستقص عليهم فيستقصوا عليك فتتولد منه العداوة والبغضاء وقال مجاهد يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس وذلك مثل قبول الاعتذار منهم وترك البحث عن الاشياء والعفو التساهل في كل شيء (خ) عن عبد الله بن الزبير قال ما نزلت خذ العفو وأمر بالعرف الا في أخلاق الناس وفي رواية قال أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أقوال الناس كذا في جامع الاصول وفي الجمع بين الصحيحين للحميدي قال أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أقوال الناس أو كما قال وقال ابن عباس يعني خذ ما عفا لك من أموالهم فما أتوك به من شيء فخذه وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت اليه وقال السدي خذ العفو أي الفضل من المال نسختها آية الزكاة وقال الضحاك خذ ما عفا من أموالهم وهذا قبل أن تفرض الصدقة المفروضة (وأمر بالعرف) يعني وأمر بكل ما أمرك الله به وهو كل ما عرفته بالوحي من الله عز وجل وكل ما يعرفه الشارع وقال عطاء وأمر بقول لا اله الا الله (وأعرض عن الجاهلين) أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن الجاهلين وهذا قبل أن يؤمر بقتال الكفار فلما أمر بقتالهم صار الامر بالاعراض عنهم منسوخا بآية القتال قال بعضهم أول هذه الآية وآخرها منسوخ ووسطها محكم يريد بنسخ أولها أخذ الفضل من الاموال فنسخ بفرض الزكاة والامر بالمعروف محكم والاعراض عن الجاهلين منسوخ بآية القتال روي انه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل ما هذا قال لا أدري حتى أسأل ثم رجع فقال ان ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ذكره البغوي بغير سند وقال جعفر الصادق أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الاخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق من هذه عن عائشة قالت لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح أخرجه الترمذي وروى البغوي بسنده عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثني لتمام مكارم الاخلاق وتمام محاسن الافعال ۞ قوله عز وجل (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) قال ابن زيد لما نزل قوله سبحانه وتعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين قال النبي صلى

جميعاً أنتم وشركاؤكم وبالياء يعقوب واقفهما أبو عمرو في الوصل (فلا تنظرون) فاني لا أبالي بكم وكانوا قد خوفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك وبالياء يعقوب (ان وليي) ناصري عليكم (الله الذي نزل الكتاب) أوحى الي وأعزني برسالته (وهو يتولى الصالحين) ومن سنته أن ينصر الصالحين من عباده ولا يخذلهم (والذين تدعون من دونه) من دون الله (لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك) يشبهون الناظرين اليك لانهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته الى الشيء ينظر اليه (وهم لا يبصرون) المرئي (خذ العفو) هو ضد الجهد أي ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا كقوله عليه السلام يسروا ولا تعسروا (وأمر بالعرف) بالمعروف والجميل من الافعال أو هو كل خصلة يرتضيها العقل ويقبلها الشرع (وأعرض عن الجاهلين) ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عليهم وفسرها جبريل عليه السلام بقوله صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك وعن الصادق أمر الله نبيه عليه السلام بمكارم الاخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق منها (واما ينزغنك من الشيطان نزغ)

الله عليه وسلم فكيف بالغضب يارب فأنزل الله عز وجل وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ونزغ الشيطان عبارة عن وساوسه ونخسه فى القلب وقيل النزغ الازعاج وأكثر ما يكون عند الغضب وأصله الازعاج بالحركة الى الشر والافساد يقال نزغت بين القوم اذا أفسدت بينهم وقال الزجاج النزغ أدنى حركة تكون ومن الشيطان أدنى وسوسة والمعنى واما يصيبنك يا محمد ويعرض لك من الشيطان وسوسة أو نخسة (فاستعذ بالله) يعنى فاستجر بالله والجأ اليه فى دفعه عنك (انه سميع) يعنى لدعائك (عليم) بحالك وقيل ان الشيطان يجد مجالا فى حمل الانسان على ما لا ينبغى فى حالة الغضب والغيظ فأمر الله بالالتجاء اليه والتعوذ به فى تلك الحالة فهى تجرى مجرى العلاج لذلك المرض

﴿فصل واحتج الطاعنون فى عصمة الانبياء بهذه الآية﴾ فقالوا لو كان النبى معصوما لم يكن للشيطان عليه سبيل حتى ينزغ فى قلبه ويحتاج الى الاستعاذة والجواب عنه من وجوه الاول ان معنى الكلام ان حصل فى قلبك نزغ من الشيطان فاستعذ بالله وانه لم يحصل ذلك له البتة فهو كقوله لئن أشركت وهو برئ من الشرك البتة والوجه الثانى على تقدير انه لو حصل وسوسة من الشيطان لكن الله عز وجل عصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن قبولها وتبوتها فى قلبه (م) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا واياك يا رسول الله قال واياى الا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بخير قال الشيخ محيى الدين النووى ويروى فأسلم بفتح الميم وضمها فمن رفع قال معناه فأسلم أنا من شره وفتنته ومن فتح قال معناه ان القرين أسلم من الاسلام يعنى صار مؤمنا لا يأمرنى الا بخير قال الخطابى الصحيح المختار الرفع ورجح القاضى عياض الفتح قال الشيخ وهو المختار لقوله فلا يأمرنى الا بخير قال القاضى عياض واعلم ان الامة مجمعة على عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من الشيطان فى جسمه وخاطره ولسانه وفى هذا الحديث اشارة الى التحذير من فتنة القرين ووسوسته واغوائه أعلمنا انه معنا لنحترز عنه بحسب الامكان والله أعلم الوجه الثالث يحتمل أن يكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره ومعناه واما ينزغنك أيها الانسان من الشيطان نزغ فاستعذ بالله فهو كقوله فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله

﴿ قوله سبحانه وتعالى (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف) وقرئ طيف (من الشيطان) وهما لغتان ومعناه الشئ يلم بالانسان وقيل بينهما فرق فالطائف ما يطوف حول الانسان والطيف الوسوسة وقيل الطائف ما طاف به من وسوسة الشيطان والطيف اللمم والمس وقال الازهرى الطيف فى كلام العرب الجنون وقيل للغضب طيف لان الغضبان يشبه المجنون وقيل سمى الجنون والغضب والوسوسة طيفا لانه لمة من الشيطان تشبه لمة الخيال فذكر فى الآية الاولى النزغ وهو أخف من الطيف المذكور فى هذه الآية لان حالة الشيطان مع الانبياء أضعف من حاله مع غيرهم (تذكروا) يعنى عرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان وكيده قال سعيد بن جبير هو الرجل يغضب الغضب فيذكر الله فيكظم غيظه وقال مجاهد هو الرجل يلم بالذنب فيذكر الله فيقوم ويدعه (فاذا هم مبصرون) يعنى انهم يبصرون مواقع الخطأ بالتذكر والتفكر وقال السدى اذا زلوا تابوا وقال مقاتل هو الرجل اذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف انه معصية فأبصر ونزع عن مخالفة الله عز وجل (واخوانهم) يعنى واخوان الشياطين من المشركين (يمدونهم) أى يمدهم الشياطين (فى الغى) قال الكلبى لكل كافر أخ من الشياطين يمدونهم أى يطيلون لهم فى الاغواء حتى يستمروا عليه وقيل يزيدونهم فى الضلالة (ثم لا يقصرون) يعنى لا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لان المؤمن اذا أصابه طيف من الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر مستقر فى ضلالته لا يتذكر ولا يرعوى وقال ابن عباس الانس لا يقصرون عما يعملون من السيئات ولا الشياطين يمسكون عنه فعلى هذا القول يحمل قوله لا يقصرون عن فعل الانس والشياطين جميعا

واما ينزغنك منه نخس أى بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به (فاستعذ بالله) ولا تطعه والنزغ النخس كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصى وجعل النزغ نازغا كما قيل جد جده أو أريد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب كقول أبى بكر رضى الله عنه ان لى شيطانا يعترينى (انه سميع) لنزغه (عليم) بدفعه (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان) طيف مكى وبصرى وعلى أى لمة مصدر من قولهم طاف به الخيال يطيف طيفا وعن أبى عمرو هما واحد وهى الوسوسة وهذا تأكيد لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان وان عادة المتقين اذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان والمام بوسوسته (تذكروا) ما أمر الله به ونهى عنه (فاذا هم مبصرون) فأبصروا السداد ودفعوا وسوسته وحقيقته أن يفروا منه الى الله فيزدادوا بصيرة من الله بالله (واخوانهم) وأما اخوان الشياطين من شياطين الانس فان الشياطين (يمدونهم فى الغى) أى يكونون مددا لهم فيه ويعضدونهم ويمدونهم من الامداد مدنى (ثم لا يقصرون) ثم لا يمسكون عن اغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا وجاز أن يراد بالاخوان الشياطين ويرجع الضمير المتعلق به الى الجاهلين والاول أوجه لان اخوانهم فى مقابلة الذين اتقوا

﴿ قوله عز وجل (واذا لم تأتهم بآية) يعني واذا لم تأت المشركين يا محمد بآية ومعجزة باهرة (قالوا) يعني قال المشركون (لولا اجتبيتها) يعني افتعلتها وأنشأتها من قبل نفسك واختيارك تقول العرب اجتبيت الكلام اذا اختلقته وافتعلته وقال الكلبي كان أهل مكة يسألون النبي صلى الله عليه وسلم الآيات تعنتا فاذا تأخرت اتهموه وقالوا لولا اجتبيتها يعني هلا أحدثتها وأنشأتها من عندك (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات (انما أتبع ما يوحى الي من ربي) يعني القرآن الذي أنزل علي وليس لي أن أقترح الآيات والمعجزات (هذا بصائر من ربكم) يعني هذا القرآن حجج وبرهان وأصل البصائر من الابصار وهو ظهور الشيء حتى يبصره الانسان ولما كان القرآن سببا لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب (وهدى) يعني وهو هدى (ورحمة) يعني وهو رحمة من الله (لقوم يؤمنون) وهنا لطيفة وهي الفرق بين هذه المراتب الثلاث وذلك أن الناس متفاوتون في درجات العلوم فمنهم من بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم أصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ درجة الاستدلال والنظر وهم أصحاب علم اليقين ومنهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين وهم أصحاب حق اليقين فالقرآن في حق الاولين وهم السابقون بصائر وفي حق القسم الثاني وهم المستدلون هدى وفي حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة ﴿ قوله تعالى (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى عظم شأن القرآن بقوله هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون أتبعه بما يجب من تعظيم شأنه عند قراءته فقال سبحانه وتعالى واذا قرئ عليكم أيها المؤمنون القرآن فاستمعوا له يعني أصغوا اليه بأسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه وأنصتوا يعني عند قراءته والانصات السكوت للاستماع يقال نصت وأنصت وانتصت بمعنى واحد واختلف العلماء في الحال التي أمر الله عز وجل بالاستماع لقارئ القرآن والانصات له اذا قرأ لان قوله فاستمعوا له وأنصتوا أمر وظاهر الامر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء في ذلك أقوال القول الاول وهو قول الحسن وأهل الظاهر أن تجري هذه الآيات على العموم ففي أي وقت وأي موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت والقول الثاني انها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة روي عن أبي هريرة انهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن وقال عبد الله كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة سلام على فلان وسلام على فلان قال فجاء القرآن واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا القول الثالث انها نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الامام روي عن أبي هريرة قال نزلت هذه الآية في رفع الاصوات وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن مسعود أنه سمع ناسا يقرؤون مع الامام فلما انصرف قال أما آن لكم أن تفقهوا واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله وقال الكلبي كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار القول الرابع انها نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء قال مجاهد الانصات للامام يوم الجمعة وقال عطاء وجب الصمت في اثنتين عند الرجل يقرأ القرآن وعند الامام وهو يخطب وهذا القول قد اختاره جماعة وفيه بعد لان الآية مكية والخطبة انما وجبت بالمدينة واتفقوا على أنه يجب الانصات حال الخطبة بدليل السنة وهو ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قلت لصاحبك أنصت والامام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت أخرجاه في الصحيحين واختلف العلماء في القراءة خلف الامام فذهب جماعة الى ايجابها سواء جهر الامام بالقراءة أو أسر روي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ وهو قول الاوزاعي واليه ذهب الشافعي وذهب قوم الى أنه يقرأ فيما أسر الامام فيه القراءة ولا يقرأ فيما جهر الامام فيه يروى ذلك عن ابن عمر وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد واسحق وذهب قوم الى أنه

وانما جمع الضمير في اخوانهم والشياطين مفرد لان المراد به الجنس (واذا لم تأتهم بآية) مقترحة (قالوا لولا اجتبيتها) هلا اخترعتها أي اختلقتها كما اختلقت ما قبلها (قل انما أتبع ما يوحى الي من ربي) ولست بمقترح لها (هذا بصائر من ربكم) هذا القرآن دلائل تبصركم وجوه الحق (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) به (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا

لا يقرأ سواء أسر الامام أو جهر يروى ذلك عن جابر واليه ذهب أصحاب الرأي حجة من لا يرى القراءة خلف الامام ظاهر هذه الآية وحجة من قال يقرأ في السرية دون الجهرية قال ان الآية تدل على الامر بالاستماع لقراءة القرآن ودلت السنة على وجوب القراءة خلف الامام فحملنا مدلول الآية على صلاة الجهرية وحملنا مدلول السنة على صلاة السرية جمعا بين دلائل الكتاب والسنة وحجة من أوجب القراءة خلف الامام في صلاة السرية والجهرية قال الآية واردة في غير الفاتحة لان دلائل السنة قد دلت على وجوب قراءة الفاتحة خلف الامام ولم يفرق بين السرية والجهرية فقالوا اذا قرأ الفاتحة خلف الامام تتبع سكتاته ولا ينازعه في القراءة ولا يجهر بالقراءة خلفه ويدل عليه ما روى عن عبادة بن الصامت قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال أراكم تقرؤن وراء امامكم قال قلنا يا رسول الله أي والله قال لا تفعلوا الا بأم القرآن فانه لا صلاة لمن لم يقرأ بها أخرجه الترمذي بطوله وأخرجاه في الصحيحين أقصر منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج يقولها ثلاثا غير تمام فقيل لابي هريرة انا نكون وراء الامام قال اقرأ بها في نفسك وذكر الحديث ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (لعلكم ترحمون) يعني لكي يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمركم به من أوامره ونواهيه ﴿ قوله عز وجل (واذكر ربك في نفسك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لانه عام لسائر المكلفين قال ابن عباس يعني بالذكر القرآن في الصلاة يريد اقرأ سرا في نفسك والعائدة فيه ان انتفاع الانسان بالذكر انما يكمل اذا وقع الذكر بهذه الصفة لان ذكر النفس أقرب الى الاخلاص والبعد عن الرياء وقيل المراد بالذكر في النفس ان يستحضر في قلبه عظمة المذكور جل جلاله واذا كان الذكر باللسان عاريا عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لان فائدة الذكر حضور القلب واستشعار عظمة المذكور عز وجل (تضرعا) يقال ضرع الرجل يضرع ضراعة اذا خضع وذل واستكان لغيره (وخيفة ودون الجهر من القول) يعني وخوفا والمعنى تضرع اليه وخف عذابي وقال مجاهد وابن جريج أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت في الدعاء وههنا لطيفة وهي ان قوله سبحانه وتعالى واذكر ربك في نفسك فيه اشعار بقرب العبد من الله عز وجل وهو مقام الرجاء لان لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والاحسان فاذا تذكر العبد انعام الله عليه واحسانه اليه فعند ذلك يقوى مقام الرجاء ثم اتبعه بقوله تضرعا وخيفة وهذا مقام الخوف فاذا حصل في قلب العبد داعية الخوف والرجاء قوي ايمانه والمستحب أن يكون الخوف أغلب على العبد في حال صحته وقوته فاذا قارب الموت ودنا آخر أجله فيستحب أن يغلب رجاءه على خوفه عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت فقال كيف تجدك قال أرجو الله يا رسول الله واني أخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا أعطاه الله ما يرجوه وآمنه مما يخاف أخرجه الترمذي ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (بالغدو) جمع غدوة (والآصال) جمع أصل وهي ما بين صلاة العصر الى المغرب والمعنى اذكر ربك بالبكر والعشيات وانما خص هذين الوقتين بالذكر لان الانسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو أخو الموت فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله عز وجل وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فان الانسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب له أن يستقبله بالذكر لانها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله عز وجل وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى (ولا تكن من الغافلين) يعني عما يقربك الى الله عز وجل وقيل ان أعمال العبد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر الى المغرب فاستحب له الذكر في هذين الوقتين

لعلكم ترحمون) ظاهره وجوب الاستماع والانصات وقت قراءة القرآن في الصلاة وغيرها وقيل معناه اذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وجمهور الصحابة رضي الله عنهم على انه في استماع المؤتم وقيل في استماع الخطبة وقيل فيهما وهو الاصح (واذكر ربك في نفسك) هو عام في الاذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك (تضرعا وخيفة) متضرعا وخائفا (ودون الجهر من القول) ومتكلما كلاما دون الجهر لان الاخفاء أدخل في الاخلاص وأقرب الى حسن التفكر (بالغدو والآصال) لفضل هذين الوقتين وقيل المراد ادامة الذكر باستقامة الفكر ومعنى بالغدو بأوقات الغدو وهي الغدوات والآصال جمع أصل والاصل جمع أصيل وهو العشي (ولا تكن من الغافلين) من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه

ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه بالذكر وقيل لما كانت الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة استحب للعبد ان يذكر الله في هذين الوقتين ليكون في جميع أوقاته مشتغلا بما يقربه الى الله عز وجل من صلاة أو ذكر ﴿ قوله عز وجل (ان الذين عند ربك) يعني الملائكة المقربين لما أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالذكر في حالة التضرع والخوف أخبر ان الملائكة الذين عنده مع علو منزلتهم وشرفهم وعصمتهم (لا يستكبرون عن عبادته) وطاعته لانهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه عز وجل (ويسبحونه) يعني وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان ربنا (وله يسجدون) لا لغيره فان قلت التسبيح والسجود داخلان في قوله تعالى لا يستكبرون عن عبادته لانهما من جملة العبادة فكيف أفردهما بالذكر قلت أخبر الله عز وجل عن حال الملائكة انهم خاضعون لعظمته لا يستكبرون عن عبادته ثم أخبر عن صفة عبادتهم انهم يسبحونه وله يسجدون ولما كانت الاعمال تنقسم الى قسمين أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأعمال القلوب هي تنزيه الله عن كل سوء وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله ويسبحونه وعبر عن أعمال الجوارح بقوله وله يسجدون وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيستحب للقارئ والمستمع أن يسجد عند قوله وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين في عباداتهم (ق) عن عبد الله بن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته في غير وقت صلاة (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول ياويلتا أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار (م) عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عليك بكثرة السجود لله فانك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة الانفال﴾

مدنية كلها الا سبع آيات منها نزلت بمكة وهي من قوله سبحانه وتعالى واذ يمكر بك الذين كفروا الى آخر سبع آيات والاصح انها نزلت بالمدينة وان كانت الواقعة بمكة وهي خمس وسبعون آية وألف وخمس وسبعون كلمة وخمسة آلاف وثمانون حرفا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿ قوله سبحانه وتعالى (يسألونك عن الانفال) (ق) عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس عن سورة الانفال قال نزلت في بدر واختلف أهل التفسير في سبب نزولها فقال ابن عباس لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ومن أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا ومن قتل قتيلا فله كذا فتسارع الشبان وبقيت الشيوخ تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاؤا يطلبون ما جعل لهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم الاشياخ لا تذهبوا به دوننا ولا تستأثروا به علينا فانا كنا ردأ لكم ولو انكشفتم انكشفتم الينا فتنازعوا فأنزل الله عز وجل يسألونك عن الانفال الآية قال أهل التفسير قام أبو اليسر بن عمرو الانصاري أخو بني سلمة فقال يارسول الله انك وعدت ان من قتل قتيلا فله كذا وكذا وانا قتلنا سبعين وأسرنا سبعين وقام سعد بن معاذ فقال والله ما منعنا ان نطلب ما طلب هؤلاء زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو ولكن كرهنا ان نعرى مصافك فتعطف عليك خيل من المشركين فيصيبونك فأعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد يارسول الله ان الناس كثير والغنيمة دون ذلك فان تعط هؤلاء الذين ذكرت لا يبقى لاصحابك كبير شئ فنزلت هذه الآية يسألونك عن الانفال وقال محمد بن اسحق أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما في العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه هو لنا وكان رسول الله

(ان الذين عند ربك) مكانة ومنزلة لا مكانا ومنزلا يعني الملائكة (لا يستكبرون عن عبادته) لا يتعظمون عنها (ويسبحونه) وينزهونه عما لا يليق به (وله يسجدون) ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره والله أعلم

﴿سورة الانفال مدنية وهي خمس أوست أوسبع وسبعون آية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يسألونك عن الانفال

صلى الله عليه وسلم نفل كل امرئ ما أصاب وقال الذين كانوا يقاتلون العدو لولا نحن ما أصبتموه وقال الذين يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كنا نقدر أن نقاتل العدو ولكنا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم غرة العدو فقمنا دونه فما أنتم باحق منا فنزلت هذه الآية وروى مكحول عن أبي امامة الباهلي قال سألت عبادة بن الصامت عن الانفال فقال فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا عن بواء يقول على سواء وكان فيه تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واصلاح ذات البين وعن سعد بن أبي وقاص قال لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يا رسول الله ان الله قد شفى صدري من المشركين أو نحو هذا هب لي هذا السيف فقال هذا ليس لي ولا لك فقلت عسى أن يعطى هذا من لا يبلي بلائي فجاءني الرسول فقال انك سألتني وليس لي وانه قد صار لي وهو لك فنزلت يسألونك عن الانفال الآية أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح وأخرجه مسلم في جملة حديث طويل يتضمن فضائل سعد ولفظ مسلم فيه قال أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة واذا فيها سيف فأخذته فأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نفلني هذا السيف فانا من قد علمت حاله فقال رده من حيث أخذته فانطلقت به حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت اليه فقلت أعطنيه قال فشد لي صوته رده من حيث أخذته فأنزل الله عز وجل يسألونك عن الانفال وقال ابن عباس كانت المغانم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لاحد فيها شئ وما أصاب سرايا المسلمين من شئ أتوه به فمن حبس منه ابرة أو سلكا فهو غلول وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى يسألونك عن الانفال استفتاء يعني يسألك أصحابك يا محمد عن حكم الانفال وعلمها اذ هو سؤال استفتاء لا سؤال طلب وقال الضحاك وعكرمة هو سؤال الطلب وقوله عن الانفال أي من الانفال وعن بمعنى من وقيل عن صلة أي يسألونك الانفال والانفال هي الغنائم في قول ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأصله الزيادة وسميت الغنائم أنفالا لانها زيادة من الله عز وجل لهذه الامة على الخصوص وأكثر المفسرين على انها نزلت في غنائم بدر وقال عطاء هي ماشذ عن المشركين الى المسلمين بغير قتال من عبد أو امة أو متاع فهو للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاء (قل الانفال لله والرسول) أي قل لهم يا محمد ان الانفال حكمها لله ورسوله يقسمانها كيف شاآ واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال مجاهد وعكرمة والسدي هذه الآية منسوخة فنسخها الله سبحانه وتعالى بالخمس في قوله واعلموا أن ما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول الآية وقيل كانت الغنائم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها كيف شاء ولمن شاء ثم نسخها الله بالخمس وقال بعضهم هذه الآية ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه وذلك ان الغنائم كانت حراما على الامم الذين من قبلنا في شرائع أنبيائهم فاباحها الله لهذه الامة بهذه الآية وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت بآية الخمس وقال عبد الرحمن بن زيد انها محكمة وهي احدى الروايات عن ابن عباس ومعنى الآية على هذا القول قل الانفال لله والرسول يضعها حيث أمره الله وقد بين الله مصارفها في قوله واعلموا أن ما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول الآية وصح من حديث ابن عمر قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فغنمنا ابلا فاصاب كل واحد منا اثني عشر بعيرا ونفلنا بعيرا بعيرا أخرجاه في الصحيحين فعلى هذا تكون الآية محكمة وللامام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس (فاتقوا الله) يعني اتقوا الله بطاعته واتقوا مخالفته واتركوا المنازعة والمخاصمة في الغنائم (وأصلحوا ذات بينكم) أي اصلحوا الحال فيما بينكم بترك المنازعة والمخالفة وبتسليم أمر الغنائم الى الله ورسوله (وأطيعوا الله ورسوله) فيما يأمركم به وينهاكم عنه (ان كنتم مؤمنين) يعني ان كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده قوله سبحانه وتعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) لما أمر الله سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله في الآية المتقدمة ثم قال بعد ذلك ان كنتم

ولقد وقع اختلاف بين المسلمين في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا رسول الله كيف تقسم ولمن الحكم في قسمتها للمهاجرين أم للانصار أم لهم جميعا فقيل له قل لهم هي لرسول الله وهو الحاكم فيها خاصة يحكم فيها ما يشاء ليس لاحد غيره فيها حكم ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول أن حكمها مختص بالله ورسوله يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ويمتثل الرسول أمر الله فيها وليس الامر في قسمتها مفوضا الى رأي أحد (فاتقوا الله) في الاختلاف والتخاصم وكونوا متآخين في الله (وأصلحوا ذات بينكم) أحوال بينكم يعني ما بينكم من الاحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق وقال الزجاج معنى ذات بينكم حقيقة وصلكم والبين الوصل أي فاتقوا الله وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله به قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء (وأطيعوا الله ورسوله) فيما أمرتم به في الغنائم وغيرها (ان كنتم مؤمنين) كاملي الايمان (انما المؤمنون) انما الكاملون الايمان (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فزعت لذكره

مؤمنين لان الايمان يستلزم الطاعة ثم بين في هذه الآية صفات المؤمنين وأحوالهم فقال سبحانه وتعالى انما المؤمنون ولفظة انما تفيد الحصر والمعنى ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله انما المؤمنون الصادقون في ايمانهم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم أي خضعت وخافت ورقت قلوبهم وقيل اذا خوفوا بالله انقادوا خوفا من عقابه وقال أهل الحقائق الخوف على قسمين خوف عقاب وهو خوف العصاة وخوف الهيبة والعظمة وهو خوف الخواص لانهم يعلمون عظمة الله عز وجل فيخافونه أشد خوف وأما العصاة فيخافون عقابه فالمؤمن اذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته في ذكر الله فان قلت انه سبحانه وتعالى قال في هذه الآية وجلت قلوبهم يعني خافت وقال في آية أخرى وتطمئن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما قلت لا منافاة بين هاتين الحالتين لان الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان انما يكون من ثلج اليقين وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد جمعا في آية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله والمعنى تقشعر جلودهم من خوف عقاب الله ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله ورجاء ثوابه وهذا حاصل في قلب المؤمنين ﴿ ثم قال تعالى (واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) يعني واذا قرئت عليهم آيات القرآن زادتهم تصديقا قاله ابن عباس والمعنى انه كلما جاءهم شيء من عند الله آمنوا به فيزدادون بذلك ايمانا وتصديقا لان زيادة الايمان زيادة التصديق وذلك على وجهين الوجه الاول وهو الذي عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدي ان كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان ايمانه أزيد لان عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله أقوى فيزداد ايمانه الوجه الثاني هو انهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف متوالية في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلما تجدد تكليف صدقوا به فيزدادون بذلك الاقرار تصديقا وايمانا ومن المعلوم ان من صدق انسانا في شيئين كان أكثر ممن يصدقه في شيء واحد فقوله تعالى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا معناه انهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا باقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة في ايمانهم واختلف الناس في ان الايمان هل يقبل الزيادة والنقص أم لا فالذين قالوا ان الايمان عبارة عن التصديق القلبي قالوا لا يقبل الزيادة لاجماع أهل اللغة على أن الايمان هو التصديق والاعتقاد بالقلب وذلك لا يقبل الزيادة ومن قال ان الايمان عبارة عن مجموع أمور ثلاثة وهي التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالجوارح والاركان فقد استدل على ذلك بهذه الآية من وجهين أحدهما ان قوله زادتهم ايمانا صريح في أن الايمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق بالقلب فقط لما قبل الزيادة واذا قبل الزيادة فقد قبل النقص الوجه الثاني انه ذكر في هذه الآية أوصافا متعددة من أحوال المؤمنين ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك أولئك هم المؤمنون حقا وذلك يدل على أن تلك الاوصاف داخلة في مسمى الايمان وروي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان أخرجاه في الصحيحين ففي هذا الحديث دليل على أن الايمان فيه أعلى وأدنى واذا كان كذلك كان قابلا للزيادة والنقص قال عمير بن حبيب وكان له صحبة ان للايمان زيادة ونقصانا قيل له فما زيادته قال اذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته واذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن عدي ان للايمان فرائض وشرائط وشرائع وحدودا وسننا فمن استكملها فقد استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (وعلى ربهم يتوكلون) معناه يفوضون جميع أمورهم اليه ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه واعلم أن المؤمن اذا كان واثقا بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهي درجة عالية ومرتبة شريفة لان الانسان

استعظاما له وتهيبا من جلاله وعزه وسلطانه (واذا تليت عليهم آياته) أي القرآن (زادتهم ايمانا) ازدادوا بها يقينا وطمأنينة لان تظاهر الادلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه أو زادتهم ايمانا بتلك الآيات لانهم لم يؤمنوا بأحكامها قبل (وعلى ربهم يتوكلون) يعتمدون ولا يفوضون أمورهم الى غير ربهم لا يخشون ولا يرجون الا اياه

بصيرته بحيث لايبقى له اعتماد فى شئ من أموره الا على الله عز وجل واعلم أن هذه المراتب الثلاث أعنى الوجل عند ذكر الله وزيادة الايمان عند تلاوة القرآن والتوكل على الله من أعمال القلوب ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفات الثلاث أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح فقال سبحانه وتعالى (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) يعنى يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها فى أوقاتها وينفقون أموالهم فيما أمرهم الله به من الانفاق فيه ويدخل فيه النفقة فى الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الانفاق فى أنواع البر والقربات ﴿ ثم قال تعالى (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (هم المؤمنون حقا) يعنى يقينا لاشك فى ايمانهم قال ابن عباس برئوا من الكفر وقال قتادة استحقوا الايمان وأحقه الله لهم وفيه دليل على انه لايجوز أن يصف أحد نفسه بكونه مؤمنا حقا لان الله سبحانه وتعالى انما وصف بذلك أقواما مخصوصين على أوصاف مخصوصة وكل أحد لايتحقق وجود تلك الاوصاف فيه وهذا يتعلق بمسئلة أصولية وهى أن العلماء اتفقوا على انه يجوز للرجل أن يقول أنا مؤمن واختلفوا فى أنه يجوز له أن يقول أنا مؤمن حقا أم لا فقال أصحاب الامام أبى حنيفة الاولى أن يقول أنا مؤمن حقا ولايجوز أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله واستدلوا على صحة هذا القول بوجهين ﴿ الاول أن المتحرك لايجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله وكذا القول فى القائم والقاعد فكذلك هذه المسئلة يجب فيها أن يكون المؤمن مؤمنا حقا ولايجوز أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله ﴿ الوجه الثانى انه سبحانه وتعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم لهم بكونهم مؤمنين حقا وفى قوله أنا مؤمن ان شاء الله تشكيك فيما قطع الله لهم به وذلك لايجوز وقال أصحاب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه الاولى أن يقول الرجل أنا مؤمن ان شاء الله واحتجوا لصحة هذا القول بوجوه ﴿ الاول أن الايمان عندهم عبارة عن الاعتقاد والاقرار والعمل وكون الانسان آتيا بالاعمال الصالحة المقبولة من مشكوك فيه والشك فى أحد أجزاء الماهية يوجب الشك فى الماهية فيجب أن نقول أنا مؤمن ان شاء الله وان كان اعتقاده واقراره صحيحا وعند أصحاب أبى حنيفة أن الايمان عبارة عن الاعتقاد فيخرج العمل من مسمى الايمان فلم يلزم حصول الشك ﴿ الوجه الثانى أن قولنا أنا مؤمن ان شاء الله ليس هو على سبيل الشك ولكن اذا قال الرجل أنا مؤمن فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب فاذا قال ان شاء الله زال عنه ذلك العجب وحصل له الانكسار وروى ان أبا حنيفة قال لقتادة لم استثنيت فى ايمانك فقال قتادة اتباعا لابراهيم عليه السلام فى قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين فقال أبو حنيفة هلا اقتديت به فى قوله أولم تؤمن قال بلى فانقطع قتادة قال بعضهم كان لقتادة أن يقول ان ابراهيم قال بعد قوله بلى ولكن ليطمئن قلبى فطلب مزيد الطمأنينة ﴿ الوجه الثالث ان الله سبحانه وتعالى ذكر فى أول الآية انما المؤمنون ولفظة انما تفيد الحصر يعنى انما المؤمنون الذين هم كذا وكذا ذكر بعد ذلك أوصافا خمسة وهى الخوف من الله والاخلاص لله والتوكل على الله والاتيان بالصلاة كما أمر الله سبحانه وتعالى وايتاء الزكاة كذلك ثم بعد ذلك قال أولئك هم المؤمنون حقا يعنى أن من أتى بجميع هذه الاوصاف كان مؤمنا حقا ولايمكن لاحد أن يقطع بحصول هذه الصفات له فكان الاولى له أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله وقال ابن أبى نجيح سأل رجل الحسن فقال أمؤمن أنت فقال الحسن ان كنت سائلى عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فانا بها مؤمن وان كنت سائلى عن قوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا أدرى أنا منهم أم لا وقال علقمة كنا فى سفر فلقينا قوم فقلنا من القوم فقالوا نحن المؤمنون حقا فلم ندر ما نجيبهم حتى

(الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) جمع بين أعمال القلوب من الوجل والاخلاص والتوكل وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة (أولئك هم المؤمنون حقا) هو صفة لمصدر محذوف أى أولئك هم المؤمنون ايمانا حقا أو هو مصدر مؤكد للجملة التى هى أولئك هم المؤمنون كقولك هو عبد الله حقا أى حق ذلك حقا وعن الحسن رحمه الله ان رجلا سأله أمؤمن أنت قال ان كنت سائلى عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فانا مؤمن وان كنت تسألنى عن قوله انما المؤمنون الآية فلا أدرى أنا منهم أم لا وعن الثورى من زعم انه مؤمن بالله حقا ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية أى كما لايقطع بانه من أهل ثواب المؤمنين حقا فلا يقطع بانه مؤمن حقا وبهذا يتشبث من يقول أنا مؤمن ان شاء الله وكان أبو حنيفة لايقول ذلك وقال لقتادة لم تستثنى فى ايمانك قال اتباعا لابراهيم فى قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين فقال له هلا اقتديت به فى قوله أولم تؤمن قال بلى وعن ابراهيم التيمى قل أنا مؤمن حقا فان صدقت أثبت عليه وان كذبت وكفرك أشد من كذبك وعن ابن عباس رضى الله عنهما من لم يكن منافقا فهو مؤمن حقا وقد احتج عبد الله على أحمد فقال ايش اسمك فقال أحمد فقال تقول أنا أحمد حقا أو أنا أحمد ان شاء الله فقال أنا أحمد حقا فقال حيث سماك والداك لاتستثنى وقد سماك الله فى القرآن مؤمنا تستثنى

لقيت عبد الله بن مسعود فأخبرته بمقالتهم قال فارددتم عليهم قالوا لم نرد عليهم شيئا قال هلا قلتم لهم أمن أهل الجنة أنتم ان المؤمنين هم أهل الجنة وقال سفيان الثوري من زعم أنه مؤمن حقا عند الله ثم لم يشهد أنه في الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف الآخر • الوجه الرابع ان قوله أنا مؤمن ان شاء الله للتبرك لا للشك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع العلم القطعي انه لاحق باهل البقيع • الوجه الخامس ان المؤمن لا يكون مؤمنا حقا الا اذا ختم له بالايمان ومات عليه وهذا لا يحصل الا عند الموت فلهذا السبب حسن أن يقول أنا مؤمن ان شاء الله والمراد صرف الاستثناء الى الخاتمة وأجاب أصحاب هذا القول وهم أصحاب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنهم عن استدلال أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنهم بقولهم ان المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك ان شاء الله بان الفرق بين وصف الانسان بكونه مؤمنا وبين وصفه بكونه متحركا ان الايمان يتوقف حاله على الخاتمة والحركة تبطل بتغير فحصل الفرق بينهما والجواب عن الوجه الثاني وهو قولهم انه سبحانه وتعالى قال أولئك هم المؤمنون حقا فقد حكم لهم بكونهم مؤمنين حقا انه تعالى حكم للموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية بكونهم مؤمنين حقا اذا أتوا بتلك الاوصاف الخمسة ولا يقدر أحد أن يأتي بتلك الاوصاف على الحقيقة ونحن نقول أيضا ان من أتى بتلك الاوصاف على الحقيقة كان مؤمنا حقا ولكن لا يقدر على ذلك أحد والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ﴿ وقوله تعالى (لهم درجات عند ربهم) يعني لهم مراتب بعضها أعلى من بعض لان المؤمنين تتفاوت أحوالهم في الاخذ بتلك الاوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت مراتبهم في الجنة لان درجات الجنة على قدر الاعمال وقال عطاء درجات الجنة يرتقون فيها بأعمالهم وقال الربيع بن أنس درجات الجنة سبعون درجة ما بين الدرجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام أخرجه الترمذي وله عن أبي سعيد ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة مائة درجة لو ان العالمين اجتمعوا في احداهن لوسعتهم (ومغفرة) يعني ولهم مغفرة لذنوبهم (ورزق كريم) يعني ما أعد لهم في الجنة ووصفه بكونه كريما لان منافعه حاصلة لهم دائمة عليهم مقرونة بالاكرام والتعظيم قوله سبحانه وتعالى (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) اختلفوا في الجالب لهذه الكاف ما هو فقال المبرد تقديره قل الانفال لله والرسول وان كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان كرهوا وقيل معناه امض لامر ربك في الانفال وان كرهوا كما مضيت لامر ربك في الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون وقيل معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان ذلك خير لكم كما ان اخراج محمد صلى الله عليه وسلم من بيته بالحق هو خير لكم وان كرهه فريق منكم وقيل هو راجع الى قوله سبحانه وتعالى لهم درجات عند ربهم تقديره وعد الله المؤمنين الدرجات حق حتى ينجزه الله تعالى كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وأنجز الوعد بالنصر والظفر وقيل هي متعلقة بما بعدها تقديره كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه وقيل الكاف بمعنى على أي امض على الذي أخرجك ربك من بيتك بالحق فانه حق وقيل الكاف بمعنى القسم تقديره والذي أخرجك ربك من بيتك وجوابه يجادلونك في الحق وقيل الكاف بمعنى اذ تقديره واذكر يا محمد اذ أخرجك ربك من بيتك بالحق قيل المراد بهذا الاخراج اخراجه من مكة الى المدينة للهجرة وقال جمهور المفسرين المراد بهذا الاخراج هو خروجه من المدينة الى بدر ومعناه كما أمرك ربك بالخروج من بيتك بالمدينة بالحق يعني بالوحي لطلب المشركين (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) يعني للقتال وانما كرهوه لقلة عددهم وقلة سلاحهم وكثرة عدوهم

وسلاحهم

(لهم درجات) مراتب بعضها فوق بعض على قدر الأعمال (عند ربهم ومغفرة) وتجاوز لسيئاتهم (ورزق كريم) صاف عن كد الاكتساب وخوف الحساب الكاف في (كما أخرجك ربك) في محل النصب على انه صفة لمصدر الفعل المقدر والتقدير قل الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات اخراج ربك اياك من بيتك وهم كارهون (من بيتك) يريد بيته بالمدينة أو المدينة نفسها لانها مهاجره ومسكنه فهي في اختصاصها كاختصاص البيت بساكنه (بالحق) اخراجا ملتبسا بالحكمة والصواب (وان فريقا من المؤمنين لكارهون) في موضع الحال أي أخرجك في حال كراهتهم وذلك ان عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكبا منهم أبو سفيان فأخبر جبريل النبي عليه السلام فأخبر أصحابه فأعجبهم تلقي العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا علمت قريش بذلك فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهو النفير في المثل السائر لا في العير ولا في النفير فقيل له ان العير أخذت طريق الساحل ونجت فأبى وسار بمن معه الى بدر وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما في السنة ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال العير أحب اليكم أم النفير قالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم فقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا

أبو جهل قد أقبل فقالوا عليك بالعير ودع العدو فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا ثم قام سعد
ابن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت الى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الانصار ثم قال المقداد بن عمرو امض لما أمرك الله
فانا معك حيث أحببت لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن
اذهب أنت وربك فقاتلا
انا معكما مقاتلون ما دامت
عين منا تطرف فضحك
رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقال سعد بن معاذ
امض يا رسول الله لما أردت
فوالذي بعثك بالحق لو
استعرضت بنا هذا البحر
فخضته لخضناه معك ما
تخلف منا رجل واحد فسر
بنا على بركة الله ففرح
رسول الله صلى الله عليه
وسلم ونشطه قول سعد ثم
قال سيروا على بركة الله
أبشروا فان الله وعدني
احدى الطائفتين والله
لكأني الآن أنظر الى
مصارع القوم وكانت
الكراهة من بعضهم لقوله
وان فريقا من المؤمنين
لكارهون قال الشيخ أبو
منصور رحمه الله يحتمل
أنهم منافقون كرهوا ذلك
اعتقادا ويحتمل أن
يكونوا مخلصين وأن يكون
ذلك كراهة طبع لانهم غير
متأهبين له (يجادلونك في
الحق) الحق الذي جادلوا فيه
رسول الله صلى الله عليه وسلم
تلقي النفير لايثارهم عليه
ذات العير (بعد ما تبين) بعد اعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم ينصرون وجدالهم قولهم ما كان خروجنا الا للعير وهلا قلت
لنا لنستعد وذلك لكراهتهم القتال (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) شبه حالهم في فرط فزعهم وهم يسار بهم الى الظفر والغنيمة بحال
من يعتل الى القتل ويساق على الصغار الى الموت وهو مشاهد لاسبابه ناظر اليها لا يشك فيها وقيل كان خوفهم لقلة العدد وانهم كانوا رجالة وما
كان فيهم الا فارسان (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين) اذ منصوب باذكر واحدى مفعول ثان (أنها لكم) بدل من احدى الطائفتين وهما العير

وسلامتهم (يجادلونك في الحق) وذلك ان المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم تعلمنا أنا نلقى
العدو فنستعد لقتالهم وانما خرجنا لطلب العير فذلك جدالهم (بعد ما تبين) يعني تبين لهم أنك لا تصنع شيأ
الا بأمر ربك وتبين لهم صدقك في الوعد (كأنما يساقون الى الموت) يعني لشدة كراهتهم القتال (وهم
ينظرون) يعني الى الموت شبه حالهم في فرط فزعهم بحال من يجر الى القتل ويساق الى الموت وهو ينظر
اليه ويعلم أنه آتيه ۞ قوله عز وجل (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين) يعني الفرقتين فرقة أبي سفيان
مع العير وفرقة أبي جهل مع النفير (أنها لكم) يعني احدى الفرقتين لكم قال ابن عباس وعروة بن الزبير
ومحمد بن اسحق والسدي أقبل أبو سفيان بن حرب من الشام في عير قريش في أربعين راكبا من كفار
قريش منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري ومعهم تجارة كثيرة وهي اللطيمة يريد باللطيمة الجمال
التي تحمل العطر والبز غير الميرة حتى اذا كانوا قريبا من بدر بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم فندب أصحابه
اليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله أن
ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
يلقى حربا فلما سمع أبو سفيان بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه
الى مكة وأمره أن يأتي قريشا يستنفرهم ويخبرهم أن محمدا أتى أصحابه قد عرض لعيرهم فخرج ضمضم
سريعا الى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا فبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعتها فبعثت
الى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وخشيت أن يدخل على
قومك منها شر ومصيبة قال لها وما رأيت قالت رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالابطح ثم صرخ بأعلى
صوته ألا انفروا يا آل غدر الى مصارعكم في ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا اليه ثم دخل المسجد والناس
يتبعونه فبيناهم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ مثلها بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر الى
مصارعكم في ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى
اذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها الا دخلها منها فلقة فقال العباس
والله ان هذه الرؤيا فظيعة فاكتميها ولا تذكريها لاحد ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة وكان صديقا
للعباس فذكر رؤيا عاتكة له واستكتمه اياها فذكرها الوليد لابيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش
بمكة قال العباس فغدوت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في نفر من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة
فغدوت أطوف فلما رآني أبو جهل قال يا أبا الفضل اذا فرغت من طوافك فأقبل الينا قال العباس فلما فرغت
من طوافي أقبلت اليهم حتى جلست معهم فقال لي أبو جهل يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم قلت
وما ذاك قال الرؤيا التي رأت عاتكة قلت وما رأت قال يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ
نساؤكم لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث فان يك ما قالت
حقا فسيكون وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابا بأنكم أكذب أهل بيت في
العرب قال العباس فوالله ما كان مني اليه من كبير شيء الا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون عاتكة رأت
شيأ ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب الا أتتني فقلن أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن

يقع في رحالكم حتى تناول الساء وأنت تسمع ولم يكن عندك غدة لشيء مما سمعت قال قلت قد والله فعلت
ما كان مني اليمن شيء وأيم الله لا تعرض لها ان عاد لا كفيكنه قال فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة
وأنا حديد مغضب أرى أني قد فاتني شيء أحب أن أدركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله اني لأمشي
نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به وكان أبو جهل رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد
النظر اذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال العباس فقلت في نفسي ماله لعنه الله أكل هذا فرقا مني أن أشاتمه
قال فاذا هو قد سمع ما لم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره وقد
جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة هذا أموالكم مع أبي سفيان
وقد عرض لها محمد في أصحابه ولا أرى أن تدركوها الغوث الغوث قال فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من
الامر قال فتجهز الناس سراعا ولم يتخلف من أشراف قريش أحد الا أن أبا لهب قد تخلف وبعث مكانه
العاص بن هشام بن المغيرة فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناة بن
كنانة من الحرب فقالوا نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم ابليس في صورة سراقة
ابن مالك بن جعشم وكان من أشراف بني بكر فقال أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه
فخرجت قريش سراعا وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه لليال مضت من شهر رمضان حتى بلغ
واديا يقال له ذافرد فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا
كان بالروحاء أخذ عينا للقوم فأخبره بخبرهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينا له من جهينة حليفا
للانصار يدعى أريقط فأتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام
وقال ان الله وعدكم احدى الطائفتين أنها لكم اما العير واما قريش وكانت العير أحب اليهم فاستشار رسول
الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال وأحسن وقام عمر فقال وأحسن
ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله ما نقول كما قالت بنو اسرائيل
لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون
فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد يعني مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم له خيرا ودعا له بخير ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشيروا علي أيها الناس
وانما يريد الانصار وذلك لانهم عدد الناس وانهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يا رسول الله انا برآء من ذمامك حتى
تصل الى دارنا فاذا وصلت الينا فأنت في ذمامنا فنمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الانصار ترى عليها نصرته الا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس
عليهم أن يسير بهم الى عدو من بلادهم فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ والله
لكأنك تريدنا يا رسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك
على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو
استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا أحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وانا لصبر
عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله عز وجل أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى فسر
رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك فقال سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله عز وجل قد
وعدني احدى الطائفتين والله لكأني أنظر الى مصارع القوم (م) عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب
حدثه عن أهل بدر قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالامس يقول هذا
مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا ان شاء
الله تعالى قال عمر فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤا الحدود التي حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعلوا في

والنفير والتقدير واذ يعدكم الله أن احدى الطائفتين لكم

(وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم) أي العير وذات الشوكة ذات السلاح والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدتهم أي تتمنون أن تكون لكم العير لأن الطائفة التي لا سلاح لها ولا تريدون الطائفة الأخرى (ويريد الله أن يحق الحق) أي يثبته ويعليه (بكلماته) بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة وبما قضى من قتلهم وطرحهم في قليب بدر (ويقطع دابر الكافرين) والدابر الآخر فاعل من دبر إذا أدبر وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الأمور والله تعالى يريد معالي الأمور ونصرة الحق وعلو الكلمة وشتان ما بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم وأعزكم وأذلهم (ليحق الحق) متعلق بيقطع أو بمحذوف تقديره ليحق الحق (ويبطل الباطل) فعل ذلك والمقدر متأخر ليفيد الاختصاص أي ما فعله إلا لهما وهو إثبات الإسلام وإظهاره وإبطال الكفر ومحقه وليس هذا بتكرار لأن الأول تمييز بين الإرادتين وهذا بيان لمراده فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرهم عليها (ولو كره المجرمون) المشركون ذلك (إذ تستغيثون ربكم) بدل من إذ يعدكم أو متعلق بقوله ليحق الحق ويبطل الباطل واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال طفقوا يدعون الله يقولون أي ربنا انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين أغثنا وهي طلب الغوث وهو التخليص من المكروه (فاستجاب لكم) فأجاب وأصل (أني ممدكم) بأني ممدكم فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله (بألف من الملائكة مردفين) مدني وغيره بكسر الدال وفتحها فالكسر على أنهم أردفوا غيرهم والفتح على أنه أردف كل ملك ملكا آخر يقال ردفه إذا تبعه وأردفته إياه إذا اتبعته

بعضهم على بعض فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم فقال يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فإني قد وجدت ما وعدني الله حقا فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئا وذلك قوله سبحانه وتعالى وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم يعني طائفة أبي سفيان مع العير وطائفة أبي جهل مع النفير (وتودون) أي وتريدون وتتمنون (أن غير ذات الشوكة تكون لكم) والمعنى وتتمنون أن العير التي ليس فيها قتال ولا شوكة تكون لكم والشوكة الشدة والقوة ويقال السلاح (ويريد الله أن يحق الحق) أي يظهر الحق ويعليه (بكلماته) يعني بأمره إياكم بالقتال وقيل بعداته التي سبقت لكم من إظهار الدين وإعزازه (ويقطع دابر الكافرين) أي ويستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد (ليحق الحق) يعني ليثبت الإسلام (ويبطل الباطل) يعني ويمحق الكفر (ولو كره المجرمون) يعني المشركون وفي الآية سؤالان ❁ الأول أن قوله ويريد الله أن يحق الحق ثم قال بعده ليحق الحق تكرير فما معناه والجواب أنه ليس فيه تكرير لأن المراد بالأول تثبيت ما وعد في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء والمراد بالثاني تقوية القرآن والدين وإظهار منار الشريعة لأن الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم وقهر الكافرين مع كثرتهم كان سببا لإعزاز الدين وقوته ولهذا السبب قرنه بقوله ويبطل الباطل يعني الذي هو الشرك ❁ السؤال الثاني الحق حق لذاته والباطل باطل لذاته فما المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل والجواب أن المراد من تحقيق الحق إظهار كون ذلك الحق حقا والمراد من إبطال ذلك الباطل إظهار كون ذلك الباطل باطلا وذلك بإظهار دلائل الحق وتقويته وقمع رؤساء الباطل وقهرهم ❁ قوله عز وجل (إذ تستغيثون ربكم) أي واذكر يا محمد إذ تستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر وفي المستغيثين قولان أحدهما أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه قاله الزهري والقول الثاني أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم له (م) عن ابن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وبضعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه يقول اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض فما زال يهتف بربه مادا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل إذ تستغيثون ربكم (فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فأمده الله بالملائكة قال سماك فحدثني ابن عباس قال بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقيا فنظر إليه فإذا قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السيف فاخضر ذلك أجمع فجاء فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقوله سبحانه وتعالى فاستجاب لكم يعني فأجاب دعاءكم أني ممدكم أصله بأني ممدكم أي مرسل إليكم مددا وردءا لكم بألف من الملائكة مردفين يعني يردف بعضهم بعضا بمعنى يتبع بعضهم بعضا وروي أنه نزل جبريل عليه السلام في

(وما جعله الله) أي الإمداد الذي دل عليه ممدكم (إلا بشرى) إلا بشارة لكم بالنصر (ولتطمئن به قلوبكم) يعني أنكم استغثتم وتضرعتم لقلتكم فكان الإمداد بالملائكة

بشارة لكم بالنصر وتسكينا منكم وربطا على قلوبكم (وما النصر إلا من عند الله) أي ولا تحسبوا النصر من الملائكة فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة أو وما النصر من الملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله والمنصور من نصره الله واختلف في قتال الملائكة يوم بدر فقيل نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر رضي الله عنه وميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي رضي الله عنه في صورة الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم فقاتلت حتى قال أبو جهل لابن مسعود من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص قال من قبل الملائكة فقال هم غلبونا لا أنتم وقيل لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين وإلا فملك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا (إن الله عزيز) ينصر أولياءه (حكيم) يقهر أعداءه (إذ يغشاكم) بدل ثان من إذ يعدكم أو منصوب بالنصر أو بإضمار اذكر يغشيكم مدني (النعاس) النوم والفاعل هو الله على القراءتين يغشاكم النعاس مكي وأبو عمرو (أمنة) مفعول له أي إذ تنعسون أمنة بمعنى أمنا [illegible] عنهم أي لأمنكم أو مصدر أي فأمنتم أمنة فالنوم يزيح الرعب ويريح النفس (منه) صفتها أي أمنة حاصلة لكم من الله (وينزل) بالتخفيف مكي وبصري وبالتشديد غيرهم (عليكم من السماء ماء) مطرا (ليطهركم به) بالماء من الحدث والجنابة

خمسمائة وميكائيل عليه السلام في خمسمائة في صور الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوها بين أكتافهم وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر قال أبو بكر إن الله منجز لك ما وعدك فخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (خ) عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب يعني آلة الحرب قال ابن عباس كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام وكانوا يكونون فيما سواه عددا ومددا وروي عن أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدرا أنه قال بعد ما ذهب بصره لو كنت معكم اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة وقد تقدم الكلام في سورة آل عمران هل قاتلت الملائكة أم لا والصحيح أنهم قاتلوا يوم بدر لما تقدم من حديث ابن عباس في الذي ضربه بالسوط فخطم أنفه وشق وجهه وكانوا فيما سوى يوم بدر مددا وعددا وقيل إنهم لم يقاتلوا وإنما نزلوا ليكثروا سواد المسلمين ويثبتوهم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (وما جعله الله إلا بشرى) يعني وما جعل الله إرداف الملائكة إلا بشرى (ولتطمئن به قلوبكم) وهذا يدل على أنهم إنما نزلوا لذلك لا للقتال والصحيح هو الأول وأنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواه من الأيام ۞ وقوله تعالى (وما النصر إلا من عند الله) يعني أن الله هو ينصركم أيها المؤمنون فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وشدة بأسكم وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد المسلم أن لا يتوكل إلا على الله تعالى في جميع أحواله ولا يثق بغيره فإن الله تعالى بيده النصر والإعانة (إن الله عزيز) يعني أن الله تعالى قوي منيع لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شيء ويغلبه (حكيم) يعني في تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده ۞ قوله سبحانه وتعالى (إذ يغشاكم النعاس أمنة منه) أي واذكروا إذ يلقي عليكم النعاس وهو النوم الخفيف أمنة منه أي أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم قال عبد الله بن مسعود النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان والفائدة في كون النعاس أمنة في القتال أن الخائف على نفسه لا يأخذه النوم فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلا على الأمن وإزالة الخوف وقيل إنهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعددهم وعطشوا عطشا شديدا ألقى عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم وكان ذلك النوم نعمة في حقهم لأنه كان خفيفا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله إليهم وقدروا على دفعه عنهم وقيل في كون هذا النوم كان أمنة من الله أنه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة فلهذا السبب قيل إن ذلك النعاس كان في حكم المعجزة لأنه أمر خارق للعادة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وينزل عليكم من السماء ماء) يعني المطر (ليطهركم به) وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وكان المشركون قد سبقوهم إلى ماء بدر فنزلوا [illegible] المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب وأصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان وقال تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم فأنزل الله سبحانه وتعالى مطرا سال منه الوادي فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤوا وسقوا الركاب وملؤوا الأسقية وأطفأ الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت

عنهم وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلا على حصول النصر والظفر فذلك قوله سبحانه وتعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به يعني من الاحداث والجنابة (ويذهب عنكم رجز الشيطان) يعني وسوسته التي ألقاها في قلوبكم (وليربط على قلوبكم) يعني بالصبر واليقين والربط في اللغة الشد وكل من صبر على أمر فقد ربط نفسه عليه قال الواحدي ويشبه أن تكون لفظة على صلة والمعنى وليربط قلوبكم بالصبر وما وقع فيها من اليقين وقيل ان لفظة على ليست بصلة لانها تفيد الاستعلاء فيكون المعنى ان القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها (ويثبت به الاقدام) يعني ان ذلك المطر لبد الارض وقوى الرمل حتى تثبتت عليه الاقدام وحوافر الدواب وقيل المراد به تثبيت الاقدام بالصبر وقوة القلب لان من يكون ضعيف القلب لا يثبت قدمه بل يفر ويهرب عند اللقاء ﴿﴾ وقوله سبحانه وتعالى (اذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم) يعني ان الله سبحانه وتعالى أوحى الى الملائكة الذين أمد بهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أني معكم بالنصر والمعونة (فثبتوا الذين آمنوا) أي قووا قلوبهم واختلفوا في كيفية هذه التقوية والتثبيت فقيل كما أن للشيطان قوة في القاء الوسوسة في قلب ابن آدم بالشر فكذلك للملك قوة في القاء الالهام في قلب ابن آدم بالخير ويسمى ما يلقي الشيطان وسوسة وما يلقي الملك الهاما فهذا هو التثبيت وقيل ان ذلك التثبيت هو حضورهم معهم القتال ومعونتهم لهم أي ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين وقيل معناه بشروهم بالنصر والظفر فكان الملك يمشي في صورة رجل امام الصف ويقول أبشروا فان الله ناصركم عليهم (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) يعني الخوف وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث ألقى الرعب والخوف في قلوب الكافرين (فاضربوا فوق الاعناق) قيل هو خطاب مع المؤمنين فيكون منقطعا عما قبله وقيل هو خطاب مع الملائكة فيكون متصلا بما قبله قال ابن الانباري ما كانت الملائكة تعرف تقاتل بني آدم فعلمهم الله ذلك بقوله تعالى فاضربوا فوق الاعناق قال عكرمة يعني الرؤس لانها فوق الاعناق وقال الضحاك معناه فاضربوا الاعناق وفوق صلة وقيل معناه فاضربوا على الاعناق فتكون فوق بمعنى على (واضربوا منهم كل بنان) يعني كل مفصل وقال ابن عباس يعني الاطراف وهي جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين سميت بذلك لان بها صلاح الاحوال التي يمكن الانسان أن يبين بها أن يعمله بيديه وانما خصت بالذكر من دون سائر الاطراف لاجل أن الانسان بها يقاتل وبها يمسك السلاح في الحرب وقيل انه سبحانه وتعالى أمرهم بضرب أعلى الجسد وهو الرأس وهو أشرف الاعضاء وبضرب البنان وهو أضعف الاعضاء فيدخل في ذلك كل عضو في الجسد وقيل أمرهم بضرب الرأس وفيه هلاك الانسان وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الانسان عن الحرب لان بالبنان يتمكن من مسك السلاح وحمله والضرب به فاذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله روي عن أبي داود المازني وكان شهد بدرا قال اني لاتبع رجلا من المشركين لاضربه اذ وقع رأسه قبل أن يصل اليه سيفي فعرفت أنه قد قتله غيري وعن سهل بن حنيف قال لقد رأيتنا يوم بدر وان أحدنا ليشير بسيفه الى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل اليه السيف وروى عكرمة عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الاسلام قد دخل علينا أهل البيت فأسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم اسلامه وكان ذا مال كثير متفرق في قومه وكان عدو الله أبو لهب قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما جاء الخبر عن مقتل أصحاب بدر كبته الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزا قال أبو رافع وكنت رجلا ضعيفا أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم فوالله اني لجالس أنحت القداح وعندي أم الفضل جالسة اذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره الى ظهري فبينا

(ويذهب عنكم رجز الشيطان) وسوسته اليهم وتخويفه اياهم من العطش أو الجنابة من الاحتلام لانه من الشيطان وقد وسوس اليهم ان لا نصرة مع الجنابة (وليربط على قلوبكم) بالصبر (ويثبت به الاقدام) أي بالماء اذ الاقدام كانت تسوخ في الرمل أو بالربط لان القلب اذا تمكن فيه الصبر يثبت القدم في مواطن القتال (اذ يوحي) بدل ثالث من اذ يعدكم أو منصوب بيثبت (ربك الى الملائكة أني معكم) بالنصر (فثبتوا الذين آمنوا) بالبشرى وكان الملك يسير امام الصف في صورة رجل ويقول أبشروا فان الله ناصركم (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) هو امتلاء القلب من الخوف والرعب شامي وعلي (فاضربوا) أمر للمؤمنين أو للملائكة وفيه دليل على أنهم قاتلوا (فوق الاعناق) أي أعالي الاعناق التي هي المذابح تطيرا للرؤس أو أراد الرؤس لانها فوق الاعناق يعني ضرب الهام (واضربوا منهم كل بنان) هي الاصابع يريد الاطراف والمعنى فاضربوا المقاتل والشوى لان الضرب اما أن يقع على مقتل أو غير مقتل فأمرهم أن يجمعوا عليهم النوعين

(ذلك) اشارة الى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل وهو مبتدأ خبره (بانهم شاقوا الله ورسوله) أي ذلك العقاب وقع بسبب مشاقتهم أي مخالفتهم وهي مشتقة من الشق لان كلا المتعاديين في شق خلاف شق صاحبه وكذا المعاداة والمخاصمة لان هذا في عدوة وخصم أي جانب وذاك في عدوة وخصم (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) والكاف في ذلك لخطاب الرسول أو لكل أحد وفي ذلكم للكفرة على طريقة الالتفات ومحله الرفع على ذلكم العقاب أو العقاب ذلكم (فذوقوه) والواو في (وأن للكافرين عذاب النار) بمعنى مع أي ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة فوضع الظاهر موضع الضمير (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) حال من الذين كفروا والزحف الجيش الذي يرى لكثرته كأنه يزحف أي يدب دبيبا من زحف الصبي اذا دب على استه قليلا قليلا سمي بالمصدر (فلا تولوهم الادبار) فلا تنصرفوا عنهم منهزمين أي اذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل فلا تفروا فضلا أن تدانوهم في العدد أو تساووهم أو حال من المؤمنين أو من الفريقين أي اذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا) مائلا (لقتال) هو الكر بعد الفر يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه وهو من خدع الحرب (أو متحيزا) منضما (الى فئة) الى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها وهما حالان من ضمير الفاعل في يولهم (فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) ووزن متحيز متفيعل لا متفعل لانه من حاز يحوز فبناء متفعل منه متحوز ولما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا وكان القائل منهم يقول تفاخرا قتلت وأسرت قيل لهم (فقل

هو جالس اذ قال الناس هذا أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب يا ابن أخي فعندك الخبر اليقين فجلس اليه والناس قيام عليه فقال أبو لهب يا ابن أخي أخبرني كيف كانت أحوال الناس قال لا شيء والله ان كان الا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤا وايم الله ما لمت الناس لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والارض والله لا يتلقاهم شيء ولا يقوم لهم شيء قال أبو رافع فرفعت طرف الحجرة بيدي وقلت تلك والله الملائكة فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة فثاورته فاحتملني فضرب بي الارض ثم برك على صدري وكنت رجلا ضعيفا فقامت أم الفضل بعمود من عمد الحجرة فضربته به ضربة فلقت رأسه شجة منكرة وقالت تستضعفه ان غاب عنه سيده فقام موليا ذليلا فوالله ما عاش الا سبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعدسة فقتلته وروى مقسم عن ابن عباس قال كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بني سلمة وكان أبو اليسر رجلا مجموعا وكان العباس رجلا جسيما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي اليسر كيف أسرت العباس قال يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أعانك عليه ملك كريم وكانت وقعة بدر في صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة النبوية ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ذلك) يعني الذي وقع من القتل والاسر يوم بدر (بانهم شاقوا الله ورسوله يعني) بانهم خالفوا الله ورسوله والمشاقة المخالفة وأصلها المجانبة كأنهم صاروا في شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم وهذا مجاز معناه أنهم شاقوا أولياء الله وهم المؤمنون أو شاقوا دين الله ثم قال سبحانه وتعالى (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) يعني ان الذي نزل بهم في ذلك اليوم من القتل والاسر شيء قليل فيما أعد الله لهم من العقاب يوم القيامة ۞ ثم قال تعالى (ذلكم) اشارة الى القتل والاسر الذي نزل بهم (فذوقوه) يعني عاجلا في الدنيا لان ذلك يسير بالاضافة الى المؤجل الذي أعد الله لهم في الآخرة من العذاب وهو قوله (وأن للكافرين عذاب النار) يعني في الآخرة عن ابن عباس قال لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر قيل له عليك بالعير ليس من دونها شيء قال فناداه العباس من وثاقه لا يصلح لك لان الله وعدك احدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك قال صدقت أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) يعني مجتمعين متزاحفين بعضكم الى بعض والتزاحف التداني في القتال وأصل الزحف مشي مع جر الرجل كانبعاث الصبي قبل أن يمشي وسمي مشي الطائفتين بعضهم الى بعض في القتال زحفا لانها تمشي كل طائفة الى صاحبتها مشيا رويدا وذلك قبل التداني للقتال وقال ثعلب الزحف المشي قليلا قليلا الى الشيء (فلا تولوهم الادبار) يعني فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم فان المنهزم يولي ظهره ودبره (ومن يولهم يومئذ دبره) يعني ومن ينهزم ويولهم دبره يوم الحرب والقتال (الا متحرفا لقتال) يعني الا مستطردا الى القتال يرى عدوه من نفسه الانهزام وقصده طلب الكرة على العدو والعود اليه وهذا هو أحد أبواب الحرب وخدعها ومكايدها ۞ وقوله تعالى (أو متحيزا الى فئة) يعني أو منضما وصائرا الى جماعة من المؤمنين يريدون العود الى القتال (فقد باء بغضب من الله) يعني من انهزم من المسلمين وقت الحرب الا في هاتين الحالتين وهي التحرف للقتال والتحيز الى فئة من المسلمين فقد رجع بغضب من الله (ومأواه جهنم وبئس المصير)

﴿فصل في حكم هذه الآية﴾ اختلف العلماء في ذلك فقال أبو سعيد الخدري هذا في أهل بدر خاصة لانه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لان النبي صلى الله عليه وسلم كان معهم ولم تكن لهم فئة يتحيزون اليها دون النبي صلى الله عليه وسلم ولو انحازوا انحازوا الى المشركين ولانها أول غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه والمسلمون معه فشدد الله عليهم أمر الانهزام وحرمه عليهم يوم بدر فاما بعد ذلك اليوم فان المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزا الى فئة فلا يكون فراره كبيرة وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك قال يزيد بن أبي حبيب أوجب الله النار لمن فر يوم بدر فلما كان يوم أحد قال الله تعالى انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ثم كان يوم حنين بعده فقال سبحانه وتعالى ثم وليتم مدبرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء وقال عبد الله بن عمر كنا في جيش بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاص الناس حيصة فانهزمنا فقلنا يا رسول الله نحن الفرارون قال لا بل أنتم الكرارون انا فئة المسلمين قوله فحاص الناس حيصة يعني جال الناس جولة يطلبون الفرار من العدو والحيص الهرب وقال محمد بن سيرين لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر الى عمر بن الخطاب فقال لو انحاز الي كنت له فئة أنا فئة كل مسلم وقال بعضهم حكم الآية عام في حق كل من ولى ظهره منهزما بدليل قوله يا أيها الذين آمنوا وهذا الخطاب عام فيتناول جميع الصور وان كانت الآية نزلت في غزاة بدر ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وجاء في الحديث من الكبائر الفرار من الزحف وقال عطاء بن أبي رباح هذه الآية منسوخة بقوله تعالى الآن خفف الله عنكم فليس لقوم أن يفروا من مثليهم فنسخت بذلك الا في هذه العدة وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين اذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا منهم ويولوهم ظهورهم وان كان العدو أكثر من المثلين جاز لهم أن يفروا منهم قال ابن عباس من فر من ثلاثة لم يفر ومن فر من اثنين فقد فر قوله تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) قال مجاهد سبب نزول هذه الآية انهم لما انصرفوا عن قتال أهل بدر كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا ويقول الآخر أنا قتلت فلانا فنزلت هذه الآية والمعنى فلم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم يعني بنصره اياكم وتقويته لكم عليهم وقيل معناه ولكن الله قتلهم بامداده اياكم بالملائكة قال الزمخشري الفاء في قوله فلم تقتلوهم جواب شرط محذوف تقديره ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم ولكن الله قتلهم (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) قال أهل التفسير والمغازي لما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه انطلقوا حتى نزلوا بدرا ووردت عليهم روايا قريش وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجاج وأبو يسار غلام لبني العاص بن سعد فأخذوهما وأتوا بهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أين قريش قالا هم وراء الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كم القوم قالا كثير قال ما عددهم قالا لا ندري قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم ما بين التسعمائة الى الالف قال لهما من فيهم من أشراف قريش قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام والحرث بن عامر وطعيمة بن عدي والنضر بن الحرث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من العقنقل وهو الكثيب الرمل جاء الى الوادي فقال اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني فأتاه جبريل عليه السلام وقال له خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من الحصباء عليه تراب فرمى به وجوه القوم وقال شاهت الوجوه يعني قبحت الوجوه فلم يبق مشرك الا ودخل في عينه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شيء فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وقال قتادة وابن زيد ذكر لنا ان

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) والفاء جواب لشرط محذوف تقديره ان افتخرتم بقتلهم فانتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ولما قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم خذ قبضة من تراب فارمهم بها فرمى بها في وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك الا شغل بعينه فانهزموا قيل (وما رميت) يا محمد (اذ رميت ولكن الله رمى) يعني ان الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة لانك لو رميتها لما بلغ أثرها الا ما يبلغه أثر رمي البشر ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الاثر العظيم وفي الآية بيان ان فعل العبد مضاف اليه كسبا والى الله تعالى خلقا لا كما تقول الجبرية والمعتزلة لانه أثبت الفعل من العبد بقوله اذ رميت ثم نفاه عنه وأثبته لله تعالى بقوله ولكن الله رمى ولكن الله قتلهم ولكن الله رمى بتخفيف لكن شامي وحمزة وعلي

رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم وبحصاة في ميسرة القوم
وبحصاة بين أظهرهم وقال شاهت الوجوه فانهزموا فذلك قوله عز وجل وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى
إذ ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفا من الحصى في وجوه جيش فلا تبقى عين إلا وقد دخل فيها من
ذلك شيء فصورة الرمي صدرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأثيرها صدر من الله عز وجل فلهذا المعنى
صح النفي والاثبات وقيل في معنى الآية وما بلغت إذ رميت ولكن الله بلغ رميك وقيل وما رميت بالرعب في
قلوبهم إذ رميت بحصياتك ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم حتى انهزموا (وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا)
يعني ولينعم على المؤمنين نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة والأجر والثواب فقد أجمع المفسرون على أن البلاء
هنا بمعنى النعمة (إن الله سميع) يعني لدعائكم (عليم) يعني بأحوالكم ۞ وقوله تعالى (ذلكم) يعني الذي
ذكرت من أمر القتل والرمي والبلاء الحسن من الظفر بهم والنصر عليهم فعلنا ذلك الذي فعلنا (وأن الله)
يعني واعلموا أن الله مع ذلك (موهن) أي مضعف (كيد الكافرين) يعني مكرهم وكيدهم ۞ قوله عز وجل
(إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) هذا خطاب مع المشركين الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر
وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر لما التقى الجمعان اللهم أينا كان أفجر يعني نفسه ومحمدا صلى الله عليه وسلم وأقطع
للرحم فاحنه اليوم وقيل إنه قال اللهم أينا كان خيرا عندك فانصره وقيل قال اللهم انصر أهدى الفئتين
وخير الفريقين وأفضل الجمعين اللهم من كان أفجر وأقطع لرحمه فاحنه اليوم فأنزل الله عز وجل إن تستفتحوا
ومعنى الآية إن تستحكموا الله على أقطع الفريقين للرحم وأظلم الفئتين لينصر المظلوم على الظالم فقد
جاءكم الفتح يعني جاءكم حكم الله بنصرة المظلوم على الظالم والحق على المبطل والمقطوع على القاطع (ق)
عن عبد الرحمن بن عوف قال إني لواقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي فإذا أنا بغلامين من
الأنصار حديثة أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال أي عم هل تعرف أبا
جهل قلت نعم فما حاجتك إليه يا ابن أخي قال أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالذي نفسي
بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك قال وغمزني الآخر فقال لي مثلها
فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس فقلت ألا إن هذا صاحبكما الذي تسألان عنه قال
فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه فقال أيكما قتله
فقال كل واحد منهما أنا قتلته فقال هل مسحتما سيفيكما فقالا لا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
السيفين فقال كلاكما قتله وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لهما والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح
ومعاذ بن عفراء (ق) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ينظر لنا ما صنع أبو جهل
فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد قال فأخذ بلحيته فقال أنت أبو جهل وفي كتاب
البخاري أنت أبا جهل هكذا قاله أنس فقال وهل فوق رجل قتلتموه أو قال قتله قومه وفي رواية فقال أبو جهل فلو
غير أكار قتلني عن عبد الله بن مسعود قال مررت فإذا أبو جهل صريع قد ضربت رجله فقلت يا عدو الله يا أبا
جهل قد أخزى الله الآخر قال ولا أهابه عند ذلك فقال أعمد من رجل قتله قومه فضربته بسيف غير طائل فلم
يغن شيأ حتى سقط سيفه من يده فضربته حتى برد أخرجه أبو داود وأخرجه البخاري مختصرا قال إنه أتى أبا
جهل يوم بدر وبه رمق فقال هل أعمد من رجل قتلتموه وقال عكرمة قال المشركون والله ما نعرف ما جاء به
محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فأنزل الله عز وجل إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعني إن تستقضوا فقد جاءكم
القضاء وقال السدي والكلبي كان المشركون لما خرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة أخذوا بأستار
الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ففيه نزلت إن
تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعني إن تستنصروا فقد جاءكم النصر وهو على ما سألوه فكان النصر لأهدى الفئتين

(وليبلي المؤمنين) وليعطيهم (منه بلاء حسنا) عطاء جميلا والمعنى وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل وما فعل إلا لذلك (إن الله سميع) لدعائهم (عليم) بأحوالهم (ذلكم) إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع أي الأمر ذلكم (وأن الله موهن كيد الكافرين) معطوف على ذلكم أي المراد بلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين موهن كيد شامي وكوفي غير حفص، موهن كيد حفص موهن غيرهم (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم وهو خطاب لأهل مكة لأنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم إن كان محمد على حق فانصره وإن كنا على الحق فانصرنا وقيل إن تستفتحوا خطاب للمؤمنين وإن تنتهوا للكافرين أي

وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن اسحق حدثني عبد الله بن أبي بكر قال قال معاذ بن عمرو بن الجموح لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر أمر بأبي جهل بن هشام ان يلتمس في القتلى فقال اللهم لا يعجزك فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه قال وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي واني لأسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها قدمي ثم تمطيت بها حتى طرحتها ثم مر بأبي جهل وهو عقير معاذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق ثم مر به عبد الله بن مسعود قال عبد الله وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه فقلت هل أخزاك الله يا عدو الله قال وبماذا أخزاني أعمد من رجل قتلتموه اخبرني لمن الدولة قلت لله ولرسوله روى عن ابن مسعود انه قال قال لي أبو جهل لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعبا ثم احتززت رأسه ثم جئت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال آلله الذي لا اله غيره فقلت نعم والذي لا اله غيره ثم ألقيته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وقال أبي بن كعب هذا خطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل للمسلمين ان تستفتحوا أي تستنصروا فقد جاءكم الفتح أي النصر (خ) عن خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الارض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون قلت استدل البغوي بهذا الحديث على ما فسر به أبي بن كعب الآية وفيه نظر لان هذه الواقعة المذكورة في الحديث كانت بمكة والآية مدنية فلا تعلق للحديث بتفسير الآية والله أعلم ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعا الله يبدر وسأله انجاز ما وعده من احدى الطائفتين وألح في الدعاء والمسألة حتى سقط رداؤه قال الله سبحانه وتعالى مجيبا له ان تستفتحوا يعني تطلبوا النصر وانجاز ما وعدكم الله به فقد جاءكم الفتح يعني فقد حصل لكم ما طلبتم فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من اجابة دعائكم وانجاز ما وعدكم به وهذا القول أولى لان قوله فقد جاءكم الفتح لا يليق الا بالمؤمنين هذا اذا فسرنا الفتح بالنصر والظفر على الاعداء أما اذا فسرناه بالقضاء والحكم لم يمتنع ان يراد به الكفار أما قوله سبحانه وتعالى (وان تنتهوا فهو خير لكم) فهو خطاب الكفار يعني وان تنتهوا عن قتال محمد صلى الله عليه وسلم وعن تكذيبه فهو خير لكم في الدين والدنيا أما في الدين بأن تؤمنوا به وتكفوا عنه فيحصل لكم بذلك الفوز بالثواب والخلاص من العقاب وأما في الدنيا فهو الخلاص من القتل والاسر (وان تعودوا نعد) يعني وان تعودوا لقتال محمد صلى الله عليه وسلم نعد بتسليطه عليكم ونصره عليكم (ولن تغني عنكم فئتكم) يعني جماعتكم (شيأ) يعني لا تغني عنكم شيأ (ولو كثرت) يعني جماعتكم (وان الله مع المؤمنين) يعني بالنصر لهم عليكم يا معشر الكفار ۞ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله) يعني في أمر الجهاد لان فيه بذل المال والنفس (ولا تولوا عنه) يعني عن الرسول صلى الله عليه وسلم لان التولي لا يصح الا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم لا في حق الله تعالى والمعنى لا تعرضوا عنه وعن معونته ونصرته في الجهاد (وأنتم تسمعون) يعني القرآن يتلى عليكم (ولا تكونوا كالذين قالوا) بألسنتهم (سمعنا وهم لا يسمعون) يعني وهم لا يتعظون ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن والمواعظ وهذه صفة المنافقين (ان شر الدواب عند الله) يعني ان شر من دب على وجه الارض من خلق الله عند الله

(وان تنتهوا) عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (فهو) أي الانتهاء (خير لكم) وأسلم (وان تعودوا) لمحاربته (نعد) لنصرته عليكم (ولن تغني عنكم فئتكم) جمعكم (شيأ ولو كثرت) عددا (وان الله مع المؤمنين) بالفتح مدني وشامي وحفص أي ولان الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك وبالكسر غيرهم ويؤيده قراءة عبد الله وان الله مع المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لان المعنى وأطيعوا الله ورسول الله كقوله والله ورسوله أحق أن يرضوه ولان طاعة الرسول وطاعة الله شئ واحد من يطع الرسول فقد أطاع الله فكان رجوع الضمير الى أحدهما كرجوعه اليهما كقولك الاحسان والاجمال لا ينفع في فلان أو يرجع الضمير الى الامر بالطاعة أي ولا تولوا عن هذا الامر وامتثاله وأصله ولا تتولوا فحذف احدى التاءين تخفيفا (وأنتم تسمعون) أي وأنتم تسمعونه أو ولا تتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوه وأنتم تسمعون أي تصدقون لانكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) أي ادعوا السماع هم المنافقون وأهل الكتاب (وهم لا يسمعون) لانهم ليسوا بمصدقين فكأنهم غير سامعين والمعنى انكم تصدقون بالقرآن والنبوة فاذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الامور من قسمة الغنائم وغيرها أشبه سماعكم سماع من لا يؤمن ثم قال ان شر الدواب عند الله

(الصم) عن سماع الحق (البكم) عن النطق به فلا يقولونه (الذين لا يعقلون) يعني لا يفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلونه وإنما سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم قال ابن عباس هم نفر من بني عبد الدار بن قصي كانوا يقولون نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقتلوا جميعا يوم أحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن عمير وسويط بن حرملة (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) يعني سماع تفهم واستماع وقبول للحق ومعنى ولو علم الله قال الإمام فخر الدين ان كان ما كان حاصلا فيجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه فلا جرم حسن التعبير عن عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده وتقدير الكلام لو حصل فيهم خير لأسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهم (ولو أسمعهم) يعني بعد أن علم أنه لا خير فيهم لم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل لقوله تعالى (لتولوا وهم معرضون) يعني لتولوا عن سماع الحق وهم معرضون عنه لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل إنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم أحي لنا قصيا فإنه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك فقال الله سبحانه وتعالى ولو أحياهم قصيا وسمعوا كلامه لتولوا عنه وهم معرضون ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) يعني أجيبوهما بالطاعة والانقياد لأمرهما (إذا دعاكم) يعني الرسول صلى الله عليه وسلم وإنما وحد الضمير في قوله تعالى إذا دعاكم لأن استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم استجابة لله تعالى وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد واستدل أكثر الفقهاء بهذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب لأن كل من أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بفعل فقد دعاه إليه وهذه الآية تدل على أنه لا بد من الإجابة في كل ما دعا الله ورسوله إليه (خ) عن أبي سعيد بن المعلى قال كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ثم أتيته فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي قال صلى الله عليه وسلم ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ثم ذكر الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أبي بن كعب وهو يصلي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبي فالتفت أبي ولم يجبه وصلى أبي وخفف ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليك السلام ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتك فقال يا رسول الله إني كنت في الصلاة فقال صلى الله عليه وسلم أفلم تجد فيما أوحى الله إلي استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم قال بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى وذكر الحديث أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح قيل هذه الإجابة مختصة بالنبي صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لأحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر وقيل لو دعاه أحد لأمر مهم لا يحتمل التأخير فله أن يقطع صلاته ۞ وقوله تعالى (لما يحييكم) يعني إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم قال السدي هو الإيمان لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان وقال قتادة هو القرآن لأنه حياة القلوب وفيه النجاة والعصمة في الدارين وقال مجاهد هو الحق وقال محمد بن إسحق هو الجهاد لأن الله أعزه به بعد الذل وقيل هو الشهادة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد وقال السدي يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإذنه وقد دلت البراهين العقلية على هذا لأن أحوال القلوب اعتقادات ودواعي وتلك الاعتقادات والدواعي لا بد أن تتقدمها الإرادة وتلك الإرادة لا بد لها من فاعل مختار وهو الله سبحانه وتعالى فثبت بذلك أن المتصرف في القلب كيف شاء هو الله تعالى (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف

الصم البكم الذين لا يعقلون) أي إن شر من يدب على وجه الأرض البهائم وإن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه جعلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شرها لأنهم عاندوا بعد الفهم وكابروا بعد العقل (ولو علم الله فيهم) في هؤلاء الصم البكم (خيرا) صدقا ورغبة (لأسمعهم) لجعلهم سامعين حتى يسمعوا سماع المصدقين (ولو أسمعهم لتولوا) عنه أي ولو أسمعهم وصدقوا لارتدوا بعد ذلك ولم يستقيموا (وهم معرضون) عن الإيمان (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم) وحد الضمير أيضا كما وحده فيما قبل لأن استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاستجابته والمراد بالاستجابة الطاعة والامتثال وبالدعوة البعث والتحريض (لما يحييكم) من علوم الديانات والشرائع لأن العلم حياة كما أن الجهل موت قال الشاعر

لا تعجبن الجهول حلته ۞ فذاك ميت وثوبه كفن

أو لمجاهدة الكفار لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم أو للشهادة لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) أي يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها وهي التمكن من إخلاص القلب فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله أو بينه وبين ما يتمناه بقلبه من طول الحياة فيفسخ عزائمه

قلوبنا

فلو بها على طاعتك عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يا مقلب القلوب
ثبت قلبي على دينك فقلنا يا رسول الله قد آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم ان القلوب بين
أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء أخرجه الترمذي وهذا الحديث من أحاديث الصفات فيجب على
المرء المسلم أن يمره على ما جاء مع الاعتقاد الجازم بتنزيه الله تعالى عن الجارحة والجسم وقيل في معنى الآية ان
الله عز وجل يحول بين المرء وقلبه حتى لا يدري ما يصنع ولا يعقل شيأ وقيل ان القوم لما دعوا الى القتال
والجهاد وكانوا في غاية الضعف والقلة خافت قلوبهم وضاقت صدورهم فقيل لهم قاتلوا في سبيل الله واعلموا
أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الخوف أمنا والجبن جراءة ۞ وقوله تعالى (وأنه اليه تحشرون) يعني في
الآخرة فيجزي كل عامل بعمله فيثيب المحسن ويعاقب العاصي ۞ قوله سبحانه وتعالى (واتقوا فتنة
لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لما أخبر الله عز وجل أنه يحول بين المرء وقلبه حذر من وقوع المرء في الفتن
والمعني واحذروا فتنة ان نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تتعدى اليكم جميعا وتصل الى الصالح
والطالح وأراد بالفتنة الابتلاء والاختبار وقيل تقديره واتقوا فتنة ان لم تتقوها أصابتكم جميعا الظالم وغير الظالم
قال الحسن نزلت هذه الآية في علي وعمار وطلحة والزبير قال الزبير لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما أرى انا من
أهلها فاذا نحن المعنيون بها يعني ما كان منهم في يوم الجمل وقال السدي ومجاهد والضحاك وقتادة هذه في قوم
مخصوصين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أصابتهم الفتنة يوم الجمل وقال ابن عباس أمر الله عز وجل
المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب فيصيب الظالم وغير الظالم روى البغوي بسنده
عن عدي بن عدي الكندي قال حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه
ولا ينكروه فاذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة والذي ذكره ابن الاثير في جامع الاصول عن عدي بن
عميرة الكندي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا عملت الخطيئة في الارض كان من شهدها فأنكرها كمن
غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها أخرجه أبو داود وعن جرير بن عبد الله قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه ولم
يغيروا الا أصابهم الله بعقاب من قبل أن يموتوا أخرجه أبو داود وقال ابن زيد أراد بالفتنة افتراق الكلمة
ومخالفة بعضهم بعضا (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ستكون فتن القاعد فيها
خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ
أو معاذا فليعذ به فان قلت ظاهر قوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة يشمل الظالم وغير
الظالم كما تقدم تفسيره فكيف يليق برحمة الله وكرمه أن يوصل الفتنة الى من لم يذنب قلت انه تعالى مالك الملك
وخالق الخلق وهم عبيده وفي ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فيحسن
ذلك منه على سبيل المالكية أو لانه تعالى علم اشتمال ذلك على أنواع من أنواع المصلحة والله أعلم بمراده
۞ وقوله سبحانه وتعالى (واعلموا أن الله شديد العقاب) فيه تحذير ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره
الله منها وقوله عز وجل (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض) لما أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين
بطاعة الله وطاعة رسوله وحذرهم من الفتنة ذكرهم نعمته عليهم فقال تعالى واذكروا يا معشر المؤمنين
المهاجرين اذ أنتم قليل يعني في العدد مستضعفون في الارض يعني في أرض مكة في ابتداء الاسلام (تخافون
أن يتخطفكم الناس) يعني كفار مكة وقال عكرمة كفار العرب وقال وهب بن منبه يعني فارس والروم
(فآواكم) يعني الى المدينة (وأيدكم بنصره) يعني وقواكم بالانصار وقال الكلبي وقواكم يوم بدر بالملائكة
(ورزقكم من الطيبات) يعني الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لاحد قبلكم (لعلكم تشكرون) يعني تشكرون

(وأنه اليه تحشرون)
واعلموا أنكم اليه تحشرون
فيثيبكم على حسب سلامة
القلوب واخلاص الطاعة
(واتقوا فتنة) عذابا
(لا تصيبن الذين ظلموا
منكم خاصة) هو جواب
للامر أي ان أصابتكم
لا تصيب الظالمين منكم خاصة
ولكنها تعمكم وجاز أن
تدخل النون المؤكدة في
جواب الامر لان فيه معنى
النهي كما اذا قلت انزل عن
الدابة لا تطرحك وجاز
لا تطرحنك ومن في منكم
للتبعيض (واعلموا أن
الله شديد العقاب) اذا
عاقب (واذكروا اذ أنتم
قليل) اذ مفعول به لا ظرف
أي واذكروا وقت كونكم
أقلة أذلة (مستضعفون
في الارض) أرض مكة
قبل الهجرة تستضعفكم
قريش (تخافون أن
يتخطفكم الناس) لان
الناس كانوا لهم أعداء
مضادين (فآواكم) الى
المدينة (وأيدكم بنصره)
بمظاهرة الانصار وبامداد
الملائكة يوم بدر (ورزقكم
من الطيبات) من الغنائم
ولم تحل لاحد قبلكم (لعلكم
تشكرون) هذه النعم

الله على نعمه عليكم ﴿ قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) قال الزهري والكلبي
نزلت هذه الآية في أبي لبابة هرون بن عبد المنذر الانصاري من بني عوف بن مالك وذلك أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة احدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على
ما صالح عليه اخوانهم بني النضير على أن يسيروا الى اخوانهم الى أذرعات وأريحاء من أرض الشام فأبى
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك الا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا
لبابة بن عبد المنذر وكان مناصحا لهم لان ماله وولده وعياله كان عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم
فأتاهم فقالوا يا أبا لبابة ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده الى حلقه يعني انه الذبح فلا
تفعلوا قال أبو لبابة والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه
ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال والله لا أذوق طعاما
ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره قال أما لو جاءني
لاستغفرت له أما اذ فعل ما فعل فاني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا
حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له يا أبا لبابة قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسي حتى يكون
رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فجاءه فحله بيده ثم قال أبو لبابة ان من تمام توبتي أن أهجر دار قومي
التي أصبت فيها الذنب وان أنخلع من مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزيك الثلث ان تصدق به
فنزل فيه يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وقال السدي كانوا يسمعون السر من النبي صلى الله عليه
وسلم فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت هذه الآية وقال جابر بن عبد الله ان أبا سفيان خرج من مكة فأتى
جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان أبا سفيان في مكان كذا وكذا فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه
ان أبا سفيان في موضع كذا وكذا فاخرجوا اليه واكتموا قال فكتب رجل من المنافقين اليه ان محمدا
يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله عز وجل لا تخونوا الله والرسول (وتخونوا أماناتكم) ومعنى الآية لا تخونوا
الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم (وأنتم تعلمون) يعني انها أمانة وقيل معناه وأنتم تعلمون أن ما فعلتم من
الاشارة الى الحلق خيانة وأصل الخيانة من الخون وهو النقص لان من خان شيأ فقد نقصه والخيانة ضد
الامانة وقيل في معنى الآية لا تخونوا الله والرسول فانكم اذا فعلتم ذلك فقد خنتم أماناتكم وقال ابن عباس
معناه لا تخونوا الله بترك فرائضه ولا تخونوا الرسول بترك سنته ولا تخونوا أماناتكم قال ابن عباس هي
ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله تعالى والاعمال التي ائتمن عليها العباد وقال قتادة اعلموا أن دين الله
أمانة فأدوا الى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها (م)
الحديث عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك
أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب ﴿ وقوله عز وجل (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم
فتنة) قيل هذا مما نزل في أبي لبابة وذلك لان أمواله وأولاده كانت في بني قريظة فلذلك قال ما قال خوفا عليهم
وقيل انه عام في جميع الناس وذلك أنه لما كان الاقدام على الخيانة في الامانة هو حب المال والولد نبه الله
سبحانه وتعالى بقوله واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة على أنه يجب على العاقل أن يحذر من المضار المتولدة
من حب المال والولد لان ذلك يشغل القلب ويصيره محجوبا عن خدمة المولى وهذا من أعظم الفتن وروى
البغوي بسنده عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بصبي فقبله وقال أما انهم مبخلة مجبنة وانهم لمن
ريحان الله وأخرج الترمذي عن عمر بن عبد العزيز قال زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم قالت خرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول انكم لتبخلون وتجبنون
وتجهلون وانكم لمن ريحان الله قال الترمذي لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعا عن خولة قوله لمن ريحان

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله) بأن تعطلوا فرائضه (والرسول) بأن لا تستنوا به (وتخونوا) جزم عطف على لا تخونوا أي ولا تخونوا (أماناتكم) فيما بينكم بأن لا تخلطوها (وأنتم تعلمون) تبعة ذلك ووباله أو وأنتم تعلمون انكم تخونون يعني ان الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو أو أنتم علماء تعلمون حسن الحسن وقبح القبيح ومعنى الخون النقص كما أن معنى الايفاء التمام ومنه تخونه اذا انتقصه ثم استعمل في ضد الامانة والوفاء لانك اذا خنت الرجل في شئ فقد أدخلت عليه النقصان فيه (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أي سبب الوقوع في الفتنة وهي الاثم والعذاب أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده

(وأن الله عنده أجر عظيم) فعليكم أن تحرصوا على طلب ذلك وتزهدوا في الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) نصرا لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه والإسلام بإعزاز أهله أو بيانا وظهورا يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض من قولهم سطع الفرقان أي طلع الفجر أو مخرجا من الشبهات وشرحا للصدور أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان وفضلا ومزية في الدنيا والآخرة (ويكفر عنكم سيآتكم) أي الصغائر (ويغفر لكم) ذنوبكم أي الكبائر (والله ذو الفضل العظيم) على عباده (وإذ يمكر بك الذين كفروا) لما فتح الله عليه ذكره مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم والمعنى واذكر إذ يمكرون بك وذلك أن قريشا لما أسلمت الأنصار فرقوا أن يتفاقم أمره فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال أنا شيخ من نجد دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأيا ونصحا فقال أبو البختري رأيي أن تحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون فقال إبليس بئس الرأي يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحتم فقال إبليس بئس الرأي يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم فقال أبو جهل لعنه الله أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا فقال اللعين صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا يبيت في مضجعه وأذن الله له في الهجرة فأمر عليا فنام في مضجعه وقال له اتشح

الله أي لمن ورق الله والرجحان في النعمة الرزق ﴿ وقوله تعالى (وأن الله عنده أجر عظيم) يعني لمن أدى أمانته ولم يخن وفيه تنبيه على أن سعادة الآخرة وهو ثواب الله أفضل من سعادة الدنيا وهو المال والولد ﴿ وقوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله) يعني بطاعته وترك معاصيه (يجعل لكم فرقانا) يعني يجعل لكم نورا وتوفيقا في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل والفرقان أصله الفرق بين الشيئين لكنه أبلغ من أصله لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل والحجة والشبهة قال مجاهد يجعل لكم مخرجا في الدنيا والآخرة وقال مقاتل مخرجا في الدين من الشبهات وقال عكرمة نجاة أي يفرق بينكم وبين ما تخافون وقال محمد بن إسحق فصلا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفئ باطل من خالفكم وقيل يفرق بينكم وبين الكفار بأن يظهر دينكم ويعليه ويبطل الكفر ويوهنه (ويكفر عنكم سيآتكم) يعني ويمح عنكم ما سلف من ذنوبكم (ويغفر لكم) يعني ويستر عليكم فلا يفضحكم في الدنيا ولا في الآخرة (والله ذو الفضل العظيم) لأنه هو الذي يفعل ذلك بكم فله الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه ومن كان كذلك فإنه إذا وعد بشيء وفى به وقيل إنه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات ويتفضل على العاصين بغفران السيآت وقيل معناه أن بيده الفضل العظيم فلا يطلب من غيره ﴿ قوله سبحانه وتعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا) لما ذكر الله المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى واذكروا إذ أنتم قليل ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم نعمه عليه فيما جرى عليه بمكة من قومه لأن هذه السورة مدنية وهذه الواقعة كانت بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة والمعنى واذكر يا محمد إذ يمكر بك الذين كفروا وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير قالوا جميعا إن قريشا فرقوا لما أسلمت الأنصار أن يتفاقم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظهر فاجتمع نفر من كبار قريش في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رؤساؤهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأبو سفيان وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف فاعترضهم إبليس في صورة شيخ فلما رأوه قالوا من أنت قال أنا شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأيا ونصحا قالوا ادخل فدخل فقال أبو البختري أما أنا فأرى أن تأخذوا محمدا وتحبسوه في بيت مقيدا وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله إبليس وهو الشيخ النجدي وقال بئس الرأي رأيتم لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فيقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم فقالوا صدق الشيخ النجدي فقام هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي فقال أما أنا فأرى أن تحملوه على بعير وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه فقال إبليس اللعين ما هذا لكم برأي تعمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم ألم تروا إلى حلاوة منطقه وطلاوة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك ليذهبن وليستميل قلوب قوم آخرين ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم

من بلادكم فقالوا صدق الشيخ النجدي فقال أبو جهل والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره إني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابا نسيبا وسيطا فتيا ثم يعطى كل فتى سيفا صارما ثم يضربونه جميعا ضربة رجل واحد فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدي قريش ديته فقال إبليس اللعين صدق هذا الفتى هو أجود الرأي والقول ما قال لا أرى غيره فتفرقوا على قول أبي جهل وهم مجمعون عليه فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأذن الله عز وجل له عند ذلك بالخروج إلى المدينة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن يبيت في مضجعه وقال له اتشح ببردتي فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه ثم خرج رسول الله صلى ا فأخذ قبضة من تراب وأخذ الله أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا إلى قوله فهم لا يبصرون ومضى إلى الغار من ثور هو وأبو بكر وخلف عليا بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي قبلها وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته وبات المشركون يحرسون عليا وهو على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون أنه النبي صلى الله عليه وسلم فلما أصبحوا ثاروا إليه ليقتلوه فرأوه عليا فقيل له أين صاحبك قال لا أدري فقصوا أثره وأرسلوا في طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابه أثر فمكث في الغار ثلاثا ثم خرج إلى المدينة فذلك قوله سبحانه وتعالى وإذ يمكر بك الذين كفروا أصل المكر احتيال في خفية (ليثبتوك) أي ليحبسوك ويوثقوك لأن كل من شد شيئا وأوثقه فقد أثبته لأنه لا يقدر على الحركة (أو يقتلوك) يعني كما أشار إليهم أبو جهل (أو يخرجوك) يعني من مكة (ويمكرون) يعني ويحتالون ويدبرون في أمرك (ويمكر الله) يعني ويجازيهم الله جزاء مكرهم فسمي الجزاء مكرا لأنه في مقابلته وقيل معناه ويعاملهم الله معاملة مكرهم والمكر هو التدبير وهو من الله تعالى التدبير بالحق والمعنى أنهم احتالوا في إبطال أمر محمد صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى أظهره وقواه ونصره فضاع فعلهم وتدبيرهم وظهر فعل الله وتدبيره (والله خير الماكرين) فإن قلت كيف قال الله سبحانه وتعالى والله خير الماكرين ولا خير في مكرهم قلت يحتمل أن يكون المراد والله أقوى الماكرين فوضع خير موضع أقوى وفيه تنبيه على أن كل مكر يبطل بفعل الله وقيل يحتمل أن يكون المراد أن مكرهم فيه خير بزعمهم فقال سبحانه وتعالى في مقابلته والله خير الماكرين وقيل ليس المراد التفضيل بل أن فعل الله خير مطلقا ۞ قوله عز وجل (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) نزلت في النضر بن الحرث بن علقمة من بني عبد الدار وذلك أنه كان يختلف إلى أرض فارس والحيرة فيسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وأحاديث العجم وكان يمر باليهود والنصارى فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون ويبكون فلما جاء مكة وجد النبي صلى الله عليه وسلم قد أوحي إليه وهو يقرأ ويصلي فقال النضر بن الحرث قد سمعنا مثل هذا الذي جاء به محمد لو نشاء لقلنا مثل هذا فأعلمهم الله بعنادهم الحق الذي لا شبهة فيه وادعائهم الباطل بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا بعد التحدي وأنى يعجزهم عن ذلك ولو قدروا ما تعللوا بعجزه وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة فبان بذلك كذبهم في قولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا (إن هذا إلا أساطير الأولين) يعني أخبار الماضين ۞ قوله سبحانه وتعالى (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) نزلت في النضر بن الحرث أيضا قال ابن عباس لما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن القرون الماضية قال النضر بن الحرث لو شئت لقلت مثل هذا فقال له عثمان بن مظعون اتق الله فإن محمدا صلى الله عليه وسلم يقول الحق قال فأنا أقول الحق قال فإن محمدا صلى الله عليه وسلم يقول لا إله إلا الله قال وأنا أقول لا إله إلا الله ولكن هذه بنات الله يعني الأصنام ثم قال اللهم إن

الله سبحانه فاجمعوا أمره فأبطل الله مكرهم (ليثبتوك) ليحبسوك ويوثقوك (أو يقتلوك) بسيوفهم (أو يخرجوك) من مكة (ويمكرون) ويخفون المكائد له (ويمكر الله) ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة (والله خير الماكرين) أي مكره أشد من مكر غيره وأبلغ تأثيرا كان عليه السلام يقرأ القرآن ويذكر أخبار القرون الماضية في قراءته فقال النضر بن الحرث لو شئت لقلت مثل هذا وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وأحاديث العجم فنزل (وإذا تتلى عليهم آياتنا) أي القرآن (قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين) وهذا صلف منهم ووقاحة لأنهم دعوا إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن فلم يأتوا به (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا) أي القرآن (هو الحق من عندك) هذا اسم كان وهو فصل والحق خبر كان روي أن النضر لما قال إن هذا إلا أساطير الأولين قال له النبي عليه السلام ويلك هذا كلام الله فرفع النضر رأسه إلى السماء وقال إن كان هذا هو الحق من عندك (فأمطر علينا حجارة من السماء) أي إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل (أو ائتنا بعذاب أليم)

كان هذا هو الحق يعني القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وقيل يعني ان كان الذي يقوله محمد صلى الله عليه وسلم من أمر التوحيد وادعاء النبوة وغير ذلك هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء يعني كما أمطرتها على قوم لوط أو ائتنا بعذاب أليم يعني مثل ما عذبت به الامم الماضية وفي النضر بن الحرث نزل سأل سائل بعذاب واقع قال عطاء لقد نزل في النضر بن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر وقال سعيد بن جبير قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحرث وروى أنس بن مالك ان الذي قال ذلك أبو جهل (ق) عن أنس قال قال أبو جهل اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية فلما أخرجوه نزلت وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴿ قوله عز وجل (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) اختلفوا في معنى هذه الآية فقال محمد بن اسحق هذه الآية متصلة بما قبلها وهي حكاية عن المشركين وذلك أنهم قالوا ان الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمة ونبيها معها فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يذكر جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ثم قال ردا عليهم وما لهم ألا يعذبهم الله وان كنت بين أظهرهم وان كانوا يستغفرون وهم يصدون عن المسجد الحرام وقال آخرون هذا كلام مستأنف يقول الله عز وجل اخبارا عن نفسه تعالى وتقدس وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم واختلفوا في معناه فقال الضحاك وجماعة تأويلها وما كان الله ليعذبهم وأنت يا محمد مقيم فيهم بين أظهرهم قالوا نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة ثم لما خرج منها بقي بقية من المسلمين يستغفرون فأنزل الله عز وجل وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين أذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم وقال ابن عباس لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه ويلحق بحيث أمر فقال الله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يعني المسلمين فلما خرجوا قال الله لهم وما لهم ألا يعذبهم الله وقال بعضهم هذا الاستغفار راجع الى المشركين وذلك أنهم كانوا يقولون بعد فراغهم من الطواف غفرانك غفرانك وقال يزيد بن رومان قالت قريش اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا غفرانك اللهم فقال الله تعالى وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وقال قتادة والسدي معناه وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون أي لو استغفروا ولكنهم لم يكونوا مستغفرين ولو أقروا بالذنب واستغفروا الله لكانوا مؤمنين وقيل هذا دعاء لهم الى الاسلام والاستغفار بهذه الكلمة كالرجل يقول لعبده لا أعاقبك وأنت تطيعني أي أطعني حتى لا أعاقبك وقال مجاهد وعكرمة وهم يستغفرون أي يسلمون يعني لو أسلموا لما عذبوا وقال ابن عباس وفيهم من سبق له من الله العناية أنه يؤمن ويستغفر مثل أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم وقال مجاهد وهم يستغفرون أي وفي أصلابهم من يستغفر وقيل في معنى الآية ان الكفار لما بالغوا وقالوا ان كان محمد محقا في قوله فأمطر علينا حجارة من السماء أخبر الله سبحانه وتعالى ان محمدا محق في قوله وانه مع ذلك لا يمطر على أعدائه ومنكري نبوته حجارة من السماء ما دام بين أظهرهم وذلك تعظيما له صلى الله عليه وسلم وأورد على هذا انه اذا كانت اقامته مانعة من نزول العذاب بهم فكيف قال في غير هذه الآية قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم فالجواب ان المراد من العذاب الاول هو عذاب الاستئصال والمراد من العذاب الثاني وهو قوله سبحانه وتعالى يعذبهم الله بأيديكم هو عذاب القتل والسبي والاسر وذلك دون عذاب الاستئصال قال أهل المعاني دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول

بنوع آخر من جنس العذاب الاليم فقتل يوم بدر صبرا وعن معاوية انه قال لرجل من سبأ ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة قال أجهل من قومي قومك قالوا لرسول الله عليه السلام حين دعاهم الى الحق ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ولم يقولوا ان كان هذا هو الحق فاهدنا له (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) اللام لتأكيد النفي والدلالة على ان تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم لانك بعثت رحمة للعالمين وسنته ان لا يعذب قوما عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم وفيه اشعار بأنهم مرصدون بالعذاب اذا هاجر عنهم (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) موضع الحال ومعناه نفي الاستغفار عنهم أي ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم أو معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين

(وما لهم الا يعذبهم الله) أى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وهو معذبهم اذا فارقتهم وما لهم الا يعذبهم الله (وهم يصدون عن المسجد الحرام) وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم (١٩٤) يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية واخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصد وكانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء فقيل (وما كانوا أولياءه) وما استحقوا مع اشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمر الحرم (ان أولياؤه الا المتقون) من المسلمين وقيل الضميران راجعان الى الله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند أو أراد بالا كثر الجميع كما يراد بالقلة العدم (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء) صفيرا كصوت المكاء وهو طائر مليح الصوت وهو فعال من مكا يمكو اذا صفر (وتصدية) وتصفيقا تفعلة من الصدى وذلك انهم كانوا يطوفون بالبيت عراة وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون وكانوا يفعلون نحو ذلك اذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاته يخلطون عليه (فذوقوا العذاب) عذاب القتل والاسر يوم بدر (بما كنتم تكفرون) بسبب كفركم ونزل فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزور لا
(ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) اى كان غرضهم فى الانفاق الصد عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبيل الله

الله صلى الله عليه وسلم ان الله انزل على أمانين لامتى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار الى يوم القيامة أخرجه الترمذى ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وما لهم ألا يعذبهم الله) يعنى أى شئ يمنعهم من أن يعذبهم يعنى بعد خروجك من بين أظهرهم لانه سبحانه وتعالى بين فى الآية الاولى أنه لا يعذبهم وهو مقيم فيهم بين أظهرهم وبين فى هذه الآية أنه معذبهم ثم اختلفوا فى هذا العذاب فقيل هو القتل والاسر يوم بدر وقيل أراد به عذاب الآخرة وقيل أراد بالعذاب الاول عذاب الاستئصال وأراد بالعذاب الثانى العذاب بالسيف وقيل أراد بالعذاب الاول عذاب الدنيا وبهذا العذاب عذاب الآخرة وقال الحسن الآية الاولى وهى قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم منسوخة بقوله وما لهم ألا يعذبهم الله وفيه بعد لان الاخبار لا يدخلها النسخ ثم بين ما لاجله يعذبهم فقال تعالى (وهم يصدون عن المسجد الحرام) يعنى وهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالبيت وذلك حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت الحرام عام الحديبية (وما كانوا أولياءه) قال الحسن كان المشركون يقولون نحن أولياء المسجد الحرام فرد الله عليهم بقوله وما كانوا أولياءه يعنى ليسوا أولياء المسجد الحرام (ان أولياؤه الا المتقون) يعنى المؤمنين الذين يتقون الشرك (ولكن أكثرهم) يعنى المشركين (لا يعلمون) ذلك ۞ قوله عز وجل (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) لما ذكر الله عز وجل أن الكفار ليسوا بأولياء البيت الحرام ذكر عقبه السبب فى ذلك وهو أن صلاتهم عنده كانت مكاء وتصدية والمكاء فى اللغة الصفير يقال مكا الطير يمكو اذا صفر والمكاء اسم طير أبيض يكون بالحجاز له صفير وقيل هو طائر بالريف سمى بذلك لكثرة مكائه يعنى صفيره والتصدية التصفيق وفى أصله واشتقاقه قولان أحدهما أنه من الصدى وهو الصوت الذى يرجع من الجبل كالمجيب للمتكلم ولا يرجع الى شئ الثانى قال أبو عبيدة أصلها تصددة فأبدلت الياء من الدال قال الازهرى والمكاء والتصدية ليسا بصلاة ولكن الله سبحانه وتعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التى أمروا بها المكاء والتصدية قال حسان بن ثابت ۞ صلاتهم التصدى والمكاء ۞ قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون وقال مجاهد كان نفر من بنى عبد الدار يعارضون النبى صلى الله عليه وسلم فى الطواف ويستهزؤن به ويدخلون أصابعهم فى أفواههم ويصفرون فالمكاء جعل الاصابع فى الشدق والتصدية الصفير وقال جعفر بن ربيعة سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله الا مكاء وتصدية فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيرا وقال مقاتل كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه يصفران ورجلان عن يساره يصفقان ليخلطوا على النبى صلى الله عليه وسلم صلاته وهم من بنى عبد الدار فعلى قول ابن عباس كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم وعلى قول غيره كان نوع أذى للنبى صلى الله عليه وسلم وقول ابن عباس أصح لان الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة فان قلت كيف سماها صلاة وليس ذلك من جنس الصلاة قلت انهم يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة فخرج ذلك على حسب معتقدهم وفيه وجه آخر وهو أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له فهو كقول العرب من كان السخاء عيبه فلا عيب له وقال سعيد بن جبير التصدية صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين والصلاة فعلى هذا التصدية من الصد وهو المنع ۞ وقوله سبحانه وتعالى (فذوقوا العذاب) يعنى عذاب القتل والاسر فى الدنيا وقيل يقال لهم فى الآخرة فذوقوا العذاب (بما كنتم تكفرون) يعنى بسبب كفركم فى الدنيا ۞ قوله سبحانه وتعالى (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) لما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة الكفار البدنية وهى المكاء والتصدية ذكر عقبها عبادتهم المالية التى

لا يجدي لهم في الآخرة وقال الكلبي ومقاتل نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلا أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحرث وحكيم بن حزام وأبي بن خلف وزمعة بن الاسود والحرث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب وكلهم من قريش فكان يطعم كل واحد منهم الجيش في كل يوم عشر جزر وأسلم من هؤلاء العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكيم بن حزام وقال الحكم بن عتبة نزلت في أبي سفيان بن حرب حين أنفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية كل أوقية اثنان وأربعون مثقالا وقال ابن أبزى استأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين ليقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب وقيل استأجر يوم أحد ألفين من الاحابيش من كنانة فقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان بعيره الى مكة مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش قد أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ان محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرا بمن أصيب منا ففيهم نزلت ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله أي ليصرفوا الناس عن الايمان بالله ورسوله وقيل ينفقون أموالهم على أمثالهم من المشركين ليتقووا بهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (فسينفقونها) يعني أموالهم في ذلك الوجه (ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) يعني ما أنفقوا من أموالهم تكون عليهم حسرة وندامة يوم القيامة لان أموالهم تذهب ويغلبون ولا يظفرون بما يؤملون (والذين كفروا) يعني منهم لان فيهم من أسلم ولهذا قال والذين كفروا يعني من المنفقين أموالهم (الى جهنم يحشرون) يعني يساقون الى النار (ليميز الله الخبيث من الطيب) يعني ليفرق الله بين فريق الكفار وهم الفريق الخبيث وبين فريق المؤمنين وهم الفريق الطيب وهذا معنى قول ابن عباس فانه قال يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة وقال ليميز العمل الخبيث من العمل الطيب فيجازي على العمل الخبيث النار وعلى العمل الطيب الجنة وقيل المراد به انفاق الكفار في سبيل الشيطان وانفاق المؤمنين في سبيل الله (ويجعل الخبيث بعضه على بعض) يعني بعضه فوق بعض (فيركمه جميعا) يعني فيجمعه جميعا أو يضم بعضه الى بعض حتى يتراكم (فيجعله في جهنم) يعني الخبيث (أولئك) اشارة الى المنفقين في سبيل الشيطان أو الى الخبيث (هم الخاسرون) يعني أنهم خسروا الدنيا والآخرة لانهم اشتروا بأموالهم عقاب الآخرة قوله سبحانه وتعالى (قل) يعني قل يا محمد (للذين كفروا ان ينتهوا) يعني عن الشرك (يغفر لهم ما قد سلف) يعني ما قد مضى من كفرهم وذنوبهم قبل الاسلام (وان يعودوا فقد مضت سنت الاولين) يعني في اهلاك أعدائه ونصر أوليائه ومعنى الآية ان هؤلاء الكفار ان انتهوا عن الكفر ودخلوا في دين الاسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ما قد سلف من كفرهم وشركهم وان عادوا الى الكفر وأصروا عليه فقد مضت سنة الاولين باهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه وأجمع العلماء على أن الاسلام يجب ما قبله واذا أسلم الكافر لم يلزمه شيء من قضاء العبادات البدنية والمالية وهو ساعة اسلامه كيوم ولدته أمه يعني بذلك أنه ليس عليه ذنب قال يحيى بن معاذ الرازي التوحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر فأرجو أن لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عباس يعني حتى لا يكون شرك وقال الحسن حتى لا يكون بلاء (ويكون الدين كله لله) يعني تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره وقال قتادة حتى يقال لا إله إلا الله عليها قاتل نبي الله صلى الله عليه وسلم واليها دعا وقال محمد بن اسحق في قوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة (ويكون الدين كله لله) يعني لا يفتن مؤمن عن دينه ويكون التوحيد

(فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة) ثم تكون عاقبة انفاقها ندما وحسرة فكأن ذاتها تصير ندما وتنقلب حسرة (ثم يغلبون) آخر الامر وهو من دلائل النبوة لانه أخبر عنه قبل وقوعه فكان كما أخبر (والذين كفروا) والكافرون منهم (الى جهنم يحشرون) لان منهم من أسلم وحسن اسلامه والاذم في (ليميز الله الخبيث) الفريق الخبيث من الكفار (من الطيب) أي من الفريق الطيب من المؤمنين متعلقة بيحشرون ليميز حمزة وعلي (ويجعل الخبيث) الفريق الخبيث (بعضه على بعض فيركمه جميعا) فيجمعه (فيجعله في جهنم) أي الفريق الخبيث (أولئك) اشارة الى الفريق الخبيث (هم الخاسرون) أنفسهم وأموالهم (قل للذين كفروا) أي أبي سفيان وأصحابه (ان ينتهوا) عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول في الاسلام (يغفر لهم ما قد سلف) لهم من العداوة (وان يعودوا) لقتاله (فقد مضت سنت الاولين) بالاهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى أو معناه أن الكفار اذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله في أن المرتد اذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) الى أن لا يوجد فيهم شرك قط (ويكون الدين كله لله) ويضمحل عنهم كل دين باطل ويبقى فيهم دين الاسلام وحده

لله جالصاليس فيه شرك ويخلع مادونه من الانداد والشركاء (فان انتهوا) يعني عن الشرك وقتال المؤمنين وايذائهم (فان الله بما يعملون بصير) يعني فان الله لا يخفى عليه شئ من أعمال العباد ونياتهم حتى يوصل اليهم ثوابهم (وان تولوا) يعني وان أعرضوا عن الايمان وأصروا على الكفر وعادوا الى قتال المؤمنين وايذائهم (فاعلموا) يعني أيها المؤمنون (ان الله مولاكم) يعني ان الله وليكم وناصركم عليهم ومتولي حفظكم (نعم المولى ونعم النصير) يعني ان الله سبحانه وتعالى هو نعم المولى فمن كان في حفظه ونصره وكفايته وكلاءته فهو له نعم المولى ونعم النصير ﴿ قوله عز وجل (واعلموا أنما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول) الغنم الفوز بالشئ يقال غنم يغنم غنما فهو غانم واختلف العلماء هل الغنيمة والفئ اسمان لمسمى واحد أم مختلفان فى التسمية فقال عطاء بن السائب الغنيمة ما ظهر المسلمون عليه من أموال المشركين فأخذوه عنوة وأما الارض فهي فئ وقال سفيان الثوري الغنيمة ما أصاب المسلمون من مال الكفار عنوة بقتال وفيه الخمس وأربعة أخماسه لمن شهد الوقعة والفئ ما صولحوا عليه بغير قتال وليس فيه خمس فهو لمن سمى الله وقيل الغنيمة ما أخذ من أموال الكفار عنوة عن قهر وغلبة والفئ ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب كالعشور والجزية وأموال الصلح والمهادنة وقيل ان الفئ والغنيمة معناهما واحد وهما اسمان لشئ واحد والصحيح أنهما مختلفان فالفئ ما أخذ من أموال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب والغنيمة ما أخذ من أموالهم على سبيل القهر والغلبة بايجاف خيل عليه وركاب فذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية حكم الغنيمة فقال تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ يعني من أي شئ كان حتى الخيط والمخيط فان لله خمسه وللرسول وقد ذكر أكثر المفسرين والفقهاء أن قوله لله افتتاح كلام على سبيل التبرك وانما أضافه لنفسه تعالى لانه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه أن سهما منه لله مفردا لان الدنيا والآخرة كلها لله وهذا قول الحسن وقتادة وعطاء وابراهيم النخعي قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد والغنيمة تقسم خمسة أخماس أربعة أخماسها لمن قاتل عليها وأحرزها والخمس الباقي لخمسة أصناف كما ذكر الله عز وجل للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وقال أبو العالية يقسم خمس الخمس على ستة أسهم سهم لله عز وجل فيصرف الى الكعبة والقول الاول أصح أي ان خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان له فى حياته واليوم هو لمصالح المسلمين وما فيه قوة الاسلام وهذا قول الشافعي وأحمد وروى الاعمش عن ابراهيم قال كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجعلان سهم النبي صلى الله عليه وسلم فى الكراع والسلاح وقال قتادة هو للخليفة وقال أبو حنيفة سهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته مردود فى الخمس فيقسم الخمس على الاربعة الاصناف المذكورين فى الآية وهم ذوو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (ولذي القربى) يعني ان سهما من خمس الخمس لذوي القربى وهم أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فيهم فقال قوم هم جميع قريش وقال قوم هم الذين لا تحل لهم الصدقة وقال مجاهد وعلي بن الحسين هم بنو هاشم وقال الشافعي رحمه الله تعالى هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شئ وان كانوا اخوة ويدل عليه ما روي عن جبير بن مطعم قال جئت أنا وعثمان بن عفان الى النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله اعطيت بني المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد وفي رواية أعطيت بني المطلب من خمس الخمس وتركتنا وفي رواية قال جبير ولم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني عبد شمس ولا لبني نوفل شيأ أخرجه البخاري وفي رواية أبي داود ان جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقسم من الخمس فى بني هاشم وبني المطلب فقلت يا رسول الله قسمت لاخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيأ وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما

(فان انتهوا) عن الكفر وأسلموا (فان الله بما يعملون بصير) يثيبهم على اسلامهم (وان تولوا) أعرضوا عن الايمان ولم ينتهوا (فاعلموا أن الله مولاكم) ناصركم ومعينكم فثقوا بولايته ونصرته (نعم المولى) لا يضيع من تولاه (ونعم النصير) لا يغلب من نصره والمخصوص بالمدح محذوف (واعلموا أن ما غنمتم) ما بمعنى الذي ولا يجوز أن يكتب الا مفصولا اذ لو كتب موصولا لوجب أن تكون ما كافة وغنمتم صلته والعائد محذوف والتقدير الذي غنمتموه (من شئ) بيانه قيل حتى الخيط والمخيط (فان لله خمسه) والفاء انما دخلت لما في الذي من معنى المجازاة وان وما عملت فيه في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ تقديره فالحكم أن لله خمسه (وللرسول ولذي القربى)

هاشم والمطلب شيء واحد وفي رواية النسائي قال لما كان يوم خيبر دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوي القربى في بني هاشم وبني المطلب وترك بني نوفل وبني عبد شمس فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم فما بال اخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا اسلام وانما نحن وهم شيء واحد وشبك بين أصابعه واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم الى أنه ثابت فيعطى فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الانثيين وهو قول مالك والشافعي وذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأي الى أنه غير ثابت قالوا سهم النبي صلى الله عليه وسلم وسهم ذوي القربى مردود في الخمس فيقسم خمس الغنيمة على ثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل فيصرف الى فقراء ذوي القربى مع هذه الاصناف دون أغنيائهم وحجة الجمهور ان الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعطون ذوي القربى ولا يفضلون فقيرا على غني لان النبي صلى الله عليه وسلم أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد قال ويفضل الذكر على الانثى فيعطى الذكر سهمين والانثى سهما (قوله) سبحانه وتعالى (واليتامى) جمع يتيم يعني ويعطى من خمس الخمس لليتامى واليتيم الذي له سهم في الخمس هو الصغير المسلم الذي لا أب له فيعطى مع الحاجة اليه (والمساكين) وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين (وابن السبيل) وهو المسافر البعيد عن ماله فيعطى من خمس الخمس مع الحاجة اليه فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة وحازوا الغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه ويعطى الراجل سهما واحدا لما روي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم في النفل للفرس سهمين وللرجل سهما وفي رواية نحوه باسقاط لفظ النفل أخرجه البخاري ومسلم وفي رواية أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم سهما له وسهمين لفرسه وهذا قول أكثر أهل العلم واليه ذهب الثوري والاوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي وأحمد واسحق وقال أبو حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان اذا حضروا القتال ويقسم العقار الذي استولى عليه المسلمون كالمنقول وعند أبي حنيفة يتخير الامام في العقار بين ان يقسمه بينهم وبين ان يجعله وقفا على المصالح وظاهر الآية يدل على انه لا فرق بين العقار والمنقول ومن قتل من المسلمين مشركا في القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة لما روي عن أبي قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه أخرجه الترمذي وأخرجه البخاري ومسلم في حديث طويل والسلب كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح والفرس الذي كان راكبه ويجوز للامام ان ينفل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم في الحرب يخصهم به من بين سائر الجيش ثم يجعلهم أسوة الجماعة في سائر الغنيمة (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لانفسهم خاصة سوى قسمة عامة الجيش عن حبيب بن مسلمة الفهري قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفل الربع في البدأة والثلث في الرجعة أخرجه أبو داود واختلف العلماء في أن النفل من أين يعطى فقال قوم من خمس الخمس من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال الشافعي وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبادة بن الصامت قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر وبرة من جنب بعير فقال أيها الناس انه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه الا الخمس والخمس مردود عليكم أخرجه النسائي وقال قوم هو من الاربعة الاخماس بعد افراز الخمس كسهام الغزاة وهو قول

واليتامى والمساكين وابن السبيل) فالخمس كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله وسهم لذوي قرابته من بني هاشم وبني المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل استحقوه حينئذ بالنصرة لقصة عثمان وجبير بن مطعم وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل وأما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط بموته وكذلك سهم ذوي القربى وانما يعطون لفقرهم ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان على ستة لله والرسول سهما وسهم لاقاربه فأجرى أبو بكر رضي الله عنه الخمس على ثلاثة وكذا عمر ومن بعده من الخلفاء رضي الله عنهم ومعنى لله وللرسول لرسول الله كقوله والله ورسوله أحق أن يرضوه

أحمد واسحاق وذهب قوم الى أن النفل من رأس الغنيمة قبل التخميس كالسلب للقاتل وأما الفيء وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفار بغير ايجاف خيل ولا ركاب بأن صالحهم على مال يؤدونه وكذلك الجزية وما أخذ من أموالهم اذا دخلوا دار الاسلام للتجارة أو يموت أحد منهم في دار الاسلام ولا وارث له فهذا كله فيء ومال الفيء كان خالصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مدة حياته وقال عمر ان الله سبحانه وتعالى قد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الفيء بشيء لم يعط به أحدا غيره ثم قرأ عمر وما أفاء الله على رسوله منهم الآية فكانت هذه لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصة وكان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال ثم ما بقي يجعله مجعل مال الله في الكراع والسلاح واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هو للأئمة بعده وللامام الشافعي رضي الله تعالى عنه فيه قولان أحدهما انه للمقاتلة الذين أثبتت أسماؤهم في ديوان الجهاد لأنهم القائمون مقام النبي صلى الله عليه وسلم في ارهاب العدو والقول الثاني انه لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة فيعطون منه كفايتهم ثم بالأهم فالأهم من المصالح واختلف أهل العلم في تخميس الفيء فذهب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه الى أنه يخمس وخمسه لأهل الخمس من الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح وذهب الأكثرون الى أنه لا يخمس بل يصرف جميعه مصرفا واحدا ولجميع المسلمين فيه حق عن مالك بن أنس قال ذكر عمر يوما الفيء فقال ما أنا أحق بهذا الفيء منكم وما أحد منا أحق به من الآخر الا أنا على منازلنا من كتاب الله وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل وقدمه والرجل وبلاؤه والرجل وعياله والرجل وحاجته أخرجه أبو داود وأخرج البغوي بسنده عنه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول ما على وجه الأرض مسلم الا له في هذا الفيء حق الا ما ملكت أيمانكم

۞ وقوله سبحانه وتعالى (ان كنتم آمنتم بالله) يعني واعلموا أيها المؤمنون ان خمس الغنيمة مصروف الى من ذكر في هذه الآية من الاصناف فاقطعوا عنه أطماعكم واقنعوا بأربعة أخماس الغنيمة ان كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوحدانيته (وما أنزلنا على عبدنا) يعني وآمنتم بالمنزل على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهذه اضافة تشريف وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم والذي أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم يسألونك عن الانفال الآية (يوم الفرقان) يعني يوم بدر قال ابن عباس يوم الفرقان يوم بدر فرق الله عز وجل فيه بين الحق والباطل (يوم التقى الجمعان) يعني جمع المؤمنين وجمع الكافرين وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو لسبع عشرة من رمضان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الألف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على سبعين وأسر منهم مثل ذلك (والله على كل شيء قدير) يعني على نصركم أيها المؤمنون مع قلتكم وكثرة أعدائكم

۞ قوله سبحانه وتعالى (اذ أنتم) أي اذكروا نعمة الله عليكم يا معشر المسلمين اذ أنتم (بالعدوة الدنيا) يعني بشفير الوادي الأدنى من المدينة والدنيا هنا تأنيث الأدنى (وهم) يعني المشركين (بالعدوة القصوى) يعني بشفير الوادي الأقصى من المدينة مما يلي مكة والقصوى تأنيث الأقصى (والركب أسفل منكم) يعني أبا سفيان وأصحابه وهم عير قريش التي خرجوا لأجلها وكانوا في موضع أسفل من موضع المؤمنين الى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر (ولو تواعدتم) يعني أنتم والمشركون (لاختلفتم في الميعاد) وذلك ان المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار ليمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد والمعنى ولو تواعدتم أنتم والكفار على القتال لاختلفتم أنتم وهم لقلتكم وكثرة عدوكم (ولكن) يعني ولكن الله جمعكم على غير ميعاد (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) يعني من نصر أوليائه واعزاز دينه واهلاك أعدائه وأعدا

(ان كنتم آمنتم بالله) فاعلموا ... به ورسوله هذه القسمة فالايمان يوجب الرضا بالحكم والعمل بالعلم (وما أنز[لنا]) معطوف على بالله أي ان كنتم آمنتم بالله وبالمنزل (على عبدنا يوم الفرقان) يوم بدر (يوم التقى الجمعان) الفريقان من المسلمين والكافرين والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ وهو بدل من يوم الفرقان (والله على كل شيء قدير) يقدر على أن ينصر القليل على الكثير كما فعل بكم يوم بدر (اذ أنتم) بدل من يوم الفرقان والتقدير اذكروا اذ أنتم (بالعدوة) شط الوادي وبالكسر فيهما مكي وأبو عمرو (الدنيا) القربى الى جهة المدينة تأنيث الأدنى (وهم بالعدوة القصوى) البعدى عن المدينة تأنيث الأقصى وكلتاهما فعلى من بنات الواو والقياس قلب الواو ياء كالعليا تأنيث الأعلى وأما القصوى فكالقود في مجيئه على الأصل (والركب) أي العير وهو جمع راكب في المعنى (أسفل منكم) نصب على الظرف أي مكانا أسفل من مكانكم يعني في أسفل الوادي بثلاثة أميال وهو مرفوع المحل لأنه خبر المبتدأ (ولو تواعدتم) أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم موعدا تلتقون فيه للقتال (لاختلفتم في الميعاد) لخالف بعضكم بعضا فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد وثبطهم ما في قلوبهم من تهيب رسول ... دينه ... ه صلى الله عليه وسلم والمسلمين فلم يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله وسبب له (ولكن) جمع بينكم بلا ميعاد (ليقضي الله أمرا

يموت اعزاز دينه واعلاء كلمته واللام تتعلق بمحذوف أي ليقضي الله أمرا كان ينبغي أن يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك قال الشيخ أبو منصور رحمه الله القضاء يحتمل الحكم أي ليحكم ما قد علم أنه يكون كائنا أو ليتم أمرا كان قد أراده وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة وهو عز الاسلام وأهله وذل الكفر وحزبه ويتعلق بيقضي (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) حيي نافع وأبو عمرو والادغام لالتقاء المثلين والاظهار لان حركة الثاني غير لازمة لانك تقول في المستقبل يحيا والادغام أكثر استعير الهلاك والحياة للكفر والاسلام أي ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة ويصدر اسلام من أسلم أيضا عن يقين وعلم بانه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به وذلك ان وقعة بدر من الآيات الواضحة التي من كفر بعدها كان مكابرا لنفسه مغالطا لها ولهذا ذكر فيها مراكز الفريقين وان العير كانت أسفل منهم مع أنهم قد علموا ذلك كله مشاهدة ليعلم الخلق أن النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والاسباب بل بالله تعالى وذلك أن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضا لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي خبار تسوخ فيها الأرجل ولا يمشى فيها الا بتعب ومشقة وكان العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم وعدتهم وقلة المسلمين وضعفهم ثم كان ما كان (وان الله لسميع) لأقوالهم (عليم) بكفر من كفر وعقابه وبايمان من آمن وثوابه (اذ يريكهم الله) نصب باضمار اذكر أو هو متعلق بقوله لسميع عليم أي يعلم المصالح اذ يقللهم في عينك (في منامك قليلا) أي في رؤياك وذلك ان الله تعالى أراه اياهم في رؤياه قليلا فأخبر بذلك أصحابه فكان ذلك تشجيعا لهم على عدوهم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) لجبنتم وهبتم الاقدام (ولتنازعتم في الامر) أمر القتال وترددتم بين الثبات والفرار (ولكن الله سلم) عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف (انه عليم بذات الصدور) يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع (واذ يريكموهم) الضميران مفعولان أي واذ يبصركم اياهم (اذ التقيتم) وقت اللقاء (في أعينكم قليلا) هو نصب على الحال وانما قللهم في أعينهم تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا قال ابن مسعود رضي الله عنه لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبي أتراهم سبعين قال أراهم مائة وكانوا ألفا (ويقللكم في أعينهم) حتى قال قائل منهم انما هم أكلة جزور وقيل قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء ثم كثرهم فيما بعده ليجترؤا عليهم قلة مبالاة بهم ثم تفجأهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا ويجوز أن يبصروا الكثير قليلا بأن يستر الله بعضهم بساتر أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين قيل لبعضهم ان الأحول يرى الواحد اثنين وكان بين يديه ديك واحد فقال مالي لا أرى هذين الديكين أربعة

دينه (ليهلك من هلك عن بينة) يعني ليموت من مات عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه (ويحيا من حي عن بينة) يعني ويعيش من عاش عن بينة رآها وعبرة شاهدها وحجة قامت عليه وقال محمد بن اسحق معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه ويؤمن من آمن على مثل ذلك لان الهلاك هو الكفر والحياة هي الايمان ونحوه قال قتادة ليضل من ضل على بينة ويهتدي من اهتدى على بينة (وان الله لسميع عليم) يعني يسمع دعاءكم ويعلم نياتكم ولا يخفى عليه خافية ۞ قوله عز وجل (اذ يريكهم الله) يعني واذكر يا محمد نعمة الله عليك اذ يريك المشركين (في منامك) يعني في نومك (قليلا) قال مجاهد أراهم الله في منامه قليلا فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك وكان ذلك تثبيتا لهم وقال محمد بن اسحق فكان ما أراه الله من ذلك نعمة من نعمه عليهم يشجعهم بها على عدوهم فكف عنهم بها ما تخوف عليهم من ضعفهم لعلمه بما فيهم وقيل لما أرى الله النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش في منامه قليلا فأخبر بذلك أصحابه قالوا رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حق فصار ذلك سببا لجراءتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم وقال الحسن ان هذه الاراءة كانت في اليقظة والمراد من المنام العين لانها موضع النوم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) يعني لجبنتم والفشل ضعف مع جبن والمعنى ولو أراكهم كثيرا فذكرت ذلك لاصحابك لفشلوا وجبنوا عنهم (ولتنازعتم في الامر) يعني اختلفتم في امر الاقدام عليهم أو الاحجام عنهم وقيل معنى التنازع في الامر الاختلاف الذي تكون معه مخاصمة ومجادلة ومجاذبة كل واحد الى ناحية والمعنى لاضطرب أمركم واختلفت كلمتكم (ولكن الله سلم) يعني ولكن الله سلمكم من التنازع والمخالفة فيما بينكم وقيل معناه ولكن الله سلمكم من الهزيمة والفشل (انه عليم بذات الصدور) يعني أنه تعالى يعلم ما يحصل في الصدور من الجراءة والجبن والصبر والجزع وقال ابن عباس معناه أنه عليم بما في صدوركم من الحب لله عز وجل (واذ يريكموهم اذ التقيتم في أعينكم قليلا) يعني ان الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين يوم بدر لما التقوا في القتال ليتأكد في اليقظة ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وأخبر به أصحابه قال ابن مسعود لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل الى جنبي تراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا رجلا منهم فقلنا كم كنتم قال كنا ألفا (ويقللكم في أعينهم) يعني ويقللكم يا معشر المؤمنين في أعين المشركين قال السدي قال ناس من المشركين

ان العير قد انصرفت فارجعوا فقال أبو جهل الآن اذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم انما محمد وأصحابه أكلة جزور يعني لقلتهم في عينيه ثم قال فلا تقتلوهم واربطوهم في الحبال يقوله من القدرة التي في نفسه والحكمة في تقليل المشركين في أعين المؤمنين تصديق رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ولتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم عليهم ولا يجبنوا عند قتالهم والحكمة في تقليل المؤمنين في أعين المشركين لئلا يهربوا واذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالوا في الاستعداد والتأهب لقتالهم فيكون ذلك سببا لظهور المؤمنين عليهم فان قلت كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل قلت ذلك ممكن في القدرة الالهية فان الله سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم والمعجزة من خوارق العادات فلا ينكر ذلك (ليقضي الله أمرا كان مفعولا) يعني أمرا كائنا من اعلاء كلمة الاسلام ونصرة أهله واذلال كلمة الشرك وخذلان أهله فان قلت قد قال في الآية المتقدمة ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا وفي هذه الآية ليقضي الله أمرا كان مفعولا فما معنى هذا التكرار قلت المقصود من ذكره في الآية الأولى ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه القهر والغلبة ليكون ذلك معجزة دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقصود من ذكره في هذه الآية لانه تعالى قلل عدد الفريقين في أعين بعضهم بعضا للحكمة التي قصاها فلذلك قال ليقضي الله أمرا كان مفعولا (والى الله ترجع الامور) يعني في الآخرة فيجازي كل عامل على قدر عمله فالمحسن باحسانه والمسيء باساءته أو يغفر

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة) يعني جماعة كافرة (فاثبتوا) يعني لقتالهم وهو أن يوطنوا أنفسهم على لقاء العدو وقتاله ولا يحدثوها بالتولي (واذكروا الله كثيرا) يعني كونوا ذاكرين الله عند لقاء عدوكم ذكرا كثيرا بقلوبكم وألسنتكم أمر الله عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين بأن يذكروه في أشد الاحوال وذلك عند لقاء العدو وقتاله وفيه تنبيه على أن الانسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله وقيل المراد من هذا الذكر هو الدعاء بالنصر على العدو وذلك لا يحصل الا بمعونة الله تعالى فأمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يسألوه النصر على العدو عند اللقاء ثم قال تعالى (لعلكم تفلحون) يعني وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر فان قلت ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز قلت المراد من الثبات هو الثبات عند المحاربة والمقاتلة في الجملة وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول هذا الثبات في المحاربة بل ربما كان الثبات لا يحصل الا بذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى مؤكدا لذلك (وأطيعوا الله ورسوله) يعني في أمر الجهاد والثبات عند لقاء العدو (ولا تنازعوا فتفشلوا) يعني ولا تختلفوا فان التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن

وقوله تعالى (وتذهب ريحكم) يعني قوتكم وقال مجاهد نصرتكم قال وذهبت ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أحد وقال السدي جراءتكم وحدكم وقال مقاتل حدتكم وقال الاخفش وأبو عبيدة دولتكم والريح هنا كناية عن نفاذ الامر وجريانه على المراد تقول العرب هبت ريح فلان اذا أقبل أمره على ما يريد وقال قتادة وابن زيد هي ريح النصر ولم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله تعالى تضرب وجوه العدو ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وعن النعمان بن مقرن قال شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر أخرجه أبو داود وقوله سبحانه وتعالى (واصبروا) يعني عند لقاء عدوكم ولا تنهزموا عنهم (ان الله مع الصابرين) يعني بالنصر والمعونة (ق) عن عبد الله بن أبي أوفى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى اذا مالت الشمس قام فيهم فقال أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الاحزاب اهزمهم وانصرنا

(ليقضي الله أمرا كان مفعولا والى [...] الله ترجع الامور) فيحكم فيها بما يريد ترجع شامي وحمزة وعلي (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة) اذا حاربتم جماعة من الكفار وترك وصفها لان المؤمنين ما كانوا يلقون الا الكفار واللقاء اسم غالب للقتال (فاثبتوا) لقتالهم ولا تفروا (واذكروا الله كثيرا) في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له على عدوكم اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم (لعلكم تفلحون) تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه اشعار بان على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلبا وأكثر ما يكون هما وان تكون نفسه مجتمعة لذلك وان كانت متوزعة عن غيره (وأطيعوا الله ورسوله) في الامر بالجهاد والثبات مع العدو وغيرهما (ولا تنازعوا فتفشلوا) فتجبنوا وهو منصوب باضمار ان ويدل عليه (وتذهب ريحكم) أي دولتكم يقال هبت رياح فلان اذا دالت له الدولة ونفذ أمره شبهت في نفوذ أمرها وتمشيته بالريح وهبوبها وقيل لم يكن نصر قط الا بريح يبعثها الله وفي الحديث نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور (واصبروا) في القتال مع العدو وغيره (ان الله مع الصابرين) أي معينهم وحافظهم (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا

عليهم (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا

﴿ قوله عز وجل (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا) يعني فخرا وأشرا وقيل البطر الطغيان في النعمة وذلك أن النعم إذا كثرت من الله تعالى على العبد فإن صرفها في المفاخرة على الأقران وكاثر بها أبناء الزمان وأنفقها في غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر في النعمة وإن صرفها في طاعة الله والتماس مرضاته فذلك شكرها وهذا معنى قول الزجاج البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها (ورئاء الناس) الرياء إظهار الجميل ليراه الناس مع إبطان القبيح والفرق بين الرياء والنفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر والرياء إظهار الطاعة مع إبطان المعصية (ويصدون عن سبيل الله) يعني ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله نزلت هذه الآية في كفار قريش حين خرجوا إلى بدر ولهم فخر وبغي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به قال ابن عباس إن أبا سفيان لما رأى أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرا وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق في كل عام قال فنقيم عليها ثلاثا وننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا إلى ذلك فوافوا بدرا فسقوا كؤس الحمام عوضا عن الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم والمعنى لا تكونن أمركم أيها المؤمنون رياء وسمعة ولا التماس ما عند الناس ولكن أخلصوا لله عز وجل النية وقاتلوا حسبة في نصر دينكم وموازرة نبيكم صلى الله عليه وسلم ولا تعملوا إلا لذلك ولا تطلبوا غيره ﴿ وقوله تعالى (والله بما يعملون محيط) فيه وعيد وتهديد يعني أنه تعالى عالم بجميع الأشياء لا يخفى عن علمه شيء لأنه محيط بأعمال العباد كلها فيجازي المحسنين ويعاقب المسيئين ﴿ قوله سبحانه وتعالى (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم) يعني اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذ زين الشيطان يريد إبليس للمشركين أعمالهم الخبيثة (وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) قال بعضهم كان تزيينه وسوسة ألقاها في قلوبهم من غير أن يتحول في صورة غير صورته وقال جمهور المفسرين تصور إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان تزيينه أن قريشا لما أجمعت على المسير إلى بدر ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن الحرث من الحرب فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي وكان من أشراف بني كنانة فقال أنا جار لكم من أن يأتيكم من كنانة شيء تكرهونه فخرجوا سراعا قال ابن عباس جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من رجال بني مدلج سراقة بن مالك ابن جعشم فقال للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس لعنه الله فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبرا وشيعته فقال الرجل يا سراقة أتزعم أنك جار لنا فقال إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة وقوله إني جار لكم يعني مجير لكم من كنانة (فلما تراءت الفئتان) أي التقى الجمعان رأى إبليس الملائكة قد نزلوا من السماء فعلم عدو الله إبليس أنه لا طاقة له بهم (نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم) يعني رجع القهقرى وولى مدبرا هاربا على قفاه وقال الكلبي لما التقى الجمعان كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقة بن مالك بن جعشم وهو آخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله إبليس على عقبيه فقال له الحارث

(ورئاء الناس) هم أهل مكة حين نفروا لحماية العير فأتاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبى أبو جهل وقال حتى نقدم بدرا ونشرب بها الخمور وتنحر الجزور وتعزف علينا القيان ونطعم بها العرب فذلك بطرهم ورياؤهم الناس باطعامهم فوافوها فسقوا كؤس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله مخلصين أعمالهم لله والبطر أن تشغله كثرة النعمة عن شكرها (ويصدون عن سبيل الله) دين الله (والله بما يعملون محيط) عالم وهو وعيد (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس) واذكر إذ زين لهم الشيطان أعمالهم التي عملوها في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون وغالب مبني نحو لا رجل ولكم في موضع رفع خبر لا تقديره لا غالب كائن لكم (وإني جار لكم) أي مجير لكم أوهمهم أن طاعة الشيطان مما يجيرهم (فلما تراءت الفئتان) فلما تلاقى الفريقان (نكص) الشيطان هاربا (على عقبيه) أي رجع القهقرى (وقال إني بريء منكم) أي رجعت عما ضمنت لكم من الأمان روي أن إبليس تمثل لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم في جند من الشياطين معه راية فلما رأى الملائكة تنزل نكص فقال له الحرث بن هشام أتخذلنا في هذه الحالة فقال

أفرارا من غير قتال وجعل يمسكه فدفع فى صدره وانطلق فانهزم الناس فلما قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال بلغنى أنكم تقولون انى هزمت الناس فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فقالوا أما أتيتنا فى يوم كذا وكذا فحلف لهم فلما أسلموا علموا أن ذلك كان شيطانا قال الحسن فى قوله (انى أرى ما لا ترون) قال رأى ابليس جبريل عليه السلام معتجرا ببرد يمشى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وفى يده اللجام يقود الفرس ما ركب وقال قتادة قال ابليس انى أرى ما لا ترون وصدق وقال انى أخاف الله وكذب ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم وتلك عادة عدو الله ابليس لمن أطاعه اذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم وقيل انه خاف أن يهلك فيمن هلك وقيل خاف أن يأخذه جبريل فيعرف حاله فلا يطيعوه وقيل معناه (انى أخاف الله) أى أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمره وقيل لما رأى الملائكة قد نزلت من السماء خاف أن تكون القيامة (والله شديد العقاب) قيل معناه انى أخاف الله لأنه شديد العقاب فعلى هذا يكون من تمام قول ابليس وقيل تم كلامه عند قوله انى أخاف الله وقوله تعالى والله شديد العقاب ابتداء كلام يقول الله سبحانه وتعالى والله شديد العقاب لمن خالف الله وكفر به عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وما ذاك الا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن العظام الا ما رأى يوم بدر فانه قد رأى جبريل يزع الملائكة أخرجه مالك فى الموطأ قوله ولا أدحر هو بالدال والحاء المهملتين من الدحور وهو الابعاد والطرد مع الاهانة وقوله يزع الملائكة أى يكفهم و[illegible] يتقدم بعضهم على بعض والوازع هو الذى يتقدم ويتأخر فى الصف ليصلحه فان قلت كيف يقدر ابليس على أن يتصور بصورة البشر واذا تشكل بصورة البشر فكيف يسمى شيطانا قلت ان الله عز وجل أعطاه قوة وأقدره على ذلك كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر لكن النفس الباطنة لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة ۞ قوله عز وجل (اذ يقول المنافقون) يعنى من أهل المدينة (والذين فى قلوبهم مرض) أى شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالاسلام ولم يقو الاسلام فى قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج كفار قريش الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم الى بدر فلما نظروا الى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا (غر هؤلاء دينهم) يعنى ان هؤلاء مع قلتهم يقاتلون أضعافهم فقد غرهم دينهم الاسلام على ذلك وحملهم على قتل أنفسهم رجاء الثواب فى الآخرة فقتلوا جميعا يوم بدر وقال مجاهد ان فئة من قريش وهم قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحرث بن زمعة بن الاسود بن المطلب وعلى بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا غر هؤلاء دينهم ثم قال تعالى (ومن يتوكل على الله) يعنى ومن يسلم أمره الى الله ويثق بفضله ويعول على احسانه (فان الله) سادله وناصره لأنه (عزيز) لا يغلبه شئ (حكيم) فيما قضى وحكم فيوصل الثواب الى أوليائه والعقاب الى أعدائه ۞ قوله عز وجل (ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) يعنى ولو عاينت يا محمد وشاهدت اذ تقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت لرأيت أمرا عظيما ومنظرا فظيعا وعذابا شديدا ينالهم فى ذلك الوقت (يضربون وجوههم وأدبارهم) اختلفوا فى وقت هذا الضرب فقيل هو عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط من نار وقيل ان الذين قتلوا يوم بدر من المشركين كانت الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم وقال ابن عباس كان المشركون اذا أقبلوا بوجوههم الى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف واذا ولوا أدبارهم ضربت الملائكة أدبارهم وقال ابن جريج يريد ما أقبل من أجسادهم

فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان (انى أخاف الله) أى عقوبته (والله شديد العقاب) اذكروا (اذ يقول المنافقون) بالمدينة (والذين فى قلوبهم مرض) هو من صفة المنافقين أو أريد والذين هم على حرف ليسوا بثابتى الاقدام فى الاسلام (غر هؤلاء دينهم) يعنون أن المسلمين اغتروا بدينهم فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر الى زهاء ألف ثم قال جوابا لهم (ومن يتوكل على الله) يكل اليه أمره (فان الله عزيز) غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى (حكيم) لا يسوى بين وليه وعدوه (ولو ترى) ولو عاينت وشاهدت لأن لو ترد المضارع الى معنى الماضى كما ترد ان الماضى الى معنى الاستقبال (اذ) نصب على الظرف (يتوفى الذين كفروا) يقبض أرواحهم (الملائكة) فاعل (يضربون) حال منهم (وجوههم) اذا أقبلوا (وأدبارهم) ظهورهم وأستاههم اذا أدبروا أو وجوههم عند الاقدام وأدبارهم عند الانهزام وقيل فى يتوفى ضمير الله تعالى والملائكة مرفوعة بالابتداء ويضربون خبر والاول الوجه لان الكفار لا يستحقون أن يكون الله متوفيهم بلا واسطة دليله قراءة ابن عامر تتوفى بالتاء

(وذوقوا) ويقولون لهم ذوقوا معطوف على يضربون (عذاب الحريق) أي مقدمة عذاب النار أو ذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به أو يقال لهم يوم القيامة ذوقوا وجواب لو محذوف أي لرأيت أمرا فظيعا (ذلك بما قدمت أيديكم) أي كسبتم وهو رد على الجبرية وهو من كلام الله تعالى أو من كلام الملائكة وذلك رفع بالابتداء وبما قدمت خبره (وأن الله) عطف عليه أي ذلك العذاب بسببين بسبب كفركم ومعاصيكم وبأن الله (ليس بظلام للعبيد) لأن تعذيب الكفار من العدل وقيل ظلام للتكثير لأجل العبيد أو لنفي أنواع الظلم الكاف في (كدأب آل فرعون) في محل الرفع أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ودأبهم عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه أي داوموا عليه (والذين من قبلهم) من قبل قريش أو من قبل آل فرعون (كفروا) تفسير لدأب آل فرعون (بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب) والمعنى جروا على عادتهم في التكذيب فأجرى عليهم مثل ما فعل بهم في التعذيب (ذلك) العذاب أو الانتقام (بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) بسبب أن الله لم يصح في حكمته أن يغير نعمته عند قوم حتى يغيروا ما بهم من الحال نعم لم يكن لآل فرعون ومشركي مكة حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة لكن لما تغيرت الحال المرضية إلى المسخوطة تغيرت الحال المسخوطة إلى أسخط منها وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام فلما بعث إليهم بالآيات فكذبوه وسعوا في إراقة دمه غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب (وأن الله سميع) لما يقول مكذبو الرسل (عليم) بما يفعلون (كدأب آل فرعون) تكرير للتأكيد أو لأن في الأولى الأخذ بالذنوب بلا بيان ذلك وهنا بين أن ذلك هو الإهلاك والاستئصال (والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم) وفي قوله بآيات ربهم زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق (فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون) بماء البحر (وكل) وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش (كانوا ظالمين) أنفسهم بالكفر والمعاصي

أجسادهم وأدبارهم يعني يضربون جميع أجسادهم (وذوقوا عذاب الحريق) يعني وتقول لهم الملائكة عند القتل ذوقوا عذاب الحريق قيل كان مع الملائكة مقامع من حديد محمية بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار في جراحاتهم وقال ابن عباس تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت وقال الحسن هذا يوم القيامة تقول لهم الزبانية ذوقوا عذاب الحريق (ذلك) يعني الذي نزل بكم من القتل والضرب والحريق (بما قدمت أيديكم) يعني إنما حصل لكم ذلك بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر والمعاصي فإن قلت اليد ليست محلا للكفر وإنما محله القلب لأن الكفر اعتقاد والاعتقاد محله القلب وظاهر الآية يقتضي أن فاعل هذا الكفر هي اليد وذلك ممتنع قلت اليد هنا عبارة عن القدرة لأن اليد آلة العمل والقدرة هي المؤثرة في العمل فاليد كناية عن القدرة ﴿ وقوله تعالى (وأن الله ليس بظلام للعبيد) يعني أنه سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا من خلقه إلا بجرم اجترمه لأنه لا يظلم أحدا من خلقه وإنما نفى الظلم عن نفسه مع أنه يعذب الكافر على كفره والعاصي على عصيانه لأنه يتصرف في ملكه كيف شاء ومن كان كذلك استحال نسبة الظلم إليه فلا يتوهم متوهم أنه سبحانه وتعالى مع خلقه كفر الكافر وتعذيبه عليه ظالم فلهذا قال الله سبحانه وتعالى وأن الله ليس بظلام للعبيد لأنهم في ملكه وتحت قدرته فهو يتصرف فيهم كيف يشاء ﴿ قوله تعالى (كدأب آل فرعون) يعني أن عادة هؤلاء الكفار في كفرهم كعادة آل فرعون في كفرهم فجوزي هؤلاء بالقتل والأسر يوم بدر كما جوزي آل فرعون بالإغراق وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل يقال فلان يدأب في كذا أو كذا يداوم عليه ويتعب نفسه فيه ثم سميت العادة دأبا لأن الإنسان يداوم على عادته ويواظب عليها قال ابن عباس معناه أن آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبي من الله تعالى فكذبوه فكذلك هؤلاء لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق كذبوه فأنزل الله بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون (والذين من قبلهم) يعني من قبل آل فرعون (كفروا بآيات الله) يعني أن عادة الأمم السالفة هو كفرهم بآيات الله (فأخذهم الله بذنوبهم) يعني بسبب كفرهم وذنوبهم (إن الله قوي) يعني في أخذه وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله (شديد العقاب) يعني لمن كفر به وكذب رسله (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) يعني أن الله سبحانه وتعالى أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وبعث إليهم محمدا صلى الله عليه وسلم فقابلوا هذه النعمة بأن تركوا شكرها وكذبوا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وغيروا ما بأنفسهم فسلبهم الله سبحانه وتعالى النعمة وأخذهم بالعقاب قال السدي نعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم أنعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله تعالى إلى الأنصار (وأن الله سميع) يعني لأقوال خلقه لا يخفى عليه شيء من كلامهم (عليم) يعني بما في صدورهم من خير وشر فيجازي كل واحد على عمله (كدأب آل فرعون) يعني أن هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون (والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم) يعني أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف (وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين)

يعني الاولين والآخرين فان قلت ما الفائدة في تكرير هذه الآية مرة ثانية قلت فيها فوائد منها ان الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الاول لان الآية الاولى فيها ذكر أخذهم وفي الآية الثانية ذكر اغراقهم فهذه تفسير للاولى الفائدة الثانية انه ذكر في الآية الاولى انهم كفروا بآيات الله وفي الآية الثانية انهم كذبوا بآيات ربهم ففي الآية الاولى اشارة الى انهم أنكروا آيات الله وجحدوها وفي الآية الثانية اشارة الى انهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها الفائدة الثالثة ان تكرير هذه القصة للتأكيد وفي قوله كذبوا بآيات ربهم زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق وفي ذكر الاغراق بيان للاخذ بالذنوب ﴿ قوله تعالى (ان شر الدواب عند الله) يعني في علمه وحكمه (الذين كفروا فهم لا يؤمنون) والمعنى ان شر الدواب من الانس الكفار المصرون على الكفر نزلت في يهود بني قريظة رهط كعب بن الاشرف (الذين عاهدت منهم) قيل من صلة يعني الذين عاهدتهم وقيل هي للتبعيض لان المعاهدة مع بعض القوم وهم الرؤساء والاشراف (ثم ينقضون عهدهم في كل مرة) قال المفسرون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاهد يهود بني قريظة ان لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه فنقضوا العهد وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضا ومالؤا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الاشرف الى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهم لا يتقون) يعني انهم لا يخافون الله في نقض العهد لان عادة من يرجع الى دين وعقل وحزم ان يتقي نقض العهد حتى يسكن الناس الى قوله ويثقون بكلامه فبين الله عز وجل ان من جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب (فاما تثقفنهم في الحرب) يعني فاما تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وتظفرن بهم في الحرب (فشرد بهم من خلفهم) قال ابن عباس معناه فنكل بهم من وراءهم وقال سعيد بن جبير أنذر بهم من خلفهم وأصل التشريد في اللغة التفريق مع اضطراب ومعنى الآية انك اذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد فافعل بهم فعلا من القتل والتنكيل تفرق به جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من وراءهم من أهل مكة واليمن (لعلهم يذكرون) يعني لعل ذلك النكال يمنعهم من نقض العهد (واما تخافن) يعني واما تعلمن يا محمد (من قوم) يعني معاهدين (خيانة) يعني نقضا للعهد بما يظهر لك منهم من آثار الغدر كما ظهر من بني قريظة والنضير (فانبذ) أي فاطرح (اليهم) يعني عهدهم وارم به اليهم (على سواء) يعني على طريق ظاهر مستو يعني أعلمهم قبل حربك اياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء فلا يتوهمون انك نقضت العهد أولا بنصب الحرب معهم (ان الله لا يحب الخائنين) يعني في نقض العهد عن سليم بن عامر عن رجل من حمير قال كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى اذا انقضى العهد غزاهم فجاءه رجل على فرس أو برذون وهو يقول الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدر فاذا هو عمرو بن عبسة فارسل اليه معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ اليهم على سواء فرجع معاوية أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي عن سليم بن عامر نفسه بلا زيادة رجل من حمير وعنده الله أكبر مرة واحدة وفيه وهو على دابة أو فرس وأما حكم الآية فقال أهل العلم اذا ظهرت آثار نقض العهد ممن هادنهم الامام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض استغنى الامام عن نبذ العهد واعلامهم بالحرب وان ظهرت الخيانة بامارات تلوح وتتضح له من غير أمر مستفيض فحينئذ يجب على الامام ان ينبذ اليهم العهد ويعلمهم بالحرب وذلك لان قريظة كانوا قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين الى مظاهرتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وبأصحابه فهنا يجب على الامام ان ينبذ اليهم على سواء ويعلمهم بالحرب وأما اذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا

(ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) أي أصروا على الكفر فلا يتوقع منهم الايمان (الذين عاهدت منهم) بدل من الذين كفروا أي الذين عاهدتهم من الذين كفروا وجعلهم شر الدواب لان شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون وشر المصرين الناكثون للعهود (ثم ينقضون عهدهم في كل مرة) في كل معاهدة (وهم لا يتقون) لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار (فاما تثقفنهم في الحرب) فاما تصادفنهم وتظفرن بهم (فشرد بهم من خلفهم) ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد اعتبارا بهم واتعاظا بحالهم وقال الزجاج افعل بهم ما تفرق به جمعهم وتطرد به من عداهم (لعلهم يذكرون) لعل المشردين من ورائهم يتعظون (واما تخافن من قوم) معاهدين (خيانة) نكثا بامارات تلوح لك (فانبذ اليهم) فاطرح اليهم العهد (على سواء) على استواء منك ومنهم في العلم بنقض العهد وهو حال من النابذ والمنبوذ اليهم أي حاصلين على استواء في العلم (ان الله لا يحب الخائنين) الناقضين للعهود

حاجة الامام الى نبذ العهد بل يعمل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم باهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم الا جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران وذلك على أربع فراسخ من مكة وقوله تعالى (ولا تحسبن) قرئ بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى ولا تحسبن يا محمد (الذين كفروا سبقوا) يعني فاتوا واهزموا يوم بدر وقرئ بالياء على الغيبة ومعناه ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا يعني خلصوا من القتل والاسر يوم بدر (انهم لا يعجزون) يعني انهم بهذا السبق لا يعجزون الله من الانتقام منهم اما في الدنيا بالقتل واما في الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فاعلمه الله أنهم لا يعجزونه ﴿ قوله عز وجل (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الاعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة اليه وفي المراد بالقوة أقوال أحدها أنها جميع أنواع الاسلحة والآلات التي تكون لكم قوة في الحرب على قتال عدوكم ٭ الثاني انها الحصون والمعاقل الثالث الرمي وقد جاءت مفسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة الا ان القوة الرمي ثلاثا أخرجه مسلم (خ) عن أبي أسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش اذا أكثبوكم يعني غشوكم وفي رواية أكثروكم فارموهم واستبقوا نبلكم وفي رواية اذا أكثبوكم فعليكم النبل (م) عن عقبة ابن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم ان يلهو باسهمه (م) عن فقيم اللخمي قال قلت لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير يشق عليك فقال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعانه قال قلت وماذاك قال سمعته يقول من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى عن أبي نجيح السلمي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بلغ بسهم فهو له درجة في الجنة فبلغت يومئذ عشرة أسهم قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر أخرجه النسائي والترمذي بمعناه وعنده قال عدل رقبة محررة وأخرجه أبو داود أيضا عن عقبة بن عامر عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب في عمله الخير والرامي به والممد به وفي رواية ومنبله فارموا واركبوا وأن ترموا أحب الي من أن تركبوا كل لهو باطل ليس من اللهو محمودا الا ثلاثة تاديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه أي نبله فانهن من الحق ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فانها نعمة تركها أو كفرها أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي مختصرا الى نبله (خ) عن سلمة بن الاكوع قال مر النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون بالقوس فقال النبي صلى الله عليه وسلم ارموا بني اسمعيل فان أباكم كان راميا ارموا وأنا مع بني فلان فامسك أحد الفريقين بأيديهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما لكم لا ترمون فقالوا كيف نرمي وأنت معهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ارموا وأنا معكم كلكم ٭ القول الرابع ان المراد بالقوة جميع ما يتقوى به في الحرب على العدو فكل ما هو آلة يستعان بها في الجهاد فهو من جملة القوة المأمور باستعدادها وقوله صلى الله عليه وسلم الا ان القوة الرمي لا ينفي كون غير الرمي من القوة فهو كقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقوله الندم توبة فهذا لا ينفي اعتبار غيره بل يدل على ان هذا المذكور من أفضل المقصود وأجله فكذا ههنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال في الحرب وجهاد العدو بجميع ما يمكن من الآلات كالرمي بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية كل ذلك مأمور به الا انه من فروض الكفاية ﴿ وقوله تعالى (ومن رباط الخيل) يعني اقتناءها وربطها للغزو في سبيل الله والربط شد الفرس وغيره بالمكان للحفظ وسمي المكان الذي يخص باقامة حفظة فيه رباطا والمرابطة اقامة المسلمين بالثغور للحراسة فيها وربط الخيل للجهاد من أعظم ما يستعان به وروي ان

(ولا يحسبن) بالياء وفتح السين شامي وحمزة ويزيد وحفص وبالتاء وفتح السين أبو بكر وبالتاء وكسر السين غيرهم (الذين كفروا سبقوا) فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم (انهم لا يعجزون) انهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن ادراكهم أنهم شامي أي لانهم وكل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل غير ان المكسورة على طريقة الاستئناف والمفتوحة تعليل صريح فمن قرأ بالتاء فالذين كفروا مفعول أول والثاني سبقوا ومن قرأ بالياء فالذين كفروا فاعل وسبقوا مفعول تقديره ان سبقوا فحذف ان وان مخففة من الثقيلة أي انهم سبقوا فسد مسد المفعولين أو يكون الفاعل مضمرا أي ولا يحسبن محمد الكافرين سابقين ومن ادعى تفرد حمزة بالقراءة ففيه نظر لما بينا من عدم تفرده بها وعن الزهري انها نزلت فيمن أفلت من فل المشركين (وأعدوا) أيها المؤمنون (لهم) لناقضي العهد أو لجميع الكفار (ما استطعتم من قوة) من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها وفي الحديث ألا ان القوة الرمي قالها ثلاثا على المنبر وقيل هي الحصون (ومن رباط الخيل) هو اسم للخيل التي تربط في سبيل الله أو هو جمع ربيط كفصيل وفصال وخص الخيل من بين ما يتقوى به كقوله وجبريل

رجلا قال لابن سيرين ان فلانا أوصى بثلث ماله للحصون فقال ابن سيرين يشترى به الخيل ويربطها فى سبيل الله وقال عكرمة القوة الحصون ومن رباط الخيل يعنى الاناث ووجه هذا ان العرب تربط الاناث من الخيل بالافنية للنسل وروى ان خالد بن الوليد كان لا يركب فى القتال الا الاناث لقلة صهيلها وعن ابن محيريز قال كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وأناث الخيل عند الشتات والغارات وقيل ربط الفحول أولى من الاناث لانها أقوى على الكر والفر والعدو فكانت المحاربة عليها أولى من الاناث وقيل ان لفظ الخيل عام فيتناول الفحول والاناث فاى ذلك ربطه بنية الغزاة كان فى سبيل الله (ق) عن عروة ابن الجعد البارقى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والغنيمة (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل فى نواصيها الخير الى يوم القيامة (خ) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسنات (ق) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل ثلاثة هى لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر فاما الذى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله زاد فى رواية لاهل الاسلام فاطال لها فى مرج أو روضة فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان له حسنات ولو انها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت له آثارها وأرواثها حسنات ولو انها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد ان يسقيها كان ذلك له حسنات فهى لذلك الرجل أجر ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى لذلك الرجل ستر ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لاهل الاسلام فهى على ذلك وزر وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال ما أنزل على فيها شئ الا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره الطيل الحبل الذى يشد به الفرس وقت الرعى والاستنان الجرى والشرف الشوط الذى تجرى فيه الفرس وقوله تغنيا يعنى استغناء بها عن الطلب لما فى أيدى الناس أما حق ظهورها فهو أن يحمل عليها منقطعا الى أهله وأما حق رقابها فقيل أراد به الاحسان اليها وقيل أراد به الحمل عليها فعبر بالرقبة عن الذات وقوله نواء لاهل الاسلام النواء المعاداة يقال ناوأت الرجل مناوأة اذا عاديته ۞ وقوله تعالى (ترهبون به عدو الله وعدوكم) يعنى تخوفون بتلك القوة وبذلك الرباط عدو الله وعدوكم يعنى الكفار من أهل مكة وغيرهم وقال ابن عباس تخزون به عدو الله وعدوكم وذلك لان الكفار اذا علموا ان المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الاسلحة وآلات الحرب واعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الاسلام بل يصير ذلك سببا لدخول الكفار فى الاسلام أو بذل الجزية للمسلمين ۞ وقوله تعالى (وآخرين من دونهم) يعنى وترهبون آخرين من دونهم اختلف العلماء فيهم فقال مجاهد هم بنو قريظة وقال السدى هم فارس وقال ابن زيد هم المنافقون لقوله تعالى (لا تعلمونهم) لانهم معكم يقولون بألسنتهم لا اله الا الله (الله يعلمهم) يعنى انهم منافقون وأورد على هذا القول ان المنافقين لا يقاتلون لاظهارهم كلمة الاسلام فكيف يخوفون باعداد القوة ورباط الخيل وأجيب عن هذا الايراد ان المنافقين اذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويحزنهم فكان فى ذلك ارهابهم وقال الحسن هم كفار الجن وصحح هذا القول الطبرى قال لان الله تعالى قال لا تعلمونهم ولا شك ان المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لعلمهم بانهم مشركون ولانهم حرب للمؤمنين أما الجن فلا يعلمونهم الله يعلمهم يعنى يعلم أحوالهم وأماكنهم دونكم ويعضد هذا القول ما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال هم الجن وان الشيطان لا يخبل أحدا فى داره فرس عتيق ذكر هذا الحديث ابن الجوزى وغيره من المفسرين بغير اسناد وقال الحسن صهيل الخيل يرهب الجن ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله) قيل أراد به نفقة الجهاد والغزو وقيل هو عام

وميكال (ترهبون به) تخوفون (عدو الله وعدوكم) أى أهل مكة (وآخرين من دونهم) غيرهم وهم اليهود أو المنافقون أو أهل فارس أو كفرة الجن فى الحديث ان الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا دارا فيها فرس عتيق وروى أن صهيل الخيل يرهب الجن (لا تعلمونهم) لا تعرفونهم باعيانهم (الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله

تام في كل وجوه الخير والطاعة فيدخل فيه نفقة الجهاد وغيره (يوف اليكم) يعني أجره في الآخرة ويعجل لكم عوضه في الدنيا (وأنتم لا تظلمون) يعني وأنتم لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً ﴿ قوله تبارك وتعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) لما أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين باعداد القوة وما يرهب العدو أمرهم بعد ذلك أن يقبلوا منهم الصلح ان مالوا اليه وسألوه فقال تعالى وان جنحوا للسلم يعني مالوا الى السلم يعني المصالحة فاقبلوا منهم الصلح وهو قوله تعالى فاجنح لها أي مل اليها يعني الى المصالحة روى عن الحسن وقتادة أن هذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل انها غير منسوخة لكنها تتضمن الامر بالصلح اذا كان فيه مصلحة ظاهرة فان رأى الامام أن يصالح أعداءه من الكفار وفيه قوة فلا يجوز أن يهادنهم سنة كاملة وان كانت القوة للمشركين جاز أن يهادنهم عشر سنين ولا تجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فانه صالح أهل مكة مدة عشر سنين ثم انهم نقضوا العهد قبل انقضاء المدة وقوله تعالى (وتوكل على الله) يعني فوض أمرك الى الله فيما عقدته معهم ليكون عونا لك في جميع أحوالك (انه هو السميع) يعني لأقوالهم (العليم) يعني بأحوالهم ﴿ قوله عز وجل (وان يريدوا أن يخدعوك) يعني يغدروا بك قال مجاهد يعني بني قريظة والمعنى وان أرادوا باظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم (فان حسبك الله) يعني فان الله كافيك بنصره ومعونته (هو الذي أيدك بنصره) يعني هو الذي قواك وأعانك بنصره يوم بدر وفي سائر أيامك (وبالمؤمنين) يعني وأيدك بالمؤمنين يعني الانصار فان قلت اذا كان الله قد أيده بنصره فأي حاجة الى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين قلت التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون بأسباب باطنة غير معلومة وبأسباب ظاهرة معلومة فأما الذي يكون بالاسباب الباطنة فهو المراد بقوله هو الذي أيدك بنصره لان أسبابه باطنة بغير وسائط معلومة وأما الذي يكون بالاسباب الظاهرة فهو المراد بقوله وبالمؤمنين لان أسبابه ظاهرة بوسائط وهم المؤمنون والله سبحانه وتعالى هو مسبب الاسباب وهو الذي أقامهم لنصره ثم بين كيف أيده بالمؤمنين فقال تعالى (وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وذلك ان العرب كانت فيهم الحمية الشديدة والانفة العظيمة والانفس القوية والعصبية والانطواء على الضغينة من أدنى شئ حتى لو أن رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتل عنه أهل قبيلته حتى يدركوا ثأرهم لا يكاد يأتلف منهم قلبان فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم وآمنوا به واتبعوه انقلبت تلك الحالة فائتلفت قلوبهم واستجمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية من قلوبهم وأبدلت تلك الضغائن والتحاسد بالمودة والمحبة لله وفي الله واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعوانا يقاتلون عنه ويحمونه وهم الاوس والخزرج وكانت بينهم في الجاهلية حروب عظيمة ومعاداة شديدة ثم زالت تلك الحروب وحصلت المحبة والالفة وهذا مما لا يقدر عليه الا الله عز وجل وصار ذلك معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرة باهرة دالة على صدقه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي وفي الآية دليل على ان القلوب بيد الله يصرفها كيف شاء وأراد وذلك لان تلك الالفة والمحبة انما حصلت بسبب الايمان واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ثم انه سبحانه وتعالى ختم هذه الآية بقوله (انه عزيز حكيم) يعني أنه تعالى قادر قاهر يمكنه التصرف في القلوب فيقلبها من العداوة الى المحبة ومن النفرة الى الالفة وكل ذلك على وجه الحكمة والصواب ﴿ قوله سبحانه وتعالى (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس ان هذه الآية نزلت في اسلام عمر بن الخطاب قال سعيد بن جبير أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت هذه الآية فعلى هذا القول تكون الآية مكية كتبت في سورة مدنية بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل انها نزلت بالبيداء

يوف اليكم) يوفر عليكم جزاؤه (وأنتم لا تظلمون) في الجزاء بل تعطون على التمام (وان جنحوا) مالوا جنح له واليه مال (للسلم) للصلح ويكسر السين أبو بكر وهو مؤنث تأنيث ضدها وهو الحرب (فاجنح لها) فمل اليها (وتوكل على الله) ولا تخف من ابطانهم المكر في جنوحهم الى السلم فان الله كافيك وعاصمك من مكرهم (انه هو السميع) لاقوالك (العليم) بأحوالك (وان يريدوا أن يخدعوك) يمكروا ويغدروا (فان حسبك الله) كافيك الله (هو الذي أيدك) قواك (بنصره وبالمؤمنين) جميعا أو بالانصار (وألف بين قلوبهم) قلوب الاوس والخزرج بعد تعاديهم مائة وعشرين سنة (لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) أي بلغت عداوتهم مبلغا لو أنفق منفق في اصلاح ذات بينهم ما في الارض من الاموال لم يقدر عليه (ولكن الله ألف بينهم) بفضله ورحمته وجمع بين كلمتهم بقدرته فأحدث بينهم التوادد والتحاب وأماط عنهم التباغض والتماقت (انه عزيز) يقهر من يخدعونك (حكيم) ينصر من يتبعونك (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) الواو بمعنى مع وما بعده منصوب والمعنى كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصرا أو يجوز أن يكون في محل الرفع

فى غزوة بدر وقيل القتال على هذا القول أراد بقوله تعالى ومن اتبعك من المؤمنين يعنى الى غزوة بدر وقيل أراد بقوله ومن اتبعك من المؤمنين الانصار وتكون الآية نزلت بالمدينة وقيل أراد جميع المهاجرين والانصار ومعنى الآية يا أيها النبى حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين وقيل معناه حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين ﴿ قوله عز وجل (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال) يعنى حثهم على قتال عدوهم والتحريض فى اللغة الحث على الشئ بكثرة التزين وتسهيل الخطب فيه كأنه فى الاصل إزالة الحرض وهو الهلاك (ان يكن منكم عشرون) يعنى رجلا (صابرون) يعنى عند اللقاء محتسبين أنفسهم يغلبوا مائتين يعنى من عدوهم وظاهر لفظ الآية خبر ومعناه الامر فكأنه تعالى قال ان يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا فى قتال عدوهم حتى يغلبوا مائتين ويدل على أن المراد بهذا الخبر الامر قوله الآن خفف الله عنكم لان النسخ لا يدخل على الاخبار انما يدخل على الامر فدل ذلك على أن الله سبحانه وتعالى أوجب أولا على المؤمنين هذا الحكم وانما حسن هذا التكليف لان الله وعدهم بالنصر ومن تكفل الله له بالنصر سهل عليه الثبات مع الاعداء (وان يكن منكم مائة) يعنى صابرة (يغلبوا ألفا من الذين كفروا) فحاصله ثبات الواحد من المؤمنين فى مقابلة العشرة من الكفار ذلك (بأنهم قوم لا يفقهون) يعنى ان المشركين يقاتلون لطلب ثواب وخوف عقاب انما يقاتلون حمية فاذا صدقتموهم فى القتال فانهم لا يثبتون معكم (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله) (خ) عن ابن عباس قال لما نزلت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين كتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت الآن خفف الله عنكم الآية فكتب أن لا يفر مائة من مائتين وفى رواية أخرى عنه قال لما نزلت ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين شق ذلك على المسلمين فنزلت الآن خفف الله عنكم الآية فلما خفف الله عنهم من العدة نقص عنهم من الصبر بقدر ما خفف عنهم فظاهر هذا ان قوله سبحانه وتعالى الآن خفف الله عنكم ناسخ لما تقدم فى الآية الاولى وكان هذا الامر يوم بدر فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكفار فثقل ذلك على المؤمنين فنزلت الآن خفف الله عنكم أيها المؤمنون وعلم أن فيكم ضعفا يعنى فى قتال الواحد للعشرة فان تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله فردّ من العشرة الى الاثنين فاذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا فأيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر (والله مع الصابرين) يعنى بالنصر والمعونة قال سفيان قال ابن شبرمة وأرى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل ذلك ﴿ قوله تعالى (ما كان لنبى أن تكون له أسرى) روى عن عبد الله بن مسعود قال لما كان يوم بدر وجئ بالاسرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقولون فى هؤلاء فقال أبو بكر يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار وقال عمر يا رسول الله كذبوك وأخرجوك قدمهم فاضرب أعناقهم مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ومكنى من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر وقال عبد الله بن رواحة يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارا فقال له العباس قطعت رحمك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ثم دخل فقال ناس يأخذ بقول أبى بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ويشد قلوب رجال حتى تكون أشد

أى كفاك الله وكفاك أتباعك من المؤمنين قيل أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال) التحريض المبالغة فى الحث على الامر من الحرض وهو أن ينهكه المرض حتى يشفى على الموت (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) هذه عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين ان صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله وتأييده (بأنهم قوم لا يفقهون) بسبب ان الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته بخلاف من يقاتل على بصيرة وهو يرجو النصر من الله قيل كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة ثم ثقل عليهم ذلك فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين بقوله (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) ضعفا عاصم وحمزة (فان يكن منكم مائة صابرة) بالياء فيهما كوفى وافقه البصرى فى الاولى والمراد الضعف فى البدن (يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين) وتكرير مقاومة الجماعة لاكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة لا تتفاوت اذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الالف وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والالف الالفين (ما كان لنبى) ما صح له ولا استقام (أن تكون له أسرى) ان يكون نصا

من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ومثلك يا عبد الله بن رواحة كمثل موسى قال ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق قال عبد الله بن مسعود إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سهيل بن بيضاء قال ابن عباس قال عمر بن الخطاب فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل عليه ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض الآية أخرج هذا الحديث الترمذي مختصرا وقال في الحديث قصة وهي هذه القصة التي ذكرها البغوي وأخرج مسلم أفراده من حديث عمر بن الخطاب قال ابن عباس لما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر ما ترون في هؤلاء الأسارى فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترى يا ابن الخطاب قال قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه وتمكني من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يبكيان فقلت يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض إلى قوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فأحل الله الغنيمة لهم ذكره الحميدي في مسنده عن عمر بن الخطاب من أفراد مسلم بزيادة فيه أما تفسير الآية فقوله تعالى ما كان لنبي أن يكون له أسرى يعني ما كان ينبغي ولا يجب لنبي وقال أبو عبيدة معناه لم يكن لنبي ذلك فلا يكون لك يا محمد والمعنى ما كان لنبي أن يحبس كافرا قدر عليه وصار في يده أسيرا للفداء والمن والأسرى جمع أسير وأسارى جمع الجمع (حتى يثخن في الأرض) الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته يقال أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه والمعنى حتى يبالغ في قتال المشركين ويغلبهم ويقهرهم فإذا حصل ذلك فله أن يقدم على الأمر فيأسر الأسارى (تريدون عرض الدنيا) الخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعني تريدون أيها المؤمنون عرض الدنيا بأخذكم الفداء من المشركين وإنما سمي منافع الدنيا عرضا لأنه لا ثبات لها ولا دوام فكأنها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة فإنها دائمة لا انقطاع لها ۞ وقوله سبحانه وتعالى (والله يريد الآخرة) يعني أنه سبحانه وتعالى يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم الدين لأنها دائمة بلا زوال ولا انقطاع (والله عزيز) لا يقهر ولا يغلب (حكيم) يعني في تدبير مصالح عباده قال ابن عباس كان ذلك يوم بدر والمؤمنون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله سبحانه وتعالى في الأسارى فإما منا بعد

يعني حتى يذل الكفر بإشاعة القتل في أهله ويعز الإسلام بالاستيلاء والقهر ثم الأسر بعد ذلك روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بسبعين أسيرا فيهم العباس عمه وعقيل فاستشار النبي عليه السلام أبا بكر فيهم فقال قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك وقال عمر رضي الله عنه كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكني من فلان لنسيب له فلنضرب أعناقهم فقال عليه السلام مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حيث قال فمن عصاني فإنك غفور رحيم ومثلك يا عمر كمثل نوح حيث قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم فقالوا بل نأخذ الفداء فاستشهدوا بأحد فلما أخذوا الفداء نزلت الآية (تريدون عرض الدنيا) متاعها يعني الفداء سماه عرضا لقلة بقائه وسرعة فنائه (والله يريد الآخرة) أي ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل (والله عزيز) يقهر الأعداء (حكيم)

وأما الفداء فجعل الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالخيار إن شاؤوا قتلوهم وإن شاؤوا استعبدوهم وإن شاؤوا فادوهم وإن شاؤوا أعتقوهم قال الإمام فخر الدين إن هذا الكلام يوهم أن قوله فإما منا بعد وإما فداء يزيل حكم الآية التي نحن في تفسيرها وليس الأمر كذلك لأن كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على أنه لا بد من تقديم الإثخان ثم بعده أخذ الفداء قال العلماء كان الفداء لكل أسير أربعين أوقية والأوقية أربعون درهما فيكون مجموع ذلك ألفا وستمائة درهم وقال قتادة كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف درهم ﴿فصل﴾ تمسك بهذه الآية من يقدح في عصمة الأنبياء وبيانه من وجوه الأول أن قوله ما كان لنبي أن تكون له أسرى صريح في النهي عن أخذ الأسارى وقد وجد ذلك يوم بدر الوجه الثاني أن الله سبحانه وتعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم وقومه بقتل المشركين يوم بدر فلما لم يقتلوهم بل أسروهم دل ذلك على صدور الذنب منهم الوجه الثالث أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم بأخذ الفداء وهو محرم وذلك ذنب الوجه الرابع أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر قعدا يبكيان لأجل أخذ الفداء وخوف العذاب وقرب نزوله والجواب عن الوجه الأول أن قوله سبحانه وتعالى ما كان لنبي أن تكون له أسرى حتى يثخن في الأرض يدل على أنه كان الأسر مشروعا ولكن بشرط الإثخان في الأرض وقد حصل لأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم قتلوا يوم بدر سبعين رجلا من عظماء المشركين وصناديدهم وأسروا سبعين وليس من شرط الإثخان في الأرض قتل جميع الناس فدلت الآية على جواز الأسر بعد الإثخان وقد حصل والجواب عن الوجه الثاني أن الأمر بالقتل إنما كان مختصا بالصحابة لإجماع المسلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بمباشرة قتال الكفار بنفسه وإذا ثبت أن الأمر بالقتل كان مختصا بالصحابة كان الذنب صادرا منهم لا من النبي صلى الله عليه وسلم والجواب عن الوجه الثالث وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم بأخذ الفداء وهو محرم فنقول لا نسلم أن أخذ الفداء كان محرما وأما قوله سبحانه وتعالى تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ففيه عتاب لطيف على أخذ الفداء من الأسارى والمبادرة إليه ولا يدل على تحريم الفداء إذ لو كان حراما في علم الله لمنعهم من أخذه مطلقا والجواب عن الوجه الرابع وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر قعدا يبكيان يحتمل أن يكون لأجل أن بعض الصحابة لما خالف الأمر بالقتل واشتغل بالأسر استوجب بذلك الفعل العذاب فبكى النبي صلى الله عليه وسلم خوفا وإشفاقا من نزول العذاب عليهم بسبب ذلك الفعل وهو الأسر وأخذ الفداء والله أعلم ﴿ق﴾ قوله عز وجل (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) قال ابن عباس كانت الغنائم محرمة على الأنبياء والأمم فكانوا إذا أصابوا مغنما جعلوه للقربان فكانت النار تنزل من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في أخذ الغنائم والفداء فأنزل الله عز وجل لولا كتاب من الله سبق يعني لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحل لكم الغنائم لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ومجاهد وسعيد بن جبير لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن جريج لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأنه لا يأخذ قوما فعلوا أشياء بجهالة لمسكم يعني لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به عذاب عظيم قال محمد بن إسحق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرا إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب فإنه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الأسرى وسعد بن معاذ فإنه قال يا رسول الله كان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ ﴿ق﴾ وقوله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) يعني فقد أحلت لكم الغنائم وأخذ الفداء فكلوا مما غنمتم

في عتاب الأولياء (لولا كتاب من الله) لولا حكم من الله (سبق) أن لا يعذب أحدا على العمل بالاجتهاد وكان هذا اجتهادا منهم لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سببا في إسلامهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم أو ما كتب الله في اللوح أن لا يعذب أهل بدر أو كان لا يؤاخذ قبل البيان والإعذار وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد فيكون حجة على منكري القياس كتاب مبتدأ ومن الله صفته أي لولا كتاب ثابت من الله وسبق صفة أخرى له وخبر المبتدأ محذوف أي لولا كتاب بهذه الصفة في الوجود وسبق لا يجوز أن يكون خبرا لأن لولا لا يظهر خبرها أبدا (لمسكم) لنالكم وأصابكم (فيما أخذتم) من فداء الأسرى (عذاب عظيم) روي أن عمر رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يا رسول الله أخبرني فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت فقال أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه وروي أنه عليه السلام قال لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ لقوله كان الإثخان في القتل أحب إلي (فكلوا مما غنمتم) روي أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها فنزلت وقيل هو إباحة للفداء لأنه من جملة الغنائم والفاء للتسبيب والسبب محذوف ومعناه قد أبحت لكم الغنائم فكلوا (حلالا) مطلقا عن العتاب والعقاب من حل الحبل وهو نصب على الحال من المغنوم أو صفة للمصدر أي أكلا حلالا (طيبا) لذيذا هنيئا أو حلالا بالشرع طيبا بالطبع

(واتقوا الله) فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه (إن الله غفور) لما عملتم من قبل (رحيم) بإحلال ما غنمتم (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم)
فيما ملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم (من الاسرى) جمع أسير من
الاسارى أبو عمرو وجمع أسرى
(ان يعلم الله في قلوبكم خيرا) خلوص ايمان وصحة نية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء بأن يخلفكم في الدنيا أضعافه أو يثيبكم في الآخرة (ويغفر لكم والله غفور رحيم) روى أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مال البحرين ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ منه ما قدر على حمله وكان يقول هذا خير مما أخذ مني وأرجو المغفرة وكان له عشرون عبدا وإن أدناهم ليتجر في عشرين ألفا وكان يقول أنجز الله أحد الوعدين وأنا على ثقة من الآخر (وان يريدوا) أي الاسرى (خيانتك) بنكث ما بايعوك عليه من الاسلام بالردة أو منع ما ضمنوه من الفداء (فقد خانوا الله من قبل) في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه (فأمكن منهم) فأمكنك منهم أي أظفرك بهم كما رأيتم يوم بدر فليتوقعوا مثله ان عادوا الى الخيانة (والله عليم) بخلقه (حكيم) فيما أمر في الحال (ان الذين آمنوا وهاجروا) من مكة حبا لله ورسوله (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) هم المهاجرون (والذين آووا ونصروا) أي آووهم الى ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الانصار (أولئك

حلالا طيبا وروي انه لما نزلت الآية الاولى كف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت وكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فأحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الامة وكانت قبل ذلك حراما على جميع الامم الماضية صح من حديث جابر بن عبد الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي (ق) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم تحل الغنائم لاحد قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم وذلك ان الله رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (واتقوا الله ان الله غفور رحيم) يعني وخافوا الله أن تعودوا وان تعملوا شيأ من قبل أنفسكم قبل أن تؤمروا به واعلموا أن الله قد غفر لكم ما أقدمتم عليه من هذا الذنب ورحمكم وقيل في قوله واتقوا الله اشارة الى المستقبل وقوله ان الله غفور رحيم اشارة الى الحالة الماضية ﴿ قوله سبحانه وتعالى (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم) نزلت في العباس ابن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة الى بدر وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها اذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا ولم يطعم شيأ وبقيت العشرون أوقية معه فلما أسر أخذت منه فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحتسب العشرين أوقية من فدائه فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أما شيء خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك وكلف فداء ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث فقال العباس يا محمد تتركني أتكفف قريشا ما بقيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين الذهب الذي دفعته أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها اني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فان حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله والفضل وقثم يعني بنيه فقال العباس وما يدريك يا ابن أخي قال أخبرني به ربي قال العباس أشهد انك لصادق وأشهد أن لا اله الا الله وانك عبده ورسوله لم يطلع عليه أحد الا الله وأمر ابني أخيه عقيلا ونوفل بن الحرث فأسلما ففي ذلك قوله سبحانه وتعالى يا أيها النبي قل لمن في أيديكم (من الاسرى) يعني الذين أسرتموهم وأخذتم منهم الفداء (ان يعلم الله في قلوبكم خيرا) يعني ايمانا وتصديقا (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) يعني من الفداء (ويغفر لكم) يعني ما سلف منكم قبل الايمان (والله غفور) يعني لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه (رحيم) يعني بأهل طاعته قال العباس فأبدلني الله خيرا مما أخذ مني عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية وأعطاني زمزم وما أحب ان لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي عز وجل وقوله تعالى (وان يريدوا) يعني الاسارى (خيانتك) يعني أن يكفروا بك (فقد خانوا الله) يعني فقد كفروا بالله (من قبل) وقيل معناه وان نقضوا العهد ورجعوا الى الكفر فقد خانوا الله بذلك (فأمكن) يعني فأمكن الله المؤمنين (منهم) ببدر حتى قتلوا منهم وأسروا منهم وهذه هي غاية الامكان وفيه بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بانه يتمكن من كل من يخونه أو ينقض عهده (والله عليم) يعني بما في بواطنهم وضمائرهم من ايمان وتصديق أو خيانة ونقض عهد (حكيم) يعني حكم بانه يجازي كلا بعمله الخير بالثواب والشر بالعقاب ﴿ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) يعني ان الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وصدقوا بما جاءهم به وهاجروا يعني وهجروا ديارهم وقومهم في ذات الله عز وجل وابتغاء رضوان الله وهم المهاجرون الاولون وجاهدوا يعني وبذلوا أنفسهم في سبيل الله يعني في طاعة الله وابتغاء رضوانه (والذين آووا ونصروا) يعني آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه من المهاجرين وأسكنوهم منازلهم ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الانصار (أولئك) يعني المهاجرين والانصار

بعضهم أولياء بعض) أي يتولى بعضهم بعضا في الميراث وكان المهاجرون والانصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوي القرابات حتى نسخ
ذلك بقوله وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض وقيل أراد به النصرة والمعاونة (والذين آمنوا ولم يهاجروا) من مكة (مالكم من ولايتهم) من
توليهم في الميراث ولا يتم حرة وقيل هما واحد (من شيء حتى يهاجروا) فكان لا يرث المؤمن الذي لم يهاجر ممن آمن وهاجر ولما نفى عن الذين لم
يهاجروا اسم الايمان وكانت الهجرة فريضة فصار وابتركها مرتكبين كبيرة دل أن صاحب الكبيرة

لا يخرج من الايمان (وان استنصروكم) أي من أسلم ولم يهاجر (في الدين فعليكم النصر) أي ان وقع بينهم وبين الكفار قتال وطلبوا معونة فواجب عليكم أن تنصروهم على الكافرين (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فانه لا يجوز لكم نصرهم عليهم لانهم لا يبتدؤن بالقتال اذ الميثاق مانع من ذلك (والله بما تعملون بصير) تحذير عن تعدي حد الشرع (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) ظاهره اثبات للموالاة بينهم ومعناه نهي المسلمين عن موالاة الكفار وموارثتهم وايجاب مباعدتهم ومصارمتهم وان كانوا أقارب وان يتركوا يتوارثون بعضهم بعضا ثم قال (الا تفعلوه) أي الا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضا حتى في التوارث تفضيلا لنسبة الاسلام على نسبة القرابة ولم تجعلوا قرابة الكفار كلا قرابة (تكن فتنة في الارض وفساد كبير)

تحصل فتنة في الارض ومفسدة عظيمة لان المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك كان الشرك
ظاهرا والفساد زائدا (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) لانهم صدقوا ايمانهم (وهاجروا
وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الاهل والسكن والانسلاخ من المال والدنيا لاجل الدين والعقبى (لهم مغفرة ورزق
كريم) لا منة فيه ولا تنغيص ولا تكرار لان هذه الآية واردة للثناء عليهم مع الوعد الكريم والاولى للامر بالتواصل (والذين آمنوا من بعد)

(بعضهم أولياء بعض) يعني في العون والنصر دون أقربائهم من الكفار وقال ابن عباس في الميراث
وكانوا يتوارثون بالهجرة وكان المهاجرون والانصار يتوارثون دون أقربائهم وذوي أرحامهم وكان من
آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالارحام حيثما كانوا
فصار ذلك منسوخا بقوله تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ۞ وقوله تعالى (والذين آمنوا
ولم يهاجروا) يعني آمنوا وأقاموا بمكة (مالكم من ولايتهم من شيء) يعني من الميراث (حتى يهاجروا)
يعني الى المدينة (وان استنصروكم في الدين) يعني ان استنصركم الذين آمنوا ولم يهاجروا (فعليكم النصر)
يعني فعليكم نصرهم واعانتهم (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أي عهد فلا تنصروهم عليهم (والله بما
تعملون بصير والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) يعني في النصر والمعونة وذلك أن كفار قريش كانوا
معادين لليهود فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاونوا عليه جميعا قال ابن عباس يعني في الميراث وهو
أن يرث الكفار بعضهم من بعض (الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير) قال ابن عباس الا
تأخذوا في الميراث بما أمرتكم به وقال ابن جريج الا تعاونوا وتناصروا وقال ابن اسحق جعل الله المهاجرين
والانصار أهل ولاية في الدين دون من سواهم وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ثم قال سبحانه وتعالى
الا تفعلوه وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمنين تكن فتنة في الارض وفساد كبير فالفتنة في
الارض هي قوة الكفار والفساد الكبير هو ضعف المسلمين (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل
الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) يعني لا شك في ايمانهم ولا ريب لانهم حققوا
ايمانهم بالهجرة والجهاد وبذل النفس والمال في نصر الدين (لهم مغفرة) يعني لذنوبهم (ورزق
كريم) يعني في الجنة فان قلت ما معنى هذا التكرار قلت ليس فيه تكرار لانه سبحانه وتعالى ذكر في
الآية الاولى حكم ولاية المهاجرين والانصار بعضهم بعضا ثم ذكر في هذه الآية ما من به عليهم من
المغفرة والرزق الكريم وقيل ان اعادة الشيء مرة بعد أخرى تدل على مزيد الاهتمام به فلما ذكرهم أولا
ثم أعاد ذكرهم ثانيا دل ذلك على تعظيم شأنهم وعلو درجاتهم وهذا هو الشرف العظيم لانه تعالى ذكر
في هذه الآية من وجوه المدح ثلاثة أنواع أحدها قوله أولئك هم المؤمنون حقا وهذا يفيد الحصر وقوله
سبحانه وتعالى حقا يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محقين في طريق الدين وتحقيق هذا القول ان من فارق
أهله وداره التي نشأ فيها وبذل النفس والمال كان مؤمنا حقا النوع الثاني قوله سبحانه وتعالى لهم مغفرة
وتنكير لفظ المغفرة يدل على ان لهم مغفرة وأي مغفرة لا ينالها غيرهم والمعنى لهم مغفرة تامة كاملة ساترة
لجميع ذنوبهم النوع الثالث قوله سبحانه وتعالى ورزق كريم فكل شيء شرف وعظم في بابه قيل له كريم
والمعنى ان لهم في الجنة رزقا لا تلحقهم فيه غضاضة ولا تعب وقيل ان المهاجرين كانوا على طبقات فمنهم من
هاجر أولا الى المدينة وهم المهاجرون الاولون ومنهم من هاجر الى أرض الحبشة ثم هاجر الى المدينة فهم أصحاب
الهجرتين ومنهم من هاجر بعد صلح الحديبية وقيل فتح مكة فذكر الله في الآية الاولى أصحاب الهجرة الاولى
وذكر في الثانية أصحاب الهجرة الثانية والله أعلم بمراده ۞ وقوله سبحانه تعالى (والذين آمنوا من

بعد أي بعد السابقين الى الهجرة (وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) أيها المهاجرون والأنصار (وأولوا الأرحام) ذوو القرابات (بعضهم أولى ببعض) في الإرث من التوارث بالإيمان والهجرة المذكور في الآية السابقة (في كتاب الله) اللوح المحفوظ (إن الله بكل شيء عليم) ومنه حكمة الميراث

(سورة التوبة مدنية أو إلا الآيتين من آخرها مائة وثلاثون أو إلا آية)

لم تكتب فيها البسملة لأنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم وأخرج في معناه عن علي أن البسملة أمان وهي نزلت لرفع الأمن بالسيف

وجعلهم منهم تفضيلا وترغيبا (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) وأولوا القرابات أولى بالتوارث وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة (في كتاب الله) في حكمه وقسمته أو في اللوح أو في القرآن وهو آية المواريث وهو دليل لنا على توريث ذوي الأرحام (إن الله بكل شيء عليم) فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه قسم الناس أربعة أقسام قسم آمنوا وهاجروا وقسم آمنوا ونصروا وقسم آمنوا ولم يهاجروا وقسم كفروا ولم يؤمنوا

﴿سورة التوبة مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية كوفي ومائة وثلاثون غيره﴾

لها أسماء براءة التوبة المقشقشة المبعثرة المشردة المخزية الفاضحة المثيرة الحافرة المنكلة المدمدمة لأن فيها التوبة على المؤمنين وهي تقشقش من النفاق أي تبرئ منه وتبعثر عن أسرار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشردهم وتخزيهم وتدمدم عليهم وفي ترك التسمية في ابتدائها أقوال فعن علي وابن عباس رضي الله عنهم ان بسم الله أمان وبراءة نزلت لرفع الأمان وعن عثمان رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا نزلت عليه سورة أو آية قال اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أين نضعها وكانت قصتها تشبه قصة الأنفال لأن فيها ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود فلذلك قرنت بينهما وكانتا تدعيان القرينتين وتعدان السابعة من الطوال وهي سبع وقيل اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم الأنفال وبراءة سورة واحدة نزلت في القتال وقال بعضهم هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان وتركت بسم الله لقول من قال هما

وهاجروا وجاهدوا معكم) اختلفوا في قوله من بعد فقيل من بعد صلح الحديبية وهي الهجرة الثانية وقيل من بعد نزول هذه الآية وقيل من بعد غزوة بدر والأصح ان المراد به أهل الهجرة الثانية لأنها بعد الهجرة الأولى لأن الهجرة انقطعت بعد فتح مكة لأنها صارت دار إسلام بعد الفتح ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية أخرجاه في الصحيحين وقال الحسن الهجرة غير منقطعة ويجاب عن هذا بأن المراد منه الهجرة المخصوصة من مكة الى المدينة فأما من كان من المؤمنين في بلد يخاف على إظهار دينه من كثرة الكفار وجب عليه أن يهاجر الى بلد لا يخاف فيه على إظهار دينه وقوله تعالى (فأولئك منكم) يعني انهم منكم وأنتم منهم لكن فيه دليل على ان مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعلى من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لأن الله سبحانه وتعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم منهم وذلك معرض المدح والشرف ولولا أن المهاجرين الأولين أفضل وأشرف لما صح هذا الإلحاق ﴿وقوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) أي في الميراث فبين بهذه الآية ان سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والإخاء ونسخ بهذه الآية ذلك التوارث وقوله في كتاب الله يعني في حكم الله وقيل أراد به في اللوح المحفوظ وقيل أراد به القرآن وهي ان قسمة المواريث مذكورة في سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن وتمسك أصحاب الإمام أبي حنيفة بهذه الآية في توريث ذوي الأرحام وأجاب عنه الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنهما بأنه لما قال في كتاب الله كان معناه في حكم الله الذي بينه في سورة النساء فصارت هذه الآية مقيدة بالأحكام التي ذكرها في سورة النساء من قسمة المواريث وإعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقي فللعصبات ﴿وقوله سبحانه وتعالى (ان الله بكل شيء عليم) يعني انه سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لا يخفى عليه خافية والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة التوبة﴾

وهي مدنية بإجماعهم قال ابن الجوزي سوى آيتين في آخرها لقد جاءكم رسول من أنفسكم فإنهما نزلتا بمكة وهي مائة وتسع وعشرون آية وقيل مائة وثلاثون آية وأربعة آلاف وثمان وسبعون كلمة وعشرة آلاف وأربعمائة وثمانون حرفا ولهذه السورة أسماء عشرة سورة التوبة وسورة براءة وهذان الاسمان مشهوران وهي المقشقشة قاله ابن عمر سميت بذلك لأنها تقشقش من النفاق أي تبرئ منه وهي المبعثرة لأنها بعثرت عن أخبار المنافقين وبحثت عنها وأثارتها والفاضحة قاله ابن عباس لأنها فضحت المنافقين وسورة العذاب قاله حذيفة وهي المخزية لأن فيها خزي المنافقين وهي المدمدمة سميت بذلك لأن فيها هلاك المنافقين وهي المشردة سميت بذلك لأنها شردت جموع المنافقين وفرقتهم وهي المثيرة سميت بذلك لأنها أثارت مخازي المنافقين وكشفت عن أحوالهم وهتكت أستارهم عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سورة التوبة فقال بل هي الفاضحة ما زالت تقول ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها قال قلت سورة الأنفال قال نزلت في بدر قال قلت سورة الحشر قال بل سورة بني النضير أخرجاه في الصحيحين

﴿فصل في بيان سبب ترك كتابة التسمية في أول هذه السورة﴾ عن ابن عباس قال قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال وهي من المثاني والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله

هما سورة واحدة (براءة) خبر مبتدأ محذوف أي هذه براءة (من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) من لابتداء الغاية متعلق
بمحذوف وليس بصلة كما في قولك برئت من الدين أي هذه براءة واصلة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم كما تقول
كتاب من فلان الى فلان
أو مبتدأ لتخصصها بصفتها
والخبر الى الذين عاهدتم
كقولك رجل من بني تميم
في الدار والمعنى ان الله
ورسوله قد برئا من العهد
الذي عاهدتم به المشركين
وانه منبوذ اليهم (فسيحوا
في الارض أربعة أشهر)
فسيروا في الارض كيف
شئتم والسيح السير على
مهل روي أنهم عاهدوا
المشركين من أهل مكة
وغيرهم من العرب فنكثوا
الا ناسا منهم وهم بنو ضمرة
وبنو كنانة فنبذ العهد الى
الناكثين وأمروا أن
يسيحوا في الارض
أربعة أشهر آمنين أين
شاؤا لا يتعرض لهم وهي
الاشهر الحرم في قوله فاذا
انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا
المشركين وذلك لصيانة
الاشهر الحرم من القتل
والقتال فيها وكان نزولها
سنة تسع من الهجرة وفتح
مكة سنة ثمان وكان الامير
فيها عتاب بن أسيد وأمر
رسول الله صلى الله عليه
وسلم أبا بكر على موسم سنة
تسع ثم أتبعه عليا راكب
العضباء ليقرأها على أهل
الموسم فقيل له لو بعثت بها
الى أبي بكر فقال لا يؤدي عني الا رجل مني فلما دنا علي سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال هذا رغاء ناقة
رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال أمير أو مأمور قال مأمور فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم وقام
علي يوم النحر عند جمرة العقبة فقال يا أيها الناس اني رسول رسول الله اليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال أمرت

أربعة

الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال ما حملكم على ذلك قال عثمان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان اذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا واذا نزلت عليه الآية يقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الانفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت أنها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها ومن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن قال الزجاج والشبه الذي بينهما أن في الانفال ذكر العهود وفي براءة نقضها وكان قتادة يقول هما سورة واحدة وقال محمد بن الحنفية قلت لابي يعني علي بن أبي طالب لم لم تكتبوا في براءة بسم الله الرحمن الرحيم قال يا بني ان براءة نزلت بالسيف وان بسم الله الرحمن الرحيم أمان وسئل سفيان بن عيينة عن هذا فقال لان التسمية رحمة والرحمة أمان وهذه السورة نزلت في المنافقين وقال المبرد لم تفتتح هذه السورة الشريفة ببسم الله الرحمن الرحيم لان التسمية افتتاح للخير وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود فلذلك لم تفتتح بالتسمية وسئل أبي بن كعب عن هذا فقال انها نزلت في آخر القرآن وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر في كل سورة بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم ولم يأمر في براءة فضمت الى الانفال لشبهها بها وقيل ان الصحابة اختلفوا في أن سورة الانفال وسورة براءة هل هما سورة واحدة أم سورتان فقال بعضهم سورة واحدة لانهما نزلتا في القتال ومجموعهما معا مائتان وخمس آيات فكانت هي السورة السابعة من السبع الطوال وقال بعضهم هما سورتان فلما حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول انهما سورتان ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبيها على قول من يقول هما سورة واحدة أما التفسير فقوله تعالى (براءة من الله ورسوله) يعني هذه براءة من الله ورسوله وأصل البراءة في اللغة انقطاع العصمة يقال برئت من فلان أبرأ براءة أي انقطعت بيننا العصمة ولم يبق بيننا علقة وقيل معناها التباعد مما تكره مجاورته قال المفسرون لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك كان المنافقون يرجفون الاراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم وذلك قوله سبحانه وتعالى واما تخافن من قوم خيانة الآية ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمر به ونبذ اليهم عهودهم قال الزجاج أي قد برئ الله ورسوله من اعطائهم العهود والوفاء بها اذا نكثوا (الى الذين عاهدتم من المشركين) الخطاب مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وان كان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي عاهدهم وعاقدهم الا أنه هو واله وأصحابه بذلك راضون فكأنهم هم عقدوا وعاهدوا وقوله سبحانه وتعالى (فسيحوا في الارض) أي قل لهم في الارض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحدا من المشركين وأصل السياحة الضرب في الارض والاتساع فيها والبعد عن مواضع العمارة قال ابن الانباري قوله فسيحوا فيه مضمر أي قل لهم فسيحوا وليس هذا من باب الامر بل المقصود منه الاباحة والاطلاق والاعلام بحصول الامان وز سيحوا في الارض وأنتم آمنون من القتل والقتال (أربعة أشهر) يعني مدة أربعة أشهر في هذا التأجيل ومن هؤلاء الذين برئ الله ورسوله اليهم من العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مجاهد هذا التأجيل من الله للمشركين فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفعه الى

أربعة أشهر ومن كانت مدته أكثر حطه الى أربعة أشهر ومن كان عهده بغير أجل معلوم محدود حده بأربعة أشهر ثم هو بعد ذلك حرب يقتل ويقتل حيث أدرك ويؤسر الا أن يتوب ويرجع الى الايمان وقيل ان المقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا ويحتاطوا لانفسهم ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة الا الاسلام أو القتل فيصير هذا داعيا لهم الى الدخول فى الاسلام ولئلا ينسب المسلمون الى الغدر ونكث العهد وكان ابتداء هذا الاجل يوم الحج الاكبر وانقضاؤه الى عشر من ربيع الآخر فأما من لم يكن له عهد فانما أجله انسلاخ الاشهر الحرم وذلك خمسون يوما قال الزهرى الاشهر الاربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لان هذه الآية نزلت فى شوال والقول الاول أصوب وعليه الاكثرون وقال الكلبى انما كانت الاربعة أشهر عهدا لمن كان له عهد دون الاربعة أشهر فأتم له الاربعة أشهر فأما من كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر باتمام عهده بقوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم وقيل كان ابتداؤها فى العاشر من ذى القعدة وآخرها العاشر من ربيع الاول لان الحج فى تلك السنة كان فى العاشر من ذى القعدة بسبب النسىء ثم صار فى السنة المقبلة فى العاشر من ذى الحجة وفيها حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الزمان قد استدار الحديث وقال الحسن أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بقتال من قاتله من المشركين فقال تعالى قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم فكان لا يقاتل الا من قاتله ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر فلم يكن لاحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد وكان الاجل لجميعهم أربعة أشهر وأحل دماء جميعهم من أهل العهود وغيرهم بعد انقضاء الاجل وقال محمد بن إسحق ومجاهد وغيرهما نزلت فى أهل مكة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بنو بكر فى عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأعانتهم قريش بالسلاح فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال

لاهم انى ناشد محمدا * حلف أبينا وأبيه الاتلدا
كنت لنا أبا وكنا ولدا * ثمت أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أبدا * وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا * فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
أبيض مثل الشمس يسمو صعدا * ان سيم خطب وجهه تربدا
ان قريشا أخلفوك الموعدا * ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا ان لست تنجى أحدا * وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالحطيم هجدا * وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نصرت ان لم أنصركم وتجهز الى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة فلما كانت سنة تسع أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحج فقيل له المشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة فقال لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك فبعث أبا بكر فى تلك السنة أميرا على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه أربعين آية من سورة براءة ليقرأها على أهل الموسم ثم بعث بعده عليا على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة أن قد برئت ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فرجع أبو بكر فقال يا رسول الله بأبى أنت وأمى أنزل فى شأنى شئ فقال لا ولكن لا ينبغى لاحد أن يبلغ هذا الا رجل من أهلى أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معى فى الغار وانك معى على الحوض قال بلى يا رسول الله فسار أبو بكر أميرا على الحاج وعلى بن أبى طالب يؤذن ببراءة فلما كان

لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان أو لا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة وان يتم الى كل ذى عهد عهده فقالوا عند ذلك يا على أبلغ ابن عمك انا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وانه ليس بيننا وبينه عهد الا طعن بالرماح وضرب بالسيوف والاشهر الاربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم أو عشرون من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الاول وعشر من ربيع الآخر وكانت حرما لانهم أمنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم أو على التغليب لان ذا الحجة والمحرم منها والجمهور على اباحة القتال فى الاشهر الحرم وان ذلك قد نسخ

قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس وحدثهم عن مناسكهم فأقام للناس الحج والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من أمر الحج حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأذن في الناس بالذي أمر به وقرأ عليهم أول سورة براءة وقال يزيد بن تبيع سألنا عليا بأي شيء بعثت في الحجة قال بعثت بأربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا في حج ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع (ق) عن أبي هريرة أن أبا بكر بعثه في الحجة التي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفي رواية ثم أردف النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فأذن معنا في أهل منى ببراءة أن لا يحج بالبيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفي رواية ويوم الحج الأكبر يوم النحر والحج الأكبر الحج وإنما قيل الحج الأكبر من أجل قول الناس للعمرة الحج الأصغر قال فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك فلم يحج في العام القابل الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مشرك وأنزل الله في العام الذي نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله الآية

﴿فصل﴾ قد يتوهم متوهم أن في بعث علي بن أبي طالب بقراءة أول براءة عزل أبي بكر عن الإمارة وتفضيله على أبي بكر وذلك جهل من هذا المتوهم ويدل على أن أبا بكر لم يزل أميرا على الموسم في تلك السنة أول حديث أبي هريرة المتقدم أن أبا بكر بعثه في رهط يؤذنون في الناس الحديث وفي لفظ أبي داود والنسائي قال بعثني أبو بكر فيمن يؤذن في يوم النحر بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فقوله بعثني أبو بكر فيه دليل على أن أبا بكر كان هو الأمير على الناس وهو الذي أقام للناس حجهم وعلمهم مناسكهم وأجاب العلماء عن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ليؤذن في الناس ببراءة بأن عادة العرب جرت أن لا يتولى تقرير العهد ونقضه إلا سيد القبيلة وكبيرها أو رجل من أقاربه وكان علي بن أبي طالب أقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أبي بكر لأنه ابن عمه ومن رهطه فبعثه النبي صلى الله عليه وسلم ليؤذن عنه ببراءة إزاحة لئلا يقولوا هذا على خلاف ما نعرفه من عادتنا في عقد العهود ونقضها وقيل لما خص أبا بكر بتوليته على الموسم خص عليا بتبليغ هذه الرسالة تطييبا لقلبه ورعاية لجانبه وقيل إنما بعث عليا في هذه الرسالة حتى يصلي خلف أبي بكر ويكون جاريا مجرى التنبيه على إمامة أبي بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر أميرا على الحاج وولاه الموسم وبعث عليا خلفه ليقرأ على الناس براءة فكان أبو بكر الإمام وعلي المؤتم وكان أبو بكر الخطيب وعلي المستمع وكان أبو بكر المتولي أمر الموسم والأمير على الناس ولم يكن ذلك لعلي فدل ذلك على تقديم أبي بكر على علي وفضله عليه والله أعلم ۞ وقوله تعالى (واعلموا أنكم غير معجزي الله) يعني أن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم ولكن لمصلحة ولتوبة من تاب وإنما معناه فسيحوا في الأرض أربعة أشهر عالمين أنكم لا تعجزون الله بل هو يعجزكم ويأخذكم وأنتم في قبضته وتحت قهره وسلطانه وقيل معناه إنما أمهلكم هذه المدة لأنه لا يخاف الفوت ولا يعجزه شيء (وأن الله مخزي الكافرين) يعني بالقتل والعذاب في الآخرة ۞ قوله عز وجل (وأذان من الله ورسوله) الأذان الإعلام ومنه الأذان للصلاة لأنه إعلام بدخول وقتها والمعنى وإعلام صادر من الله ورسوله واصل (يوم الحج الأكبر) اختلفوا في يوم الحج الأكبر فروى عكرمة عن ابن عباس أنه يوم عرفة وروي عن عمر وابن الزبير وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب وعن علي بن أبي طالب قال سألت

(واعلموا أنكم غير معجزي الله) لا تفوتونه وإن أمهلكم (وأن الله مخزي الكافرين) مذلهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالعذاب (وأذان من الله ورسوله إلى الناس) ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين ثم الجملة معطوفة على مثلها والأذان بمعنى الإيذان وهو الإعلام كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء والفرق بين الجملة الأولى والثانية أن الأولى إخبار بثبوت البراءة والثانية إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت وإنما علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم وأما الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث (يوم الحج الأكبر) يوم عرفة لأن الوقوف بعرفة معظم أفعال الحج أو يوم النحر لأن فيه تمام الحج من الطواف والنحر والحلق والرمي ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر

الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الاكبر فقال يوم النحر أخرجه الترمذي وقال وروى موقوفاً عليه وهو أصح وعن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها فقال أي يوم هذا قالوا يوم النحر فقال هذا يوم الحج الاكبر أخرجه أبو داود وروى ذلك عن عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والسدي وروى ابن جريج عن مجاهد ان يوم الحج الاكبر أيام منى كلها وكان سفيان الثوري يقول يوم الحج الاكبر أيام منى كلها لان اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان كقولك يوم صفين ويوم الجمل لان الحروب دامت في تلك الايام ويطلق عليها يوم واحد وقال عبد الله بن الحرث بن نوفل يوم الحج الاكبر الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول ابن سيرين لانه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده فعظم ذلك اليوم عند المؤمنين والكافرين قال مجاهد الحج الاكبر القران لانه قرن بين الحج والعمرة وقال الزهري والشعبي وعطاء الحج الاكبر الحج والحج الاصغر العمرة وانما قيل لها الاصغر لنقصان أعمالها عن الحج وقيل سمي الحج الاكبر لموافقة حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة فودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وذكر في خطبته ان الزمان قد استدار وأبطل النسيء وجميع أحكام الجاهلية ﴿وقوله سبحانه وتعالى (أن الله برئ من المشركين ورسوله) فيه حذف والتقدير وأذان من الله ورسوله بأن الله برئ من المشركين وانما حذفت الباء لدلالة الكلام عليها وفي رفع رسوله وجوه الاول انه رفع بالابتداء وخبره مضمر والتقدير ان الله برئ من المشركين ورسوله أيضاً برئ الثاني تقديره برئ الله ورسوله من المشركين الثالث ان الله في محل الرفع بالابتداء وبرئ خبره ورسوله عطف على المبتدا فان قلت لا فرق بين قوله براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين وبين قوله ان الله برئ من المشركين ورسوله فما فائدة هذا التكرار قلت المقصود من الآية الاولى البراءة من العهد ومن الآية الثانية البراءة التي هي نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد والذي يدل على صحة هذا الفرق انه قال في أولها براءة من الله ورسوله الى يعني برئ اليهم وفي الثانية برئ منهم ﴿وقوله تعالى (فان تبتم) يعني فان رجعتم عن شرككم وكفركم (فهو خير لكم) يعني من الاقامة على الشرك وهذا ترغيب من الله في التوبة والاقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار (وان توليتم) يعني أعرضتم عن الايمان والتوبة من الشرك (فاعلموا أنكم غير معجزي الله) فيه وعيد عظيم واعلام لهم بان الله سبحانه وتعالى قادر على انزال العذاب بهم وهو قوله تعالى (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) يعني في الآخرة ولفظ البشارة هنا انما ورد على سبيل الاستهزاء كما يقال تحيتهم الضرب وجاكرامهم الشتم ﴿قوله سبحانه وتعالى (الا الذين عاهدتم من المشركين) هذا الاستثناء راجع الى قوله تعالى براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين يعني الا من عهد الذين عاهدتم من المشركين وهم بنو ضمرة حي من كنانة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه انهم لم ينقضوا العهد وهو قوله تعالى (ثم لم ينقصوكم شيأ) يعني من عهودهم التي عاهدتموهم عليها (ولم يظاهروا) يعني ولم يعاونوا (عليكم أحدا) من عدوكم فقال صاحب الكشاف وجهه أن يكون مستثنى من قوله فسيحوا في الارض لان الكلام خطاب للمسلمين ومعناه براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا في الارض الا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقصوكم (فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد ان أمر في الناكثين لكن الذين لم ينكثوا فأتموا اليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفي كالغادر
فقال لا
يعني على

(أن الله بريء من المشركين) أي بأن الله حذفت منه الاذان تخفيفا (ورسوله) عطف على المنوى في بريء أو على الابتداء وحذف الخبر أي ورسوله بريء وقرئ بالنصب عطفا على اسم ان والجر على الجوار أو على القسم كقوله لعمرك وحكي ان اعرابيا سمع رجلا يقرؤها فقال ان كان الله بريئا من رسوله فانا منه بريء فلببه الرجل الى عمر فحكى الاعرابي قراءته فعندها أمر عمر بتعلم العربية (فان تبتم) من الكفر والغدر (فهو) أي التوبة (خير لكم) من الاصرار على الكفر (وان توليتم) عن التوبة أو ثبتم على التولي والاعراض عن الاسلام (فاعلموا أنكم غير معجزي الله) غير سابقين الله ولا فائتين أخذه وعقابه (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) مكان بشارة المؤمنين بنعيم مقيم (الا الذين عاهدتم من المشركين) استثناء من قوله فسيحوا في الارض والمعنى براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم سيحوا الا الذين عاهدتم منهم (ثم لم ينقصوكم شيأ) من شروط العهد أي وفوا بالعهد ولم ينقضوه وقرئ لم ينقضوكم أي عهدكم وهو أليق لكن المشهورة أبلغ لانه في مقابلة التمام (ولم يظاهروا عليكم أحدا) ولم يعاونوا عليكم عدوا (فأتموا اليهم عهدهم) فادوه اليهم تاما كاملا (الى مدتهم) الى تمام مدتهم والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمر في الناكثين لكن الذين لم ينكثوا فأتموا اليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفي كالغادر

(إن الله يحب المتقين) يعني أن قضية التقوى أن لا يسوى بين الفريقين فاتقوا الله في ذلك (فإذا انسلخ) مضى أو خرج (الأشهر الحرم) التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا (فاقتلوا المشركين) الذين نقضوكم وظاهروا عليكم (حيث وجدتموهم) من حل أو حرم (وخذوهم) وأسروهم والأخيذ الأسير (واحصروهم) وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد (واقعدوا لهم كل مرصد) كل ممر ومجتاز ترصدونهم به واتنصابه على الظرف (فإن تابوا) عن الكفر (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) فأطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر أو فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم (إن الله غفور) يستر الكفر والغدر بالإسلام (رحيم) يرفع القتل قبل الأداء بالالتزام (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره) أحد مرتفع بفعل شرط مضمر يفسره الظاهر أي وإن استجارك أحد استجارك والمعنى وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن فأمنه (حتى يسمع كلام الله) ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر (ثم أبلغه) بعد ذلك (مأمنه) داره التي يأمن فيها إن لم يسلم ثم قاتله إن شئت وفيه دليل على أن المستأمن لا يؤذى وليس له الإقامة في دارنا ويمكن من العود (ذلك) أي الأمر بالإجارة في قوله فأجره (بأنهم قوم لا يعلمون) بسبب أنهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) كيف استفهام في معنى الاستنكار أي مستنكر أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا في ذلك ولا تحدثوا به نفوسكم ولا تفكروا في قتلهم ثم استدرك ذلك بقوله (إلا الذين عاهدتم) أي ولكن الذين عاهدتم منهم (عند المسجد الحرام) ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة وبني ضمرة فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم (فما استقاموا لكم) ولم يظهر منهم نكث أي فما أقاموا على وفاء العهد (فاستقيموا لهم) على الوفاء وما شرطية أي فإن استقاموا لكم فاستقيموا

نقضوا العهود كالغادر (إن الله يحب المتقين) يعني أن قضية التقوى تقتضي أن لا يسوى بين المسلمين يعني الوفي بالعهد والناكث له والغادر فيه ❁ قوله سبحانه وتعالى (فإذا انسلخ الأشهر الحرم) يعني فإذا انقضت الأشهر الحرم ومضت وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقال مجاهد ومحمد بن إسحق هي شهور العهد فسميت حرما لحرمة نقض العهد فيها لمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر ومن لا عهد له فأجله إلى انقضاء المحرم وذلك خمسون يوما وقيل إنما قيل لها حرم لأن الله سبحانه وتعالى حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم فإن قلت على هذا القول هذه المدة هي الخمسون يوما من الأشهر الحرم والله سبحانه وتعالى قال فإذا انسلخ الأشهر الحرم قلت لما كان هذا القدر من الأشهر متصلا بما مضى أطلق عليه اسم الجمع والمعنى فإذا انقضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الحرم (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) يعني في الحل والحرم وهذا أمر إطلاق يعني اقتلوهم في أي وقت وأي مكان وجدتموهم (وخذوهم) يعني وأسروهم (واحصروهم) أي واحبسوهم قال ابن عباس يريد إن تحصنوا فاحصروهم واحبسوهم من الخروج وقيل امنعوهم من دخول مكة والتصرف في بلاد الإسلام (واقعدوا لهم كل مرصد) يعني على كل طريق والمرصد الموضع الذي يقعد فيه العدو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته والمعنى كونوا لهم رصدا حتى تأخذوهم من أي وجه توجهوا وقيل معناه اقعدوا لهم بطريق مكة حتى لا يدخلوها (فإن تابوا) يعني من الشرك ورجعوا إلى الإيمان (وأقاموا الصلاة) يعني وأتموا أركان الصلاة المفروضة (وآتوا الزكاة) الواجبة عليهم طيبة بها أنفسهم (فخلوا سبيلهم) يعني إلى الدخول إلى مكة والتصرف في بلادهم (إن الله غفور) يعني لمن تاب ورجع من الشرك إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة (رحيم) يعني بأوليائه وأهل طاعته وقال الحسين بن الفضل نسخت هذه الآية كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذى الأعداء ❁ قوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) يعني وإن استأمنك يا محمد أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله الذي أنزل عليك وهو القرآن فأجره حتى يسمع كلام الله ويعرف ما له من الثواب إن آمن وما عليه من العقاب إن أصر على الكفر (ثم أبلغه مأمنه) يعني إن لم يسلم أبلغه إلى الموضع الذي يأمن فيه وهو دار قومه وإن قاتلك بعد ذلك وقدرت عليه فاقتله (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) أي لا يعلمون دين الله وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله عز وجل قال الحسن هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) هذا على وجه التعجب ومعناه الجحد أي لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد ثم استثنى فقال سبحانه وتعالى (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) قال ابن عباس هم قريش وقال قتادة هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وقال السدي ومحمد بن عباد ومحمد بن إسحق هم بنو جذيمة بن بكر وبنو مدلج وبنو الديل قبائل من بني بكر كانوا دخلوا في عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية وقال مجاهد هم أهل العهد من خزاعة (فما استقاموا لكم) يعني على العهد (فاستقيموا لهم) يعني ما أقاموا على العهد ثم إنهم لم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بني بكر على خزاعة

فضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم اما أن يسلموا واما أن يلحقوا بأي بلاد شاؤا فاسلموا قبل الاربعة الاشهر والصواب من ذلك قول من قال انهم قبائل من بني بكر وهم خزيمة وبنو مدلج من ضمرة وبنو الديل وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية ولم يكن نقض العهد الا قريش وبنو الديل من بني بكر فامر باتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة وانما كان الصواب هذا القول لان هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وذلك قبل فتح مكة لان بعد الفتح كيف يقول لشئ قد مضى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم وانما هم الذين قال الله عز وجل فيهم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ كما نقصكم قريش ولم يظاهروا عليكم أحدا كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة وهم حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ۞ وقوله تعالى (ان الله يحب المتقين) يعني أنه سبحانه وتعالى يحب الذين يوفون بالعهد اذا عاهدوا ويتقون نقضه (كيف وان يظهروا عليكم) قيل هذا مردود على الآية الاولى تقديره كيف يكون لهم عهد وان يظهروا عليكم (لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة) وقال الاخفش معناه كيف لا تقتلونهم وهم ان يظهروا عليكم أي يظفروا بكم ويغلبوكم ويعلوا عليكم لا يرقبوا أي لا يحفظوا وقيل معناه لا ينتظروا وقيل معناه لا يراعوا فيكم الا قال ابن عباس يعني قرابة وقيل رحما وهذا المعنى قول ابن عباس أيضا وقال قتادة الال الحلف وقال السدى هو العهد وكذلك الذمة وانما كررا تأكيدا ولاختلاف اللفظين وقال أبو مجلز ومجاهد الال هو الله عز وجل ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما سمع كلام مسيلمة الكذاب ان هذا الكلام لم يخرج من ال يعني من الله وعلى هذا القول يكون معنى الآية لا يرقبون الله فيكم ولا يحفظونه ولا يراعونه ولا ذمة يعني ولا يحفظون عهدا (يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم) يعني يطيعونكم بالسنتهم بخلاف ما في قلوبهم (وأكثرهم فاسقون) فان قلت ان الموصوفين بهذه الصفة كفار والكفر أخبث وأقبح من الفسق فكيف وصفهم بالفسق في معرض الذم وما الفائدة في قوله وأكثرهم فاسقون مع ان الكفار كلهم فاسقون قلت قد يكون الكافر عدلا في دينه وقد يكون فاسقا خبيث النفس في دينه فالمراد بوصفهم بكونهم فاسقين أنهم نقضوا العهد وبالغوا في العداوة فوصفهم بكونهم فاسقين مع كفرهم فيكون أبلغ في الذم وانما قال وأكثرهم ولم يقل كلهم فاسقون لان منهم من وفى بالعهد ولم ينقضه وأكثرهم نقضوا العهد فلهذا قال سبحانه وتعالى وأكثرهم فاسقون ۞ وقوله تعالى (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) يعني استبدلوا بآيات القرآن والايمان بها عرضا قليلا من متاع الدنيا وذلك انهم نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أكلة أطعمهم اياها أبو سفيان بن حرب فذمهم الله بذلك قال مجاهد أطعم أبو سفيان حلفاءه وترك حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (فصدوا عن سبيله) يعني منعوا الناس عن الدخول في دين الله قال ابن عباس وذلك ان أهل الطائف أمدوهم بالاموال ليقووهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم (انهم ساء ما كانوا يعملون) يعني من الشرك ونقضهم العهد ومنعهم الناس عن الدخول في دين الاسلام (لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة) يعني ان هؤلاء المشركين لا يراعون في مؤمن عهدا ولا ذمة اذا قدروا عليه قتلوه فلا تبقوا أنتم عليهم كما لم يبقوا عليكم اذا ظهروا عليكم (وأولئك هم المعتدون) يعني في نقض العهد ۞ قوله عز وجل (فان تابوا) يعني فان رجعوا عن الشرك الى الايمان وعن نقض العهد الى الوفاء به (وأقاموا الصلاة) يعني المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها (وآتوا الزكاة) يعني وبذلوا الزكاة المفروضة عليهم طيبة بها أنفسهم (فاخوانكم في الدين) يعني اذا فعلوا ذلك فهم اخوانكم في الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم (ونفصل الآيات لقوم يعلمون) يعني ونبين حجج أدلتنا

(ان الله يحب المتقين) يعني أن التربص بهم من أعمال المتقين (كيف وان يظهروا عليكم) تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوما أي كيف يكون لهم عهد وحالهم انهم ان يظهروا عليكم أي يظفروا بكم بعدما سبق لهم من تأكيد الايمان والمواثيق (لا يرقبوا فيكم الا) لا يراعوا حلفا ولا قرابة (ولا ذمة) عهدا (يرضونكم بأفواههم) بالوعد بالايمان والوفاء بالعهد وهو كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد (وتأبى قلوبهم) الايمان والوفاء بالعهد (وأكثرهم فاسقون) ناقضون العهد أو متمردون في الكفر لا مروءة تمنعهم عن الكذب ولا شمائل تردعهم عن النكث كما يوجد ذلك في بعض الكفرة من التفادي عنهما (اشتروا) استبدلوا (بآيات الله) بالقرآن (ثمنا قليلا) عرضا يسيرا وهو اتباع الاهواء والشهوات (فصدوا عن سبيله) فعدلوا عنه وصرفوا غيرهم (انهم ساء ما كانوا يعملون) أي بئس الصنيع صنيعهم (لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة) ولا تكرار لان الاول على الخصوص حيث قال فيكم والثاني على العموم لانه قال في مؤمن (وأولئك هم المعتدون) المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة (فان تابوا) عن الكفر (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم) فهم اخوانكم على حذف المبتدأ (في الدين) لا في النسب (ونفصل الآيات) ونبينها (لقوم يعلمون) يفهمون فيتفكرون فيها وهذا اعتراض كأنه قيل وان من تأمل تفصيلها فهو العالم تحريضا على تأمل ما فصل

من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم) أي نقضوا العهود المؤكدة بالأيمان (وطعنوا
في دينكم) وعابوه (فقاتلوا أئمة الكفر) فقاتلوهم فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم إشعارا بأنهم بذلك صاروا رؤساء الشرك أو أريد بهم رؤساء قريش الذين هموا
بإخراج الرسول وقالوا إذا طعن الذمي في دين الإسلام طعنا ظاهرا جاز قتله لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن فإذا طعن فقد نكث عهده
وخرج من الذمة أئمة بهمزتين كوفي وشامي الباقون بهمزة واحدة بعدها ياء مكسورة أصلها أئمة

وجميع بيان آيات الله لمن تدبر ذلك. قيل ابن عباس حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة وقال ابن مسعود
أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له وقال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعا لم يفرق بينهما
وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه يعني بذلك ما فعله أبو بكر في حق
من منع الزكاة وهو قوله والله لا أفرق بين شيء جمع الله بينهما يعني الصلاة والزكاة (ق) عن أبي هريرة
قال لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي
بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله
فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل فقال أبو بكر والله لأقاتلن
من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها وفي رواية والله لو منعوني عقالا
كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها فقال عمر فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله
شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق (خ) عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاتنا
واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وإن نكثوا
أيمانهم) يعني وإن نقضوا عهودهم (من بعد عهدهم) يعني من بعد ما عاهدتموهم عليه أن لا يقاتلوكم
ولا يظاهروا عليكم أحدا من أعدائكم (وطعنوا في دينكم) يعني وعابوا دينكم الذي أنتم عليه وقدحوا
فيه وثلبوه وفي هذا دليل على أن الذمي إذا طعن في دين الإسلام وعابه ظاهرا لا يبقى له عهد والمراد بهؤلاء
الذين نقضوا العهد كفار قريش وهو قوله تعالى (فقاتلوا أئمة الكفر) يعني رءوس المشركين وقادتهم قال ابن
عباس نزلت في أبي سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وأبي جهل وابنه عكرمة وسائر رؤساء
قريش وهم الذين نقضوا عهدهم وهموا بإخراج الرسول وقيل أراد جميع الكفار وإنما ذكر الأئمة لأنهم
الرؤساء والقادة في ضلالهم فالأتباع وقال مجاهد هم فارس والروم وقال حذيفة بن اليمان ما قوتل أهل
هذه الآية بعد ولم يأت أهلها ولعل حذيفة أراد بذلك الذين يظهرون مع الدجال من اليهود فهم أئمة الكفر
في ذلك الزمان والله أعلم بمراده ۞ وقوله سبحانه وتعالى (إنهم لا أيمان لهم) جمع يمين أي لا عهد لهم
وقيل معناه إنهم لا وفاء لهم بالعهود وقرئ لا إيمان لهم بكسر الهمزة ومعناه لا دين لهم ولا تصديق وقيل هو
من الأمان أي اقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تؤمنوهم (لعلهم ينتهون) أي لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم
ويرجعوا عن الكفر إلى الإيمان ثم حض المؤمنين على جهاد الكفار وبين السبب في ذلك فقال تعالى (ألا
تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) يعني نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بني بكر
على خزاعة (وهموا بإخراج الرسول) يعني من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة (وهم بدءوكم) يعني بالقتال
(أول مرة) يعني يوم بدر وذلك أنهم قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه وقيل أراد أنهم بدءوا بقتال
خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتخشونهم) يعني أتخافونهم أيها المؤمنون فتتركون قتالهم
(فالله أحق أن تخشوه) يعني في ترك القتال (إن كنتم مؤمنين) يعني إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده

لأنها جمع إمام كعماد وأعمدة فنقلت حركة الميم الأولى إلى الهمزة الساكنة وأدغمت في الميم الأخرى فمن حقق الهمزتين أخرجهما على الأصل ومن قلب الثانية ياء فلكسرها (إنهم لا أيمان لهم) وإنما أثبت لهم الأيمان في قوله وإن نكثوا أيمانهم لأنه أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال لا أيمان لهم على الحقيقة وهو دليل لنا على أن يمين الكافر لا تكون يمينا ومعناه عند الشافعي رحمه الله أنهم لا يوفون بها لأن يمينهم يمين عنده حيث وصفها بالنكث لا إيمان شامي أي لا إسلام (لعلهم ينتهون) متعلق بفقاتلوا أئمة الكفر وما بينهما اعتراض أي ليكن غرضكم في مقاتلتهم انتهاءهم عما هم عليه بعدما وجد منهم من العظائم وهذا من غاية كرمه على المسيء ثم حرض على القتال فقال (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) التي حلفوها في
المعاهدة (وهموا بإخراج الرسول) من مكة (وهم بدءوكم أول مرة) بالقتال والبادي قوله
أظلم فما يمنعكم من أن تقاتلوهم وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها من نكث العهد وإخراج الرسول
والبدء بالقتال من غير موجب (أتخشونهم) توبيخ على الخشية منهم (فالله أحق أن تخشوه) فقاتلوا أعداءه (إن كنتم
مؤمنين) فاخشوه أي إن قضية الإيمان الكامل أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه ولما وبخهم الله على ترك القتال جرد لهم
الأمر به فقال

﴿ قوله سبحانه وتعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) يريد بالتعذيب القتل يعني يقتلهم الله بأيديكم فان قلت كيف الجمع بين قوله يعذبهم الله بأيديكم وبين قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم قلت المراد بقوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم عذاب الاستئصال يعني وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب جميعا وأنت فيهم والمراد بقوله قاتلوهم يعني الذين نقضوا العهد وبدؤا بالقتال فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقتال من قاتلهم أو نقض عهدهم والفرق بين الموضعين ان عذاب الاستئصال يتعدى الى المذنب وغير المذنب والى المخالف والموافق وعذاب القتل لا يتعدى الا الى المذنب المخالف ﴿ وقوله تعالى (ويخزهم) يعني ويذلهم بالقهر والاسر ويذيقهم الذل والهوان (وينصركم عليهم) يعني بأن يظفركم بهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) يعني ويبرئ داء قلوبهم مما كانوا ينالونه من الاذى منهم ومن المعلوم ان من طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه فانه يفرح بذلك ويعظم سروره ويصير ذلك سببا لقوة اليقين وثبات العزيمة قال مجاهد والسدي أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أعانت قريش بني بكر على خزاعة حتى قتلوا منهم ثم شفى الله صدور خزاعة من بني بكر حين أخذوا ثأرهم منهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه (ويذهب غيظ قلوبهم) يعني ويذهب وجد قلوبهم بما نالوه من بكر روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة ارفعوا السيف الا خزاعة من بني بكر الى العصر ذكره البغوي بغير سند ﴿ ثم قال تعالى (ويتوب الله على من يشاء) هذا كلام مستأنف ليس له تعلق بالاول والمعنى ويهدي الله من يشاء الى الاسلام فيمن عليه بالتوبة من الشرك والكفر ويهديه الى الاسلام كما فعل بأبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ثم من الله عليهم بالاسلام يوم فتح مكة فاسلموا (والله عليم) يعني بسرائر عباده ومن سبقت له العناية الازلية بالسعادة فيتوب عليه ويهديه الى الاسلام (حكيم) يعني في جميع أفعاله ﴿ قوله عز وجل (أم حسبتم أن تتركوا) هذا من الاستفهام المعترض في وسط الكلام ولذلك أدخلت فيه أم لتفرق بينه وبين الاستفهام المبتدا والمعنى أظننتم أيها المؤمنون ان تتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أراد العلم المعلوم لان وجود الشيء يلزمه معلوم الوجود عند الله لا جرم جعل علم الله بوجوده كناية عن وجوده قاله الامام فخر الدين الرازي ونقل الواحدي عن الزجاج أي العلم الذي يجازي عليه لانه انما يجازي على ما عملوا (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) قال الفراء الوليجة البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون اليهم أسرارهم وقال قتادة وليجة يعني خيانة وقال الضحاك خديعة وقال عطاء أولياء يعني لا تتخذوا المشركين أولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين وقال أبو عبيدة كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة والرجل يكون في القوم وليس منهم وليجة من الولوج فوليجة الرجل من يختصه بدخيلة أمره دون الناس وقال الراغب الوليجة كل ما يتخذه الانسان معتمدا عليه وليس من قولهم فلان وليجة في القوم اذا دخل فيهم وليس منهم والمقصود من هذا نهي المؤمنين عن موالاة المشركين وان يفشوا اليهم أسرارهم (والله خبير بما تعملون) يعني من موالاة المشركين واخلاص العمل لله وحده ﴿ قوله سبحانه وتعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مسجد الله) يعني به المسجد الحرام وقرئ مساجد الله على الجمع والمراد به المسجد الحرام أيضا وانما ذكره بلفظ الجمع لانه قبلة المساجد كلها وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من رؤساء كفار قريش أسروا

(قاتلوهم) ثم وعدهم النصر ليثبت قلوبهم ويصحح نياتهم بقوله (يعذبهم الله بأيديكم) قتلا (ويخزهم) أسرا (وينصركم عليهم) يظفركم عليهم (ويشف صدور قوم مؤمنين) طائفة منهم وهم خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويذهب غيظ قلوبهم) لما لقوا منهم من المكروه وقد حقق الله هذه المواعيد كلها فكان دليلا على صحة نبوته (ويتوب الله على من يشاء) ابتداء كلام واخبار بان بعض أهل مكة يتوب عن كفره وكان ذلك أيضا فقد أسلم ناس منهم كأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وهي ترد على المعتزلة قولهم ان الله تعالى شاء ان يتوب على جميع الكفرة لكنهم لا يتوبون باختيارهم (والله عليم) يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان (حكيم) في قبول التوبة (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أم منقطعة والهمزة فيها للتوبيخ على وجود الحسبان أي لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين المخلص منكم وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله (ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أي بطانة من الذين يضادون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولما معناها التوقع وقد دلت على ان تبين ذلك متوقع كائن وان الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين ولم يتخذوا معطوف على جاهدوا وداخل في حيز الصلة كأنه قيل ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كقولك ما علم الله مني ما قيل في تريد ما وجد ذلك مني والمعنى حسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة ولا براءة من المشركين (والله خبير بما تعملون) من خير أو شر فيجازيكم عليه (ما كان للمشركين) ما صح لهم وما استقام (أن يعمروا مساجد الله) مسجد الله مكي وبصري يعني المسجد الحرام وانما جمع في القراءة بالجمع لانه قبلة المساجد وامامها

يوم بدر وبخ العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل عليهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيرونهم بالشرك وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم فقال العباس ما لكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقيل له وهل لكم من محاسن قال نعم نحن أفضل منكم نحن نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني يعني الاسير فنزلت هذه الآية ما كان للمشركين أي ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله أوجب الله على المسلمين منعهم من ذلك لان المساجد انما تعمر لعبادة الله تعالى وحده فمن كان كافرا بالله فليس له أن يعمر مساجد الله واختلفوا في المراد بالعمارة على قولين أحدهما أن المراد بالعمارة العمارة المعروفة من بناء المساجد وتشييدها ومرمتها عند خرابها فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى ببناء مسجد لم تقبل وصيته والقول الثاني أن المراد بالعمارة دخول المسجد والقعود فيه فيمنع الكافر من دخول المسجد بغير اذن مسلم حتى لو دخل بغير اذن مسلم عزر وان دخل باذن لم يعزر ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن ان النبي صلى الله عليه وسلم شد ثمامة بن أثال الى سارية من سواري المسجد وهو كافر والاولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها ۞ وقوله تعالى (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يعني لا يستحقون المساجد في حال كونهم شاهدين وقيل تقديره وهم شاهدون فلما حذفت وهم نصب وقال ابن عباس شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للاصنام وذلك أن كفار قريش كانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للاصنام فلم يزدادوا بذلك من الله الا بعدا وقال الحسن انهم لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شهادة عليهم بالكفر وقال السدي شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يسئل من أنت فيقول نصراني واليهودي يقول يهودي والمشرك يقول مشرك وقال ابن عباس في رواية عنه شاهدين على رسولهم بالكفر لانه من أنفسهم (أولئك حبطت أعمالهم) يعني الاعمال التي عملوها في حال الكفر من أعمال البر مثل قرى الضيف وسقي الحاج وفك العاني لانها لم تكن لله فلم يكن لها تأثير مع الكفر (وفي النار هم خالدون) يعني من مات منهم على كفره ۞ قوله عز وجل (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) لما بين الله عز وجل أن الكافر ليس له أن يعمر مساجد الله بين في هذه الآية من هو المستحق لعمارة المساجد وهو من آمن بالله فان الايمان بالله شرط فيمن يعمر المسجد لان المسجد عبارة عن الموضع الذي يعبد الله فيه فمن لم يكن مؤمنا بالله امتنع أن يعمر موضعا يعبد الله فيه واليوم الآخر يعني وآمن باليوم الآخر وانما قال ذلك لان عمارة المسجد لاجل عبادة الله وجزاء أجرها انما يكون في الآخرة فمن أنكر الآخرة لم يعبد الله ولم يعمر له مسجدا فان قلت لم يذكر الايمان برسول الله مع أن الايمان به شرط في صحة الايمان قلت ان الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم داخل في الايمان بالله فان من آمن بالله واليوم الآخر فقد آمن برسول الله لان من جهته عرف الايمان بالله واليوم الآخر لانه هو الداعي الى ذلك وقيل ان المشركين كانوا يقولون ان محمدا انما ادعى النبوة طلبا للرياسة والملك فأخبر الله عز وجل ان محمدا صلى الله عليه وسلم انما دعا الى الايمان بالله واليوم الآخر لا لطلب الرياسة والملك فلذلك قال سبحانه وتعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وترك ذكر الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل انه تبارك وتعالى قال بعد الايمان بالله واليوم الآخر (وأقام الصلاة وآتى الزكوة) وكان ذلك مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أقام الصلاة وآتى الزكاة فقد آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم أن الاعتبار باقامة الصلاة وايتاء الزكاة في عمارة المساجد ان الانسان اذا عمر المسجد أقام الصلاة وآتى الزكاة لان عمارة المسجد انما تلزم لاقامة الصلاة فيه ولا يشتغل بعمارة المسجد الا اذا كان مؤديا للزكاة لان الزكاة واجبة وعمارة المسجد نافلة ولا يشتغل الانسان بالنافلة الا بعد اكمال الفريضة الواجبة عليه ۞ وقوله تعالى

تعامره كعامر جميع المساجد ولان كل بقعة منه مسجد أو أريد جنس المساجد واذا لم يصلحوا لان يعمروا جنسها دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذي هو صدر الجنس وهو آكد اذ طريقه طريق الكناية كما تقول فلان لا يقرأ كتب الله كنت أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك (شاهدين على أنفسهم بالكفر) باعترافهم بعبادة الاصنام وهو حال من الواو في يعمروا والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته (أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون) دائمون (انما يعمر مساجد الله) عمارتها رم ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا لانها بنيت للعبادة والذكر ومن الذكر درس العلم (من آمن بالله واليوم الآخر) ولم يذكر الايمان بالرسول عليه السلام لما علم أن الايمان بالله قرينته الايمان بالرسول لاقترانهما في الاذان والاقامة وكلمة الشهادة وغيرها أو دل عليه بقوله (وأقام الصلوة وآتى الزكوة) وفي قوله

ولم

(ولم يخش إلا الله) يعني ولم يخف في الدين غير الله ولم يترك أمر الله لخشية الناس (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وعسى من الله واجب يعني وأولئك هم المهتدون المتمسكون بطاعة الله التي تؤدي إلى الجنة عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله عز وجل يقول إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر الآية أخرجه الترمذي وقال حديث حسن (ق) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح النزل ما يهيأ للضيف عند نزوله القوم (ق) عن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بنى لله مسجدا يبتغي به وجه الله تعالى بنى الله له بيتا في الجنة وفي رواية بنى الله له في الجنة مثله وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا صغيرا كان أو كبيرا بنى الله له بيتا في الجنة أخرجه الترمذي عن عمرو بن عبسة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من بنى لله مسجدا ليذكر الله فيه بنى الله له بيتا في الجنة أخرجه النسائي ۞ قوله سبحانه وتعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) الآية (م) عن النعمان بن بشير قال كنت عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام وقال الآخر الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله عز وجل أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر إلى آخرها وقيل قال العباس حين أسر يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج فأنزل الله هذه الآية وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله وأن الإيمان والجهاد مع نبيه خير مما هم عليه وقال الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي نزلت في علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن أبي شيبة افتخروا فقال طلحة أنا صاحب البيت بيدي مفاتيحه وقال العباس وأنا صاحب السقاية والقيام عليها وقال علي ما أدري ما تقولون لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله هذه الآية أجعلتم سقاية الحاج والسقاية مصدر كالرعاية والحماية وهي سقي الحاج وكان العباس بن عبد المطلب بيده سقاية الحاج وكان يليها في الجاهلية فلما جاء الإسلام وأسلم العباس أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وعمارة المسجد الحرام يعني بناءه وتشييده ومرمته (كمن آمن بالله واليوم الآخر) فيه حذف تقديره كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر (وجاهد في سبيل الله) أي وكجهاد من جاهد في سبيل الله وقيل السقاية والعمارة بمعنى الساقي والعامر تقديره أجعلتم ساقي الحاج وعامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله (لا يستوون عند الله) يعني لا يستوي حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على شركه وكفره لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملا إلا مع الإيمان به (والله لا يهدي القوم الظالمين) (خ) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها فقال اسقني فقال يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه قال اسقني فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال اعملوا فإنكم على عمل صالح ثم قال لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذا يعني عاتقه (م) عن بكر بن عبد الله المزني قال كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال مالي

(ولم يخش إلا الله) فيعمل بالإخلاص والمراد الخشية في أبواب الدين بأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف إذ المؤمن قد يخشى المحاذير ولا يتمالك أن لا يخشاها وقيل كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد نفي تلك الخشية عنهم (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لأطماعهم في الانتفاع بأعمالهم لأن عسى كلمة إطماع والمعنى إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتدا بها عند الله دون من سواهم (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين) السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية ولا بد من مضاف محذوف تقديره أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله وعمل المصدر في الفاعل يصدقه قراءة ابن الزبير سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام والمعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة وأن يسوى بينهم وجعل تسويتهم ظلما بعد ظلمهم بالكفر لأنهم وضعوا المدح والفخر في غير موضعهما نزلت جوابا لقول العباس حين أسر وطفق علي رضي الله عنه يوبخه بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم تذكر مساوينا وتدع محاسننا فقيل أولكم محاسن فقال نعمر المسجد ونسقي الحاج ونفك العاني وقيل افتخر العباس بالسقاية وشيبة بالعمارة وعلي رضي الله عنه بالإسلام والجهاد فصدق الله تعالى عليا

أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل إنما قدم النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة فقال أحسنتم أو أجملتم كذا فاصنعوا فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم النبيذ تمر ينقع في الماء غدوة ويشرب عشاء أو ينقع عشاء ويشرب غدوة فيكون حلالا فإن غلى وحمض حرم ﴿قوله عز وجل (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) يعني أن من كان موصوفا بهذه الصفات يعني الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس كان أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام وإنما ذكر القسم المرجوح لبيان فضل القسم الراجح على الإطلاق على من سواهم والمراد الدرجة المنزلة والرفعة عند الله في الآخرة (وأولئك) يعني من هذه صفتهم (هم الفائزون) يعني بسعادة الدنيا والآخرة (يبشرهم ربهم) يعني يخبرهم ربهم والبشارة الخبر السار الذي يفرح الإنسان عند سماعه وتستنير بشرة وجهه عند سماع ذلك الخبر السار ﴿ثم ذكر الخبر الذي يبشرهم به فقال تعالى (برحمة منه ورضوان) وهذا أعظم البشارات لأن الرحمة والرضوان من الله عز وجل على العبد نهاية مقصوده (وجنات لهم فيها نعيم مقيم) يعني أن نعيم الجنة دائم غير منقطع أبدا (خالدين فيها) يعني في الجنات وفي النعيم (أبدا) يعني لا انقطاع له (إن الله عنده أجر عظيم) يعني لمن عمل بطاعته وجاهد في سبيله ﴿قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء) قال مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالهجرة إلى المدينة فمنهم من تعلق به أهله وأولاده يقولون ننشدك الله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فأنزل الله هذه الآية وقال مقاتل نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم وأنزل يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء يعني بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة قال بعضهم حمل هذه الآية على ترك الهجرة مشكل لأن هذه السورة نزلت بعد الفتح وهي من آخر القرآن نزولا والأقرب أن يقال إن الله سبحانه وتعالى لما أمر المؤمنين بالتبري من المشركين قالوا كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه فذكر الله أن مقاطعة الرجل أهله وأقاربه في الدين واجبة فالمؤمن لا يوالي الكافر وإن كان أباه وأخاه وابنه وهو قوله تعالى (إن استحبوا الكفر على الإيمان) يعني إن اختاروا الكفر وأقاموا عليه وتركوا الإيمان بالله ورسوله (ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) يعني ومن يختار المقام معهم على الهجرة والجهاد فقد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله واختيار الكفار على المؤمنين ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجاراتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا فأنزل الله سبحانه وتعالى (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) وقرئ على الجمع وعشيراتكم العشيرة هم الأدنون من أهل الإنسان الذين يعاشرونه دون غيرهم (وأموال اقترفتموها) يعني اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) يعني بفراقكم لها (ومساكن ترضونها) يعني تستوطنونها راضين بسكناها (أحب إليكم من الله ورسوله) يعني أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله (وجهاد في سبيله) فبين الله سبحانه وتعالى أنه يجب تحمل جميع المضار في الدنيا ليبقى الدين سليما وأخبر أنه إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة في سبيل الله (فتربصوا) أي فانتظروا (حتى يأتي الله بأمره) يعني بقضائه وهذا أمر تهديد وتخويف وقال مجاهد ومقاتل يعني بفتح مكة (والله لا يهدي القوم الفاسقين) يعني الخارجين عن طاعته

والعمارة (وأولئك هم الفائزون) لا أنتم والمختصون بالفوز دونكم (يبشرهم ربهم) يبشرهم حمزة (برحمة منه ورضوان وجنات) تنكير المبشر لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرف (لهم فيها) في الجنات (نعيم مقيم) دائم (خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم) لا ينقطع لما أمر الله النبي عليه السلام بالهجرة جعل الرجل يقول لابنه ولأخيه ولقرابته إنا قد أمرنا بالهجرة فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ومنهم من تتعلق به زوجته أو ولده فيقول تدعنا بلا شيء فنضيع فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان) أي آثروه واختاروه (ومن يتولهم منكم) أي ومن يتول الكافرين (فأولئك هم الظالمون قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) أقاربكم وعشيراتكم أبو بكر (وأموال اقترفتموها) اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) فوات وقت نفاقها (ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) وهو عذاب عاجل أو عقاب آجل أو فتح مكة (والله لا يهدي القوم الفاسقين) والآية تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين إذ لا تجد عند أورع الناس ما يستحب

وفي هذا دليل على انه اذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا ﴿ قوله عز وجل (لقد نصركم الله) النصر المعونة على الاعداء واظهار المسلمين عليهم (في مواطن كثيرة) يعني أماكن كثيرة والمراد بها غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ذكر في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة في حديثه قاتل في ثمان منهن ويقال ان جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون وقيل ثمانون وهو قوله تعالى لقد نصركم الله في مواطن كثيرة (ويوم حنين) يعني ونصركم الله في يوم حنين أيضا فاعلم الله سبحانه وتعالى انه هو الذي يتولى نصر المؤمنين في كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلا غالب له وحنين اسم واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا وقال عروة هو الى جنب ذي المجاز وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان خرج الى حنين لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفا عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وألفان من الطلقاء وقال عطاء كانوا ستة عشر ألفا وقال الكلبي كانوا عشرة آلاف وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قط وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف وكان على هوازن مالك بن عوف النصري وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل فلما التقى الجمعان قال رجل من الانصار يقال له سلمة بن سلامة بن وقش لن نغلب اليوم من قلة فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا الى كلمة الرجل وفي رواية فلم يرض الله قوله ووكلهم الى أنفسهم وذكر ابن الجوزي عن سعيد بن المسيب ان القائل لذلك أبو بكر الصديق وحكى ابن جرير الطبري ان القائل لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم واسناد هذه الكلمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه بعد لانه صلى الله عليه وسلم كان في جميع أحواله متوكلا على الله عز وجل لا يلتفت الى كثرة عدد ولا الى عدده بل نظره الى ما يأتي من عند الله عز وجل من النصر والمعونة قالوا فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا عن الذراري ثم تنادوا يا حماة السواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون وقال قتادة ذكر لنا ان الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا (ق) عن أبي اسحق قال جاء رجل الى البراء فقال أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة فقال أشهد على نبي الله صلى الله عليه وسلم ما ولى ولكنه انطلق اخفاء من الناس وحسر الى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا وأقبل القوم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان بن الحرث يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب اللهم أنزل نصرك زاد أبو خيثمة ثم صفهم قال البراء كنا والله اذا احمر البأس نتقي به وان الشجاع منا الذي يحاذي به يعني النبي صلى الله عليه وسلم ولمسلم عن أبي اسحق قال قال رجل للبراء بن عازب يا أبا عمارة فررتم يوم حنين قال لا والله ما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم حسرا ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوما رماة لا يكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبني نصر فرشقوهم رشقا ما يكادون يخطئون فأقبلوا هناك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب يقود به فنزل ودعا واستنصر وقال أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ثم صفهم وروى شعبة عن أبي اسحق قال قال البراء ان هوازن كانوا قوما رماة ولما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر قوله ولكنه انطلق اخفاء من الناس الاخفاء جمع خفيف وهم المسرعون من الناس الذين ليس لهم ما يعوقهم والحسر جمع حاسر وهو الذي لا درع عليه يقال اذا رمى القوم بأسرهم الى جهة واحدة قد رميناهم رشقا والرجل من الجراد القطعة الكبيرة منه وقوله كنا اذا احمر البأس يعني اذا اشتد الحرب والبأس الموحدة من تحت الشدة والخوف وقال الكلبي كان حول رسول الله صلى الله عليه

ويسعى على الآباء والابناء والاموال والخطوط (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة) كوقعة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة وقيل ان المواطن التي نصر الله فيها النبي عليه السلام والمؤمنين ثمانون موطنا ومواطن الحرب مقاماتها ومواقفها (ويوم) أي واذكروا يوم (حنين) واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفا وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فلما التقوا قال رجل من المسلمين لن نغلب اليوم من قلة فساءت رسول الله عليه الصلاة والسلام

وسلم فلما التقى المسلمين وانهزم سائر الناس وقال غيره لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ غير عمه
العباس بن عبد المطلب وابن عمه أبو سفيان بن الحرث وأيمن بن أم أيمن قتل يوم حنين بين يدي رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهذا أيمن أخو أسامة بن زيد لأمه أمهما بركة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضنته
(م) عن العباس بن عبد المطلب قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان
ابن الحرث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة
بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله
صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار قال العباس وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم
أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم أي عباس ناد أصحاب السمرة فقال العباس وكان رجلا صيتا فقلت بأعلى صوتي أين أصحاب السمرة قال
فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا يا لبيك يا لبيك قال فاقتتلوا والكفار
والدعوة في الأنصار يقولون يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار قال ثم قصرت الدعوة على بني الحرث بن الخزرج
فقالوا يا بني الحرث بن الخزرج يا بني الحرث بن الخزرج فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته
كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا حين حمي الوطيس قال ثم أخذ رسول الله
صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال انهزموا ورب محمد قال فذهبت أنظر فإذا القتال
على هيئته فيما أرى قال فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا قوله حمي
الوطيس أي اشتد الحرب قال الخطابي هذه الكلمة لم تسمع قبل أن يقولها النبي صلى الله عليه وسلم من
العرب وهي مما اقتضبه وأنشأه والوطيس في اللغة التنور وقوله حدهم كليلا يعني لا يقطع شيئا (م) عن سلمة
ابن الأكوع قال غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا قال فلما غشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل به وجوههم وقال شاهت الوجوه فما خلق الله منهم
إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله بذلك وقسم رسول الله غنائمهم بين المسلمين
أخرجه مسلم بزيادة فيه قال سعيد بن جبير أمد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة آلاف من الملائكة
مسومين وروى أن رجلا من بني نصر قال للمؤمنين بعد القتال أين الخيل البلق والرجال عليهم
ثياب بيض ما كنا نراهم فيكم إلا كهيئة الشامة وما كان قتلنا إلا بأيديهم فأخبروا بذلك رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال تلك الملائكة وروى أن رجلا من المشركين قال يوم حنين لما التقينا وأصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب
شاة أن كشفناهم فبينا نحن نسوقهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا
وركبوا أكتافنا فكانت إياها واختلفوا هل قاتلت الملائكة يوم حنين على قولين والصحيح أنهم لم يقاتلوا إلا
يوم بدر وإنما كانت الملائكة يوم حنين مددا وعونا وذكر البغوي أن الزهري قال بلغني أن شيبة بن عثمان
استدبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن أبي طلحة وكانا
قد قتلا يوم أحد فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على ما في نفسي فالتفت إلي وضرب في صدري وقال
أعيذك بالله يا شيبة فارتعدت فرائصي فنظرت إليه وهو أحب إلي من سمعي وبصري فقلت أشهد أنك رسول
الله صلى الله عليه وسلم قد أطلعك الله على ما في نفسي فلما هزم الله المشركين وولوا مدبرين انطلقوا حتى أتوا
أوطاس وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأشعريين يقال له أبو عامر
وأمره على الجيش فسار إلى أوطاس فاقتتلوا بها وقتل دريد بن الصمة وهزم الله المشركين وسبى المسلمون
عيال المشركين وهرب أميرهم مالك بن عوف النصري فأتى الطائف فتحصن بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ

وقيل أربعة من أمير المسلمين قال الزهري أخبرني سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف سبي ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الطائف فحصرهم بقية ذلك الشهر فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم وأتى الجعرانة فأحرم منها بعمرة وقسم بها غنائم حنين وأوطاس وتألف أناسا منهم أبو سفيان ابن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس فأعطاهم (ق) عن أنس بن مالك أن ناسا من الأنصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي رجالا من قريش المائة من الإبل فقالوا يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم ولم يدع معهم غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حديث بلغني عنكم فقال له فقهاء الأنصار أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعوا إلى رحالكم برسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به فقالوا بلى يا رسول الله قد رضينا قال فإنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض قالوا سنصبر زاد في رواية قال أنس فلم نصبر (ق) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن قال ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن قال لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبوا بالنبي إلى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها الأنصار شعار والناس دثار (م) عن رافع بن خديج قال أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة ابن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس ابن مرداس

أتجعل نهبي ونهب العبيد * بين عيينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس * يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما * ومن تخفض اليوم لا يرفع

قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة (خ) عن المسور ومروان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد عليهم أموالهم وسبيهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معي من ترون وأحب الحديث إلي أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين إما المال وإما السبي وقد كنت استأنيت بكم وفي رواية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف فلما تبين لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا فإنا نختار سبينا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك لهم فليفعل فقال الناس قد طيبنا ذلك لهم يا رسول الله فقال لهم إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا فهذا الذي بلغنا من سبي هوازن * وأنزل الله عز وجل في قصة حنين لقد نصركم الله في

(إذ) بدل من يوم (أعجبتكم كثرتكم) فأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة وزل عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وهو ثابت في مركزه ليس معه إلا عمه العباس آخذاً بلجام دابته وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه آخذ بركابه فقال للعباس صح بالناس وكان صيتاً فنادى يا أصحاب الشجرة فاجتمعوا وهم يقولون لبيك لبيك ونزلت الملائكة عليهم الثياب البيض على خيول بلق فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفاً من تراب فرماهم به ثم قال انهزموا ورب الكعبة فانهزموا وكان من دعائه عليه السلام يومئذ اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وهذا دعاء موسى عليه السلام يوم انفلاق البحر (فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت) ما مصدرية والباء بمعنى مع أي مع رحبها وحقيقته ملتبسة برحبها على أن الجار والمجرور في موضع الحال كقولك دخلت عليه بثياب السفر أي ملتبساً بها والمعنى لم تجدوا موضعاً لفراركم عن أعدائكم فكأنها ضاقت عليكم (ثم وليتم مدبرين) ثم انهزمتم (ثم أنزل الله سكينته) رحمته التي سكنوا بها وأمنوا (على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها) يعني الملائكة وكانوا ثمانية آلاف أو خمسة آلاف أو ستة عشر ألفاً (وعذب الذين كفروا) بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري (وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) وهم الذين أسلموا منهم (والله غفور) يستر كفر العدو بالإسلام (رحيم) ينصر الولي بعد الانهزام (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس) أي ذو نجس وهو مصدر يقال نجس نجساً وقذر قذراً لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها (فلا يقربوا المسجد الحرام)

مواطن كثيرة ويوم حنين (إذ أعجبتكم كثرتكم) يعني حين قلتم لن نغلب اليوم من قلة (فلم تغن عنكم) يعني كثرتكم (شيئاً) يعني أن الظفر بالعدو ليس بكثرة العدد ولكن إنما يكون بنصر الله ومعونته (وضاقت عليكم الأرض بما رحبت) يعني برحبها وسعتها (ثم وليتم مدبرين) يعني منهزمين (ثم أنزل الله سكينته) يعني بعد الهزيمة والسكينة الطمأنينة والأمنة وهي فعيلة من السكون وذلك أن الإنسان إذا خاف فر فؤاده فلا يزال متحركاً وإذا أمن سكن فؤاده وثبت فلما كان الأمن موجباً للسكون جعل لفظ السكينة كناية عن الأمن ﴿ وقوله تعالى (على رسوله وعلى المؤمنين) إنما كان إنزال السكينة على المؤمنين لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ساكن القلب ليس عنده اضطراب كما حصل للمؤمنين من الهزيمة والاضطراب في هذه الواقعة ثم من الله عليهم بإنزال السكينة عليهم حتى رجعوا إلى قتال عدوهم بعد الهزيمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت لم يفر (وأنزل جنوداً لم تروها) يعني الملائكة لتثبيت المؤمنين وتشجيعهم وتخذيل المشركين وتجبينهم لا للقتال لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر (وعذب الذين كفروا) يعني بالأسر والقتل وسبي العيال والأموال (وذلك جزاء الكافرين) يعني في الدنيا ثم إذا أفضوا إلى الآخرة كان لهم عذاب أشد من ذلك العذاب وأعظم (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) يعني فيهديه إلى الإسلام كما فعل بمن بقي من هوازن حيث أسلموا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم تائبين فمن عليهم وأطلق سبيهم (والله غفور) لمن تاب (رحيم) بعباده ﴿ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس) قيل أراد المشركين عبدة الأصنام دون غيرهم من أصناف الكفار وقيل بل أراد جميع أصناف الكفار عبدة الأصنام وغيرهم من اليهود والنصارى والنجس الشيء القذر من الناس وغيرهم وقيل النجس الشيء الخبيث وأراد بهذه النجاسة نجاسة الحكم لا نجاسة العين سموا نجساً على الذم لأن الفقهاء اتفقوا على طهارة أبدانهم وقيل أعيانهم نجسة كالكلب والخنزير حتى قال الحسن بن صالح من صافح مشركاً فليتوضأ ويروى هذا عن الزيدية من الشيعة والقول الأول أصح وقال قتادة سماهم نجساً لأنهم جنبون فلا يغتسلون ويحدثون فلا يتوضؤون (فلا يقربوا المسجد الحرام) المراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام ويؤكد هذا قوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام أراد به الحرم لأنه أسري به صلى الله عليه وسلم من بيت أم هانئ * قال العلماء وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار ثلاثة أقسام * أحدها الحرم فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال ذمياً كان أو مستأمناً لظاهر هذه الآية وبه قال الشافعي وأحمد ومالك فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام في الحرم فلا يأذن له في دخول الحرم بل يخرج إليه بنفسه أو من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم * القسم الثاني من بلاد الإسلام الحجاز وحده ما بين اليمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة قيل نصفها تهامي ونصفها حجازي وقيل كلها حجازي وقال ابن الكلبي حد الحجاز ما بين جبلي طيء وطريق العراق سمي حجازاً لأنه حجز بين تهامة ونجد وقيل لأنه حجز بين نجد والسراة وقيل لأنه حجز بين نجد وتهامة والشام قال الحربي وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول أرض الحجاز بالإذن ولكن لا يقيمون فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام (م) عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك

فيها الاستيطان في رواية لمسلم وأوصى فقال أخرجوا المشركين من جزيرة العرب فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر في خلافته وأجل لمن يقدم تاجرا ثلاثا عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يجتمع دينان في جزيرة العرب أخرجه مالك في الموطأ مرسلا (م) عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم قال سعيد بن عبد العزيز جزيرة العرب ما بين الوادي الى أقصى اليمن الى تخوم العراق الى البحر وقال غيره حد جزيرة العرب من أقصى عدن أبين الى ريف العراق في الطول ومن جدة وما والاها من ساحل البحر الى أطراف الشام عرضا ٭ والقسم الثالث سائر بلاد الاسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة ولكن لا يدخلون المساجد الا باذن مسلم ۞ وقوله تعالى (بعد عامهم هذا) يعني العام الذي حج فيه أبو بكر الصديق بالناس وفيه نادى علي ببراءة وان لا يحج بعد العام مشرك وهو سنة تسع من الهجرة (وان خفتم عيلة) يعني فقرا وفاقة وذلك ان أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يحملون الى مكة الطعام ويتجرون فلما منعوا من دخول الحرم خاف أهل مكة من الفقر وضيق العيش فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل وان خفتم عيلة (فسوف يغنيكم الله من فضله) قال عكرمة فأغناهم الله بأن أنزل المطر مدرارا وكثر خيرهم وقال مقاتل أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة الى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله من الجزية فأغناهم بها (ان شاء) قيل انما شرط المشيئة في الغنى المطلوب ليكون الانسان دائم التضرع والابتهال الى الله تعالى في طلب الخيرات ودفع الآفات وان ينقطع العبد أمله من كل أحد الا من الله عز وجل فانه هو القادر على كل شيء وقيل ان المقصود من ذكر هذا الشرط تعليم رعاية الادب كما في قوله تبارك وتعالى لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين (ان الله عليم) يعني بما يصلحكم (حكيم) يعني أنه تعالى لا يفعل شيأ الا عن حكمة وصواب فمن حكمته ان منع المشركين من دخول الحرم وأوجب الجزية والذل والصغار على أهل الكتاب فقال تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) قال مجاهد نزلت الآية حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك وقال الكلبي نزلت في قريظة والنضير من اليهود فصالحهم فكانت أول جزية أصابها أهل الاسلام وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنين والمعنى قاتلوا أيها المؤمنون القوم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فان قلت اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر قلت ايمانهم بالله ليس كايمان المؤمنين وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه والنصارى يعتقدون الحلول ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله وقيل من اعتقد أن عزيرا ابن الله وان المسيح ابن الله فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك بالله وقيل من كذب رسولا من رسل الله فليس بمؤمن بالله واليهود والنصارى يكذبون أكثر الانبياء فليسوا بمؤمنين بالله وأما ايمانهم باليوم الآخر فليس كايمان المؤمنين وذلك انهم يعتقدون بعثة الارواح دون الاجساد ويعتقدون ان أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون ومن اعتقد ذلك فليس ايمانه كايمان المؤمنين وان زعم أنه مؤمن ۞ وقوله تعالى (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) يعني ولا يحرمون الخمر والخنزير وقيل معناه أنهم لا يحرمون ما حرم الله في القرآن ولا ما حرم رسوله في السنة وقيل معناه لا يعملون بما في التوراة والانجيل بل حرفوهما وأتوا بأحكام من قبل أنفسهما (ولا يدينون دين الحق) يعني ولا يعتقدون صحة الاسلام الذي هو دين الحق وقيل الحق هو الله تعالى ومعناه ولا يدينون دين الله ودينه الاسلام وهو قوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقيل معناه ولا يدينون دين أهل الحق وهم المسلمون ولا يطيعون الله كطاعتهم (من الذين أوتوا

يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية (بعد عامهم هذا) وهو عام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر رضي الله عنه على الموسم ويكون المراد من نهي القرب ان النهي عن الحج والعمرة وهو مذهبنا ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندنا وعند الشافعي رحمه الله يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون منه ومن غيره وقيل نهي المشركين أن يقربوه راجع الى نهي المسلمين عن تمكينهم منه (وان خفتم عيلة) أي فقرا بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الارفاق والمكاسب (فسوف يغنيكم الله من فضله) من الغنائم أو المطر والنبات أو من متاجر حجيج الاسلام (ان شاء) هو تعليم لتعليق الامور بمشيئة الله تعالى لتنقطع الآمال اليه (ان الله عليم) بأحوالكم (حكيم) في تحقيق آمالكم أو عليم بمصالح العباد حكيم فيما حكم وأراد ونزل في أهل الكتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) لان اليهود مثنية والنصارى مثلثة (ولا باليوم الآخر) لانهم فيه على خلاف ما يجب حيث يزعمون أن لا أكل في الجنة ولا شرب (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) لانهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة ولا يعملون بما في التوراة والانجيل (ولا يدينون دين الحق) ولا يعتقدون دين الاسلام الذي

الكتاب) يعنى أعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى (حتى يعطوا الجزية) وهى ما يعطى المعاهد من أهل الكتاب على عهده وهى الخراج المضروب على رقابهم سميت جزية للاجتزاء بها فى حقن دمائهم (عن يد) يعنى عن قهر وغلبة يقال لكل من أعطى شيأ كرها من غير طيب نفس أعطى عن يد وقال ابن عباس يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وقيل يعطونها نقدا لا نسيئة وقيل يعطونها مع اقرارهم بانعام المسلمين عليهم بقبولها منهم (وهم صاغرون) من الصغار وهو الذل والاهانة يعنى يعطون الجزية وهم أذلاء مقهورون وقال عكرمة يعطون الجزية وهم قائمون والقابض جالس وقال ابن عباس تؤخذ الجزية من أحدهم وتوطأ عنقه وقال الكلبى اذا أعطى يصفع قفاه وقيل تؤخذ بلحيته ويضرب فى لهزمتيه ويقال له أدحق الله يا عدو الله وقال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم

﴿فصل فى بيان أحكام الآية﴾ اجتمعت الامة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى اذا لم يكونوا عربا واختلفوا فى أهل الكتاب العرب وفى غير أهل الكتاب من كفار العجم فذهب الشافعى الى ان الجزية على الاديان لا على الانساب فتؤخذ من أهل الكتاب عربا كانوا أو عجما ولا تؤخذ من عبدة الاوثان بحال واحتج بما روى عن أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد الى أكيدر دومة فأخذه فأتوا به فحقن دمه وصالحه على الجزية أخرجه أبو داود وقال الشافعى وهو رجل من العرب يقال انه من غسان وأخذ من أهل ذمة اليمن وعامتهم عرب وذهب مالك والاوزاعى الى ان الجزية تؤخذ من جميع الكفار الا المرتد وقال أبو حنيفة تؤخذ من أهل الكتاب على العموم وتؤخذ من مشركى العجم ولا تؤخذ من مشركى العرب وقال أبو يوسف لا تؤخذ من العربى كتابيا كان أو مشركا وتؤخذ من العجمى كتابيا كان أو مشركا وأما المجوس فاتفقت الصحابة على جواز الاخذ منهم ويدل عليه ما روى عن بجالة بن عبدة قال لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر أخرجه البخارى عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم فقال عبد الرحمن بن عوف أشهد انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سنوا بهم سنة أهل الكتاب أخرجه مالك فى الموطأ عن ابن شهاب قال بلغنى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس البحرين وان عمر أخذها من مجوس فارس وان عثمان بن عفان أخذها من البربر أخرجه مالك فى الموطأ وفى امتناع عمر من أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذها منهم دليل على ان رأى الصحابة كان على انها لا تؤخذ من كل مشرك وانما تؤخذ من أهل الكتاب واختلفوا فى أن المجوس هل هم من أهل الكتاب فروى عن على بن أبى طالب أنه قال كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائحهم ومناكحتهم بخلاف أهل الكتاب وأما من دخل فى دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين فينظر فان كانوا قد دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل فانهم يقرون بالجزية وتحل مناكحتهم وذبائحهم وان كانوا دخلوا فيه بعد النسخ بمجئ محمد صلى الله عليه وسلم ونسخ شريعتهم بشريعته فانهم لا يقرون بالجزية ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم ومن شككنا فى أمرهم هل دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله يقرون بالجزية تغليبا لحقن الدم ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم تغليبا للتحريم ومنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبنى تغلب أقرهم عمر بالجزية وقال لا تحل لنا ذبائحهم وأما الصابئة والسامرة فسبيلهم سبيل أهل الكتاب فهم فى أهل الكتاب كأهل البدع فى المسلمين وأما قدر الجزية فأقلها دينار ولا يجوز أن ينقص ويقبل الدينار من الغنى والفقير والمتوسط ويدل عليه ما روى عن معاذ بن جبل ان رسول الله صلى الله عليه

هو الحق يقال فلان يدين بكذا اذا اتخذه دينه ومعتقده (من الذين أوتوا الكتاب) بيان للذين قبله وأما المجوس فلحقون بأهل الكتاب فى قبول الجزية وكذا الترك والهنود وغيرهما بخلاف مشركى العرب لما روى الزهرى أن النبى عليه السلام صالح عبدة الاوثان على الجزية الا من كان من العرب (حتى يعطوا الجزية) الى أن يقبلوها وسميت جزية لانه يجب على أهلها أن يجزوه أى يقضوه أو هى جزاء على الكفر على التحميل فى تذليل (عن يد) أى عن يد مواتية غير ممتنعة ولذا قالوا أعطى بيده اذا انقاد وقالوا نزع يده عن الطاعة أو حتى يعطوها عن يد الى يد نقدا غير نسيئة لا مبعوثا على يد أحد ولكن عن يد المعطى الى يد الآخذ (وهم صاغرون) أى تؤخذ منهم على الصغار والذل وهو أن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس وان يتلتل تلتلة ويؤخذ بتلبيبه ويقال له أد الجزية يا ذمى وان كان يؤديها ويزخ فى قفاه وتسقط بالاسلام

وسلم لما وجهه الى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم أى محتلم دينارا أو عدله من المعافرية ثياب تكون باليمن أخرجه أبو داود وللنبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يأخذ من كل محتلم وهو البالغ دينارا ولم يفرق بين الغنى والفقير والمتوسط وفيه دليل على أنه لا تؤخذ الجزية من الصبيان والنساء وانما تؤخذ من الأحرار البالغين وذهب قوم الى أن على كل موسر أربعة دنانير وعلى كل متوسط دينارين وعلى كل فقير دينارا وهو قول أصحاب الرأى ويدل عليه ما روى عن أسلم أن عمر بن الخطاب ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهما ومع ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام أخرجه مالك فى الموطأ قال أصحاب الشافعى أقل الجزية دينار لا يزاد على الدينار الا بالتراضى فاذا رضى أهل الذمة بالزيادة ضرب على المتوسط دينارين وعلى الغنى أربعة دنانير قال العلماء انما أقر أهل الكتاب على دينهم الباطل بخلاف أهل الشرك حرمة لآبائهم الذين انقرضوا على الدين الحق من شريعة التوراة والانجيل قبل النسخ والتبديل وأيضا فان بأيديهم كتبا قديمة فربما تفكروا فيها فيعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته فأمهلوا لهذا المعنى وليس المقصود من أخذ الجزية من أهل الكتاب اقرارهم على كفرهم بل المقصود من ذلك حقن دمائهم وامهالهم رجاء أن يعرفوا الحق فيرجعوا اليه بأن يؤمنوا ويصدقوا اذا رأوا محاسن الاسلام وقوة دلائله وكثرة الداخلين فيه ﴿قوله عز وجل﴾ (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) الآية لما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية المتقدمة أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق بين فى هذه الآية ما أخبر عنهم أنهم أثبتوا لله ولدا ومن جوز ذلك على الله فقد أشرك به لأنه لا فرق بين من يعبد صنما وبين من يعبد المسيح ففيه بيان بهذا أنهم لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق وقد تقدم سبب أخذ الجزية منهم وابقائهم على هذا الشرك وهو حرمة الكتب القديمة التى بأيديهم ولعلهم يتفكرون فيها فيعرفون الحق فيرجعون اليه روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله فأنزل الله هذه الآية وقال عبيد بن عمير انما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود واسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذى قال ان الله فقير ونحن أغنياء فعلى هذين القولين القائل لهذه المقالة جماعة من اليهود أو واحد وانما نسب ذلك الى اليهود فى وقالت اليهود جريا على عادة العرب فى ايقاع اسم الجماعة على الواحد تقول العرب فلان يركب الخيل وانما يركب فرسا واحدا منها وتقول العرب فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس الا واحدا منهم وروى عطية العوفى عن ابن عباس أنه قال انما قالت اليهود ذلك من أجل أن عزيرا كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله سبحانه وتعالى عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فدعا الله عزير وابتهل اليه أن يرد اليه التوراة فبينما هو يصلى مبتهلا الى الله عز وجل نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت اليه فأذن فى قومه وقال يا قوم قد آتانى الله التوراة وردها الى فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ما شاء الله ثم ان التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزير على ما فى التابوت فوجدوه مثله فقالوا ما أوتى عزير هذا الا أنه ابن الله وقال الكلبى ان بختنصر لما غزا بيت المقدس وظهر على بنى اسرائيل وقتل من قرأ التوراة كان عزير اذ ذاك صغيرا فلم يقتله لصغره فلما رجع بنو اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله لهم عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعد ما أماته الله مائة سنة قال فأتى ملك باناء فيه ماء فشرب منه فمثلت له التوراة فى صدره فلما أتاهم قال أنا عزير فكذبوه وقالوا ان كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة فكتبها لهم من صدره ثم ان رجلا منهم قال ان أبى حدثنى عن جدى ان التوراة جعلت فى خابية ودفنت فى كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه

(وقالت اليهود) كلهم أو بعضهم (عزير ابن الله) مبتدأ وخبر كقوله المسيح ابن الله وعزير اسم أعجمى ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه ومن نون وهم عاصم وعلى فقد جعله عربيا (وقالت النصارى المسيح ابن الله

عاد وحرفا فقالوا ان الله لم يتحف التوراة في قلب عزير الا انه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير ابن الله فعلى هذين القولين ان هذا القول كان فاشيا في اليهود جميعا ثم انه انقطع واندرس فاخبر الله تعالى به عنهم وأظهره عليهم ولا عبرة بانكار اليهود ذلك فان خبر الله عز وجل أصدق وأثبت من انكارهم وأما قول النصارى المسيح ابن الله فكان السبب فيه انهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام احدى وثمانين سنة يصلون الى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بولص لليهود ان كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون ان دخلوا الجنة ودخلنا النار فاني سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم انه عمد الى فرس كان يقاتل عليه فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم انه أتى الى النصارى فقالوا له من أنت قال أنا عدوكم بولص فقد نوديت من السماء أنه ليس لك توبة حتى تتنصر وقد تبت وأتيتكم فأدخلوه الكنيسة ونصروه وأدخلوه بيتا منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الانجيل ثم خرج وقال قد نوديت ان الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ثم انه عمد الى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر ملكان فعلم نسطور أن عيسى ومريم والاله ثلاثة وعلم يعقوب أن عيسى ليس بانسان ولكنه ابن الله وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم في الخلوة وقال له أنت خالصتي وادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب الى ناحية من البلاد ثم قال لهم اني رأيت عيسى في المنام وقد رضي عني وقال لكل واحد منهم اني سأذبح نفسي تقربا الى عيسى ثم ذهب الى المذبح فذبح نفسه وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد الى الروم وواحد الى بيت المقدس والآخر الى ناحية أخرى وأظهر كل واحد منهم مقالته ودعا الناس اليها فتبعه على ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا ووقع القتال فكان ذلك سبب قولهم المسيح ابن الله وقال الامام فخر الدين الرازي بعد أن حكى هذه الحكاية والأقرب عندي أن يقال لعله ذكر لفظ الابن في الانجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل في حق ابراهيم على سبيل التشريف فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك منهم وفشا هذا المذهب الفاسد في أتباع عيسى عليه السلام والله أعلم بحقيقة الحال (ذلك قولهم بأفواههم) يعني أنهم يقولون ذلك القول بألسنتهم من غير علم يرجعون اليه قال أهل المعاني لم يذكر الله قولا مقرونا بالافواه والالسن الا كان ذلك القول زورا أو كذبا لا حقيقة له (يضاهئون) قال ابن عباس يشابهون والمضاهاة المشابهة وقال مجاهد يواطئون وقال الحسن يوافقون (قول الذين كفروا من قبل) قال قتادة والسدي معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم فقالوا المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله وقال مجاهد معناه يضاهون قول المشركين من قبل لان المشركين كانوا يقولون الملائكة بنات الله وقال الحسن شبه الله كفر اليهود والنصارى بكفر الذين مضوا من الامم الخالية الكافرة وقال القتيبي يريد أن من كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يقولون ما قاله أولوهم (قاتلهم الله) قال ابن عباس لعنهم الله وقال ابن جريج قتلهم الله وقيل ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب أي حق أن يقال لهم هذا القول تعجبا من بشاعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلا يتعجب منه قاتله الله ما أعجب فعله (أنى يؤفكون) يعني أنى يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل واقامة الحجة بأن الله واحد أحد فجعلوا له ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذا التعجب راجع الى الخلق لان الله سبحانه وتعالى لا يتعجب من شيء ولكن هذا الخطاب على عادة العرب في مخاطباتهم فالله سبحانه وتعالى عجب نبيه صلى الله عليه وسلم من تركهم الحق واصرارهم على الباطل ۞ قوله سبحانه وتعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) يعني اتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم والأحبار العلماء من اليهود والرهبان أصحاب الصوامع من النصارى أربابا من

ذلك قولهم بأفواههم) أي قول لا يعضده برهان ولا يستند الى بيان فما هو الا لفظ يفوهون به فارغ عن معنى تحته كالالفاظ المهملة (يضاهون قول الذين كفروا من قبل) لابد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا يعني ان الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم يعني أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث أو الضمير للنصارى أي يضاهي قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير ابن الله لانهم أقدم منهم يضاهئون عاصم وأصل المضاهاة المشابهة والاكثر ترك الهمز واشتقاقه من قولهم امرأة ضهياء وهي التي أشبهت الرجال بأنها لا تحيض كذا قاله الزجاج (قاتلهم الله) أي هم أحقاء بأن يقال لهم هذا (أنى يؤفكون) كيف يصرفون عن الحق بعد قيام البرهان (اتخذوا) أي أهل الكتاب (أحبارهم) علماءهم (ورهبانهم) نساكهم (أربابا) آلهة (من دون الله

دون الله يعني أنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى وذلك أنهم أحلوا لهم أشياء وحرموا عليهم أشياء من قبل
أنفسهم فأطاعوهم فيها فلذلك اتخذوهم كالأرباب لا أنهم عبدوهم واعتقدوا فيهم الإلهية عن عدي بن حاتم قال
أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ
في سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا
إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قال عبد الله
ابن المبارك

وهل بدل الدين إلا الملوك ۞ وأحبار سوء ورهبانها

(والمسيح ابن مريم) يعني اتخذوه إلها وذلك لما اعتقدوا فيه البنوة والحلول اعتقدوا فيه الإلهية (وما أمروا)
يعني وما أمروا في الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبيائهم (إلا ليعبدوا إلها واحدا) لأنه سبحانه
وتعالى هو المستحق للعبادة لا غيره (لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) أي تعالى الله وتنزه عن أن يكون له
شريك في العبادة والأحكام وأن يكون له شريك في الإلهية يستحق التعظيم والإجلال (يريدون) يعني
يريد رؤساء اليهود والنصارى (أن يطفؤا نور الله بأفواههم) يعني يريد هؤلاء إبطال دين الله الذي جاء به محمد
صلى الله عليه وسلم بتكذيبهم إياه وقيل المراد من النور الدلائل الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وهي
أمور أحدها المعجزات الباهرات الخارقة للعادة التي ظهرت على يد النبي صلى الله عليه وسلم الدالة على صدقه
وثانيها القرآن العظيم الذي نزل عليه من عند الله فهو معجزة له باقية على الأبد دالة على صدقه وثالثها أن دينه
الذي أمر به وهو دين الإسلام ليس فيه شيء سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لأمره ونهيه واتباع
طاعته والأمر بعبادته والتبري من كل معبود سواه فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة في صحة نبوة محمد صلى الله
عليه وسلم فمن أراد إبطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله ثم إن الله سبحانه وتعالى وعد نبيه
محمدا صلى الله عليه وسلم بمزيد النصر وإعلاء الكلمة وإظهار الدين بقوله (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره
الكافرون) يعني ويأبى الله إلا أن يعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث به رسوله محمدا صلى الله عليه
وسلم ولو كره ذلك الكافرون ۞ قوله عز وجل (هو الذي أرسل رسوله) يعني أن الله الذي يأبى إلا أن يتم
نوره هو الذي أرسل رسوله يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (بالهدى) يعني بالقرآن الذي أنزله عليه وجعله هاديا
إليه (ودين الحق) يعني دين الإسلام (ليظهره) يعني ليعليه (على الدين كله) يعني على سائر الأديان وقال ابن
عباس الهاء في ليظهره عائدة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها فيظهره عليها حتى
لا يخفى عليه شيء منها وقال غيره من المفسرين الهاء راجعة إلى الدين الحق والمعنى ليظهر دين الإسلام على
الأديان كلها وهو أن لا يعبد الله إلا به وقال أبو هريرة والضحاك ذلك عند نزول عيسى عليه السلام فلا يبقى
أهل دين إلا دخلوا في الإسلام ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة في حديث نزول عيسى عليه
السلام قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام عن المقداد قال سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام إما بعز عزيز
أو بذل ذليل إما أن يعزهم فيجعلهم من أهله فيعزوا به وإما أن يذلهم فيدينون له أخرجه البغوي بغير سند
(م) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات
والعزى فقلت يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق
ليظهره على الدين كله أن ذلك تام قال إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله ريحا طيبة فتوفى كل من كان في
قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم قال الشافعي وقد أظهر الله
دين رسوله صلى الله عليه وسلم على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق وما خالفه من الأديان باطل
وقال وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ودين الأميين فقهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأميين

حيث أطاعوهم
تحليل ما حرم الله
ما أحل الله كما يطاع
في أوامره
(والمسيح ابن م
على أحبارهم أ
وما حيث
وما أمروا إلا ليع
واحدا يجوز أن
لأن ما دونه
ويصلح وصفا
إلا هو سبحانه عما
تنزيه له عن
(يريدون أن ي
الله بأفواههم ويأبى
يتم نوره ولو كره ال
مثل حالهم في
يبطلوا نبوة محمد
عليه وسلم بالتك
من يريد أن
عظيم منبث
يريد الله أن يز
الغاية القص
الإشراق ليطف
أسوى ويأبى ا
لا يريد الله إلا
مقابلة يريدون
كرهت أو أبغ
(هو الذي أرس
محمدا عليه السلا
بالقرآن (ود
الإسلام (ليظ
(على الدين كل
الأديان كلها أو
الحق على كل

حتى دانوا بالاسلام طوعاً أو كرهاً وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالاسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليه حكمه فهذا هو ظهوره على الدين كله (ولو كره المشركون) قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار والرهبان) قد تقدم معنى الاحبار والرهبان وان الاحبار من اليهود والرهبان من النصارى ﴿ وفي قوله سبحانه وتعالى ان كثيراً دليل على ان الاقل من الاحبار والرهبان لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ولعلهم الذين كانوا قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم وعبر عن أخذ الاموال بالاكل في قوله تعالى (ليأكلون أموال الناس بالباطل) لان المقصود الاعظم من جمع المال الاكل فسمى الشئ باسم ما هو أعظم مقاصده واختلفوا في السبب الذي من أجله أكلوا أموال الناس بالباطل فقيل انهم كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم في تخفيف الشرائع والمسامحة في الاحكام وقيل انهم كانوا يكتبون بأيديهم كتبا يحرفونها ويبدلونها ويقولون هذه من عند الله ويأخذون بها ثمنا قليلا وهي المآكل التي كانوا يصيبونها من سفلتهم على تغيير نعت النبي صلى الله عليه وسلم وصفته في كتبهم لانهم كانوا يخافون لو آمنوا به وصدقوه لذهبت عنهم تلك المآكل وقيل ان التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على نعت النبي صلى الله عليه وسلم وكان الاحبار والرهبان يذكرون في تأويلها وجوهاً فاسدة باطلة ويحرفون معانيها طلبا للرياسة وأخذ الاموال ومنع الناس عن الايمان به وذلك قوله تعالى (ويصدون عن سبيل الله) يعني ويمنعون الناس عن الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والدخول في دين الاسلام (والذين يكنزون الذهب والفضة) أصل الكنز في اللغة جعل المال بعضه على بعض وحفظه ومال مكنوز مجموع واختلفوا في المراد بهؤلاء الذين ذمهم الله بسبب كنز الذهب والفضة فقيل هم أهل الكتاب قاله معاوية بن أبي سفيان لان الله سبحانه وتعالى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بالباطل ثم وصفهم بالبخل الشديد وهو جمع المال ومنع اخراج الحقوق الواجبة منه وقال ابن عباس والسدي نزلت في مانعي الزكاة من المسلمين وذلك انه سبحانه وتعالى لما ذكر قبح طريقة الاحبار والرهبان في الحرص على أخذ الاموال بالباطل حذر المسلمين من ذلك وذكر وعيد من جمع المال ومنع حقوق الله منه وقال أبو ذر نزلت في أهل الكتاب وفي المسلمين ووجه هذا القول أن الله سبحانه وتعالى وصف أهل الكتاب بالحرص على أخذ أموال الناس بالباطل ثم ذكر بعده وعيد من جمع المال ومنع الحقوق الواجبة فيه سواء كان من أهل الكتاب أو من المسلمين (خ) عن زيد بن وهب قال مررت بالربذة فاذا بأبي ذر فقلت ما أنزلك هذا المنزل قال كنت في الشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فقال معاوية نزلت في أهل الكتاب فقلت نزلت فينا وفيهم فكان بيني وبينه في ذلك كلام فكتب الى عثمان يشكوني فكتب الى عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها فكثر علي الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك فذكرت ذلك لعثمان فقال ان شئت تنحيت فكنت قريبا فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ولو أمر علي عبد حبشي لسمعت وأطعت واختلف العلماء في معنى الكنز فقيل هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته وروي عن ابن عمر أنه قال له اعرابي أخبرني عن قول الله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم قال ابن عمر من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له هذا كان قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهراً للاموال أخرجه البخاري وفي رواية بالمعنى عن عبد الله بن دينار قال سمعت عبد الله بن عمر وهو يسئل عن الكنز ما هو فقال هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة ورواه الطبري بسنده عن ابن عمر قال كل ما أديت زكاته فليس بكنز وان كان مدفونا وكل مال لم تؤد زكاته فهو الكنز الذي ذكره الله في القرآن يكوى به صاحبه وان لم يكن مدفونا وروي عن علي بن أبي طالب قال أربعة آلاف فما دونها نفقة وما فوقها كنز وقيل الكنز كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه اليه وروى الطبري بسنده عن أبي أمامة قال توفي رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي صلى

(ولو كره المشركون ياأيها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس) استعار الاكل للاخذ (بالباطل) أي بالرشا في الاحكام (ويصدون) سفلتهم (عن سبيل الله) دينه (والذين يكنزون الذهب والفضة) يجوز أن يكون اشارة الى الكثير من الاحبار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين ذميمتين فيهم أخذ الرشا وكنز الاموال والشح بها من الانفاق في سبيل الخير ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين ويقرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظا وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما أدى زكاته فليس بكنز وان كان باطنا وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وان كان ظاهرا ولقد كان كثير من الصحابة رضي الله عنهم كعبد الرحمن ابن عوف وطلحة يقتنون الاموال ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية لان الاعراض اختيار للافضل والاقتناء مباح لا يذم صاحبه

الله

الله عليه وسلم كية ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيتان كان هذا في أول الإسلام قبل أن تفرض الزكاة فكان يجب على كل من فضل معه شيء من المال إخراجه لاحتياج غيره إليه فلما فرضت الزكاة نسخ ذلك الحكم عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة كبر ذلك على المسلمين فقال عمر أنا أفرج عنكم فانطلق فقال يا نبي الله إنه كبر على أصحابك هذه الآية فقال إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم قال فكبر عمر ثم قال له ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته أخرجه أبو داود عن ثوبان قال لما نزلت والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فقال بعض أصحابه أنزلت في الذهب والفضة لو علمنا أي المال خير اتخذناه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضله لسان ذاكر وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن والصحيح من هذه الأقوال القول الأول وهو ما ذكرناه عن ابن عمر أن كل مال أديت زكاته فليس بكنز ولا يحرم على صاحبه اكتنازه وإن كثر وأن كل ما لم تؤد زكاته فصاحبه معاقب عليه وإن قل إذا كان مما تجب فيه الزكاة ويستحق على منع الزكاة الوعيد من الله إلا أن يتفضل الله عز وجل عليه بعفوه وغفرانه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره كلما ردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يا رسول الله فالإبل قال ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يا رسول الله فالبقر والغنم قال ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئا ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار أخرجه مسلم بزيادة فيه قوله كلما ردت أعيدت له هكذا هو في بعض نسخ صحيح مسلم ردت بضم الراء وفي بعضها بردت بالباء وهذا هو الصواب والرواية الأولى هي رواية الجمهور قوله حلبها هو بفتح اللام على المشهور وحكي إسكانها وهو ضعيف قوله بقاع قرقر هو المستوي من الأرض الواسع الأملس والعقصاء هي الشاة الملتوية القرنين وإنما استثناها لأنها لا تؤلم بنطحها وكذا الجلحاء وهي الشاة التي لا قرن لها وكذا العضباء وهي الشاة المكسورة القرن (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله سبحانه وتعالى ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم الآية الشجاع الحية والأقرع صفة له بطول العمر لأن من طال عمره تمرق شعره وذهب وهي صفة أخبث الحيات والزبيبتان هما الزبدتان في الشدقين واللهزمتان عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين

وقوله تعالى (ولا ينفقونها في سبيل الله) يعني ولا يؤدون زكاتها وإنما قال ولا ينفقونها ولم يقل ينفقونهما لأنه رد الكناية إلى المال المكنوز وهي أعيان الذهب والفضة وقيل رد الكناية إلى الفضة لأنها أغلب أموال الناس (فبشرهم بعذاب أليم) يعني الكافرين الذين لا يؤدون زكاة أموالهم (ق) عن أبي ذر قال انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال هم الأخسرون ورب الكعبة قال فجئت

(ولا ينفقونها في سبيل ا
الضمير راجع الى المعنى ا
كل واحد منها دنانير ود
فهو كقوله وان طائف
من المؤمنين اقتتلوا أو ر
الكنوز والاموال أو م
ولا ينفقونها والذهب ك
معنى قوله
فاني وقيار بها لغر
وقيار كذلك وخصا بالذ
من بين سائر الاموال لا
قانون الدول وأثمان الا
وذكر كنزهما دليل
ما سواهما (فبشره
بعذاب أليم) ومعنى

(يوم يحمى عليها في نار جهنم) أن النار تحمى عليها أي توقد وانما ذكر الفعل لانه مسند الى الجار والمجرور وأصله
يوم تحمى النار عليها فلما حذفت النار قيل يحمى لانتقال الاسناد عن النار الى عليها كما تقول رفعت القصة الى الامير فان لم تذكر القصة قلت رفع الى الامير (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) وخصت هذه الاعضاء لانهم كانوا اذا أبصروا الفقير عبسوا واذا ضمهم واياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم أو معناه يكوون على الجهات الاربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم (هذا ما كنزتم لانفسكم) يقال لهم هذا ما كنزتموه لتنتفع به نفوسكم وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وهو توبيخ (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أي وبال المال الذي كنتم تكنزونه أو وبال كونكم كانزين (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) من غير زيادة والمراد بيان أن أحكام الشرع تبتنى على الشهور القمرية المحسوبة بالاهلة دون الشمسية (في كتاب) الله فيما أثبته وأوجبه من حكمه أو في اللوح (يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم) ثلاثة سرد ذو القعدة للقعود عن القتال وذو الحجة للحج والمحرم لتحريم القتال فيه

حتى جلست فلم أتقار حتى قمت فقلت يا رسول الله فداك أبي وأمي من هم قال هم الاكثرون أموالا الا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ما من صاحب ابل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها الا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس هذا لفظ مسلم وفرقه البخاري في موضعين ﴿ وقوله تعالى (يوم يحمى عليها) يعني على الكنوز فتدخل النار فيوقد عليها حتى تبيض من شدة الحرارة (في نار جهنم فتكوى بها جباههم) يعني بالكنوز جباه كانزيها (وجنوبهم وظهورهم) قال ابن عباس لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حدته قال بعض العلماء انما خص هذه الاعضاء بالكي من بين سائر الاعضاء لان الغني صاحب المال اذا أتاه السائل فطلب منه شيأ تبدو منه آثار الكراهة والمنع فعند ذلك يقطب وجهه ويكلح وتجتمع أسارير وجهه فيتجعد جبينه ثم ان كرر السائل الطلب أي جانبه بعنقه ومال عن جهته وتركه جانبا ثم ان كرر الطلب وألح في السؤال ولاه ظهره وأعرض عنه واستقبل جهة أخرى وهي النهاية في الرد والغاية في المنع الدال على كراهية الاعطاء والبذل وهذا دأب مانعي البر والاحسان وعادة البخلاء فلذلك خص هذه الاعضاء الثلاثة بالكي يوم القيامة ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (هذا ما كنزتم لانفسكم) أي يقال لهم ذلك يوم القيامة (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أي فذوقوا عذاب ما كنزتم في الدنيا من الاموال ومنعتم حق الله منها (ق) عن الاحنف بن قيس قال قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش اذ جاء رجل خشن الثياب خشن الجسد خشن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل قال فوضع القوم رؤسهم فلم أر أحدا منهم رجع اليه شيأ قال فأدبر فاتبعته حتى جلس الى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء الا كرهوا ما قلت لهم فقال ان هؤلاء لا يعقلون شيأ هذا لفظ مسلم وفيه زيادة لم أذكرها وزاد البخاري ١ قلت من هذا قالوا أبو ذر قال فقمت اليه فقلت ما شيء سمعتك تقول قبيل فقال ما قلت الا شيأ سمعته من نبيهم صلى الله عليه وسلم ﴿ قوله عز وجل (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) هي المحرم وصفر وربيع الاول وربيع الآخر وجمادى الاولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة وهذه شهور السنة القمرية التي هي مبنية على سير القمر في المنازل وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورة تامة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام وبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الحج والصوم تارة في الشتاء وتارة في الصيف قال المفسرون وسبب نزول هذه الآية من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله في الجاهلية فكان يقع حجهم تارة في وقته وتارة في المحرم وتارة في صفر وتارة في غيره من الشهور فأعلم الله عز وجل ان عدة شهور سنة المسلمين التي يعتدون بها اثنا عشر شهرا على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تبارك وتعالى ان عدة الشهور عند الله يعني في علمه وحكمه اثنا عشر شهرا (في كتاب الله) يعني في اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه جميع أحوال الخلق وما يأتون وما يذرون وقيل أراد بكتاب الله القرآن لان فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر وقيل أراد بكتاب الله الحكم الذي أوجبه وأمر عباده بالاخذ به (يوم خلق السموات والارض) يعني أن هذا الحكم حكم به وقضاه يوم خلق السموات والارض أن السنة اثنا عشر شهرا (منها) يعني من الشهور (أربعة حرم) وهي رجب فرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاثة متوالية وانما سميت حرما لان العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال حتى لو أن أحدهم لقي قاتل أبيه

١ قوله وزاد البخاري الخ هذه الزيادة لمسلم لا للبخاري اه مصححه ... وابنه

وابتداء أحيه في هذه الاربعة الاشهر لمجيئه ولعلمائه الاسلام لم يزدها الا حرمة وتعظيما لان الحسنات والطاعات فيها تتضاعف وكذلك السيآت أيضا أشد من غيرها فلا يجوز انتهاك حرمة الاشهر الحرم (ذلك الدين القيم) يعني ذلك الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوى فالدين هنا بمعنى الحساب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه يعني حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت وقيل أراد بالدين القيم الحكم الذي لا يغير ولا يبدل والقيم هنا بمعنى القائم الذي لا يزول وهو واجب على المسلمين الاخذ بهذه الحساب والعدد في صومهم وحجهم وأعيادهم وبياعاتهم وأجل ديونهم وغير ذلك من سائر أحكام المسلمين المرتبة على الشهور (ق) عن أبي بكرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان أي شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس ذا الحجة قلنا بلى قال فأي بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلد الحرام قلنا بلى قال فأي يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى قال فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ثم قال ألا هل بلغت ألا هل بلغت قلنا نعم قال اللهم اشهد ﴿ وقوله تعالى (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) قيل الكناية في فيهن ترجع الى جميع الاشهر أي لا تظلموا أنفسكم في جميع أشهر السنة بفعل المعاصي وترك الطاعات لان المقصود منع الانسان من الاقدام على المعاصي والفساد مطلقا في جميع الاوقات الى الممات وقيل ان الكناية ترجع الى الاشهر الحرم وهو قول أكثر المفسرين وقال قتادة العمل الصالح أعظم أجرا في الاشهر الحرم والظلم فيهن أعظم منه فيما سواهن وان كان الظلم على كل حال عظيما وقال ابن عباس لا تظلموا فيهن أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن وقال محمد بن اسحق بن يسار لا تجعلوا حلالها حراما ولا حرامها حلالا كفعل أهل الشرك وهو النسيء وقيل ان الانفس مجبولة بطبعها على الظلم والفساد والامتناع عنه على الاطلاق شاق على النفس لا جرم أن الله خص بعض الاوقات بمزيد التعظيم والاحترام ليمتنع الانسان في تلك الاوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات فربما تركها في باقي الاوقات فتصير هذه الاوقات الشريفة والاشهر المحرمة المعظمة سببا لترك الظلم وفعل المعاصي في غيرها من الاشهر فهذا وجه الحكمة في تخصيص بعض الاشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم وكذلك الامكنة أيضا وقوله سبحانه وتعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) يعني قاتلوا المشركين بأجمعكم مجتمعين على قتالهم كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة والمعنى تعاونوا وتناصروا على قتالهم ولا تتخاذلوا ولا تتدابروا ولا تتقاطعوا ولا تجبنوا عن قتالهم وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين في مقاتلة أعدائكم من المشركين واختلف العلماء في تحريم القتال في الاشهر الحرم فقال قوم كان كبيرا ثم انه نسخ بقوله وقاتلوا المشركين كافة يعني في الاشهر الحرم وفي غيرهن وهذا قول قتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري قالوا لان النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين وثقيفا بالطائف وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة وقال آخرون انه غير منسوخ قال ابن جريج حلف بالله عطاء بن أبي رباح ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الاشهر الحرم وما نسخت الا أن يقاتلوا فيها (واعلموا أن الله مع المتقين) يعني بالنصر والمعونة على أعدائهم قوله سبحانه وتعالى (انما النسيء زيادة في الكفر) النسيء في اللغة عبارة عن التأخير في الوقت ومنه النسيئة في البيع ومعنى النسيء المذكور في الآية هو تأخير شهر حرام الى شهر آخر وذلك ان العرب في الجاهلية كانت تعتقد حرمة

وواحد فرد وهو رجب لترجيب العرب اياه أي تعظيمه (ذلك الدين القيم) أي الدين المستقيم لا ما يفعله أهل الجاهلية يعني أن تحريم الاربعة الاشهر هو الدين المستقيم ودين ابراهيم واسمعيل وكانت العرب تمسكت به فكانوا يعظمونها ويحرمون القتال فيها حتى أحدثت النسيء فغيروا (فلا تظلموا فيهن) في الحرم أو في الاثني عشر (أنفسكم) بارتكاب المعاصي (وقاتلوا المشركين كافة) حال من الفاعل والمفعول (كما يقاتلونكم كافة) جميعا (واعلموا أن الله مع المتقين) أي ناصر لهم حثهم على التقوى بضمان النصرة لاهلها (انما النسيء) بالهمزة مصدر نسأه اذا أخره وهو تأخير حرمة الشهر الى شهر آخر وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات فاذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهرا آخر حتى رفضوا تخصيص الاشهر الحرم بالتحريم فكانوا يحرمون من بين شهور العام أربعة أشهر (زيادة في الكفر) أي هذا الفعل منهم زيادة في كفرهم

الاشهر الحرم وتعظيمها وكان ذلك مما تمسكت به من ملة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارة فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية وربما وقعت حروب في بعض الاشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخير حروبهم الى الاشهر الحلال فنسؤا يعني أخروا تحريم شهر الى شهر آخر فكانوا يؤخرون تحريم المحرم الى صفر فيستحلون المحرم ويحرمون صفر فاذا احتاجوا الى تأخير تحريم صفر أخروه الى ربيع الاول فكانوا يصنعون هكذا يؤخرون شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها وكانوا يحجون في كل شهر عامين فحجوا في ذي الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين وكذا باقي شهور السنة فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذي القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه شهر ذي الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة في اليوم التاسع وخطب الناس في اليوم العاشر بمنى وأعلمهم ان أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الامر الى ما وضع الله عليه حساب الاشهر يوم خلق السموات والارض وهو قوله صلى الله عليه وسلم ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض الحديث المتقدم وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل في مستأنف الايام واختلفوا في أول من نسأ النسيء فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد أول من نسأ النسيء بنو مالك بن كنانة وكان يليه جنادة بن عوف بن أمية الكناني وقال الكلبي أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يقوم على الناس في الموسم فاذا هم الناس بالصدر قام فخطب الناس فيقول لامرد لما قضيت أنا الذي لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول ان صفر في هذا العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الاوتار ونزعوا الاسنة والازجة من الرماح وان قال حلال عقدوا أوتار القسي وركبوا الاسنة في الرماح وأغاروا وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف وهو الذي أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو رجل من بني كنانة يقال له القلمس قال شاعرهم

* وفينا ناسيء الشهر القلمس *

وكانوا يفعلون ذلك اذا اجتمعت العرب في الموسم وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ان أول من سن النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف والذي صح من حديث أبي هريرة وعائشة ان عمرو بن لحي أول من سيب السوائب وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو ابن لحي يجر قصبه في النار فهذا ما ورد في تفسير النسيء الذي ذكره الله في قوله انما النسيء زيادة في الكفر يعني زيادة كفر على كفرهم وسبب هذه الزيادة انهم أمروا بايقاع كل فعل في وقته من الاشهر الحرم ثم انهم بسبب أغراضهم الفاسدة أخروه الى وقت آخر بسبب ذلك النسيء فأوقعوه في غير وقته من الاشهر الحرم فكان ذلك الفعل زيادة في كفرهم (يضل به الذين كفروا) قرئ يضل بفتح الياء وكسر الضاد ومعناه يضل بالنسيء الذين كفروا وقرئ يضل بضم الياء وفتح الضاد ومعناه ان كبارهم أضلوهم وحملوهم عليه وقرئ يضل به الذين كفروا بضم الياء وكسر الضاد ومعناه يضل الله به الذين كفروا أو يضل به الشيطان الذين كفروا بتزيين ذلك لهم وقيل معناه يضل به الذين كفروا تابعيهم والآخذين بأقوالهم وهذا الوجه أقوى الوجهين في تفسير قراءة من قرأ يضل بضم الياء وكسر الضاد (يحلونه عاما ويحرمونه عاما) يعني يحلون ذلك الانساء عاما ويحرمونه عاما والمعنى يحلون الشهر المحرم عاما فيجعلونه حلالا يغيرون فيه ويحرمونه عاما فيجعلونه محرما فلا يغيرون فيه (ليواطؤا) يعني ليوافقوا (عدة ما حرم الله) يعني أنهم ما أحلوا شهرا من الحرم الا حرموا شهرا مكانه من الحلال ولم يحرموا شهرا من الحلال الا أحلوا مكانه شهرا من الحرام لاجل أن يكون عدد الاشهر الحرم أربعة كما حرم الله فيكون ذلك موافقة في العدد لا في الحكم كذلك قوله سبحانه وتعالى (فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم) قال ابن عباس زين لهم الشيطان هذا العمل

(يضل) كوفي غير أبي بكر (به الذين كفروا) بالنسيء والتسمية (يحلونه عاما ويحرمونه عاما) النسيء أي اذا أحلوا شهرا من الاشهر الحرم عاما رجعوا فحرموه في العام القابل (ليواطئوا عدة ما حرم الله) ليوافقوا العدة التي هي الاربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين واللام تتعلق بيحلونه ويحرمونه أو بيحرمونه وهو الظاهر (فيحلوا ما حرم الله) أي فيحلوا بمواطأة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم الله من القتال ومن ترك الاختصاص للشهور بعينها (زين لهم سوء أعمالهم) زين الشيطان لهم ذلك فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة

والله

(والله لا يهدي القوم الكافرين) يعني أنه سبحانه وتعالى لا يرشد من هو كافر أثيم لما سبق له في الأزل أنه من أهل النار ﴿قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض) نزلت هذه الآية في الحث على غزوة تبوك وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر حين طابت الظلال ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز وعدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أي قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم انفروا في سبيل الله أي اخرجوا إلى الجهاد يقال استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم وإذا استنفرتم فانفروا والاسم النفير اثاقلتم أي تثاقلتم وتباطأتم عن الخروج إلى الغزو إلى الأرض يعني لزمتم أرضكم ومساكنكم وإنما استثقل ذلك الغزو لشدة الزمان وضيق الوقت وشدة الحر وبعد المسافة والحاجة إلى كثرة الاستعداد من العدد والزاد وكان ذلك الوقت وقت إدراك ثمار المدينة وطيب ظلالها وكان العدو كثيرا فاستثقل الناس تلك الغزوة فعاتبهم الله تعالى بقوله (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) يعني أرضيتم بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) يعني أن لذات الدنيا ونعيمها فان زائل عن قليل ونعيم الآخرة باق على الأبد فلهذا السبب كان متاع الدنيا قليلا بالنسبة إلى نعيم الآخرة وفي الآية دليل على وجوب الجهاد في كل حال وفي كل وقت لأن الله سبحانه وتعالى نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر ولو لم يكن الجهاد واجبا لما عاتبهم على ذلك التثاقل ويؤكد هذا الوعيد المذكور في الآية الآتية وهي قوله تعالى (إلا تنفروا) يعني إن لم تنفروا أيها المؤمنون إلى ما استنفركم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه (يعذبكم عذابا أليما) يعني في الآخرة لأن العذاب الأليم لا يكون إلا في الآخرة وقيل إن المراد به احتباس المطر في الدنيا قال ابن نجيح سألت ابن عباس عن هذه الآية فقال استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من أحياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله تعالى عنهم المطر فكان ذلك عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) يعني خيرا منكم وأطوع قال سعيد بن جبير هم أبناء فارس وقيل هم أهل اليمن به سبحانه وتعالى على أنه قد تكفل بنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم وإعزاز دينه فإن سارعوا معه إلى الخروج إلى حيث استنفروا حصلت النصرة بهم ووقع أجرهم على الله عز وجل وإن تثاقلوا وتخلفوا عنه حصلت النصرة بغيرهم وحصلت العتبى لهم لئلا يتوهموا أن إعزاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرته لا تحصل إلا بهم وهو قوله تعالى (ولا تضروه شيئا) قيل الضمير راجع إلى الله تعالى يعني ولا تضروا الله شيئا لأنه غني عن العالمين وإنما تضرون أنفسكم بترككم الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل الضمير راجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني ولا تضروا محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا فإن الله ناصره على أعدائه ولا يخذله (والله على كل شيء قدير) يعني أنه تعالى قادر على كل شيء فهو ينصر نبيه ويعز دينه قال الحسن وعكرمة هذه الآية منسوخة بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال الجمهور هذه الآية محكمة لأنها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس وعلى هذا التقدير فلا نسخ قوله عز وجل (إلا تنصروه فقد نصره الله) يعني إلا تنصروا محمدا صلى الله عليه وسلم أيها المؤمنون هذا خطاب لمن

(والله لا يهدي القوم الكافرين) مختارهم الثبات على الباطل (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا) اخرجوا (في سبيل الله اثاقلتم) تثاقلتم وهو أصله الا أن التاء أدغمت في الثاء فصارت ثاء ساكنة فدخلت ألف الوصل لئلا يبتدأ بالساكن أي تباطأتم (إلى الأرض) ضمن معنى الميل والإخلاد فعدي بإلى أي ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه أي ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم وكان ذلك في غزوة تبوك استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة إلا ورى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) بدل الآخرة (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة) في جنب الآخرة (إلا قليل إلا تنفروا) إلى الحرب (يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا) سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيرا منهم وأطوع وأنه غني عنهم في نصرة دينه لا يقدح تثاقلهم فيها شيئا وقيل الضمير في ولا تضروه للرسول عليه السلام لأن الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره ووعده كائن لا محالة (والله على كل شيء) من التبديل والتعذيب وغيرهما (قدير إلا تنصروه فقد نصره الله) إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ودل بقوله فقد نصره الله على أنه ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت

تثاقل عن الخروج معه الى تبوك فاعلم الله عز وجل انه هو المتكفل بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم واعزاز
دينه واعلاء كلمته أعانوه أو لم ينصروه وانه قد نصره عند قلة الاولياء وكثرة الاعداء فكيف به اليوم وهو في
كثرة من العدد والعدد (اذ أخرجه الذين كفروا) يعني انه تعالى نصره في الوقت الذي أخرجه فيه كفار مكة
من مكة حين مكروا به وأرادوا قتله (ثاني اثنين) يعني هو واحد اثنين وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو
بكر (اذ هما في الغار) يعني اذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في الغار والغار ثقب عظيم يكون في
الجبل وهذا الغار في جبل ثور وهو قريب من مكة (اذ يقول لصاحبه لا تحزن) يعني يقول رسول الله صلى
الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق لا تحزن وذلك ان أبا بكر خاف من الطلب ان يعلموا بمكانهم فجزع من ذلك
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحزن (ان الله معنا) يعني بالنصر والمعونة قال الشعبي عاتب الله عز وجل
أهل الارض جميعا في هذه الآية غير أبي بكر وقال الحسين بن الفضل من قال ان أبا بكر لم يكن صاحب رسول
الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لانكاره نص القرآن وفي سائر الصحابة اذا أنكر يكون مبتدعا ولا يكون
كافرا عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار
أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب (ق) عن أبي بكر الصديق قال نظرت الى أقدام المشركين
ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر الى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال يا أبا
بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما قال الشيخ محيي الدين النووي معناه ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ
والتسديد وهو داخل في قوله سبحانه وتعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفيه بيان عظيم توكل
النبي صلى الله عليه وسلم حتى في هذا المقام وفيه فضيلة لأبي بكر وهي من أجل مناقبه والفضيلة من أوجه منها
هذا اللفظ الدال على ان الله ثالثهما ومنها بذله نفسه ومفارقته أهله وماله ورياسته في طاعة الله وطاعة رسوله
صلى الله عليه وسلم وملازمته النبي صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيه ومنها جعله نفسه وقاية عنه وغير
ذلك وروي عن عمر بن الخطاب انه ذكر عنده أبو بكر فقال وددت ان عملي كله مثل عمله يوما واحدا من أيامه
وليلة واحدة من لياليه أما ليلته فليلة سار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار فلما انتهى اليه قال والله
لا تدخله حتى أدخل قبلك فان كان فيه شيء أصابني دونك فدخله فكسحه ووجد في جانبه ثقبا فشق ازاره
وسدها به وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادخل فدخل رسول الله صلى
الله عليه وسلم ووضع رأسه في حجره ونام فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله
صلى الله عليه وسلم فسقطت دموعه على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما لك يا أبا بكر فقال لدغت
فداك أبي وأمي فتفل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب ما يجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته
وأما يومه فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب وقالوا لا نؤدي الزكاة فقال لو منعوني عقالا
لجاهدتهم عليه فقلت يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فقال لي أجبار في الجاهلية خوار في
الاسلام انه قد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حي أخرجه في جامع الاصول ولم يرقم عليه علامة لاحد قال
البغوي وروي انه حين انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه وساعة
خلفه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لك يا أبا بكر فقال أذكر الطلب فأمشي خلفك وأذكر الرصد
فأمشي بين يديك فلما انتهيا الى الغار قال مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ الغار فدخل فاستبرأه ثم قال انزل
يا رسول الله فنزل وقال ان أقتل فانا رجل واحد من المسلمين وان قتلت هلكت الامة

﴿ذكر سياق حديث الهجرة وهو من أفراد البخاري﴾

عن عائشة قالت لم أعقل أبوي قط الا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم الا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه
وسلم طرفي النهار بكرة وعشيا فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى اذا بلغ برك

(اذ أخرجه الذين كفروا) أسند الاخراج الى الكفار لانهم حين هموا باخراجه اذن الله له في الخروج فكأنهم أخرجوه (ثاني اثنين) أحد اثنين كقوله ثالث ثلاثة وهما رسول الله وأبو بكر وانتصابه على الحال (اذ هما) بدل من اذ أخرجه (في الغار) هو ثقب في أعلى ثور وهو جبل في يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثا (اذ يقول) بدل ثان (لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) بالنصرة والحفظ قيل طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان تصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه السلام ما ظنك باثنين الله ثالثهما وقيل لما دخل الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله بأبصارهم عنه وقالوا من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لانكاره كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة

الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال أين تريد يا أبا بكر فقال أبو بكر أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي فقال ابن الدغنة فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وفي رواية فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وأمنوا أبا بكر وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره وليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث أبو بكر كذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان قالت عائشة فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال قد علمت الذي عاهدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلي ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له فقال أبو بكر فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين إني رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة فبينما نحن جلوس يوماً في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر أخرج من عندك فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال فإني قد أذن لي في الخروج قال أبو بكر الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم قال أبو بكر فخذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن قالت عائشة فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق قالت ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريتاً والخريت الماهر بالهداية قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فأمناه

فدفعا اليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاهما صبح ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلي فأخذ بهم طريق السواحل وفي رواية طريق الساحل قال ابن شهاب فأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم ان أباه أخبره انه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال يا سراقة اني قد رأيت آنفا أسودة بالساحل أراها محمدا وأصحابه قال سراقة فعرفت أنهم هم فقلت له انهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها علي وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الارض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت فأهويت يدي الى كنانتي فاستخرجت منها الازلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذي أكره فركبت فرسي وعصيت الازلام تقرب بي حتى اذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الارض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة اذا لأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالازلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالامان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ان قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ولم يسألاني الا أن قال أخف عنا فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشأم فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة الى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أووا الى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لامر ينظر اليه فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب فلم يملك اليهودي ان قال بأعلى صوته يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرونه قال فثار المسلمون الى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الاول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا فطفق من جاء من الانصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو ابن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربدا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا ان شاء الله المنزل ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا بل نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول

هذا الحمال لا حمال خيبر * هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول اللهم ان الاجر أجر الآخره فارحم الانصار والمهاجره فتمثل شعر رجل من المسلمين لم يسم لي قال ابن شهاب ولم يبلغنا في الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت أخرجه البخاري بطوله * شرح غريب ألفاظ الحديث قولها لم أعقل أبوي الا وهما يدينان الدين يعني أنهما كانا ينقادان الى الطاعة وبرك الغماد بفتح الباء من برك وكسر الغين المعجمة اسم موضع بينه وبين مكة خمس ليال مما يلي ساحل البحر الى المدينة من بلاد غفار وقيل هو قليب ماء لبني ثعلبة قوله تكسب المعدوم فيه قولان أحدهما انه لتوسعه وحظه من الدنيا لا يتعذر عليه كسب كل شيء حتى المعدوم الذي يتعذر كسبه على غيره والقول الثاني انه يملك الشيء المعدوم المتعذر لمن لا يقدر عليه فيه وصفه بالاحسان والكرم والكل ما يثقل حمله من حقوق الناس وصلة الارحام والقيام بامر العيال واقراء الضيف ونوائب الحق ما ينوب الانسان من المغارم وقضاء الحقوق لمن يقصده أنا لك جار أي حام وناصر ومدافع عنك والاستعلان والاعلان اظهار الحق وقوله فيتقذف النساء عليه يعني يزدحمن عليه والذمة العهد والامان واخفارها نقضها واللابة الجبل والحرة الارض التي تعلوها حجارة سود يقال افعل الشيء على رسلك بكسر الراء أي على هيئتك والراحلة البعير القوي على الحمل والسير والظهيرة وقت شدة الحر والنطاق حبل أو نحوه تشد به المرأة وسطها وترفع ثوبها من تحته فتعطف طرفه من أعلاه الى أسفله لئلا يصل الى الارض وقولها ثقف لقن يقال ثقف الرجل ثقافة اذا صار حاذقا فطنا واللقن السريع الفهم والادلاج بتخفيف الدال السير أول الليل وبتشديدها سير آخره والمنحة الشاة ذات اللبن والرسل بكسر الراء وسكون السين هو اللبن يقال نعق الراعي بالغنم اذا دعاها لتجتمع اليه والغلس ظلام آخر الليل والخريت تقدم شرحه في الحديث وهو الماهر بالهداية وأراد به هداية الطريق فهو الدليل وقد غمس حلفا يقال غمس فلان حلفا في آل فلان اذا أخذ بنصيب من عهدهم وحلفهم والاسودة الاشخاص والاكمة التل المرتفع من الارض يقال قرب الفرس يقرب تقريبا اذا عدا لعدوا دون الاسراع والكنانة هي الجعبة التي يجعل فيها السهام والازلام القداح التي كانوا يستقسمون بها عند طلب الحوائج كالفال والدخان الغبار يقال ما رزأت فلانا شيأ أي ما أصبت منه شيأ والمراد انهم لم يأخذوا منه شيأ وقوله أوفى أي أشرف واطلع والاطم البناء المرتفع كالحصن وقوله مبيضين هو بكسر الياء أي هم ذو ثياب بياض والمربد الموضع يوضع فيه التمر كالبيدر وقوله هذا الحمال هو بالحاء المهملة يعني هذا الحمل والمحمول من اللبن أبر عند الله وأطهر وأبقى ذخرا وأدوم منفعة في الآخرة لا حمال خيبر يعني ما يحمل من خيبر من التمر والزبيب والطعام المحمول منها والمعنى ان ذلك الحمل الذي نحمله من اللبن لاجل عمارة المسجد أفضل عند الله مما يحمل من خيبر وقد روى هذا الجمال بالجيم من التجمل والرواية الاولى أشهر وأ كثر والله أعلم قال الزهري لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الغار أرسل الله سبحانه وتعالى زوجا من حمام حتى باضا في أسفل النقب ونسجت العنكبوت بيتا وقيل أنبتت ثمامة على فم الغار وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اعم أبصارهم فجعل الطلب يضربون يمينا وشمالا حول الغار يقولون لو دخلا هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت ووجدت في بعض التفاسير شعرا وقد نسب الى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وهو قوله

قال النبي ولم يجزع يوقرني * ونحن في سدف في ظلمة الغار
لا تخش شيأ فان الله ثالثنا * وقد تكفل لي منه باظهار
وانما كيد من تخشى بوادره * كيد الشياطين قد كادت لكفار
والله مهلكهم طرا بما صنعوا * وجاعل المنتهى منهم الى النار

وقوله سبحانه وتعالى (فأنزل الله سكينته عليه) يعني فأنزل الله الطمأنينة والسكون على رسوله محمد صلى

فأنزل الله سكينته) ما ألقى في قلبه من الامنة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون اليه (عليه) على النبي صلى الله عليه وسلم أو على أبي بكر لانه كان يخاف وكان عليه السلام ساكن القلب

الله عليه وسلم وقال ابن عباس على أبي بكر لان النبي صلى الله عليه وسلم كانت عليه السكينة من قبل ذلك

*(فصل) في الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على فضل سيدي أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه منها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اختفى في الغار من الكفار كان مطلعا على باطن أبي بكر الصديق في سره وإعلانه وانه من المؤمنين الصادقين الصديقين المخلصين فاختار صحبته في ذلك المكان الخوف لعلمه بحاله ومنها ان هذه الهجرة كانت باذن الله تعالى فخص الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم أبا بكر دون غيره من أهله وعشيرته وهذا التخصيص يدل على شرف أبي بكر وفضله على غيره ومنها ان الله سبحانه وتعالى عاتب أهل الارض بقوله تعالى الا تنصروه فقد نصره الله سوى أبي بكر الصديق وهذا دليل على فضله ومنها ان سيدنا أبا بكر رضي الله تعالى عنه لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ولا حضر بل كان ملازما له وهذا دليل على صدق محبته وصحة صحبته له ومنها مؤانسته للنبي صلى الله عليه وسلم في الغار وبذل نفسه له وفي هذا دليل على فضله ومنها ان الله سبحانه وتعالى جعله ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه وتعالى ثاني اثنين اذ هما في الغار وفي هذا نهاية الفضيلة لابي بكر رضي الله تعالى عنه وقد ذكر بعض العلماء ان أبا بكر كان ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر الاحوال ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الخلق الى الايمان بالله فكان أبو بكر أول من آمن ثم دعا أبو بكر الى الايمان بالله ورسوله فاستجاب له عثمان وطلحة والزبير فآمنوا على يدي أبي بكر ثم حملهم الى النبي صلى الله عليه وسلم ومنها ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقف في موقف من غزواته الا وأبو بكر معه في ذلك الموقف ومنها انه لما مرض صلى الله عليه وسلم قام مقامه في الامامة فكان ثانيه ومنها انه ثانيه في تربته صلى الله عليه وسلم وفي هذا دليل على فضل أبي بكر الصديق ومنها ان الله سبحانه وتعالى نص على صحبة أبي بكر دون غيره بقوله سبحانه وتعالى اذ يقول لصاحبه لا تحزن ومنها ان الله سبحانه وتعالى كان ثالثهما ومن كان الله معه دل على فضله وشرفه على غيره ومنها انزال السكينة على أبي بكر واختصاصه بها دليل على فضله والله أعلم وقوله سبحانه وتعالى (وأيده بجنود لم تروها) يعني وأيد النبي صلى الله عليه وسلم بانزال الملائكة ليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته وقيل ألقى الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا وقال مجاهد والكلبي أعانه بالملائكة يوم بدر فأخبر الله سبحانه وتعالى انه نصره وصرف عنه كيد الاعداء وهو في الغار في حالة القلق والخوف ثم نصره بالملائكة يوم بدر (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) يعني كلمة الشرك فهي سفلى الى يوم القيامة (وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) قال ابن عباس هي كلمة لا اله الا الله فهي باقية الى يوم القيامة عالية وقيل ان كلمة الذين كفروا هي ما كانوا قدروا فيما بينهم من الكيد للنبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه وكلمة الله هي ما وعده من النصر والظفر بهم فكان ما وعده الله سبحانه وتعالى حقا وصدقا قوله سبحانه وتعالى (انفروا خفافا وثقالا) يعني انفروا على الصفة التي يخف عليكم الجهاد بها وعلى الصفة التي يثقل عليكم فيها وهذان الوصفان يدخل تحتهما أقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيها فقال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة يعني شبابا وشيوخا وقال ابن عباس نشاطا وغير نشاط وقال عطية العوفي ركبانا ومشاة وقال أبو صالح خفافا من المال يعني فقراء وثقالا يعني أغنياء وقال ابن زيد الخفيف الذي لا ضيعة له والثقيل الذي له الضيعة يكره أن يدع ضيعته ويروى عن ابن عباس قال خفافا أهل الميسرة من المال وثقالا أهل العسرة وقيل خفافا يعني من السلاح مقلين منه وثقالا يعني مستكثرين منه وقيل مشاغيل وغير مشاغيل وقيل أصحاء ومرضى وقيل عزابا ومتأهلين وقيل خفافا من الحاشية والاتباع وثقالا مستكثرين منهم وقيل خفافا يعني مسرعين في الخروج الى الغزو ساعة سماع النفير وثقالا يعني بعد التروي فيه والاستعداد له والصحيح ان هذا عام لان هذه الاحوال كلها داخلة تحت قوله تعالى انفروا خفافا وثقالا يعني على أي حال كنتم فيهما فان قلت فعلى هذا يلزم الجهاد لكل أحد

(وأيده بجنود لم تروها) هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه وأيده بالملائكة يوم بدر والاحزاب وحنين (وجعل كلمة الذين كفروا) أي دعوتهم الى الكفر (السفلى وكلمة الله) دعوته الى الاسلام (هي) فصل (العليا) وكلمة الله بالنصب يعقوب بالعطف والرفع على الاستئناف أوجه اذ هي لم تزل كانت عالية (والله عزيز) يعز بنصره أهل كلمته (حكيم) يذل أهل الشرك بحكمته (انفروا خفافا) في النفور لنشاطكم له (وثقالا) عنه لمشقته عليكم أو خفافا لقلة عيالكم وثقالا لكثرتها أو خفافا من السلاح وثقالا منه أو ركبانا ومشاة أو شبابا وشيوخا أو مهازيل وسمانا أو صحاحا ومراضا

ر .. م ... (...) بجانبه للجهاد بهما ان امكن او باحدهما على حسب الحال والحاجة (فى سبيل الله ذلكم) الجهاد (خير لكم) من تركه (ان كنتم تعلمون) كون ذلك خيرا فبادروا اليه ونزل فى المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين (لو كان عرضا) هو ما عرض لك من منافع الدنيا يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر أى لو كان ما دعوا اليه مغنما (قريبا) سهل المأخذ

حتى المريض والزمن والفقير وليس الامر كذلك فلمعنى هذا الامر قلت من العلماء من حمله على الوجوب ثم انه نسخ قال ابن عباس نسخت هذه الآية بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية وقال السدى نسخت بقوله ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية ومنهم من حمل هذا الامر على الندب قال مجاهد ان أبا أيوب الانصارى شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون بعده فقيل له فى ذلك فقال سمعت الله عز وجل يقول انفروا خفافا وثقالا ولا أجدنى الا خفيفا او ثقيلا وقال الزهرى خرج سعيد بن المسيب وقد ذهبت احدى عينيه فقيل له انك عليل صاحب ضر فقال استنفر الله الخفيف والثقيل فان لم يمكنى الحرب كثرت السواد او حفظت المتاع وقال صفوان بن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت يا عم أنت معذور عند الله فرفع حاجبيه وقال يا ابن أخى استنفرنا الله خفافا وثقالا الا انه من يحبه يبتليه والصحيح هو القول الاول انها منسوخة وأن الجهاد من فروض الكفايات ويدل عليه ان هذه الآيات نزلت فى غزوة تبوك وان النبى صلى الله عليه وسلم خلف فى المدينة فى تلك الغزاة النساء وبعض الرجال فدل ذلك على ان الجهاد من فروض الكفايات ليس على الاعيان والله أعلم ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) فيه قولان الاول ان الجهاد انما يجب على من له مال يتقوى به على تحصيل آلات الجهاد ونفس سليمة قوية صالحة للجهاد فيجب عليه فرض الجهاد والقول الثانى أن من كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للحرب فعليه الجهاد بماله بان يعطيه غيره ممن يصلح للجهاد فيغزو بماله فيكون مجاهدا بماله دون نفسه (ذلكم) يعنى ذلكم الجهاد (خير لكم) يعنى من القعود والتثاقل عنه وقيل معناه ان الجهاد خير حاصل لكم ثوابه (ان كنتم تعلمون) يعنى ان ثواب الجهاد خير لكم من القعود عنه ثم نزل فى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ۞ قوله عز وجل (لو كان عرضا قريبا) فيه اضمار تقديره لو كان ما تدعوهم اليه عرضا يعنى غنيمة سهلة قريبة التناول والعرض ما عرض لك من منافع الدنيا ومتاعها يقال الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر (وسفرا قاصدا) يعنى سهلا قريبا (لاتبعوك) يعنى لخرجوا معك (ولكن بعدت عليهم الشقة) أى المسافة والشقة السفر البعيد لانه يشق على الانسان سلوكها ومعنى الآية لو كان العرض قريبا والغنيمة سهلة والسفر قاصدا لاتبعوك طمعا فى تلك المنافع التى تحصل لهم ولكن لما كان السفر بعيدا وكانوا يستعظمون غزو الروم لا جرم انهم تخلفوا لهذا السبب ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم انه اذا رجع النبى عليه السلام من هذا الجهاد يحلفون بالله وهو قوله تعالى (وسيحلفون بالله) يعنى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة (لو استطعنا لخرجنا معكم) يعنى الى هذه الغزوة (يهلكون أنفسهم) يعنى بسبب هذه الايمان الكاذبة والنفاق وفيه دليل على ان الايمان الكاذبة تهلك صاحبها (والله يعلم انهم لكاذبون) يعنى فى ايمانهم وهو قولهم لو استطعنا لخرجنا معكم لانهم كانوا مستطيعين الخروج ۞ قوله عز وجل (عفا الله عنك لم أذنت لهم) قال الطبرى هذا عتاب من الله عز وجل عاتب الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أى فى اذنه لمن أذن له فى التخلف عنه من المنافقين حين شخص الى تبوك لغزو الروم والمعنى عفا الله عنك يا محمد ما كان منك فى اذنك لهؤلاء المنافقين استأذنوك فى ترك الخروج معك الى تبوك قال عمرو بن ميمون الاودى اثنتان فعلهما

(وسفرا قاصدا) وسطا مقاربا والقاصد والقصد المعتدل (لاتبعوك) لوافقوك فى الخروج (ولكن بعدت عليهم الشقة) المسافة الشاطة الشاقة (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم) من دلائل النبوة لانه أخبر بما سيكون بعد القفول فقالوا كما أخبر وبالله متعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم والقول مراد فى الوجهين أى سيحلفون يعنى المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم أو سيحلفون بالله يقولون لو استطعنا وقوله لخرجنا سد مسد جوابى القسم ولو جميعا ومعنى الاستطاعة استطاعة العدة أو استطاعة الابدان كأنهم تمارضوا (يهلكون أنفسهم) بدل من سيحلفون أو حال منه أى مهلكين والمعنى انهم يهلكونها بالحلف الكاذب أو حال من لخرجنا أى لخرجنا معكم وان أهلكنا أنفسنا وألقيناها

فى التهلكة بما نحملها على المسير فى تلك الشقة (والله يعلم انهم لكاذبون) فيما يقولون (عفا الله عنك) كناية عن الزلة لان العفو مرادف لها وهو من لطف العتاب بتصدير العفو فى الخطاب وفيه دلالة فضله على سائر الانبياء عليهم السلام حيث لم يذكر مثله لسائر الانبياء عليهم السلام (لم أذنت لهم) بيان لما كنى عنه بالعفو ومعناه مالك أذنت لهم فى القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالاذن

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بشيء فيهما اذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالذنب

(فصل) استدل بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الانبياء وبيانه من وجهين أحدهما انه سبحانه وتعالى قال عفا الله عنك والعفو يستدعي سابقة الذنب الوجه الثاني انه سبحانه وتعالى قال لم أذنت لهم وهذا استفهام معناه الانكار والجواب عن الاول انا لا نسلم ان قوله تعالى عفا الله عنك يوجب صدور الذنب بل نقول ان ذلك يدل على المبالغة في التعظيم والتوقير وكما يقول الرجل لغيره اذا كان معظما له عفا الله عنك ما صنعت في أمري رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي وعافاك الله وغفر لك كل هذه الالفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به قال علي بن الجهم يخاطب المتوكل

عفا الله عنك الا حرمة * تعود بفضلك ان أبعد * ألم تر عبدا عدا طوره
ومولى عفا ورشيدا هدى * أقلني أقالك من لم يزل * يقيل ويصرف عنك الردى

والجواب عن الثاني انه لا يجوز أن يكون المراد بقوله لم أذنت لهم الانكار عليه وبيانه اما أن يكون قد صدر عنه ذنب في هذه الواقعة أولا فان كان قد صدر عنه ذنب فذكر الذنب بعد العفو لا يليق فقوله عفا الله عنك يدل على حصول العفو و بعد حصول العفو يستحيل أن يتوجه الانكار عليه وان لم يكن قد صدر عنه ذنب امتنع الانكار عليه فثبت بهذا ان الانكار يمتنع في حقه صلى الله عليه وسلم وقال القاضي عياض في كتابه الشفاء في الجواب عن قوله عفا الله عنك لم أذنت لهم انه أمر لم يتقدم للنبي صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهي فيعد معصية ولا عده تعالى عليه معصية بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب الى ذلك قال نفطويه وقد حاشاه الله من ذلك بل كان مخيرا في أمرين قالوا وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي فكيف وقد قال الله سبحانه وتعالى فأذن لمن شئت منهم فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا وانه لا حرج عليه فيما فعل وليس عفا هنا بمعنى غفر بل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط أي لم يلزمكم ذلك ونحوه للقشيري قال وانما يقول العفو لا يكون الا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب قال ومعنى عفا الله عنك أي لم يلزمك ذنب قال الماوردي انها تكرمة وقال مكي هو استفتاح كلام مثل أصلحك الله وأعزك وحكى السمرقندي ان معناه عافاك الله وقيل معناه أدام الله لك العفو لم أذنت لهم يعني في التخلف عنك وهذا يحمل على ترك الاولى والاكمل لا سيما وهذه كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا (حتى يتبين لك الذين صدقوا) يعني في اعتذارهم وتعلم الكاذبين يعني فيما يعتذرون به قال ابن عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة ۞ قوله سبحانه وتعالى (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أي في أن يجاهدوا وانما حسن هذا الحذف لظهوره (والله عليم بالمتقين) يعني الذين يتقون مخالفته ويسارعون الى طاعته (انما يستأذنك) يعني في التخلف عن الجهاد معك يا محمد من غير عذر (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) وهم المنافقون لقوله (وارتابت قلوبهم) يعني شكت قلوبهم في الايمان وانما أضاف الشك والارتياب الى القلب لانه محل المعرفة والايمان أيضا فاذا دخله الشك كان ذلك نفاقا (فهم في ريبهم يترددون) يعني أن المنافقين متحيرون لا مع الكفار ولا مع المؤمنين وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية فقيل انها منسوخة بالآية التي في سورة النور وهي قوله سبحانه وتعالى ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله وقيل انها محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات ان المؤمنين كانوا يسارعون الى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان فاذا عرض لاحدهم عذر استأذن في التخلف وكان رسول الله

(حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) يتبين لك الصادق في العذر من الكاذب فيه وقيل شيئان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤمر بهما الاذن للمنافقين وأخذه الفدية من الاسارى فعاتبه الله وفيه دليل جواز الاجتهاد للانبياء عليهم السلام لانه عليه السلام انما فعل ذلك بالاجتهاد وانما عوتب مع ان له ذلك لتركه الافضل وهم يعاتبون على ترك الافضل (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا) ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في ان يجاهدوا (بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين) عدة لهم بأجزل الثواب (انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) يعني المنافقين وكانوا تسعة وثلاثين رجلا (وارتابت قلوبهم) شكوا في دينهم واضطربوا في عقيدتهم (فهم في ريبهم يترددون) يتحيرون لان التردد ديدن المتحير كما ان الثبات ديدن المستبصر

(ولو أرادوا الخروج لأعدوا له) للخروج أو للجهاد (عدة) أهبة لانهم كانوا مياسير ولما كان ولو أرادوا الخروج معطيا معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو قيل (ولكن كره الله انبعاثهم) نهوضهم للخروج كأنه قيل ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم (فثبطهم) فكسلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث والتثبيط التوقيف عن الامر بالتزهيد فيه (وقيل اقعدوا) أي قال بعضهم لبعض أو قاله الرسول عليه السلام غضبا عليهم أو قاله الشيطان بالوسوسة (مع القاعدين) هو ذم لهم والحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود في البيوت (لو خرجوا فيكم ما زادوكم) بخروجهم معكم (الا خبالا) الا فسادا وشرا والاستثناء متصل لان المعنى ما زادوكم شيأ الا خبالا والاستثناء المنقطع أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقولك ما زادوكم خيرا الا خبالا والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور واذا لم يذكر وقع الاستثناء من الشيء فكان استثناء متصلا لان الخبال بعضه (ولا وضعوا خلالكم) ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم وافساد ذات البين يقال وضع البعير وضعا اذا أسرع وأوضعته أنا والمعنى ولا وضعوا ركائبهم بينكم والمراد الاسراع بالنمائم لان الراكب أسرع من الماشي وخط في المصحف ولا أوضعوا بزيادة الالف لان الفتحة كانت تكتب ألفا قبل الخط العربي والخط العربي اخترع قريبا من نزول القرآن وقد بقي من تلك الالف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفا وفتحها ألفا أخرى ونحوه أو لا اذبحنه (يبغونكم) حال من الضمير في أوضعوا (الفتنة) أي يطلبون ان يفتنوكم بان يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم (وفيكم سماعون لهم) أي نمامون حديثكم فينقلونه اليهم (والله عليم بالظالمين) بالمنافقين (لقد ابتغوا الفتنة) بصد الناس أو بان يفتكوا به عليه السلام ليلة العقبة أو بالرجوع يوم أحد (من قبل) من قبل غزوة تبوك

صلى الله عليه وسلم مخيرا في الاذن لهم بقوله تعالى فأذن لمن شئت منهم وأما المنافقون فكانوا يستأذنون في التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر (ولو أرادوا الخروج) يعني الى الغزو معكم (لاعدوا له عدة) لتهيؤا له باعداد آلات السفر وآلات القتال من الكراع والسلاح (ولكن كره الله انبعاثهم) يعني خروجهم الى الغزو معكم (فثبطهم) يعني منعهم وحبسهم عن الخروج معكم والمعنى ان الله سبحانه وتعالى كره خروج المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم فصرفهم عنه وههنا يتوجه سؤال وهو ان خروج المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم اما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فان كان فيه مصلحة فلم قال ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وان كان فيه مفسدة فلم عاتب نبيه صلى الله عليه وسلم في اذنه لهم بالقعود والجواب عن هذا السؤال ان خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيه مفسدة عظيمة بدليل انه تعالى أخبر عن تلك المفسدة بقوله تعالى لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا الآية فلم عاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله لم أذنت لهم فنقول انه صلى الله عليه وسلم أذن لهم قبل تمام الفحص واكمال التأمل والتدبر في حالهم فلهذا السبب قال تعالى لم أذنت لهم وقيل انما عاتبه لاجل انه أذن لهم قبل أن يوحى اليه في أمرهم بالقعود (وقيل اقعدوا مع القاعدين) معناه انهم لما استأذنوه في القعود قيل لهم اقعدوا مع القاعدين وهم النساء والصبيان والمرضى وأهل الاعذار ثم اختلفوا في القائل من هو فقيل قال بعضهم لبعض اقعدوا مع القاعدين وقيل القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما قال ذلك لهم على سبيل الغضب لما استأذنوه في القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين فاغتنموا ذلك وقعدوا وقيل ان القائل ذلك هو الله سبحانه وتعالى بان ألقى في قلوبهم القعود لما كره انبعاثهم مع المسلمين الى الجهاد ۞ ثم بين سبحانه وتعالى ما في خروجهم من المفاسد فقال تعالى (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا) يعني لو خرج هؤلاء المنافقون معكم الى الغزو ما زادوكم الا فسادا وشرا وأصل الخبال اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون قال بعض النحاة هذا من الاستثناء المنقطع والمعنى لو خرجوا فيكم ما زادوكم قوة لكن خبالا والمراد به هنا الافساد وايقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الامر وشقة السفر وكثرة العدو وقوتهم (ولا وضعوا خلالكم) يعني ولاسرعوا فيكم وساروا بينكم بالقاء النميمة والاحاديث الكاذبة فيكم (يبغونكم الفتنة) يعني يطلبون لكم ما تفتتنون به وذلك أنهم يقولون للمؤمنين لقد جمع لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التي تجبن وقيل معناه يطلبون العيب والشر (وفيكم سماعون لهم) قال مجاهد يعني وفيكم عيون لهم يؤدون اليهم أخباركم وما يسمعون منكم وهم الجواسيس وقال قتادة وفيكم مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك أنهم يلقون اليهم أنواعا من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم فان قلت كيف يجوز أن يكون في المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع للمنافقين قلت يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤسائهم فاذا قالوا قولا ربما أثر ذلك القول في قلوب ضعفة المؤمنين في بعض الاحوال (والله عليم بالظالمين) وهذا وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين وقوله سبحانه وتعالى (لقد ابتغوا الفتنة من قبل) يعني لقد طلبوا صد

(وقلبوا لك الامور) ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء في ابطال أمرك (حتى جاء الحق) وهو تأييدك ونصرك (وظهر أمر الله) وغلب دينه وعلا شرعه (وهم كارهون) أى على رغم منهم (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني) ولا توقعني في الفتنة وهى الاثم بأن لا تأذن لي فاني ان تخلفت بغير اذنك أثمت أولا تلقني في الهلكة فاني اذا خرجت معك هلك مالي وعيالي وقيل قال الجد بن قيس المنافق قد علمت الانصار اني مستهتر بالنساء ولا تفتني ببنات الاصفر يعني نساء الروم ولكني أعينك بمالي فاتركني (ألا في الفتنة سقطوا) يعني ان

أصحابك يا محمد عن الدين وردهم الى الكفر وتخذيل الناس عنكم قبل هذا اليوم كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد حين انصرف بأصحابه عنكم (وقلبوا لك الامور) يعني وأجالوا فيك وفي أمرك وفي ابطال دينك الرأي بالخواني تخذيل الناس عنك وقصدهم تشتيت أمرك (حتى جاء الحق) يعني النصر والظفر (وظهر أمر الله وهم كارهون) يعني ذلك ﴿ قوله عز وجل (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني) نزلت في الجد بن قيس وكان من المنافقين وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تجهز الى غزوة تبوك قال للجد بن قيس يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الاصفر يعني الروم تتخذ منهم سراري ووصفاء فقال الجد يا رسول الله لقد عرف قومي اني رجل مغرم بحب النساء واني أخشى ان رأيت بنات بني الاصفر ان لا أصبر عنهن ائذن لي في القعود ولا تفتني بهن وأعينك بمالي قال ابن عباس اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة الا النفاق فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد أذنت لك فأنزل الله عز وجل فيه ومنهم يعني من المنافقين من يقول ائذن لي يعني في التخلف والقعود في المدينة ولا تفتني يعني ببنات الاصفر وهم الروم (ألا في الفتنة سقطوا) يعني انهم وقعوا في الفتنة العظيمة وهي النفاق ومخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عنه (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) يعني يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم فيها ﴿ قوله سبحانه وتعالى (ان تصبك حسنة تسؤهم) يعني ان تصبك يا محمد حسنة من نصر وغنيمة تحزن المنافقين (وان تصبك مصيبة) يعني من هزيمة أو شدة (يقولوا) يعني المنافقين (قد أخذنا أمرنا) يعني أخذنا أمرنا بالجد والحزم في القعود عن الغزو (من قبل) يعني من قبل هذه المصيبة (ويتولوا وهم فرحون) يعني مسرورين لما نالك من المصيبة وسلامتهم منها (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) يعني قل يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه لن يصيبنا الا ما قدره الله لنا وعلينا وكتبه في اللوح المحفوظ لان القلم جف بما هو كائن الى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروها نزل به أو يجلب لنفسه نفعا أراده لم يقدر له (هو مولانا) يعني ان الله سبحانه وتعالى هو ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعني في جميع أمورهم (قل هل تربصون بنا) يعني قل يا محمد لهؤلاء المنافقين هل تنتظرون بنا أيها المنافقون (الا احدى الحسنيين) يعني اما النصر والغنيمة واما الشهادة والمغفرة وذلك ان المسلم اذا ذهب الى الغزو والجهاد في سبيل الله اما أن يغلب عدوه فيفوز بالنصر والغنيمة والاجر العظيم في الآخرة واما أن يقتل في سبيل الله فتحصل له الشهادة وهي الغاية القصوى ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله وفي رواية تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه الا الجهاد في سبيلي وايمانا بي وتصديقا برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه الى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة أخرجاه في الصحيحين ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (ونحن نتربص بكم) يعني ونحن ننتظر بكم احدى السوأيين (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) يعني فيهلككم كما أهلك من كان قبلكم من الامم الخالية (أو بأيدينا) يعني أو يصيبكم بأيدي المؤمنين بأن يظفرنا بكم ويظهرنا عليكم (فتربصوا انا معكم متربصون) قال الحسن فتربصوا مواعيد الشيطان انا متربصون مواعيد الله من اظهار دينه واستئصال من خالفه (قل أنفقوا طوعا أو كرها)

الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) الآن لان أسباب الاحاطة معهم أو هي تحيط بهم يوم القيامة (ان تصبك) في بعض الغزوات (حسنة) ظفر وغنيمة (تسؤهم وان تصبك مصيبة) نكبة وشدة في بعضها نحو ما جرى يوم أحد (يقولوا قد أخذنا أمرنا) الذي نحن متسمون به من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم (من قبل) من قبل ما وقع (ويتولوا) عن مقام التحدث بذلك الى أهاليهم (وهم فرحون) مسرورون (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) أى قضى من خير أو شر (هو مولانا) أى الذي يتولانا ونتولاه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله (قل هل تربصون بنا) تنتظرون بنا (الا احدى الحسنيين) وهما النصرة والشهادة (ونحن نتربص بكم) احدى السوأيين اما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) وهو قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود (أو بعذاب (بأيدينا) وهو القتل على الكفر (فتربصوا) بنا ما ذكرنا (انا معكم متربصون) ما هو عاقبتكم (قل أنفقوا) في وجوه البر (طوعا أو كرها) طائعين أو مكرهين نصب على الحال كرها حمزة وعلي وهو أمر في معنى الخبر ومعناه نزلت

٢ هكذا هو بالنصب فيما بأيدينا من النسخ ولعله بالرفع فلتنظر الرواية اه مصححه

(لن يتقبل منكم) انفقتم طوعاً أو كرهاً ونحوه استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وقوله * أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة * لدينا ولا مقلية إن تقلت أي لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ولا نلومك أسأت إلينا أو أحسنت وقد يجوز عكسه في قولك رحم الله زيداً ومعنى عدم القبول أنه عليه السلام يردها عليهم ولا يقبلها أو لا يثيبها الله وقوله طوعاً أي من غير إلزام من الله ورسوله وكرهاً أي ملزمين وسمي الالزام اكراهاً لأنهم منافقون فكان الزامهم الانفاق شاقاً عليهم كالاكراه (إنكم) تعليل لرد انفاقهم (كنتم قوماً فاسقين) متمردين عاتين (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم) وبالياء حمزة وعلي (إلا أنهم كفروا) أنهم فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولاه أي وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم (بالله وبرسوله ولا يأتون الصلوة إلا وهم كسالى) جمع كسلان (ولا ينفقون إلا وهم كارهون) لأنهم لا يريدون بهما وجه الله تعالى ووصفهم بالطوع في قوله طوعاً وسلبه عنهم ههنا لأن المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من رؤسائهم وما طوعهم ذلك إلا عن كراهة واضطرار لا عن رغبة واختيار (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحيوة الدنيا) الاعجاب بالشيء أن تسر به سرور راض به متعجب من حسنه والمعنى فلا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا فإن الله إنما أعطاهم ما أعطاهم ليعذبهم بالمصائب فيها أو بالانفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون له أو بنهب أموالهم وسبي أولادهم أو بجمعها وحفظها وحبها والبخل بها والخوف عليها وكل هذا عذاب (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) وتخرج أرواحهم وأصل الزهوق الخروج بصعوبة ودلت الآية على بطلان القول بالأصلح لأنه أخبر أن إعطاء الأموال والأولاد لهم للتعذيب والإماتة على الكفر وعلى إرادة الله تعالى المعاصي لأن إرادة العذاب بإرادة ما يعذب عليه وكذا إرادة الإماتة على الكفر

نزلت في الجد بن قيس المنافق وذلك أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القعود عنه وقال أنا أعينكم بمالي فأنزل الله عز وجل رداً عليه قل أي قل يا محمد لهذا المنافق وأمثاله في النفاق أنفقوا طوعاً أو كرهاً يعني أنفقوا طائعين من قبل أنفسكم أو مكرهين على الانفاق بإلزام الله ورسوله إياكم بالانفاق (لن يتقبل منكم) لأن هذا الانفاق إنما وقع لغير الله وهذه الآية وإن كانت خاصة في انفاق المنافقين فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فإنه لا يتقبل منه ۞ ثم علل سبب منع القبول بقوله (إنكم) أي لأنكم (كنتم قوماً فاسقين) والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله) أي المانع من قبول نفقاتهم هو كفرهم بالله وبرسوله (ولا يأتون الصلوة إلا وهم كسالى) جمع كسلان يعني متثاقلين في الإتيان إلى الصلاة وذلك لأنهم لا يرجون على فعلها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً فلذلك ذمهم مع فعلها (ولا ينفقون إلا وهم كارهون) لأنهم كانوا يعدون الانفاق في سبيل الله مغرماً ومنع ذلك الانفاق مغنماً (فلا تعجبك) يا محمد (أموالهم ولا أولادهم) هذا الخطاب وإن كان مختصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد به جميع المؤمنين والمعنى لا تعجبوا بأموال المنافقين وأولادهم والاعجاب السرور بالشيء مع نوع من الافتخار به مع الاعتقاد أنه ليس لغيره مثله وهذا يدل على استغراق النفس بذلك الشيء ويكون سبب انقطاعه عن الله عز وجل فينبغي للانسان أن لا يعجب بشيء من أمور الدنيا ولذاتها فإن العبد إذا كان من الله عز وجل في استدراج كثر ماله وولده فيكثر إعجابه بماله وولده فيبطر ويكفر نعمة الله عليه ولهذا قال سبحانه وتعالى (إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحيوة الدنيا) فإن قلت كيف يكون المال والولد عذاباً في الدنيا وفيهما المنفعة والسرور في الدنيا قلت قال مجاهد وقتادة في الآية تقديم وتأخير وتقديرها فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة وقيل إن سبب كون المال والولد عذاباً في الدنيا هو ما يحصل من المتاعب والمشاق في تحصيلهما فإذا حصلا ازداد التعب وتحمل المشاق في حفظهما ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما فعلى هذا القول لا حاجة إلى التقديم والتأخير في نظم الآية وأورد على هذا القول بأن هذا التعذيب حاصل لكل أحد من بني آدم مؤمنهم وكافرهم فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا التعذيب في الدنيا وأجيب عن هذا الايراد بأن المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا العذاب وهو أن المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وأنه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذاباً في الدنيا أما المنافق فإنه لا يعتقد كون الآخرة له وأنه ليس فيها ثواب فيبقى ما يحصل له في الدنيا من التعب والشدة والغم والحزن على المال والولد عذاباً عليه في الدنيا فثبت بهذا الاعتبار أن المال والولد عذاب على المنافقين في الدنيا دون المؤمنين وقيل إن تعذيبهم بها في الدنيا أخذ الزكاة منهم والنفقة في سبيل الله غير مثابين على ذلك وربما قتل الولد في الغزو فلا يثاب الوالد المنافق على قتل ولده وذهاب ماله وقيل يعذبهم بالتعب في جمعه وحفظه والكره في إنفاقه والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده ثم يقدم في الآخرة على ملك لا يعذره (وتزهق أنفسهم) يعني وتخرج أنفسهم (وهم كافرون) والمعنى أنهم يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة قوله عز وجل

(ويحلفون بالله انهم لمنكم) لمن جملة المسلمين (وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون) يخافون القتل وما يفعل بالمشركين فيتظاهرون بالاسلام تقية (لو يجدون ملجأ) مكانا يلجؤن اليه متحصنين من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة (أو مغارات) أو غيرانا (أو مدخلا) أو نفقا يندسون فيه وهو مفتعل من الدخول (لولوا اليه) لاقبلوا نحوه (وهم يجمحون) يسرعون اسراعا لا يردهم شيء من الفرس الجموح (ومنهم) ومن المنافقين (من يلمزك فى الصدقات) يعيبك فى قسمة الصدقات ويطعن عليك (فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) اذا للمفاجاة أى وان لم يعطوا منها فاجؤا السخط وصفهم بان رضاهم وسخطهم لانفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله لانه عليه السلام استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) جواب لو محذوف تقديره ولو أنهم رضوا لكان خيرا لهم والمعنى ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وان قل نصيبهم وقالوا كفانا فضل الله وصنعه وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما آتانا اليوم انا الى الله فى أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون ثم بين مواضعها التى توضع فيها فقال (انما الصدقات للفقراء والمساكين) قصر جنس الصدقات على الاصناف جزأها
المعدودة أى هى مختصة بهم لا تتجاوز الى غيرهم كأنه قيل انما هى لهم لا لغيرهم كقولك انما الخلافة لقريش تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف الى الاصناف كلها وان تصرف الى بعضها كما هو مذهبنا وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين

(ويحلفون بالله) يعنى المنافقين (انهم لمنكم) يعنى على دينكم وملتكم (وماهم منكم) يعنى أنهم كاذبون فى أيمانهم (ولكنهم قوم يفرقون) يعنى أنهم يخافون أن تظهروا على ماهم عليه من النفاق (لو يجدون ملجأ) يعنى حرزا وحصنا ومعقلا يلجؤن اليه وقيل لو يجدون مهربا لهربوا اليه وقيل لو يجدون قوما يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا اليهم ولفارقوكم (أو مغارات) يعنى غيرانا فى الجبال جمع مغارة وهو الموضع الذى يغور فيه الانسان أى يستتر (أو مدخلا) يعنى موضع دخول يدخلون فيه وهو السرب فى الارض كنفق اليربوع وقال الحسن وجها يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم (لولوا اليه) والمعنى أنهم لو وجدوا مكانا بهذه الصفة أو على أحد هذه الوجوه الثلاثة وهى شر الامكنة وأضيقها لولوا اليه أى لرجعوا اليه وتحرزوا فيه (وهم يجمحون) يعنى وهم يسرعون الى ذلك المكان والمعنى أن المنافقين لشدة بغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لو قدروا أن يهربوا منكم الى أحد هذه الامكنة لصاروا اليه لشدة بغضهم اياكم ﴿قوله سبحانه وتعالى (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) نزلت فى ذى الخويصرة التميمى واسمه حرقوص بن زهير وهو أصل الخوارج (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة رجل من بنى تميم فقال يارسول الله اعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك من يعدل اذا لم أعدل وفى رواية قد خبت وخسرت ان لم أعدل فقال عمر بن الخطاب ائذن لى فيه فاضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم زاد فى رواية يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين وفى رواية من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية وقال الكلبى قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لم تقسم بالسوية فنزلت هذه الآية وقال قتادة ذكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهبا وفضة فقال يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل فما عدلت فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم ويلك فمن ذا يعدل بعدى وقال ابن زيد قال المنافقون والله ما يعطيها محمد الا من أحب ولا يؤثر بها الا من يهواه فأنزل الله سبحانه وتعالى ومنهم من يلمزك فى الصدقات يعنى ومن المنافقين من يعيبك فى قسم الصدقات وفى تفريقها ويطعن عليك فى أمرها يقال همزه ولمزه بمعنى واحد أى عابه (فان أعطوا منها) يعنى من الصدقات (رضوا) يعنى رضوا عنك فى قسمها (وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) يعنى وان لم تعطهم منها عابوا عليك وسخطوا (ولو أنهم رضوا) يعنى ولو أن المنافقين الذين عابوا عليك رضوا بما قسم الله لهم وقنعوا (ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله) أى كافينا الله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) يعنى ما نحتاج اليه (انا الى الله راغبون) يعنى فى أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وعن غيرها من أموال الناس وجواب لو محذوف تقديره لكان خيرا لهم وأعود عليهم ﴿قوله عز وجل (انما الصدقات للفقراء والمساكين) الآية اعلم أن المنافقين لما لمزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعابوه فى قسم الصدقات بين الله عز وجل فى هذه الآية ان المستحقين للصدقات هؤلاء الاصناف الثمانية ومصرفها اليهم ولا تعلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها بشئ ولم يأخذ لنفسه منها شيأ فلم يلمزونه ويعيبون عليه فلا مطعن لهم فيه بسبب قسم الصدقات عن زياد بن الحرث الصدائى قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته فأتاه رجل فقال أعطنى من الصدقة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو

جزأ فأعطانيه أجزاء فقال كم من ثلث الاجزاء اعطيتك حقك أخرجه أبو داود

﴿فصل في بيان حكم هذه الآية وفيه مسائل﴾ المسئلة الاولى في بيان وجه الحكمة في ايجاب الزكاة على الاغنياء وصرفها الى المحتاجين من الناس وذلك من وجوه الوجه الاول أن المال محبوب بالطبع وسببه ان القدرة صفة من صفات الكمال وصفة الكمال محبوبة لذاتها والمال سبب لتحصيل تلك القدرة فكان المال محبوبا بالطبع فاذا استغرق القلب في حب المال اشتغل به عن حب الله عز وجل وعن الاشتغال بالطاعات المقربة الى الله عز وجل فاقتضت الحكمة الالهية ايجاب الزكاة في ذلك المال الذي هو سبب البعد عن الله فيصير سببا للقرب من الله عز وجل باخراج الزكاة منه الوجه الثاني ان كثرة المال توجب قسوة القلب وحب الدنيا والميل الى شهواتها ولذاتها فاوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة ليقل ذلك المال الذي هو سبب قساوة القلب الوجه الثالث سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن لان التكاليف البدنية غير شاقة على العبد واخراج المال شاق على النفس فاوجب الله عز وجل الزكاة على العباد ليمتحن باخراج الزكاة أصحاب الاموال ليتميز بذلك المطيع المخرج لها طيبة بها نفسه من العاصي المانع لها الوجه الرابع أن المال مال الله والاغنياء خزان الله والفقراء عيال الله فامر الله سبحانه وتعالى خزانه الذين هم أغنياء بدفع طائفة من ماله الى عياله فيثيب العبد المؤمن المطيع المسارع الى امتثال الامر المشفق على عياله ويعاقب العبد العاصي المانع لعياله من ماله (ق) عن أبي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الخازن المسلم الامين الذي ينفذ وربما قال يعطي ما أمر به فيعطيه كاملا موفرا طيبة به نفسه فيدفعه الى الذي أمر له به أحد المتصدقين الوجه الخامس ان الفقراء ربما تعلقت قلوبهم بالاموال التي بايدي الاغنياء فاوجب الله عز وجل نصيبا للفقراء في ذلك المال تطييبا لقلوبهم الوجه السادس ان المال الفاضل عن حاجة الانسان الاصلية اذا أمسك بقي معطلا عن المقصود الذي لاجله خلق المال فامر بدفع الزكاة الى الفقراء حتى لا يصير ذلك المال معطلا بالكلية ﴿المسئلة الثانية﴾ الآية تدل على أنه لا حق لاحد في الصدقات الا لهؤلاء الثمانية وذلك مجمع عليه لان كلمة انما تفيد الحصر وذلك لانها مركبة من ان وما وكلمة ان للاثبات وكلمة ما للنفي فعند اجتماعهما يفيدان الحكم المذكور وصرفه عما عداه فدل ذلك على ان الصدقات لا تصرف الا الى الاصناف الثمانية ﴿المسئلة الثالثة﴾ في بيان الاصناف الثمانية فالصنف الاول الفقراء والثاني المساكين وهم المحتاجون الذين لا تفي خرجهم بدخلهم ثم اختلف العلماء في الفرق بين الفقير والمسكين فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والزهري الفقير الذي لا يسأل والمسكين السائل وقال ابن عمر ليس بفقير من جمع الدرهم الى الدرهم والتمرة الى التمرة ولكن الفقير من أنقى نفسه وثيابه ولا يقدر على شيء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وقال قتادة الفقير المحتاج الزمن والمسكين الصحيح المحتاج وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه الفقير من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعا زمنا كان أو غير زمن والمسكين من له مال أو حرفة ولكن لا تقع منه موقعا لكفايته سائلا كان أو غير سائل فالمسكين عنده أحسن حالا من الفقير وقال أبو حنيفة وأصحاب الرأي الفقير أحسن حالا من المسكين ومن الناس من قال لا فرق بين الفقير والمسكين حجة الشافعي ومن وافقه ان الله سبحانه وتعالى حكم بصرف الصدقات الى هؤلاء الاصناف الثمانية دفعا لحاجتهم وتحصيلا لمصلحتهم فبدأ بالفقراء وانما يبدأ بالاهم فالاهم فلو لم تكن حاجتهم أشد من حاجة المساكين لما بدأ بهم وأصل الفقير المكسور الفقار قال لبيد

لما رأى لبد النسور تطايرت * رفع القوادم كالفقير الاعزل

قال ابن الاعرابي الفقير في هذا البيت المكسور الفقار فثبت بهذا أن الفقير انما سمي فقيرا لزمانته وحاجته الشديدة وتمنعه الزمانة من التقلب في الكسب ولان النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من الفقر وقال اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة رواه الترمذي من حديث

أسن فلو كان المسكين أسوأ حالا من الفقير لما تعوذ من الفقر وسأل المسكنة فثبت بهذا أن المسكين أحسن حالا من الفقير ولان الله سبحانه وتعالى قال أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاثبت لهم ملكا مع اسم المسكنة لان السفينة من سفن البحر تساوي دنانير كثيرة ولان الغنى والفقر ضدان والمسكنة قسم ثالث بينهما فثبت بهذا أن الفقير أسوأ حالا من المسكين وحجة أبي حنيفة ومن وافقه على أن المسكين أسوأ حالا من الفقير قوله أو مسكينا ذا متربة وصف المسكين بكونه ذا متربة وهو الذي لصق جلده بالتراب وهذا يدل على غاية الضر والشدة ولان الله تعالى جعل الكفارات للمساكين فلو لم يكن المسكين أشد حاجة من غيره لما جعلها له واحتج أيضا بقول الراعي

أما الفقير الذي كانت حلوبته * وفق العيال فلم يترك له سبد

واحتج أيضا بقول الاصمعي وأبي عمرو بن العلاء ان الفقير الذي له ما يأكل والمسكين الذي لا شيء له وكذا قال القتبي الفقير الذي له البلغة من العيش والمسكين الذي لا شيء له وقيل الفقير الذي له المسكن والخادم والمسكين الذي لا ملك له وقيل ان كل محتاج الى شيء فهو مفتقر اليه وان كان غنيا عن غيره قال الله سبحانه وتعالى أنتم الفقراء الى الله فاثبت لهم اسم الفقر مع وجدان المال والجواب عن هذه الحجج أما قوله أو مسكينا ذا متربة فهو حجة لمذهب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه لانه قيد المسكين المذكور هنا بكونه ذا متربة فدل على أنه قد يوجد مسكين لا بهذه الصفة والا لم يكن لهذا القيد فائدة والجواب عن جعل الكفارات للمساكين انه هو الفقير الذي لصق جلده بالتراب من شدة المسكنة والجواب عن الاستدلال ببيت الراعي أنه ذكر الفقير وحده فكل فقير أفرد بالاسم جاز اطلاق المسكين عليه فسقط الاستدلال به وأما الروايات المذكورة فهي معارضة بما تقدم من الروايات عن ابن عباس وغيره من المفسرين وبالجملة ان الفقر والمسكنة عبارتان عن شدة الحاجة وضعف الحال فالفقير هو الذي كسرت الحاجة فقار ظهره والمسكين هو الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي أخرجه النسائي وأبو داود وله في رواية أخرى ولا لذي مرة قوي عن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم وهو في حجة الوداع وهو يقسم الصدقات فسألاه منها فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين فقال ان شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب أخرجه أبو داود والنسائي وأخرجه الشافعي ولفظه أن رجلين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن الصدقة فقال ان شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب واختلف العلماء في حد الغنى الذي يمنع من أخذ الصدقة فقال الاكثرون حده أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة وهو قول مالك والشافعي وقال أصحاب الرأي حده أن يملك مائتي درهم وقال قوم من ملك خمسين درهما أو قيمتها لا تحل له الصدقة لما روي عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسئلته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح قيل يا رسول يغنيه قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وهذا قول الثوري وابن المبارك وأحمد واسحق وقالوا لا يجوز أن يعطى الرجل أكثر من خمسين درهما من الزكاة وقيل أربعين درهما لما روي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل وله قيمة أخرجه أبو داود وكانت الاوقية في ذلك الزمان أربعين درهما * الصنف الثالث قوله سبحانه وتعالى (والعاملين عليها) وهم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها في وجهها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أمثالهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء وهذا قول ابن عمر وبه قال الشافعي وقال مجاهد والضحاك يعطون الثمن من الصدقات وظاهر اللفظ مع مجاهد الا ان الشافعي يقول هو أجرة عمل تتقدر بقدر العمل والصحيح ان الهاشمي والمطلبي لا يجوز أن يكون عاملا على الصدقات لما روي عن أبي رافع

انهم قالوا في أي صنف منها وضعتها أجزأك وعند الشافعي رحمه الله لا بد من صرفها الى الاصناف وهو المروي عن عكرمة ثم الفقير الذي لا يسأل لان عنده ما يكفيه للحال والمسكين الذي يسأل لانه لا يجد شيأ فهو أضعف حالا منه وعند الشافعي رحمه الله على العكس (والعاملين عليها) هم السعاة الذين يقبضونها

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا من بني مخزوم على الصدقة فأراد أبو رافع أن يتبعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل لنا الصدقة وان مولى القوم منهم أخرجه الترمذي والنسائي * الصنف الرابع قوله تعالى (والمؤلفة قلوبهم) وهم قسمان قسم مسلمون وقسم كفار فأما قسم المسلمين فقسمان القسم الاول هم قوم من أشراف العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم من الصدقات يتألفهم بذلك كما أعطى عيينة بن حصن والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمي فهؤلاء أسلموا وكانت نيتهم ضعيفة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم لتقوى نيتهم في الاسلام وقوم أسلموا وكانت نيتهم قوية في الاسلام وهم أشراف قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم تألفا لقومهم وترغيبا لامثالهم في الاسلام فيجوز للامام أن يعطي أمثال هؤلاء من خمس خمس الغنيمة والفيء من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطيهم من ذلك ومن الصدقات أيضا القسم الثاني من مؤلفة المسلمين هم قوم من المسلمين يكونون بازاء قوم كفار في موضع لا تبلغهم جيوش المسلمين الا بكلفة كبيرة ومؤنة عظيمة وهؤلاء الذين بازائهم من المسلمين لا يجاهدونهم لضعف نيتهم أو لضعف حالهم فيجوز للامام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل من سهم المؤلفة قلوبهم ومن هؤلاء قوم بازاء جماعة من مانعي الزكاة فيأخذون منهم الزكاة ويحملونها الى الامام فيعطيهم الامام من سهم المؤلفة من الصدقات وقيل من سهم سبيل الله روي ان عدي بن حاتم جاء أبا بكر بثلثمائة من الابل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيرا وأما مؤلفة الكفار فهم قوم يخشى شرهم أو يرجى اسلامهم فيجوز للامام أن يعطي من يخاف شره أو يرجو اسلامه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم من خمس الخمس كما أعطى صفوان بن أمية لما كان يرى من ميله الى الاسلام أما اليوم فقد أعز الله الاسلام وله الحمد على ذلك وأغناه عن ان يتألف عليه أحد من المشركين فلا يعطى مشرك تألفا بحال وقد قال بهذا كثير من أهل العلم ورأوا أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط يروى ذلك عن ابن عمر وعكرمة وهو قول الشعبي وبه قال مالك والثوري وأصحاب الرأي واسحق بن راهويه وقال قوم سهمهم ثابت لم يسقط يروى ذلك عن الحسن وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي وأبي ثور وقال أحمد يعطون ان احتاج المسلمون الى ذلك ۞ الصنف الخامس ۞ قوله سبحانه وتعالى (وفي الرقاب) قال الزجاج فيه حذف تقديره وفي فك الرقاب وفي تفسير الرقاب أقوال الاول ان سهم الرقاب موضوع في المكاتبين فيدفع اليهم ليعتقوا به وهذا مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وهو قول أكثر الفقهاء منهم سعيد بن جبير والنخعي والزهري والليث بن سعد ويدل عليه أيضا قوله تعالى وآتوهم من مال الله الذي آتاكم القول الثاني وهو مذهب مالك وأحمد واسحق ان سهم الرقاب موضوع لعتق الرقاب فيشترى به عبيد ويعتقون ويدل عليه ما روي عن ابن عباس انه قال لا بأس أن يعتق الرجل من الزكاة القول الثالث وهو قول أبي حنيفة وأصحابه انه لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة ولكن يعطى منها في عتق رقبة ويعان بها مكاتب لان قوله وفي الرقاب يقتضي التبعيض القول الرابع وهو قول الزهري ان سهم الرقاب نصفان نصف للمكاتبين ونصف يشترى به عبيد ممن صلوا وصاموا وقدم اسلامهم فيعتقون من الزكاة قال أصحابنا الاحوط في سهم الرقاب أن يدفع الى السيد باذن المكاتب ويدل عليه انه سبحانه وتعالى أثبت الصدقات للاصناف الاربعة المتقدمة بلام الملك فقال انما الصدقات للفقراء وقال في الصنف الخامس وفي الرقاب فلا بد لهذا الفرق من فائدة وهي أن الاصناف الاربعة المتقدم ذكرها يدفع اليهم نصيبهم من الصدقات فيصرفون ذلك فيما شاؤا وأما الرقاب فيوضع نصيبهم في تخليص رقابهم من الرق ولا يدفع اليهم ولا يمكنون من التصرف فيه وكذا القول في الغارمين فيصرف نصيبهم في قضاء ديونهم وفي الغزاة يصرف نصيبهم فيما يحتاجون اليه في الغزو وكذا ابن السبيل

(والمؤلفة قلوبهم) على الاسلام أشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألفهم على ان يسلموا وقوم منهم أسلموا فيعطيهم تقريرا لهم على الاسلام (وفي الرقاب) هم المكاتبون يعانون منها

فيصرف اليه ما يحتاج اليه في سفره الى بلوغ غرضه * الصنف السادس ﴿ قوله سبحانه وتعالى (والغارمين) أصل الغرم في اللغة لزوم ما يشق على النفس وسمي الدين غرما لكونه شاقا على الانسان والمراد بالغارمين هنا المديونون وهم قسمان قسم ادانوا لانفسهم في غير معصية فيعطون من مال الصدقات بقدر ديونهم اذا لم يكن لهم مال يفي بديونهم فان كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم ادانوا في المعروف واصلاح ذات البين فيعطون من مال الصدقات ما يقضون به ديونهم وان كانوا أغنياء لما روي عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تحل الصدقة لغني الا لخمسة لغاز في سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل كان له جار مسكين فتصدق على المسكين فاهدى المسكين للغني أخرجه أبو داود مرسلا لان عطاء بن يسار لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم متصلا بمعناه اما من كان دينه في معصية فلا يعطى من الصدقات شيأ * الصنف السابع ﴿ قوله تعالى (وفي سبيل الله) يعني وفي النفقة في سبيل الله وأراد به الغزاة فلهم سهم من مال الصدقات فيعطون اذا أرادوا الخروج الى الغزو وما يستعينون به على أمر الجهاد من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة فيعطون ذلك وان كانوا أغنياء لما تقدم من حديث عطاء وأبي سعيد الخدري ولا يعطى من سهم سبيل الله لمن أراد الحج عند أكثر أهل العلم وقال قوم يجوز أن يصرف سهم سبيل الله الى الحج يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن واليه ذهب أحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وقال بعضهم ان اللفظ عام فلا يجوز قصره على الغزاة فقط ولهذا أجاز بعض الفقهاء صرف سهم سبيل الله الى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك قال لان قوله وفي سبيل الله عام في الكل فلا يختص بصنف دون غيره والقول الاول هو الصحيح لاجماع الجمهور عليه * الصنف الثامن ﴿ قوله سبحانه وتعالى (وابن السبيل) يعني المسافر من بلد الى بلد والسبيل الطريق سمي المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق قال الشاعر

أنا ابن الحرب ربتني وليدا * الى ان شبت واكتهلت لداتي

فكل من يريد سفرا مباحا ولم يكن له ما يقطع به مسافة سفره يعطى من الصدقات ما يكفيه لمؤنة سفره سواء كان له مال في البلد الذي يقصده أو لم يكن له مال وقال قتادة ابن السبيل هو الضيف وقال فقهاء العراق ابن السبيل هو الحاج المنقطع ﴿ وقوله تعالى (فريضة من الله) يعني ان هذه الاحكام التي ذكرها في هذه الآية فريضة واجبة من الله وقيل فرض الله هذه الاشياء فريضة (والله عليم) يعني بمصالح عباده (حكيم) يعني فيما فرض لهم لا يدخل في تدبيره وحكمه نقض ولا خلل ﴿المسئلة الرابعة﴾ في أحكام متفرقة تتعلق بالزكاة اتفق العلماء على ان المراد بقوله انما الصدقات للفقراء هي الزكاة المفروضة بدليل قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة واختلفوا في كيفية قسمتها وفي جواز صرفها كلها الى بعض الاصناف دون بعض فذهب جماعة من الفقهاء الى أنه لا يجوز صرفها كلها الى بعض الاصناف مع وجود الباقين وهو قول عكرمة واليه ذهب الشافعي قال يجب أن يقسم زكاة ماله على الموجودين من الاصناف الستة الذين سهامهم ثمانية أقسام قسمة على السواء لان سهم المؤلفة ساقط وسهم العامل ساقط اذا قسم زكاته بنفسه ثم حصة كل صنف من الاصناف الستة لا يجوز أن تصرف الى أقل من ثلاثة منهم ان وجد منهم ثلاثة أو أكثر فلو فاوت بين أولئك الثلاثة جاز فان لم يجد من بعض الاصناف الا واحدا دفع حصة ذلك الصنف اليه ما لم يخرج عن حد الاستحقاق فان انتهت حاجته وفضل شيء رده الى الباقين وذهب جماعة من العلماء الى أنه لو صرف الكل الى صنف واحد من هذه الاصناف أو الى شخص واحد منهم جاز لان الله سبحانه وتعالى انما سمى هذه الاصناف الثمانية اعلاما منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الثمانية لا ايجابا منه لقسمها بينهم جميعا وهذا قول عمر وابن عباس وبه قال سعيد بن جبير وعطاء واليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي وأحمد بن حنبل قال أحمد بن حنبل يجوز

(والغارمين) الذين ركبتهم الديون (وفي سبيل الله) فقراء الغزاة أو الحجيج المنقطع بهم (وابن السبيل) المسافر المنقطع عن ماله وعدل عن اللام الى في في الاربعة الاخيرة للايذان بانهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لان في للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بان توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها وتكرير في في قوله في سبيل الله وابن السبيل فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين وانما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ليدل بكون هذه الاصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسما لاطماعهم واشعارا بانهم بعداء عنها وعن مصارفها فما لهم ومالها وما سلطهم على التكلم فيها وان قاسمها وسهم المؤلفة قلوبهم سقط باجماع الصحابة في صدر خلافة أبي بكر رضي الله عنه لان الله أعز الاسلام وأغنى عنهم والحكم متى ثبت معقولا لمعنى خاص يرتفع وينتهي بذهاب ذلك المعنى (فريضة من الله) في معنى المصدر المؤكد لان قوله انما الصدقات للفقراء معناه فرض الله الصدقات لهم (والله عليم) بالمصلحة (حكيم) في القسمة

ان

أن يضع في صنف واحد وتفريقه أولى وقال ابراهيم النخعي ان كان المال كثيرا يحتمل الاجزاء قسمه على الاصناف وان كان قليلا وضعه في صنف واحد وقال مالك يتحرى موضع الحاجة منهم ويقدم الاولى فالاولى من أهل الخلة والحاجة فان رأى الخلة في الفقراء في عام قدمهم وان رآها في صنف آخر في عام حولها اليهم وكل من دفع اليه شيأ من الصدقة لا يزيد على قدر الاستحقاق فلا يزيد الفقير على قدر غناه وهو ما يحتاج اليه فان حصل أدنى اسم الغنى فلا يعطى بعده شيأ وان كان محترفا لكنه لا يجد آلة حرفته فيعطى قدر ما يحصل به آلة حرفته فلا اعتبار عند الامام الشافعي رضي الله عنه بالنصاب بل بقدر الحاجة من غير حد وقال أحمد بن حنبل لا يعطى الفقير أكثر من خمسين درهما وقال أبو حنيفة أكره أن يعطي رجل واحد من الزكاة مائتي درهم فان أعطيته أجزأه فان أعطى من يظنه فقيرا فبان انه غني فهل يجزيه فيه قولان ولا يجوز أن يعطي صدقته لمن تلزمه نفقته وبه قال مالك والثوري وأحمد وقال أبو حنيفة والشافعي لا يعطى الوالدان علا ولا الولد وان سفل ولا الزوجة ويعطى من عداهم وتحرم الصدقة على ذوي القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب فلا يدفع اليهم من الزكاة شيء لقوله صلى الله عليه وسلم انا آل بيت لا تحل لنا الصدقة وقال أبو حنيفة تحرم على بني هاشم ولا تحرم على بني المطلب دليلنا قوله صلى الله عليه وسلم انما بنو المطلب شيء واحد لم يفارقونا في جاهلية ولا اسلام وتحرم الصدقة على موالي بني هاشم وبني المطلب لقوله صلى الله عليه وسلم مولى القوم منهم وقال مالك لا تحرم واختلفوا في نقل الصدقة من بلد المال الى بلد آخر مع وجود المستحقين في بلد المال فكرهها أكثر أهل العلم لتعلق قلوب فقراء ذلك البلد بذلك المال ولقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وأعلمهم ان الله سبحانه وتعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم الحديث بطوله في الصحيحين واتفقوا على انه اذا نقل المال الى بلد آخر وأداه الى فقراء ذلك البلد سقط عنه الفرض الا ما حكي عن عمر بن عبد العزيز انه رد صدقة حملت من خراسان الى الشام فردها الى مكانها من خراسان والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن) نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه ويقولون ما لا ينبغي فقال بعضهم لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس ابن سويد وهو من المنافقين بل نقول ما شئنا ثم نأتيه وننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول فانما محمد أذن أي يسمع كل ما يقال له ويقبله وقيل معنى هو أذن أي ذو أذن سامعة وقال محمد بن اسحق نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث وكان أزنم ثائر الشعر أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم من أحب أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحرث وكان ينم حديث النبي صلى الله عليه وسلم الى المنافقين فقيل له لا تفعل ذلك فقال انما محمد أذن فمن حدثه شيأ صدقه فنقول ما شئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا فأنزل الله هذه الآية ومقصود المنافقين بقولهم هو أذن انه ليس ببعيد غور بل هو سليم سريع الاغترار بكل ما يسمع فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله (قل أذن خير لكم) يعني هب انه أذن لكنه أذن خير لكم كقولك رجل صدق وشاهد عدل والمعنى انه مستمع خير وصلاح لا مستمع شر وفساد وقرئ أذن خير بالرفع فيهما منونين ومعناه يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم ثم وصف الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) يعني انه يصدق المؤمنين ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين وانما عدى الايمان بالله بالباء والايمان للمؤمنين باللام لان الايمان بالله هو نقيض الكفر فلا يتعدى الا بالباء فيقال آمنت بالله والايمان للمؤمنين معناه تصديق المؤمنين فيما يقولونه فلا يقال الا باللام ومنه قوله تعالى أنؤمن لك وقوله آمنتم له (ورحمة) أي هو رحمة (للذين آمنوا منكم) وانما قال منكم لان المنافقين كانوا يزعمون انهم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله انه رحمة للمؤمنين المخلصين لا للمنافقين وقيل في كونه صلى الله عليه وسلم رحمة لانه يجري أحكام

(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن) الاذن الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد سمي بالجارحة التي هي آلة السماع كأن جملته أذن سامعة وايذاؤهم له هو قولهم فيه هو أذن قصدوا به المذمة وانه من أهل سلامة القلوب والغرة ففسره الله تعالى بما هو مدح له وثناء عليه فقال (قل أذن خير لكم) كقولك رجل صدق تريد الجودة والصلاح كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الاذن ويجوز أن يريد هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله وليس بأذن في غير ذلك ثم فسر كونه أذن خير بأنه (يؤمن بالله) أي يصدق بالله لما قام عنده من الادلة (ويؤمن للمؤمنين) ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والانصار وعدى فعل الايمان بالباء الى الله لانه قصد به التصديق بالله الذي هو ضد الكفر به والى المؤمنين باللام لانه قصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده ألا ترى الى قوله وما أنت بمؤمن لنا كيف ينبو عن الباء (ورحمة) بالعطف على أذن ورحمة بالجر عطف على خير أي هو أذن خير وأذن رحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله (للذين آمنوا منكم) أي وهو رحمة للذين آمنوا منكم أي أظهروا

الايمان أيها المنافقون حيث يقبل ايمانكم الظاهر ولا يكشف أسراركم ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين أو هو رحمة للمؤمنين حيث استنقذهم من الكفر الى الايمان ويشفع لهم في الآخرة بايمانهم في الدنيا (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) في الدارين (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ثم يأتونهم فيعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم فقيل لهم (والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين) أي ان كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق وانما وحد الضمير لانه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله فكانا في حكم شيء واحد كقولك احسان زيد واجماله رفعني أو والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك (ألم يعلموا أنه) أن الامر والشأن (من يحادد الله ورسوله) يجاوز الحد بالخلاف وهي مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق (فان له) على حذف الخبر أي فحق أن له (نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم يحذر المنافقون) خبر بمعنى الامر أي ليحذر المنافقون (ان تنزل عليهم سورة) تنزل بالتخفيف مكي وبصري (تنبئهم بما في قلوبهم) من الكفر والنفاق والضمائر للمنافقين لان السورة اذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم دليله قل استهزؤا أو الاولان للمؤمنين والثالث للمنافقين وصح ذلك لان المعنى يقود اليه (قل استهزؤا) أمر تهديد (ان الله مخرج ما تحذرون) مظهر ما كنتم تحذرونه أي تحذرون اظهاره من نفاقكم وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم وفي استهزائهم بالاسلام وأهله حتى قال بعضهم وددت أني قدمت فجلدت مائة وانه لا ينزل فينا شيء يفضحنا ... نافقة

الناس على الظاهر ولا ينقب عن أحوالهم ولا يهتك أسرارهم (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) يعني في الآخرة ﴿ قوله عز وجل (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) قال قتادة والسدي اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم ثم قالوا ان كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير وكان عندهم غلام من الانصار اسمه عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام من قولهم وقال والله ان ما يقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره فدعاهم فسألهم فأنكروا وحلفوا ان عامرا كذاب وحلف عامر انهم كذبة فصدقهم النبي صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو ويقول اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل الله هذه الآية وقال مقاتل والكلبي نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوه يعتذرون ويحلفون فأنزل الله هذه الآية والمعنى يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعني فيما بلغكم عنهم من أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله ورسوله أحق أن يرضوه) اختلفوا في معنى هذا الضمير الى ماذا يعود فقيل الضمير عائد على الله تعالى لان في رضا الله رضا رسوله صلى الله عليه وسلم والمعنى والله ورسوله أحق أن يرضوه بالتوبة والاخلاص وقيل يجوز أن يكون المراد يرضوهما فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر وقيل معناه والله أحق أن يرضوه وكذلك رسوله (ان كانوا مؤمنين) يعني ان كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده في الآخرة ﴿ قوله سبحانه وتعالى (ألم يعلموا) قال أهل المعاني ألم تعلم خطاب لمن علم شيئا ثم نسيه أو أنكره فيقال له ألم تعلم أنه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله ألم يعلموا يعني من شرائع الدين التي علمهم رسولنا (أنه من يحادد الله ورسوله) يعني أنه من يخالف الله ورسوله وأصل المحادة في اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة واشتقاقه من الحد يقال حاد فلان فلانا اذا صار في غير حده وخالفه في أمره وقيل معنى يحادد الله ورسوله أي يحارب الله ورسوله ويعاند الله ورسوله (فأن له نار جهنم) أي فحق أن له نار جهنم (خالدا فيها) يعني على الدوام (ذلك الخزي العظيم) يعني ذلك الخلود في نار جهنم هو الفضيحة العظيمة ﴿ قوله عز وجل (يحذر المنافقون) يعني يخشى المنافقون (أن تنزل عليهم سورة) يعني على المؤمنين (تنبئهم) يعني تخبر المؤمنين (بما في قلوبهم) يعني بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين وذلك ان المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ويسترونه ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم قال قتادة وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة يعني انها فضحت المنافقين وبعثرت عن أخبارهم وأثارتها وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم وقال ابن عباس أنزل الله ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الاسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضا لان أولادهم كانوا مؤمنين (قل استهزؤا) أمر تهديد فهو كقوله اعملوا ما شئتم (ان الله مخرج) أي مظهر (ما تحذرون) والمعنى ان الله سبحانه وتعالى يظهر الى الوجود ما كان المنافقون يسترونه ويخفونه عن المؤمنين قال ابن كيسان نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلا من المنافقين وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به اذا علاها وتنكروا له في ليلة مظلمة فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قد أضمروا وأمره أن يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم وكان معه عمار بن ياسر يقود

ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاهم عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة من عرفت من القوم قال لم أعرف منهم أحدا يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم فقال حذيفة هلا بعثت اليهم من يقتلهم فقال أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله بالدبيلة (م) عن قيس بن عبادة قال قلت لعمار أرأيت قتالكم أرأيا رأيتموه فان الرأي يخطئ ويصيب أم عهد عهده اليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهده الى الناس كافة وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في أمتي قال شعبة وأحسبه قال حدثني حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في أمتي اثني عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم

قوله سبحانه وتعالى (ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) الآية وسبب نزولها على ما قال زيد بن أسلم أن رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك ما لقرائنا هؤلاء أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء فقال له عوف بن مالك كذبت ولكنك منافق ولأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عوف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القرآن قد سبقه قال زيد قال عبد الله ابن عمر فنظرت اليه يعني الى المنافق متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحجارة يقول انما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن ما يزيده وقال محمد بن اسحق الذي قال هذه المقالة فيما بلغني هو وديعة بن ثابت أخو أمية بن زيد بن عمرو بن عوف وقال قتادة بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فاطلع الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله انما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ما تسمعون وقال الكلبي ومقاتل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان منهم يستهزئان بالقرآن والرسول والثالث يضحك قيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك وقيل كانوا يقولون ان محمدا يزعم انه نزل في أصحابنا قرآن انما هو قوله وكلامه فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال احبسوا على الركب فدعاهم وقال لهم قلتم كذا وكذا فقالوا انما كنا نخوض ونلعب ومعنى الآية ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما كانوا يقولون فيما بينهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب يعني كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعله الركب يقطعون الطريق باللعب والحديث وأصل الخوض الدخول في مائع كالماء مع الطين ثم كثر استعماله حتى صار يستعمل في كل دخول مع تلويث وأذى (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) فيه توبيخ وتقريع للمنافقين وانكار عليهم والمعنى كيف تقدمون على ايقاع الاستهزاء بالله يعني بفرائض الله وحدوده وأحكامه والمراد بآياته كتابه وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيحتمل أن المنافقين لما قالوا كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام قال بعض المسلمين الله يعينه على ذلك فذكر بعض المنافقين كلاما يشعر بالقدح في قدرة الله وانما ذكروا ذلك على طريق الاستهزاء

قوله عز وجل (لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم) يعني قل لهؤلاء المنافقين لا تعتذروا بالباطل ومعنى الاعتذار محو أثر الموجدة من قلب المعتذر اليه وقيل معنى العذر قطع اللائمة عن الجاني قد كفرتم بعد ايمانكم يعني أن الاستهزاء بالله كفر والاقدام عليه يوجب الكفر فلهذا قال سبحانه وتعالى لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم فان قلت ان المنافقين لم يكونوا مؤمنين فكيف قال قد كفرتم بعد ايمانكم قلت معناه

(ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر أي ولئن سألتهم وقلت لهم لم قلتم ذلك لقالوا انما كنا نخوض ونلعب (قل) يا محمد (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) لم يعبأ باعتذارهم لانهم كانوا كاذبين فيه فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود فيهم حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير وذلك انما يستقيم بعد ثبوت الاستهزاء (لا تعتذروا) لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فانها لا تنفعكم بعد ظهور سركم (قد كفرتم) قد أظهرتم كفركم باستهزائكم (بعد ايمانكم) بعد اظهاركم الايمان

(إن نعف عن طائفة منكم) بتوبتهم وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق (نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) مصرين على النفاق غير
أن يعف تعذب طائفة غير علم (المنافقون والمنافقات) الرجال المنافقون كانوا ثلثمائة والنساء المنافقات مائة

وسبعين (بعضهم من بعض) أى كأنهم نفس واحدة وفيه نفى أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم فى قولهم ويحلفون بالله إنهم لمنكم وتقرير لقوله وما هم منكم ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين فقال (يأمرون بالمنكر) بالكفر والعصيان (وينهون عن المعروف) عن الطاعة والإيمان (ويقبضون أيديهم) شحا بالمبار والصدقات والإنفاق فى سبيل الله (نسوا الله) تركوا أمره أو أغفلوا ذكره (فنسيهم) فتركهم من رحمته وفضله (إن المنافقين هم الفاسقون) هم الكاملون فى الفسق الذى هو التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير وكفى المسلم زاجرا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف به المنافقون حين بالغ فى ذمهم (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها) مقدرين الخلود فيها (هى) أى النار (حسبهم) فيه دلالة على عظم عذابها وأنه بحيث لا يزاد عليه (ولعنهم الله) وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين (ولهم عذاب مقيم) دائم معهم فى العاجل لا ينفكون عنه وهو ما يقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن خوفا من المسلمين وما يحذرونه أبدا من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم الكاف فى (كالذين من قبلكم

أظهرتم الكفر بعد ما كنتم قد أظهرتم الإيمان وذلك أن المنافقين كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الإيمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر قيل لهم قد كفرتم بعد إيمانكم وقيل معناه قد كفرتم عند الله بعد أن كنتم عندهم مؤمنين وقوله سبحانه وتعالى (إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) ذكر المفسرون أن الطائفتين كانوا ثلاثة فالواحد طائفة والاثنان طائفة والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فلهذا أطلق لفظ الطائفة على الواحد قال محمد بن إسحق الذى عفى عنه رجل واحد وهو مخاشن بن حمير الأشجعى يقال إنه هو الذى كان يضحك ولا يخوض وقيل إنه كان يمشى مجانبا لهم وينكر بعض ما يسمع فكان ذنبه أخف فلما نزلت الآية تاب من نفاقه ورجع إلى الإسلام وقال اللهم إنى لا أزال أسمع آية تقرأ أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة ولم يعرف أحد من المسلمين مصرعه ﴿قوله سبحانه وتعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) يعنى أنهم على أمر واحد ودين واحد مجتمعون على النفاق والأعمال الخبيثة كما يقول الإنسان لغيره أنا منك وأنت منى أى أمرنا واحد لا مباينة فيه (يأمرون بالمنكر) يعنى يأمر بعضهم بعضا بالشرك والمعصية وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم (وينهون عن المعروف) يعنى عن الإيمان والطاعة وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم (ويقبضون أيديهم) يعنى عن الإنفاق فى سبيل الله تعالى وفى كل خير (نسوا الله فنسيهم) هذا الكلام لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأنا لو حملناه على النسيان الحقيقى لم يستحقوا ذما عليه لأن النسيان ليس فى وسع البشر دفعه وأيضا فإن النسيان فى حق الله محال فلا بد من التأويل وقد ذكروا فيه وجهين الأول معناه أنهم تركوا أمره حتى صاروا بمنزلة الناسين له فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته فخرج على مزاوجة الكلام فهو كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها الوجه الثانى أن النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله وعبادته ترك الله ذكرهم فيمن ذكرهم بالرحمة والإحسان فجعل النسيان عبارة عن ترك الذكر لأن من ترك شيئا لم يذكره وقيل لما تركوا طاعة الله والإيمان به تركهم من توفيقه وهدايته فى الدنيا ومن رحمته فى العقبى (إن المنافقين هم الفاسقون) يعنى هم الخارجون عن الطاعة (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) يقال وعده بالخير وعدا أو وعده بالشر وعيدا فالوعد يكون فى الخير والشر (نار جهنم خالدين فيها) فيه حذف تقديره يصلونها خالدين يعنى مقيمين فيها (هى حسبهم) يعنى هى كافيتهم جزاء على كفرهم ونفاقهم وتركهم الإيمان والطاعة (ولعنهم الله) يعنى وأبعدهم من رحمته وطردهم عن بابه (ولهم عذاب مقيم) أى دائم لا ينقطع فإن قلت قوله خالدين فيها بمعنى ولهم عذاب مقيم وهذا تكرار فما معناه قلت ليس ذلك تكرارا وبيان الفرق من وجهين الأول أن معناه ولهم نوع آخر من العذاب المقيم سوى الصلى بالنار ولقائل أن يقول هذا التأويل مشكل لأنه سبحانه وتعالى قال فى النار هى حسبهم وذلك يمنع من ضم شئ آخر إلى عذاب النار وأجيب عن هذا الإشكال بأن قوله هى حسبهم فى الإيلام ولا يمتنع أن يحصل نوع آخر من العذاب من غير جنس النار كالزمهرير ونحوه ويكون ذلك زيادة فى عذابهم الوجه الثانى أن العذاب المقيم هو العذاب المعجل لهم فى الدنيا وهو ما يقاسونه من خوف اطلاع المسلمين عليهم وما هم فيه من النفاق وكشف فضائحهم وهذا هو العذاب المقيم ﴿قوله سبحانه وتعالى (كالذين من قبلكم) هذا رجوع عن الغيبة إلى خطاب الحضور والكاف فى كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم شبه فعل المنافقين بفعل الكفار الذين كانوا من قبلهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف وقبض الأيدى عن فعل الخير والطاعة وقيل إنه تعالى شبه المنافقين فى عدولهم عن طاعة الله واتباع أمره لأجل طلب الدنيا بمن قبلهم من الكفار ثم وصف الكفار بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالا

وأولادا فقال تعالى (كانوا أشد منكم قوة) يعني بطشا ومنعة (وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) يعني فتمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضا عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق الله للإنسان وقدر له من خير كما يقال قسم له (فاستمتعتم بخلاقكم) وهذا خطاب للحاضرين يعني فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم (كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) فان قلت ما الفائدة في ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرة ثم ذكره في حق المنافقين ثانيا ثم اعادة ذكره في حق الأولين ثالثا قلت فائدته أنه يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضاهم بها وتركهم النظر فيما يصلحهم في الدار الآخرة ثم شبه حال المخاطبين من المنافقين والكفار بحال من تقدمهم ثم رجع الى ذكر حال الأولين ثالثا وهذا كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على قبح ظلمه فتقول له أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويعذب بغير جرم فأنت تفعل مثل ما كان يفعل والتكرير هنا للتأكيد كيف تقبيح فعلهم وفعل من شابههم في فعلهم ﴿ وقوله تعالى (وخضتم كالذي خاضوا) معطوف على ما قبله ومستند اليه يعني وسلكتم في فعلكم مثل ما سلكوا في اتباع الباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين (أولئك حبطت أعمالهم) يعني بطلت أعمالهم (في الدنيا والآخرة) يعني ان أعمالهم لا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة بل يعاقبون عليها (وأولئك هم الخاسرون) والمعنى انه كما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن ﴿ وقوله تعالى (ألم يأتهم) رجع من الخطاب الى الغيبة يعني ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أي قد أتاهم (نبأ) يعني خبر (الذين من قبلهم) يعني الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ثم ذكرهم فقال تعالى (قوم نوح) يعني أنهم أهلكوا بالطوفان (وعاد) هلكوا بالريح العقيم (وثمود) أهلكوا بالرجفة (وقوم ابراهيم) أهلكوا بسلب النعمة وكان هلاك نمرود ببعوضة (وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة (والمؤتفكات) يعني المنقلبات التي جعل الله عاليها سافلها وهي مدائن قوم لوط وانما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الطوائف الستة لان آثارهم باقية و بلادهم بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من أرض العرب فكانوا يمرون عليهم و يعرفون أخبارهم (أتتهم رسلهم بالبينات) يعني بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها المنافقون والكفار فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم (فما كان الله ليظلمهم) يعني بتعجيل العقوبة لهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعني ان الذين استحقوه من العقوبة بسبب ظلمهم أنفسهم ﴿ قوله عز وجل (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) لما وصف الله المنافقين بالأعمال الخبيثة والأحوال الفاسدة ثم ذكر بعده ما أعد لهم من أنواع الوعيد في الدنيا والآخرة عقبه بذكر أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات في الدنيا والآخرة فقال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يعني الموالاة في الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة فان قلت انه سبحانه وتعالى قال في وصف المنافقين بعضهم من بعض وقال في وصف المؤمنين بعضهم أولياء بعض فما الفائدة في ذلك قلت لما كان نفاق الاتباع وكفرهم انما حصل بتقليد المتبوعين وهم الرؤساء والأكابر

كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) محلها رفع أي أنتم مثل الذين من قبلكم أو نصب على فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم وهو أنكم استمتعتم بخلاقكم كما استمتعوا بخلاقهم أي تلذذوا بملاذ الدنيا والخلاق النصيب مشتق من الخلق وهو التقدير أي ما خلق للإنسان بمعنى قدر من خير (وخضتم) في الباطل (كالذي خاضوا) كالفوج الذي خاضوا أو كالخوض الذي خاضوا والخوض الدخول في الباطل واللهو وانما قدم فاستمتعوا بخلاقهم وقوله كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم مغن عنه ليذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة ثم شبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم (أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة) في مقابلة قوله وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين (وأولئك هم الخاسرون) ثم ذكر نبأ من قبلهم فقال (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح) هو بدل من الذين (وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين) وأهل مدين وهم قوم شعيب (والمؤتفكات) مدائن قوم لوط وائتفاكهن انقلاب أحوالهن عن الخير الى الشر (أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم) فما صح منه أن يظلمهم باهلاكهم لأنه حكيم فلا يعاقبهم بغير جرم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفر وتكذيب الرسل (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) في التناصر والتراحم

وحصل بمقتضى الطبيعة أيضا قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الحاصلة بين المؤمنين بتسديد الله وتوفيقه وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الفائدة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (يأمرون بالمعروف) يعني بالإيمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف في الشرع من خير وبر وطاعة (وينهون عن المنكر) يعني عن الشرك والمعصية والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع وهذا في مقابلة ما وصف به المنافقون وقوله (ويقيمون الصلاة) يعني الصلاة المفروضة ويتمون أركانها وحدودها (ويؤتون الزكاة) يعني الواجبة عليهم وهو في مقابلة ويقبضون أيديهم (ويطيعون الله ورسوله) يعني فيما يأمرهم به وهو في مقابلة نسوا الله فنسيهم (أولئك) يعني المؤمنين والمؤمنات الموصوفين بهذه الصفات (سيرحمهم الله) لما ذكر الله ما وعد به المنافقين من العذاب في نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين والمؤمنات من الرحمة والرضوان وما أعد لهم في الجنان والسين في قوله سيرحمهم الله للمبالغة والتوكيد (إن الله عزيز حكيم) وهذا يوجب المبالغة في الترغيب والترهيب لأن العزيز هو الذي لا يمتنع عليه شيء أراده فهو قادر على إيصال الرحمة لمن أراد وإيصال العقوبة لمن أراد والحكيم هو الذي يدبر عباده على ما يقتضيه العدل والإنصاف (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) لما ذكر الله في الآيات المتقدمة وعيد المنافقين وما أعد لهم في نار جهنم من العذاب ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية ما وعد به المؤمنين من الخير والثواب والمراد بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار البساتين التي تتحير في حسنها الناظر لأنه سبحانه وتعالى قال ومساكن طيبة في جنات عدن والمعطوف يجب أن يكون مغايرا للمعطوف عليه فتكون مساكنهم في جنات عدن ومناظرهم الجنات التي هي البساتين فتكون جنات عدن هي المساكن التي يسكنونها والجنات الأخر هي البساتين التي يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه والفرق بينهما (ومساكن طيبة) يعني ومنازل يسكنونها طيبة (في جنات عدن) يعني في بساتين خلد وإقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به روى الطبري بسنده عن عمران بن حصين وأبي هريرة قالا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ومساكن طيبة في جنات عدن قال قصر من لؤلؤة في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء في كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين وفي رواية في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من طعام وفي كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله أجمع وروى بسنده عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عدن داره يعني دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهي مسكنه ولا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء يقول الله عز وجل طوبى لمن دخلك هكذا رواه الطبري فإن صحت هذه الرواية فلا بد من تأويلها فقوله عدن داره يعني دار الله وهو من باب حذف المضاف تقديره عدن دار أصفياء الله التي أعدها لأوليائه وأهل طاعته والمقربين من عباده عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن أخرجه البخاري ومسلم وقال عبد الله بن مسعود عدن بطنان الجنة يعني وسطها وقال عبد الله بن عمرو بن العاص إن في الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد وقال عطاء بن السائب عدن نهر في الجنة خيامه على حافتيه وقال مقاتل والكلبي عدن أعلى درجة في الجنة فيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهي مغطاة من حين خلقها الله حتى ينزلها أهلها وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من

(يأمرون بالمعروف) بالطاعة والإيمان (وينهون عن المنكر) عن الشرك والعصيان (ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله) السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد في سانتقم منك يوما (إن الله عزيز) غالب على كل شيء قادر عليه فهو يقدر على الثواب والعقاب (حكيم) واضع كلا موضعه (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة) يطيب فيها العيش وعن الحسن رحمه الله قصورا من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد (في جنات عدن) هو علم بدليل قوله جنات عدن التي وعد الرحمن وقد عرفت أن الذي والتي وضعا لوصف المعارف بالجمل وهي مدينة في الجنة

تعالى العرش فقد دل عليهم كثبان المسك الاذفر قال الامام فخر الدين الرازي حاصل هذا الكلام ان في جنات عدن قولين أحدهما أنه اسم علم لموضع معين في الجنة وهذه الاخبار والآثار تقوي هذا القول قال صاحب الكشاف وعدن علم بدليل قوله جنات عدن التي وعد الرحمن عباده والقول الثاني أنه صفة للجنة قال الازهري العدن مأخوذ من قولك عدن بالمكان اذا أقام به يعدن عدنا فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها جنات عدن ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ورضوان من الله أكبر) يعني ان رضوان الله الذي ينزله عليهم أكبر من كل ما سلف ذكره من نعيم الجنة (ذلك هو الفوز العظيم) اشارة الى ما تقدم ذكره من نعيم الجنة والرضوان (ق) عن أبي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تبارك وتعالى يقول لاهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبدا ۞ قوله سبحانه وتعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار) يعني بالسيف والمحاربة والقتال (والمنافقين) يعني وجاهد المنافقين واختلفوا في صفة جهاد المنافقين وسبب هذا الاختلاف ان المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الاسلام ولما كان الامر كذلك لم يجز مجاهدته بالسيف والقتال لاظهاره الاسلام فقال ابن عباس أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان واذهاب الرفق عنهم وهذا قول الضحاك أيضا وقال ابن مسعود بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه فان لم يستطع فليكفهر في وجهه وقال الحسن وقتادة باقامة الحدود عليهم يعني اذا تعاطوا أسبابها وهذا القول فيه بعد لان اقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق وانما قال الحسن وقتادة ذلك لان غالب من كان يتعاطى أسباب الحدود فتقام عليهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم المنافقون قال الطبري وأولى الاقوال قول ابن مسعود لان الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين وليس في الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة أن الجهاد مع الكفار انما يكون بالسيف ومع المنافقين باظهار الحجة عليهم تارة وبترك الرفق بهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود (واغلظ عليهم) يعني شدد عليهم بالجهاد والارهاب (ومأواهم جهنم وبئس المصير) يعني أن جهنم مسكنهم وبئس المصير مصيرهم اليها فان قلت كيف ترك النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم وبحالهم قلت انما أمر الله عز وجل نبيه سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام على اظهارها فاما من تكلم بالكفر في السر فاذا اطلع عليه أنكره ورجع عنه وقال اني مسلم فانه يحكم باسلامه في الظاهر فيحقن دمه وماله وولده وان كان معتقدا غير ذلك في الباطن لان الله سبحانه وتعالى أمر باجراء الاحكام على الظواهر فلذلك أجرى النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين على ظواهرهم ووكل سرائرهم الى الله سبحانه وتعالى لانه العالم بأحوالهم وهو يجازيهم في الآخرة بما يستحقون ۞ قوله عز وجل (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم) اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية فقال عروة بن الزبير نزلت في الجلاس بن سويد أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس ان كان ما جاء به محمد حقا لنحن شر من حمرنا هذه التي نحن عليها فقال مصعب أما والله يا عدو الله لاخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قلت وخفت أن ينزل في القرآن أو أن تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئته فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا

(ورضوان من الله) رضى من رضوان الله (أكبر) من ذلك كله لان رضاه سبب كل فوز وسعادة (ذلك) اشارة الى ما وعد أو الى الرضوان (هو الفوز العظيم) وحده دون ما يعده الناس فوزا (يا أيها النبي جاهد الكفار) بالسيف (والمنافقين) بالحجة (واغلظ عليهم) في الجهادين جميعا ولا تحابهم وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها (ومأواهم جهنم وبئس المصير) جهنم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم الجلاس بن سويد فقال الجلاس والله لئن كان ما يقول محمد حقا لاخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا فنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس الانصاري للجلاس أجل والله ان محمدا لصادق وأنت شر من الحمير وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضره فحلف بالله ما قال فرفع عامر يده فقال اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزل (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) يعني ان كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير أو هي استهزاؤهم فقال الجلاس يا رسول الله والله لقد قلته وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته (وكفروا بعد اسلامهم) وأظهروا كفرهم بعد اظهارهم الاسلام وفيه دلالة على أن الايمان والاسلام واحد لانه قال وكفروا بعد اسلامهم

مخافة أن أخلط بخطيئته وتصيبني قارعة ما أخبرته قال فدعا الجلاس فقال له يا جلاس قلت ما قال مصعب
فحلف ما قال فأنزل الله عز وجل يحلفون بالله ما قالوا الآية وروي عن مجاهد نحوه وقال ابن عباس كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم جالسا في ظل شجرة فقال انه سيأتيكم انسان فينظر اليكم بعين الشيطان فاذا جاء فلا
تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علام تشتمني أنت وأصحابك
فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا حتى تجاوز عنهم فأنزل الله عز وجل يحلفون بالله ما
قالوا ثم نعتهم جميعا الى آخر الآية وقال قتادة ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار
وكانت جهينة حلفاء الانصار فظهر الغفاري على الجهني فقال عبد الله بن أبي ابن سلول للاوس انصروا أخاكم
فوالله ما مثلنا ومثل محمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك وقال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها
الاذل فسعى بها رجل من المسلمين الى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه فسأله فحلف بالله ما قاله فأنزل الله
هذه الآية هذه روايات الطبري وذكر البغوي عن الكلبي قال نزلت في الجلاس بن سويد وذلك أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجسا وعابهم فقال الجلاس
لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة أتاه عامر بن قيس
فأخبره بما قال الجلاس فقال الجلاس كذب يا رسول الله علي فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحلفا
عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا اله الا هو ما قاله ولقد كذب علي عامر ثم قام
عامر فحلف بالله الذي لا اله الا هو لقد قاله وما كذبت عليه ثم رفع عامر يديه الى السماء فقال اللهم أنزل على
نبيك تصديق الصادق منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون آمين فنزل جبريل عليه السلام قبل
أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فان يتوبوا يك خيرا لهم فقام الجلاس فقال يا رسول الله أسمع الله قد عرض
علي التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب اليه فقبل رسول الله صلى الله عليه
وسلم ذلك منه فتاب وحسنت توبته فتلك قوله سبحانه وتعالى يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر
وكفروا بعد اسلامهم يعني أظهروا كلمة الكفر بعد اسلامهم وتلك الكلمة هي سب النبي صلى الله عليه
وسلم فقيل هي كلمة الجلاس بن سويد لئن كان محمد صادقا لنحن شر من الحمير وقيل هي كلمة عبد الله بن أبي
ابن سلول لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وستأتي القصة في موضعها في سورة المنافقين ان
شاء الله تعالى ۞ قوله سبحانه وتعالى (وهموا بما لم ينالوا) قال مجاهد هم الجلاس بقتل الذي سمع مقالته
خشية أن يفشيها عليه وقيل هم عبد الله بن أبي ابن سلول وكان همه قوله لئن رجعنا الى المدينة فلم ينله وقيل
هم اثنا عشر رجلا من المنافقين بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من
تبوك ليفتكوا به فجاء جبريل عليه السلام فأخبره وأمره أن يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم فأرسل
حذيفة لذلك وقال السدي قال المنافقون اذا رجعنا الى المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي ابن سلول تاجا
فلم يصلوا اليه (وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) يعني وما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه
وسلم شيأ الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله والمعنى ان المنافقين عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر
النبي صلى الله عليه وسلم أن نقموا عليه وقيل انهم بطروا النعمة فنقموا أشرا وبطرا وقال ابن قتيبة معناه
ليس ينقمون شيأ ولا يعرفون الا الصنع وهذا كقول الشاعر

ما نقم الناس من أمية ✻ الا أنهم يحلمون ان غضبوا

وهذا ليس مما ينقم وانما أراد ان الناس لا ينقمون عليهم شيأ فهو كقول النابغة

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ✻ بهن فلول من قراع الكتائب

أي ليس فيهم عيب قال الكلبي كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش فلما قدم

(وهموا بما لم ينالوا) من
قتل محمد عليه السلام أو
قتل عامر لرده على الجلاس
وقيل أرادوا أن يتوجوا
ابن أبي وان لم يرض رسول
الله صلى الله عليه وسلم (وما
نقموا) وما أنكروا وما
عابوا (الا أن أغناهم الله
ورسوله من فضله) وذلك
أنهم كانوا حين قدم رسول
الله صلى الله عليه وسلم
المدينة في ضنك من العيش
لا يركبون الخيل ولا
يحوزون الغنيمة فأثروا
بالغنائم وقتل للجلاس
مولى فأمر رسول الله صلى
الله عليه وسلم بديته اثني
عشر ألفا فاستغنى

النبي صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم فعلى هذا القول يكون الكلام تاما وقال عروة كان الجلاس قتل له مولى فأمر له النبي صلى الله عليه وسلم بديته فاستغنى وقال قتادة كانت لعبد الله بن أبي دية فأخرجها رسول الله صلى الله عليه وسلم له وقال عكرمة ان مولى لبني عدي قتل رجلا من الانصار فقضى له النبي صلى الله عليه وسلم بالدية اثنى عشر ألفا وفيه نزلت وما نقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله (فان يتوبوا يك خيرا لهم) يعني فان يتوبوا من كفرهم ونفاقهم يك ذلك خيرا لهم في العاجل والآجل (وان يتولوا) يعني وان يعرضوا عن الايمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر (يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا) يعني بالخزي والاذلال (والآخرة) أي ويعذبهم في الآخرة بالنار (وما لهم في الارض من ولي ولا نصير) يعني وليس لهم أحد يمنعهم من عذاب الله أو ينصرهم في الدنيا والآخرة ﴿ قوله سبحانه وتعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآية روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي أمامة الباهلي قال جاء ثعلبة بن حاطب الانصاري الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ثم أتاه بعد ذلك فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما لك في رسول الله أسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها وهي تنمي كما ينمي الدود فكان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلي في غنمه سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد الا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضا حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان اذا كان يوم جمعة خرج فتلقى الناس يسألهم عن الاخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال ما فعل ثعلبة فقالوا يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنما ما يسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة فأنزل الله سبحانه وتعالى آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بني سليم ورجلا من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما مرا على ثعلبة بن حاطب وبرجل من بني سليم فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الا جزية ما هذه الا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الي فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر الى خيار أسنان ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالا لا نأخذ هذا عليك قال بلى خذاها فان نفسي بذلك طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا الى ثعلبة فقال أروني كتابكما فقرأه ثم قال ما هذه الا جزية ما هذه الا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيي قال فأقبلا فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يتكلما يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة ثم دعا للسلمي بخير فأخبراه بالذي صنع ثعلبة فأنزل الله سبحانه وتعالى فيه ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن الآية الى قوله سبحانه وتعالى وبما كانوا يكذبون وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال ان الله منعني ان أقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني فلما أبى أن يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقته رجع الى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى أبا بكر فقال اقبل صدقتي فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقبلها فقبض أبو بكر ولم يقبلها منه فلما ولي عمر أتاه فقال اقبل صدقتي

(فان يتوبوا) عن النفاق (يك) التوب (خيرا لهم) وهي الآية التي تاب عندها الجلاس (وان يتولوا) يصروا على النفاق (يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة) بالقتل والنار (وما لهم في الارض من ولي ولا نصير) ينجيهم من العذاب (ومنهم من عاهد الله) روي ان ثعلبة بن حاطب قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال عليه السلام يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه فراجعه وقال والذي بعثك بالحق لئن رزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجمعة والجماعة فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال يا ويح ثعلبة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال ما هذه الا جزية وقال ارجعا حتى أرى رأيي فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يكلماه يا ويح ثعلبة مرتين فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال ان الله منعني أن أقبل منك فجعل التراب على رأسه فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها الى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها وجاء بها الى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها وهلك في زمن عثمان رضي الله عنه (لئن آتانا من فضله) أي المال (لنصدقن) لنخرجن الصدقة والاصل لنتصدقن ولكن التاء أدغمت في الصاد لقرب مخرجهما

فقال لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر فانا لا أقبلها منك فلم يقبلها ثم ولى عثمان فأتاه فلم يقبلها منه وهلك في خلافة عثمان وأخرجه الطبري أيضا بسنده قال بعض العلماء انما لم يقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة ثعلبة لان الله سبحانه وتعالى منعه من قبولها منه مجازاة له على اخلافه ما عاهد الله عليه واهانة له على قوله انما هي جزية أو أخت الجزية فلما صدر هذا القول منه ردت صدقته عليه اهانة له وليعتبر غيره به فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس باخراجها ويرى أنها واجبة عليه وانه يثاب على اخراجها ويعاقب على منعها قال ابن عباس ان ثعلبة أتى مجلسا من مجالس الانصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة فمات ابن عم له فورث منه مالا فلم يف بما عاهد الله عليه فأنزل الله فيه هذه الآية وقال الحسن ومجاهد نزلت في ثعلبة ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف خرجا على ملا قعود فقالا لئن رزقنا الله من فضله لنصدقن فلما رزقهما الله بخلا به وقال ابن السائب ان حاطب ابن أبي بلتعة كان له مال بالشام فأبطأ عليه فجهد لذلك جهدا شديدا فحلف بالله لئن آتاني الله من فضله يعني ذلك المال لاصدقن منه ولاصلن فلما آتاه ذلك المال لم يف بما عاهد الله عليه فنزلت هذه الآية وحاصله ان ظاهر الآية يدل على ان بعض المنافقين عاهد الله لئن آتاه من فضله ليصدقن وليفعلن فيه أفعال الخير والبر والصلة فلما آتاه الله من فضله ما سأل لم يف بما عاهد الله عليه ومعنى الآية ومن المنافقين من أعطى الله عهدا لئن رزقنا من فضله بان يوسع علينا في الرزق لنصدقن يعني لنتصدقن ولنخرجن من ذلك المال صدقته (ولنكونن من الصالحين) يعني ولنعملن في ذلك المال ما يعمله أهل الصلاح بأموالهم من صلة الارحام والانفاق في سبيل الله وجميع وجوه البر والخير واخراج الزكاة وايصالها الى أهلها والصالح ضد المفسد والمفسد هو الذي يبخل بما يلزمه في حكم الشرع وقيل ان المراد بقوله لنصدقن اخراج الزكاة الواجبة وقوله ولنكونن من الصالحين اشارة الى كل ما يفعله أهل الصلاح على الاطلاق من جميع أعمال البر والطاعة (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) يعني فلما رزقهم الله لم يفعلوا من أعمال البر شيأ (وتولوا) يعني عما عاهدوا الله عليه (وهم معرضون) يعني عن العهد (فأعقبهم نفاقا في قلوبهم) يعني فأعقبهم الله نفاقا بان صيرهم منافقين يقال أعقبت فلانا ندامة اذا صارت عاقبة أمره الى ذلك وقيل معناه انه سبحانه وتعالى عاقبهم بنفاق قلوبهم (الى يوم يلقونه) يعني انه سبحانه وتعالى حرمهم التوبة الى يوم القيامة فيوافونه على النفاق فيجازيهم عليه (بما أخلفوا الله ما وعدوه) يعني الصدقة والانفاق في سبيله (وبما كانوا يكذبون) يعني في قولهم لنصدقن ولنكونن من الصالحين عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة وفي رواية خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا وعد أخلف واذا خاصم فجر قال الشيخ محيي الدين النووي هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث ان هذه الخصال قد توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شك وقد أجمع العلماء على ان من كان مصدقا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق يخلد في النار فان اخوة يوسف عليهم السلام جمعوا هذه الخصال وكذا قد يوجد لبعض السلف ولبعض العلماء بعض هذه أو كله قال الشيخ هذا ليس بحمد الله اشكالا ولكن اختلف العلماء في معناه فالذي قاله المحققون والاكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه ان هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق باخلاقهم فان النفاق هو اظهار ما يبطن خلافه وهذا موجود في صاحب هذه الخصال فيكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا انه منافق في الاسلام فيظهره وهو يبطن الكفر ولم يرد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا انه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الاسفل من النار وقوله صلى الله عليه

(ولنكونن من الصالحين) باخراج الصدقة (فلما آتاهم من فضله) أعطاهم الله المال ونالوا مناهم (بخلوا به) منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد (وتولوا) عن طاعة الله (وهم معرضون) مصرون على الاعراض (فأعقبهم نفاقا في قلوبهم) فأورثهم البخل نفاقا متمكنا في قلوبهم لانه كان سببا فيه (الى يوم يلقونه) أي جزاءه فعلهم وهو يوم القيامة (بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) بسبب اخلافهم ما وعدوا الله من التصدق والصلاح وكونهم كاذبين ومنه جعل خلف الوعد ثلث النفاق

ومن كانت فيه خلة منها فمعناه كان شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال قال بعض العلماء وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه فأما من ندر ذلك منه فليس داخلا فيه فهذا هو المختار في معنى الحديث وقال جماعة من العلماء المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم حدثوا في إيمانهم فكذبوا وائتمنوا على دينهم فخانوا ووعدوا في أمر الدين ونصرة فأخلفوا وفجروا في خصوماتهم وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ورجع إليه الحسن البصري بعد أن كان على خلافه وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر ورواه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال القاضي عياض وإليه مال كثير من أئمتنا وحكى الخطابي قولا آخر أن معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال وحكى أيضا عن بعضهم أن الحديث ورد في رجل بعينه منافق وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يواجههم بصريح القول فيقول فلان منافق وإنما يشير إشارة كقوله صلى الله عليه وسلم ما بال أقوام يفعلون كذا والله أعلم وقال الإمام فخر الدين الرازي ظاهر هذه الآية يدل على أن نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ألم يعلموا) يعني هؤلاء المنافقين (أن الله يعلم سرهم) يعني ما تنطوي عليه صدورهم من النفاق (ونجواهم) يعني ويعلم ما يتفاوض به بعضهم مع بعض فيما بينهم والنجوى هو الخفي من الكلام يكون بين القوم والمعنى أنهم يعلمون أن الله يعلم جميع أحوالهم لا يخفى عليه شيء منها (وأن الله علام الغيوب) وهذه مبالغة في العلم يعني أن الله عالم بجميع الأشياء فكيف تخفى عليه أحوالهم

۞ قوله عز وجل (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات) الآية (ق) عن أبي مسعود البدري قال لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مراء وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغني عن صاع هذا فنزلت الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم الآية وقال ابن عباس وغيره من المفسرين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال يا رسول الله مالي ثمانية آلاف درهم جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله في مال عبد الرحمن حتى إنه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهم وتصدق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر وقال يا رسول الله بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالي وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره في الصدقات فلمزهم المنافقون فقالوا ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطى من الصدقة فأنزل الله سبحانه وتعالى الذين يلمزون يعني يعيبون المطوعين يعني المتبرعين من المؤمنين يعني عبد الرحمن بن عوف وعاصم بن عدي في الصدقات والتطوع التنفل بما ليس بواجب عليه (والذين لا يجدون إلا جهدهم) يعني أبا عقيل الأنصاري والجهد بالضم الطاقة وهي لغة أهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وقيل الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة وقد يكون القليل من المال الذي يأتي به فيتصدق به أكثر موقعا عند الله تعالى من الكثير الذي يأتي به فيتصدق به لأن الغني أخرج ذلك المال الكثير عن قدرة وهذا الفقير الذي أخرج القليل إنما أخرجه عن ضعف وجهد وقد يؤثر المحتاج إلى المال غيره رجاء ما عند الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (فيسخرون منهم) يعني أن المنافقين كانوا يستهزئون بالمؤمنين في إنفاقهم المال في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو قولهم لقد كان الله عن صدقة هذا لغنيا وكانوا يعيرون الفقير الذي يتصدق بالقليل ويقولون إنه فقير يحتاج إليه فكيف يتصدق به وجوابهم أن كل من يرجو ما عند الله من الخير والثواب يبذل الموجود لينال

(ألم يعلموا) يعني المنافقين (أن الله يعلم سرهم) ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه (ونجواهم) وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها (وأن الله علام الغيوب) فلا يخفى عليه شيء (الذين) محل النصب أو الرفع على الذم أو الجر على البدل من الضمير في سرهم ونجواهم (يلمزون المطوعين) يعيبون المطوعين المتبرعين (من المؤمنين في الصدقات) متعلق بيلمزون روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة وأمسكت أربعة لعيالي فقال عليه السلام بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفا وتصدق عاصم بمائة وسق من تمر (والذين) عطف على المطوعين (لا يجدون إلا جهدهم) طاقتهم وعن نافع جهدهم وهما واحد وقيل الجهد الطاقة والجهد المشقة وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال بت ليلتي أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالي وجئت بصاع فلمزهم المنافقون وقالوا ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وأما صاع أبي عقيل فالله غني عنه (فيسخرون منهم) فيهزؤن

(سخر الله منهم) جازاهم على سخريتهم وهو خبر غير دعاء (ولهم عذاب أليم) مؤلم ولما سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لأبيه في مرضه نزل (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) وقد مر أن هذا الأمر في معنى الخبر كأنه قيل لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير وليس على التحديد والغاية إذ لو استغفر لهم مدة حياته لن يغفر الله لهم لأنهم كفار والله لا يغفر لمن كفر به والمعنى وإن بالغت في الاستغفار فلن يغفر الله لهم وقد وردت الأخبار بذكر السبعين وكلها تدل على الكثرة لا على التحديد والغاية ووجه تخصيص السبعين من بين سائر الأعداد أن العدد قليل وكثير فالقليل ما دون الثلاث والكثير الثلاث فما فوقها وأدنى الكثير الثلاث وليس لأقصاه غاية والعدد أيضا نوعان شفع ووتر وأول الأشفاع اثنان وأول الأوتار ثلاثة والواحد ليس بعدد والسبعة أول الجمع الكثير من النوعين لأن فيها أوتارا ثلاثة وأشفاعا ثلاثة والعشرة كمال الحساب لأن ما جاوز العشرة فهو إضافات الآحاد إلى العشرة كقولك اثنا عشر وثلاثة عشر إلى عشرين والعشرون تكرير العشرة مرتين والثلاثون تكريرها ثلاث مرات وكذلك إلى مائة فالسبعون يجمع الكثرة والنوع والكثرة منه وكمال الحساب والكثرة منه فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كل وجه ولا غاية لأقصاه فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا المعنى والله أعلم (ذلك) إشارة إلى اليأس من المغفرة (بأنهم) بسبب أنهم (كفروا بالله ورسوله) إيثار لا غفران للكافرين (والله لا يهدي القوم الفاسقين) الخارجين عن الإيمان ما داموا مختارين للكفر والطغيان (فرح المخلفون) المنافقون الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان (بمقعدهم) بقعودهم عن الغزو (خلاف رسول الله) مخالفة له وهو مفعول له أو حال أي قعدوا لمخالفته أو مخالفين له (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) أي لم يفعلوا لما فعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين

ذلك الثواب الموعود به ۞ وقوله سبحانه وتعالى (سخر الله منهم) يعني أنه سبحانه وتعالى جازاهم على سخريتهم ۞ ثم وصف ذلك وهو قوله تعالى (ولهم عذاب أليم) يعني في الآخرة ۞ قوله سبحانه وتعالى (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) قال المفسرون لما نزلت الآيات المتقدمة في المنافقين وبان نفاقهم وظهر للمؤمنين جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه ويقولون استغفر لنا فنزلت استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وهذا كلام خرج مخرج الأمر ومعناه الخبر تقديره استغفرت لهم يا محمد أو لم تستغفر فلن يغفر الله لهم وإنما خص سبحانه وتعالى السبعين من العدد بالذكر لأن العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صلى على عمه حمزة رضي الله تعالى عنه سبعين تكبيرة ولأن آحاد السبعين سبعة وهو عدد شريف فإن السموات سبع والأرضين سبع والأيام سبع والأقاليم سبع والبحار سبع والنجوم السيارة سبع فلهذا خص الله تبارك وتعالى السبعين بالذكر للمبالغة في اليأس من طمع المغفرة لهم قال الضحاك ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قد رخص لي فسأزيدن على السبعين لعل الله أن يغفر لهم فأنزل الله سبحانه وتعالى سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم (ق) عن ابن عمر قال لما توفي عبد الله يعني ابن أبي ابن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما خيرني الله عز وجل فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيده على السبعين قال إنه منافق فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون زاد في رواية فترك الصلاة عليهم ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) يعني أن هذا الفعل من الله وهو ترك عفوه عنهم وترك المغفرة لهم من أجل أنهم اختاروا الكفر على الإيمان بالله ورسوله (والله لا يهدي القوم الفاسقين) يعني والله لا يوفق للإيمان به من اختار الكفر والخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله ۞ قوله عز وجل (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) يعني فرح المخلفون عن غزوة تبوك والمخلف المتروك بمقعدهم يعني بقعودهم في المدينة خلاف رسول الله يعني بعده وعلى هذا المعنى خلاف بمعنى خلف فهو اسم للجهة المعينة لأن الإنسان إذا توجه إلى قدامه فمن تركه خلفه فقد تركه بعده وقيل معناه مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار إلى تبوك وأقاموا بالمدينة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أمرهم بالخروج إلى الجهاد فاختاروا القعود مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه وتعالى (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) والمعنى أنهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الخروج إلى الجهاد وذلك أن الإنسان يميل بطبعه إلى

ايثار الراحة والقعود مع الأهل والولد وكره الاتلاف للنفس والمال وهو قوله سبحانه وتعالى (وقالوا لا تنفروا في الحر) وكانت غزوة تبوك في شدة الحر فأجاب الله عن هذا بقوله سبحانه وتعالى (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) يعني قل يا محمد لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك عن الجهاد في الحر ان نار جهنم التي هي موعدهم في الآخرة أشد حرا من حر الدنيا لو كانوا يعلمون قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجال يا رسول الله الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفر في الحر فقال الله عز وجل قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فأمره الله تعالى بالخروج (فليضحكوا قليلا) يعني فليضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحين قليلا في الدنيا الفانية بمقعدهم خلافه (وليبكوا كثيرا) يعني مكان ضحكهم في الدنيا وهذا وان ورد بصيغة الأمر الا أن معناه الاخبار والمعنى انهم وان فرحوا وضحكوا طول أعمارهم في الدنيا فهو قليل بالنسبة الى بكائهم في الآخرة لان الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفاني بالنسبة الى الدائم الباقي قليل (جزاء بما كانوا يكسبون) يعني أن ذلك البكاء في الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيثة في الدنيا (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وروى البغوي بسنده عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا أيها الناس ابكوا فان لم تستطيعوا أن تبكوا فتباكوا فان أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو ان سفنا أزجيت فيها لجرت ۞ قوله سبحانه وتعالى (فان رجعك الله) يعني فان ردك الله يا محمد من غزاتك هذه (الى طائفة منهم) يعني الى المتخلفين عنك وانما قال منهم لانه ليس كل من تخلف بالمدينة عن غزوة تبوك كان منافقا مثل أصحاب الاعذار (فاستأذنوك للخروج) يعني فاستأذنك المنافقون الذين تخلفوا عنك وتحققت نفاقهم في الخروج معك الى غزوة أخرى (فقل لن تخرجوا معي أبدا) يعني فقل يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج وهم مقيمون على نفاقهم لن تخرجوا معي أبدا لا الى غزوة ولا الى سفر (ولن تقاتلوا معي عدوا انكم) يعني لانكم (رضيتم بالقعود أول مرة) يعني انكم رضيتم بالتخلف عن غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) يعني مع المتخلفين النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى وقال ابن عباس مع الذين تخلفوا بغير عذر وقيل مع الخالفين يقال صاحب خالف اذا كان مخالفا كثير الخلاف وفي الآية دليل على ان الرجل اذا ظهر منه مكر وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته لان الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجهاد وهو مشعر باظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وابعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم اذا خرجوا الى الغزوات قوله عز وجل (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية قال قتادة بعث عبد الله بن أبي ابن سلول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض ليأتيه فنهاه عمر عن ذلك فأتاه نبي الله صلى الله عليه وسلم فلما دخل عليه نبي الله صلى الله عليه وسلم قال أهلكك حب اليهود فقال يا نبي الله اني لم أبعث اليك لتؤنبني ولكن بعثت اليك لتستغفر لي وسأله قميصه أن يكفن فيه فأعطاه اياه واستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات فكفنه في قميصه صلى الله عليه وسلم ونفث في جلده ودلاه في قبره فأنزل الله سبحانه وتعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره الآية (خ) عن عمر بن الخطاب قال لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت اليه فقلت يا رسول الله أتصلي على ابن أبي ابن سلول وقد قال يوم كذا كذا وكذا أعدد عليه قوله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أخر عني

من يأمنه الايمان ورده الى الايمان (وقالوا لا تنفروا في الحر) قال بعضهم لبعض أو قالوا للمؤمنين تثبيطا (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) استجهال لهم لان من تصون من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصون في مشقة الابد كان أجهل من كل جاهل (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) أي فيضحكون قليلا على فرحهم بتخلفهم في الدنيا ويبكون كثيرا جزاء في العقبى الا أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره يروى ان أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم (جزاء بما كانوا يكسبون) من النفاق (فان رجعك الله) أي ردك من تبوك وانما قال (الى طائفة منهم) لان منهم من تاب من النفاق ومنهم من هلك (فاستأذنوك للخروج) الى غزوة بعد غزوة تبوك (فقل لن تخرجوا معي أبدا) وبسكون الياء حمزة وعلي وأبو بكر (ولن تقاتلوا معي عدوا) معي حفص (انكم رضيتم بالقعود أول مرة) أول ما دعيتم الى غزوة تبوك (فاقعدوا مع الخالفين) مع من تخلف بعد وسأل ابن عبد الله بن أبي وكان مؤمنا ان يكفن النبي صلى الله عليه وسلم أباه في قميصه ويصلي عليه فقبل فاعترض عمر رضي الله عنه في ذلك فقال عليه السلام ذلك لا ينفعه وكنت أرجو أن يؤمن به ألف من قومه فنزل (ولا تصل على أحد منهم) من المنافقين يعني صلاة الجنازة روى انه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبي صلى الله عليه وسلم (مات) صفة لاحد (أبدا) ظرف لتصل وكان عليه السلام اذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فقيل

يا عمر فلما أكثرت عليه قال إني خيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إلى قوله وهم فاسقون قال فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ والله ورسوله أعلم وأخرجه الترمذي وزاد فيه فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى (ق) عن جابر قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن أبي بعدما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث فيه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم قال وكان كسا عباسا قميصا قال سفيان وقال أبو هرون وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصان فقال له ابن عبد الله يا رسول الله ألبس عبد الله قميصك الذي يلي جلدك قال سفيان فيرون أن النبي صلى الله عليه وسلم ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع وفي رواية عن جابر قال لما كان يوم بدر أتي بالأسارى وأتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي صلى الله عليه وسلم له قميصا فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي صلى الله عليه وسلم إياه فلذلك نزع النبي صلى الله عليه وسلم قميصه الذي ألبسه

﴿فصل﴾ قد وقع في هذه الأحاديث التي تتضمن قصة موت عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق صورة اختلاف في الروايات ففي حديث ابن عمر المتقدم أنه لما توفي عبد الله بن أبي ابن سلول أتى ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه وأن يصلي عليه فأعطاه قميصه وصلى عليه وفي حديث عمر ابن الخطاب من افراد البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعي له ليصلي عليه وفي حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه بعدما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه ووجه الجمع بين هذه الروايات أنه صلى الله عليه وسلم أعطاه قميصه فكفن فيه ثم انه صلى الله عليه وسلم صلى عليه وليس في حديث جابر ذكر الصلاة عليه فالظاهر والله أعلم أنه صلى عليه أولا كما في حديث عمر وابن عمر ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ثانيا بعدما أدخل حفرته فأخرجه منها ونزع عنه القميص الذي أعطاه وكفن فيه لينفث عليه من ريقه ثم انه صلى الله عليه وسلم ألبسه قميصه بيده الكريمة فعل هذا كله بعبد الله بن أبي تطييبا لقلب ابنه عبد الله فإنه كان صحابيا مسلما صالحا مخلصا وأما قول قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاده في مرضه وأنه سأله أن يستغفر له وأن يعطيه قميصه وأن يصلي عليه فأعطاه قميصه واستغفر له وصلى عليه ونفث في جلده ودلاه في حفرته فهذا مجمل من القول ظاهره هذا الترتيب وما المراد بهذا الترتيب إلا توفيقا بين الأحاديث فيكون قوله ونفث في جلده ودلاه في قبره جملة منقطعة عما قبلها يعني أنه صلى الله عليه وسلم فعل ذلك بعدما أعطاه القميص وبعد أن صلى عليه والله أعلم وقال القرطبي في شرح صحيح مسلم ان عبد الله بن أبي بن سلول كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم وانصرف إليه الخزرج وغيرهم حسده وناصبه العداوة غير أن الإسلام غلب عليه فنافق وكان رأسا في المنافقين وأعظمهم نفاقا وأشدهم كفرا وكان المنافقون كثيرا حتى انه روي عن ابن عباس أنهم كانوا ثلثمائة رجل ومائة وسبعين امرأة وكان ولده عبد الله يعني ولد عبد الله بن أبي من فضلاء الصحابة وأصدقهم إسلاما وأكثرهم عبادة وأشرحهم صدرا وكان أبر الناس بأبيه ومع ذلك فقد قال يوما للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله انك لتعلم أني من أبر الناس بأبي وإن أمرتني أن آتيك برأسه فعلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نغفر عنه وكان من أحرص الناس على إسلام أبيه وعلى أن ينتفع من بركات النبي صلى الله عليه وسلم بشيء ولذلك لما مات أبوه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فينال من بركته فأعطاه وسأله أن يصلي عليه فصلى عليه كل ذلك اكراما لابنه عبد الله وإسعافا له لطلبته وقول عمر تصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه يحتمل أن يكون قبل نزول ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ويظهر من هذا السياق أن عمر وقع

في خاطر عمر أن الله نهاه عن الصلاة عليهم فيكون هذا من قبيل الالهام والتحديث الذي شهد له به النبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون فهمه من سياق قوله استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وهذان التأويلان فيهما بعد قال القرطبي والذي يظهر لي والله أعلم أن البخاري ذكر هذا الحديث من رواية ابن عباس وساقه سياقة هي أبين من هذه وليس فيها هذا اللفظ فقال عن ابن عباس عن عمر لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر وثبت اليه الحديث الى قوله فصلى عليه ثم انصرف فلم يلبث الا يسيرا حتى نزلت عليه الآيتان من براءة قال القرطبي وهذا مساق حسن وتنزيل متقن ليس فيه شيء من الاشكال المتقدم فهو الاولى وقوله صلى الله عليه وسلم سأزيده على السبعين وعد بالزيادة وهو مخالف لما في حديث ابن عباس عن ابن عمر وان فيه لو أعلم أني ان زدت على السبعين يغفر له لزدت وهذا تقييد لذلك الوعد المطلق فان الاحاديث يفسر بعضها بعضا ويقيد بعضها بعضا فلذلك قال لو أعلم أني ان زدت على السبعين يغفر له لزدت فقد علم أنه لا يغفر له وقوله صلى الله عليه وسلم أني خيرت مشكل مع قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وهنا يفهم منه النهي عن الاستغفار لمن مات كافرا وهو متقدم على الآية التي فهم التخيير والجواب عن هذا الاشكال أن المنهي عنه استغفاره لمن تحقق موته على الكفر والشرك وأما استغفاره لاولئك المنافقين المخبر فيهم فهو وقد علم صلى الله عليه وسلم أنه لا ينفع ٧ ولا ينفع وغايته وان وقع كان تطييبا لقلوب الاحياء من قراباتهم فانفصل الاستغفار المنهي عنه من المخير فيه وارتفع الاشكال بحمد الله تعالى والله أعلم وقال الشيخ محيي الدين النووي انما أعطاه قميصه ليكفنه فيه تطييبا لقلب ابنه عبد الله فانه كان صحابيا صالحا وقد سأل ذلك فاجابه اليه وقيل بل أعطاه مكافأة لعبد الله بن أبي المنافق الميت لانه ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصا وفي الحديث بيان مكارم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فقد علم ما كان من هذا المنافق من الايذاء له وقابله بالحسنى وألبسه قميصه كفنا وصلى عليه واستغفر له قال الله سبحانه وتعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال البغوي قال سفيان بن عيينة كانت له يد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحب أن يكافئه بها ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كلم فيما فعل بعبد الله بن أبي فقال صلى الله عليه وسلم وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله والله اني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه فيروى أنه أسلم ألف من قومه لما رأوه يتبرك بقميص النبي صلى الله عليه وسلم ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ولا تقم على قبره) يعني لا تقف عليه ولا تتول دفنه من قولهم قام فلان بأمر فلان اذا كفاه أمره وناب عنه فيه (انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وهذا تعليل لسبب المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره بعدها فان قلت الفسق أدنى حالا من الكفر ولما ذكر في تعليل هذا النهي كونه كافرا دخل تحته الفسق وغيره فما الفائدة في وصفه بكونه فاسقا بعد ما وصفه بالكفر قلت ان الكافر قد يكون عدلا في نفسه بان يؤدي الامانة ولا يضمر لاحد سوءا وقد يكون خبيثا في نفسه كثير الكذب والمكر والخداع واضمار السوء للغير وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله سبحانه وتعالى بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر ۞ قوله تعالى (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) الكلام على هذه الآية في مقامين ٭ المقام الاول في وجه التكرار والحكمة فيه أن تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل أولا وتأكيده وارادة أن يكون المخاطب به على بال لا يغفل عنه ولا ينساه وأن يعتقد أن العمل به مهم وانما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه وهو أن أشد الاشياء جذبا للقلوب والخواطر الاشتغال بالاموال والاولاد وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى وبالجملة فالتكرير يراد به التأكيد والمبالغة في التحذير

(ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) تعليل للنهي أي لأنهم ليسوا بأهل للصلاة عليهم لانهم كفروا بالله ورسوله (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) التكرير للمبالغة والتأكيد وان يكون على بال من المخاطب لا ينساه وأن يعتقد أنه مهم ولان كل آية في فرقة غير الفرقة الاخرى

من ذلك الشئ الذى وقع الاهتمام به وقيل أيضا انما كرر هذا المعنى لانه أراد بالآية الاولى قوما من
المنافقين كان لهم أموال وأولاد عند نزولها وبالآية الاخرى أقواما آخرين منهم ۞ المقام الثانى فى وجه
بيان ما حصل من التفاوت فى الالفاظ فى هاتين الآيتين وذلك انه قال سبحانه وتعالى فى الآية الاولى فلا
تعجبك بالفاء وقال هنا ولا تعجبك بالواو والفرق بينهما انه عطف الآية الاولى على قوله ولا ينفقون الا
وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للانفاق لشدة المحبة للاموال والاولاد فحسن العطف عليه بالفاء فى قوله
فلا تعجبك وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فلهذا أتى بحرف الواو وقال سبحانه وتعالى فى الآية الاولى
فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وأسقط حرف لا هنا فقال سبحانه وتعالى وأولادهم والسبب فيه ان حرف
لا دخل هناك لزيادة التأكيد فيدل على أنهم كانوا معجبين بكثرة الاموال والاولاد وكان اعجابهم بأولادهم
أكثر وفى اسقاط حرف لا هنا دليل على انه لا تفاوت بين الامرين قال سبحانه وتعالى فى الآية الاولى انما يريد
الله ليعذبهم بحرف اللام وقال سبحانه وتعالى هنا أن يعذبهم بحرف أن والفائدة فيه التنبيه على أن التعليل
فى أحكام الله محال وانما أينما ورد حرف اللام فمعناه أن كقوله سبحانه وتعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله
ومعناه وما أمروا الا بأن يعبدوا الله وقال تبارك وتعالى فى الآية الاولى فى الحياة الدنيا وقال تعالى هنا
فى الدنيا والفائدة فى اسقاط لفظة الحياة التنبيه على أن الحياة الدنيا بلغت فى الخسة الى حيث انها لا تستحق
أن تذكر ولا تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال دناءتها فهذه جمل
فى ذكر الفرق بين هذه الالفاظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ۞ قوله عز وجل (واذا أنزلت سورة)
يحتمل أن يراد بالسورة بعضها لان اطلاق لفظ الجمع على البعض جائز ويحتمل أن يراد جميع السورة
فعلى هذا المراد بالسورة سورة براءة لانها مشتملة على الامر بالايمان والامر بالجهاد (أن) أى بأن (آمنوا
بالله وجاهدوا مع رسوله) فان قلت كيف يأمرهم بالايمان مع كونهم مؤمنين فهو من باب تحصيل الحاصل
قلت معناه الامر بالدوام على الايمان والجهاد فى المستقبل وقيل ان الامر بالايمان يتوجه على كل أحد فى
كل ساعة وقيل ان هذا الامر وان كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون والمعنى ان
أخلصوا الايمان بالله وجاهدوا مع رسوله وانما قدم الامر بالايمان على الامر بالجهاد لان الجهاد بغير ايمان
لا يفيد أصلا فكأنه قيل للمنافقين الواجب عليكم أن تؤمنوا بالله أولا ثم تجاهدوا مع رسوله ثانيا حتى يفيدكم
ذلك الجهاد فائدة يرجع عليكم نفعها فى الدنيا والآخرة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (استأذنك أولوا الطول
منهم) قال ابن عباس يعنى أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل هم رؤساء المنافقين
وكبراؤهم وفى تخصيص أولى الطول بالذكر قولان أحدهما ان الذم لهم ألزم لكونهم قادرين على أهبة
السفر والجهاد والقول الثانى انما خص أولى الطول بالذكر لان العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج الى
الاستئذان (وقالوا) يعنى أولى الطول (ذرنا نكن مع القاعدين) يعنى فى البيوت مع النساء والصبيان
وقيل مع المرضى والزمنى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) قيل الخوالف النساء اللواتى يتخلفن فى البيوت
ولا يخرجن منها والمعنى رضوا بأن يكونوا فى تخلفهم عن الجهاد كالنساء وقيل خوالف جمع خالفة وهم
أدنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه اذا كان دونهم (وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) يعنى
وختم على قلوب هؤلاء المنافقين فهم لا يفقهون مراد الله فى الامر بالجهاد ۞ قوله سبحانه وتعالى (لكن
الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى ان تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من
هو خير منهم يعنى الرسول والمؤمنين (وأولئك لهم الخيرات) منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا
والجنة والكرامة فى الآخرة وقيل الحور لقوله فيهن خيرات حسان وهى جمع خيرة تخفيف خيرة
(وأولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالمطالب ۞ قوله سبحانه وتعالى (أعد الله لهم جنات تجرى من
تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) بيان لما لهم من الخيرات الاخروية ۞ قوله سبحانه وتعالى (...

(واذا أنزلت سورة) يجوز
أن يراد سورة بتمامها
وأن يراد بعضها كما يقع
القرآن والكتاب على كله
وعلى بعضه (أن آمنوا
بالله) بأن آمنوا أو هى ان
المفسرة (وجاهدوا مع
رسوله استأذنك أولو
الطول منهم) ذوو الغنى
والسعة (وقالوا ذرنا نكن
مع القاعدين) مع الذين
لهم عذر فى التخلف كالمرضى
والزمنى (رضوا بأن يكونوا
مع الخوالف) أى النساء
جمع خالفة (وطبع
على قلوبهم) ختم عليها
لاختيارهم الكفر والنفاق
(فهم لا يفقهون) ما فى
الجهاد من الفوز والسعادة
وما فى التخلف من الهلاك
والشقاوة (لكن الرسول
والذين آمنوا معه جاهدوا
بأموالهم وأنفسهم) أى
ان تخلف هؤلاء فقد
نهض الى الغزو من هو
خير منهم (وأولئك لهم
الخيرات) تناول منافع
الدارين لاطلاق اللفظ
وقيل الحور لقوله فيهن
خيرات (وأولئك هم
المفلحون) الفائزون بكل
مطلوب (أعد الله لهم
جنات تجرى من تحتها
الانهار خالدين فيها ذلك
الفوز العظيم) قوله أعد
دليل على أنها مخلوقة (وجاء

المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم) يعني وجاء المعتذرون من أعراب البوادي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه في التخلف عن الغزو معه قال الضحاك هم رهط عامر بن الطفيل جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معتذرين إليه دفاعا عن أنفسهم فقالوا يا نبي الله ان نحن غزونا معك تغير أعراب طيئ على حلائلنا وأولادنا ومواشينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم وقيل هم نفر من بني غفار رهط خفاف بن ايماء بن رحضة وقيل هم من أسد وغطفان وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى الآية وجاء المعذرون أي المقصرون يعني أنهم قصروا ولم يبالغوا فيما اعتذروا به والمعذر من يرى ان له عذرا ولا عذر له وقيل ان الأصل في هذا اللفظ عند النحاة المعتذرون أدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما والاعتذار في كلام العرب على قسمين يقال اعتذر اذا كذب في عذره ومنه قوله تعالى يعتذرون اليكم فرد الله عليهم بقوله قل لا تعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ويقال اعتذر اذا أتى بعذر صحيح ومنه قول لبيد

● ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر ● يعني فقد جاء بعذر صحيح وقيل هو من التعذير الذي هو التقصير يقال عذر تعذيرا اذا قصر ولم يبالغ فعلى هذا المعنى يحتمل أنهم كانوا صادقين في اعتذارهم وانهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال انهم كانوا صادقين بدليل انه تعالى لما ذكرهم قال بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دل ذلك على أنهم ليسوا كاذبين ويروى عن أبي عمرو بن العلاء انه لما قيل له هذا الكلام قال ان قوما تكلفوا عذرا بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف آخرون لا لعذر ولا لشبهة عذر جرأة على الله تعالى فهم المراد بقوله وقعد الذين كذبوا الله ورسوله وهم منافقو الأعراب الذين ما جاؤا وما اعتذروا وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله يعني في ادعائهم الايمان (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) يعني في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار وانما قال منهم لانه سبحانه وتعالى علم أن منهم من سيؤمن ويخلص في ايمانه فاستثناهم الله من المنافقين الذين أصروا على الكفر والنفاق وماتوا عليه ﴿ قوله عز وجل (ليس على الضعفاء) لما ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد واعتذروا بأعذار باطلة عقبه بذكر أصحاب الأعذار الحقيقية الصحيحة وعذرهم وأخبر أن فرض الجهاد عنهم ساقط فقال سبحانه وتعالى ليس على الضعفاء والضعيف هو الصحيح في بدنه العاجز عن الغزو وتحمل مشاق السفر والجهاد مثل الشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق في أصل الخلقة ضعيفا نحيفا ويدل على ان هؤلاء الأصناف هم الضعفاء ان الله سبحانه وتعالى عطف عليهم المرضى فقال سبحانه وتعالى (ولا على المرضى) والمعطوف مغاير للمعطوف عليه فأما المرضى فيدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة وكل من كان موصوفا بمرض يمنعه من التمكن من الجهاد والسفر للغزو (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) يعني الفقراء العاجزين عن أهبة الغزو والجهاد فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر لان العاجز عن نفقة الغزو معذور (حرج) أي ليس على هؤلاء الأصناف الثلاثة حرج أي اثم في التخلف عن الغزو وقال الامام فخر الدين الرازي ليس في الآية أنه يحرم عليهم الخروج لان الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة اما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلا ووبالا عليهم فان ذلك طاعة مقبولة ثم انه تعالى شرط على الضعفاء في جواز التخلف عن الغزو شرطا معينا وهو قوله سبحانه وتعالى (اذا نصحوا لله ورسوله) ومعناه أنهم اذا أقاموا في البلد احترزوا عن القاء الأراجيف واثارة الفتن وسعوا في ايصال الخير الى أهل المجاهدين الذين خرجوا الى الغزو وقاموا باصلاح بيوتهم وأخلصوا الايمان والعمل لله وتابعوا الرسول صلى الله عليه وسلم فان جملة هذه الأمور تجري مجرى النصح لله ورسوله (ما على المحسنين من سبيل) أي ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله في تخلفه عن الجهاد بعذر قد أباحه

المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم) هو من عذر في الأمر اذا قصر فيه وتوانى وحقيقته أن يوهم ان له عذرا فيما فعل ولا عذر له أو المعتذرون بادغام التاء في الذال ونقل حركتها الى العين وهم الذين يعتذرون بالباطل قيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا جهدا فائذن لنا في التخلف (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا وظهر بذلك انهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الايمان (سيصيب الذين كفروا منهم) من الأعراب (عذاب أليم) في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار (ليس على الضعفاء) الهرمى والزمنى (ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) هم الفقراء من مزينة وجهينة وبني عذرة (حرج) اثم وضيق في التأخر (اذا نصحوا لله ورسوله) بأن آمنوا في السر والعلن وأطاعوا كما يفعل الناصح بصاحبه (ما على المحسنين) المعذورين الناصحين (من سبيل)

بأى لاجناح عليهم ولاطريق للعتاب عليهم (والله غفور) يغفر تخلفهم (رحيم) بهم (ولاعلى الذين اذا ما أتوك لتحملهم) لتعطيهم الحمولة
(قلت) حال من الكاف فى أتوك وقد قبله مضمرة أى اذا ما أتوك قائلا (لا أجد ما أحملكم عليه تولوا) هو جواب اذا
(وأعينهم تفيض من الدمع) أى تسيل كقولك تفيض دمعا وهو أبلغ من تفيض دمعها لان العين جعلت كأن كلها دمع فائض ومن للبيان كقولك أفديك من رجل ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز ويجوز أن يكون قلت لا أجد استئنافا كأنه قيل اذا ما أتوك لتحملهم تولوا فقيل ما لهم تولوا باكين فقيل قلت لا أجد ما أحملكم عليه الا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض (حزنا) مفعول له (ألا يجدوا ما ينفقون) لئلا يجدوا ما ينفقون ومحله نصب على أنه مفعول له وناصبه حزنا والمستحملون أبو موسى الاشعرى وأصحابه أو البكاؤن وهم ستة نفر من الانصار (انما السبيل على الذين يستأذنونك) فى التخلف (وهم أغنياء) وقوله (رضوا) استئناف كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا (بأن يكونوا مع الخوالف) أى بالانتظام فى جملة الخوالف (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون يعتذرون اليكم) يقيمون لانفسهم عذرا باطلا (اذا رجعتم اليهم) من هذه السفرة (قل لا تعتذروا) بالباطل (لن نؤمن لكم) لن نصدقكم وهو علة للنهى عن الاعتذار لان الغرض ان المعتذر صدق فيما يعتذر به (قد نبأنا الله من أخباركم) علة لانتفاء تصديقهم لانه تعالى اذا أوحى الى رسوله الاعلام بأخبارهم وما فى ضمائرهم لم يستقم مع ذلك تصديقهم فى معاذيرهم (وسيرى)

الشارع طريق يتطرق عليه فيعاقب عليه والمعنى انه سد باحسانه طريق العقاب عن نفسه ويستنبط من قوله ما على المحسنين من سبيل ان كل مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله عالما من قلبه ليس عليه سبيل فى نفسه وماله الا ما أباحه الشرع بدليل منفصل (والله غفور) يعنى لمن تخلف عن الجهاد بعذر أباحه الشرع (رحيم) يعنى أنه تعالى رحيم بجميع عباده قال قتادة نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو وأصحابه وقال الضحاك نزلت فى عبد الله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر ﴿ ولما ذكر الله عز وجل هذه الاقسام الثلاثة من المعذورين أتبعه بذكر قسم رابع وهو قوله تعالى (ولاعلى الذين اذا ما أتوك) يعنى ولا حرج ولا اثم فى التخلف عنك على الذين اذا ما أتوك (لتحملهم) يعنى يسألونك الحملان ليبلغوا الى غزو عدوك وعدوهم والجهاد معك يا محمد قال ابن اسحق نزلت فى البكائين وكانوا سبعة ونقل الطبرى عن محمد بن كعب وغيره قالوا جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه فقال لا أجد ما أحملكم عليه فأنزل الله هذه الآية وهم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بنى واقف حرمى بن عمير ومن بنى مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بنى المعلى سلمان بن صخر ومن بنى حارثة عبد الرحمن بن زيد وهو الذى تصدق بعرضه فقبل الله منه ذلك ومن بنى سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن عمرو المزنى وقال البغوى هم سبعة نفر سموا البكائين معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب الانصارى وعلبة بن زيد الانصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن معقل المزنى قال أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ان الله عز وجل قد ندبنا الى الخروج معك فاحملنا فقال لا أجد ما أحملكم عليه وقال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة اخوة معقل وسويد والنعمان بنو مقرن وقيل نزلت فى العرباض بن سارية ويحتمل أنها نزلت فى كل من ذكر قال ابن عباس سألوه أن يحملهم على الدواب وقيل انما سألوه أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين فذلك قوله سبحانه وتعالى (قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع) قال صاحب الكشاف هو كقولك تفيض دمعا وهو أبلغ من يفيض دمعها لان العين جعلت كأن كلها دمع فائض ومن للبيان كقولك أفديك من رجل (حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) يعنى على أنفسهم فى الجهاد (انما السبيل) لما قال الله سبحانه وتعالى ما على المحسنين من سبيل قال تعالى فى حق من يعتذر ولا عذر له انما السبيل يعنى انما تتوجه الطريق بالعقوبة (على الذين يستأذنونك) يا محمد فى التخلف عنك والجهاد معك (وهم أغنياء) يعنى قادرين على الخروج معك (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) يعنى رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف وهم النساء والصبيان والقعود معهم (وطبع الله على قلوبهم) يعنى ختم عليها (فهم لا يعلمون) ما فى الجهاد من الخير فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو وأما فى الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذى لا ينقطع ﴿ قوله سبحانه وتعالى (يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم) يعنى يعتذر هؤلاء المنافقون المتخلفون عنك يا محمد اليك وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم ويحتمل أنهم اعتذروا اليه والى المؤمنين فلهذا قال تعالى يعتذرون اليكم يعنى بالاعذار الباطلة الكاذبة اذا رجعتم اليهم يعنى من سفركم (قل) أى قل لهم يا محمد (لا تعتذروا) قال البغوى روى أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين فقال الله تعالى قل لا تعتذروا (لن نؤمن لكم) يعنى لن نصدقكم فيما اعتذرتم به (قد نبأنا الله من أخباركم) يعنى قد أخبرنا الله فيما سلف من أخباركم

(وسيرى الله عملكم ورسوله) أتتوبون أم تثبتون على كفركم (ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة) أى تردون اليه وهو عالم كل سر وعلانية (فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم على حسب ذلك (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم) لتتركوهم ولا توبخوهم (فأعرضوا عنهم) فأعطوهم طلبتهم (انهم رجس) تعليل لترك معاتبتهم أى ان المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم لانهم

(وسيرى الله عملكم ورسوله) يعنى فى المستأنف أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه وقيل يحتمل أنهم وعدوا بأن ينصروا المؤمنين فى المستقبل فلهذا قال وسيرى الله عملكم ورسوله هل تفون بما قلتم أم لا (ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم) يعنى فيخبركم (بما كنتم تعملون) لانه هو المطلع على ما فى ضمائركم من الخيانة والكذب واخلاف الوعد ﴿ قوله عز وجل (سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم) يعنى اذا رجعتم من سفركم اليهم يعنى الى المتخلفين بالمدينة من المنافقين (لتعرضوا عنهم) يعنى لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ولا توبخوهم بسبب تخلفهم (فأعرضوا عنهم) يعنى فدعوهم وما اختاروا لانفسهم من النفاق وقيل يريد ترك الكلام يعنى لا تكلموهم ولا تجالسوهم فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة قال لا تجالسوهم ولا تكلموهم قال أهل المعانى ان هؤلاء المنافقين طلبوا اعراض الصفح فأعطوا اعراض المقت ﴿ ثم ذكر العلة فى سبب الاعراض عنهم فقال تعالى (انهم رجس) يعنى أن بواطنهم خبيثة نجسة وأعمالهم قبيحة (ومأواهم) يعنى مسكنهم فى الآخرة (جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) يعنى من الاعمال الخبيثة فى الدنيا قال ابن عباس نزلت فى الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلا من المنافقين فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقال مقاتل نزلت فى عبد الله بن أبى حلف للنبى صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا اله الا هو أنه لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبى صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه فأنزل الله عز وجل هذه الآية والتى بعدها (يحلفون لكم لترضوا عنهم) يعنى يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم (فان ترضوا عنهم) يعنى فان رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) يعنى أنه سبحانه وتعالى يعلم ما فى قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم أبدا ﴿ قوله سبحانه وتعالى (الاعراب أشد كفرا ونفاقا) نزلت فى سكان البادية يعنى ان أهل البدو أشد كفرا ونفاقا من أهل الحضر قال أهل اللغة يقال رجل عربى اذا كان نسبه فى العرب وجمعه العرب ورجل أعرابى اذا كان بدويا يطلب مساقط الغيث والكلأ ويجمع الاعرابى على الاعراب والاعاريب فمن استوطن القرى والمدن العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم الاعراب فالاعرابى اذا قيل له يا عربى فرح بذلك والعربى اذا قيل له يا أعرابى غضب والعرب أفضل من الاعراب لان المهاجرين والانصار وعلماء الدين من العرب والسبب فى كون الاعراب أشد كفرا ونفاقا بعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ وهو قوله سبحانه وتعالى (وأجدر) يعنى وأخلق وأحرى (ألا يعلموا) يعنى بان لا يعلموا (حدود ما أنزل الله على رسوله) يعنى الفرائض والسنن والاحكام (والله عليم) يعنى بما فى قلوب عباده (حكيم) فيما فرض من فرائضه وأحكامه (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما) يعنى لا يرجو على انفاقه ثوابا ولا يخاف على امساكه عقابا انما ينفق خوفا أو رياء والمغرم التزام ما لا يلزم والمعنى ان من الاعراب من يعتقد أن الذى ينفقه فى سبيل الله غرامة لانه لا ينفق ذلك الا خوفا من المسلمين أو مراآة لهم ولم يرد بذلك الانفاق وجه الله وثوابه (ويتربص) يعنى وينتظر (بكم الدوائر) يعنى بالموت وتقلب الزمان وصروفه التى تأتى مرة بالخير ومرة بالشر قال يمان بن رئاب يعنى تقلب الزمان فيموت الرسول ويظهر المشركون (عليهم دائرة السوء) يعنى بل تنقلب عليهم الزمان ويدور السوء والبلاء والحزن بهم ولا يرون فى

أرجاس لا سبيل الى تطهيرهم (ومأواهم جهنم) ومصيرهم النار يعنى وكفتهم النار عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوا عتابهم (جزاء بما كانوا يكسبون) أى يجزون جزاء كسبهم (يحلفون لكم لترضوا عنهم) أى غرضهم بالحلف بالله طلب رضاكم لينفعهم ذلك فى دنياهم (فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى فان رضاكم وحدكم لا ينفعهم اذا كان الله ساخطا عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها وانما قيل ذلك لئلا يتوهم ان رضا المؤمنين يقتضى رضا الله عنهم (الاعراب) أهل البدو (أشد كفرا ونفاقا) من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وبعدهم عن العلم والعلماء (وأجدر ان لا يعلموا) وأحق بان لا يعلموا (حدود ما أنزل الله على رسوله) يعنى حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والاحكام ومنه قوله عليه السلام ان الجفاء

والقسوة فى الفدادين يعنى الاكرة لانهم يفدون أى يصيحون فى حروثهم والفديد الصياح (والله عليم) باحوالهم (حكيم) فى امهالهم (ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق) أى يتصدق (مغرما) غرامة وخسرانا لانه لا ينفق الا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله وابتغاء المثوبة عنده (ويتربص بكم الدوائر) أى دوائر الزمان وتبدل الاحوال بدور الايام لتذهب غلبتكم عليه فيتخلص من اعطاء الصدقة (عليهم دائرة السوء) أى عليهم تدور المصائب والحروب التى يتوقعون وقوعها فى المسلمين السوء مكى

محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودينه الا بالسوء معهم (والله سميع) يعني لأقوالهم (عليم) يعني بما يخفون في ضمائرهم من النفاق والغش وإرادة السوء بالمؤمنين نزلت هذه الآية في أعراب أسد وغطفان وتميم ثم استثنى الله عز وجل فقال تبارك وتعالى (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) قال مجاهد هم بنو مقرن من مزينة وقال الكلبي هم أسلم وغفار وجهينة (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيرا من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر ابن صعصعة فقال رجل خابوا وخسروا فقال نعم هم خير من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة وفي رواية أن الأقرع بن حابس قال للنبي صلى الله عليه وسلم انما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرأيت ان كان أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة خيرا من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان قال خابوا وخسروا فقال نعم (ق) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها زاد مسلم في رواية أما اني لم أقلها لكن الله قالها (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله ۞ وقوله سبحانه وتعالى (ويتخذ ما ينفق قربات عند الله) جمع قربة أي يطلب بما ينفق القربة الى الله تعالى (وصلوات الرسول) يعني ويرغبون في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبي أوفى (ألا انها قربة لهم) يحتمل أن يعود الضمير في انها الى صلوات الرسول ويحتمل أن يعود الى الانفاق وكلاهما قربة لهم عند الله وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات عند الله وصلوات الرسول له مقبولة عند الله لأن الله سبحانه وتعالى أكد ذلك بحرف التنبيه وهو قوله تعالى ألا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى انها قربة لهم (سيدخلهم الله في رحمته) وهذه النعمة هي أقصى مرادهم (ان الله غفور) للمؤمنين المنفقين في سبيله (رحيم) يعني بهم حيث وفقهم لهذه الطاعة ۞ قوله سبحانه وتعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) اختلف العلماء في السابقين الأولين فقال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة هم الذين صلوا الى القبلتين وقال عطاء بن أبي رباح هم أهل بدر وقال الشعبي هم أهل بيعة الرضوان وكانت بيعة الرضوان بالحديبية وقال محمد بن كعب القرظي هم جميع الصحابة لأنهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حميد بن زياد قلت يوما لمحمد بن كعب القرظي ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينهم وأردت الفتن فقال ان الله قد غفر لجميعهم محسنهم ومسيئهم وأوجب لهم الجنة في كتابه فقلت له في أي موضع أوجب لهم الجنة فقال سبحان الله ألا تقرأ والسابقون الأولون الى آخر الآية فأوجب الله الجنة لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم زاد في رواية في قوله والذين اتبعوهم باحسان قال شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أعمالهم الحسنة دون السيئة قال حميد فكأني لم أقرأ هذه الآية قط واختلف العلماء في أول الناس اسلاما بعد اتفاقهم على أن خديجة أول الخلق اسلاما وأول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض العلماء أول من آمن بعد خديجة علي بن أبي طالب وهذا قول جابر بن عبد الله ثم اختلفوا في سنه وقت اسلامه فقيل كان ابن عشر سنين وقيل أقل من ذلك وقيل أكثر وقيل كان بالغا والصحيح أنه لم يكن بالغا وقت اسلامه وقال بعضهم أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس والنخعي والشعبي وقال الزهري وعروة بن الزبير أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اسحق بن ابراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي بن أبي طالب ومن العبيد زيد بن حارثة رضي الله

وأبو عمرو وهو العذاب والسوء بالفتح ذم للدائرة كقولك رجل سوء في مقابلة قولك رجل صدق (والله سميع) لما يقولون اذا توجهت عليهم الصدقة (عليم) بما يضمرونه (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق) في الجهاد والصدقات (قربات) أسبابا للقربة (عند الله) وهو مفعول ثان ليتخذ (وصلوات الرسول) أي دعاءه لأنه عليه السلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم كقوله اللهم صل على آل أبي أوفى (ألا انها) أي النفقة أو صلوات الرسول (قربة لهم) قربة نافع وهذا شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه وكذلك (سيدخلهم الله في رحمته) جنته وما في السين من تحقيق الوعد وما أدل هذا الكلام على رضا الله عن المتصدقين وان الصدقة منه بمكان اذا خلصت النية من صاحبها (ان الله غفور) يستر عيب المخل (رحيم) يقبل جهد المقل (والسابقون) مبتدأ (الأولون) صفة لهم (من المهاجرين) تبيين لهم وهم الذين صلوا الى القبلتين أو الذين شهدوا بدرا أو بيعة الرضوان (والأنصار) عطف على المهاجرين أي ومن الأنصار وهم أهل بيعة العقبة ... تعالى

أمانهم عنهم فهؤلاء الاربعة سبق الخلق الى الاسلام قال ابن اسحق فلما أسلم أبو بكر أظهر اسلامه ودعا الناس الى الله ورسوله وكان رجلا محببا سهلا وكان أنسب قريش لقريش وأعلمها بما كان فيها وكان رجلا تاجرا ذا خلق حسن ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه وحسن مجالسته فجعل يدعو الى الاسلام من يثق به من قومه فأسلم على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم الى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا على يديه وصلوا معه فكان هؤلاء النفر الثمانية أول من سبق الناس الى الاسلام ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول الى الاسلام وأما السابقون من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهي العقبة الاولى وكانوا ستة نفر أسعد بن زرارة وعوف بن مالك ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر وجابر بن عبد الله بن رئاب ثم أصحاب العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثني عشر رجلا ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا منهم البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة فهؤلاء سابقو الانصار ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير الى أهل المدينة يعلمهم القرآن فأسلم على يده خلق كثير من الرجال والنساء والصبيان من أهل المدينة وذلك قبل أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وقيل ان المراد بالسابقين الاولين من سبق الى الهجرة والنصرة والذي يدل عليه ان الله سبحانه وتعالى ذكرهم سابقين ولم يبين بماذا سبقوا في اللفظ محتملا فلما قال تعالى من المهاجرين والانصار وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصارا وجب صرف اللفظ المجمل اليه وهو الهجرة والنصرة والذي يدل عليه أيضا أن الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية من حيث ان الهجرة أمر شاق على النفس لمفارقة الوطن والعشيرة وكذلك النصرة فانها مرتبة عالية ومنقبة شريفة لانهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم فلذلك أثنى الله عز وجل عليهم ومدحهم فقال سبحانه وتعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار ﴿ قوله تعالى (والذين اتبعوهم باحسان) قيل هم بقية المهاجرين والانصار سوى السابقين الاولين فعلى هذا القول يكون الجميع من الصحابة وقيل هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والانصار الاولين والهجرة والنصرة الى يوم القيامة وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والانصار فيترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم (ق) عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدا وفي رواية أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه أراد بالقرن في الحديث الاول أصحابه والقرن الامة من الناس يقارن بعضهم بعضا واختلفوا في مدته من الزمان فقيل من عشر سنين الى عشرين وقيل من مائة الى مائة وعشرين سنة والمد المذكور في الحديث الثاني هو ربع صاع والنصيف هو النصف والمعنى لو أن أحدا عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والانفاق في سبيل الله ما بلغ هذا القدر اليسير من أعمال الصحابة وانفاقهم لانهم أنفقوا وبذلوا المجهود في وقت الحاجة وقوله سبحانه وتعالى (رضي الله عنهم ورضوا عنه) يعني رضي الله عن أعمالهم ورضوا عنه بما جازاهم عليها من الثواب وهذا اللفظ عام يدخل فيه كل الصحابة (وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) ﴿ قوله سبحانه وتعالى (وممن حولكم من الاعراب منافقون) ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي انهم من اعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وكانت منازلهم حول المدينة يعني ومن هؤلاء الاعراب منافقون وهذا ذكره مشكل لان النبي صلى الله عليه وسلم دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فان صح نقل المفسرين فيحمل قوله سبحانه وتعالى وممن حولكم من الاعراب منافقون

الاول وكانوا سبعة نفر وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين (والذين اتبعوهم باحسان) من المهاجرين والانصار فكانوا سائر الصحابة وقيل هم الذين اتبعوهم بالايمان والطاعة الى يوم القيامة والخبير (رضي الله عنهم) بطاعتهم الحسنة (ورضوا عنه) بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية (وأعد لهم) عطف على رضي (جنات تجري تحتها الانهار) من تحتها مكي (خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ومن حولكم) يعني حول بلدتكم وهي المدينة (من الاعراب منافقون) وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها

---

٢ قوله ستة نفر المعدودهنا خمسة والسادس عقبة بن عامر كذا في المواهب وقوله في الهامش سبعة تبع فيه الكشاف وهو مخالف لما في المواهب وما هنا اه

(ومن أهل المدينة) عطف على خبر المبتدأ الذى هو ومن حولكم والمبتدأ منافقون ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر اذا قدرت ومن أهل المدينة قوم (مردوا على النفاق) أى تمهروا فيه على أن مردوا صفة موصوف محذوف وعلى الوجه الاول لا يخلو من أن يكون كلاما مبتدأ أو صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره ودل على مهارتهم فيه بقوله (لا تعلمهم) أى يخفون عليك مع فطنتك وصدق فراستك لفرط تنوقهم فى تحامى ما يشككك فى أمرهم ثم قال (نحن نعلمهم) أى لا يعلمهم الا الله ولا يطلع على سرهم غيره لانهم يبطنون الكفر فى سويداء قلوبهم ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين (سنعذبهم مرتين) هما القتل وعذاب القبر أو الفضيحة وعذاب القبر أو أخذ الصدقات من أموالهم ونهك أبدانهم (ثم يردون الى عذاب عظيم) أى عذاب النار (وآخرون) أى قوم آخرون سوى المذكورين (اعترفوا بذنوبهم) أى لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا نادمين وكانوا عشرة فسبعة منهم لما بلغهم ما نزل فى المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت عادته كلما قدم من سفر فرآهم موثقين فسأل عنهم فذكر [illegible] والله انهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلهم فقال وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت

القليل لان لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبى صلى الله عليه وسلم لهم على الاكثر والاغلب وبهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين ودعاء النبى صلى الله عليه وسلم لهم وأما الطبرى فانه أطلق القول ولم يعين أحدا من القبائل المذكورة بل قال فى تفسير هذه الآية من القوم الذين حول مدينتكم أيها المؤمنون من الاعراب منافقون ومن أهل مدينتكم أيضا أمثالهم أقوام منافقون وقال البغوى (ومن أهل المدينة) من الاوس والخزرج منافقون (مردوا على النفاق) فيه تقديم وتأخير تقديره وممن حولكم من الاعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق يعنى مرنوا عليه يقال تمرد فلان على ربه اذا عتا وتجبر ومنه الشيطان المارد وتمرد فى معصيته أى مرن وثبت عليها واعتادها ولم يتب منها قال ابن اسحق لجوا فيه وأبوا غيره وقال ابن زيد أقاموا عليه ولم يتوبوا منه (لا تعلمهم) يعنى أنهم بلغوا فى النفاق الى حيث انك لا تعلمهم يا محمد مع صفاء خاطرك واطلاعك على الاسرار (نحن نعلمهم) يعنى لكن نحن نعلمهم لانه لا تخفى علينا خافية وان دقت (سنعذبهم مرتين) اختلف المفسرون فى العذاب الاول مع اتفاقهم على أن العذاب الثانى هو عذاب القبر بدليل قوله (ثم يردون الى عذاب عظيم) وهو عذاب النار فى الآخرة فثبت بهذا أنه سبحانه وتعالى يعذب المنافقين ثلاث مرات مرة فى الدنيا ومرة فى القبر ومرة فى الآخرة أما المرة الاولى وهى التى اختلفوا فيها فقال الكلبى والسدى قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا فى يوم جمعة فقال اخرج يا فلان فانك منافق اخرج يا فلان فانك منافق فأخرج من المسجد أناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الاول والثانى هو عذاب القبر فان صح هذا القول فيحتمل أن يكون بعد أن أعلمه الله حالهم وسماهم له لان الله سبحانه وتعالى قال لا تعلمهم نحن نعلمهم ثم بعد ذلك أعلمه بهم وقال مجاهد هذا العذاب الاول هو القتل والسبى وهذا القول ضعيف لان أحكام الاسلام فى الظاهر كانت جارية على المنافقين فلم يقتلوا ولم يسبوا وعن مجاهد رواية أخرى أنهم عذبوا بالجوع مرتين وقال قتادة المرة الاولى هى الدبيلة فى الدنيا وقد جاء تفسيرها فى الحديث بأنها خراج من نار تظهر فى أكتافهم حتى تنجم من صدورهم يعنى تخرج من صدورهم وقال ابن زيد الاولى هى المصائب فى الاموال والاولاد فى الدنيا والاخرى عذاب القبر وقال ابن عباس الاولى اقامة الحدود عليهم فى الدنيا والاخرى عذاب القبر وقال ابن اسحق الاولى هى ما يدخل عليهم من غيظ الاسلام ودخولهم فيه كرها غير حسبة والاخرى عذاب القبر وقيل احداهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم والاخرى عذاب القبر وقيل الاولى احراق مسجدهم مسجد الضرار والاخرى احراقهم بنار جهنم وهو قوله سبحانه وتعالى ثم يردون الى عذاب عظيم يعنى عذاب جهنم يخلدون فيه قوله عز وجل (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) فيه قولان أحدهما أنهم قوم من المنافقين تابوا من نفاقهم وأخلصوا وحجة هذا القول أن قوله تعالى وآخرون عطف على قوله وممن حولكم من الاعراب منافقون والعطف يوهم ويعضده ما نقله الطبرى عن ابن عباس أنه قال الاعراب والقول الثانى وهو قول جمهور المفسرين أنها نزلت فى جماعة من المسلمين من أهل المدينة تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك واختلف المفسرون فى عددهم فروى عن ابن عباس أنهم كانوا عشرة منهم أبو لبابة وروى عنه أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم كانوا ثمانية أحدهم أبو لبابة وقال قتادة والضحاك كانوا سبعة أحدهم أبو لبابة وقيل كانوا ثلاثة أبو لبابة بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ووديعة بن حزام وذلك أنهم كانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ثم ندموا بعد ذلك وتابوا وقالوا أنكون فى الظلال ومع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الجهاد واللأواء فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا

والله لا أوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقنا ويعذرنا فربطوا أنفسهم في سواري المسجد فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم مر بهم فرآهم فقال من هؤلاء فقالوا هؤلاء تخلفوا عنك فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فأنزل الله عز وجل هذه الآية فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فأطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا فأنزل الله خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الآية وقال قوم نزلت هذه الآية في أبي لبابة خاصة واختلفوا في ذنبه الذي تاب منه فقال مجاهد نزلت في أبي لبابة حين قال لبني قريظة إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه فندم على ذلك وربط نفسه بسارية وقال والله لا أحل نفسي ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه فأنزل الله هذه الآية فقيل له قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فحله بيده فقال أبو لبابة يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال يجزيك الثلث يا أبا لبابة قالوا جميعا فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلث أموالهم وترك لهم الثلثين لأن الله سبحانه وتعالى قال خذ من أموالهم ولم يقل خذ أموالهم لأن لفظة من تقتضي التبعيض وقال الحسن وقتادة وهؤلاء سوى الثلاثة الذين خلفوا وسيأتي خبرهم وأما تفسير الآية فقوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم قال أهل المعاني الاعتراف عبارة عن الإقرار بالشيء ومعناه أنهم أقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهي أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم بأعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على ما فعلوا فإن قلت الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا قلت مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة فإذا اقترن الاعتراف بالندم على الماضي من الذنب والعزم على تركه في المستقبل يكون ذلك الاعتراف والندم توبة ۞ وقوله سبحانه وتعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) قيل أراد بالعمل الصالح إقرارهم بالذنب وتوبتهم منه والعمل السيء هو تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل العمل الصالح هو خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سائر الغزوات والسيء هو تخلفهم عنه في غزوة تبوك وقيل إن العمل الصالح يعم جميع أعمال البر والطاعة والسيء ما كان ضده فعلى هذا تكون الآية في حق جميع المسلمين والحمل على العموم أولى وإن كان السبب مخصوصا بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وروى الطبري عن أبي عثمان قال ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله وآخرون اعترفوا بذنوبهم فإن قلت قد جعل كل واحد من العمل الصالح والسيء مخلوطا فما المخلوط به قلت إن الخلط عبارة عن الجمع المطلق وأما قولك خلطته فإنما يحسن في الموضع الذي يمتزج كل واحد من الخليطين بالآخر ويتغير به عن صفته الأصلية كقولك خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن فتنوب الواو عن الباء فيكون معنى الآية على هذا خلطوا عملا صالحا بآخر سيئا ذكره غالب المفسرين وأنكره الإمام فخر الدين الرازي وقال اللائق بهذا الموضع الجمع المطلق لأن العمل الصالح والعمل السيء إذا حصلا بقي كل واحد منهما على حاله كما هو مذهبنا فإن عندنا القول بالإحباط باطل فالطاعة تبقى موجبة للمدح والثواب والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب فقوله سبحانه وتعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فيه تنبيه على نفي القول بالمحابطة وأنه بقي كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر فليس إلا الجمع المطلق وقال الواحدي العرب تقول

فأطلقهم فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا فنزل خذ من أموالهم صدقة (خلطوا عملا صالحا) خروجا إلى الجهاد (وآخر سيئا) تخلفا عنه أو التوبة والإثم وهو من قولهم بعت الشاة شاة ودرهما أي شاة بدرهم فالواو بمعنى الباء لأن الواو للجمع والباء للإلصاق فيتناسبان أو المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر فكل واحد منهما مخلوط ومخلوط به كقولك خلطت الماء واللبن تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه بخلاف قولك خلطت الماء باللبن لأنك جعلت الماء مخلوطا واللبن مخلوطا به وإذا قلته بالواو فقد جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطا بهما كأنك قلت خلطت الماء باللبن واللبن بالماء

خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن كما تقول جئت زيدا وعمرا او لو اوفى الآية احسن من الباء لانه اريد
معنى الجمع لاحقيقة الخلط ألا ترى ان العمل الصالح لايختلط بالسيء كما يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع
بينهما ۞ وقوله سبحانه وتعالى (عسى الله أن يتوب عليهم) قال ابن عباس وجمهور المفسرين عسى من الله
واجب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى فعسى الله أن يأتي بالفتح وقد فعل ذلك وقال أهل المعاني لفظة عسى
هنا تفيد الطمع والاشفاق لانها أبعد من الاتكال والاهمال وقيل ان الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شئ بل
كل ما يفعله على سبيل التفضيل والتطول والاحسان فذكر لفظة عسى التي هي للترجي والطمع حتى يكون
العبد بين الترجي والاشفاق ولكن هو الى نيل ما يرجو منه أقرب لانه ختم الآية بقوله (ان الله غفور
رحيم) وهذا يفيد انجاز الوعد ۞ قوله سبحانه وتعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) قال
ابن عباس لما اطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة وصاحبيه انطلق أبو لبابة وصاحباه فأتوا بأموالهم
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خذ أموالنا وتصدق بها عنا وصل علينا يريدون استغفر لنا وطهرنا
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا آخذ منها شيئا حتى أومر به فأنزل الله عز وجل خذ من أموالهم صدقة
الآية وهذا قول زيد بن أسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ثم اختلف العلماء في المراد بهذه
الصدقة فقال بعضهم هو راجع الى هؤلاء الذين تابوا وذلك انهم بذلوا أموالهم صدقة فأوجب الله سبحانه
وتعالى أخذها وصار ذلك معتبرا في كل توبتهم لتكون جارية مجرى الكفارة وأصحاب هذا القول يقولون
ليس المراد بها الصدقة الواجبة وقال بعضهم ان الزكاة كانت واجبة عليهم فلما تابوا من تخلفهم عن الغزو
وحسن اسلامهم وبذلوا الزكاة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذها منهم وقال
بعضهم ان الآية كلام مبتدأ والمقصود منها ايجاب أخذها من الاغنياء ودفعها الى الفقراء وهذا قول أكثر
الفقهاء واستدلوا بها على ايجاب أخذ الزكاة ما حجة أصحاب القول الاول فانهم قالوا ان الآيات لا بد وأن
تكون منتظمة متناسبة فلو حملناها على أخذ الزكاة الواجبة لم يبق لهذه الآية تعلق بما قبلها ولا بما بعدها
ولان جمهور المفسرين ذكروا في سبب نزولها انها نزلت في شأن التائبين وأما أصحاب القول الاخير فانهم
قالوا المناسبة حاصلة أيضا على هذا التقدير وذلك أنهم لما تابوا وأخلصوا وأقروا أن السبب الموجب للتخلف
هو حب المال أمروا باخراج الزكاة التي هي طهرة فلما أخرجوها علمت صحة قولهم وصحة توبتهم ولا يمنع من
خصوص السبب عموم الحكم فان قالوا ان الزكاة قدر معلوم لا يبلغ ثلث المال وقد أخذ منهم ثلث أموالهم
قلنا لا يمنع هذا صحة ما قلناه لانهم رضوا ببذل الثلث من أموالهم فلان يكونوا راضين باخراج الزكاة أولى ثم
في هذه الآية أحكام الاول قوله سبحانه وتعالى خذ من أموالهم صدقة الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم أي
خذ يا محمد من أموالهم صدقة فكان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذها منهم أيام حياته ثم أخذها من بعده الائمة
فيجوز للامام أو نائبه ان يأخذ الزكاة من الاغنياء ويدفعها الى الفقراء الحكم الثاني قوله من أموالهم ولفظة
من تقتضي التبعيض وهذا البعض المأخوذ غير معلوم ولا مقدر بنص القرآن فلم يبق الا الصدقة التي بين
رسول الله صلى الله عليه وسلم قدرها وصفتها في أخذ الزكاة الحكم الثالث ظاهر قوله خذ من أموالهم صدقة
يفيد العموم فتجب الزكاة في جميع المال حتى في الديون وفي مال الركاز الحكم الرابع ظاهر قوله تطهرهم
ان الزكاة انما وجبت لكونها طهرة من الآثام وصدور الآثام لا يمكن حصولها الا من البالغ دون الصبي
فوجب ان تجب الزكاة في مال البالغ دون الصبي وهذا قول أبي حنيفة ثم أجاب أصحاب الشافعي بأنه لا يلزم
من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقا وللعلماء في قوله سبحانه وتعالى تطهرهم أقوال الاول أن معناه
خذ يا محمد من أموالهم صدقة فانك تطهرهم بأخذها من دنس الآثام القول الثاني أن يكون تطهرهم
متعلقا بالصدقة تقديره خذ من أموالهم صدقة فانها طهرة لهم وانما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء ان

(عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم) ولم يذكر توبتهم لانه ذكر اعترافهم بذنوبهم وهو دليل على التوبة (خذ من أموالهم صدقة) كفارة لذنوبهم وقيل هي الزكاة (تطهرهم عن) الذنوب وهو صفة لصدقة والتاء للخطاب أو لغيبة المؤنث والتاء في (وتزكيهم) للخطاب لاغالة (بها) بالصدقة والتزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه أو بمعنى الانماء والبركة في المال

الصدقة من أوساخ الناس فاذا أخذ الصدقة فقد اندفعت تلك الاوساخ وكان ذلك الاندفاع جاريا مجرى التطهير فعلى هذا القول يكون قوله سبحانه وتعالى وتزكيهم به منقطعا عن قوله تطهرهم ويكون التقدير خذيا محمد من أموالهم صدقة تطهرهم تلك الصدقة وتزكيهم أنت بها القول الثالث أن تجعل التاء في قوله تطهرهم وتزكيهم ضمير المخاطب ويكون المعنى تطهرهم أنت يا محمد بأخذ صدقاتهم وتزكيهم أنت بواسطة تلك الصدقة القول الرابع أن معناه تطهرهم من ذنوبهم وتزكيهم يعني ترفع منازلهم عن منازل المنافقين الى منازل الابرار المخلصين وقيل معنى وتزكيهم أي تنمي أموالهم ببركة أخذها منهم الحكم الخامس قوله سبحانه (وصل عليهم) يعني ادع لهم واستغفر لهم لان أصل الصلاة في اللغة الدعاء قال الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه السنة للامام اذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق فيقول آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت وقال بعضهم يجب على الامام أن يدعو للمتصدق وقال بعضهم يستحب ذلك وقيل يجب في صدقة الفرض ويستحب في صدقة التطوع وقيل يجب على الامام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطي وقال بعضهم يستحب أن يقول اللهم صل على فلان ويدل عليه ما روي عن عبد الله بن أبي أوفى وكان من أصحاب الشجرة قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أتاه قوم بصدقة قال اللهم صل عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال اللهم صل على آل أبي أوفى أخرجاه في الصحيحين ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (ان صلاتك) وقرئ صلواتك على الجمع (سكن لهم) يعني أن دعاءك رحمة لهم وقال ابن عباس طمأنينة لهم وقيل ان الله قد قبل منهم وقال أبو عبيدة تثبيت لقلوبهم وقيل أن السكن ما سكنت اليه النفس والمعنى أن صلواتك توجب سكون نفوسهم اليها والمعنى ان الله قد قبل توبتهم أو قبل زكاتهم (والله سميع) يعني لاقوالهم أو لدعائك لهم (عليم) يعني بنياتهم (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) هذه صيغة استفهام الا أن المقصود منه التقرير فبشر الله عز وجل هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ومعنى الآية ألم يعلم هؤلاء الذين تابوا ان الله تعالى يقبل التوبة الصادقة والصدقة الخالصة وقيل ان المراد بهذه الآية غير التائبين ترغيبا لهم في التوبة وبذل الصدقات وذلك أنه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالامس لا يكلمون ولا يجالسون فما بالهم اليوم فأنزل الله هذه الآية ترغيبا لهم في التوبة وقوله سبحانه وتعالى عن عباده قيل لا فرق بين عن عباده ومن عباده اذ لا فرق بين قولك أخذت هذا العلم عنك أو منك وقيل بينهما فرق ولعل عن في هذا الموضع أبلغ لان فيه تبشيرا بقبول التوبة مع تسهيل سبيلها ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (ويأخذ الصدقات) يعني يقبلها ويثيب عليها وانما ذكر لفظ الاخذ ترغيبا في بذل الصدقة واعطائها الفقراء وقيل معنى أخذ الله الصدقات تضمنه الجزاء عليها ولما كان هو المجازي عليها والمثيب بها أسند الاخذ الى نفسه وان كان الفقير أو السائل هو الآخذ لها وفي هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وان الله سبحانه وتعالى يقبلها من عبده المتصدق (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله الا الطيب الا أخذها الرحمن بيمينه وان كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله لفظ مسلم وفي البخاري من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد الى الله الا الطيب وفي رواية ولا يقبل الله الا الطيب فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل وأخرجه الترمذي ولفظه ان الله سبحانه وتعالى يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لاحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى ان اللقمة لتصير مثل جبل أحد وتصديق ذلك في كتاب الله سبحانه وتعالى ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويمحق الله الربا ويربي الصدقات قوله من كسب طيب أي حلال وذكر اليمين والكف في الحديث كناية عن قبول الصدقة وأن الله سبحانه وتعالى قد قبلها من المعطي لان من عادة الفقير أو

(وصل عليهم) واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم والسنة ان يدعو المصدق لصاحب الصدقة اذا أخذها (ان صلواتك) صلاتك كوفي غير أبي بكر فيل الصلاة أكثر من الصلوات لانها للجنس (سكن لهم) يسكنون اليه وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم (والله سميع) لدعائك أو سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم (عليم) بما في ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم (ألم يعلموا) المراد المتوب عليهم أي ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم (ان الله هو يقبل التوبة عن عباده) اذا صحت (ويأخذ الصدقات) ويقبلها اذا صدرت عن خلوص النية وهو للتخصيص أي ان ذلك ليس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انما الله هو الذي يقبل التوبة ويرد [illegible]

السائل أخذ الصدقة بكفه اليمين فكان المتصدق قد وضع صدقته في القبول والاثابة وقوله فتربو أي تكبر يقال ربا الشيء يربو اذا زاد وكبر والفلو بضم الفاء وفتحها المهر أول ما يولد والفصيل ولد الناقة الى أن يفصل عنها ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (وأن الله هو التواب الرحيم) تأكيد لقوله سبحانه وتعالى ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده وتبشير لهم بأن الله هو التواب الرحيم ﴿ قوله عز وجل (وقل) أي قل يا محمد لهؤلاء التائبين (اعملوا) يعني لله بطاعته وأداء فرائضه (فسيرى الله عملكم) فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال اجتهدوا في العمل في المستقبل فان الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها (ورسوله والمؤمنون) يعني ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون أعمالكم أيضا أما رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم فباطلاع الله اياه على أعمالكم وأما رؤية المؤمنين فبما يقذف الله عز وجل في قلوبهم من محبة الصالحين وبغض للمذنبين (وستردون الى عالم الغيب والشهادة) يعني وسترجعون يوم القيامة الى من يعلم سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه شيء من بواطنكم وظواهركم (فينبئكم) أي فيخبركم (بما كنتم تعملون) يعني في الدنيا من خير أو شر فيجازيكم على أعمالكم ﴿ قوله سبحانه وتعالى (وآخرون مرجون) أي مؤخرون والارجاء التأخير (لأمر الله) يعني لحكم الله فيهم قال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى قسم المتخلفين على ثلاثة أقسام أولهم المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق واستمروا عليه والقسم الثاني التائبون وهم الذين سارعوا الى التوبة بعد ما اعترفوا بذنوبهم وهم أبو لبابة وأصحابه فقبل الله توبتهم والقسم الثالث موقوفون ومؤخرون الى أن يحكم الله تعالى فيهم وهم المراد بقوله وآخرون مرجون لأمر الله والفرق بين القسم الثاني والقسم الثالث ان القسم الثاني سارعوا الى التوبة فقبل الله توبتهم وفي القسم الثالث توقفوا ولم يسارعوا الى التوبة فأخر الله أمرهم نزلت هذه الآية في الثلاثة الذين خلفوا وهم كعب ابن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وسيأتي قصتهم عند قوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا وذلك انهم لم يبالغوا في التاوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين ليلة ونهى الناس عن كلامهم وكانوا من أهل بدر فجعل بعض الناس يقول هلكوا وبعضهم يقول عسى الله أن يتوب عليهم ويغفر لهم وهو قوله سبحانه وتعالى (اما يعذبهم واما يتوب عليهم) يعني أن أمرهم الى الله تعالى ان شاء عذبهم بسبب تخلفهم وان شاء غفر لهم وعفا عنهم (والله عليم) يعني بما في قلوبهم (حكيم) يعني بما يقضي عليهم ﴿ قوله سبحانه وتعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا) نزلت في جماعة من المنافقين

وتجوزها الى (وأن الله هو التواب) كثير قبول التوبة (الرحيم) يعفو الحوبة ٧ (وقل) لهؤلاء التائبين (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أي فان عملكم لا يخفى خيرا كان أو شرا على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم أو غير التائبين ترغيبا لهم في التوبة فقد روي انه لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت وقوله تعالى فسيرى الله وعيد لهم وتحذير من عاقبة الاصرار والتحول عن التوبة (وستردون الى عالم الغيب) ما يغيب عن الناس (والشهادة) ما يشاهدونه (فينبئكم بما كنتم تعملون) تنبيه تذكير ومجازاة عليه (وآخرون مرجون لأمر الله) بغير همز مدني وكوفي غير أبي بكر مرجؤن غيرهم من أرجيته وأرجأته اذا أخرته ومنه المرجئة أي وآخرون من المتخلفين موقوفون الى أن يظهر أمر الله فيهم (اما يعذبهم) ان أصروا ولم يتوبوا (واما يتوب عليهم) ان تابوا وهم ثلاثة كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع تخلفوا عن غزوة تبوك وهم الذين ذكروا في قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا (والله عليم) بأحوالهم (حكيم) في ارجائهم واما للشك وهو راجع الى العباد أي خافوا عليهم العذاب وارجوا لهم الرحمة وروي أنه عليه السلام أمر أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ولم يفعلوا كما فعل ذلك الفريق من شد أنفسهم على السواري واظهار الجزع والغم فلما علموا أن أحدا لا ينظر اليهم فوضوا أمرهم الى الله وأخلصوا نياتهم ونصحت توبتهم فرحمهم الله (والذين اتخذوا مسجدا) تقديره ومنهم الذين اتخذوا والذين بغير واو مدني وشامي وهو مبتدأ خبره محذوف أي جازيناهم روي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم اخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا نبني مسجدا ونرسل الى رسول الله يصلي فيه ويصلي فيه أبو عامر الراهب اذا قدم من الشأم وهو الذي قال لرسول الله عليه السلام يوم أحد لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل يقاتله الى يوم حنين فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قباء وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة ونحن نحب أن تصلي لنا فيه فقال اني على جناح سفر واذا قدمنا ان شاء الله صلينا فيه فلما قفل من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزلت عليه فقال لوحشي قاتل حمزة ومعن بن عدي وغيرهما انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ومات أبو عامر بالشام (ضرارا) مفعول له وكذا ما بعده أي مضارة لاخوانهم أصحاب مسجد قباء (وكفرا) وتقوية للنفاق

المنافقين بنوا مسجد الضرار بني مسجد قباء وكانوا اثني عشر رجلا من أهل النفاق وديعة بن ثابت وخذام
ابن خالد ومن داره أخرج هذا المسجد وثعلبة بن حاطب وجارية بن عمرو وابناه مجمع وزيد ومعتب بن قشير
وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف وأبو حبيبة بن الأزعر ونبتل بن الحرث وبجاد بن عثمان وبحزج بنوا
هذا المسجد ضرارا يعني مضارة للمؤمنين وكفرا يعني ليكفروا فيه بالله ورسوله (وتفريقا بين المؤمنين)
لأنهم كانوا جميعا يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الاختلاف
وافتراق الكلمة وكان يصلي بهم فيه مجمع بن جارية وكان شابا يقرأ القرآن ولم يدر ما أرادوا ببنائه فلما فرغوا
من بنائه أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا
لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا تصلي فيه وتدعو بالبركة فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم إني على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا فيه ۞ وقوله سبحانه
وتعالى (وإرصادا لمن حارب الله ورسوله) يعني أنهم بنوا هذا المسجد ضرارا والكفر وبنوه إرصادا يعني
انتظارا وإعدادا لمن حارب الله ورسوله (من قبل) يعني من قبل بناء هذا المسجد وهو أبو عامر الراهب والد
حنظلة غسيل الملائكة وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وتنصر فلما قدم النبي صلى الله
عليه وسلم المدينة قال له أبو عامر ما هذا الدين الذي جئت به فقال له النبي صلى الله عليه وسلم جئت بالحنيفية
دين إبراهيم فقال أبو عامر فأنا عليها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم إنك لست عليها قال أبو عامر بلى ولكنك
أدخلت في الحنيفية ما ليس منها فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية فقال أبو
عامر أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال النبي صلى الله عليه وسلم آمين وسماه الناس أبا عامر
الفاسق فلما كان يوم أحد قال أبو عامر الفاسق للنبي صلى الله عليه وسلم لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك
معهم فلم يزل كذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يئس أبو عامر وخرج هاربا إلى الشام وأرسل إلى
المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجدا فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي
بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء فذلك قوله سبحانه وتعالى
وإرصادا يعني انتظارا لمن حارب الله ورسوله يعني أبا عامر الفاسق ليصلي فيه إذا رجع من الشام من قبل
يعني أن أبا عامر الفاسق حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار (وليحلفن) يعني الذين بنوا المسجد
(إن أردنا) يعني ما أردنا ببنائه (إلا الحسنى) يعني إلا الفعلة الحسنى وهي الرفق بالمسلمين والتوسعة
على أهل الضعف والعجز عن الصلاة في مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم (والله يشهد إنهم
لكاذبون) يعني في قيلهم وحلفهم روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما انصرف من تبوك راجعا نزل بذي
أوان وهو موضع قريب من المدينة فأتاه المنافقون وسألوه أن يأتي مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه
ويأتيهم فأنزل الله هذه الآية وأخبره خبر مسجد الضرار وما هموا به فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم
مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله
فاهدموه وأحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك
أنظروني حتى أخرج إليكم بنار فدخل أهله فأخذ من سعف النخل فأشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا
المسجد وفيه أهله فأحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ ذلك
الموضع كناسة تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة ومات أبو عامر الراهب بالشام غريبا وحيدا وروي أن بني
عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب في خلافته فسألوه أن يأذن لمجمع بن جارية أن
يؤمهم في مسجدهم فقال لا ولا نعمة عين أليس هو إمام مسجد الضرار قال مجمع يا أمير المؤمنين لا تعجل علي
والله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه وكنت غلاما قارئا للقرآن وكانوا

(وتفريقا بين المؤمنين)
لأنهم كانوا يصلون مجتمعين
في مسجد قباء فأرادوا أن
يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم
(وإرصادا لمن) وإعدادا
لأجل من (حارب الله
ورسوله) وهو الراهب
أعدوه له ليصلي فيه ويظاهر
على رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقيل كل مسجد بني
مباهاة أو رياء أو سمعة أو
لغرض سوى ابتغاء وجه
الله أو بمال غير طيب فهو
لاحق بمسجد الضرار (من
قبل) متعلق بحارب أي من
قبل بناء هذا المسجد يعني
يوم الخندق (وليحلفن)
كاذبين (إن أردنا إلا
الحسنى) ما أردنا ببناء هذا
المسجد إلا الخصلة الحسنى
وهي الصلاة وذكر الله
والتوسعة على المصلين
(والله يشهد إنهم لكاذبون)
في حلفهم

شيئا لا يعرفون فصليت بهم ولا أحسب الا أنهم يتقربون الى الله ولم أعلم ما في أنفسهم فعذره عمر وأمره بالصلاة في مسجد قباء قال عطاء لما فتح الله على عمر بن الخطاب الامصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم ان لا يبنوا في موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر وقوله سبحانه وتعالى (لا تقم فيه أبدا) قال ابن عباس معناه لا تصل فيه أبدا منع الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصلي في مسجد الضرار (لمسجد أسس على التقوى) اللام فيه لام الابتداء وقيل لام القسم تقديره والله لمسجد أسس يعني بني أصله ووضع أساسه على التقوى يعني على تقوى الله عز وجل (من أول يوم) يعني من أول يوم بني ووضع أساسه كان ذلك البناء على التقوى (أحق أن تقوم فيه) يعني مصليا واختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى فقال ابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني مسجد المدينة ويدل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه فقلت يا رسول الله أي المسجدين أسس على التقوى قال فأخذ كفا من حصى فضرب به الارض ثم قال هو مسجدكم هذا لمسجد المدينة أخرجه مسلم (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي (ق) عن عبد الله بن زيد المازني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة عن أم سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان قوائم منبري هذه رواتب في الجنة أخرجه النسائي قوله رواتب يعني ثوابت يقال رتب بالمكان اذا أقام فيه وثبت وفي رواية عن ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة أنه مسجد قباء ويدل عليه سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ويدل على أنهم أهل قباء ما روي عن أبي هريرة قال نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت هذه الآية فيهم أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث غريب هكذا ذكره صاحب جامع الاصول من رواية أبي داود والترمذي موقوفا على أبي هريرة ورواه البغوي من طريق أبي داود مرفوعا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ومما يدل على فضل مسجد قباء ما روي عن ابن عمر قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يزور قباء أو يأتي قباء راكبا وماشيا زاد في رواية فيصلي فيه ركعتين وفي رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتي مسجد قباء كل سبت راكبا وماشيا وكان ابن عمر يفعله أخرج الرواية الاولى والزيادة البخاري ومسلم وأخرج الرواية الثانية البخاري عن سهل بن حنيف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج حتى يأتي هذا المسجد مسجد قباء فيصلي فيه كان له كعدل عمرة أخرجه النسائي عن أسيد بن ظهير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الصلاة في مسجد قباء كعمرة أخرجه الترمذي ۞ وقوله سبحانه وتعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) يعني من الاحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول أكثر المفسرين قال عطاء ولما كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة وروى الطبري بسنده عن عويم بن ساعدة وكان من أهل بدر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاهل قباء اني أسمع الله عز وجل قد أحسن عليكم الثناء في الطهور فما هذا الطهور قالوا يا رسول الله ما نعمل شيأ الا أن جيرانا لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا وعن قتادة قال ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لاهل قباء ان الله سبحانه وتعالى قد أحسن الثناء في الطهور فما تصنعون قالوا انا نغسل عنا أثر الغائط والبول وقال الامام فخر الدين الرازي المراد من الطهارة الطهارة من الذنوب والمعاصي وهذا القول متعين لوجوه الاول أن التطهر من الذنوب هو المؤثر في القرب من الله عز وجل واستحقاق ثوابه ومدحه الوجه الثاني أن الله سبحانه وتعالى وصفهم

(لا تقم فيه أبدا) للصلاة (لمسجد أسس على التقوى) اللام للابتداء وأسس نعت له وهو مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهي يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة أو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة (من أول يوم) من أيام وجوده قيل القياس فيه مذ لانه لابتداء الغاية في الزمان ومن لابتداء الغاية في المكان والجواب ان من عام في الزمان والمكان (أحق أن تقوم فيه) مصليا (فيه رجال يحبون أن يتطهروا)

والله يحب المطهرين) قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه السلام أترضون بالقضاء قالوا نعم قال أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال أتشكرون في الرخاء قالوا نعم قال عليه السلام مؤمنون أنتم ورب الكعبة فجلس ثم قال يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا النبي عليه السلام رجال يحبون أن يتطهروا قيل هو عام في التطهر عن النجاسات كلها وقيل هو التطهر من الذنوب بالتوبة ومعنى محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء ومعنى محبة الله إياهم أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه (أفمن أسس بنيانه) وضع أساس ما يبنيه (على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) هذا سؤال تقرير وجوابه مسكوت عنه لوضوحه والمعنى أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة وهي تقوى الله ورضوانه خير أم من أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلة الثبات والاستمساك وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى لأنه جعل مجازا عما ينافي التقوى والشفا الحرف والشفير وجرف الوادي جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيا والهار الهائر وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط ووزنه فعل قصر عن فاعل كخلف من خالف وألفه ليست بألف فاعل إنما هي عينه وأصله هور فقلبت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدل على حقيقة الباطل وكنهه أفمن أسس بنيانه أم من أسس بنيانه شامي ونافع جرف شامي وحمزة ويحيى هار بالإمالة أبو عمرو وحمزة في رواية ويحيى (فانهار به في نار جهنم) فطاح به الباطل في نار جهنم ولما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف وليصور أن المبطل كأنما أسس بنيانه على شفا جرف هار من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها قال جابر رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حين انهار (والله لا يهدي القوم الظالمين) لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم) لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم

الضرار بعمارة المسلمين والتعريض بهم والكفر بالله وكون هؤلاء يعني أهل قباء متطهرين من صفاتهم وما ذاك إلا لكونهم متطهرين من الكفر والمعاصي وهي الطهارة الباطنية الوجه الثاني أن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر عند الله إذا حصلت الطهارة الباطنة من الكفر والمعاصي وقيل يحتمل أنه محمول على كلا الأمرين يعني طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصي وطهارة الظاهر من الأحداث والنجاسات بالماء (والله يحب المطهرين) فيه مدح لهم وثناء عليهم والرضا عنهم بما اختاروه لأنفسهم من المداومة على محبة الطهارة ۞ قوله سبحانه وتعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان) يعني طلب ببنائه المسجد الذي بناه تقوى الله ورضاه والمعنى أن الباني لما بنى ذلك البناء كان قصده تقوى الله وطلب رضاه وثوابه (خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) الشفا هو الشفير وشفا كل شيء حرفه ومنه يقال أشفى على كذا إذا دنا منه وقرب أن يقع فيه والجرف المكان الذي أكل الماء تحته فهو إلى السقوط قريب وقال أبو عبيد الجرف هو الهوة وما يجرفه السيل من الأودية فينحفر بالماء فيبقى واهيا هار أي هائر وهو الساقط يقال هار يهور فهو هائر وقيل من هار يهار إذا انهدم وسقط وهو الذي تداعى بعضه في إثر بعض كما ينهار الرمل والشيء الرخو (فانهار به) يعني سقط بالباني (في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) والمعنى أن بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهله فيها وهذا مثل ضربه الله تعالى للمسجدين مسجد الضرار ومسجد التقوى مسجد قباء أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى المثل أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهو الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه خير أم من أسس دينه على أضعف القواعد وأقلها بقاء وثباتا وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل بناء على غير أساس ثابت وهو شفا جرف هار وإذا كان كذلك كان أسرع إلى السقوط في نار جهنم ولأن الباني الأول قصد ببنائه تقوى الله ورضوانه فكان بناؤه أشرف البناء والباني الثاني قصد ببنائه الكفر والنفاق والإضرار بالمسلمين فكان بناؤه أخس البناء وكانت عاقبته إلى نار جهنم قال ابن عباس صيرهم نفاقهم إلى النار وقال قتادة والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع في النار ولقد ذكر لنا أنه حفرت بقعة منه فرئي الدخان يخرج منها وقال جابر بن عبد الله رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة) يعني شكا ونفاقا (في قلوبهم) والمعنى أن ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة في قلوبهم لأن المنافقين فرحوا ببناء مسجدهم فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازدادوا غما وحزنا وبغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك سبب الريبة في قلوبهم وقيل إنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه كما حبب العجل إلى بني إسرائيل فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه بقوا شاكين مرتابين لأي سبب أمر بتخريبه وقال السدي لا يزال

(الا أن تقطع قلوبهم) شامي وحمزة وحفص أي تتقطع غيرهم تقطع أي الا أن تقطع قلوبهم قطعا وتفرق أجزاء فحينئذ
مادامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة ثم يجوز أن يكون ذكر التقطع تصويرا لحال زوال الريبة عنها ويجوز أن يرا
وماهو كائن منه بقتلهم أوفي القبور أوفي النار ومعناه الا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم

(والله عليم) بعزائمهم (حكيم) في جزاء جرائمهم (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة) مثل الله اثابتهم الجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشراء وروى تاجرهم فأغلى لهم الثمن وعن الحسن أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم اعرابي وهو يقرؤها فقال بيع والله مربح لانقيله ولا نستقيله فخرج الى الغزو واستشهد (يقاتلون في سبيل الله) بيان محل التسليم (فيقتلون ويقتلون) أي تارة يقتلون العدو وطورا يقتلهم العدو فيقتلون ويقتلون حمزة وعلي (وعدا عليه) مصدر أي وعدهم بذلك وعدا (حقا) صفته أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبته (في التوراة والانجيل والقرآن) وهو دليل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال ووعدوا عليه ثم قال (ومن أوفى بعهده من الله) لان اخلاف الميعاد قبيح لايقدم عليه الكريم منا فكيف بأكرم الاكرمين ولاترى ترغيبا في الجهاد أحسن منه وأبلغ (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) فافرحوا غاية الفرح فانكم تبيعون فانيا بباق (وذلك هو الفوز العظيم) قال الصادق ليس لابدانكم ثمن الا الجنة فلا تبيعوها الا بها (التائبون) رفع على المدح أي هم التائبون يعني المؤمنين المذكورين أو هو مبتدأ خبره (العابدون) أي الذ

حسم منها بهم ريبة أي حرارة وغيظا في قلوبهم (الا أن تقطع قلوبهم) أي تجعل قلوبهم قطعا وتفرق أ... اما بالسيف واما بالموت والمعنى أن هذه الريبة باقية في قلوبهم الى أن يموتوا عليها (والله عليم) يعني وأحوال جميع عباده (حكيم) يعني فيما حكم به عليهم ﴿ قوله عز وجل (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة) الآية قال محمد بن كعب القرظي لما بايعت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلا قال عبد الله بن رواحة اشترط لربك ولنفسك ماشئت قال أشترط لربي أن تعبدوه ولاتشركوا به شيأ وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا اذا فعلنا ذلك فما لنا قال الجنة قالوا ربح البيع لانقيل ولا نستقيل فنزلت ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة قال ابن عباس بالجنة قال أهل المعاني لايجوز أن يشترى الله شيأ هو له في الحقيقة لان المشتري انما يشتري مالايملك والاشياء ملك لله عز وجل ولهذا قال الحسن أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها ولكن جرى هذا مجرى التلطف في الدعاء الى الطاعة والجهاد وذلك لان المؤمن اذا قاتل في سبيل الله حتى يقتل أو أنفق ماله في سبيل الله عوضه الله الجنة في الآخرة جزاء بما فعل في الدنيا فجعل ذلك استبدالا واشتراء فهذا معنى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة والمراد باشتراء الاموال انفاقها في سبيل الله في جميع وجوه البر والطاعة (يقاتلون في سبيل الله) هذا تفسير لتلك المبايعة وقيل فيه معنى الامر أي قاتلوا في سبيل الله (فيقتلون ويقتلون) يعني فيقتلون أعداء الله ويقتلون في طاعة الله وسبيله (وعدا عليه حقا) يعني ذلك الوعد بان لهم الجنة وعدا على الله حقا (في التوراة والانجيل والقرآن) يعني ان هذا الوعد وعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله قد أثبته في التوراة والانجيل كما أثبته في القرآن وفيه دليل على أن الامر بالجهاد موجود في جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل (ومن أوفى بعهده من الله) يعني لا أحد أوفى بالعهد من الله (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) يعني فاستبشروا أيها المؤمنون بهذا البيع الذي بايعتم به (وذلك) يعني هذا البيع (هو الفوز العظيم) لانه رابح في الآخرة قال عمر بن الخطاب ان الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال الحسن اسمعوا الى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن ... أعطاك الدنيا فاشترى الجنة ببعضها وقال قتادة ثامنهم فأغلى لهم ﴿ قوله سبحانه وتعالى (التائبون) قال الفراء استؤنفت لفظة التائبون بالرفع لتمام الآية الاولى وانقطاع الكلام وقال الزجاج التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر والمعنى التائبون الى آخره لهم الجنة أيضا وان لم يجاهدوا غير معاندين ولا قاصدين لترك الجهاد وهذا وجه حسن فكأنه وعد بالجنة جميع المؤمنين كما قال تعالى وكلا وعد الله الحسنى ومن جعله تابعا للاول كان الوعد بالجنة خاصا بالمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات فيكون رفع التائبون على المدح يعني المؤمنين المذكورين في قوله ان الله اشترى وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى التائبون يعني الذين تابوا من الشرك وبرؤا من النفاق وقيل التائبون من كل معصية فيدخل فيه التوبة من الكفر وقيل التائبون من جميع المعاصي لان لفظ التائبين لفظ عموم فيتناول الكل واعلم أن التوبة المقبولة انما تحصل بامور أربعة أولها احتراق القلب عند صدور المعصية وثانيها الندم على فعلها فيما مضى وثالثها العزم على تركها في المستقبل ورابعها أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضوان الله وعبوديته فان كان غرضه بالتوبة تحصيل مدح الناس له أو دفع مذمتهم فليس بمخلص في توبته (العابدون) يعني

يعني الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم وقيل هم الذين أتوا بالعبادة على أقصى وجوه التعظيم لله تعالى ورضوا أن يكون العبادة خالصة لله تعالى (الحامدون) يعني الذين يحمدون الله تعالى على كل حال في السراء والضراء روى البغوي بسنده عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء وقيل هم الذين يحمدون الله ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى (السائحون) قال ابن مسعود وابن عباس هم الصائمون قال سفيان بن عيينة إنما سمي الصائم سائحا لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح وقال الأزهري قيل للصائم سائح لأن الذي يسيح في الأرض متعبدا لا زاد معه كان ممسكا عن الأكل وكذلك الصائم يمسك عن الأكل وقيل أصل السياحة استمرار الذهاب في الأرض كالماء الذي يسيح والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المنهي وقال عطاء السائحون هم الغزاة المجاهدون في سبيل الله ويدل عليه ما روي عن عثمان بن مظعون قال قلت يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ذكره البغوي بغير سند وقال عكرمة السائحون هم طلبة العلم لأنهم ينتقلون من بلد إلى بلد في طلبه وقيل إن السياحة لها أثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين أخلاقها لأن السائح لا بد أن يلقى أنواعا من الضر والبؤس ولا بد له من الصبر عليها ويلقى العلماء والصالحين في سياحته فيستفيد منهم ويعود عليه من بركتهم ويرى العجائب وآثار قدرة الله تعالى فيتفكر في ذلك فيدله على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته (الراكعون الساجدون) يعني المصلين والمعبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما معظم أركانها وبهما يتميز المصلي من غير المصلي بخلاف حالة القيام والقعود لأنهما حالة المصلي وغيره (الآمرون بالمعروف) يعني يأمرون الناس بالإيمان بالله وحده (والناهون عن المنكر) يعني عن الشرك بالله وقيل إنهم يأمرون الناس بالحق في أديانهم واتباع الرشد والهدى والعمل الصالح وينهونهم عن كل قول وفعل نهى الله عباده عنه أو نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحسن أما إنهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من أهله ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه وأما دخول الواو في والناهون عن المنكر فإن العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله سبحانه وتعالى وثامنهم كلبهم وقوله تعالى في صفة الجنة وفتحت أبوابها وقيل فيه وجه آخر وهو أن الموصوفين بهذه الصفات الست هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر فعلى هذا يكون قوله تعالى التائبون إلى قوله الساجدون مبتدأ خبره الآمرون يعني هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر (والحافظون لحدود الله) قال ابن عباس يعني القائمين بطاعة الله وقال الحسن الحافظون لفرائض الله وهم أهل الوفاء ببيعة الله وقيل هم المؤدون فرائض الله المنتهون إلى أمره ونهيه فلا يضيعون شيئا من العمل الذي ألزمهم به ولا يرتكبون منهيا نهاهم عنه (وبشر المؤمنين) يعني بشر يا محمد المصدقين بما وعدهم الله به إذا وفوا الله تعالى بعهده فإنه موف لهم بما وعدهم من إدخال الجنة وقيل وبشر من فعل هذه الأفعال التسع وهو قوله تعالى التائبون إلى آخر الآية بأن له الجنة وإن لم يغز ۞ قوله عز وجل (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) الآية واختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية فقال قوم نزلت في شأن أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر له بعد موته فنهاه الله عن ذلك ويدل على ذلك ما روي عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حزن قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله

وحده وأخلصوا له العبادة وما بعده خبر بعد خبر أي التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال وعن الحسن هم الذين تابوا من الشرك وتبرؤوا من النفاق (الحامدون) على نعمة الإسلام (السائحون) الصائمون لقوله عليه السلام سياحة أمتي الصيام أو طلبة العلم لأنهم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه أو السائرون في الأرض للاعتبار (الراكعون الساجدون) المحافظون على الصلوات (الآمرون بالمعروف) بالإيمان والمعرفة والطاعة (والناهون عن المنكر) عن الشرك والمعاصي ودخلت الواو للإشعار بأن السبعة عقد تام أو للتضاد بين الأمر والنهي كما في قوله ثيبات وأبكارا (والحافظون لحدود الله) أوامره ونواهيه أو معالم الشرع (وبشر المؤمنين) المتصفين بهذه الصفات وهم عليه السلام أن يستغفر لأبي طالب فنزل (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) أي ما صح

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى وأنزل الله في أبي طالب إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء أخرجاه في الصحيحين فإن قلت قد استبعد بعض العلماء نزول هذه الآية في شأن أبي طالب وذلك أن وفاته كانت بمكة أول الإسلام ونزول هذه السورة بالمدينة وهي من آخر القرآن نزولا قلت الذي نزل في أبي طالب قوله تعالى إنك لا تهدي من أحببت فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك ما لم أنه عنك كما في الحديث فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان يستغفر له في بعض الأوقات إلى أن نزلت هذه الآية فمنع من الاستغفار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه عند الموت قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة فأبى فأنزل الله إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء الآية وفي رواية قال لولا أن تعيرني قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله الآية (ق) عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عنده عمه أبو طالب فقال لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه تغلي منه أم دماغه وفي رواية يغلي منه دماغه من حرارة نعليه (ق) عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قلت يا رسول الله ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار وفي رواية قال قلت يا رسول الله إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل ينفعه ذلك قال نعم وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح وقال أبو هريرة وبريدة لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وروى الطبري بسنده عن بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أتى رسم قال وأكثر ظني أنه قال قبر أمه فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبرا فقلنا يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت قال إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يؤذن لي فما رؤي باكيا أكثر من يومئذ وحكى ابن الجوزي عن بريدة قال إن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبر أمه فتوضأ وصلى ركعتين ثم بكى فبكى الناس لبكائه ثم انصرف إليهم فقالوا ما أبكاك قال مررت بقبر أمي فصليت ركعتين ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها فنهيت فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين فاستأذنت ربي أن أستغفر لها فزجرت زجرا فأبكاني ثم دعا براحلته فركبها فما سار إلا هنيهة حتى قامت الناقة لثقل الوحي فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى الآية (ق) عن أبي هريرة قال زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت وقال قتادة قال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه فأنزل الله هذه الآية وروى الطبري بسنده عنه قال ذكر لنا أن رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالذمم أفلا نستغفر لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلى والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه فأنزل الله عز وجل ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية ثم عذر الله إبراهيم فقال تعالى وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه الآية عن علي بن أبي طالب قال سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية أخرجه النسائي والترمذي وقال حديث حسن وأخرجه الطبري وقال فيه فأنزل الله عز وجل وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه الآية ومعنى

الآية ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وليس لهم ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا يغفر للمشركين ولا يجوز أن يطلب منه ما لا يفعله ففيه النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى لأن النهي عن الاستغفار للمشركين عام فيستوي فيه القريب والبعيد ﴿ ثم ذكر الله عز وجل سبب المنع فقال تعالى (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) يعني من بعد ما تبين لهم أنهم ماتوا على الشرك فهم من أصحاب الجحيم وأيضاً فقد قال تبارك وتعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به والله تعالى لا يخلف وعده ﴿ أما قوله سبحانه وتعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) فمعناه وما كان طلب إبراهيم لأبيه المغفرة من الله إلا من أجل موعدة وعدها إبراهيم أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما أنزل الله خبراً عن إبراهيم أنه قال سلام عليك سأستغفر لك ربي سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال أولم يستغفر إبراهيم لأبيه فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم إلى قوله إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك يعني أن إبراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار لأنه إنما استغفر لأبيه وهو مشرك لمكان الوعد الذي وعده أن يسلم (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) فعلى هذا الهاء في إياه راجعة إلى إبراهيم والوعد كان من أبيه وذلك أن أبا إبراهيم وعد إبراهيم أن يسلم فقال إبراهيم سأستغفر لك ربي يعني إذا أسلمت وقيل إن الهاء راجعة إلى الأب وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه ويؤكده قوله سأستغفر لك ربي ويدل عليه أيضاً قراءة الحسن وعدها أباه بالباء الموحدة فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه يعني فلما ظهر لإبراهيم وبان له أن أباه عدو لله يعني بموته على الكفر تبرأ منه عند ذلك وقيل يحتمل أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى إبراهيم أن أباه عدوه فتبرأ منه وقيل إنما تبين له في الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي فيقول الله تبارك وتعالى إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار أخرجه البخاري زاد غيره فتبرأ منه والقترة غبرة يعلوها سواد والذيخ بالذال المعجمة ثم ياء مثناة من تحت ثم خاء معجمة هو ذكر الضباع والأنثى ذيخة ﴿ وقوله تبارك وتعالى (إن إبراهيم لأواه حليم) جاء في الحديث أن الأواه الخاشع المتضرع وقال ابن مسعود الأواه الكثير الدعاء وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو المؤمن التواب وقال الحسن وقتادة الأواه الرحيم بعباد الله وقال مجاهد الأواه الموقن وقال كعب الأحبار هو الذي يكثر التأوه وكان إبراهيم صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول أوه من النار قبل أن لا ينفع أوه وقال عقبة بن عامر الأواه الكثير الذكر لله عز وجل وقال سعيد بن جبير هو المسبح وعنه أنه المعلم للخير وقال عطاء هو الراجع عما يكره الله الخائف من النار وقال أبو عبيدة هو المتأوه شفقاً وفرقاً المتضرع يقيناً ولزوماً للطاعة وقال الزجاج انتظم في قول أبي عبيدة جميع ما قيل في الأواه وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت تنفس الصعداء والفعل منه أوه وهو قول الرجل عند شدة خوفه وحزنه أوه والسبب فيه أن عند الحزن تحمى الروح داخل القلب ويشتد حرها فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق في القلب ليخفف بعض ما به من الحزن والشدة وأما الحليم فمعناه ظاهر وهو الصفوح عمن سبه أو أتاه بمكروه ثم يقابله بالإحسان واللطف كما فعل إبراهيم بأبيه حين قال له لئن لم تنته لأرجمنك فأجابه إبراهيم بقوله سلام عليك سأستغفر لك ربي وقال ابن عباس الحليم السيد وإنما وصف الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بهذين الوصفين وهما شدة الرقة والخوف والوجل والشفقة على عباد الله ليبين سبحانه وتعالى أنه مع هذه الصفات الجليلة الحميدة تبرأ من أبيه لما ظهر له إصراره على الكفر فاقتدوا

وحكمته (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك ثم ذكر عذر إبراهيم فقال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) أي وعد أبوه إياه أن يسلم أو هو وعد أباه أن يستغفر وهو قوله لأستغفرن لك دليله قراءة الحسن وعدها أباه ومعنى استغفاره سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم أو سؤاله إعطاء الإسلام الذي به يغفر له (فلما تبين) من جهة الوحي (له) لإبراهيم (أنه) أن أباه (عدو لله) بأن يموت كافراً وانقطع رجاؤه عنه (تبرأ منه) وقطع استغفاره (إن إبراهيم لأواه) هو المتأوه شفقاً وفرقاً ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته كان يتعطف على أبيه الكافر (حليم) هو الصبور على البلاء الصفوح عن الأذى لأنه كان يستغفر لأبيه وهو يقول لأرجمنك

به أنتم في هذه الحالة يقينا ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم) يعني وما كان الله ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين بعد أن رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله وذلك أنه لما منع المؤمنين من الاستغفار للمشركين وكانوا قد استغفروا لهم قبل المنع خافوا ما صدر منهم فأعلمهم أن ذلك ليس بضائرهم (حتى يبين لهم ما يتقون) يعني ما يأتون وما يذرون وهو أن ينهى عن ذلك الفعل فأما قبل النهي فلا حرج عليهم في فعله وقيل إن جماعة من المسلمين كانوا قد ماتوا قبل النهي عن الاستغفار للمشركين فلما منعوا من ذلك وقع في قلوب المؤمنين خوف على من مات على ذلك فأنزل الله عز وجل هذه الآية وبين أنه لا يؤاخذهم بعمل إلا بعد أن يبين لهم ما يجب عليهم أن يتقوه ويتركوه وقال مجاهد بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة وقال الضحاك وما كان الله ليعذب قوما حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون وقال مقاتل والكلبي هذا في أمر المنسوخ وذلك أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا قبل تحريم الخمر وصرف القبلة إلى الكعبة ورجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة إلى الكعبة ولا علم لهم بذلك ثم قدموا بعد ذلك إلى المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت إلى الكعبة فقالوا يا رسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن على ضلال فأنزل الله عز وجل وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم يعني وما كان الله ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يبين الناسخ (إن الله بكل شيء عليم) يعني أنه سبحانه وتعالى عليم بما خالط نفوسكم من الخوف عند ما نهاكم عن الاستغفار للمشركين ويعلم ما يبين لكم من أوامره ونواهيه (إن الله له ملك السموات والأرض) يعني أنه سبحانه وتعالى هو القادر على ملك السموات والأرض وما فيهما عبيده وملكه يحكم فيهم بما يشاء (يحيي ويميت) يعني أنه تعالى يحيي من يشاء على الإيمان ويميته عليه ويحيي من يشاء على الكفر ويميته عليه لا اعتراض لأحد عليه في حكمه وعبيده (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) يعني أنه تعالى هو وليكم وناصركم ليس لكم غيره يمنعكم من عدوكم وينصركم عليهم ﴿ قوله عز وجل (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) الآية تاب الله بمعنى تجاوز وصفح عن النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار ومعنى توبته على النبي صلى الله عليه وسلم عدم مؤاخذته بإذنه للمنافقين بالتخلف في غزوة تبوك وهو كقوله سبحانه وتعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم فهو من باب ترك الأفضل لا أنه ذنب يوجب عقابا وقال أصحاب المعاني هو مفتاح كلام للتبرك كقوله سبحانه وتعالى فأن لله خمسه ومعنى هذا أن ذكر النبي بالتوبة عليه تشريف للمهاجرين والأنصار في ضم توبتهم إلى توبة النبي صلى الله عليه وسلم كما ضم اسم الرسول إلى اسم الله في قوله فأن لله خمسه وللرسول فهو تشريف له وأما معنى توبة الله على المهاجرين والأنصار فلأجل ما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود عن غزوة تبوك لأنها كانت في وقت شديد وبما وقع في قلوب بعضهم أنا لا نقدر على قتال الروم وكيف لنا بالخلاص منهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم ما وقع في قلوبهم من هذه الخواطر والوساوس النفسانية وقيل إن الإنسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره إما من باب الصغائر وإما من باب ترك الأفضل ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه وصبروا على تلك الشدائد العظيمة التي حصلت لهم في ذلك السفر غفر الله لهم وتاب عليهم لأجل ما تحملوه من الشدائد العظيمة في تلك الغزوة مع النبي صلى الله عليه وسلم وإنما ضم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذكرهم تنبيها على عظم مراتبهم في الدين وأنهم قد بلغوا إلى الرتبة التي لأجلها ضم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذكرهم (الذين اتبعوه) في تلك الغزوة من المهاجرين والأنصار وقد ذكر بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم سار إلى تبوك في سبعين ألفا ما بين راكب وماش من المهاجرين والأنصار وغيرهم من سائر القبائل (في ساعة العسرة) يعني في وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها والعسرة الشدة والضيق وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة

(وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) أي ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ولا يخذلهم إلا إذا قدموا عليه بعد بيان حظره وعلمهم بأنه واجب الاجتناب وأما قبل العلم والبيان فلا وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين والمراد بما يتقون ما يجب اتقاؤه للنهي فأما ما يعلم بالعقل فغير موقوف على التوقيف (إن الله بكل شيء عليم إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير لقد تاب الله على النبي) أي تاب عليه بإذنه للمنافقين في التخلف عنه كقوله عفا الله عنك (والمهاجرين والأنصار) فيه بعث للمؤمنين على التوبة وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار (الذين اتبعوه في ساعة العسرة) في غزوة تبوك ومعناه في وقتها والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق وكانوا في

العسرة والجيش الذي سار فيه يسمى جيش العسرة لأنه كان عليهم عسرة في الظهر والزاد والماء قال الحسن
كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك
وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون وما معهم إلا التمرات اليسيرة بينهم فإذا
بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها
جرعة من الماء ثم يعطيها صاحبه كذلك حتى تأتي على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة فمضوا مع النبي صلى الله
عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم وقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع وحتى إن الرجل لينحر
بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده وحتى إن الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى
يظن أن رقبته ستنقطع فقال أبو بكر الصديق يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيرا فادع الله
قال أتحب ذلك قال نعم فرفع يديه صلى الله عليه وسلم فلم يرجعهما حتى أرسل الله سحابة فأمطرت فملؤوا ما معهم من
الأوعية ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر أسنده الطبري عن عمر ﴿ قوله تعالى (من بعد ما كاد تزيغ
قلوب فريق منهم) يعني من بعد ما قارب أن تميل قلوب بعضهم عن الحق من أجل الشدة التي نالتهم
والزيغ في اللغة الميل وقيل هم بعضهم أن يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم عند تلك الشدة التي نالتهم
لكنهم صبروا واحتسبوا وندموا على ما خطر في قلوبهم فلأجل ذلك قال تعالى (ثم تاب عليهم) يعني أنه
سبحانه وتعالى علم إخلاص نيتهم وصدق توبتهم فرزقهم الإنابة والتوبة فإن قلت قد ذكر التوبة أولا ثم
ذكرها ثانيا فما فائدة التكرار قلت إنه سبحانه وتعالى ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا
لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيما لشأنهم وليعلموا أنه سبحانه وتعالى
قد قبل توبتهم وعفا عنهم ثم أتبعه بقوله (إنه بهم رؤوف رحيم) تأكيدا لذلك ومعنى الرأفة في صفة الله
تعالى أنه الرفيق بعباده لأنه لم يحملهم ما لا يطيقون من العبادات وبين الرأفة والرحمة فرق لطيف وإن
تقاربا في المعنى قال الخطابي قد تكون الرحمة مع الكراهة للمصلحة ولا تكاد الرأفة تكون مع الكراهة
﴿ قوله سبحانه وتعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) هذا معطوف على ما قبله تقديره لقد تاب الله على
النبي والمهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم وهم كعب بن
مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار وهم المرادون بقوله سبحانه وتعالى وآخرون
مرجون لأمر الله وفي معنى خلفوا قولان أحدهما أنهم خلفوا عن توبة أبي لبابة وأصحابه وذلك أنهم لم
يخضعوا كما خضع أبو لبابة وأصحابه فتاب الله على أبي لبابة وأصحابه وأخر أمر هؤلاء الثلاثة مدة ثم تاب
عليهم بعد ذلك والقول الثاني أنهم خلفوا عن غزوة تبوك ولم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
فيها وأما حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه فقد روي عن ابن شهاب الزهري قال أخبرني عبد الرحمن بن
عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال وكان أعلم قومه
وأوعاهم لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت كعب بن مالك بن عبد الله بن مالك بن كعب
يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال لم أتخلف عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدا
تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم
وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على
الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وكان من خبري حين تخلفت
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك

عسرة من الظهر يعتقب
العشرة على بعير واحد ومن
الزاد تزودوا التمر المدود
والشعير المسوس والإهالة
الزنخة وبلغت بهم الشدة
حتى اقتسم التمرة اثنان
وربما مصها الجماعة ليشربوا
عليها الماء ومن الماء حتى
نحروا الإبل وعصروا
كرشها وشربوه وفي شدة
زمان من حمارة القيظ
ومن الجدب والقحط (من
بعد ما كاد تزيغ قلوب
فريق منهم) عن الثبات
على الإيمان أو عن اتباع
الرسول في تلك الغزوة
والخروج معه وفي كاد ضمير
الشأن والجملة بعده في
موضع النصب وهو كقولهم
ليس خلق الله مثله أي ليس
شأن خلق الله مثله يزيغ
حمزة وحفص (ثم تاب
عليهم) تكرير للتوكيد
(إنه بهم رؤوف رحيم وعلى
الثلاثة) أي وتاب على
الثلاثة وهم كعب بن مالك
ومرارة بن الربيع وهلال
ابن أمية وهو عطف على النبي
(الذين خلفوا) عن الغزو

الغزوة والله ماجمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم
يريد غزوة الاورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل
سفرا بعيدا ومفازا واستقبل عدوا كثيرا فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم
الذى يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان
قال كعب فقل رجل يريد أن يتغيب الاظن أن ذلك سيخفى له مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول
الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فانا اليها أصعر فتجهز رسول الله صلى الله عليه
وسلم والمسلمون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيأ فأقول فى نفسى أنا قادر على
ذلك اذا أردت فلم يزل يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا
والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيأ ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيأ فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا
وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتنى فعلت ثم لم يقدر لى ذلك فطفقت اذا خرجت فى الناس
بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى أنى لا أرى لى أسوة الا رجلا مغموصا عليه فى النفاق أو رجلا
ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم
بتبوك مافعل كعب بن مالك فقال رجل من بنى سلمة يارسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه فقال له معاذ
ابن جبل بئس ماقلت والله يارسول الله ماعلمنا عليه الا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينما هو
كذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن أبا خيثمة فاذا هو أبو خيثمة
الانصارى وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون قال كعب فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدا واستعنت
على ذلك بكل ذى رأى من أهلى فلما قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عنى الباطل
حتى عرفت انى لن أنجو منه بشئ أبدا فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان اذا قدم
من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون اليه
ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله
عز وجل حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال لى تعال فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال ما
خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك قال قلت يارسول الله انى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى
ساخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب
ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه انى لارجو فيه عقبى
الله وفى رواية عفو الله عز وجل والله ما كان لى عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك
قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك فقمت وثار رجال من بنى
سلمة فاتبعونى فقالوا لى والله ماعلمناك أذنبت ذنبا قبل هذا لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم بما اعتذر اليه المخلفون لقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك
قال فوالله مازالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسى قال ثم قلت
لهم هل لقى هذا أحد معى قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ماقلت وقيل لهما مثل ماقيل لك قلت من هما قالوا
مرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى قال فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة
قال فمضيت حين ذكروهما لى ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين
من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الارض فما هى بالارض التى
أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب

القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله
عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ثم أصلي
قريبا منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي
ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت
عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله قال فسكت فعدت
فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار قال فبينا
أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على
كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إلي كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا
فقرأته فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا
نواسك قال فقلت حين قرأتها وهذه أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون من
الخمسين واستلبث الوحي وإذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال إن رسول الله صلى الله عليه
وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل فقال لا بل اعتزلها ولا تقربها قال فأرسل إلى
صاحبي مثل ذلك قال فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر قال فجاءت
امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له
خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربنك فقالت إنه والله ما به حركة إلى شيء ووالله ما زال يبكي منذ
كان من أمره ما كان إلى يومه هذا قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في
امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم
وما يدريني ما يقول لي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب قال فلبثت بذلك
عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا قال ثم صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة
على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت
علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر قال
فخررت ساجدا وعرفت أنه قد جاء فرج قال وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا
حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل إلي فرسا وسعى
ساع من أسلم قبلي وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني
نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمم
رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة ويقولون لتهنئك توبة الله عليك
حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى
صافحني وهنأني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب فلما
سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ
ولدتك أمك قال فقلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله فقال لا بل من عند الله وكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر قال وكنا نعرف ذلك منه قال فلما جلست بين يديه
قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قال فقلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر قال وقلت يا رسول الله إن الله
إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت قال فوالله ما علمت أن أحدا من المسلمين
أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني الله والله

ما تقدمت كذبة بعد قولي ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما
بقي قال فأنزل الله عز وجل لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة حتى
بلغ إنه بهم رؤوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله
وكونوا مع الصادقين قال كعب والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني للإسلام أعظم في نفسي
من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا إن الله عز وجل
قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله سبحانه وتعالى سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم
إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم
لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين قال كعب كنا خلفنا أيها الثلاثة عن
أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ
رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه فبذلك قال الله عز وجل وعلى الثلاثة الذين خلفوا
وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل
منه وفي رواية ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامي وكلام صاحبي ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين
غيرنا فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال علي الأمر فما من شيء أهم إلي من أن أموت فلا
يصلي علي النبي صلى الله عليه وسلم أو يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا
يكلمني أحد منهم ولا يصلي علي ولا يسلم علي قال وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين
بقي الثلث الآخر من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة في شأني
معنية بأمري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أم سلمة تيب على كعب بن مالك قالت أفلا أرسل إليه
فأبشره قال إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة حتى إذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
صلاة الفجر آذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا أخرجه البخاري ومسلم * شرح غريب هذا
الحديث قوله حين تواثقنا على الإسلام التواثق تفاعل من الميثاق وهو العهد والراحلة الجمل أو الناقة
القويان على الحمل والسفر وقوله ورى بغيرها فالتورية عن الشيء إذا أخفاه وأظهر غيره والمفازة البرية
القفر إنما سميت بذلك تفاؤلا بالفوز والنجاة منها وقوله فجلا هو بالجيم والتخفيف أي كشف لهم مقصدهم وأظهره
لهم والأهبة الجهاز وما يحتاج إليه المسافر وقوله فأنا إليها أصعر وهو بالعين المهملة أي أميل والصعر الميل وقوله
وتفارط الغزو أي تباعد ما بيني وبينهم من المسافة وطفقت مثل جعلت والمغموص المعيب المشار إليه
بالعيب يقال فلان يغمص في عقله إذا كان متهما بنقصه وقوله يزول به السراب يزول إذا ظهر شخص الإنسان
خاليا فيه من بعد والسراب هو ما يظهر للإنسان في البرية في وقت الهاجرة كأنه ماء والمبيض بكسر الياء
لابس البياض قوله كن أبا خيثمة معناه أنت أبو خيثمة وقيل معناه اللهم اجعله أبا خيثمة أي لتوجد يا هذا
الشخص أبا خيثمة حقيقة قوله لمزه المنافقون أي عابوه واحتقروه والقافل الراجع من سفره إلى
وطنه قوله حضرني بثي البث أشد الحزن كأنه لشدته يظهر قوله زاح عني الباطل أي زال وذهب عني
وأجمعت صدقه أي عزمت عليه لقد أعطيت جدلا أي فصاحة وقوة في الكلام بحيث أخرج عن عهدة
ما أوردت عليه من الكلام والعتب تعتب الواجد وهو الغضبان وقوله فما زالوا يؤنبونني أي يلوموني أشد
اللوم قوله حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف معناه تغير علي كل شيء من الأرض
وتوحشت علي وصارت كأنها أرض لا أعرفها وقوله فاستكانا أي خضعا وسكنا وقوله تسورت
حائط أبي قتادة أي علوته وصعدت سوره وهو أعلاه والأنباط الفلاحون والزراعون وهم من العجم والروم
والمسمعة مفعلة من السماع والاطراح قوله فتيممت بها التنور فسجرته بها أي قصدت بالصحيفة التي أرسل

[illegible] وسلع جبل بالمدينة معروف وقوله وانطلقت أتأمم يعني أقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم والفوج الجماعة من الناس وقوله تبرق وجهه من السرور وظهر عليه أمارات الفرح والسرور وقوله انخلع من مالي أي أخرج منه جميعه وأتصدق به وحقيقة الانخلاع الانسان مما يلبسه وقوله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني البلاء والابتلاء يكون في الخير والشر وإذا أطلق كان في الشر غالبا فإذا أريد به الخير قيد به كما قيده هنا بقوله أحسن مما أبلاني أي أنعم علي وقوله أن لا أكون كذبته هكذا هو في جميع روايات الحديث بزيادة لا قال بعض العلماء لفظة لا زائدة ومعناه أن أكون كذبته وقوله فأهلك هو بكسر اللام وإن جاز فتحها [illegible] وقوله في الرواية الأخرى يحطمكم الناس أي يطؤكم ويزدحمون عليكم وأصل الحطم الكسر وقوله سار الخيل يعني [illegible] وقوله وآذن بتوبة الله علينا أي أعلم والأذان الإعلام والله أعلم ۞ قوله عز وجل (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) يعني بما اتسعت والرحب سعة المكان والمعنى أنه ضاق عليهم المكان بعد أن كان واسعا (وضاقت عليهم أنفسهم) يعني من شدة الغم والحزن ومجانبة الناس إياهم وترك كلامهم (وظنوا) يعني وأيقنوا وعلموا (أن لا ملجأ) يعني لا معتصم ولا مفزع (من الله إلا إليه) ولا عاصم من عذابه إلا هو (ثم تاب عليهم) فيه إضمار وحذف تقديره وعلموا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فرحمهم ثم تاب عليهم وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه وقوله ثم تاب عليهم تأكيد لقبول توبتهم لأنه قد ذكر توبتهم في قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا كما تقدم بيانه وأنه معطوف على قوله لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار أي وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا ۞ وقوله تعالى (ليتوبوا) معناه أن الله سبحانه وتعالى تاب عليهم في الماضي ليكون ذلك داعيا لهم إلى التوبة في المستقبل ويرجعوا ويداوموا عليها وقيل إن أصل التوبة الرجوع ومعناه ثم تاب عليهم ليرجعوا إلى حالتهم الأولى يعني إلى عادتهم في الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك (إن الله هو التواب) يعني على عباده (الرحيم) بهم وفيه دليل على أن قبول التوبة محض الرحمة والكرم والفضل والإحسان وأنه لا يجب على الله تعالى شيء ۞ قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) يعني في مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم (وكونوا مع الصادقين) يعني مع من صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الغزوات ولا تكونوا مع المتخلفين من المنافقين الذين قعدوا في البيوت وتركوا الغزو وقال سعيد بن جبير مع الصادقين يعني مع أبي بكر وعمر وقال ابن جريج مع المهاجرين وقال ابن عباس مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك بإخلاص نية وقيل كونوا مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة الكاذبة وفي هذه الآية دليل على فضيلة الصدق لأن الصدق يهدي إلى الجنة والكذب إلى الفجور كما ورد في الحديث وقال ابن مسعود الكذب لا يصلح في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صاحبه شيئا ثم لا ينجزه اقرؤوا إن شئتم وكونوا مع الصادقين وروي أن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية على الأنصار يوم السقيفة وذلك أن الأنصار قالوا منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر يا معشر الأنصار إن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه للفقراء المهاجرين إلى قوله أولئك هم الصادقون من هم قالت الأنصار أنتم هم فقال أبو بكر إن الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الأمراء وأنتم الوزراء وقيل مع بمعنى من والمعنى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين ۞ قوله سبحانه وتعالى (ما كان لأهل المدينة) يعني لسكان المدينة من المهاجرين والأنصار (ومن حولهم من الأعراب) يعني سكان البوادي مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وقيل هو عام في كل الأعراب لأن اللفظ عام وحمله على العموم أولى (أن يتخلفوا عن رسول الله) يعني إذا غزا ولفظه لفظ الخبر ومعناه النهي أي ليس لهم أن يتخلفوا عن

(حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) برحبها أي مع سعتها وهو مثل للحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا (وضاقت عليهم أنفسهم) أي قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور لأنها حرجت من فرط الوحشة والغم (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره (ثم تاب عليهم) بعد خمسين يوما (ليتوبوا) ليكونوا من جملة التوابين (إن الله هو التواب الرحيم) عن أبي بكر الوراق أنه قال التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) في إيمانهم دون المنافقين أو مع الذين لم يتخلفوا أو مع الذين صدقوا في دين الله نية وقولا وعملا والآية تدل على أن الإجماع حجة لأنه أمر بالكون مع الصادقين فلزم قبول قولهم (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) المراد بهذا النفي النهي وخص هؤلاء بالذكر وإن استوى كل الناس في ذلك لقربهم منه ولا يخفى عليهم خروجه

(ولا يرغبوا) ولا أن يضنوا (بأنفسهم عن نفسه) عما يصيب نفسه أي لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد بل أمروا بأن يصحبوه في البأساء والضراء ويلقوا أنفسهم بين يديه في كل شدة (ذلك) النهي عن التخلف (بأنهم) بسبب أنهم (لا يصيبهم ظمأ) عطش (ولا نصب) تعب (ولا مخمصة) مجاعة (في سبيل (٣٩٤) الله) في الجهاد (ولا يطؤن موطئا) ولا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم (يغيظ الكفار) يغضبهم ويضيق صدورهم (ولا ينالون من عدو نيلا) ولا يصيبون منهم إصابة بقتل أو أسر أو جرح أو كسر أو هزيمة (إلا كتب لهم به عمل صالح) عن ابن عباس رضي الله عنهما لكل روعة سبعون ألف حسنة يقال نال منه إذا رزأه ونقصه وهو عام في كل ما يسوءهم وفيه دليل على أن من قصد خيرا كان سعيه فيه مشكورا من قيام وقعود ومشي وكلام وغير ذلك وعلى أن المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب لأن وطء ديارهم مما يغيظهم وقد أسهم النبي صلى الله عليه وسلم لابني عامر وقد قدما بعد تقضي الحرب والموطئ إما مصدر كالمورد وإما مكان فإن كان مكانا فمعنى يغيظ الكفار يغيظهم وطؤه (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) أي أنهم محسنون والله لا يبطل ثوابهم (ولا ينفقون نفقة) في سبيل الله (صغيرة) ولو تمرة (ولا كبيرة) مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة (ولا يقطعون واديا) أي أرضا في ذهابهم ومجيئهم وهو كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل وهو في الأصل فاعل من ودى إذا سال ومنه الودي وقد شاع في الاستعمال بمعنى الأرض (إلا كتب لهم) من الإنفاق وقطع الوادي (ليجزيهم الله) متعلق بكتب أي أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء (أحسن ما كانوا يعملون) أي يجزيهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا يرغبوا) يعني ولا أن يرغبوا (بأنفسهم عن نفسه) يعني ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرضاه لنفسه ولا يختاروا لأنفسهم الخفض والدعة ويتركوا مصاحبته والجهاد معه في حال الشدة والمشقة وقال الحسن لا يرغبوا بأنفسهم أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مشقة السفر ومقاساة التعب (ذلك بأنهم لا يصيبهم) في سفرهم وغزواتهم (ظمأ) أي عطش (ولا نصب) أي تعب (ولا مخمصة) يعني مجاعة شديدة (في سبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار) يعني ولا يضعون قدما على الأرض يكون ذلك القدم سببا لغيظ الكفار وغمهم وحزنهم (ولا ينالون من عدو نيلا) يعني أسرا أو قتلا أو هزيمة أو غنيمة أو نحو ذلك قليلا كان أو كثيرا (إلا كتب لهم به عمل صالح) يعني إلا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) يعني أن الله سبحانه وتعالى لا يدع محسنا من خلقه قد أحسن في عمله وأطاعه فيما أمره به أو نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه وعمله الصالح وفي الآية دليل على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله ومن قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها سيآت إلا أن يغفرها الله بفضله وكرمه واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال قتادة هذا الحكم خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر فأما غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المؤمنين أن يتخلف عنه إذا لم يكن للمسلمين إليه ضرورة وقال الوليد بن مسلم سمعت الأوزاعي وابن المبارك وابن جابر وسعيدا يقولون في هذه الآية إنها لأول هذه الأمة وآخرها فعلى هذا تكون هذه الآية محكمة لم تنسخ وقال ابن زيد هذا حين كان أهل الإسلام قليلا فلما كثروا نسخها الله عز وجل وأباح التخلف لمن شاء بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة ونقل الواحدي عن عطية أنه قال وما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم وأمرهم قال هذا هو الصحيح لأنه تتعين الطاعة والإجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا إذا أمره وكذا غيره من الأئمة والولاة إذا ندبوا وعينوا لأنا لو سوغنا للمندوب أن يتقاعد ولم يختص بذلك بعض دون بعض لأدى ذلك إلى تعطيل الجهاد والله أعلم ﴿ وقوله عز وجل (ولا ينفقون) يعني في سبيل الله (نفقة صغيرة ولا كبيرة) يعني تمرة فما دونها أو أكثر منها حتى علاقة سوط (ولا يقطعون واديا) يعني ولا يجاوزون في سيرهم واديا مقبلين أو مدبرين فيه (إلا كتب لهم) يعني كتب الله لهم آثارهم وخطاهم ونفقاتهم (ليجزيهم الله) يعني يجازيهم (أحسن ما كانوا يعملون) قال الواحدي معناه بأحسن ما كانوا يعملون وقال الإمام فخر الدين الرازي فيه وجهان الأول أن الأحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله سبحانه وتعالى يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح والثاني أن الأحسن صفة للجزاء أي يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب وفي الآية دليل على فضل الجهاد وأنه من أحسن أعمال العباد (ق) عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما عليها وفي رواية وما فيها (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو علي ضامن أن

أو يرده الله إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل لفظ مسلم وللبخاري نحوه (ق) عن أبي سعيد الخدري قال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أي الناس أفضل قال مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قال ثم من قال ثم رجل في شعب من الشعاب يعبد الله وفي رواية يتقي الله ويدع الناس من شره (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات (خ) عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار (م) عن أبي مسعود الأنصاري البدري قال جاء رجل بناقة مخطومة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذه في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة (ت) عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفق نفقة في سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف أخرجه الترمذي والنسائي ﴿ قوله سبحانه وتعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) الآية قال عكرمة لما نزلت هذه الآية ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله قال ناس من المنافقين هلك من تخلف فنزلت هذه الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال ابن عباس إنها ليست في الجهاد ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أجدبت بلادهم فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم فأنزل الله عز وجل الآية يخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم إذا رجعوا إليهم فذلك قوله سبحانه وتعالى ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم ويقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ما تأمرنا أن نفعله وأخبرنا بما نقول لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم فيأمرهم نبي الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة فكانوا إذا أتوا قومهم نادوا إن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم بما يحتاجون إليه من أمر الدين وأن ينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة وقال مجاهد إن ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفا ومن الخصب ما ينتفعون به ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله عز وجل (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يبتغون الخير وقعدت طائفة (ليتفقهوا في الدين) ليستمعوا ما أنزل الله (ولينذروا قومهم) من الناس (إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) وقال ابن عباس ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصبة يعني السرايا ولا يسيرون إلا بإذنه فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الله قد أنزل على نبيكم من بعدكم قرآنا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى فذلك قوله سبحانه وتعالى ليتفقهوا في الدين يقول ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم

على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به توفيرا لأجرهم (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) اللام لتأكيد النفي أي أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح للإفضاء إلى المفسدة (فلولا نفر) فحين لم يمكن نفير الكافة فهلا نفر (من كل فرقة منهم طائفة) أي من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير (ليتفقهوا في الدين) ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا المشاق في أخذها (ولينذروا قومهم) وليجعلوا مرمى همتهم في التفقه إنذار قومهم وإرشادهم (إذا رجعوا إليهم) دون الأغراض الخسيسة من التصدر والترؤس والتشبه بالظلمة في المراكب والملابس (لعلهم يحذرون) ما يجب اجتنابه وقيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث بعثا بعد غزوة تبوك بعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير وانقطعوا جميعا عن التفقه في الدين فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى سائرهم

يحذرون نقل هذه الاقوال كلها الطبري وأما تفسير الآية فعلى أن يقال انها من بقية أحكام الجهاد ويحتمل
أن يقال انها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد فعلى الاحتمال الاول فقد قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا
خرج الى الغزو لم يتخلف عنه الا منافق أو صاحب عذر فلما بالغ الله في الكشف عن عيوب المنافقين
وفضحهم في تخلفهم عن غزوة تبوك قال المؤمنون والله لا نتخلف عن شئ من الغزوات مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم ولا عن سرية يبعثها فلما قدم المدينة وبعث السرايا نفر المسلمون جميعا الى الغزو وتركوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم وحده فنزلت هذه الآية فيكون المعنى ما كان ينبغي للمؤمنين ولا يجوز لهم أن ينفروا
بكليتهم الى الجهاد ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يجب أن ينقسموا قسمين فطائفة يكونون مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم وطائفة ينفرون الى الجهاد لان ذلك الوقت كانت الحاجة داعية الى انقسام
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قسمين قسم للجهاد وقسم لتعلم العلم والتفقه في الدين لأن الاحكام
والشرائع كانت تتجدد شيأ بعد شئ فالملازمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظون ما نزل من الاحكام
وما تجدد من الشرائع فاذا قدم الغزاة أخبروهم بذلك فيكون معنى الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة
فلولا يعني فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد وقعدت طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم الذين
نفروا الى الجهاد اذا رجعوا اليهم من غزوهم لعلهم يحذرون يعني مخالفة أمر الله وأمر رسوله وهذا معنى
قول قتادة وقيل ان التفقه صفة للطائفة النافرة قال الحسن ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور
على المشركين والنصرة ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ومعنى ذلك أن الفرقة النافرة اذا شاهدوا نصر الله
لهم على أعدائهم وأن الله يريد اعلاء دينه وتقوية نبيه صلى الله عليه وسلم وان الفئة القليلة قد غلبت فئة
كثيرا فاذا رجعوا من ذلك النفير الى قومهم من الكفار أنذروهم بما شاهدوا من دلائل النصر والفتح
والظفر لعلهم يحذرون فيتركوا الكفر والنفاق وأورد على هذا القول ان هذا النوع لا يعد تفقها في الدين
ويمكن أن يجاب عنه بأنهم اذا علموا أن الله هو ناصرهم ومقويهم على عدوهم كان ذلك زيادة في ايمانهم
فيكون ذلك فقها في الدين وأما الاحتمال الثاني وهو أن يقال ان هذه الآية كلام مبتدأ لا تعلق لها بالجهاد وهو
ما ذكرناه عن مجاهد ان ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا الى البوادي فأصابوا معروفا
ودعوا من وجدوا من الناس الى الهدى فقال الناس لهم ما نراكم الا قد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا
في أنفسهم من ذلك حرجا فأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله
هذه الآية والمعنى هلا نفر من كل فرقة طائفة وقعدت طائفة ليتفقهوا في الدين ويبلغوا ذلك الى النافرين
لينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون يعني بأس الله ونقمته اذا خالفوا أمره وفي الآية دليل على
أنه يجب أن يكون المقصود من العلم والتفقه دعوة الخلق الى الحق وارشادهم الى الدين القويم والصراط
المستقيم فكل من تفقه وتعلم بهذا القصد كان على المنهج القويم والصراط المستقيم ومن عدل عنه وتعلم
العلم لطلب الدنيا كان من الاخسرين أعمالا الآية (ق) عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وانما أنا قاسم ويعطي الله ولن يزال أمر هذه الامة مستقيما حتى تقوم
الساعة وحتى يأتي أمر الله (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجدون الناس معادن
خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد أخرجه الترمذي وأصل الفقه في اللغة الفهم يقال فقه الرجل
وفقه فقاهة اذا صار فقيها وقيل الفقه هو التوصل الى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم وفي الاصطلاح
الفقه عبارة عن العلم بأحكام الشرائع وأحكام الدين وذلك ينقسم الى فرض عين وفرض كفاية ففرض
العين معرفة أحكام الطهارة وأحكام الصلاة والصوم فعلى كل مكلف معرفة ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم

يتفقهون حتى لا ينقطعوا
عن التفقه الذي هو الجهاد
الاكبر اذ الجهاد بالحجاج
أعظم أثرا من الجهاد
بالنصال والضمير في
ليتفقهوا للفرق الباقية بعد
الطوائف النافرة من بينهم
ولينذروا قومهم ولينذر
الفرق الباقية قومهم
النافرين اذا رجعوا اليهم
بما حصلوا في أيام غيبتهم
من العلوم وعلى الاول
الضمير للطائفة النافرة الى
المدينة للتفقه

طلب العلم فريضة على كل مسلم ذكره البغوي بغير سند وكذلك كل عبادة وجبت على المكلف بحكم الشرع يجب عليه معرفة علمها مثل علم الزكاة إذا صار له مال يجب فيه الزكاة وعلم أحكام الحج إذا وجب عليه وأما فرض الكفاية من العلم فهو أن يتعلم حتى يبلغ رتبة الاجتهاد ودرجة الفتيا فإذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعا وإذا قام به من كل بلد واحد فتعلم حتى بلغ درجة الفتيا سقط الفرض عن الباقين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم أخرجه الترمذي مع زيادة فيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة أخرجه الترمذي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة أخرجه أبو داود الآية المحكمة هي التي لا اشتباه فيها ولا اختلاف في حكمها أو ليس بمنسوخ والسنة القائمة هي المستمرة الثابتة التي العمل بها متصل لا يترك والفريضة العادلة هي التي لا جور فيها ولا حيف في قسمتها وقال الفضيل بن عياض عالم عامل معلم يدعى عظيما في ملكوت السموات وأخرجه الترمذي موقوفا وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ۞ قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب قال ابن عباس مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها وقال ابن عمر هم الروم لأنهم كانوا سكان الشام والشام أقرب إلى المدينة من العراق وقال بعضهم هم الديلم وقال ابن زيد كان الذين يلونهم من الكفار العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم فأمروا بقتال أهل الكتاب وجهادهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد ونقل عن بعض العلماء أنه قال نزلت هذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين كافة فلما نزلت وقاتلوا المشركين كافة صارت ناسخة لقوله سبحانه وتعالى قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وقال المحققون من العلماء لا وجه للنسخ لأنه سبحانه وتعالى لما أمرهم بقتال المشركين كافة أرشدهم إلى الطريق الأصوب الأصلح وهو أن يبدؤا بقتال الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لأن قتال الكل في دفعة واحدة لا يتصور ولهذا السبب قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا قومه ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم انتقل إلى قتال أهل الكتاب وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك ثم انتقل إلى غزو الروم في الشام فكان فتح الشام في زمن الصحابة ثم إنهم انتقلوا إلى العراق ثم بعد ذلك إلى سائر الأمصار لأنه إذا قاتل الأقرب تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الأبعد ۞ وقوله سبحانه وتعالى (وليجدوا فيكم غلظة) يعني شدة وقوة وشجاعة والغلظة ضد الرقة وقال الحسن صبرا على جهادهم (واعلموا أن الله مع المتقين) يعني بالعون والنصرة ۞ قوله عز وجل (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا) يعني وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن فمن المنافقين من يقول يعني يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه يعني السورة إيمانا يعني تصديقا ويقينا وإنما يقول ذلك المنافقون استهزاء وقيل يقول ذلك المنافقون لبعض المؤمنين فقال الله سبحانه وتعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) يعني تصديقا ويقينا وقربة من الله ومعنى الزيادة ضم شيء إلى آخر من جنسه مما هو في صفته فالمؤمنون إذا أقروا بنزول سورة من القرآن عن ثقة واعترفوا أنها من عند الله عز وجل زادهم ذلك الإقرار والاعتراف إيمانا وقد تقدم بسط الكلام على زيادة الإيمان في أول سورة الأنفال (وهم يستبشرون) يعني أن المؤمنين يفرحون بنزول القرآن شيئا بعد شيء لأنهم كلما نزل ازدادوا إيمانا وذلك يوجب مزيد الثواب في الآخرة وكما تحصل الزيادة في الإيمان

(يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم) يقربون منكم (من الكفار) القتال واجب مع جميع الكفرة قريبهم وبعيدهم ولكن الأقرب فالأقرب أوجب وقد حارب النبي صلى الله عليه وسلم قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم الشام والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم (وليجدوا فيكم غلظة) شدة وعنفا في القتال قبل القتال (واعلموا أن الله مع المتقين) بالنصرة والغلبة (وإذا ما أنزلت سورة) ما صلة مؤكدة (فمنهم) فمن المنافقين (من يقول) بعضهم لبعض (أيكم زادته) هذه السورة (إيمانا) إنكارا واستهزاء بالمؤمنين وأيكم مرفوع بالابتداء وقيل هو قول المؤمنين للحث والتنبيه (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) يقينا وثباتا أو خشية أو إيمانا بالسورة لأنهم لم يكونوا آمنوا بها تفصيلا (وهم يستبشرون) يعدون زيادة التكليف بشارة التشريف

بسبب نزول القرآن كذلك تحصل الزيادة في الكفر وهو قوله سبحانه وتعالى (وأما الذين في قلوبهم مرض) أي شك ونفاق سمي الشك في الدين مرضا لأنه فساد في القلب يحتاج الى علاج كالمرض في البدن اذا حصل يحتاج الى العلاج (فزادتهم) يعني السورة من القرآن (رجسا الى رجسهم) يعني كفرا الى كفرهم وذلك أنهم كلما جحدوا نزول سورة أو استهزؤا بها ازدادوا كفرا مع كفرهم الاول وسمي الكفر رجسا لأنه أقبح الاشياء وأصل الرجس في اللغة الشيء المستقذر (وماتوا) يعني هؤلاء المنافقين (وهم كافرون) يعني وهم جاحدون لما أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم قال مجاهد في هذه الآية الايمان يزيد وينقص وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه ويقول تعالوا حتى نزداد ايمانا وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ان الايمان يبدو لمعة بيضاء في القلب وكلما ازداد الايمان عظما ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله وان النفاق يبدو لمعة سوداء في القلب وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله وأيم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود

ۛ قوله سبحانه وتعالى (أولا يرون) قرئ ترون بالتاء على خطاب المؤمنين وقرئ بالياء على أنه خبر عن المنافقين المذكورين في قوله في قلوبهم مرض (أنهم يفتنون) يعني يبتلون (في كل عام مرة أو مرتين) يعني بالامراض والشدائد وقيل بالقحط والجدب وقيل بالغزو والجهاد وقيل انهم يفتضحون باظهار نفاقهم وقيل انهم ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون وقيل انهم ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين (ثم لا يتوبون) يعني من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون الى الله (ولا هم يذكرون) يعني ولا يتعظون بما يرون من صدق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين (واذا ما أنزلت سورة) يعني فيها عيب المنافقين وتوبيخهم (نظر بعضهم الى بعض) يريدون بذلك الهرب يقول بعضهم لبعض اشارة (هل يراكم من أحد) يعني هل أحد من المؤمنين يراكم ان قمتم من مجلسكم فان لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وان علموا أن أحدا يراهم من المؤمنين أقاموا ولبثوا على تلك الحال (ثم انصرفوا) يعني عن الايمان بتلك السورة النازلة وقيل انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ما يكرهون (صرف الله قلوبهم) يعني عن الايمان وقال الزجاج أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم (بأنهم قوم لا يفقهون) يعني لا يفقهون عن الله دينه ولا شيأ فيه نفعهم

ۛ قوله سبحانه وتعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) هذا خطاب للعرب يعني لقد جاءكم أيها العرب رسول من أنفسكم تعرفون نسبه وحسبه وانه من ولد اسمعيل بن ابراهيم عليه السلام قال ابن عباس ليس قبيلة من العرب الا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم وله فيهم نسب وقال جعفر بن محمد الصادق لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح هكذا ذكره الطبري وذكر البغوي باسناد الثعلبي عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء ما ولدني الا نكاح كنكاح أهل الاسلام قال قتادة جعله الله من أنفسهم فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة قال بعض العلماء في تفسير قول ابن عباس ليس قبيلة من العرب الا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم يعني من مضرها وربيعتها ويمانيها فأما ربيعة ومضر فهم من ولد معد بن عدنان واليه تنسب قريش وهو منهم وأما نسبه الى عرب اليمن وهم القحاطنة فان آمنة لها نسب في الانصار وان كانت من قريش والانصار أصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبا فعلى هذا القول يكون المقصود من قوله لقد جاءكم رسول من أنفسكم ترغيب العرب في نصره والايمان به فانه لما شرفهم بشرفه وعزتهم بعزته وفخرهم بفخره وهو من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والامانة والصيانة والعفاف وطهارة النسب والاخلاق الحميدة وقرأ ابن عباس والزهري من أنفسكم بفتح الفاء ومعناه انه من أشرفكم وأفضلكم

(خ) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من

(وأما الذين في قلوبهم مرض) شك ونفاق فهو فساد يحتاج الى علاج كالمفاسد في البدن (فزادتهم رجسا الى رجسهم) كفرا مضموما الى كفرهم (وماتوا وهم كافرون) هو اخبار عن اصرارهم عليه الى الموت (أو لا يرون) يعني المنافقين وبالتاء حمزة خطاب للمؤمنين (أنهم يفتنون) يبتلون بالقحط والمرض وغيرهما (في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون) عن نفاقهم (ولا هم يذكرون) لا يعتبرون أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتوبون بما يرون من دولة الاسلام ولا هم يذكرون بما يقع بهم من الاصطلام (واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض) تغامزوا بالعيون انكارا للوحي وسخرية به قائلين (هل يراكم من أحد) من المسلمين لننصرف فانا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك فنخاف الافتضاح بينهم أو اذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين أشار بعضهم الى بعض هل يراكم من أحد ان قمتم من حضرته عليه السلام (ثم انصرفوا) عن حضرة النبي عليه السلام مخافة الفضيحة (صرف الله قلوبهم) عن فهم القرآن (بأنهم) بسبب أنهم (قوم لا يفقهون) لا يتدبرون حتى يفقهوا (لقد جاءكم رسول) محمد عليه السلام (من أنفسكم) من جنسكم ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم ... القرآن

الفرق التي كنت منها (م) عن واثلة بن الأسقع قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قلت يا رسول الله ان قريشا جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم فجعلوا مثلك كمثل نخلة في كبوة من الأرض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم من خير فرقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا أخرجه الترمذي وقيل ان قوله سبحانه وتعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم خطاب للعرب على العموم وأولى ان يكون المعنى على هذا القول لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم يعني من جنسكم بشر مثلكم اذ لو كان من الملائكة لضعفت قوى البشر عن سماع كلامه والأخذ عنه ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (عزيز عليه ما عنتم) أي شديد عليه عنتكم يعني مكروهكم وقيل شق عليه ضلالكم (حريص عليكم) يعني حريص على إيمانكم وإيصال الخير اليكم وقال قتادة حريص على هدايتكم وان يهديكم الله (بالمؤمنين رؤف رحيم) يعني أنه صلى الله عليه وسلم رؤف بالمطيعين رحيم بالمذنبين (ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي وقد سماه الله رؤفا رحيما قال الحسين بن الفضل لم يجمع الله سبحانه وتعالى لأحد من أنبيائه بين اسمين من أسمائه الا للنبي صلى الله عليه وسلم فسماه رؤفا رحيما وقال سبحانه وتعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم ﴿ قوله سبحانه وتعالى (فان تولوا) يعني فان أعرض هؤلاء الكفار والمنافقون عن الإيمان بالله ورسوله وناصبوك الحرب (فقل حسبي الله) يعني يكفيني الله وينصرني عليكم (لا اله الا هو عليه توكلت) يعني لا على غيره وبه وثقت (وهو رب العرش العظيم) انما خص سبحانه وتعالى العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات فيدخل ما دونه في الذكر فيكون المعنى فهو رب العرش العظيم فما دونه أو يكون خصه بالذكر تشريفا له كما يقال بيت الله روي عن أبي بن كعب أنه قال هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر السورة آخر القرآن نزولا وفي رواية عنه قال أحدث القرآن عهدا بالله هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم الى آخر الآيتين والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿تفسير سورة يونس عليه الصلاة والسلام﴾

نزلت بمكة الا ثلاث آيات وهي قوله سبحانه وتعالى فان كنت في شك مما أنزلنا اليك الى آخر الثلاث آيات قاله ابن عباس وبه قال قتادة وفي رواية أخرى عن ابن عباس ان فيها من المدني قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به الآية وقال مقاتل هي مكية الا آيتين وهي قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته والتي تليها وهي مائة وتسع آيات وألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وتسعة آلاف وتسعة وتسعون حرفا

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿ قوله عز وجل (الر) قال ابن عباس والضحاك معناه أنا الله أرى وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه الر وحم ون حروف الرحمن مقطعة وبه قال سعيد بن جبير وسالم بن عبد الله وقال قتادة الر اسم من أسماء القرآن وقيل هي اسم للسورة وقد تقدم الكلام في معنى الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما فيه كفاية (تلك آيات الكتاب) المراد من لفظة تلك الاشارة الى الآيات الموجودة في هذه السورة ويكون التقدير تلك الآيات هي آيات الكتاب وهو القرآن الذي أنزله الله اليك يا محمد وذلك ان الله عز وجل وعد أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماء ولا تغيره الدهور وقيل ان لفظة تلك اشارة الى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن والمعنى ان تلك الآيات هي آيات الكتاب الحكيم وفي قول آخر ان المراد بآيات الكتاب الكتب التي قبل

(عزيز عليه ما عنتم) شديد عليه شاق لكونه بعضا منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم الوقوع في العذاب (حريص عليكم) على إيمانكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رؤف رحيم) قيل لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم (فان تولوا) فان أعرضوا عن الايمان بك وناصبوك (فقل حسبي الله) فاستعن بالله وفوض اليه أمورك فهو كافيك معرتهم وناصرك عليهم (لا اله الا هو عليه توكلت) فوضت أمري اليه (وهو رب العرش) هو أعظم خلق الله خلق مطافا لأهل السماء وقبلة للدعاء (العظيم) بالجر وقرئ بالرفع على نعت الرب جل وعز عن أبي آخر آية نزلت لقد جاءكم رسول من أنفسكم الآية (سورة يونس عليه السلام) مائة وتسع آيات مكية وكذا ما بعدها الى سورة النور ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (الر) ونحوه فخم حمزة وعلي وأبو عمرو وهو تعديد للحروف على طريق التحدي (تلك آيات الكتاب) اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة

القرآن حكاه الطبري عن قتادة وروي عن مجاهد أنها التوراة والانجيل فعلى هذا القول يكون التقدير تلك الآيات المذكورة في هذه السورة هي الآيات المذكورة في التوراة والانجيل والمراد من الآيات القصص المذكورة في هذه السورة وهذا وان كان له وجه فهو ضعيف لان التوراة والانجيل لم يجر لهما ذكر قبل حتى يشار اليهما وقيل المراد من الآيات حروف الهجاء التي منها الر سميت آيات لانها افتتاح السور وهي القرآن (الحكيم) يعني المحكم بالحلال والحرام والحدود والاحكام فعيل بمعنى مفعول وقيل الحكيم بمعنى الحاكم فعيل بمعنى فاعل لان القرآن حاكم يميز بين الحق والباطل ويفصل الحلال من الحرام وقيل حكيم بمعنى المحكوم فيه فعيل بمعنى مفعول قال الحسن حكم فيه بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وقيل ان الحكيم هو الذي يعمل الحكمة والصواب من حيث انه يدل على الاحكام صار كأنه هو الحكيم في نفسه ۞ قوله سبحانه وتعالى (أكان للناس عجبا) قال ابن عباس سبب نزول هذه الآية ان الله عز وجل لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك ومن أنكر منهم قال الله أعظم من أن يكون له رسول بشر مثل محمد فقال الله سبحانه وتعالى أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم وقال سبحانه وتعالى وما أرسلنا من قبلك الا رجالا الآية والهمزة في أكان همزة استفهام ومعناه الانكار والتوبيخ والمعنى لا يكون ذلك عجبا (أن أوحينا الى رجل منهم) والعجب حالة تعتري الانسان من رؤية شيء على خلاف العادة وقيل العجب حالة تعتري الانسان عند الجهل بسبب الشيء ولهذا قال بعض الحكماء العجب ما لا يعرف سببه والمراد بالناس هنا أهل مكة وبالرجل محمد صلى الله عليه وسلم منهم يعني من أهل مكة من قريش يعرفون نسبه وصدقه وأمانته (أن أنذر الناس) يعني خوفهم بعقاب الله تعالى ان أصروا على الكفر والمعاصي والانذار اخبار مع تخويف كما ان البشارة اخبار مع سرور وهو قوله سبحانه وتعالى (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) اختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق فقال ابن عباس أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم وقال الضحاك ثواب صدق وقال مجاهد الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال سبقت لهم السعادة في الذكر الاول يعني في اللوح المحفوظ وقال زيد بن أسلم هو شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول قتادة وقيل لهم منزلة رفيعة عند ربهم وأضيف القدم الى الصدق وهو نعته كقوله مسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد والفائدة في هذه الاضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لان كل شيء أضيف الى الصدق فهو ممدوح ومثله في مقعد صدق ومدخل صدق وقال أبو عبيدة كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم يقال لفلان قدم في الاسلام وقدم في الخير ولفلان عندي قدم صدق وقدم سوء وقال حسان بن ثابت

لنا القدم العليا اليك وخلفنا ۞ لاولنا في طاعة الله تابع

وقال الليث وأبو الهيثم القدم السابق والمعنى أنه قد سبق لهم عند الله خير قال ذو الرمة

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة ۞ لهم قدم معروفة ومفاخر

والسبب في اطلاق لفظ القدم على هذه المعاني ان السعي والسبق لا يحصل الا بالقدم فسمي المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يدا لانها تعطى باليد وقال ذو الرمة

لكم قدم لا ينكر الناس انها ۞ مع الحسب العادي طمت على البحر

معناه لكم سابقة عظيمة لا ينكرها الناس وقال آخر

صل لذي العرش واتخذ قدما ۞ تنجيك يوم العثار والزلل

(الحكيم) ذي الحكمة لاشتماله عليها أو المحكم عن الكذب والاختلاف والهمزة في (أكان للناس عجبا) لانكار التعجب والتعجيب منه (أن أوحينا) اسم كان وعجبا خبره واللام في للناس متعلق بمحذوف هو صفة لعجبا فلما تقدم صار حالا (الى رجل منهم أن أنذر الناس) بأن أنذر أو هي مفسرة اذ الايحاء فيه معنى القول (وبشر الذين آمنوا أن لهم) بأن لهم ومعنى اللام في الناس انهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منه والذي تعجبوا منه أن يوحى الى بشر وأن يكون رجلا من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم فقد كانوا يقولون العجب ان الله لم يجد رسولا يرسله الى الناس الا يتيم أبي طالب وان يذكرهم البعث وينذر بالنيران ويبشر بالجنان وكل واحد من هذه الامور ليس بعجب لان الرسل المبعوثين الى الامم لم يكونوا الا بشرا مثلهم وارسال اليتيم أو الفقير ليس بعجب أيضا لان الله تعالى انما يختار للنبوة من جمع أسبابها والغنى والتقدم في الدنيا ليس من أسبابها والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجبا انما العجب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء (قدم صدق عند ربهم) أي سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة ولما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما كما سميت النعمة يدا لانها تعطى باليد وباعا لان صاحبها يبوع بها فقيل لفلان قدم في الخير واضافتها الى صدق دلالة على زيادة فضل وانه من السوابق العظيمة أو مقام صدق أو سبق السعادة وقوله

(قال الكافرون إن هذا) الكتاب (لسحر مبين) مدني وبصري وشامي ومن قرأ لساحر فهذا إشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحرا (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) أي استولى فقد يقدس الديان عن المكان والمعبود عن الحدود (يدبر) يقضي ويقدر على مقتضى الحكمة (الأمر) أي أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش ولما ذكر ما يدل على عظمته وملكه من خلق السموات

﴿ وقوله سبحانه وتعالى (قال الكافرون إن هذا لسحر مبين) وقرئ لساحر مبين وفيه حذف تقديره أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم فلما أتاهم بالوحي وأنذرهم قال الكافرون إن هذا الساحر يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وإنما نسبوه إلى السحر لما أتاهم بالمعجزات الباهرات التي لا يقدر أحد من البشر أن يعمل مثلها ومن قرأ لسحر فمعناه عنوا به القرآن المنزل عليه وإنما نسبوه إلى السحر لأنه فيه الإخبار بالبعث والنشور وكانوا ينكرون ذلك ﴿ قوله عز وجل (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) تقدم تفسيرها في سورة الأعراف بما فيه كفاية وقوله سبحانه وتعالى (يدبر الأمر) قال مجاهد يقضيه وحده وقيل معنى التدبير تنزيل الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها وقيل إنه سبحانه وتعالى يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة وهو الناظر في أدبار الأمور وعواقبها لئلا يدخل في الوجود ما لا ينبغي وقيل معناه أنه سبحانه وتعالى يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والأرض فلا يحدث حدث في العالم العلوي ولا في العالم السفلي إلا بإرادته وتدبيره وقضائه وحكمته (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) يعني لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له في الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب والحكمة في تدبيرهم فلا يجوز لأحد أن يسأله ما ليس له به علم فإذا أذن له في الشفاعة كان له أن يشفع فيمن يأذن له فيه وفيه رد على كفار قريش في قولهم إن الأصنام تشفع لهم عند الله يوم القيامة فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه لأن له التصرف المطلق في جميع العالم (ذلكم الله ربكم) يعني الذي خلق هذه الأشياء ودبرها هو ربكم وسيدكم لا رب لكم سواه (فاعبدوه) أي فاعملوا عبادتكم له لا لغيره لأنه المستحق للعبادات بما أنعم عليكم من النعم العظيمة (أفلا تذكرون) يعني أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الدلائل والآيات التي تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى ﴿ قوله سبحانه وتعالى (إليه مرجعكم جميعا) يعني إلى ربكم الذي خلق جميع المخلوقات مصيركم جميعا أيها الناس يوم القيامة والمرجع بمعنى الرجوع (وعد الله حقا) يعني وعدكم الله ذلك وعدا حقا (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) أي يحييهم ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم وهذا معنى قول مجاهد فإنه قال يحييه ثم يميته ثم يحييه ومعنى الآية دليل على إمكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكري البعث ووقوعه لأن القادر على خلق هذه الأجسام المؤلفة والأعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على إعادتها بعد تفرقها بالموت والبلى فيركب تلك الأجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى وكما لم يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن في المرة الأولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى وإذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه إيصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصي وهو قوله سبحانه وتعالى (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) يعني بالعدل لا ينقص من أجورهم شيئا (والذين كفروا لهم شراب من حميم) هو ماء حار قد انتهى حره (وعذاب أليم بما كانوا يكفرون هو الذي جعل الشمس ضياء) يعني ذات ضياء (والقمر نورا) يعني ذا نور واختلف العلماء أصحاب الكلام في أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض والحق أنه عرض وهو كيفية مخصوصة والنور اسم لأصل هذه الكيفية والضوء اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية فلهذا

والأرض والاستواء على العرش أتبعها هذه الحالة زيادة للدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور عن قضائه وتقديره وكذلك قوله (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) دليل على عزته وكبريائه (ذلكم) العظيم الموصوف بما وصف به (الله ربكم) وهو الذي يستحق العبادة (فاعبدوه) وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من إنسان أو ملك فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع (أفلا تذكرون) أفلا تتدبرون فتستدلون بوجود المصنوع والمانع على وجود الصانع النافع (إليه مرجعكم جميعا) حال أي لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقائه والمرجع الرجوع أو مكان الرجوع (وعد الله) مصدر مؤكد لقوله إليه مرجعكم (حقا) مصدر مؤكد لقوله وعد الله (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم (بالقسط) بالعدل وهو متعلق بيجزي أي ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم أو بقسطهم أي بما قسطوا وعدلوا فيه حين آمنوا إذ الشرك ظلم إن الشرك لظلم عظيم وهذا أوجه لمقابلة قوله (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) ولوجه كلامي (هو الذي جعل الشمس ضياء) الياء فيه منقلبة عن واو لانكسار ما قبلها وقلبها قنبل همزة لأنها لحركة أجمل (والقمر نورا) والضياء أقوى من النور فلذا جعله للشمس

(وقدره) وقدر القمر أي وقدر مسيره (منازل) أو قدره ذا منازل كقوله والقمر قدرناه منازل (لتعلموا عدد السنين) أي عدد السنين والشهور فاكتفى بالسنين لاشتمالها على الشهور (والحساب) وحساب الآجال والمواقيت المقدرة بالسنين والشهور (ما خلق الله ذلك) المذكور (الا) ملتبسا (بالحق) الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثا (يفصل الآيات) مكي وبصري وحفص

وباقون غيرهم (لقوم يعلمون) فينتفعون بالتأمل فيها (ان في اختلاف الليل والنهار) في مجيء كل واحد منهما خلف الآخر أو في اختلاف لونيهما (وما خلق الله في السموات والارض) من الخلائق (لآيات لقوم يتقون) خصهم بالذكر لانهم يحذرون الآخرة فيدعوهم الحذر الى النظر (ان الذين لا يرجون لقاءنا) لا يتوقعونه أصلا ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم عن التعطي للحقائق أولا يؤملون حسن لقائنا كما يؤمله السعداء أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يخاف (ورضوا بالحيوة الدنيا) من الآخرة وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي (واطمأنوا بها) وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها فبنوا شديدا وأملوا بعيدا (والذين هم عن آياتنا غافلون) لا يتفكرون فيها ولا وقف عليه لان خبر ان (أولئك مأواهم النار) فأولئك مبتدأ ومأواهم مبتدأ ثان والنار خبره والجملة خبر أولئك والباء في (بما كانوا يكسبون) يتعلق بمحذوف دل عليه الكلام وهو جوزوا (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم) يسددهم بسبب ايمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد المؤدي الى الثواب ولذا جعل

خص الشمس بالضياء لانه أقوى وأكمل من النور وخص القمر بالنور لانه أضعف من الضياء ولانهما لو تساويا لم يعرف الليل من النهار فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر (وقدره منازل) قيل الضمير في وقدره يرجع الى الشمس والقمر والمعنى قدرهما منازل أو قدر لهما منازل لا يجاوزانها في السير ولا يقصران عنها وانما وحد الضمير في وقدره للايجاز أو اكتفى بذكر أحدهما دون الآخر وهو كقوله سبحانه وتعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقيل الضمير في وقدره يرجع الى القمر وحده لان سير القمر في المنازل أسرع وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك لان الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الاهلة والسنة المعتبرة في الشرع هي السنة القمرية لا الشمسية ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلا وهي الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانى والاكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت فهذه منازل القمر وهي مقسومة على اثنى عشر برجا وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت لكل برج منزلان وثلث منزل وينزل القمر كل ليلة منزلا منها الى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان تسعا وعشرين استتر ليلة واحدة (لتعلموا عدد السنين) يعني قدر هذه المنازل لتعلموا بها عدد السنين ووقت دخولها وانقضائها (والحساب) يعني ولتعلموا حساب الشهور والايام والساعات ونقصانها وزيادتها (ما خلق الله ذلك الا بالحق) يعني للحق واظهار قدرته ودلائل وحدانيته ولم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا (يفصل الآيات لقوم يعلمون) يعني يبين دلائل التوحيد بالبراهين القاطعة لقوم يستدلون بها على قدرة الله ووحدانيته (ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والارض لآيات لقوم يتقون) تقدم تفسير هذه الآية في نظائرها (ان الذين لا يرجون لقاءنا) يعني لا يخافون لقاءنا يوم القيامة فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف تقول العرب فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله سبحانه وتعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي * اذا لسعته النحل لم يرج لسعها * أي لم يخف والرجاء يكون بمعنى الطمع فيكون المعنى لا يطمعون في ثوابنا (ورضوا بالحيوة الدنيا) يعني اختاروها وعملوا لها فهم راضون بزينة الدنيا وزخرفها (واطمأنوا بها) يعني وسكنوا اليها مطمئنين فيها وهذه الطمأنينة التي حصلت في قلوب الكفار من الميل الى الدنيا ولذاتها أزالت عن قلوبهم الوجل والخوف فاذا سمعوا الانذار والتخويف لم يصل ذلك الى قلوبهم (والذين هم عن آياتنا غافلون) قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد وقال ابن عباس عن آياتنا يعني عن محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن غافلون أي معرضون (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) يعني من الكفر والتكذيب والاعمال الخبيثة * قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم) يعني يهديهم ربهم الى الجنات ثوابا لهم بايمانهم وأعمالهم الصالحة وقال مجاهد يهديهم على الصراط الى الجنة يجعل لهم نورا يمشون به وقال قتادة بلغنا أن المؤمن اذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة فيقول له من أنت فيقول أنا عملك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة

(تجري من تحتهم الأنهار) بيان له وتفسير لأن التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها أو يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة ومنه الحديث إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة فيقول له أنا عملك فيكون له نورا وقائدا إلى الجنة والكافر إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة فيقول له أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار وهذا دليل على أن الإيمان المجرد منج حيث قال بإيمانهم ولم يضم إليه العمل الصالح (في جنات النعيم) متعلق بتجري أو حال من الأنهار (دعواهم فيها سبحانك اللهم) أي دعاؤهم لأن اللهم نداء لله ومعناه اللهم إنا نسبحك أي يدعون الله بقولهم سبحانك اللهم تلذذا بذكره لا عبادة (وتحيتهم فيها سلام) أي يحيي بعضهم بعضا بالسلام أو هي تحية الملائكة إياهم وأضيف المصدر إلى المفعول أو تحية الله لهم (وآخر دعواهم) وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح (أن الحمد لله رب العالمين) أن يقولوا الحمد لله رب العالمين أن مخففة من الثقيلة وأصله أنه الحمد لله رب العالمين والضمير للشأن قيل أول كلامهم التسبيح وآخره التحميد فيبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بالشكر والثناء عليه ويتكلمون بينهما بما أرادوا (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) أصله ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعارا بسرعة إجابته لهم والمراد أهل مكة وقولهم فأمطر علينا حجارة من السماء أي ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه (لقضي إليهم أجلهم) لأميتوا وأهلكوا [illegible] لقضى إليهم أجلهم شامي على البناء للفاعل وهو الله عز وجل

وذكر في المسند [illegible] قال ابن الأنباري يجوز أن يكون المعنى أن الله يزيدهم هداية [illegible] ويجوز أن يكون المعنى ويثبتهم على الهداية وقيل معناه بإيمانهم يهديهم ربهم لدينه أي بتصديقهم هداهم (تجري من تحتهم الأنهار) يعني بين أيديهم وهم يرونها من أعالي أسرتهم وقصورهم وهو كقوله سبحانه وتعالى قد جعل ربك تحتك سريا لم يرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه بل أراد بين يديها وقيل تجري بأمرهم (في جنات النعيم) يعني ذلك لهم في جنات النعيم (دعواهم فيها) أي قولهم وكلامهم فيها وقيل الدعوى بمعنى الدعاء أي دعاؤهم فيها (سبحانك اللهم) وهي كلمة تنزيه لله تعالى من كل سوء ونقيصة قال أهل التفسير هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام فإذا أرادوا الطعام قالوا سبحانك اللهم فيأتونهم في الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل في ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضا فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما أعطاهم فذلك قوله تبارك وتعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وقيل إن المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله عز وجل والثناء عليه بما هو أهله وفي هذا الذكر والتحميد سرورهم وابتهاجهم وكمال لذتهم ويدل عليه ما روي عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وفي رواية التسبيح والحمد أخرجه مسلم قوله جشاء أي يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقا وقوله سبحانه وتعالى (وتحيتهم فيها سلام) يعني يحيي بعضهم بعضا بالسلام وقيل تحييهم الملائكة بالسلام وقيل تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) قد ذكرنا أن جماعة من المفسرين حملوا التسبيح والتحميد على أحوال أهل الجنة بسبب المأكول والمشروب وأنهم إذا اشتهوا شيئا قالوا سبحانك اللهم فيحضر ذلك الشيء وإذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فيرفع [illegible] وقال الزجاج أعلم الله أن أهل الجنة يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه وقيل إنهم يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد وقيل إنهم يلهمون ذلك [illegible] تعالى

قوله تعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) يعني ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر [illegible] ومكروه في نفس أو مال قال ابن عباس هذا في قول الرجل لأهله وولده عند الغضب [illegible] فيكم وقال قتادة هو دعاء الرجل على نفسه وماله وأهله وولده بما يكره أن يستجاب له (استعجالهم بالخير) يعني كاستعجالهم بالخير وكما يحبون أن يعجل لهم الإجابة في الخير (لقضي إليهم أجلهم) يعني لفرغ من هلاكهم ولماتوا جميعا والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته والاستعجال طلب العجلة [illegible] أن الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على أنفسهم وأهلهم [illegible] بالرزق والرحمة وإعطاء السؤال يقول لو أجابهم الله إذا دعوا بالشر [illegible] لقضي إليهم أجلهم يعني لفرغ من هلاكهم ولكن الله [illegible] بالخير ولا يستجيب لهم في الشر وقيل إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث [illegible] هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء [illegible] كالعقل [illegible]

سبحانه وتعالى (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) يعني فندع الذين لا يخافون عقابنا ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت (في طغيانهم) يعني في تمردهم وعتوهم (يعمهون) يعني يترددون (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اني اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فانما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة ۞ قوله عز وجل (واذا مس الانسان الضر) أي الشدة والجهد والمراد بالانسان في هذه الآية الكافر (دعانا لجنبه) أي على جنبه مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) يريد جميع حالاته لان الانسان لا ينفك عن احدى هذه الحالات الثلاث والمعنى ان المضرور لا يزال داعيا في جميع حالاته الى أن ينكشف ضره سواء كان مضطجعا أو قاعدا أو قائما وقال الزجاج وجائز أن يكون المعنى اذا مس الانسان الضر لجنبه أو مسه قاعدا أو مسه قائما وهذا القول فيه بطلان ذكر الدعاء الى هذه الاحوال أقرب من ذكر الضر (فلما كشفنا عنه ضره) يعني فلما أزلنا عنه ما نزل به من الضر ودفعنا عنه (مر) يعني على طريقته الاولى قبل مس الضر (كأن لم يدعنا) فيه حذف تقديره كأنه لم يدعنا لكنه أسقط الضمير على سبيل التخفيف (الى ضر مسه) والمعنى انه استمر على حالته الاولى قبل أن يمسه الضر ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) يعني مثل ما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح كذلك زين للمسرفين والمزين هو الله سبحانه وتعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء وقيل المزين هو الشيطان وذلك باقدار الله اياه على ذلك والمسرف هو المجاوز الحد في كل شيء وانما سمي الكافر مسرفا لانه أتلف نفسه وضيعها في عبادة الاصنام وأتلف ماله وضيعه في البحائر والسوائب وما كانوا ينفقونه على الاصنام وسدنتها يعني خدامها وقال ابن جريج في قوله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون يعني من الدعاء عند المصيبة وترك الشكر عند الرخاء وقيل كما زين لكم أعمالكم كذلك زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم وبيان مقصود الآية ان الانسان قليل الصبر عند نزول البلاء قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء فاذا مسه الضر أقبل على الدعاء والتضرع في جميع حالاته مجتهدا في الدعاء طالبا من الله ازالة ما نزل به من المحنة والبلاء فاذا كشف الله ذلك عنه أعرض عن الشكر ورجع الى ما كان عليه أولا وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين فأما المؤمن العاقل فانه بخلاف ذلك فيكون صابرا عند البلاء شاكرا عند الرخاء والنعماء كثير التضرع والدعاء في جميع أوقات الراحة والرفاهية وههنا مقام أعلى من هذا وهو ان المؤمن اذا ابتلي ببلية أو نزل به مكروه يكون مع صبره على ذلك راضيا بقضاء الله غير معترض بالقلب عنه بل يكون شاكرا لله عز وجل في جميع أحواله وليعلم العبد المؤمن ان الله تبارك وتعالى مالك الملك على الاطلاق حكيم في جميع أفعاله وله التصرف في خلقه بما يشاء ويعلم أنه ان أبقاه على تلك المحنة فهو عدل وان أزالها عنه فهو فضل ۞ قوله سبحانه وتعالى (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) يعني أهلكنا الامم الماضية من قبلكم يخوف بذلك كفار مكة (لما ظلموا) يعني لما أشركوا (وجاءتهم رسلهم بالبينات) يعني فكذبوهم (وما كانوا ليؤمنوا) يعني هذه الامم برسلهم ويصدقوهم بما جاؤا به من عند الله (كذلك نجزي القوم المجرمين) يعني كما أهلكنا

(فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم) شركهم وضلالهم (يعمهون) يترددون ووجه اتصاله بما قبله ان قوله ولو يعجل الله متضمن معنى نفي التعجيل كأنه قيل ولا نعجل لهم الشر ولا نقضي اليهم أجلهم فنذرهم في طغيانهم أي فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم الزاما للحجة عليهم (واذا مس الانسان) أصابه والمراد به الكافر (الضر دعانا) أي دعا الله لازالته (لجنبه) في موضع الحال بدليل عطف الحالين أي (أو قاعدا أو قائما) عليه أي دعانا مضطجعا وفائدة ذكر هذه الاحوال ان المضرور لا يزال داعيا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر فهو يدعونا في حالاته كلها كان مضطجعا عاجزا عن النهوض أو قاعدا لا يقدر على القيام أو قائما لا يطيق المشي (فلما كشفنا عنه ضره) أزلنا ما به (مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه) أي مضى على طريقته الاولى قبل مس الضر ونسي حال الجهد أو مر عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع اليه كأنه لا عهد له به والاصل كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن (كذلك) مثل ذلك التزيين (زين للمسرفين) للمجاوزين الحد في الكفر زين الشيطان بوسوسته (ما كانوا يعملون) من الاعراض عن الذكر واتباع الكفر (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) يا أهل مكة (لما ظلموا) أشركوا وهو ظرف لاهلكنا والواو في (وجاءتهم رسلهم) للحال أي ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم (بالبينات) بالمعجزات (وما كانوا ليؤمنوا) ان بقوا ولم يهلكوا لان الله علم منهم أنهم يصرون الامم على كفرهم وهو عطف على ظلموا أو اعتراض واللام لتأكيد النفي يعني ان السبب في اهلاكهم تكذيبهم للرسل وعلم الله أنه لا فائدة في امهالهم بعد ان ألزموا الحجة ببعثة الرسل (كذلك) مثل ذلك الجزاء يعني الاهلاك (نجزي القوم المجرمين) وهو وعيد لاهل مكة على

الأمم الخالية لما كذبوا رسلهم كذلك نهلككم أيها المشركون بتكذيبكم محمدا صلى الله عليه وسلم (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم) الخطاب لأهل مكة الذين أرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ثم جعلناكم أيها الناس خلفاء في الأرض من بعد القرون الماضية الذين أهلكناهم (لننظر كيف تعملون) يعني خيرا أو شرا فنعاملكم على حسب أعمالكم والنظر هاهنا بمعنى العلم يعني ليعلم أعمالكم وهو يعلم ما يكون قبل أن يكون قال أهل المعاني معنى النظر هو طلب العلم ويجوز وصف الله تعالى به لأنه سبحانه وتعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه كقوله تبارك وتعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا ذكره الواحدي والرازي (م) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء أخرجه مسلم قوله حلوة خضرة والدنيا بمعناه احذروا الدنيا واحذروا فتنة النساء ﴿ قوله سبحانه وتعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعني وإذا قرئ على هؤلاء المشركين آيات كتابنا الذي أنزلناه إليك يا محمد بينات يعني واضحات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك (قال الذين لا يرجون لقاءنا) يعني قال هؤلاء المشركون الذين لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا للبعث فإنه لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا (ائت بقرآن غير هذا أو بدله) قال قتادة قال ذلك مشركو مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر بن هشام قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إن كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن غير هذا ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وإن لم ينزله الله عليك فقل أنت من عند نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ومكان حرام حلالا ومكان حلال حراما قال الإمام فخر الدين الرازي اعلم أن إقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين أحدهما أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء وهو قولهم لو جئتنا بقرآن غير هذا القرآن أو بدلته لآمنا بك وغرضهم السخرية والاستهزاء الثاني أن يكون قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان حتى إنه لو فعل ذلك علموا أنه كان كاذبا في قوله إن هذا القرآن ينزل عليه من عند الله ومعنى قولهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله يحتمل أن يأتي بقرآن آخر مع وجود هذا القرآن والتبديل لا يكون إلا مع وجوده وهو أن يبدل بعض آياته بغيرها كما طلبوا فلما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يجيبهم بقوله (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء (ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي) يعني أن هذا الذي طلبتموه من التبديل ليس إلي ولا يجوز لي أن أغيره من قبل نفسي ولم أومر به (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) يعني فيما آمركم به وأنهاكم عنه وما أخبركم إلا ما يخبرني الله به وإن الذي أتيتكم به هو من عند الله لا من عندي (إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) أي قل لهم يا محمد إني أخشى من الله إن خالفت أمره وغيرت أحكام كتابه أو بدلته فعصيته بذلك أن يعذبني بعذاب عظيم في يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴿ قوله سبحانه وتعالى (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء

إيراد في تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم) الخطاب للذين بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناها (لننظر كيف تعملون) أي لننظر أتعملون خيرا أو شرا فنعاملكم على حسب عملكم وكيف في محل النصب بتعملون لا بننظر لأن معنى الاستفهام فيه يمنع أن يتقدم عليه عامله والمعنى أنتم بمنظر منا فانظروا كيف تعملون أبالاعتبار بماضيكم أم الاغترار بما قبلكم قال عليه السلام إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) حال (قال الذين لا يرجون لقاءنا) لما غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد لأهل الطغيان (ائت بقرآن غير هذا) ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك (أو بدله) بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها فأمر بأن يجيب عن التبديل لأنه داخل تحت قدرة الإنسان وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة وأن يسقط ذكر الآلهة بقوله (قل ما يكون لي) ما يحل لي (أن أبدله من تلقاء نفسي) من قبل نفسي (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) لا أتبع إلا وحي الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل لأن الذي أتيت به من عند الله لا من عندي فأبدله (إني أخاف إن عصيت ربي) بالتبديل من عند نفسي (عذاب يوم عظيم) أي يوم القيامة وأما الإتيان بقرآن آخر فلا يقدر عليه الإنسان وقد ظهر لهم العجز عنه إلا أنهم كانوا لا يعترفون بالعجز ويقولون لو نشاء لقلنا مثل هذا ولا يحتمل أن يريدوا بقولهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله من جهة الوحي لقوله إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم وغرضهم في هذا الاقتراح الكيد أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله فأبدل مكانه آخر وأما اقتراح التبديل فلاختبار الحال وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه أو لا يهلكه فيسخروا منه ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحا لافترائه على الله (قل

المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله (لو شاء الله ما تلوته عليكم) يعني لو شاء الله لم ينزل على هذا القرآن ولم يأمرني بقراءته عليكم (ولا أدراكم به) قال ابن عباس ولا أدراكم الله به ولا أعلمكم به (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) يعني فقد مكثت فيكم قبل أن يوحى الي هذا القرآن مدة أربعين سنة لم آتكم بشيء ووجه هذا الاحتجاج ان كفار مكة كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وعلموا أحواله وانه كان أميا لم يطالع كتابا ولا تعلم من أحد مدة عمره قبل الوحي وذلك أربعون سنة ثم بعد الاربعين جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس العلوم وأخبار الماضين وفيه من الاحكام والآداب ومكارم الاخلاق والفصاحة والبلاغة ما أعجز البلغاء والفصحاء عن معارضته فكل من له عقل سليم وفهم ثاقب يعلم ان هذا لم يحصل الا بوحي من الله تعالى لا من عند نفسه وهو قوله (أفلا تعقلون) يعني ان هذا القرآن من عند الله أوحاه الي لا من قبل نفسي (ق) عن ابن عباس قال أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى اليه ثم أمر بالهجرة فهاجر الى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفي صلى الله عليه وسلم وفي رواية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى اليه وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة وفي رواية ان النبي صلى الله عليه وسلم أقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيأ وثمان سنين يوحى اليه وأقام بالمدينة عشرا وتوفي وهو ابن خمس وستين سنة أخرجاه في الصحيحين (ق) عن عائشة قالت توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة أخرجاه في الصحيحين (م) عن أنس قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين وعمر وهو ابن ثلاث وستين أخرجه مسلم (ق) عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال سمعت أنس بن مالك يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كان ربعة من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير أزهر اللون ليس بالابيض الامهق ولا بالآدم ليس بجعد قطط ولا سبط رجل أنزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه الوحي وبالمدينة عشرا وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء أخرجاه في الصحيحين قال الشيخ محيي الدين النووي وورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها انه صلى الله عليه وسلم توفي وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهي أصحها وأشهرها رواها مسلم من حديث أنس وعائشة وابن عباس واتفق العلماء على ان أصحها ثلاث وستون سنة وتأولوا الباقي عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس متأولة أيضا انها حصل فيها اشتباه قوله يسمع الصوت يعني صوت الهاتف من الملائكة ويرى الضوء يعني نور الملائكة أو نور آيات الله حتى رأى الملك بعينه وشافهه بالوحي من الله عز وجل وقوله ليس بالابيض الامهق المراد به الشديد البياض كلون الجص وهو كريه المنظر وربما توهم الناظر أنه برص والمراد انه كان أزهر اللون بين البياض والحمرة ﴿ قوله عز وجل (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني فزعم أن له شريكا وولدا والمعنى انى لم أفتر على الله كذبا ولم أكذب عليه في قولي ان هذا القرآن من عند الله وأنتم قد افتريتم على الله الكذب فزعمتم ان له شريكا وولدا والله تعالى منزه عن الشريك والولد وقيل معناه ان هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان أحد في الدنيا أظلم على نفسي مني حيث اني افتريته على الله ولما كان هذا القرآن من عند الله أوحاه الي وجب أن يقال ليس أحد في الدنيا أجهل ولا أظلم على نفسه منكم من حيث انكم أنكرتم أن يكون هذا القرآن من عند الله فقد كذبتم بآياته وهو قوله تعالى (أو كذب بآياته) يعني جحد بكون القرآن من عند الله وأنكر دلائل التوحيد (انه لا يفلح المجرمون) يعني المشركين وهذا وعيد وتأكيد لما سبق (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) يعني ويعبد هؤلاء

(لو شاء الله ما تلوته عليكم) يعني ان تلاوته ليست الا بمشيئة الله واظهاره أمرا عجيبا خارجا عن العادات وهو ان يخرج رجل أمي لم يتعلم ولم يشاهد العلماء فيقرأ عليكم كتابا فصيحا يغلب كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم مشحونا بعلوم الاصول والفروع والاخبار عن الغيوب التي لا يعلمها الا الله (ولا أدراكم به) ولا أعلمكم الله بالقرآن على لساني (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) من قبل نزول القرآن أي فقد أقمت فيما بينكم أربعين سنة ولم تعرفوني متعاطيا شيأ من نحوه ولا قدرت عليه ولا كنت موصوفا بعلم وبيان فتتهموني باختراعه (أفلا تعقلون) فتعلموا انه ليس الا من عند الله لا من مثلي وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم ائت بقرآن غير هذا من اضافة الافتراء اليه (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في أنه ذو شريك وذو ولد وان يكون نفيا لما أضافوه اليه من الافتراء (أو كذب بآياته) بالقرآن فيه بيان ان الكاذب على الله والمكذب بآياته في الكفر سواء (انه لا يفلح المجرمون ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم) ان تركوا عبادتها (ولا ينفعهم) ان عبدوها ... المشركون

المشركون الأصنام التي لا تضرهم إن عصوها وتركوا عبادتها ولا تنفعهم إن عبدوها لأنها حجارة وجماد لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل لأن العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا تليق إلا بمن يبصر ويسمع ويحيي ويميت وهذه الأصنام جماد وحجارة لا تبصر ولا تسمع (ويقولون هؤلاء) يعني الأصنام التي يعبدونها (شفعاؤنا عند الله) قال أهل المعاني توهموا أن عبادتها أشد في تعظيم الله من عبادتهم إياه وقالوا لسنا بأهل أن نعبد الله ولكن نشتغل بعبادة هذه الأصنام فإنها تكون شفعاء لنا عند الله ونظيره قوله سبحانه وتعالى إخبارا عنهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى وهذه الشفاعة قول أن أصحابها يزعمون أنها تشفع لهم في الآخرة قال ابن جريج عن ابن عباس ... شفعاؤنا في إصلاح معايشهم في الدنيا لأنهم كانوا لا يعتقدون بعثا بعد الموت (قل) أي قل لهم يا محمد (أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض) يعني أتخبرون الله أن له شريكا ولا يعلم الله لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرض وهذا على طريق الإلزام والمقصود منه نفي ذلك الشريك وأنه لا وجود له لأنه لو كان موجودا لعلمه الله تعالى وحيث لم يكن معلوما وجب أن لا يكون موجودا ومثل هذا مشهور في العرف فإن الإنسان إذا أراد نفي شيء حصل في نفسه يقول ما علم الله ذلك مني ومقصوده أنه ما حصل ذلك الشيء منه قط ولا وقع (سبحانه وتعالى عما يشركون) نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الشركاء والأنداد وتعالى أن يكون له شريك في السموات والأرض ولا مثله ۞ قوله سبحانه وتعالى (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) يعني فصاروا إلى مؤمن وكافر يعني كانوا جميعا على الدين الحق وهو دين الإسلام ويدل على ذلك أن آدم عليه السلام وذريته كانوا على دين الإسلام إلى أن قتل قابيل هابيل ثم اختلفوا وقيل إنهم استمروا على ذلك إلى زمن نوح عليه السلام ثم اختلفوا فبعث الله نوحا وقيل إنهم كانوا على دين الإسلام وقت خروج نوح ومن معه من السفينة ثم اختلفوا بعد ذلك وقيل كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحي فعلى هذا القول يكون المراد من الناس في قوله وما كان الناس إلا أمة واحدة العرب خاصة وقيل كان الناس أمة واحدة يعني في الكفر وهذا القول منقول عن جماعة من المفسرين ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وتقريره أنه لا مطمع في أن يصير الناس على دين واحدة فهم كانوا أولا على الكفر وإنما أسلم بعضهم بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وقيل كان الناس أمة واحدة وليس في الآية ما يدل على أي دين كانوا من إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج وقيل معناه أنهم كانوا في أول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة ثم اختلفوا في الأديان وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه والمراد بالفطرة في الحديث فطرة الإسلام ۞ قوله سبحانه وتعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك) يعني أنه سبحانه وتعالى جعل لكل أمة أجلا وقضى بذلك في سابق الأزل قال الكلبي هي إمهال هذه الأمة وأنه لا يهلكهم بالعذاب (لقضي بينهم) يعني بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلا بينهم (فيما فيه يختلفون) وقال الحسن ولولا كلمة سبقت من ربك يعني مضت في حكمه أنه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون يوم القيامة لقضى بينهم في الدنيا فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم وأدخل الكافرين النار بكفرهم ولكن سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة وقيل سبق من الله أنه لا يؤاخذ أحدا إلا بعد إقامة الحجة عليه وقيل الكلمة التي سبقت من الله هي قوله إن رحمتي سبقت غضبي ولولا رحمته لعاجلهم بالعقوبة في الدنيا ولكن أخرهم برحمته إلى يوم القيامة ثم يقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون يعني في الدنيا (ويقولون) يعني كفار مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) يعني هلا أنزل على محمد آية نقترحها عليه من الآيات (فقل) أي فقل لهم يا محمد (إنما الغيب لله) يعني أن الذي سألتموه بمعزل من الغيب وإنما الغيب

(ويقولون هؤلاء) أي الأصنام (شفعاؤنا عند الله) أي في أمر الدنيا ومعيشتها لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت أو يوم القيامة إن يكن بعث ونشور (قل أتنبئون الله بما لا يعلم) أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله وإذا لم يكن معلوما له وهو العالم بجميع المعلومات لم يكن شيئا وقوله (في السموات ولا في الأرض) تأكيد لنفيه لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم (سبحانه وتعالى عما يشركون) نزه ذاته عن أن يكون له شريك وبالتاء حمزة وعلي وما موصولة أو مصدرية أي عن الشركاء الذين يشركونه به أو عن إشراكهم (وما كان الناس إلا أمة واحدة) حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم وذلك في عهد آدم عليه السلام إلى أن قتل قابيل هابيل أو بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا (فاختلفوا) فصاروا مللا (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة (لقضي بينهم) عاجلا (فيما فيه يختلفون) فيما اختلفوا فيه ولميز المحق من المبطل وسبق كلمته لحكمة وهي أن هذه الدار دار تكليف وتلك الدار دار ثواب وعقاب (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه) أي آية من الآيات التي اقترحوها (فقل إنما الغيب لله) أي هو المختص بعلم الغيب فهو العالم بالصارف عن إنزال الآيات المقترحة لا غير

(فانتظروا) نزول ما اقترحتموه (انى معكم من المنتظرين) لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات (واذا أذقنا الناس) أهل مكة (رحمة) خصبا وسعة (من بعد ضراء مستهم) يعنى القحط والجوع (اذا لهم مكر فى آياتنا) أى مكروا بآياتنا بدفعها وانكارها

روى انه تعالى سلط القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فلما رحمهم طفقوا يطعنون فى آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدونه فاذا الاولى للشرط والثانية جوابها وهى للمفاجأة وهو كقوله وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذا هم يقنطون أى وان تصبهم سيئة قنطوا واذا أذقنا الناس رحمة مكروا والمكر اخفاء الكيد وطيه من الجارية الممكورة المطوية الخلق ومعنى مستهم خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم وانما قال (قل الله أسرع مكرا) ولم يصفهم بسرعة المكر لان كلمة المفاجأة دلت على ذلك كانه قال واذا رحمناهم من بعد ضراء فاجؤا وقوع المكر منهم وسارعوا اليه قبل ان يغسلوا رؤسهم من مس الضراء (ان رسلنا) يعنى الحفظة (يكتبون ما تمكرون) اعلام بان ما تظنونه خافيا لا يخفى على الله وهو منتقم منكم بالباء سهل (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) يجعلكم قادرين على قطع المسافات بالارجل والدواب والفلك الجارية فى البحار أو يخلق فيكم السير يسيركم شامى. ينشركم (حتى اذا كنتم فى الفلك) أى السفن (وجرين) أى السفن (بهم) بمن فيها رجوع من الخطاب الى الغيبة للمبالغة (بريح طيبة) لينة الهبوب لا عاصفة ولا ضعيفة (وفرحوا بها) بتلك الريح للينها واستقامتها

الله لا يعلم أحد ذلك الا هو والمعنى لا يعلم أحد متى نزول الآية الا هو (فانتظروا) يعنى نزولها (انى معكم من المنتظرين) وقيل معناه فانتظروا قضاء الله بيننا باظهار الحق على المبطل انى معكم من المنتظرين ﴿ قوله عز وجل (واذا أذقنا الناس رحمة) يعنى رخاء ونعمة (من بعد ضراء مستهم) يعنى من بعد شدة وبؤس فى العيش أصابهم والمراد بالناس هنا كفار مكة وذلك ان الله سبحانه وتعالى حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط ثم ان الله سبحانه وتعالى رحمهم فانزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك الضر فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا الى الفساد والكفر والمكر وهو قوله سبحانه وتعالى (اذا لهم مكر فى آياتنا) قال مجاهد أى تكذيب واستهزاء وقال مقاتل بن حيان لا يقولون هذا رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا ويدل على صحة هذا القول ما روى عن زيد بن خالد الجهنى قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فاما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب أخرجاه فى الصحيحين قوله على أثر سماء كانت من الليل أى مطر كان قد وقع فى الليل وسمى المطر سماء لانه ينزل من السماء والانواء عند العرب هى منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره وكانوا يعتقدون فى الجاهلية انه لا بد عند ذلك من وجود مطر أو ريح كما يزعم المنجمون فمن العرب من يجعل التأثير للطالع لانه ناء أى ظهر وطلع ومنهم من ينسبه للغارب فنفى النبى عليه السلام صحة ذلك ونهى عنه وكفر معتقده اذا اعتقد ان النجم فاعل ذلك التأثير وأما من يجعله دليلا فهو جاهل بمعنى الدلالة وأما من أسند ذلك الى العادة التى يجوز انخرامها فقد كرهه قوم وحرمه قوم ومنهم من تأول الكفر بكفر نعمة الله والله أعلم وسمى تكذيبهم بآيات الله مكرا لان المكر عبارة عن صرف الشئ عن وجهه الظاهر بنوع من الحيلة وكان كفار مكة يحتالون فى دفع آيات الله بكل ما يقدرون عليه من المفاسد (قل الله أسرع مكرا) أى قل لهم يا محمد الله أعجل عقوبة وأشد أخذا وأقدر على الجزاء وان عذابه فى اهلاككم أسرع اليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق ولما قابلوا نعمة الله بالمكر قابل مكرهم بمكر أشد منه وهو امهالهم الى يوم القيامة (ان رسلنا يكتبون ما تمكرون) يعنى الحفظة الكرام الكاتبين يكتبون ويحفظون عليهم الاعمال القبيحة السيئة الى يوم القيامة حتى يفتضحوا بها ويجزون على مكرهم ﴿ قوله تعالى (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) يعنى هو الذى يسيركم يعنى يحملكم فى البر على ظهور الدواب وفى البحر على الفلك وقيل معناه هو الله الهادى لكم فى السير فى البر والبحر طلبا للمعاش أو هو المهيئ لكم أسباب السير فى البر والبحر (حتى اذا كنتم فى الفلك) يعنى السفن ولفظة الفلك تطلق على الواحد والجمع وتقديراهما مختلفان فان أريد بها الواحد كان كبناء قفل وان أريد بها الجمع كان كبناء أسد والمراد بها هنا الجمع لقوله تعالى (وجرين بهم) يعنى وجرت السفن بركابها فان قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة قلت قال صاحب الكشاف المقصود به المبالغة كانه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم مزيد الانكار والتقبيح وقال غيره ان مخاطبته لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه ان يرده الى الغائب وقيل ان الالتفات فى الكلام من الغيبة الى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب (بريح طيبة) يعنى وجرت السفن بريح طيبة ساكنة (وفرحوا بها) يعنى وفرح ركبان

بريح طيبة لأن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود حصل له النفع التام والسرور العظيم بذلك (جاءتها ريح عاصف) قيل إن الضمير في جاءتها يرجع إلى الريح فيكون المعنى جاءت الريح الطيبة ريح عاصف أي شديدة وقيل الضمير في جاءتها يرجع إلى الفلك يعني جاءت الفلك ريح عاصف يقال ريح عاصف وعاصفة ومعنى عصفت الريح اشتدت وأصل العصف السرعة وإنما قال عاصف لأنه أراد به ذات عصوف ولأن لفظ الريح مذكر (وجاءهم الموج من كل مكان) يعني وجاء ركبان السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من غوارب الماء في البحر وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه (وظنوا أنهم أحيط بهم) يعني وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحدق وقيل المراد من الظن اليقين أي وأيقنوا أنه الهلاك وقيل بل المراد منه المقاربة من الهلاك والدنو منه والإشراف عليه (دعوا الله مخلصين له الدين) يعني أنهم أخلصوا في الدعاء لله عز وجل ولم يدعوا أحدا سواه من آلهتهم وقيل في معنى هذا الإخلاص أنه الخلق الحقيقي لا إخلاص الإيمان لأنهم كانوا يعلمون حقيقة أنه لا ينجيهم من جميع الشدائد إلا الله تعالى فكانوا إذا وقعوا في شدة وضر ولجئوا أخلصوا له الدعاء (لئن أنجيتنا) أي قائلين لئن أنجيتنا يا ربنا (من هذه) يعني من هذه الشدة التي نحن فيها وهي الريح العاصفة والأمواج الشديدة (لنكونن من الشاكرين) يعني من الشاكرين لك على إنعامك علينا بخلاصنا مما نحن فيه من هذه الشدة (فلما أنجاهم) يعني فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التي كانوا فيها (إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق) يعني أنهم أخلفوا الله ما وعدوه وبغوا في الأرض فتجاوزوا فيها إلى غير ما أمر الله به من الكفر والعمل بالمعاصي على ظهرها وأصل البغي مجاوزة الحد قال صاحب المفردات البغي على ضربين أحدهما محمود وهو مجاوزة العدل إلى الإحسان والفرض إلى التطوع والثاني مذموم وهو مجاوزة الحق إلى الباطل أو إلى الشبه قال صاحب الكشاف فإن قلت فما معنى قوله بغير الحق والبغي لا يكون بحق قلت بلى فقد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ببني قريظة (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) يعني أن وبال بغيكم راجع عليكم (متاع الحياة الدنيا) قيل هو كلام مبتدأ والمعنى أن بغي بعضكم على بعض هو متاع الحياة الدنيا لا يصلح لزاد الآخرة وقيل هو كلام متصل بما قبله والمعنى يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم لا يتهيأ أن يبغي بعضكم على بعض إلا أياما قليلة وهي مدة بقائكم مع قصرها وسرعة انقضائها والبغي من منكرات الذنوب العظام قال بعضهم لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعرا وكان المأمون يتمثل به فقال

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة ... فاربع فخير فعال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوما على جبل ... لاندك منه أعاليه وأسفله

وقوله سبحانه وتعالى (ثم إلينا مرجعكم) يعني يوم القيامة (فننبئكم) أي فنخبركم (بما كنتم تعملون) يعني في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليه ۞ قوله عز وجل (إنما مثل الحياة الدنيا) يعني في فنائها

(جاءتها) أي جاءت الفلك (ريح عاصف) ذات عصف أي شديدة الهبوب (وجاءهم الموج) هو ما علا على الماء (من كل مكان) من البحر أو من جميع أمكنة الموج (وظنوا أنهم أحيط بهم) أهلكوا وأصله أن العدو إذا أحاط بقوم أو بلد فقد دنا أهله من الهلاك (دعوا الله مخلصين له الدين) من غير إشراك به لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه يقولون (لئن أنجيتنا من هذه) الأهوال أو من هذه الريح (لنكونن من الشاكرين) لنعمتك مؤمنين متمسكين بطاعتك وإنما جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها كأنه قيل يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن للهلاك والدعاء بالإنجاء وجواب إذا جاءتها ودعوا بدل من ظنوا لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به (فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض) يفسدون فيها (بغير الحق) باطلا أي مبطلين (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) أي ظلمكم يرجع إليكم كقوله من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها (متاع الحياة الدنيا) حفص أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر بغيكم غيره بالرفع على أنه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته كقوله فبغى عليهم ومعناه إنما بغيكم على أمثالكم أو هو خبر ومتاع خبر بعد خبر أو متاع خبر مبتدأ مضمر أي هو متاع الحياة الدنيا وفي الحديث أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة وروي ثنتان يعجلهما الله في الدنيا البغي وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضي الله عنهما لو بغى جبل على جبل لدك الباغي وعن محمد بن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث والمكر قال الله تعالى إنما بغيكم على أنفسكم ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ومن نكث فإنما ينكث على نفسه (ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) فنخبركم به ونجازيكم عليه (إنما مثل الحياة الدنيا)

كماء انزلناه من السماء) من السحاب (فاختلط به) بالماء (نبات الارض) أى فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا (مما يأكل الناس) يعنى الحبوب والثمار والبقول (والانعام) يعنى الحشيش (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) زينتها بالنبات واختلاف ألوانه (وازينت) وتزينت به وهو أصله وأدغمت التاء فى الزاى وهو كلام فصيح جعلت الارض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس اذا أخذت الثياب الفاخر من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين (وظن أهلها) أهل الارض (أنهم قادرون عليها) متمكنون من حصدها ورفع غلتها (أتاها أمرنا) ضربها ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم (ليلا أونهارا فجعلناها) فجعلنا زرعها (حصيدا) شبيها بما حصد من الزرع فى قطعه واستئصاله (كأن لم تغن) كأن لم يغن زرعها أى لم يلبث حذف المضاف فى هذه المواضع لابد منه ليستقيم المعنى (٢١٠) (بالامس) هو مثل فى الوقت القريب كأنه قيل كأن لم تغن آنفا (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) فينتفعون بضرب الامثال وهذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا فى سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض فى جفافه وذهابه حطاما بعد ما التف وتكاثف وزين الارض بخضرته ورفيفه والتنبيه على حكمة التشبيه أن الحياة صفوها شبيبتها وكدرها شيبتها كأن صفو الماء فى أعلى الاناء قال ألم تر أن العمر كأس سلافة • فأوله صفو وآخره كدر وحقيقته تزيين جنة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التلوين فالطينة الطيبة تنبت بساتين الانس ورياحين الروح وزهرة الزهد وكروم الكرم وحبوب الحب وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة والخبيثة تخرج خلاف الخلاف وثمام الآثام وشوك الشرك وشيح الشح وحطب العطب ولعاع الأمل ثم كما يدعو ومعاده كما يعين للحرث حصاده فترك الحياة مغترا كما يهيج النبات مصفرا فتغيب جثته فى الرمس كأن لم تغن بالامس الى أن يعود ربيع البعث وموعد العرض والبحث وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره ولا بد من ترك ما زاد كما لا بد من أخذ الزاد وأخذ المال لا يخلو من زلة كما أن خائض الماء لا ينجو من بلة وجمعه وامساكه تلف صاحبه وأهلاكه فما دون النصاب بمنزلة ماء عاور بلا احماء والنصاب كنهر حائل بين المجتاز والجواز الى المفاز لا يمكن الا بقنطرة وهى الزكاة وعمارتها بذل الصلات فمتى اختلت القنطرة غرقته أمواج القناطير المقنطرة وعن هذا قال عليه السلام الزكاة قنطرة الاسلام وكذا المال يساعد الاوغاد دون الامجاد كما أن الماء يجتمع فى الوهاد دون النجاد وكذلك المال لا يجتمع الا بكد البخيل كما أن الماء لا يجتمع الا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء فى الكف

ورواها (كماء أنزلناه من السماء) يعنى المطر (فاختلط به) أى بالمطر (نبات الارض) قال ابن عباس نبت بالماء من كل لون (مما يأكل الناس) يعنى من الحبوب والثمار (والانعام) يعنى ومما يأكل الانعام من الحشيش ونحوه (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) يعنى حسنها ونضارتها وبهجتها وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من الزهور (وازينت) أى وتزينت (وظن أهلها) يعنى أهل تلك الارض (أنهم قادرون عليها) يعنى على جدادها وقطافها وحصادها رد الكناية الى الارض والمراد النبات اذ كان مفهوما وقيل رده الى الثمرة والغلة وقيل الى الزينة (أتاها أمرنا) أى قضاؤنا باهلاكها (ليلا أونهارا) يعنى فى الليل أو النهار (فجعلناها حصيدا) يعنى محصودة مقطوعة (كأن لم تغن بالامس) يعنى كأن لم تكن تلك الاشجار والنبات والزروع نابتة قائمة على ظهر الارض وأصله من غنى فلان بالمكان اذا أقام به وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمتشبثين بالدنيا الراغبين فى زهرتها وحسنها وذلك أنه تعالى لما قال يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا أتبعه بهذا المثل لمن بغى فى الارض وتجبر فيها وركن الى الدنيا وأعرض عن الآخرة لان النبات فى أول بروزه من الارض ومبدأ خروجه يكون ضعيفا فاذا نزل عليه المطر واختلط به قوى وحسن واكتسى كمال الرونق والزينة وهو المراد من قوله حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت يعنى بالنبات والزخرف عبارة عن كمال حسن الشئ وجعلت الارض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس اذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون حسن من حمرة وخضرة وصفرة وبياض ولا شك أن الارض متى كانت على هذه الصفة فانه يفرح بها صاحبها ويعظم رجاؤه فى الانتفاع بها وبما فيها ثم ان الله سبحانه وتعالى أرسل على هذه الارض صاعقة أو بردا أو ريحا فجعلها حصيدا كأن لم تكن من قبل قال قتادة ان المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون ووجه التمثيل ان غاية هذه الحياة الدنيا التى ينتفع بها المرء كناية عن هذا النبات الذى لما عظم الرجاء فى الانتفاع به وقع اليأس منه ولان المتمسك بالدنيا اذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها وقيل يحتمل أن يكون ضرب هذا المثل لمن ينكر المعاد والبعث بعد الموت وذلك لان الزرع اذا انتهى وتكامل فى الحسن الى الغاية القصوى أتته آفة فتلف بالكلية ثم ان الله سبحانه وتعالى قادر على اعادته كما كان أول مرة فضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليدل على أن من قدر على اعادة ذلك النبات بعد التلف كان قادرا على اعادة الاموات أحياء فى الآخرة ليجازيهم على أعمالهم فيثيب الطائع ويعاقب العاصى (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) يعنى

كأنه سبحانه يقول مثل الحياة الدنيا وزهرتها كمثل نبات كان نبت مخضرا وأرشى ... واعتبروا ليكون ذلك سبباً في صرفهم عن الاغترار بالدنيا والتمسك بالآخرة ﴿ قوله سبحانه وتعالى (والله يدعو إلى دار السلام) لما ذكر الله وحقر الحياة الدنيا وأعلمهم بفنائها لا محالة دعا إلى دار السلام قال قتادة الله هو السلام وداره الجنة فعلى هذا السلام اسم من أسماء الله عز وجل ومعناه أنه سبحانه وتعالى سلم من جميع النقائص والعيوب والفناء والتغير وقيل إنه سبحانه وتعالى يوصف بالسلام لأن الخلق سلموا من ظلمه وقيل إنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى ذي السلام أي لا يقدر على تخليص العاجزين من المكاره والآفات إلا هو وقيل دار السلام اسم الجنة وهو جمع سلامة والمعنى أن من دخلها سلم من جميع الآفات كالموت والمرض والمصائب والحزن والهم والتعب والنكد وقيل سميت الجنة دار السلام لأن الله سبحانه وتعالى يسلم على أهلها وتسلم الملائكة عليهم قيل إن في كل ... رحمة الله وجوده وكرمه لما دعا عباده إلى جنته التي هي دار السلام وفيه لطيفة على أن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لأن العظيم لا يدعو إلا إلى عظيم ولا يصف إلا عظيماً وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالحسن في آيات كثيرة من كتابه (ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) يعني والله يهدي من يشاء من خلقه إلى صراط المستقيم وهو دين الإسلام عم بالدعوة أولاً إظهاراً للحجة وخص بالهداية استغناء عن الخلق وإظهاراً للقدرة فالحكمة بين المعنيين (خ) عن جابر قال جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم العين نائمة والقلب يقظان فقالوا إن لصاحبكم مثلاً فاضربوا له مثلاً فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا أولوها له يفقهها فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم العين نائمة والقلب يقظان فقالوا فالدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس وفي رواية خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني رأيت في المنام كأن جبريل عليه السلام عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً وعن النواس بن سمعان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً على كتفي الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والأبواب التي على كنفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ﴿ قوله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى) قال ابن عباس للذين شهدوا أن لا إله إلا الله الجنة وقيل معناه للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا من خلقه وأطاعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه الحسنى قال ابن الأنباري الحسنى في اللغة تأنيث الأحسن والعرب توقع هذه اللفظة على الخلة المحبوبة المرغوب فيها وقيل معناه للذين أحسنوا المثوبة الحسنى (وزيادة) اختلف المفسرون في معنى هذه الحسنى وهذه الزيادة على أقوال القول الأول أن الحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم وهذا قول جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت وهو قول الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي ويدل على صحة هذا القول النقل والمعقول أما المنقول فما روي عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى زاد في رواية ثم تلا هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة أخرجه مسلم وروى الطبري بسنده عن كعب بن عجرة عن النبي صلى

(والله يدعو إلى دار السلام) هي الجنة أضافها إلى اسمه تعظيماً لها والسلام السلامة لأن أهلها سالمون من كل مكروه وقيل لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم إلا قيلاً سلاماً سلاماً (ويهدي من يشاء) ويوفق من يشاء (إلى صراط مستقيم) إلى الإسلام أو طريق السنة فالدعوة عامة على لسان رسول الله بالدلالة والهداية خاصة من لطف المرسل بتوفيق والعناية والمعنى يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يدخلها إلا المهديون (للذين أحسنوا) آمنوا بالله ورسله (الحسنى) المثوبة الحسنى وهي الجنة (وزيادة) رؤية الرب عز وجل كذا عن أبي بكر وحذيفة وابن عباس وأبي موسى الأشعري وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم وفي بعض التفاسير أجمع المفسرون على أن الزيادة النظر إلى الله تعالى وعن صهيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيئاً أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيرفع الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا للذين أحسنوا الحسنى وزيادة والعجب من صاحب الكشاف أنه ذكر هذا الحديث لا يعبأ به وقال إنه حديث موضوع مع أنه مرفوع قد أورده صاحب المصابيح في الصحاح وقيل الزيادة المحبة في قلوب العباد وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان

الله عليه وسلم في قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم وعن أبي بن
كعب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله سبحانه وتعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال
الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه للذين أحسنوا
وزيادة قال النظر إلى وجه الله وعن أبي موسى الأشعري قال إذا كان يوم القيامة بعث الله إلى أهل
الجنة منادياً ينادي هل أنجزكم الله ما وعدكم به فينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامات فيقولون نعم فيقول
الله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة النظر إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى وفي رواية رفعها أبو موسى قال
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يبعث يوم القيامة وذكر بمعناه وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى
قال إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله لهم هل بقي من حقكم شيء لم تعطوه قال فيتجلى لهم عز وجل
فيصغر عندهم كل شيء أعطوه ثم قال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة
النظر إلى وجه ربهم فهذه الأخبار والآثار قد دلت على أن المراد بهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله
تبارك وتعالى وأما المعقول فنقول إن الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف فانصرف إلى
المعهود السابق وهو الجنة في قوله سبحانه وتعالى والله يدعو إلى دار السلام فثبت بهذا أن المراد من
الحسنى هي الجنة وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمراً مغايراً لكل ما في الجنة من النعيم وإلا
لزم التكرار وإذا كان كذلك وجب حمل هذه الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى ومما يؤكد ذلك قوله
سبحانه وتعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة فأثبت لأهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهي حسن
الوجوه وذلك من نعيم الجنة والثاني النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى وآيات القرآن يفسر بعضها
بعضاً فوجب حمل الحسنى على الجنة ونعيمها وحمل الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى وقالت المعتزلة لا يجوز حمل
هذه الزيادة على الرؤية لأن الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله سبحانه وتعالى ممتنعة ولأن الزيادة يجب
أن تكون من جنس المزيد عليه ورؤية الله ليست من جنس نعيم الجنة ولأن الأخبار التي تقدمت توجب
التشبيه ولأن جماعة من المفسرين حملوا هذه الزيادة على غير الرؤية فانتفى ما قلتم أجاب أصحابنا عن هذه
الاعتراضات بأن الدلائل العقلية قد دلت على إمكان وقوع رؤية الله تعالى في الآخرة وإذا لم يوجد في العقل
ما يمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الأحاديث الصحيحة بإثبات الرؤية وجب المصير إليها وإجراؤها على
ظواهرها من غير تشبيه ولا إحاطة وأجيب عن قولهم ولأن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه
بأن المزيد عليه إذا كان بمقدار معين كانت الزيادة من جنسه وإذا لم يكن بمقدار معين وجب أن تكون الزيادة مخالفة
له فالمذكور في الآية لفظ الحسنى وهي الجنة ونعيمها غير مقدر بقدر معين فوجب أن الزيادة
تكون شيئاً مغايراً لنعيم الجنة وذلك المغاير هو الرؤية وأجيب عن قولهم ولأن جماعة من المفسرين حملوا
الزيادة على غير الرؤية بأنه معارض بقول جماعة من المفسرين بأن الزيادة هي الرؤية والمثبت مقدم على النافي
والله أعلم القول الثاني في معنى هذه الزيادة ما روي عن علي بن أبي طالب أنه قال الزيادة غرفة من لؤلؤة
لها أربعة أبواب القول الثالث أن الحسنى واحدة الحسنات والزيادة التضعيف إلى تمام العشرة وإلى
قال ابن عباس هو مثل قوله سبحانه وتعالى ولدينا مزيد يقول يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله قال
كان الحسن يقول الزيادة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف القول الرابع أن الحسنى
حسنة والزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد القول الخامس قول ابن زيد أن الحسنى هي الجنة والزيادة
ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة وقوله سبحانه وتعالى (ولا يرهق وجوههم) يعني ولا يغشى
وجوه أهل الجنة (قتر) أي كآبة ولا كسوف ولا غبار وقال ابن عباس هو سواد الوجوه (ولا ذلة) يعني ولا
هوان قال ابن أبي ليلى هذا بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون)

(ولا يرهق وجوههم) ولا
يغشى وجوههم (قتر) غبرة
فيها سواد (ولا ذلة)
ولا أثر هوان والمعنى ولا
يرهقهم ما يرهق أهل
النار (أولئك أصحاب
الجنة هم فيها خالدون)

(والذين كسبوا) معطوف على الذين أحسنوا أي وللذين كسبوا (السيئات) من الشرك (جزاء سيئة بمثلها) الباء زائدة كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها أو التقدير جزاء سيئة مقدر بمثلها (وترهقهم ذلة) وهوان (ما لهم من الله) من عقابه (من عاصم) أي لا يعصمهم أحد ولا يحميهم (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) أي جعل عليها غطاء من سواد الليل أي هم سود الوجوه وقطعا جمع قطعة وهو مفعول ثان لأغشيت قطعا مكي وعلي من قوله بقطع من الليل وعلى هذه القراءة مظلما صفة لقطع وعلى الأول حال من الليل والعامل فيه أغشيت لأن من الليل صفة لقطعا فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة أو معنى الفعل في من الليل (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ويوم نحشرهم) أي الكفار وغيرهم (جميعا) حال (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أي الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم (أنتم) أكد به الضمير في مكانكم لسده مسد قوله الزموا (وشركاؤكم) عطف عليه (فزيلنا) ففرقنا (بينهم) وقطعنا أقرانهم والوصل التي كانت بينهم في الدنيا (وقال شركاؤهم) من عبدوه من دون الله من أولي العقل أو الأصنام ينطقها الله عز وجل (ما كنتم إيانا تعبدون) إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أندادا فأطعتموهم وهو قوله ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم [illegible] قوله بل كانوا يعبدون الجن (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) أي كفى الله شهيدا وهو تمييز (إن كنا عن عبادتكم لغافلين) إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية (هنالك) في ذلك المكان أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان (تبلو كل نفس) تختبر وتذوق (ما أسلفت) من العمل فتعرف كيف هو أقبيح أم حسن أنافع أم ضار أمقبول أم مردود وقال الزجاج تعلم كل نفس ما قدمت

أي هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم أصحاب الجنة لا غيرهم وهم فيها مقيمون لا يخرجون منها أبدا قوله سبحانه وتعالى (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) اعلم أنه لما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال المسلمين وما أعد لهم من الكرامة شرح في هذه الآية حال من أقدم على السيئات والمراد بهم الكفار فقال سبحانه وتعالى والذين كسبوا السيئات يعني والذين عملوا السيئات والمراد بها الكفر والمعاصي جزاء سيئة بمثلها يعني فلهم جزاء السيئة التي عملوها مثلها من العذاب والمقصود من هذا التقييد التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئات لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة وذلك تفضلا منه وتكرما وأما السيئات فإنه يجزي عليها بمثلها عدلا منه سبحانه وتعالى (وترهقهم ذلة) قال ابن عباس يغشاهم ذل وشدة وقيل يغشاهم ذل وهوان لعقاب الله إياهم (ما لهم من الله من عاصم) يعني ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) يعني كأنما ألبست وجوههم سوادا من الليل المظلم (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) قوله سبحانه وتعالى (ويوم نحشرهم جميعا) الحشر الجمع من كل جانب وناحية إلى موضع واحد والمعنى ويوم نجمع الخلائق جميعا للموقف والحساب وهو يوم القيامة (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أي الزموا مكانكم واثبتوا فيه حتى تسألوا وفي هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين (أنتم وشركاؤكم) يعني أنتم أيها المشركون والأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله (فزيلنا بينهم) يعني فرقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا فإن قلت قوله سبحانه وتعالى فزيلنا بينهم جاء على لفظ الماضي بعد قوله ثم نقول للذين أشركوا وهو منتظر في المستقبل فما وجهه قلت السبب فيه أن الذي حكم الله فيه بأنه سيكون صار كالكائن الآن ونظيره قوله (وقال شركاؤهم) يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله وإنما سماهم شركاءهم لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم أو لأنه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله مكانكم أنتم وشركاؤكم صاروا شركاء في هذا الخطاب (ما كنتم إيانا تعبدون) تبرأ المعبودون من العابدين فإن قلت كيف صدر هذا الكلام من الأصنام وهي جماد لا روح فيها ولا عقل قلت يحتمل أن الله سبحانه وتعالى خلق لها في ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام فإن قلت إذا أحياهم الله في ذلك اليوم فهل يفنيهم أو يبقيهم قلت الكل محتمل ولا اعتراض على الله في شيء من أفعاله وأحوال القيامة غير معلومة إلا ما دل عليه الدليل من كتاب أو سنة فإن قلت إن الأصنام قد أنكرت أن الكفار كانوا يعبدونها وقد كانوا يعبدونها قلت قد تقدمت هذه المسألة وجوابها في تفسير سورة الأنعام وقيل معناه قال مجاهد تكون في يوم القيامة ساعة تكون فيها الشدة تنصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله فتقول الآلهة والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم تعبدوننا فيقولون والله إياكم كنا نعبد فتقول لهم الآلهة (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) والمعنى قد علم الله وكفى به شهيدا أنا ما علمنا أنكم كنتم تعبدوننا وما كنا عن عبادتكم إياها من دون الله إلا غافلين ما نشعر بذلك أما قوله سبحانه وتعالى (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) فهو كالتتمة لما تقدم والمعنى في ذلك المقام أو ذلك الوقت أو ذلك الوقت على معنى استعارة إطلاق اسم المكان على الزمان وفي قوله تبلو قراآت قرئ بتاءين وفيه معنيان أحدهما

تلو حمزة وعلى أى تتبع ما أسلفت لان عمله هو الذى يهديه الى طريق الجنة أو النار أو تقرأ فى صحيفتها ما قدمت من خير أو شر كاعن الاخفش
(وردوا الى الله مولاهم الحق) ربهم الصادق فى ربوبيته لانهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة أو الذى يتولى حسابهم ويتولاهم
العدل الذى لا يظلم أحدا (وضل عنهم ما كانوا يفترون) وضاع عنهم ما كانوا يدعون انهم شركاء لله أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب
وشفاعة الآلهة (قل من يرزقكم من السماء) بالمطر (والارض) بالنبات (أم من يملك السمع والابصار) من يستطيع خلقهما وتسويتهما
على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة أو من يحميهما من الآفات مع كثرتها فى المدد الطوال وهما لطيفتان

يؤذيهما أدنى شئ (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) أى الحيوان والفرخ والزرع والمؤمن والعالم من النطفة والبيضة والحب والكافر والجاهل وعكسها (ومن يدبر الامر) ومن يلى تدبير أمر العالم كله جاء بالعموم بعد الخصوص (فسيقولون الله) فسيجيبونك عند سؤالك ان القادر على هذه هو الله (فقل أفلا تتقون) الشرك فى العبودية اذا اعترفتم بالربوبية (فذلكم الله) أى من هذه قدرته هو الله (ربكم الحق) الثابت ربوبيته ثباتا لاريب فيه لمن حقق النظر (فماذا بعد الحق الا الضلال) أى لا واسطة بين الحق والضلال فمن تخطى الحق وقع فى الضلال (فأنى تصرفون) عن الحق الى الضلال وعن التوحيد الى الشرك (كذلك)
مثل ذلك الحق (حقت كلمت ربك) كلمات شامى ومدنى أى كما حق وثبت ان الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك (على الذين فسقوا) تمردوا فى كفرهم وخرجوا الى الحد الاقصى فيه (أنهم لا يؤمنون) بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الايمان أو حق عليهم كلمة الله أن ايمانهم غير كائن أو أراد بالكلمة العدة بالعذاب وأنهم لا يؤمنون تعليل أى لانهم لا يؤمنون (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) انما ذكر ثم يعيده وهم غير مقرين بالاعادة لانه لظهور برهانها جعل أمرا مسلما على أن فيهم من يقر بالاعادة أو يحتمل اعادة غير البشر كاعادة الليل والنهار واعادة الانزال والنبات (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أمر نبيه بان ينوب عنهم فى الجواب يعنى أنهم لا تدعهم مكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فتكلم عنهم (فأنى تؤفكون) فكيف تصرفون عن قصد السبيل

انه من تلاه اذا تبعه أى تتبع كل نفس ما أسلفت لان العمل هو الذى يهدى النفس الى الثواب أو العقاب الثانى أن يكون من التلاوة والمعنى ان كل نفس تقرأ صحيفة عملها من خير أو شر وقرئ تبلو بالباء الموحدة ومعناه تخبر وتعلم والبلو الاختبار ومعناه اختبارها ما أسلفت يعنى أنه ان قدم خيرا أو شرا قدم عليه ويجزى به (وردوا الى الله مولاهم الحق) الرد عبارة عن صرف الشئ الى الموضع الذى جاء منه والمعنى وردوا الى ما ظهر لهم من الله الذى هو مالكهم ومتولى أمرهم فان قلت قد قال الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى وأن الكافرين لا مولى لهم فما الفرق قلت المولى فى اللغة يطلق على المالك ويطلق على الناصر فمعنى المولى هنا المالك ومعنى المولى هناك الناصر فحصل الفرق بين الآيتين (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعنى وبطل وذهب ما كانوا يكذبون فيه فى الدنيا وهو قولهم ان هذه الاصنام تشفع لنا ﴿ قوله عز وجل (قل من يرزقكم من السماء والارض) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من يرزقكم من السماء يعنى المطر والارض يعنى النبات (أم من يملك السمع والابصار) يعنى ومن أعطاكم هذه الحواس التى تسمعون بها وتبصرون بها (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) يعنى انه تعالى يخرج الانسان حيا من النطفة وهى ميتة وكذلك الطير من البيضة وكذلك يخرج النطفة الميتة من الانسان الحى ويخرج البيضة الميتة من الطائر الحى وقيل معناه انه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن والقول الاول أقرب الى الحقيقة (ومن يدبر الامر) يعنى ان مدبر أمر السموات وما فيها ومدبر أمر الارض وما فيها هو الله تعالى وذلك قوله (فسيقولون الله) يعنى أنهم يعترفون أن فاعل هذه الاشياء هو الله واذا كانوا يقرون بذلك (فقل) أى قل لهم يا محمد (أفلا تتقون) يعنى أفلا تخافون عقابه حيث تعبدون هذه الاصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شئ من هذه الامور (فذلكم الله ربكم الحق) يعنى فذلكم الذى يفعل هذه الاشياء ويقدر عليها هو الله ربكم الحق الذى يستحق العبادة لا هذه الاصنام (فماذا بعد الحق الا الضلال) يعنى اذا ثبت بهذه البراهين الواضحة والدلائل القطعية ان الله هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالا وباطلا (فأنى تصرفون) يعنى اذا عرفتم هذا الامر الظاهر الواضح فكيف تستجيزون العدول عن الحق الى الضلال الباطل (كذلك) أى كما ثبت أنه ليس بعد الحق الا الضلال (حقت) أى وجبت (كلمت ربك) فى الازل (على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) قيل المراد بكلمة الله قضاؤه عليهم فى اللوح المحفوظ انهم لا يؤمنون وقضاؤه لا يرد ولا يدفع (قل هل من شركائكم) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين هل من شركائكم يعنى هذه الاصنام التى تزعمون انها آلهة (من يبدأ الخلق) يعنى من يقدر على ان ينشئ الخلق على غير مثال سبق (ثم يعيده) أى ثم يعيده بعد الموت كهيئته أول مرة وهذا السؤال استفهام انكار (قل) أى قل أنت يا محمد (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) يعنى ان الله هو القادر على ابتداء الخلق واعادته (فأنى تؤفكون) يعنى فأنى تصرفون

(قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق) يرشد إليه (قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى) يقال هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين ويقال هدى بنفسه بمعنى اهتدى كما يقال شرى بمعنى اشترى ومنه قراءة حمزة وعلي أمن لا يهدي بمعنى يهتدي لا يهدي بفتح الياء والهاء وتشديد الدال مكي وشامي وورش بإشمام الهاء فتحة أبو عمرو وبكسر الهاء وفتح الياء عاصم غير يحيى والأصل يهتدي وهي قراءة عبد الله فقلبت التاء دالاً ثم أدغمت وفتحت الهاء بحركتها

أو كسرت لالتقاء الساكنين وبكسر الياء والهاء وتشديد الدال يحيى لاتباع ما بعدها وبسكون الهاء وتشديد الدال مدني غير ورش والمعنى أن الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم وبما وفقهم وألهمهم ووقفهم على الشرائع بإرسال الرسل فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد يهدي إلى الحق مثل هداية الله ثم قال أفمن يهدي إلى الحق أحق بالاتباع أم الذي لا يهدي أي لا يهتدي بنفسه أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله وقيل معناه أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن يهدى إلا أن ينقل أو لا يهتدي ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً ناطقاً فيهديه (فما لكم كيف تحكمون) بالباطل حيث تزعمون أنهم أنداد لله (وما يتبع أكثرهم) في قولهم للأصنام إنها آلهة وإنها شفعاء عند الله والمراد بالأكثر الجميع (إلا ظناً) بغير دليل وهو افتقادهم بآبائهم ظناً منهم أنهم مصيبون (إن الظن لا يغني من الحق) وهو العلم (شيئاً) في موضع المصدر أي إغناء (إن الله عليم بما يفعلون) من اتباع الظن وترك الحق (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أي افتراء من دون الله والمعنى وما صح وما استقام أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى (ولكن) كان (تصديق الذي بين يديه) وهو ما تقدمه من الكتب المنزلة

عن قصد السبيل والنزاعين هذا التعجيب من أحوالهم كيف تركوا هذا الأمر الواضح وعدلوا عنه إلى غيره (قل) أي قل يا محمد (هل من شركائكم من يهدي إلى الحق) يعني هل من هذه الأصنام من يقدر على أن يرشد إلى الحق فإذا قالوا لا ولا بد لهم من ذلك (قل) أي قل لهم أنت يا محمد (الله يهدي للحق) يعني أن الله هو الذي يرشد إلى الحق لا غيره (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى) يعني أن الله هو الذي يهدي إلى الحق فهو أحق بالاتباع لا هذه الأصنام التي لا تهتدي إلا أن تهدى فإن قلت الأصنام جماد لا تتصور هدايتها ولا أن تهدى فكيف قال إلا أن يهدى قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال وجوهاً الأول أن معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال من مكان إلى مكان فيكون المعنى أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان آخر إلا أن تحمل وتنقل فبين سبحانه وتعالى بهذا عجز الأصنام الوجه الثاني أن ذكر الهداية في حق الأصنام على وجه المجاز وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر به عمن يسمع ويعقل ووصفها بهذه الصفة وإن كان الأمر ليس كذلك الوجه الثالث يحتمل أن يكون المراد من قوله هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده الأصنام والمراد من قوله هل من شركائكم من يهدي إلى الحق رؤساء الكفر والضلالة فالله سبحانه وتعالى هدى الخلق إلى الدين بما أظهر من الدلائل الدالة على وحدانيته وأما رؤساء الكفر والضلالة فإنهم لا يقدرون على هداية غيرهم إلا إذا هداهم الله إلى الحق فكان اتباع دين الله والتمسك بهدايته أولى من اتباع غيره ◊ وقوله سبحانه وتعالى (فما لكم كيف تحكمون) قال الزجاج فما لكم كلام تام كأنه قيل لهم أي شيء لكم في عبادة هذه الأصنام ثم قال كيف تحكمون يعني على أي حال تحكمون وقيل معناه كيف تقضون لأنفسكم بالجور حين تزعمون أن مع الله شريكاً وقيل معناه بئسما حكمتم إذ جعلتم لله شريكاً من ليس بيده منفعة ولا مضرة ولا هداية (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) يعني وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته بل هم في شك منه وريبة وقيل المراد بالأكثر الكل لأن جميع المشركين يتبعون الظن في دعواهم أن الأصنام تشفع لهم وقيل المراد بالأكثر الرؤساء (إن الظن لا يغني من الحق شيئاً) يعني أن الشك لا يغني عن اليقين شيئاً ولا يقوم مقامه وقيل في الآية إن قولهم إن الأصنام آلهة وإنها تشفع لهم ظن منهم لم يرد به كتاب ولا رسول يعني أنها لا تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً (إن الله عليم بما يفعلون) يعني من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين ◊ قوله تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) يعني وما كان ينبغي لهذا القرآن أن يختلق ويفتعل لأن معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصفة شيء يمكن أن يفترى به على الله لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر وذلك أن كفار مكة زعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فأخبر الله عز وجل أن هذا القرآن وحي أنزله الله عليه وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب وأنه لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يؤكد هذا بقوله (ولكن تصديق الذي بين يديه) يعني ولكن الله أنزل هذا القرآن مصدقاً لما قبله من الكتب التي أنزلها على أنبيائه كالتوراة والإنجيل وتقرير هذا أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يجتمع بأحد من العلماء ثم إنه صلى الله عليه وسلم أتى بهذا القرآن

(وتفصيل الكتاب) وتبيين ما كتب وفرض من الاحكام والشرائع من قوله كتاب الله عليكم (لا ريب فيه من رب العالمين) داخل في حيز الاستدراك كأنه قال ولكن كان تصديقا وتفصيلا منتفيا عنه الريب كائنا من رب العالمين ويجوز أن يراد ولكن كان تصديقا من رب العالمين وتفصيلا منه لا ريب في ذلك فيكون من رب العالمين متعلقا بتصديق وتفصيل ويكون لا ريب فيه اعتراضا كما تقول زيد لا شك فيه كريم (أم يقولون افتراه) بل أيقولون اختلقه (٣١٦) (قل) ان كان الامر كما تزعمون (فأتوا) أنتم على وجه الافتراء (بسورة مثله) أى شبيهة به في البلاغة وحسن النظم فأنتم مثلي في العربية (وادعوا من استطعتم من دون الله) أى وادعوا من دون الله من استطعتم من خلقه للاستعانة به على الاتيان بمثله (ان كنتم صادقين) أنه افتراه (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) بل سارعوا الى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ومعنى التوقع في ولما يأتهم تأويله أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليدا للآباء وكذبوه بعد التدبر تمردا وعنادا فذمهم بالتسرع الى التكذيب قبل العلم به وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه واعجازه لما كرر عليهم التحدي ودبروا قواهم في المعارضة وعرفوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغيا وحسدا (كذلك) مثل ذلك التكذيب (كذب الذين من قبلهم) يعنى كفار الامم الماضية كذبوا رسلهم قبل النظر في معجزاتهم وقبل تدبرها عنادا وتقليدا للآباء ويجوز أن يكون معنى ولما يأتهم تأويله ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب أى عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق يعنى أنه كتاب معجز من جهتين من جهة اعجاز نظمه ومن جهة ما فيه من الاخبار بالغيوب فتسرعوا الى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الاعجاز وقبل أن يجربوا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين

العظيم المعجز وفيه أخبار الاولين وقصص الماضين وكل ذلك موافق لما في التوراة والانجيل والكتب المنزلة قبله ولو لم يكن كذلك لقدحوا فيه لمبادرة أهل الكتاب له ولما لم يقدح فيه أحد من أهل الكتاب علم بذلك أن ما فيه من القصص والاخبار مطابقة لما في التوراة والانجيل مع القطع انه ما علم ما فيها فثبت بذلك انه وحى من الله أنزله عليه وأنه مصدق لما بين يديه وأنه معجزة له صلى الله عليه وسلم وقيل في معنى قوله ولكن تصديق الذي بين يديه يعنى من أخبار الغيوب الآتية فانها جاءت على وفق ما أخبر (وتفصيل الكتاب) يعنى وتبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والاحكام (لا ريب فيه من رب العالمين) يعنى أن هذا القرآن لا شك فيه أنه من رب العالمين وأنه ليس مفترى على الله وأنه لا يقدر أحد من البشر على الاتيان بمثله وهو قوله سبحانه وتعالى (أم يقولون افتراه) يعنى أم يقول هؤلاء المشركون افترى محمد هذا القرآن واختلقه من قبل نفسه وهو استفهام انكار وقيل أم بمعنى الواو أى ويقولون افتراه (قل) أى قل لهم يا محمد ان كان الامر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) يعنى بسورة تشبهه في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فانكم عرب مثلي في الفصاحة والبلاغة فان قلت قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله وقال سبحانه وتعالى هنا فأتوا بسورة مثله فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما قلت لما كان محمد صلى الله عليه وسلم أميا لم يقرأ ولم يكتب وأتى بهذا القرآن العظيم كان معجزا في نفسه فقيل لهم فأتوا بسورة من مثله يعنى من انسان أى مثل محمد صلى الله عليه وسلم يساويه في عدم الكتابة والقراءة وأما قوله سبحانه وتعالى فأتوا بسورة مثله أى فأتوا بسورة تساوي سور القرآن في الفصاحة والبلاغة وهو المراد بقوله فأتوا بسورة مثله يعنى ان السورة في نفسها معجزة فان الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه وهو المراد من قوله (وادعوا من استطعتم من دون الله) يعنى وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه (ان كنتم صادقين) يعنى في قولكم ان محمدا افتراه ثم قال تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) يعنى القرآن أى كذبوا بما لم يعلموه قال عطاء يريد انه ليس خلق يحيط بجميع علوم القرآن وقيل معناه بل كذبوا بما في القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب وغيرها مما لم يحيطوا بعلمه لانهم كانوا ينكرون ذلك كله وقيل انهم لما سمعوا ما في القرآن من القصص وأخبار الامم الخالية ولم يكونوا سمعوها قبل ذلك أنكروها وجهلوها فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه لان القرآن العظيم مشتمل على علوم كثيرة لا يقدر أحد على استيعابها وتحصيلها (ولما يأتهم تأويله) يعنى انهم كذبوا به ولم يأتهم بعد بيان ما يؤول اليه ذلك الوعيد الذى توعدهم الله في القرآن به من العقوبة والمعنى انهم لم يعلموا ما تؤول اليه عاقبة أمرهم وقيل معناه انهم لم يعلموا تنزيلا ولا علموا تأويلا فكذبوا به وذلك لانهم جهلوا القرآن وعلمه وعلم تأويله (كذلك كذب الذين من قبلهم) يعنى كما كذب هؤلاء بالقرآن كذلك كذب الامم الماضية أنبياءهم فيما وعدوهم به (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أى فانظر يا محمد كيف كان عاقبة من ظلم من الامم كذلك تكون عاقبة من كذبك من قومك ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقيل يحتمل أن يكون

الشك والتكذيب في النفي والشيء فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة [illegible] مثل هذه ﴿ قوله عز وجل (ومنهم من يؤمن به) يعني ومن قومك يا محمد من سيؤمن بالقرآن (ومنهم من لا يؤمن به) يعني في علم الله السابق فيه أنه لا يؤمن (وربك أعلم بالمفسدين) يعني الذين لا يؤمنون (وإن كذبوك) يعني وإن كذبك قومك يا محمد (فقل لي عملي) أي جزاء عملي (ولكم عملكم) يعني الشرك وجزاؤه (ولكم عملكم) يعني من الشرك وجزاء أعماله (أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) قال الكلبي ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية السيف قال الإمام فخر الدين الرازي وهو بعيد لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلاً ﴿ قوله تعالى (ومنهم) يعني ومن هؤلاء المشركين (من يستمعون إليك) يعني بأسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم ذلك لشدة بغضهم وعداوتهم لك (أفأنت تسمع الصم) يعني كما أنك لا تقدر على إسماع الصم فكذلك لا تقدر على إسماع من أصم الله سمع قلبه (ولو كانوا لا يعقلون) يعني أن الله سبحانه وتعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يسمعون ولم يوفقهم لذلك فهم بمنزلة الجهال إذ لم يستمعوا بما سمعوا فهم أيضاً كالصم الذين لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه لعدم التوفيق (ومنهم من ينظر إليك) يعني بأبصارهم الظاهرة (أفأنت تهدي العمي) يريد عمي القلوب (ولو كانوا لا يبصرون) لأن الله أعمى بصائر قلوبهم فلا يبصرون شيئاً من الهدى وفي هذا تسلية من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل إنك لا تقدر أن تسمع من سلبته السمع ولا تقدر أن تهدي من سلبته البصر ولا تقدر أن توفق للإيمان من حكمت عليه أن لا يؤمن (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) قال العلماء لما حكم الله عز وجل على أهل الشقاوة بالشقاوة والعصيان وعصيره لما في قلوبهم أسبق حكمه لا يمكن لهم [illegible] بالإيمان قدر الشقاوة عليهم ما كان ظلماً منه لأنه يتصرف في ملكه كيف شاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالماً وإنما قال ولكن الناس أنفسهم يظلمون لأن الفعل منسوب إليهم بسبب الكسب وإن كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم ﴿ قوله سبحانه وتعالى (ويوم نحشرهم) يعني واذكر يا محمد يوم يجمع هؤلاء المشركين لموقف الحساب وأصل الحشر إخراج الجماعة وإزعاجهم من مكانهم (كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) يعني كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من النهار وقيل معناه كأنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا قدر ساعة من النهار والوجه الأول أولى لأن حال المؤمن والكافر سواء في عدم المعرفة بمدة لبثهم في القبور إلى وقت الحشر فتعين حمله على أمر يختص بحال الكافر وهو أنهم لما لم ينتفعوا بأعمارهم في الدنيا استقلوها والمؤمن لما انتفع بعمره في الدنيا لم يستقله ووجه استقلال الكفار مدة مقامهم في الدنيا أنهم لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على ما فيها ولم يعملوا بطاعة الله فيها كان وجود ذلك كالعدم فلذلك استقلوه وقيل إنهم لما شاهدوا أهوال يوم القيامة وطال عليهم ذلك استقلوا مدة مقامهم في الدنيا لأن مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جداً (يتعارفون بينهم) يعني

(ومنهم من يؤمن به) بالنبي أو بالقرآن أي يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند بالتكذيب (ومنهم من لا يؤمن به) لا يصدق به ويشك فيه أو يكون للاستقبال أي ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصر (وربك أعلم بالمفسدين) بالمعاندين أو المصرين (وإن كذبوك) وإن تموا على تكذيبك ويئست من إجابتهم (فقل لي عملي ولكم عملكم) فتبرأ منهم وخلهم فقد أعذرت (أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) (ومنهم من يستمعون إليك) ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ولكنهم لا يعون ولا يقبلون وناس كالصم (أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دوي الصوت فإذا اجتمع سلب العقل والسمع فقد تم الأمر (ومنهم من ينظر إليك) ومنهم ناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون (أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون) أتحسب أنك تقدر على هداية العمي ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء يعني أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمي الذين لا عقول لهم ولا بصائر (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) ولكن الناس حمزة وعلي أي لم يظلمهم بسلب آلة الاستدلال ولكنهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال حيث عبدوا جماداً وهم أحياء (ويوم نحشرهم) وبالياء حفص (كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) استقصروا مدة لبثهم في الدنيا أو في قبورهم لهول ما يرون (يتعارفون بينهم) يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم كأن لم يلبثوا حال من هم أي نحشرهم مشبهين بمن لم يلبثوا إلا ساعة وكأن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنهم ويتعارفون بينهم حال بعد حال أو مستأنف على تقدير فهم يتعارفون بينهم

(فقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) على إرادة القول أى يتعارفون بينهم قائلين ذلك أو هى شهادة من الله على خسرانهم والمعنى أنهم
وضعوا فى تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر (وما كانوا مهتدين) للتجارة عارفين بها وهو استئناف فيه معنى التعجب كأنه قيل ما أخسرهم
(وإما نرينك بعض الذى نعدهم) من العذاب (أو نتوفينك) قبل عقابهم (فإلينا مرجعهم) جواب نتوفينك

يعرف بعضهم بعضا اذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون فى الدنيا ثم تنقطع المعرفة بينهم إذا عاينوا أهوال يوم القيامة وفى بعض الآثار ان الانسان يوم القيامة يعرف من بجنبه ولا يقدر أن يكلمه هيبة وخشية وقيل ان أحوال يوم القيامة مختلفة ففى بعضها يعرف بعضهم بعضا وفى بعضها ينكر بعضهم بعضا لطول ما يعاينون فى ذلك اليوم (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) يعنى أن من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية فقد خسر لانه آثر الفانى على الباقى (وما كانوا مهتدين) يعنى الى ما يصلحهم وينجيهم من هذا الخسار (وإما نرينك) يعنى يا محمد (بعض الذى نعدهم) يعنى ما نعدهم به من العذاب فى الدنيا فذاك (أو نتوفينك) قبل أن نريك ذلك الوعد فى الدنيا فانك ستراه فى الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى (فإلينا مرجعهم) يعنى فى الآخرة وفيه دليل على أن الله يرى رسوله صلى الله عليه وسلم أنواعا من عذاب الكافرين وذلهم وخزيهم فى حال حياته فى الدنيا وقد أراه ذلك فى يوم بدر وغيره من الايام وسيريه ما أعد لهم من العذاب فى الآخرة بسبب كفرهم وتكذيبهم (ثم الله شهيد على ما يفعلون) فيه وعيد وتهديد لهم يعنى انه سبحانه وتعالى شاهد على أفعالهم التى فعلوها فى الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة ❁ قوله عز وجل (ولكل أمة رسول) لما بين الله عز وجل حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بين ان حال الانبياء مع أممهم كذلك فقال تعالى ولكل أمة يعنى قد خلت وتقدمت قبلكم رسول يعنى مبعوثا اليهم يدعوهم الى الله والى طاعته والايمان به (فإذا جاء رسولهم) فى هذا الكلام اضمار تقديره فاذا جاءهم رسولهم وبلغهم ما أرسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون (قضى بينهم بالقسط) يعنى حكم بينهم بالعدل وفى وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان أحدهما أنه فى الدنيا وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل الى كل أمة رسولا للتبليغ الرسالة واقامة الحجة وازالة العذر فاذا كذبوا رسلهم وخالفوا أمر الله قضى بينهم وبين رسلهم فى الدنيا فيهلك الكافرين وينجى رسلهم والمؤمنين ويكون ذلك عدلا لا ظلما لان قبل مجىء الرسول لا يكون ثواب ولا عقاب القول الثانى أن وقت القضاء فى الآخرة وذلك ان الله اذا جمع الامم يوم القيامة للحساب والقضاء بينهم والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصى جىء بالرسل لتشهد عليهم والمراد من ذلك المبالغة فى اظهار العدل وهو قوله تعالى (وهم لا يظلمون) يعنى من جزاء أعمالهم شيأ ولكن يجازى كل أحد على قدر عمله وقيل معناه أنهم لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم (ويقولون) يعنى هؤلاء الكفار (متى هذا الوعد) يعنى الذى تعدنا به يا محمد من نزول العذاب وقيل قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد (ان كنتم صادقين) يعنى فيما تعدونا به وانما قالوا بلفظ الجمع لان كل أمة قالت لرسولها كذلك أو يكون المعنى ان كنتم صادقين أنت وأتباعك يا محمد أو ذكروه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم (قل) أى قل لهم يا محمد (لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا) يعنى لا أملك لنفسى دفع ضر ولا جلب نفع ولا أقدر على ذلك (الا ما شاء الله) يعنى أن أقدر عليه أو أملكه والمعنى ان انزال العذاب على الاعداء واظهار النصر للاولياء وعلم قيام الساعة لا يقدر عليه الا الله فتعيين الوقت الى الله سبحانه وتعالى بحسب مشيئته ثم اذا حضر ذلك الوقت الذى وقته الله لحدوث هذه الاشياء فانه يحدث لا محالة وهو قوله سبحانه وتعالى (لكل أمة أجل) أى مدة مضروبة ووقت معين (اذا جاء أجلهم) يعنى اذا انقضت مدة أعمارهم (فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعنى لا يتأخرون عن ذلك الاجل الذى أجل لهم ولا يتقدمونه (قل) أى قل يا محمد

وجواب نرينك محذوف أى وإما نرينك بعض الذى نعدهم فى الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه فى الآخرة (ثم الله شهيد على ما يفعلون) ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها وهو العقاب كأنه قيل ثم الله معاقب على ما يفعلون وقيل ثم هنا بمعنى الواو (ولكل أمة رسول) يبعث اليهم لينبههم على التوحيد ويدعوهم الى دين الحق (فإذا جاء رسولهم) بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه (قضى بينهم) بين النبى ومكذبيه (بالقسط) بالعدل فأنجى الرسول وعذب المكذبين أو ولكل أمة من الامم يوم القيامة رسول تنسب اليه وتدعى به فاذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والايمان (قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) لا يعذب أحد بغير ذنبه ولما قال وإما نرينك بعض الذى نعدهم أى من العذاب استعجلوا لما وعدوا من العذاب نزل (ويقولون متى هذا الوعد) أى وعد

العذاب (إن كنتم صادقين) أن العذاب نازل وهو خطاب منهم للنبى والمؤمنين (قل) يا محمد (لا أملك لنفسى ضرا) هو الاء
من مرض أو فقر (ولا نفعا) من صحة وغنى (إلا ما شاء الله) استثناء منقطع أى ولكن ما شاء الله من ذلك كائن فكيف أملك لكم الضر
وجلب العذاب (لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) لكل أمة وقت معلوم للعذاب مكتوب فى اللوح
فاذا جاء وقت عذابهم لا يتقدمون ساعة ولا يتأخرون فلا تستعجلوا (قل

(أرأيتم إن أتاكم عذابه) الذي تستعجلونه (بياتاً) نصب على الظرف أي وقت بيات وهو الليل وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون (أو نهاراً) وأنتم مشتغلون بطلب المعاش والكسب (ماذا يستعجل منه المجرمون) أي من العذاب والمعنى أن العذاب كله مكروه موجب للنفور فأي شيء تستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال والاستفهام متعلق بأرأيتم لأن المعنى أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه أو تقول ماذا يستعجلون منه لأنه أريد به على موضع ترك الاستعجال وهو الانزجار أو ماذا يستعجل منه المجرمون جواب الشرط على إرادة الفاء ثم تتعلق الجملة بأرأيتم أو (ثم إذا ما وقع) العذاب (آمنتم به) جواب الشرط وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراض والمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ودخول حرف الاستفهام على ثم كدخوله على الواو والفاء في أفأمن أهل القرى أوأمن أهل القرى (آلآن) على إرادة القول أي قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به (وقد كنتم به تستعجلون) أي بالعذاب تكذيباً واستهزاء آلان بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام نافع (ثم قيل للذين ظلموا) عطف على قيل المضمر قبل آلآن (ذوقوا عذاب الخلد) أي الدوام (هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون) من الشرك والتكذيب (ويستنبئونك) ويستخبرونك فيقولون (أحق هو) وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء والضمير للعذاب الموعود (قل) يا محمد (إي وربي) نعم والله (إنه لحق) إن العذاب كائن لا محالة (وما أنتم بمعجزين) بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة (ولو أن لكل نفس ظلمت) كفرت وأشركت وهو صفة لنفس أي ولو أن لكل نفس ظالمة (ما في الأرض) في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها (لافتدت به) لجعلته فدية لها يقال فداه فافتدى ويقال افتداه أيضاً بمعنى فداه (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) وأظهروها وهو من قولهم أسر الشيء إذا أظهره أو أخفوها عجزاً عن النطق لشدة الأمر فأسر من الأضداد (وقضي بينهم بالقسط) بين الظالمين والمظلومين دل على ذلك ذكر الظلم (وهم لا يظلمون) ثم أتبع ذلك الإعلام بأن الملك كله لله بقوله (ألا إن لله ما في السموات والأرض) فكيف يقبل الفداء وإنه المثيب المعاقب وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق بقوله (ألا إن وعد الله) بالثواب أو العقاب (حق)

لهؤلاء المشركين من قومك (أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً) يعني ليلاً يقال بات فلان يفعل كذا إذا فعله بالليل والسبب فيه أن الإنسان في الليل يكون في البيت غالباً فجعل هذا اللفظ كناية عن الليل (أو نهاراً) يعني في النهار (ماذا يستعجل منه المجرمون) يعني ما الذي يستعجلون من نزول العذاب وفيه تقريع وتهديد والمعنى أنهم كانوا يستعجلون نزول العذاب كقوله سبحانه وتعالى عنهم وقولهم اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله ماذا يستعجل منه المجرمون يعني أي شيء يعلم المجرمون ما يطلبون ويستعجلون كما يقول الرجل لمن يطلب أمراً وخيماً ماذا تجني على نفسك (أثم إذا ما وقع) يعني إذا ما نزل العذاب ووقع (آمنتم به) يعني آمنتم بالله وقت نزول العذاب وقت اليأس وقيل معناه آمنتم بما كذبتم به ودخل حرف الاستفهام على ثم للتوبيخ والتقريع (آلآن) فيه إضمار تقديره يقال لهم آلآن تؤمنون أي حين وقع العذاب (وقد كنتم به تستعجلون) يعني تكذيباً واستهزاء (ثم قيل للذين ظلموا) يعني ظلموا أنفسهم بشركهم وكفرهم بالله (ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون) يعني في الدنيا من الأعمال قوله سبحانه وتعالى (ويستنبئونك أحق هو) يعني ويستخبرونك يا محمد أحق ما تعدنا به من نزول العذاب وقيام الساعة (قل إي وربي) أي قل لهم يا محمد نعم وربي (إنه لحق) يعني إن الذي أعدكم به حق لا شك فيه (وما أنتم بمعجزين) يعني بفائتين من العذاب لأن من عجز عن شيء فقد فاته (ولو أن لكل نفس ظلمت) يعني أشركت (ما في الأرض) يعني من شيء (لافتدت به) يعني يوم القيامة والافتداء بمعنى البدل لما يتخلص به من العذاب إلا أنه لا ينفعه الفداء ولا يقبل منه (وأسروا الندامة) يعني يوم القيامة وإنما جاء بلفظ الماضي والقيامة من الأمور المستقبلة لأن أحوال يوم القيامة لما كانت واجبة الوقوع جعل الله مستقبلها كالماضي والإسرار يكون بمعنى الإخفاء وبمعنى الإظهار فهو من الأضداد فلهذا اختلفوا في قوله وأسروا الندامة فقال أبو عبيدة معناه وأظهروا الندامة لأن ذلك اليوم ليس يوم تصبر وتصنع وقيل معناه أخفوا يعني أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء والأتباع خوفاً من ملامتهم إياهم وتعييرهم لهم (لما رأوا العذاب) يعني حين عاينوا العذاب وأبصروه (وقضي بينهم بالقسط) يعني وحكم بينهم بالعدل قيل بين المؤمن والكافر وقيل بين الرؤساء والأتباع وقيل بين الكفار لاحتمال أن بعضهم قد ظلم بعضاً فيؤخذ للمظلوم من الظالم وهو قوله سبحانه وتعالى (وهم لا يظلمون) يعني في الحكم لهم وعليهم أن يحبس من عذاب المذنب أو يشدد في عذاب أحد (ألا إن لله ما في السموات والأرض) يعني أن كل شيء في السموات والأرض فهو ملك لله لا يشركه فيه غيره فليس للكافر شيء يفتدي به من عذاب الله يوم القيامة لأن الأشياء كلها لله وهو مالكها فكيف يفتدي من هو مملوك لغيره بشيء لا يملكه (ألا إن وعد الله حق) يعني ما وعده

الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من ثواب الطائع وعقاب العاصي حق لا شك فيه (ولكن أكثرهم لا يعلمون) يعني حقيقة ذلك (هو يحيي ويميت) يعني الذي ملك ما في السموات والأرض قادر على الإحياء والإماتة لا يتعذر عليه شيء مما أراد (وإليه ترجعون) يعني بعد الموت للجزاء ۞ قوله عز وجل (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم) قيل أراد بالناس قريشا وقيل هو على العموم وهو الأصح وهو اختيار الطبري قد جاءتكم موعظة من ربكم يعني القرآن والوعظ زجر مقترن بتخويف وقال الخليل هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب وقيل الموعظة ما يدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة والقرآن داع إلى كل خير وصلاح بهذا الطريق (وشفاء لما في الصدور) يعني أن القرآن ذو شفاء لما في القلوب من داء الجهل وذلك لأن داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن وأمراض القلب هي الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة فالقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها لأن فيه الوعظ والزجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الدواء والشفاء لهذه الأمراض القلبية وإنما خص الصدر بالذكر لأنه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع في بدن الإنسان لمكان القلب فيه (وهدى) يعني وهو هدى من الضلالة (ورحمة للمؤمنين) يعني ونعمة على المؤمنين لأنهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم (قل بفضل الله وبرحمته) الباء في بفضل الله متعلقة بمضمر استغني عن ذكره لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله قد جاءتكم موعظة من ربكم والفضل هنا بمعنى الإفضال ويكون معنى الآية على هذا يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهو القرآن بإفضال الله عليكم ورحمته بكم وإرادته الخير لكم ۞ ثم قال سبحانه وتعالى (فبذلك فليفرحوا) أشار بذلك إلى القرآن لأن المراد بالموعظة والشفاء القرآن فترك اللفظ وأشار إلى المعنى وقيل فبذلك فليفرحوا إشارة إلى معنى الفضل والرحمة والمعنى فبذلك التطول والإنعام فليفرحوا قال الواحدي الفاء في قوله تعالى فليفرحوا زائدة كقول الشاعر * فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي * فالفاء في قوله فاجزعي زائدة وقال صاحب الكشاف في معنى الآية بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح فإنه لا مفروح به أحق منهما والفرح لذة في القلب بإدراك المحبوب المشتهى يقال فرحت بكذا إذا أدركت المأمول ولذلك أكثر ما يستعمل الفرح في اللذات البدنية الدنيوية واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الخيرات ومعنى الآية ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته أي بما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه (هو خير مما يجمعون) يعني من متاع الدنيا ولذاتها الفانية هذا مذهب أهل المعاني في هذه الآية وأما مذهب المفسرين فغير هذا فإن ابن عباس والحسن وقتادة قالوا فضل الله الإسلام ورحمته القرآن وقال أبو سعيد الخدري فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله وقال ابن عمر فضل الله الإسلام ورحمته تزيينه في قلوبنا وقيل فضل الله الإسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته السنن فعلى هذا الباء في بفضل الله تتعلق بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته (قل) أي قل يا محمد لكفار مكة (أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق) يعني من زرع وضرع وغيرهما وعبر عن الخلق في الأرض بالإنزال لأن جميع ما في الأرض من خير ورزق فإنما هو من بركات السماء (فجعلتم منه) يعني من ذلك الرزق (حراما وحلالا) يعني ما حرموه على أنفسهم في الجاهلية من الحرث والأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي

كان (ولكن أكثرهم لا يعلمون هو يحيي ويميت) هو القادر على الإحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره (وإليه ترجعون) وإلى حسابه وجزائه المرجع فيخاف ويرجى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم) أي قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد والموعظة التي تدعو إلى كل مرغوب وتزجر عن كل مرهوب فما في القرآن من الأوامر والنواهي داع إلى كل مرغوب وزاجر عن كل مرهوب إذ الأمر يقتضي حسن المأمور به فيكون مرغوبا وهو يقتضي النهي عن ضده وهو قبيح وعلى هذا في النهي (وشفاء لما في الصدور) أي صدوركم من العقائد الفاسدة (وهدى) من الضلالة (ورحمة للمؤمنين) لمن آمن به منكم (قل) يا محمد بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح أو بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا وهما كتاب الله والإسلام في الحديث من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه وقرأ الآية (هو خير مما يجمعون) وبالتاء شامي فلتفرحوا يعقوب (قل أرأيتم) أخبروني (ما أنزل الله لكم من رزق) ما منصوب بأنزل أو بأرأيتم أي أخبرونيه (فجعلتم منه حراما وحلالا) فبعضتموه وقلتم هذا حلال وهذا حرام كقوله ما في بطون هذه

الأرض بمعنى كون الرزق منزلا أن الأرزاق كلها تخرج من الأرض ولكن لما نيطت أسبابها بالسماء نحو المطر الذي هو سبب نبات الأرض النبات وجعلتم منه أي من المنزل حراما وحلالا ثم نسب الإنزال إلى السماء (قل آلله أذن لكم) متعلق بأرأيتم وقل تكرير للتوكيد والمعنى أخبروني آلله أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه (أم على الله تفترون) أم أنتم تكذبون

وإنما جعلتم بعضه حلالا وبعضه حراما وهو قوله سبحانه وتعالى وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا (قل آلله أذن لكم) يعني قل لهم يا محمد آلله أذن لكم بهذا التحريم والتحليل (أم على الله تفترون) يعني بل أنتم كاذبون على الله في دعواكم أن الله أمركم بهذا (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) يعني أيظنون يوم القيامة أنه لا يحاسبهم أو لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم وافترائهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والوعيد العظيم لمن يفتري على الله الكذب (إن الله لذو فضل على الناس) يعني بتأخير العذاب عنهم وإنزال الكتب وبيان الحلال والحرام (ولكن أكثرهم لا يشكرون) يعني لا يشكرون الله على ذلك الفضل والإحسان ﴿ قوله سبحانه وتعالى (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وحده والشأن الخطب والحال والأمر الذي يتفق ويصلح ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور وجمع الشؤون تقول العرب ما شأن فلان أي ما حاله والشأن اسم إذا كان بمعنى الخطب والحال ويكون مصدرا إذا كان بمعنى القصد والمعنى في هذه الآية يجوز أن يكون المراد به الاسم قال ابن عباس معناه وما تكون يا محمد في شأن يريد من أعمال البر وقال الحسن في شأن من شؤون الدنيا وحوائجك ويجوز أن يكون المراد به القصد يعني قصد الشيء (وما تتلو منه من قرآن) اختلفوا في الضمير في منه إلى ماذا يعود فقيل يعود إلى الشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شؤون رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو أعظم شؤونه فعلى هذا يكون داخلا تحت قوله تعالى وما تكون في شأن إلا أنه سبحانه وتعالى خصه بالذكر لشرفه وعلو مرتبته وقيل إنه راجع إلى القرآن لأنه قد تقدم ذكره في قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته فعلى هذا يكون المعنى وما تتلو من القرآن من قرآن يعني من سورة ونحوها لأن لفظ قرآن يطلق على جميعه وعلى بعضه وقيل الضمير في منه راجع إلى الله والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك وأما قوله سبحانه وتعالى (ولا تعملون من عمل) فإنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته داخلون فيه ومرادون به لأن من المعلوم أنه إذا خوطب رئيس قوم وكبيرهم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى ولا تعملون من عمل على صيغة الجمع فدل على أنهم داخلون في الخطابين الأولين ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (إلا كنا عليكم شهودا) يعني شاهدين لأعمالكم وذلك لأن الله سبحانه وتعالى شاهد على كل شيء وعالم بكل شيء لأنه لا محدث ولا خالق ولا موجد إلا الله تعالى فكل ما يدخل في الوجود من أحوال العبد وأعماله الظاهرة والباطنة داخل في علمه وهو شاهد عليه (إذ تفيضون فيه) يعني أن الله سبحانه وتعالى شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون في ذلك العمل والإفاضة الدخول في العمل على جهة الانصباب إليه والانبساط فيه وقال ابن الأنباري معناه إذ تندفعون فيه وتنبسطون في ذكره وقيل الإفاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج تنتشرون فيه يقال أفاض القوم في الحديث إذا انتشروا فيه (وما يعزب عن ربك) يعني وما يبعد ويغيب عن ربك يا محمد من عمل خلقه شيء لأنه عالم به وشاهد عليه وأصل العزوب البعد يقال منه كلأ عازب إذا كان بعيد المطلب (من مثقال ذرة) يعني وزن ذرة والمثقال الوزن والذرة النملة الصغيرة الحمراء وهي خفيفة الوزن جدا (في الأرض ولا في السماء) فإن قلت لم قدم ذكر الأرض على السماء هنا وقدم ذكر السماء على الأرض في سورة سبأ وما فائدة ذلك قلت كان حق السماء أن تقدم على الأرض كما في سورة سبأ إلا أنه تعالى لما ذكر في هذه الآية شهادته على أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ثم وصل ذلك بقوله وما يعزب عن ربك حسن تقديم الأرض على السماء في هذا الموضع

على الله تفترون) أم أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه أو الهمزة للإنكار وأم منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله تقريرا للافتراء وكفى بهذه الآية زاجرة عن التجوز فيما يسأل من الأحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان ومعتمد على البرهان (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب) يحسبون ذلك اليوم (يوم القيامة) منصوب بالظن وهو ظن واقع فيه أي أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره (إن الله لذو فضل على الناس) حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام (ولكن أكثرهم لا يشكرون) هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه (وما تكون في شأن) ما نافية والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والشأن الأمر (وما تتلو منه) من التنزيل كأنه قيل وما تتلو من التنزيل (من قرآن) لأن كل جزء منه قرآن والإضمار قبل الذكر تفخيم له أو من الله عز وجل (ولا تعملون) أنتم جميعا (من عمل) أي عمل (إلا كنا عليكم شهودا) شاهدين رقباء نحصي عليكم (إذ تفيضون فيه) تخوضون من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه (وما يعزب عن ربك) وما يبعد وما يغيب عن علمه حيث كان (من مثقال ذرة) وزن نملة صغيرة (في الأرض ولا في السماء)

هذه الفائدة (ولا أصغر من ذلك) يعني من الذرة (ولا أكبر) يعني منها (إلا في كتاب مبين) يعني في اللوح المحفوظ ﴿ قوله سبحانه وتعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) اعلم أنا نحتاج أولا في تفسير هذه الآية أن نبين من يستحق اسم الولاية ومن هو الولي فنقول اختلف العلماء فيمن يستحق هذا الاسم فقال ابن عباس في هذه الآية هم الذين يذكر الله لرؤيتهم وروى الطبري بسنده عن سعيد بن جبير مرسلا قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولياء الله فقال هم الذين إذا رأوا ذكر الله وقال ابن زيد هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ولن تقبل الإيمان إلا بالتقوى وقال قوم هم المتحابون في الله ويدل على ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم قال هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ هذه الآية ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون أخرجه أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي أخرجه مسلم عن معاذ بن جبل قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء أخرجه الترمذي وروى البغوي بسنده عن أبي مالك الأشعري قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة قال وفي ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال حدثنا يا رسول الله عنهم من هم قال فرأيت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم البشر فقال هم عباد من عباد الله من بلدان شتى وقبائل شتى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولا دنيا يتباذلون بها يتحابون بروح الله يجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى إن أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم هكذا ذكره البغوي بغير سند وروى الطبري بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء قيل من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الغبطة نوع من الحسد إلا أن الحسد مذموم والغبطة محمودة والفرق بين الحسد والغبطة أن الحاسد يتمنى زوال ما على المحسود من النعمة ونحوها والغبطة هي أن يتمنى الغابط مثل تلك النعمة التي هي على المغبوط من غير زوالها عنه وقال أبو بكر الأصم أولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة إليه وأصل الولي من الولاء وهو القرب والنصرة فولي الله هو الذي يتقرب إلى الله بكل ما افترض عليه ويكون مشتغلا بالله مستغرق القلب في معرفة نور جلال الله فإن رأى رأى دلائل قدرة الله وإن سمع سمع آيات الله وإن نطق نطق بالثناء على الله وإن تحرك تحرك في طاعة الله وإن اجتهد اجتهد فيما يقرب به إلى الله لا يفتر عن ذكر الله ولا يرى غير الله فهذه صفة أولياء الله وإذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه قال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا وقال المتكلمون ولي الله من كان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ويكون آتيا بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة وإليه الإشارة بقوله الذين آمنوا وكانوا يتقون وهو أن الإيمان مبني على جمع الاعتقاد والعمل ومقام التقوى هو أن يتقي العبد كل ما نهى الله عنه لا خوف عليهم يعني في الآخرة إذا خاف غيرهم ولا هم يحزنون يعني على شيء فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها

ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) رفعهما حمزة على الابتداء والخبر (إلا في كتاب مبين) يعني اللوح المحفوظ ونصبهما غيره على نفي الجنس وقدمت الأرض على السماء هنا وفي سبأ قدمت السموات لأن العطف بالواو وحكمه حكم التثنية (ألا إن أولياء الله) هم الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة أو هم الذين تولى الله هداهم بالبرهان الذي آتاهم فتولوا القيام بحقه والرحمة لخلقه أو هم المتحابون في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها أو هم المؤمنون المتقون بدليل الثانية (لا خوف عليهم) إذا خاف الناس (ولا هم يحزنون) إذا حزن الناس

فهو مشغول بالمستقبل من الخوف والحزن فهم لم يجتمع لهم طرفي الآخرة لأن الميت الخائف من هذا وهو أنكد
وحزن فلا يشغله شيء ولا يلتفت إلى شيء من الدنيا ولا يشتغل بغيره وإذا كان العبد في هذه
الحالة فلا يخاف من شيء ولا يحزن على شيء لأن هذه أولياء الله فرحه يمنعه أن يخاف أو يحزن ﴿ وأما
قوله سبحانه وتعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون) فتقدم تفسيره أنه صفة لأولياء الله ﴿ وقوله سبحانه
وتعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) اختلفوا في هذه البشرى فروي عن عبادة بن الصامت
قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى لهم البشرى في الحياة الدنيا قال هي الرؤيا الصالحة
يراها المؤمن أو ترى له أخرجه الترمذي وله عن رجل من أهل مصر قال سألت أبا الدرداء عن هذه الآية لهم
البشرى في الحياة الدنيا فقال ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال ما سألني
عنها أحد غيرك منذ أنزلت هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له قال الترمذي حديث حسن (خ) عن
أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات قال
الرؤيا الصالحة (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا
المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة لفظ البخاري ولمسلم إذا اقترب الزمان لم
تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة
والرؤيا ثلاث فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه قال
بعض العلماء ورد هذا الحديث في تأويل قوله تبارك وتعالى لهم البشرى على الرؤيا الصالحة الصادقة فظاهر
هذا النص يقتضي أن لا تحصل هذه الحالة إلا لهم وذلك لأن ولي الله هو الذي يكون مستغرق القلب والروح
بذكر الله عز وجل ومن كان كذلك فإنه عند النوم لا يبقى في قلبه غير ذكر الله ومعرفته ومن المعلوم أن
معرفة الله لا تحصل في القلب إلا بالحق والصدق فإذا رأى أولياء رؤيا أو رؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من
الله عز وجل له قال الخطابي في هذه الأحاديث توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها وإنما كانت جزءاً من
أجزاء النبوة في الأنبياء دون غيرهم وكان الأنبياء عليهم السلام يوحى إليهم في منامهم كما يوحى إليهم في
اليقظة قال الخطابي قال بعض أهل العلم معنى الحديث أن الرؤيا تأتي على موافقة النبوة لا أنها جزء باق من النبوة
وقال الخطابي وغيره في معنى قوله الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة أقام النبي صلى الله عليه وسلم
في النبوة ثلاثاً وعشرين سنة على الصحيح وكان قبل ذلك ستة أشهر يرى في المنام الوحي فهي جزء من
ستة وأربعين جزءاً وقيل إن المنام فيه أن يكون إنباء بغيب وهو أحد مراتب النبوة وهو يسير في
جانب النبوة لأنه لا يجوز أن يبعث الله بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبياً يشرع الشرائع ويبين الأحكام ولا يخبر
بغيب أبداً فإذا وقع لأحد في المنام الأخبار بغيب يكون هذا القدر جزءاً من النبوة لأنه في وقت ذلك
لا يصدق المنام يكون صدقاً والله أعلم وقيل في تفسير الآية أن المراد بالبشرى في الحياة الدنيا الثناء الحسن
وفي الآخرة الجنة ويدل على ذلك ما روي عن أبي ذر قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت الرجل
يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن أخرجه مسلم قال الشيخ محيي الدين
النووي قال العلماء معنى هذه البشرى المعجلة له بالخير وهي دليل على البشرى المؤخرة له في الآخرة بقوله بشراكم
اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه ومحبته له وتحبيبه إلى الخلق
ثم قال ثم يوضع له القبول في الأرض هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم وإلا فالتعرض مذموم
قال بعض المحققين إذا اشتغل العبد بالله عز وجل استنار قلبه وامتلأ نوراً فيفيض من ذلك النور الذي في
قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع فيحبه الناس ويثنون عليه فتلك عاجل بشراه بمحبة الله
له ورضوانه عليه وقال الزهري وقتادة في تفسير البشرى هي نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت ويدل

(الذين آمنوا) منصوب بإضمار أعني أو لأنه صفة لأولياء أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين آمنوا (وكانوا يتقون) الشرك والمعاصي (لهم البشرى في الحيوة الدنيا) ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير موضع من كتابه وعن النبي صلى الله عليه وسلم هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له وعنه عليه السلام ذهبت النبوة وبقيت المبشرات والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وعدالان مدة الوحي ثلاث وعشرون سنة وكان في ستة أشهر منها يوحى إليه في النوم بالأنذار وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً أو هي محبة الناس له والذكر الحسن أو هم البشرى عند النزع أن يرى مكانه في الجنة (وفي الآخرة) هي الجنة

(لا تبديل لكلمات الله) لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده (ذلك) إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين (هو الفوز العظيم) وكلتا الجملتين اعتراض ولا يجب أن يقع بعد الاعتراض كلام كما تقول فلان ينطق بالحق والحق أبلج (ولا يحزنك قولهم) تكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاكك (٣٢٤) وإبطال أمرك (إن العزة) استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل مالي لا أحزن فقيل إن العزة (لله) إن الغلبة والقهر في ملكه لا يملك أحد شيئا منهما لا هم ولا غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إنا لننصر رسلنا أو به يتعزز كل عزيز فهو يعزك ودينك وأهلك والوقف لازم على قولهم لئلا يصير إن العزة مقول الكفار (جميعا هو السميع) لما يقولون (العليم) بما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك (ألا إن لله من في السموات ومن في الارض) يعني العقلاء وهم الملائكة والثقلان وخصهم ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي مملكته ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا أن يكون شريكا له فيها فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندا وشريكا (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) ما نافية أي وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء لأن شركة الله في الربوبية محال (إن يتبعون إلا الظن) إلا ظنهم أنهم شركاء الله (وإن هم إلا يخرصون) يحزرون ويقدرون أن يكونوا شركاء تقديرا باطلا أو استفهامية أي وأي شيء يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الأول بيتبع وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة والمحذوف مفعول يدعون أو موصولة معطوفة على من كأنه قيل ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أي وله شركاؤهم ثم نبه على عظم قدرته وشمول نعمته على عباده بقوله (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أي جعل لكم الليل مظلما لتستريحوا فيه من تعب التردد في النهار (والنهار مبصرا) مضيئا

عليه قوله سبحانه وتعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون وقال عطاء عن ابن عباس البشرى في الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة وفي الآخرة بعد خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى الله تعالى وتبشر برضوان الله تعالى وقال الحسن هي ما بشر الله به المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه ويدل عليه قوله تعالى (لا تبديل لكلمات الله) يعني لا خلف لوعد الله الذي وعد به أولياءه وأهل طاعته في كتابه وعلى ألسنة رسله ولا تغيير لذلك الوعد (ذلك هو الفوز العظيم) يعني ما وعدهم به في الآخرة (ولا يحزنك قولهم) يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين لك ولا يهمك تخويفهم إياك (إن العزة لله جميعا) يعني إن القهر والغلبة والقدرة لله جميعا هو المنفرد بها دون غيره وهو ناصرك عليهم والمنتقم لك منهم وقال سعيد بن المسيب إن العزة لله جميعا فيعز من يشاء وهذا كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولا منافاة بين الآيتين فإن عزة الرسول صلى الله عليه وسلم وعزة المؤمنين بإعزاز الله إياهم فثبت بذلك أن العزة لله جميعا وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء وقيل إن المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فأخبر الله سبحانه وتعالى أن جميع ذلك لله وفي ملكه فهو قادر على أن يسلبهم جميع ذلك ويذلهم بعد العز (هو السميع) لأقوالكم ودعائكم (العليم) بجميع أحوالكم لا يخفى عليه خافية ۞ قوله سبحانه وتعالى (ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض) ألا كلمة تنبيه معناه أنه لا ملك لأحد في السموات ولا في الأرض إلا الله عز وجل فهو يملك من في السموات ومن في الأرض فإن قلت قال سبحانه وتعالى في الآية التي قبل هذه ألا إن لله ما في السموات بلفظة ما وقال سبحانه وتعالى في هذه الآية بلفظة من فما فائدة ذلك قلت إن لفظة ما تدل على ما لا يعقل ولفظة من تدل على من يعقل فمجموع الآيتين يدل على أن الله عز وجل يملك جميع من في السموات ومن في الأرض من العقلاء وغيرهم وهم عبيده وفي ملكه وقيل إن لفظة من لمن يعقل فيكون المراد بمن في السموات الملائكة العقلاء ومن في الأرض الإنس والجن وهم العقلاء أيضا وإنما خصهم بالذكر لشرفهم وإذا كان هؤلاء العقلاء المميزون في ملكه وتحت قدرته فالجمادات بطريق الأولى أن يكونوا في ملكه إذا ثبت هذا فتكون الأصنام التي يعبدها المشركون أيضا في ملكه وتحت قبضته وقدرته فيكون ذلك قدحا في جعل الأصنام شركاء لله معبودة دونه (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) لفظة ما استفهامية معناه وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعني أنهم ليسوا على شيء لأنهم يعبدونها على أنها شركاء الله تشفع لهم وليس الأمر على ما يظنون وهو قوله سبحانه وتعالى (إن يتبعون إلا الظن) يعني أن فعلهم ذلك ظن منهم أنها تشفع لهم وأنها تقربهم إلى الله وذلك ظن منهم لا حقيقة له (وإن هم إلا يخرصون) يعني إن هم إلا يكذبون ۞ قوله عز وجل (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) يعني هو الله ربكم الذي خلق لكم الليل راحة لتسكنوا فيه وليزول التعب والكلال بالسكون فيه وأصل السكون الثبوت بعد الحركة والنهار مبصرا وجعل النهار مضيئا لتهتدوا فيه لحوائجكم وأسباب معايشكم وأضاف الإبصار إلى النهار وإنما يبصر فيه وليس النهار مما يبصر ولكن لما كان مفهوما من كلام العرب معناه خاطبهم بلغتهم وما يفهمونه قال جرير

فمتاع قليل في الدنيا • ثم يرد إلى أسفل سافلين

أضاف الإبصار إلى النهار وهو مجاز في معنى قولهم ليل نائم وهذا من باب حذف الاسم من المضاف إلى السبب فعرفت تقول العرب أظلم الليل وأضاء النهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء ﴿ قوله تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) يعني يسمعون سمع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك أن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الإله المعبود المنفرد بالوحدانية في الوجود (قالوا) يعني المشركين (اتخذ الله ولدا) يعني به قولهم الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد (هو الغني) يعني أنه سبحانه وتعالى هو الغني عن جميع خلقه فكيف يليق به أن يتخذ ولدا وإنما يتخذ الولد من هو محتاج إليه والغني هو الذي لا يحتاج إلى شيء والله تعالى هو الغني المطلق وجميع الأشياء محتاجة إليه (له ما في السموات وما في الأرض) يعني أنه مالك ما في السموات وما في الأرض وكلهم عبيده وفي قبضته وتصرفه وهو خالقهم ورازقهم وأشار بأنه سبحانه وتعالى منزه عن اتخاذ الولد ثم أقبل على من قال ذلك بالإنكار والتوبيخ والتقريع فقال سبحانه وتعالى (إن عندكم من سلطان بهذا) يعني أنه لا حجة عندكم على هذا القول الذي تقولونه ثم بالغ في الإنكار عليهم بقوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون) يعني أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه جهلا منكم بما تقولون بغير حجة ولا برهان (قل إن الذين يفترون على الله الكذب) يعني قل يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون على الله الباطل ويزعمون أن له ولدا (لا يفلحون) يعني لا يسعدون ولا يفوزون بل خابوا وخسروا والمعنى أن قائل هذا القول لا ينجح في سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر قال الزجاج هذا وقف تام على قوله لا يفلحون ثم ابتدأ فقال تعالى (متاع في الدنيا) والمعنى أن لهم متاعا في الدنيا يتمتعون به مدة أعمارهم وانقضاء آجالهم في الدنيا وهي أيام يسيرة بالنسبة إلى طول مقامهم في العذاب وهو قوله سبحانه وتعالى (ثم إلينا مرجعهم) يعني بعد الموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) يعني ذلك العذاب بسبب ما كانوا يجحدون في الدنيا نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله ﴿ قوله سبحانه وتعالى (واتل عليهم نبأ نوح) لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك في بيان قصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ليكون في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة بمن سلف من الأنبياء ولتسليته ليخف عليه ما يلقى من أذى قومه وإن الكفار من قومه إذا سمعوا هذه القصص وما جرى للكفار الأمم الماضية من الهلاك في الدنيا كان ذلك سببا لخوفهم وداعيا لهم إلى الإيمان ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكا وأعظمهم كفرا وعتوا ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش فقال سبحانه وتعالى واتل عليهم نبأ نوح يعني واقرأ على قومك يا محمد خبر قوم نوح (إذ قال لقومه يا قوم) وهم ولد قابيل (إن كان كبر) يعني ثقل (عليكم مقامي) يعني فيكم (وتذكيري بآيات الله) يعني ووعظي إياكم بآيات الله وقيل معناه إن كان ثقل وشق عليكم طول مقامي فيكم وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى ويذكرهم بآيات الله وهو قوله وتذكيري بآيات الله يعني ووعظي بآيات الله وحججه وبيناته فعزمتم على قتلي وطردي (فعلى الله توكلت) يعني فهو حسبي وثقتي (فأجمعوا أمركم) يعني فأحكموا أمركم واعزموا عليه قال الفراء

فيقصر ليبصروا فيه (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) سماع معتبر مدكر (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه) تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجيب من كلمتهم الحمقاء (هو الغني) علة لنفي الولد لأنه إنما يطلب الولد ضعيف ليتقوى به أو فقير ليستعين به أو ذليل ليتشرف به والكل أمارة الحاجة فمن كان غنيا غير محتاج كان الولد عنه منفيا ولأن الولد بعض الوالد فيستدعي أن يكون مركبا وكل مركب ممكن وكل ممكن يحتاج إلى غيره فكان محتاجا فلا يكون إلا حادثا فاستحال القديم أن يكون له ولد (له ما في السموات وما في الأرض) ملكا ولا يجتمع البنوة معه (إن عندكم من سلطان بهذا) ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله إن عندكم على أن يجعل القول مكانا للسلطان كقولك ما عندكم بأرضكم موز كأنه قيل إن عندكم فيما تقولون سلطان ولما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين فقال (أتقولون على الله ما لا تعلمون قل إن الذين يفترون على الله الكذب) بإضافة الولد إليه (لا يفلحون) لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة (متاع في الدنيا) أي افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا حيث يقيمون به رياستهم في الكفر ومناصبة النبي صلى الله عليه وسلم بالتظاهر به (ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد) المخلد (بما كانوا يكفرون) بكفرهم (واتل عليهم) واقرأ عليهم (نبأ نوح) خبره مع قومه والوقف عليه لازم إذ لو وصل لصار إذ ظرفا لقوله واتل بل التقدير واذكر (إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم) عظم وثقل كقوله وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين (مقامي) مكاني يعني نفسه كقوله ولمن خاف مقام ربه أي خاف ربه أو قيامي ومكثي بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عاما أو مقامي (وتذكيري بآيات الله) لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا (فعلى الله توكلت) أي فوضت أمري إليه (فأجمعوا أمركم) من أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه

(وشركاءكم) الواو بمعنى مع أي فاجمعوا أمركم مع شركائكم (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) أي غماً عليكم وهماً والغم والغمة كالكرب والكربة أو ملتبساً في خفية والغمة السترة من غمه إذا ستره ومنه الحديث لا غمة في فرائض الله أي لا تستر ولكن يجاهر بها والمعنى ولا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستوراً عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونني به (ثم اقضوا إلي) ذلك الأمر الذي تريدون بي أي أدوا إلي ما هو حق عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل غريمه أو اصنعوا ما أمكنكم (ولا تنظرون) ولا تمهلون (فإن توليتم) فإن أعرضتم عن تذكيري ونصحي (فما سألتكم من أجر) فأوجب التولي أو فما سألتكم من أجر ففاتني ذلك بتوليتكم (إن أجري إلا على الله) وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أي ما نصحتكم إلا لله لا لغرض من أغراض الدنيا وفيه دلالة منع أخذ الأجر على تعلم القرآن والعلم الديني (وأمرت أن أكون من المسلمين) من المستسلمين لأوامره ونواهيه أجري بالفتح مدني وشامي وأبو عمرو وحفص (فكذبوه) فداموا على تكذيبه (فنجيناه) من الغرق (ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف) يخلفون الهالكين بالغرق في السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) هو تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية له (ثم بعثنا من بعده) من بعد نوح عليه السلام (رسلاً إلى قومهم) أي هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً (فجاءوهم بالبينات) بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم (فما كانوا ليؤمنوا) فأصروا على الكفر بعد المجيء (بما كذبوا به من قبل) من قبل مجيئهم يعني يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها كأن لم يبعث إليهم أحد (كذلك نطبع) مثل ذلك الطبع نختم (على قلوب المعتدين) المجاوزين الحد في التكذيب (ثم بعثنا من بعدهم) من بعد الرسل (موسى وهرون إلى فرعون وملئه بآياتنا) بالآيات التسع (فاستكبروا) عن قبولها وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها (وكانوا قوماً مجرمين) كفاراً ذوي آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤوا على ردها (فلما جاءهم الحق من عندنا) فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله

لاجماع الإعداد والعزيمة على الأمر وقال ابن الأنباري المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لا تدعوا من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه (وشركاءكم) يعني وادعوا شركاءكم يعني آلهتكم فاستعينوا بها لتجتمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وإنما حثهم على الاستعانة بالأصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) يعني لا يكن أمركم عليكم خفياً مبهماً ولكن ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً من قولهم غم الهلال فهو مغموم إذا خفي والتبس على الناس (ثم اقضوا) ثم امضوا (إلي) بما في أنفسكم من مكروه وما توعدونني به من قتل وطرد وافرغوا منه تقول العرب قضى فلان إذا مات ومضى وقيل معناه ثم اقضوا ما أنتم قاضون (ولا تنظرون) أي ولا تؤخروني ولا تمهلوني بعد إعلامكم إياي ما أنتم عليه وهذا الكلام من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم أخبر الله عز وجل عن نوح عليه السلام أنه كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله وأنه كان واثقاً بنصره وأنه غير خائف من كيدهم علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس لهم نفع ولا ضر وأن مكرهم لا يصل إليه (فإن توليتم) يعني فإن أعرضتم عن قولي وقبول نصحي (فما سألتكم من أجر) يعني من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فإذا لم يأخذ على تبليغ الدعوة إلى الله شيئاً كان أقوى تأثيراً في النفس (إن أجري إلا على الله) أي ما ثوابي وجزائي على تبليغ الرسالة إلا على الله (وأمرت أن أكون من المسلمين) يعني أني أمرت بدين الإسلام وأنا ماض فيه غير تارك له وإن قبلتموه أو لم تقبلوه وقيل معناه وأمرت أن أكون من المستسلمين لأمر الله ولكل مكروه يصل إلي منكم لأجل هذه الدعوة (فكذبوه) يعني فكذبوا نوحاً عليه السلام (فنجيناه ومن معه في الفلك) يعني في السفينة (وجعلناهم خلائف) يعني وجعلنا الذين نجيناهم معه في الفلك سكان الأرض بعد الهالكين (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أي فانظر يا محمد أو يا أيها الإنسان كيف كان آخر أمر من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك (ثم بعثنا من بعده) يعني من بعد نوح (رسلاً إلى قومهم) إليهم هنا من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعد نوح هود وصالح وغيرهم من الرسل (فجاءوهم بالبينات) يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التي تدل على صدقهم (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) يعني أن أولئك الأقوام والأمم التي جاءتهم الرسل جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب ولم يزجرهم ما جاءتهم به الرسل ولم يرجعوا عما هم فيه من الكفر والتكذيب (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) يعني مثل إغراقنا قوم نوح بسبب تكذيبهم نوحاً كذلك نختم على قلوب من اعتدى وسلك سبيلهم في التكذيب ۞ قوله عز وجل (ثم بعثنا من بعدهم) يعني من بعد الرسل (موسى وهرون إلى فرعون وملئه) يعني أشراف قومه (بآياتنا فاستكبروا) يعني عن الإيمان بما جاء به موسى وهرون (وكانوا قوماً مجرمين) يعني مستكبرين آثمين (فلما جاءهم الحق من عندنا)

(قالوا) خبر لاشتراك (إن هذا لسحر مبين) وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم) هو إنكار ومقول القول محذوف أي أتقولون ما تقولون يعني قولهم إن هذا لسحر ثم قال منكرا سحرهم مستأنفا (أسحر هذا) خبر مقدم (ولا يفلح الساحرون) أي لا يظفر (قالوا أجئتنا لتلفتنا) لتصرفنا (عما وجدنا عليه آباءنا) من عبادة الأصنام أو عبادة فرعون (وتكون لكما الكبرياء)

يعني فلما جاء فرعون وقومه الحق الذي جاء به موسى من عند الله (قالوا إن هذا لسحر مبين) يعني أن هذا الذي جاء به موسى سحر مبين يعرفه كل أحد (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الأول لدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الإنكار يعني أنه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله فقال (ولا يفلح الساحرون) يعني أن عامل السحر فعله تخييل وصاحب ذلك لا يفلح أبدا (قالوا) يعني قال فرعون وقومه لموسى (أجئتنا لتلفتنا) يعني لتصرفنا وتلوينا (عما وجدنا عليه آباءنا) يعني من الدين (وتكون لكما الكبرياء) يعني الملك والسلطان (في الأرض) يعني في أرض مصر والخطاب لموسى وهرون قال الزجاج سمي الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا (وما نحن لكما بمؤمنين) يعني بمصدقين (وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم) يعني أن فرعون أراد أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التلبيس ليظهر أن ما أتى به موسى سحر (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) إنما أمرهم موسى بذلك ليلقوا ما معهم من الحبال والعصي التي فيها سحرهم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويجب أن يتوقف فيه (فلما ألقوا) يعني ما معهم من الحبال والعصي (قال موسى ما جئتم به السحر) يعني الذي جئتم به هو السحر الباطل وهو ما على سبيل التمويه عليهم (إن الله سيبطله) يعني سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) يعني لا يقويه ولا يكمله ولا يثبته (ويحق الله الحق) يعني ويظهره الله ويقويه ويعليه (بكلماته) يعني بوعده الصادق لموسى أنه ينصره وقيل بما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة (ولو كره المجرمون) قوله سبحانه وتعالى (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) لما ذكر الله عز وجل ما أتى به موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة الباهرة أخبر الله سبحانه وتعالى أنهم مع مشاهدة هذه المعجزات ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه وإنما ذكر الله عز وجل هذه التسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به واستمرارهم على الكفر والتكذيب فبين الله سبحانه وتعالى أن له أسوة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأن الذي جاء به موسى عليه السلام من المعجزات كان أمرا عظيما ومع ذلك فما آمن معه إلا ذرية والذرية اسم يقع على القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل وقيل المراد به التصغير وقلة العدد واختلفوا في هاء الكناية في قومه فقيل إنها راجعة إلى موسى وأراد بهم قوم موسى وهم بنو إسرائيل الذين كانوا معه بمصر من أولاده قال مجاهد هم أولاد يعقوب الذين أرسل إليهم موسى هلك الآباء وبقي الأبناء وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون وذلك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة من بني إسرائيل إذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا عليه من القتل فنشؤوا بين القبط فلما كان اليوم الذي غلب موسى فيه السحرة آمنوا به وقال ابن عباس ذرية من قومه يعني من بني إسرائيل وقيل إنها راجعة إلى فرعون يعني الذرية من قوم فرعون روى عطية عن ابن عباس قال هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطته قال الفراء سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل فكان الرجل يتبع أمه وأخواله في الإيمان وذلك كما يقال لأولاد فارس الذين سقطوا إلى اليمن الأبناء لأن أمهاتهم من غير جنس الآباء (على خوف من فرعون وملئهم) إلا الأشراف فعلى هذا يكون معنى الآية على خوف من فرعون ومن

أي الملك لأن الملوك موصوفون بالكبر والعظمة والتجبر (في الأرض) أرض مصر (وما نحن لكما بمؤمنين) مصدقين فيما جئتما به ويكون حمزة ويحيى (وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم) سحار حمزة وعلي (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر) ما موصولة وقعت مبتدأ وجئتم به صلتها والسحر خبر أي الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحرا من آيات الله آلسحر بالمد وقرأ أبو عمرو على الاستفهام فعلى هذه القراءة ما استفهامية أي أي شيء جئتم به أهو السحر (إن الله سيبطله) يظهر بطلانه (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) لا يثبته بل يدمره (ويحق الله الحق) ويثبته (بكلماته) بأوامره وقضاياه أو بظهور الإسلام بعداته بالنصرة (ولو كره المجرمون) ذلك (فما آمن لموسى) في أول أمره (إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون) إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل كأنه قيل إلا أولاد من أولاد قومه وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف أو الضمير في قومه لفرعون والذرية مؤمن آل فرعون وآسية امرأته وخازنه وامرأته وماشطته والضمير في (وملئهم) يرجع إلى فرعون بمعنى آل فرعون كما يقال ربيعة ومضر أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون.

لها وإلى القرية أي على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني اسرائيل لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم
عليه قوله (أن يفتنهم) يريد أن يعذبهم فرعون (وان فرعون لعال في الارض) لغالب فيها قاهر (وانه لمن المسرفين) في الظلم والفساد وفي
الكبر والعتو بادعائه الربوبية (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله) صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) فاليه
أسندوا أمركم في العصمة من فرعون (ان كنتم مسلمين) شرط في التوكل الاسلام وهو أن يسلموا نفوسهم لله أي يجعلوها له سالمة خالصة لاحظ للشيطان فيها لان التوكل لا يكون مع التخليط (فقالوا على الله توكلنا) اجابوا بذلك لان القوم كانوا مخلصين لاجرم أن الله قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في أرضه فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه فعليه برفض التخليط الى الاخلاص (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) موضع فتنة لهم أي عذاب يعذبوننا أو يفتنوننا عن ديننا أي يضلونا والفاتن المضل عن الحق (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) أي من تملكهم وتسخيرهم (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) تبوأ المكان اتخذه مباءة كقوله توطنه اذا اتخذه وطنا والمعنى اجعلا بمصر بيوتا من بيوته مباءة لقومكما ومرجعا يرجعون اليه للعبادة والصلاة فيه (واجعلوا بيوتكم قبلة) أي مساجد متوجهة نحو القبلة وهي الكعبة وكان موسى ومن معه يصلون الى الكعبة وكانوا في أول ... ويصلوا
الامر مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المسلمون على ذلك في
الاسلام بمكة (وأقيموا الصلاة) في بيوتكم حتى تأمنوا (وبشر المؤمنين) ياموسى ثنى الخطاب أولا ثم جمع ثم وحد آخرا لان اختيار مو...

أشرافهم وهم ملأ القرية لانه كان آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني اسرائيل وقيل أراد بالملأ ملأ فرعون وانما قال سبحانه وتعالى وملئهم بالجمع وفرعون واحد على سبيل التفخيم له (أن يفتنهم) أي يصرفهم ويصدهم عن الايمان وانما قال أن يفتنهم ولم يقل أن يفتنوهم لان قوم فرعون كانوا على مراده وتابعين لامره (وان فرعون لعال في الارض) يعني انه لغالب قهار متكبر فيها (وانه لمن المسرفين) يعني من المجاوزين الحد لانه كان عبدا فادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني اسرائيل. (وقال موسى) يعني لقومه (ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا) يعني فبه فثقوا ولامره فسلموا فانه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه (ان كنتم مسلمين) يعني ان كنتم مستسلمين لامره وقيل انما أعيد قوله ان كنتم مسلمين بعد قوله ان كنتم آمنتم بالله لارادة ان كنتم موصوفين بالايمان القلبي وبالاسلام الظاهري ودلت الآية على ان التوكل على الله والتفويض لامره من كمال الايمان وان من كان يؤمن بالله فلا يتوكل الا على الله لا على غيره (فقالوا) يعني قال قوم موسى مجيبين له (على الله توكلنا) يعني عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) يعني لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بذنوبهم فيظنوا انا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانا وكفرا وقال مجاهد لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق لما عذبوا ولظنوا أنهم خير منا فيفتتنوا بذلك وقيل معناه لا تسلطهم علينا فيفتنونا (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) يعني وخلصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الاعمال الشاقة ۞ قوله عز وجل (وأوحينا الى موسى وأخيه) هرون (أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) يعني اتخذا لقومكما بمصر بيوتا للصلاة فيها يقال تبوأ فلان لنفسه بيتا اذا اتخذه مباءة أي موطنا والمعنى اجعلا بمصر لقومكما بيوتا ترجعون اليها للصلاة والعبادة (واجعلوا بيوتكم قبلة) اختلف أهل التفسير في معنى هذه البيوت والقبلة فمنهم من قال أراد بالبيوت المساجد التي يصلى فيها وفسروا القبلة بالجانب الذي يستقبل في الصلاة فعلى هذا يكون معنى الكلام واجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لاجل الصلاة وقيل معناه اجعلوا بيوتكم الى القبلة واختلفوا في هذه القبلة وظاهر القرآن لا يدل على تعيينها الا أنه قد نقل عن ابن عباس أنه قال كانت الكعبة قبلة موسى وهرون وهو قول مجاهد أيضا قال ابن عباس قالت بنو اسرائيل لموسى لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم وأن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقيل كانت القبلة الى جهة بيت المقدس وقيل أراد مطلق البيوت وعلى هذا يكون معنى قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أي مقابلة يعني يقابل بعضها بعضا وقيل معناه واجعلوا في بيوتكم قبلة تصلون اليها فان قلت انه سبحانه وتعالى خص موسى وهرون بالخطاب في أول الآية بقوله سبحانه وتعالى وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما ثم انه عم بهذا الخطاب فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة فما السبب فيه قلت انه سبحانه وتعالى أمر موسى وهرون بان يتبوآ لقومهما بيوتا للعبادة وذلك مما يخص به الانبياء فخصا بالخطاب لذلك ثم لما كانت العبادة عامة تجب على الكافة عم بالخطاب الجميع فقال تعالى واجعلوا بيوتكم قبلة (وأقيموا الصلاة) يعني في بيوتكم وذلك حين خاف موسى ومن آمن معه من بني اسرائيل من فرعون وقومه اذا صلوا في الكنائس والبيع الجامعة أن يؤذوهم فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يصلوا في بيوتهم خفية من فرعون وقومه وقيل كانت بنو اسرائيل لا يصلون الا في الكنائس الجامعة وكانت ظاهرة فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريب تلك الكنائس ومنعهم من الصلاة فيها فأمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم

فرعون فيهم يومئذ من فرعون وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما أرسل موسى وهرون وأظهرهما على فرعون أمرهم أن يصلوا في بيوتهم مساجد على رغم الاعداء وتكفل لهم بصونهم من شرهم وهو قوله سبحانه وتعالى (وبشر المؤمنين) يعني بأنه لا يصل اليهم مكروه قوله سبحانه وتعالى (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا) لما أتى موسى عليه السلام بالمعجزات الباهرات ورأى ان القوم مصرون على الكفر والعناد والانكار أخذ في الدعاء عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولا سبب اقدامه على الجرائم وكان سبب اصرارهم على الجحود حب الدنيا ولهذا كان سبب كفرهم وعنادهم هو حب الدنيا وزينتها فلاجرم ان موسى لما أراد الدعاء عليهم قدم هذه المقدمة فقال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا يعني زينة مما يتزين به كاللباس والدواب والغلمان وأثاث البيت والاشياء الجليلة والمال المراد به هذه الاشياء من الصامت ونحوه ثم قال تبارك وتعالى (ربنا ليضلوا عن سبيلك) فقال هذه اللام لام كي والمعنى ربنا انك أعطيتهم هذه الاموال بسبب الضلال لانهم بطروا بالاموال الارض واستكبروا عن الايمان وقال الاخفش انما هي لما يؤول اليه الامر والمعنى انك آتيت فرعون وملأه زينة في الحياة الدنيا فضلوا فهي هذا لام العاقبة يعني فكان عاقبتهم الضلال وقال ابن الانباري هي لام الدعاء وهي لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام فيكون المعنى ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك (ربنا اطمس على أموالهم) الطمس ازالة أثر الشيء بالمحو ومعنى الطمس على أموالهم أي غيرها عن هيئتها وقال مجاهد أهلكها وقال أكثر المفسرين امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة بلغنا ان أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم صارت حجارة وقال محمد بن كعب القرظي صارت صورهم حجارة وكان الرجل مع أهله في فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجرا وهذا فيه ضعف لان موسى عليه السلام دعا على أموالهم ولم يدع على أنفسهم بالمسخ وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا وقيل ان عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهي حجارة وقال السدي مسخ الله أموالهم حجارة النخل والثمار والدقيق والاطعمة وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام (واشدد على قلوبهم) يعني اربط على قلوبهم واطبع عليها وقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للايمان ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الايمان قال الواحدي وهذا دليل على ان الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك ان يشاء ولولا ذلك لما جسر موسى عليه السلام على هذا السؤال (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم) يعني الغرق قاله ابن عباس وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه قال موسى قبل أن يأتي فرعون ربنا اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم فاستجاب الله له دعاءه فحال بين فرعون وبين الايمان حتى أدركه الغرق فلم ينفعه الايمان قال بعض العلماء انما دعا عليهم موسى بهذا الدعاء لما علم ان سابق قضاء الله وقدره فيهم انهم لا يؤمنون وذلك ان الله سبحانه وتعالى كتب عليهم في الازل انهم لا يؤمنون فوافق دعاء موسى ما قدر وقضى عليهم (قال) الله عز وجل لموسى وهرون (قد أجيبت دعوتكما) انما نسب الدعاء اليهما وان الداعي هو موسى وحده لان هرون عليه السلام كان يؤمن والتأمين دعاء لانه طلب وسؤال أيضا ومعناه اللهم استجب فصار بذلك شريك موسى في الدعاء فلذلك قال

للعبادة مما يفوض الى الانبياء ثم جمع لان اتخاذ المساجد والصلاة فيها واجب على الجمهور وخص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيما لها وللمبشر بها (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة) هو ما يتزين به من لباس أو حلي أو فرش أو أثاث أو غير ذلك (وأموالا) أي نقدا ونعما (في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) ليضلوا الناس عن طاعتك كوفي ولا وقف على الدنيا لان قوله ليضلوا متعلق بآتيت وربنا تكرار الاول للالحاح في التضرع قال الشيخ أبو منصور رحمه الله انما علم منهم أنهم يضلون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلوا عن سبيله وهو كقوله انما نملي لهم ليزدادوا اثما فتكون الآية حجة على المعتزلة (ربنا اطمس على أموالهم) أي أهلكها وأذهب آثارها لانهم يستعينون بنعمتك على معصيتك والطمس المحو والهلاك قيل صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة كهيئتها منقوشة وقيل وسائر أموالهم كذلك (واشدد على قلوبهم) اطبع على قلوبهم واجعلها قاسية (فلا يؤمنوا) جواب الدعاء الذي هو اشدد (حتى يروا العذاب الاليم) الى ان يروا العذاب الاليم وكان كذلك فانهم لم يؤمنوا الى الغرق وكان ذلك ايمان يأس فلم يقبل وانما دعا عليهم بهذا لما أيس من ايمانهم وعلم بالوحي انهم لا يؤمنون فاما قبل ان علم انهم لا يؤمنون فلا يسع له ان يدعو بهذا الدعاء لانه أرسل اليهم ليدعوهم الى الايمان وهو يدل على ان الدعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفرا (قال قد أجيبت دعوتكما) قيل كان موسى عليه السلام يدعو وهرون يؤمن فثبت ان التأمين دعاء فكان اخفاؤه أولى والمعنى ان دعاءكما مستجاب وما طلبتما كائن ولكن في وقته

(فاستقيما) فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والتبليغ (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) ولا تتبعان طريق الجهلة الذين لا يعلمون صدق وعدي فان وعدي لا خلف
الاجابة وحكمة الامهال فقد كان بين الدعاء والاجابة أربعون سنة ولا تتبعان بتخفيف النون وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيها بنون التثنية
شامي وخطأه مضمهم لان النون الخفيفة واجبة السكون وقيل هو اخبار عما يكون ان عليه وليس بنهي أو هو حال

وتقديره فاستقيما غير متبعين (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) هو دليل لنا على خلق الافعال (فأتبعهم فرعون وجنوده) فلحقهم يقال تبعته حتى أتبعته (بغيا) تطاولا (وعدوا) ظلما وانتصبا على الحال أو على المفعول له (حتى اذا أدركه الغرق) ولازمه عليه لان (قال آمنت) جواب اذا (انه) حمزة وعلي على الاستئناف بدل من آمنت ومن فتح غيرهما على حذف الباء التي هي صلة الايمان (لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) وفيه دليل على ان الايمان والاسلام واحد حيث قال آمنت ثم قال وأنا من المسلمين كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصا على القبول ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الاختيار (آلآن) أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك قيل قال ذلك حين ألجمه الغرق والعامل فيه أتؤمن (وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) من الضالين المضلين عن الايمان روي ان جبريل عليه السلام أتاه بفتيا ما قول الامير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فيه يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماءه أن يغرق في البحر فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل

تعالى قد أجيبت دعوتكما (فاستقيما) يعني على تبليغ الرسالة وامضيا لامري الى أن يأتيهم العذاب (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) يعني ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي فان وعدي لا خلف فيه ووعيدي نازل بفرعون وقومه ولا تستعجلا قيل كان بين دعاء موسى عليه السلام وبين الاجابة أربعون سنة قال الامام فخر الدين الرازي واعلم ان هذا النهي لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى وهرون كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه صلى الله عليه وسلم قوله عز وجل (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) أي وقطعنا ببني اسرائيل البحر وعبرنا بهم اياه حتى جاوزوه وعبروه (فأتبعهم فرعون وجنوده) يعني لحقهم وأدركهم (بغيا وعدوا) أي ظلما وعدوانا وقيل البغي طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم وقيل بغيا في القول وعدوا في الفعل قال أهل التفسير اجتمع يعقوب وبنوه الى يوسف وهم اثنان وسبعون وخرج مع موسى من مصر وهم ستمائة ألف وذلك انه لما أجاب الله دعاء موسى وهرون أمرهما بالخروج ببني اسرائيل من مصر في الوقت الذي أمرهما أن يخرجا فيه بهم ويسر لهم أسباب الخروج وكان فرعون غافلا عنهم فلما سمع بخروجهم ومفارقتهم مملكته خرج بجنوده في طلبهم فلما أدركهم قالوا لموسى أين المخلص والخروج البحر أمامنا وفرعون وراءنا وقد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله سبحانه وتعالى الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضرب به فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف الله عن وجه الارض وأيبس لهم البحر فلحقهم فرعون وكان على حصان أدهم وكان معه في عسكره ثمانمائة ألف حصان على لون حصانه سوى سائر الالوان وكان يتقدمهم جبريل وكان على فرس أنثى وديق وميكائيل يسوقهم حتى لا يشذ منهم أحد فلما خرج آخر بني اسرائيل من البحر دنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون من أمره شيأ فنزل البحر وتبعه جنوده حتى اذا اكتملوا جميعا في البحر وهم أولهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما أدرك فرعون الغرق أتى بكلمة الاخلاص ظنا منه انها تنجيه من الهلاك وهو قوله تعالى (حتى اذا أدركه الغرق قال) يعني فرعون (آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين) قال ابن عباس لم يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل قال العلماء ايمانه غير مقبول وذلك أن الايمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا وقيل انه قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم يكن قصده بها الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية لا جرم لم ينفعه ما قال في ذلك الوقت وقيل ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى فلهذا قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في ايمانه ولما رجع فرعون الى الايمان والتوبة حين أغلق بابهما بحضور الموت ومعاينة الملائكة قيل له (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) يعني آلآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام وقيل الملائكة وقيل ان القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبيح صنعه وما كان عليه من الفساد في الارض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى فاليوم ننجيك ببدنك والقول الاول أشهر ويعضده ما روى عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فادسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة

أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وفي رواية أخرى عن شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد
ابن جبير عن ابن عباس ذكر أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر أن جبريل عليه السلام جعل يدس
في فم فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه الله أخرجه الترمذي وقال
حديث حسن صحيح

(فصل في الكلام على هذا الحديث) لأنه في الظاهر مشكل فيحتاج إلى بيان وإيضاح فنقول قد ورد هذا الحديث على طريقين مختلفين عن ابن عباس ففي الطريق الأول عن ابن زيد بن جدعان وهو وإن كان قد وثقه يحيى بن معين وغيره فإنه كان شيخا جليلا صدوقا ولكنه كان سيئ الحفظ جدا وقد احتمل الناس حديثه وإنما يتقى من حديثه ما لم يتابع عليه أو ما ينفرد به وقد اختلف في هذا الحديث لأن في الطريق الآخر شعبة عن عدي بن ثابت عن سعيد بن جبير وهذا الإسناد على شرط البخاري ورواه أيضا شعبة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير وعطاء بن السائب فقد أخرج له مسلم فهو على شرطه وإن كان عطاء قد تكلم فيه من قبل اختلاطه فما حدث به قديما فيما انفرد به أو خولف فيه وكلاهما ثقتان فقد علم بهذا أن هذا الحديث أصلا وأن رواته ثقات ليس فيهم متهم وإن كان فيهم من هو سيئ الحفظ فقد تابعه عليه غيره فإن قلت في الحديث إشكال آخر وهو أن شعبة شك في رفعه لأنه قال فيه ذكر أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قلت ليس بشك في رفعه إنما هو جزم بأن أحد الرجلين رفعه وشك شعبة في تعيينه هل هو عطاء بن السائب أو عدي ابن ثابت وكلاهما ثقة فإذا رفعه أحدهما وشك في تعيينه لم يكن هذا علة في الحديث وقوله من حال البحر أي من طين البحر كما في الرواية الأخرى

(فصل) ووجه الإشكال ما اعترض به الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره فقال هل يصح أن جبريل أخذ يملأ فمه بالطين لئلا يتوب غضبا عليه والجواب الأقرب أنه لا يصح لأن في تلك الحالة إما أن يقال التكليف هل كان ثابتا أم لا فإن كان ثابتا لا يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة وإن كان التكليف زائلا عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب إلى جبريل فائدة وأيضا لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وأيضا فكيف يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنعه من الإيمان ولو قيل إن جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل إلا بأمر ربك فهذا وجه الإشكال الذي أورده الإمام على هذا الحديث في كلام أكثر من هذا والجواب عن هذا الاعتراض أن الحديث قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا اعتراض عليه لأحد وأما قول الإمام إن التكليف هل كان ثابتا في تلك الحالة أم لا فإن كان ثابتا لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة فإن هذا القول لا يستقيم على أصل المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهذا قول أهل السنة المثبتين للقدر فإنهم يقولون إن الله يحول بين الكافر والإيمان ويدل على ذلك قوله تعالى واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وقوله تعالى وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم وقال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه قلب أفئدتهم مثل تركهم الإيمان به أول مرة وهكذا فعل بفرعون منعه من الإيمان عند الموت جزاء على تركه الإيمان أولا فدس الطين في فم فرعون من جنس الطبع والختم على القلب ومنع الإيمان وصون الكافر عنه وذلك جزاء على كفره السابق وهذا قول طائفة من المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله ومن المنكرين لخلق الأفعال من اعترف أيضا بأن الله سبحانه وتعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق فيحسن منه أن يضله ويطبع على قلبه ويمنعه من الإيمان فأما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فإنها من هذا الباب فإن غاية ما يقال فيه إن الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الإيمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره السابق

وورد ملا إيمان لما يأمرنا ما فعل جبريل من دس الطين فى فيه فانما فعل ذلك بأمر الله لا من تلقاء نفسه فأما
قول الامام لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه عليها وعلى كل طاعة هذا إذا كان
تكليف جبريل كتكليفنا يجب عليه ما يجب علينا وأما اذا كان جبريل انما يفعل ما أمره الله به والله
سبحانه وتعالى هو الذى منع فرعون من الايمان وجبريل منفذ لأمر الله فكيف لا يجوز له منع من منعه الله
من التوبة وكيف يجب عليه اعانة من لم يعنه الله بل قد حكم عليه وأخبر عنه أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب
الاليم حين لا ينفعه الايمان وقد يقال ان جبريل عليه السلام اما أن يتصرف بأمر الله فلا يفعل الا ما أمره
الله به واما أن يفعل ما يشاء من تلقاء نفسه لا بأمر الله وعلى هذين التقديرين فلا يجب عليه اعانة فرعون على
التوبة ولا يحرم عليه منعه منها لانه انما يجب عليه فعل ما أمر به ويحرم عليه فعل ما نهى عنه والله سبحانه وتعالى
لم يخبر أنه أمره باعانة فرعون ولا حرم عليه منعه من التوبة وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا وقوله وان
كان التكليف زائلا عن فرعون فى ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذى نسب الى جبريل فائدة فجوابه
أن يقال ان للناس فى تعليل أفعال الله قولين أحدهما أن أفعاله لا تعلل وعلى هذا التقدير فلا يرد هذا
السؤال أصلا وقد زال الاشكال والقول الثانى ان أفعاله تبارك وتعالى لها غاية بحسب المصالح لاجلها
فعلها وكذا أوامره ونواهيه لها غاية محمودة محبوبة لاجلها أمر بها ونهى عنها وعلى هذا التقدير فقد قال لما
قال فرعون آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وقد علم جبريل انه ممن حقت عليه كلمة العذاب
وان ايمانه لا ينفعه دس الطين فى فيه لتحقق معاينته للموت فلا تكون تلك الكلمة نافعة له وانه وان كان
قالها فى وقت لا ينفعه فدس الطين فى فيه تحقيقا لهذا المنع والفائدة فيه تعجيل ما قد قضى عليه وسد الباب عنه
سدا محكما بحيث لا يبقى للرحمة فيه منفذ ولا يبقى من عمره زمن يتسع للايمان فان موسى عليه السلام لما
دعا ربه بان فرعون لا يؤمن حتى يرى العذاب الاليم والايمان عند رؤية العذاب غير نافع أجاب الله دعاءه فلما
قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين فى فيه ليايس من الحياة ولا تنفعه
تلك الكلمة وتحقق اجابة الدعوة التى وعدها الله موسى بقوله قد أجيبت دعوتكما فيكون سعى جبريل فى
تكميل ما سبق فى حكم الله أنه يفعله فيكون سعى جبريل فى مرضاة الله سبحانه وتعالى منفذا لما أمر به
وقدره وقضاه على فرعون وأما قوله لو منعه من التوبة لكان قد رضى ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر
فجوابه ما تقدم من ان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وجبريل انما يتصرف بأمر الله ولا يفعل الا
ما أمره الله به واذا كان جبريل قد فعل ما أمره الله به ونفذه فانما رضى بالامر لا بالمأمور به فأى كفر يكون
هنا وأيضا فان الرضا بالكفر انما يكون كفرا فى حقنا لانا مأمورون بازالته بحسب الامكان فاذا أقررنا
الكافر على كفره ورضينا به كان كفرا فى حقنا لمخالفتنا ما أمرنا به واما من ليس مأمورا كأمرنا ولا مكلفا
كتكليفنا بل يفعل ما يأمره به ربه فانه اذا نفذ ما أمره به لم يكن راضيا بالكفر ولا يكون كفرا فى حقه وعلى
هذا التقدير فان جبريل لما دس الطين فى فى فرعون كان ساخطا لكفره غير راض به والله سبحانه و
تعالى خالق أفعال العباد خيرها وشرها وهو غير راض بالكفر فغاية أمر جبريل مع فرعون أن يكون
لقضاء الله وقدره فى فرعون من الكفر وهو ساخط له غير راض به وقوله كيف يليق بجلال الله أن يأمر
جبريل بان يمنعه من الايمان فجوابه ان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وأما قوله وان
ان جبريل انما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فجوابه انما فعل ذلك بأمر الله منفذا لأمره
اعلم بمراده وأسرار كتابه ﴿ قوله سبحانه وتعالى (فاليوم ننجيك ببدنك) أى نلقيك على نجوة من الارض
وهى المكان المرتفع قال أهل التفسير لما أغرق الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه أخبر موسى
فرعون وقومه فقالت بنو اسرائيل ما مات فرعون وانما قالوا ذلك لعظمته عندهم وما حصل فى قلو

(فاليوم ننجيك) نلقيك بنجوة من الارض فرماه الماء الى الساحل كانه ثور (ببدنك) فى موضع الحال أى فى الحال التى لا روح فيك وانما أنت بدن أو ببدنك كاملا سويا لم ينقص منه شئ ولم يتغير أو عريانا لست الا بدنا من غير لباس أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها وقرأ أبو حنيفة رضى الله عنه بابدانك وهو مثل قولهم هوى باجرامه أى ببدنك كله وافيا باجزائه أو بدروعك لانه ظاهر بينها

(لتكون لمن خلفك آية) لمن وراءك من الناس علامة وهم بنو اسرائيل وكان في أنفسهم ان فرعون أعظم شأنا من أن يغرق وقيل أخبرهم
موسى بهلاكه فلم يصدقوه فألقاه الله على الساحل حتى رأوه وقيل لمن خلفك لمن يأتي بعدك من القرون ومعنى كونه آية أن يظهر للناس
عبوديته وأن ما كان يدعيه من الربوبية محال وانه مع ما كان عليه من عظم الملك آل أمره الى ما ترون لعصيانه ربه

فما الظن بغيره (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق) منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام (ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا) في دينهم (حتى جاءهم العلم) أي التوراة وهم اختلفوا في تأويلها كما اختلفت أمة محمد صلى الله عليه وسلم في تأويل الآيات من القرآن أو المراد العلم بمحمد واختلاف بني اسرائيل وهم أهل الكتاب اختلافهم في صفته أنه هو أم ليس هو بعدما جاءهم العلم أنه هو (ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يميز المحق من المبطل ويجزي كلا جزاءه (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك) لما قدم ذكر بني اسرائيل وهم قراء الكتاب ووصفهم بأن العلم قد جاءهم لأن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب في التوراة والانجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أراد أن يؤكد
علمهم بصحة القرآن وبصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ويبالغ في ذلك فقال فان وقع لك شك فرضا وتقديرا وسبيل من خالجته شبهة أن
يسارع الى حلها بالرجوع الى قوانين الدين وأدلته أو بمباحثة العلماء فسل علماء أهل الكتاب فانهم من الاحاطة بصحة ما أنزل اليك
بحيث يصلحون لمراجعة مثلك فضلا عن غيرك فالمراد وصف الاحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا وصف
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشك فيه

الرعب لاجله فأمر الله عز وجل البحر فقذف فرعون على الساحل أحمر قصيرا كأنه ثور فرآه بنو اسرائيل
فعرفوه ومعنى ذلك الوقت لا ننجيك النجاة وانما ننجيك ببدنك يعني بجسدك لا روح فيه وقيل
هذا الكلام على سبيل التهكم والاستهزاء كأنه قيل له ننجيك ولكن هذه النجاة انما تحصل لبدنك لا لروحك
وقيل أراد بالبدن الدرع وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر يعرف به فرأوه في درعه فذلك
عرفوه (لتكون لمن خلفك آية) يعني عبرة وموعظة وذلك أنهم ادعوا أن مثل فرعون لا يموت أبدا فأظهره الله
لهم حتى شاهدوه وهو ميت ثم زال الشك من قلوبهم واعتبروا به لأنه كان في غاية العظمة فصار الى نهاية الخسة
والذلة ملقى على الأرض لا يهابه أحد (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) ﴿ قوله عز وجل (ولقد
بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق) يعني أسكناهم مكان صدق وأنزلناهم منزل صدق بعد خروجهم من البحر
واغراق عدوهم فرعون والمعنى أنزلناهم منزلا محمودا صالحا وانما وصف المكان بالصدق لأن عادة العرب اذا
مدحت شيئا أضافته الى الصدق تقول العرب هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشيء اذا كان
كاملا صالحا لابد أن يصدق الظن فيه وفي المراد بالمكان الذي بوأهم الله اياه قولان أحدهما أنه مصر فيكون المراد
ان الله أورث بني اسرائيل جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره
والقول الثاني انه أرض الشام والقدس والأردن لأنها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم من
الطيبات) يعني تلك المنافع والخيرات التي رزقهم الله تعالى (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) يعني فما اختلف
هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني اسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث
النبي صلى الله عليه وسلم مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم فلما بعث الله
محمدا صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا
فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه حقا
فوضع العلم مكان المعلوم وقيل المراد من العلم القرآن النازل على محمد صلى الله عليه وسلم وانما سماه علما لأنه
سبب العلم وتسمية السبب بالمسبب مجاز مشهور وفي كون القرآن سببا لحدوث الاختلاف وجهان الأول
ان اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين فلما بعث
كذبوه بغيا وحسدا وايثارا لبقاء الرياسة فآمن به طائفة قليلة وكفر به أكثرهم والوجه الثاني أن اليهود
كانوا على دين واحد قبل نزول القرآن فلما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم آمن به طائفة وكفر به آخرون
﴿ وقوله تعالى (ان ربك) يعني يا محمد (يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يعني من أمرك
وأمر نبوتك في الدنيا فيدخل من آمن بك الجنة ومن كفر بك وجحد نبوتك النار ﴿ قوله سبحانه وتعالى
(فان كنت في شك مما أنزلنا اليك) الشك في موضوع اللغة خلاف اليقين والشك اعتدال النقيضين عند
الانسان لوجود أمارتين أو لعدم الامارة والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه فكل شك جهل وليس كل
جهل شكا فاذا قيل فلان شك في هذا الأمر فمعناه توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب أو خلافه وظاهر هذا
الخطاب في قوله فان كنت في شك أنه للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى فان كنت يا محمد في شك مما أنزلنا اليك
يعني من حقيقة ما أخبرناك به وأنزلنا اليك يعني القرآن (فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك) يعني علماء أهل

الكتاب يعرفون أنك مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وأنك نبي يعرفونك بصفتك عندهم وقد توجه هاهنا سؤال واعتراض وهو أن يقال هل شك النبي صلى الله عليه وسلم فيما أنزل عليه أو في نبوته حتى يسأل أهل الكتاب عن ذلك وإذا كان شاكاً في نبوة نفسه كان غيره أولى بالشك منه قلت الجواب عن هذا السؤال والاعتراض ما قاله القاضي عياض في كتابه الشفاء فإنه أورد هذا السؤال ثم قال احترس ثبت الله قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك النبي صلى الله عليه وسلم فيما أوحي إليه فإنه من البشر فمثل هذا لا يجوز عليه صلى الله عليه وسلم جملة بل قد قال ابن عباس لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسأل ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري وحكي عن قتادة أنه قال بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما أشك ولا أسأل وعامة المفسرين على هذا تم كلام القاضي عياض رحمه الله ثم اختلفوا في معنى الآية ومن المخاطب بهذا الخطاب على قولين أحدهما أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر والمراد به غيره فهو كقوله لئن أشركت ليحبطن عملك ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرك فثبت أن المراد به غيره ومن أمثلة العرب * إياك أعني واسمعي يا جاره * فعلى هذا يكون معنى الآية قل يا محمد يا أيها الإنسان الشاك إن كنت في شك مما أنزلنا إليك على لسان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فاسئل الذين يقرؤون الكتاب يخبروك بصحته ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى في آخر هذه السورة قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني الآية فبين أن المذكور في هذه الآية على سبيل الرمز هو المذكور في تلك الآية على سبيل التصريح وأيضاً لو كان النبي صلى الله عليه وسلم شاكاً في نبوته لكان غيره أولى بالشك في نبوته وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية معاذ الله من ذلك وقيل إن الله سبحانه وتعالى علم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك قط فيكون المراد بهذا التهييج فإنه صلى الله عليه وسلم إذا سمع هذا الكلام يقول لا أشك يا رب ولا أسأل أهل الكتاب بل أكتفي بما أنزلته علي من الدلائل الظاهرة وقال الزجاج إن الله خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله فإن كنت في شك وهو شامل للخلق فهو كقوله يا أيها النبي إذا طلقتم النساء وهذا وجه حسن لكن فيه بعد وهو أن يقال متى كان الرسول صلى الله عليه وسلم داخلاً في هذا الخطاب كان الاعتراض موجوداً والسؤال وارداً وقيل إن لفظة إن في قوله فإن كنت في شك للنفي ومعناه وما أنت في شك مما أنزلنا إليك حتى تسأل فلا تسأل ولئن سألت لازددت يقيناً والقول الثاني أن هذا الخطاب ليس هو للنبي صلى الله عليه وسلم البتة ووجه هذا القول أن الناس كانوا في زمنه على ثلاث فرق فرقة له مصدقون وبه مؤمنون وفرقة على الضد من ذلك والفرقة الثالثة المتوقفون في أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله عز وجل بهذا الخطاب فقال تعالى فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وإنما وحد الله الضمير في قوله فإن كنت وهو يريد الجمع لأنه خطاب لجنس الإنسان كما في قوله تعالى يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم لم يرد في الآية إنساناً بعينه بل أراد الجمع واختلفوا في المسؤول عنه في قوله تعالى فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك من هم فقال المحققون من أهل التفسير هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه لأنهم هم الموثوق بإخبارهم وقيل المراد كل أهل الكتاب سواء مؤمنهم وكافرهم لأن المقصود من هذا السؤال الإخبار عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه مكتوب عندهم صفته ونعته فإذا أخبروا بذلك فقد حصل المقصود والأول أصح وقال الضحاك يعني أهل التقوى وأهل الإيمان من أهل الكتاب ممن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم (لقد جاءك الحق من ربك) هذا كلام مبتدأ منقطع عما قبله وفيه معنى القسم تقديره أقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر بأنك رسول الله حقاً وأن أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك (فلا تكونن من الممترين) يعني الشاكين في صحة ما أنزلنا إليك (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) يعني بدلائله وبراهينه

(لقد جاءك الحق من ربك) أي ثبت عندك بالآيات الواضحة والبراهين اللائحة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للشك (فلا تكونن من الممترين) الشاكين ولا وقف عليه للعطف (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله

(فتكون من الخاسرين) ثم نبه على أن من حقت عليه كلمة العذاب لا يؤمن ويجوز أن يكون على طريق التهييج والإلهاب كقوله فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولزيادة التثبيت والعصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق وقيل خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد أمته أي وإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم كقوله وأنزلنا إليكم نورا مبينا وقيل الخطاب لكل سامع يجوز عليه الشك كقول العرب إذا عز أخوك فهن وقيل إن للنفي أي فما كنت في شك فسل أي ولسنا نأمرك بالسؤال لأنك شاك ولكن لتزداد يقينا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى فإن قلت إنما يجوز على من إذا كان بعده الاكفرا أي الكافرون إلا من قد ثبت عليه الأمر الأول إلى قوله

أي أمسك ما من أحد مسمى بعده

(فتكون من الخاسرين) يعني فتكون ممن خسر نفسه والمراد أنه كما لا ينبغي أن تكون شاكا فيه فكذلك لا ينبغي أن يكون مكذبا بآيات الله والمراد به غيره من الذين شكوا في النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوه وفي هذه الآيات تنبيه على أن المراد به غيره والله أعلم بمراده وقوله سبحانه وتعالى (إن الذين حقت عليهم) يعني وجبت عليهم (كلمت ربك) يعني حكم ربك وهو قوله سبحانه وتعالى خلقت هؤلاء للنار ولا أبالي وقيل هو ما قدر عليهم وقضاه في الأزل (لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية) فإنهم لا يؤمنون بها (حتى يروا العذاب الأليم) فحينئذ لا ينفعهم الإيمان لأن الله قد حكم عليهم وصرفهم عن الإيمان لأنهم تمنعهم في قوله سبحانه وتعالى (فلولا) يعني فهلا (كانت قرية) وقيل معناه فما كانت قرية وقيل لم تكن قرية لأن الاستفهام بمعنى الجحد والمراد أهل كانت قرية (آمنت) يعني عند معاينة العذاب (فنفعها إيمانها) يعني في حالة اليأس (إلا قوم يونس) هذا استثناء منقطع معناه لكن قوم يونس فإنهم آمنوا ونفعهم إيمانهم في ذلك الوقت وهو قوله (لما آمنوا) يعني لما أخلصوا الإيمان (كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) يعني إلى وقت انقضاء آجالهم واختلفوا في قوم يونس هل رأوا العذاب عيانا أم لا فقال بعضهم رأوا دليل العذاب ولم يروا العذاب عيانا بدليل قوله كشفنا عنهم عذاب الخزي والكشف لا يكون إلا بعد الوقوع أو إذا قرب وقوعه

﴿ذكر القصة في ذلك﴾

على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم قالوا إن قوم يونس كانوا بقرية نينوى من أرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فأرسل الله سبحانه وتعالى إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأصنام فدعاهم فأبوا عليه فقيل له أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث فأخبرهم بذلك فقالوا إنا لم نجرب عليه كذبا فانظروا فإن بات فيكم الليلة فليس بشيء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قال ابن عباس إن العذاب كان أهبط على قوم يونس حتى لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشف الله عنهم ذلك وقال مقاتل قدر ميل وقال سعيد بن جبير غشي قوم يونس العذاب كما يغشى الثوب القبر وقال وهب غامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت أسطحتهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا نبيهم يونس عليه السلام فلم يجدوه فقذف الله سبحانه وتعالى في قلوبهم التوبة فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح

فإن قلت ولم يكن بعده ولا (إن الذين حقت عليهم كلمت ربك) ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفارا أو قوله لأملأن جهنم الآية ولا وقف على (لا يؤمنون) لأن (ولو جاءتهم كل آية) متعلق بما قبله (حتى يروا العذاب الأليم) أي عند اليأس فلا يؤمنون ولا ينفعهم الإيمان ولا يقبل منهم (فلولا كانت قرية آمنت) فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه (فنفعها إيمانها) بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار (إلا قوم يونس) استثناء منقطع أي ولكن قوم يونس أو متصل والجملة في معنى النفي كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس وانتصابه على أصل الاستثناء (لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) إلى آجالهم روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح كلهم وعجوا أربعين ليلة وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان والدواب وأولادها فحن بعضهم إلى بعض وأظهروا الإيمان والتوبة فرحمهم وكشف عنهم وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة وبلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى إن الرجل كان يقلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيرده وقيل خرجوا لما نزل بهم العذاب إلى شيخ من بقية علمائهم فقال لهم قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا إله إلا أنت فقالوها فكشف الله عنهم وعن الفضيل رضي الله عنه قال إن ذنوبهم قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله

وأظهروا الاسلام والتوبة وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن البعض الى البعض فحن الاولاد الى الامهات والامهات الى الاولاد وعلت الاصوات وعجوا جميعا الى الله وتضرعوا اليه وقالوا آمنا بما جاء به يونس وتابوا الى الله وأخلصوا النية فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب بعدما أظلهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة قال ابن مسعود بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم فيما بينهم حتى ان كان الرجل ليأتي الى الحجر وقد وضع أساس بنيانه عليه فيقلعه فيرده وروى الطبري بسنده عن أبي الجلد جيلان قال لما غشي قوم يونس العذاب مشوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا انه قد نزل بنا العذاب فما ترى قال قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا اله الا أنت فقالوها فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا الى حين وقال الفضيل بن عياض انهم قالوا اللهم ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله قال وخرج يونس وجعل ينتظر العذاب فلم ير شيأ فقيل له ارجع الى قومك قال وكيف أرجع اليهم فيجدوني كذابا وكان من كذب ولا بينة له قتل فانصرف عنهم مغاضبا فالتقمه الحوت وستأتي القصة في سورة والصافات ان شاء الله تعالى فان قلت كيف كشف العذاب عن قوم يونس بعد ما نزل بهم وقبل توبتهم ولم يكشف العذاب عن فرعون حين آمن ولم يقبل توبته قلت أجاب العلماء عن هذا بأجوبة أحدها ان ذلك كان خاصا بقوم يونس والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد الجواب الثاني ان فرعون ما آمن الا بعد ما باشر العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وقوم يونس دنا منهم العذاب ولم ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية الجواب الثالث ان الله عز وجل علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فانه ما صدق في ايمانه ولا أخلص فلم يقبل منه ايمانه والله أعلم ﴿ قوله سبحانه وتعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا) يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولو شاء ربك يا محمد لآمن بك وصدقك من في الارض كلهم جميعا ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك الا من سبقت له السعادة في الازل قال ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرص ان يؤمن به جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله عز وجل أنه لا يؤمن به الا من سبقت له من الله السعادة في الذكر الاول ولم يضل الا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الاول وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فأخبره الله أنه لا يؤمن به الا من سبقت له العناية الازلية فلا تتعب نفسك على ايمانهم وهو قوله سبحانه وتعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يعني ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم عليه أو تحرص عليه انما ايمان المؤمن واضلال الكافر بمشيئتنا وقضائنا وقدرنا ليس ذلك لاحد سوانا (وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله) يعني وما كان ينبغي لنفس خلقها الله تعالى أن تؤمن وتصدق الا بقضاء الله لها بالايمان فان هدايتها الى الله وهو الهادي المضل وقال ابن عباس معنى باذن الله بأمر الله وقال عطاء بمشيئة الله ﴿ قوله تعالى (ويجعل) قرئ بالنون على سبيل التعظيم أي ونجعل نحن وقرئ بالياء ومعناه ويجعل الله (الرجس) يعني العذاب وقال ابن عباس يعني السخط (على الذين لا يعقلون) يعني لا يفهمون عن الله أمره ونهيه ﴿ قوله عز وجل (قل انظروا) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات انظروا يعني انظروا بقلوبكم نظر اعتبار وتفكر وتدبر (ماذا في السموات والارض) يعني ماذا خلق الله في السموات والارض من الآيات الدالة على وحدانيته ففي السموات الشمس والقمر وهما دليلان على النهار والليل والنجوم مسخرة طالعة وغاربة وانزال المطر من السماء وفي الارض الجبال والبحار والمعادن والانهار والاشجار والنبات كل ذلك آية دالة على وحدانية الله تعالى وانه خالقها كما قال الشاعر

وفي كل شيء له آية * تدل على انه واحد

(ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم) على وجه الاحاطة والشمول (جميعا) مجتمعين على الايمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه أخبر عن كمال قدرته ونفوذ مشيئته انه لو شاء لآمن من في الارض كلهم ولكنه شاء أن يؤمن به من علم منه اختيار الايمان به وشاء الكفر من علم انه يختار الكفر ولا يؤمن به وقول المعتزلة المراد بالمشيئة مشيئة القسر والالجاء أي لو خلق فيهم الايمان جبرا لآمنوا لكن قد شاء أن يؤمنوا اختيارا فلم يؤمنوا دليله (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) أي ليس اليك مشيئة الاكراه والجبر في الايمان انما ذلك الي فاسد لان الايمان فعل العبد وفعله ما يحصل بقدرته ولا يتحقق ذلك بدون الاختيار وتأويله عندنا ان لله تعالى لطفا لو أعطاهم لآمنوا كلهم عن اختيار ولكن علم منهم أنهم لا يؤمنون فلم يعطهم ذلك وهو التوفيق والاستفهام في أفأنت بمعنى النفي أي لا تملك أنت يا محمد أن تكرههم على الايمان لانه يكون بالتصديق والاقرار ولا يمكن الاكراه على التصديق (وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله) بمشيئته أو بقضائه أو بتوفيقه وتسهيله أو بعلمه (ويجعل الرجس) أي العذاب أو السخط أو الشيطان أي ويسلط [illegible] الشيطان (على الذين لا يعقلون) لا ينتفعون بعقولهم ونجعل حماد ويحيى (قل انظروا) نظر استدلال واعتبار (ماذا في السموات والارض

(وما تغني الآيات والنذر) والرسل المنذرون أو الإنذارات
(عن قوم لا يؤمنون) لا يتوقع إيمانهم (فهل ينتظرون) (إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم)

(وما تغني الآيات والنذر) جمع نذير (عن قوم لا يؤمنون) وهذا في حق أقوام سبق لهم في علم الله أنهم لا يؤمنون لما سبق لهم في علم الله من شقاوتهم (فهل ينتظرون) يعني مشركي مكة (إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) يعني من مضى من قبلهم من الأمم السالفة المكذبة لرسلها كقوم نوح وعاد وثمود والأمم التي عذبها الله بأنواع العذاب والمعنى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا يوما يعاينون فيه العذاب مثل ما عاينت الأمم السالفة قبلهم حين كذبوا واستحقوا بذلك العذاب (قل فانتظروا) يعني قل لهم يا محمد انتظروا العذاب (إني معكم من المنتظرين) يعني هلاككم قال الربيع بن أنس خوفهم عذابه ونقمته ثم أخبرهم أنه إذا وقع ذلك بهم نجى الله رسله والذين آمنوا معهم من ذلك العذاب وهو قوله تعالى (ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا) يعني من العذاب والهلاك (كذلك حقا علينا ننج المؤمنين) يعني كما نجينا رسلنا والذين آمنوا معهم من الهلاك كذلك ننجيك يا محمد والذين آمنوا معك وصدقوك من الهلاك والعذاب قال بعض المتكلمين المراد بقوله حقا علينا الوجوب لأن تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب واجب وأجيب عن هذا بأنه حق واجب من حيث الوعد والحكم لا أنه واجب بسبب الاستحقاق لأنه قد ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئا. قوله سبحانه وتعالى (قل يا أيها الناس) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلتك إليهم فشكوا في أمرك ولم يؤمنوا بك (إن كنتم في شك من ديني) يعني الذي أدعوكم إليه وإنما حصل الشك لبعضهم في أمره صلى الله عليه وسلم لما رأوا الآيات التي كانت تظهر على يد النبي صلى الله عليه وسلم فحصل له الاضطراب والشك فقال إن كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه لأنه دين إبراهيم عليه السلام وأنتم من ذريته وتعرفونه ولا تشكون فيه وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في ما أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا أصل لها فإن بقيتم مصرين على ما أنتم عليه (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) يعني هذه الأوثان وإنما قدم هذا النفي لأن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا تليق بأخس الأشياء وهي الحجارة التي لا تدفع عن عابدها ولا تضر من تركها ولكن تليق العبادة بمن بيده النفع والضر وهو قادر على الإماتة والإحياء وهو قوله سبحانه وتعالى (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) والحكمة في وصف نفسه سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة أن المراد أني أعبد الله الذي يستحق العبادة لأنه الذي خلقكم أولا ولم تكونوا شيئا ثم يتوفاكم ثانيا ثم يعيدكم بعد ذلك ثالثا فاكتفى بذكر التوفي لكونه منبها على الباقي وقيل لما كان الموت أشد الأشياء على النفس ذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع وقيل إنهم لما استعجلوا طلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على إهلاككم ونصري عليكم (وأمرت أن أكون من المؤمنين) يعني وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الإيمان لأنه من أعمال القلوب (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) الواو في قوله وأن أقم واو عطف معناه وأمرت أن أقيم وجهي يعني أقم نفسك على دين الإسلام حنيفا يعني مستقيما عليه غير معوج عنه إلى دين آخر وقيل معناه أقم عملك على الدين الحنيف وقيل أراد بقوله وأن أقم وجهك للدين صرف نفسك إلى طلب الدين الحنيف غير مائل عنه (ولا تكونن من المشركين) يعني ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه غيره فتهلك وقيل إن النهي عن عبادة الأوثان قد تقدم في الآية المتقدمة فوجب حمل هذا النهي على معنى زائد وهو أن من عرف الله عز وجل وعرف جميع أسمائه وصفاته وأنه المستحق للعبادة لا غيره فلا ينبغي له أن يلتفت إلى غيره بالكلية وهذا هو الذي يسميه أصحاب القلوب الشرك الخفي (ولا تدع من

يعني وقائع الله فيهم كما تقول أيام العرب لوقائعها (قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا) معطوف على كلام محذوف يدل عليه إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم كأنه قيل نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا على حكاية الأحوال الماضية (والذين آمنوا) ومن آمن معهم (كذلك حقا علينا ننج المؤمنين) أي مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين وحقا علينا اعتراض أي وحق ذلك علينا حقا ننج بالتخفيف علي وحفص (قل يا أيها الناس) يا أهل مكة (إن كنتم في شك من ديني) وحقيقته وصحته فهذا ديني فاستمعوا وصفته ثم وصف دينه فقال (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) أي الأصنام (ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم) وصفه بالتوفي ليريهم أنه الحقيق أن يخاف ويتقى ويعبد دون ما لا يقدر على شيء (وأمرت أن أكون من المؤمنين) أي بأن أكون يعني أن الله أمرني بذلك بما ركب فيّ من العقل وبما أوحي

إلي في كتابه (وأن أقم وجهك للدين) أي وأوحي إلي أن أقم كل قوله أمرت أي استقم مقبلا بوجهك على ما أمرك الله أو استقم إليه ولا تلتفت يمينا ولا شمالا (حنيفا) حال من الدين أو الوجه (ولا تكونن من المشركين ولا تدع من

(دون الله ما لا ينفعك) ان دعوته (ولا يضرك) ان خذلته (فان فعلت) فان دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فكنى عنه بالفعل ايجازا (فانك اذا من الظالمين) اذا جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر كأن سائلا سأل عن تبعة عبادة الأوثان وجعل من الظالمين لانه لا ظلم أعظم من الشرك (وان يمسسك الله) يصبك (بضر) مرض (فلا كاشف له) لذلك الضر (الا هو) الا الله (وان يردك بخير) عافية (فلا راد لفضله) فلا راد لمراده (يصيب به) بالخير (من يشاء من عباده) قطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة الا اليه والاعتماد الا عليه (وهو الغفور) المكفر بالبلاء (الرحيم) المعافي بالعطاء اتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ان الله هو الضار النافع الذي ان أصابك بضر لم يقدر على كشفه الا هو وحده دون كل أحد فكيف بالجماد الذي لا شعور به وكذا ان أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من الفضل والاحسان فكيف بالاوثان وهو الحقيق اذا بان توجه اليه العبادة دونها وهو أبلغ من قوله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته وانما ذكر المس في أحدهما والارادة في الآخر كأنه أراد أن يذكر الامرين الارادة والاصابة في كل واحد من الضر والخير وأنه لا راد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فاوجز الكلام بان ذكر المس وهو الاصابة في أحدهما والارادة في الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك على انه قد ذكر الاصابة بالخير في قوله يصيب به من يشاء من عباده (قل يا أيها الناس) يا أهل مكة (قد جاءكم الحق) القرآن أو الرسول (من ربكم فمن اهتدى) اختار الهدى واتبع الحق (فانما يهتدي لنفسه) فما نفع باختياره الا نفسه (ومن ضل فانما يضل عليها) ومن آثر الضلال فما ضر الا نفسه ودل اللام وعلى على معنى النفع والضرر (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول الى أمركم انما أنا بشير ونذير (واتبع ما يوحى اليك واصبر) على تكذيبهم وأذاهم (حتى يحكم الله) لك بالنصرة عليهم والغلبة (وهو خير الحاكمين) لانه المطلع على السرائر فلا يحتاج الى بينة وشهود ﴿سورة هود عليه السلام مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية﴾

(دون الله ما لا ينفعك) يعني ان عبدته ودعوته (ولا يضرك) يعني ان تركت عبادته (فان فعلت) يعني ما نهيتك عنه فعبدت غيري أو طلبت النفع ودفع الضر من غيري (فانك اذا من الظالمين) يعني لنفسك لانك وضعت العبادة في غير موضعها وهذا الخطاب وان كان في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم فالمراد به غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يدع من دون الله شيأ البتة فيكون المعنى ولا تدع أيها الانسان من دون الله ما لا ينفعك الآية ﴿ قوله تعالى (وان يمسسك الله بضر) يعني وان يصبك الله بشدة وبلاء (فلا كاشف له) يعني لذلك الضر الذي أنزله بك (الا هو) يعني لا غيره (وان يردك بخير) يعني بسعة ورخاء (فلا راد لفضله) يعني فلا دافع لرزقه (يصيب به) يعني بكل واحد من الضر والخير (من يشاء من عباده) قيل انه سبحانه وتعالى لما ذكر الاوثان وبين انها لا تقدر على نفع ولا ضر بين تعالى انه هو القادر على ذلك كله وان جميع الكائنات محتاجة اليه وجميع الممكنات مستندة اليه لانه هو القادر على كل شيء وانه ذو الجود ذو الكرم والرحمة ولهذا المعنى ختم الآية بقوله (وهو الغفور الرحيم) وفي الآية لطيفة أخرى وهي ان الله سبحانه وتعالى رجح جانب الخير على جانب الشر وذلك أنه تعالى لما ذكر امساس الضر بين انه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على انه سبحانه وتعالى يزيل جميع المضار ويكشفها لان الاستثناء من النفي اثبات ولما ذكر الخير قال فيه فلا راد لفضله يعني ان جميع الخيرات منه فلا يقدر أحد على ردها لانه هو الذي يفيض جميع الخيرات على عباده وعضده بقوله وهو الغفور يعني الساتر لذنوب عباده الرحيم يعني بهم ﴿ قوله سبحانه وتعالى (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) يعني القرآن والاسلام وقيل الحق هو محمد صلى الله عليه وسلم جاء بالحق من عند الله عز وجل (فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه) لان نفع ذلك يرجع اليه (ومن ضل فانما يضل عليها) أي على نفسه لان وباله راجع اليه فمن حكم الله له بالاهتداء في الازل انتفع ومن حكم عليه بالضلال ضل ولم ينتفع بشيء أبدا (وما أنا عليكم بوكيل) يعني وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم قال ابن عباس هذه الآية منسوخة بآية السيف (واتبع ما يوحى اليك) يعني الامر الذي يوحيه الله اليك يا محمد (واصبر) يعني على أذى من خالفك من كفار مكة وهم قومك (حتى يحكم الله) يعني بنصرك عليهم باظهار دينك (وهو خير الحاكمين) يعني انه سبحانه وتعالى حكم بنصر نبيه واظهار دينه وبقتل المشركين وأخذ الجزية من أهل الكتاب وفيها ذلهم وصغارهم والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه

﴿تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام﴾

وهي مكية في قول ابن عباس وبه قال الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة وفي رواية عن ابن عباس انها مكية غير آية وهي قوله سبحانه وتعالى وأقم الصلاة طرفي النهار وعن قتادة نحوه وقال مقاتل هي مكية الا قوله سبحانه وتعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وقوله أولئك يؤمنون به وقوله سبحانه وتعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وهي مائة وثلاث وعشرون آية وألف وستمائة كلمة وتسعة آلاف وخمسمائة وسبعة

وشيب بين الحيرة عن ابن عباس قال قال أبو بكر يا رسول الله قد شبت قال شيبتني هود والواقعة والمرسلات
وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وفي رواية عن أبي جحيفة قال قلت
يا رسول الله قد شبت قال شيبتني هود وأخواتها الحديث ... وقال حديث
... على ... من ... الله ...
... والله أعلم ...

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله عز وجل (الر كتاب أحكمت آياته) قال ابن عباس لم ينسخها كتاب كما نسخت هي الكتب والشرائع
(ثم فصلت) يعني بينت بالأحكام والحلال والحرام وقال الحسن أحكمت آياته بالأمر والنهي وفصلت بالثواب والعقاب وقال قتادة أحكمت آياته
من الباطل ثم فصلت يعني بالحلال والحرام وقيل أحكمت آياته بمعنى أنها نظمت نظماً محكماً لا يقع فيه نقص ولا خلل ثم فصلها
... أحكمها فلم ... ثم فصلها ... وقيل
... ثم فصلت ... لأن ... فيها ...
فصلت ثم فسرت ... الآيات ... سورة وآية آية
... ثم فصلت بدلائل الأحكام والمواعظ والقصص ... الغيبات ...
... فصلت ... ولكن في ... ولكن في ... محكمة
... الأحكام ثم ... التفصيل ... الآيات ... الأحكام ...
آيات محكمات ... الأحكام ... لا يتطرق
إليه ... الكتب ... والمراد
بالأحكام ... آيات محكمات ... نسخها
... وقيل أحكمت آياته أي ... آية محكمة وإن كان قد دخل النسخ على البعض ... إلى
البعض لأن المحكم ... على ... في كلامهم ... وإنما
أحكمت ... قوله تعالى (من لدن حكيم) يعني أحكمت آيات الكتاب من عند حكيم في جميع أفعاله
(خبير) يعني بأحوال عباده وما يصلحهم (ألا تعبدوا إلا الله) ... كتاب أحكمت آياته ثم
فصلت لئلا تعبدوا إلا الله والمراد بالعبادة ... الأصنام ... والرجوع إلى
الله تعالى وإلى عبادته والدخول في دين الإسلام (إنني لكم منه) أي قل لهم يا محمد إني لكم من عند الله
(نذير) ينذركم عقابه إن ... (وبشير) يعني وأبشر بثواب ... لمن آمن
بالله ورسوله ... (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) ... فإن قلت
... ثم ارجعوا إليه ... هو طلب
المغفرة ... التوبة ... من شرك أو معصية ...
الاستغفار ... استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ... المستقبل وقال الفراء
ثم هنا بمعنى الواو لأن الاستغفار والتوبة بمعنى واحد ... (يمتعكم متاعاً حسناً) يعني ...
... الاستغفار والتوبة ... أسباب الرزق
... (إلى أجل
مسمى) ... فإن قلت قد ورد في الحديث أن الدنيا
سجن المؤمن ... على الرجل في معيشته حتى لا يجد ...
... قلت ... صلى الله
عليه وسلم ... المؤمن ... في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم ...

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الر كتاب) أي هذا كتاب
فهو ... خبره
(أحكمت آياته) نظمت
أي ... نظماً رصيناً
محكماً لا يقع فيه نقض
ولا خلل كالبناء المحكم (ثم
فصلت) كما تفصل القلائد
بالفرائد من دلائل التوحيد
والأحكام والمواعظ
والقصص أو جعلت فصولاً
سورة سورة وآية آية
أو فرقت في التنزيل ولم
تنزل جملة أو فصل فيها
ما يحتاج إليه العباد أي
بين ولخص وليس معنى
ثم التراخي في الوقت ولكن
في الحال (من لدن حكيم
خبير) صفة أخرى لكتاب
أو خبر بعد خبر أو صلة
لأحكمت وفصلت أي من
عنده إحكامها وتفصيلها
(ألا تعبدوا إلا الله) مفعول
له أي لئلا تعبدوا أو أن
مفسرة لأن في تفصيل
الآيات معنى القول كأنه
قيل قال لا تعبدوا إلا الله
أو أمركم أن لا تعبدوا إلا
الله (إنني لكم منه نذير
وبشير) أي من الله (وأن
استغفروا ربكم) أي أمركم
بالتوحيد والاستغفار
(ثم توبوا إليه) أي
استغفروه من الشرك ثم
ارجعوا إليه بالطاعة (يمتعكم
متاعاً حسناً) يطول نفعكم
في الدنيا بمنافع حسنة
... إلى أجل ...

يمنحه في المتاع حتى يفضي الى ذلك المتاع وأما كون المتاع حسنة للكفر فهو بالنسبة الى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الدائم الاليم الذي لا ينقطع فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي الى ما أعد الله له في الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الاوقات فانه لاجل رفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشة حسنة لانه راض عن الله في جميع أحواله ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (ويؤت كل ذي فضل فضله) أي ويعط كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة قال أبو العالية من كثرت طاعاته في الدنيا زادت حسناته ودرجاته في الجنة لان الدرجات تكون على قدر الاعمال وقال ابن عباس من زادت حسناته على سيآته دخل الجنة ومن زادت سيآته على حسناته دخل النار ومن استوت حسناته وسيآته كان من أهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وقال ابن مسعود من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من حسناته العشرة واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلبت آحاده اعشاره وقيل معنى الآية من عمل لله وفقه الله في المستقبل لطاعته (وان تولوا) يعني وان أعرضوا عما جئتهم به من الهدى (فاني أخاف عليكم) أي فقل لهم يا محمد اني أخاف عليكم (عذاب يوم كبير) يعني عذاب النار في الآخرة (الى الله مرجعكم) يعني في الآخرة فيثيب المحسن على احسانه ويعاقب المسيء على اساءته (وهو على كل شيء قدير) يعني من ايصال الرزق اليكم في الدنيا وثوابكم وعقابكم في الآخرة ﴿ قوله سبحانه وتعالى (ألا انهم يثنون صدورهم) قال ابن عباس نزلت في الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر وكان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره فنزلت ألا انهم يثنون صدورهم يعني يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة من ثنيت الثوب اذا طويته وقال عبد الله بن شداد بن الهاد نزلت في بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون صدورهم كي لا يسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما في قلبي وقال السدي يثنون صدورهم أي يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عناني (ليستخفوا منه) يعني من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد من الله عز وجل ان استطاعوا (ألا حين يستغشون ثيابهم) يعني يغطون رؤسهم بثيابهم (يعلم ما يسرون وما يعلنون انه عليم بذات الصدور) ومعنى الآية على ما قاله الازهري ان الذين أضمروا عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخفى علينا حالهم في كل حال وقد نقل عن ابن عباس غير هذا التفسير وهو ما أخرجه البخاري في افراده عن محمد بن عباد بن جعفر المخزومي أنه سمع ابن عباس يقرأ ألا انهم يثنون صدورهم قال فسألته عنها فقال كان أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا الى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا الى السماء فنزل ذلك فيهم ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (وما من دابة في الارض) الدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الارض وأطلق لفظ الدابة على كل ذي أربع من الحيوان على سبيل العرف والمراد منه الاطلاق فيدخل فيه الآدمي وغيره من جميع الحيوانات (الا على الله رزقها) يعني هو المتكفل برزقها فضلا منه لا على سبيل الوجوب فهو الى مشيئته ان شاء رزق وان شاء لم يرزق وقيل ان لفظة على بمعنى من أي من الله رزقها وقال مجاهد ما جاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعا (ويعلم مستقرها ومستودعها) قال ابن عباس مستقرها المكان الذي تأوي اليه في ليل أو نهار ومستودعها المكان الذي تدفن فيه بعد الموت وقال ابن مسعود مستقرها أرحام الامهات والمستودع المكان الذي تموت فيه ...

(ويؤت كل ذي فضل فضله) ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه شيئا (وان تولوا) وان تتولوا (فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة (الى الله مرجعكم) رجوعكم (وهو على كل شيء قدير) فكان قادرا على اعادتكم (ألا انهم يثنون صدورهم) يزورون عن الحق وينحرفون عنه لان من أقبل على الشيء استقبله بصدره ومن ازور عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه (ليستخفوا منه) ليطلبوا الخفاء من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنون على ازورارهم (ألا حين يستغشون ثيابهم) يتغطون بها أي يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم كراهة الاستماع كلام الله كقول نوح عليه السلام جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم (يعلم ما يسرون وما يعلنون) أي لا تفاوت في علمه بين اسرارهم واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون من الاستخفاء والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ونفاقهم غير نافع عنده قيل نزلت في المنافقين (انه عليم بذات الصدور) بما فيها (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها) تفضلا لا وجوبا (ويعلم مستقرها) مكانه من الارض ومسكنه (ومستودعها) حيث كان مودعا قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة ... المستقر

والمستقر والمستودع ونحو ذلك (كل في كتاب مبين) أي كل ذلك مثبت في اللوح المحفوظ قبل خلقها
قوله عز وجل (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) يعني خلق السموات والأرض. قال كعب خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء قال ضمرة إن الله كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وخلق القلم فكتب به ما هو خالق وما هو كائن من خلقه ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيئا من خلقه قال سعيد بن جبير سئل ابن عباس عن قوله تعالى وكان عرشه على الماء على أي شيء كان الماء قال على متن الريح وقال وهب بن منبه إن العرش كان قبل أن يخلق الله السموات والأرض ثم قبض قبضة من صفاء الماء ثم فتح القبضة فارتفع دخان ثم قضاهن سبع سموات في يومين ثم أخذ طينة من الماء فوضعها مكان البيت ثم دحا الأرض منها ثم خلق الأقوات في يومين والسموات في يومين والأرض في يومين ثم فرغ من آخر الخلق في اليوم السابع قال بعض العلماء وفي خلق جميع الأشياء وجعلها على الماء ما يدل على كمال القدرة لأن البناء الضعيف إذا لم يكن له أساس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الخلق العظيم وهو العرش والسموات والأرض على الماء فهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى (خ) عن عمران بن حصين قال دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا قد بشرتنا فأعطنا مرتين ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قد قبلنا يا رسول الله ثم قالوا جئناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ما كان قال كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء ثم أتاني رجل فقال يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت أطلبها فإذا السراب ينقطع دونها وايم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم عن أبي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء أخرجه الترمذي وقال قال أحمد يريد بالعماء أنه ليس معه شيء وقال أبو بكر البيهقي في كتاب الأسماء والصفات قوله صلى الله عليه وسلم كان الله ولم يكن شيء قبله يعني لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وقوله وكان عرشه على الماء يعني وخلق الماء وخلق العرش على الماء ثم كتب في الذكر كل شيء وقوله في عماء وجدته في كتاب عماء مقيد بالمد فإن كان في الأصل ممدودا فمعناه سحاب رقيق ويريد بقوله في عماء أي فوق سحاب مدبرا له وعاليا عليه كما قال سبحانه وتعالى أأمنتم من في السماء يعني من فوق السماء وقال تعالى لأصلبنكم في جذوع النخل يعني على جذوعها وقوله ما فوقه هواء أي ما فوق السحاب هواء وكذلك قوله وما تحته هواء أي ما تحت السحاب هواء وقد قيل إن ذلك العمى مقصور والعمى إذا كان مقصورا فمعناه لا شيء ثابت لأنه مما عمي عن الخلق لكونه غير شيء فكأنه قال في جوابه كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شيء غيره ثم قال ما فوقه هواء وما تحته هواء أي ليس فوق العمى الذي هو لا شيء موجود هواء ولا تحته هواء لأن ذلك إذا كان غير شيء فليس يثبت له هواء بوجه والله أعلم وقال الهروي صاحب الغريبين قال بعض أهل العلم معناه أين كان عرش ربنا فحذف المضاف اختصارا كقوله واسأل القرية ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى وكان عرشه على الماء هذا آخر كلام البيهقي وقال ابن الأثير العماء في اللغة السحاب الرقيق وقيل الكثيف وقيل هو الضباب ولا بد في الحديث من حذف مضاف تقديره أين كان عرش ربنا فحذف ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى وكان عرشه على الماء وحكي عن بعضهم أن العمى المقصور أنه قال هو كل أمر لا يدركه الفطن وقال الأزهري قال أبو عبيد إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم ولا ندري كيف كان ذلك العماء قال الأزهري فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال

(كل في كتاب مبين) كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها في اللوح يعني ذكرها مكتوب فيه مبين (وهو الذي خلق السموات والأرض) وما بينهما (في ستة أيام) من الأحد إلى الجمعة تعليما للتأني (وكان عرشه على الماء) أي فوقه يعني ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض إلا الماء وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والأرض قيل بدأ بخلق ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء ثم خلق ريحا فأقر الماء على متنه ثم وضع عرشه على الماء وفي وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لأهل الأفكار

(ليبلوكم) أي خلق السموات والأرض وما فيهما للممتحن ويعاملكم معاملة المبتلى لأجل أن يبلوكم (أيكم أحسن عملا) أكثر شكرا وعن ابن عمر عن النبي عليه السلام أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله فمن شكر وأطاع أثابه ومن كفر وعصى عاقبه وإنما جاز تعليق فعل البلوى لما في الاختبار من معنى العلم قال ليبلوكم أي ليعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم كيف تعملون (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) أشاروا بهذا إلى القرآن لأن القرآن هو الناطق بالبعث فإذا جعلوه سحرا فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره أو أشاروا إلى البعث وسحر يريدون الرسول والساحر كاذب مبطل (ولئن أخرنا عنهم العذاب) عذاب الآخرة أو عذاب يوم بدر (إلى أمة) إلى جماعة من الأوقات (معدودة) معلومة أو قلائل والمعنى إلى حين معلوم (ليقولن ما يحبسه) ما يمنعه من النزول استعجالا له على وجه

التكذيب والاستهزاء (ألا يوم يأتيهم) العذاب (ليس) العذاب (مصروفا عنهم) ويوم منصوب بمصروفا أي ليس العذاب مصروفا عنهم يوم يأتيهم (وحاق بهم) وأحاط بهم (ما كانوا به يستهزءون) العذاب الذي كانوا به يستعجلون وإنما وضع يستهزءون موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان على وجه الاستهزاء (ولئن أذقنا الإنسان) هو الجنس (منا رحمة) نعمة من صحة وأمن وجدة واللام في لئن لتوطئة القسم (ثم نزعناها منه) ثم سلبناه تلك النعمة وجواب القسم (إنه ليئوس) شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه (كفور) عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نساء له

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وفي رواية فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء بخمسين ألف سنة وقوله فرغ يريد إتمام خلق المقادير ولأنه كان مشغولا ففرغ منه لأن الله سبحانه وتعالى لا يشغله شأن عن شأن فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون وقوله تعالى (ليبلوكم) يعني ليختبركم وهو أعلم بكم منكم (أيكم أحسن عملا) يعني بطاعة الله وأورع عن محارم الله (ولئن قلت) يعني ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك (إنكم مبعوثون من بعد الموت) يعني للحساب والجزاء (ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) يعنون القرآن (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) يعني إلى أجل محدود وأصل الأمة الجماعة من الناس فكأنه قال سبحانه وتعالى إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى (ليقولن ما يحبسه) يعني أي شيء يحبس العذاب وإنما يقولون ذلك استعجالا بالعذاب واستهزاء يعنون أنه ليس بشيء قال الله عز وجل (ألا يوم يأتيهم) يعني العذاب (ليس مصروفا عنهم) أي لا يصرفه عنهم شيء (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) يعني ونزل بهم وبال استهزائهم ﴿ ﴾ وقوله تعالى (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة) يعني رخاء وسعة في الرزق والعيش وبسطنا عليه من الدنيا (ثم نزعناها منه) يعني سلبناه ذلك كله وأصابته المصائب فاجتاحته وذهبت به (إنه ليئوس كفور) يعني أنه قنط من رحمة الله آيس من كل خير كفور أي جحود لنعمتنا عليه أولا قليل الشكر ربه قال بعضهم يا ابن آدم إذا كانت بك نعمة من الله من السعة والأمن والعافية فاشكرها ولا تجحدها فإن نزعت منك فينبغي لك أن تصبر ولا تيأس من رحمة الله فإنه المتولي على عباده بالخير وهو قوله سبحانه وتعالى (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) يعني ولئن بسطنا على الإنسان وبسطنا عليه من العيش (ليقولن) يعني الذي أصابه الخير والسعة (ذهب السيئات عني) يعني ذهب الشدائد والعسر والضيق وإنما قال ذلك غرورا بربه عز وجل وجراءة عليه لأنه لم يضف الأشياء كلها إلى الله وإنما أضافها إلى العوائد فلهذا ذمه الله تعالى فقال (إنه لفرح فخور) أي إنه أشر بطر والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهي عنه ﴿ ﴾ ثم استثنى فقال تبارك وتعالى (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) قال الفراء هذا الاستثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم ليسوا كذلك فإنهم إن نالتهم شدة صبروا وإن نالتهم نعمة شكروا عليها (أولئك) يعني من هذه صفتهم (لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) يعني الجنة ﴿ ﴾ قوله عز وجل (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك) للنبي صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فلعلك يا محمد تارك بعض ما

(ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) وسعنا عليه النعمة بعد الفقر الذي ناله (ليقولن ذهب السيئات عني) أي المصائب التي ساءتني (إنه لفرح) أشر بطر (فخور) على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر (إلا الذين صبروا) في المحنة والبلاء (وعملوا الصالحات) وشكروا في النعمة والرخاء (أولئك لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) يعني الجنة كانوا يقترحون عليه آيات تعنتا لا استرشادا لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية في رشادهم ومن اقتراحاتهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به فكان يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه فحركه الله لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك) أي لعلك

ويعتقدون أنه يعيبه الذي نهاك الله عن تبليغه وتكذيبه (وضائق به صدرك) يعني ويضيق صدرك بتبليغ ما أوحي إليك وذلك أنهم قالوا إن كنت رسولا فأت بقرآن غير هذا ليس فيه سب آلهتنا لنتبعك على ذلك فهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يترك ذكر آلهتهم ظاهرا وترك تبليغه فنزل فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك يعني من ذكر آلهتهم هذا ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآية وأجمع المسلمون على أنه صلى الله عليه وسلم فيما كان طريقه البلاغ فإنه معصوم فيه من الاخبار عن شيء منه بخلاف ما هو به لا عمدا ولا سهوا ولا غلطا وأنه صلى الله عليه وسلم بلغ جميع ما أنزل الله عليه إليه وأنه لا يجوز عليه خيانة في الوحي والانذار ولا يترك بعض ما أوحي إليه لقول أحد لأن تجويز ذلك يؤدي إلى الشك في أداء الشرائع والتكاليف لأن المقصود من إرسال الرسول التبليغ إلى من أرسل إليه فإذا لم يحصل ذلك فقد فاتت فائدة الرسالة والنبي صلى الله عليه وسلم معصوم من ذلك كله وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد بقوله فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك شيئا آخر سوى ما ذكره المفسرون والعلماء في ذلك أجوبة أحدها قال ابن الأنباري قد علم الله سبحانه وتعالى أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يترك شيئا مما يوحى إليه لشدة من مشركي عصره ولكن الله تعالى أكد على رسوله صلى الله عليه وسلم في مباعدة الإبلاغ من الله سبحانه وتعالى كما قال يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك الآية الثاني أن هذا من الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وتحريض على أداء ما أرسله إليه وإنما خاطبه وهو المعصوم في عصمته مما يخافه ويخشاه الثالث أن الكفار كانوا يستهزئون بالقرآن ويضحكون منه ويتهاونون به وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لذلك وأن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويستهزئون به فأمره الله سبحانه وتعالى بتبليغ ما أوحي إليه وأن لا يلتفت إلى استهزائهم وأن تحمل هذه المضرة أهون من كتم شيء من الوحي والمقصود من هذا الكلام التنبيه على هذه الحقيقة لأن الإنسان إذا علم أن كل واحد من طرفي الفعل والترك مشتمل على ضرر عظيم ثم علم أن الضرر في باب الترك أعظم سهل عليه الإقدام على الفعل فبان أن الله سبحانه وتعالى لم يعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يترك شيئا من الوحي فيخل بأداء الرسالة وشرع المبالاة باستهزائهم وردهم إلى قبول قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم مخافة ردهم واستهزائهم به وضائق به صدرك أي بأن تتلوه عليهم (أن يقولوا) يعني مخافة أن يقولوا (لولا أنزل عليه كنز) يعني ينفقه ويستغني به (أو جاء معه ملك) يعني يشهد له ويصدقه في رسالته قال ابن عباس إن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزلت هو عبد الله بن أبي أمية المخزومي وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت صادقا في قولك أنك رسول الله الذي تصفه بالقدرة على كل شيء وأنت عزيز عنده مع أنك فقير فهلا أنزل عليك ما تستغني به أنت وأصحابك وهلا أنزل عليك ملك يشهد لك بالرسالة فتزول الشبهة في أمرك فأخبر الله عز وجل أنه صلى الله عليه وسلم نذير بقوله عز وجل (إنما أنت نذير) تنذر بالعقاب من خالفك وعصى أمرك وتبشر بالثواب من أطاعك وآمن بك وصدقك (والله على كل شيء وكيل) يعني أنه سبحانه وتعالى حافظ يحفظ أقوالهم وأعمالهم فيجازيهم عليها يوم القيامة ﴿ قوله سبحانه وتعالى (أم يقولون افتراه) يعني بل يقول كفار مكة اختلقه يعني ما أوحي إليك من القرآن (قل) أي قل لهم يا محمد (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) إن ادعيتم أني افتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسي وليس هو من عند الله فأتوا أنتم في معارضته بعشر سور على مثله وأنتم فصحاء بلغاء فقال صلى الله عليه وسلم هبوا أني اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلي شيء وأن الأمر كما قلتم وأنتم عرب مثلي من أهل الفصاحة وفرسان البلاغة وأصحاب اللسان فأتوا أنتم بكلام مثل هذا الكلام الذي جئتكم به مختلق من عند أنفسكم فإنكم تقدرون على مثله فإن قدرتم على الكلام الذي جئتكم به عجزا ثم بالغ الله سبحانه

علم، وقوله شيئاً ليطابق تلو حبس عنهم من جنس نبت ليلاقيه علمه النسلة وكان أصح الناس صدراً ولما اشتمل شرك (أن يقولوا) مخافة أن يقولوا (لولا أنزل عليه كنز) وهلا أنزل عليه ما ينفقه (أو جاء معه ملك) يصدقه ويشهد له كالملائكة تصدقه ولا أنزل عليه ملك يصدقه وما يؤمنون (إنما أنت نذير) أي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ولا عليك ردوا أو تهوا (والله على كل شيء وكيل) يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل فتوكل عليه وكل أمرك إليه وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفههم واستهزائهم (أم يقولون) أم منقطعة (افتراه) الضمير لما يوحى إليك (قل فأتوا بعشر سور) تحداهم أولا بعشر سور ثم بسورة واحدة كما يقول المخاير في الخط لصاحبه اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب فإذا تبين له العجز عن ذلك قال قد اقتصرت منك على سطر واحد (مثله) في الحسن والجزالة ومعنى مثله أمثاله ذهابا إلى مماثلة

كل واحد منها له (مفتريات) صفة لعشر سور لما قالوا افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله أرخى معهم العنان وقال هبوا أني اختلقته من عند نفسي فأتوا أنتم أيضا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم فأنتم عرب فصحاء مثلي

(وادعوا من استطعتم من دون الله) الى المعاونة على المعارضة (ان كنتم صادقين) انه مفترى (فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل الله وأن لا اله الا هو) أى أنزل ملتبسا بعلم لا يعلمه الا الله من نظم معجز للخلق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه واعلموا عند ذلك أن لا اله الا الله وحده وأن توحيده واجب والاشراك به ظلم عظيم وانما جمع الخطاب بعد افراده وهو قوله لكم فاعلموا بعد قوله قل لان الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم أو لان الخطاب للمشركين والضمير فى فان لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على المعارضة لعلمهم بالعجز عنه فاعلموا انما أنزل بعلم الله أى باذنه أو بأمره (فهل أنتم مسلمون) متبعون للاسلام بعد هذه الحجة القاطعة ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه وازدادوا يقينا على انه منزل من عند الله وعلى التوحيد فهل أنتم مسلمون مخلصون (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) نوصل اليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق وهم الكفار أو المنافقون (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها) وحبط فى الآخرة ... ما صنعوه أو صنيعهم أى لم يكن لهم ثواب لانهم لم يريدوا به الآخرة انما أرادوا به الدنيا وقد وفى اليهم ما أرادوا (وباطل ما كانوا يعملون) ا

وتعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات فى مقابلة قولهم افتراه فان قلت قد تحداهم بان يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك وعجزوا عنه فكيف قال فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ومن عجز عن سورة واحدة فهو عن العشرة أعجز قلت قد قال بعضهم ان سورة هود نزلت قبل سورة يونس وانه تحداهم أولا بعشر سور فلما عجزوا تحداهم بسورة يونس وأنكر المبرد هذا القول وقال ان سورة يونس نزلت أولا قال ومعنى قوله فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله يعنى مثله فى الاخبار عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد وقوله فى سورة هود فأتوا بعشر سور مثله يعنى فى مجرد الفصاحة والبلاغة من غير خبر عن غيب ولا ذكر حكم ولا وعد ولا وعيد فلما تحداهم بهذا الكلام أمرهم بان يقول لهم (وادعوا من استطعتم من دون الله) حتى يعينوكم على ذلك (ان كنتم صادقين) يعنى فى قولكم انه مفترى (فان لم يستجيبوا لكم) اعلم انه لما اشتملت الآية المتقدمة على أمرين وخطابين أحدهما أمر وخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله سبحانه وتعالى قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات والثانى أمر وخطاب للكفار وهو قوله تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله ثم أتبعه بقوله تبارك وتعالى فان لم يستجيبوا لكم احتمل أن يكون المراد ان الكفار لم يستجيبوا فى المعارضة لعجزهم عنها واحتمل أن يكون المراد أن من يدعون من دون الله لم يستجيبوا للكفار فى المعارضة فلهذا اختلف المفسرون فى معنى الآية على قولين أحدهما انه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه كانوا يتحدون الكفار بالمعارضة ليتبين عجزهم فلما عجزوا عن المعارضة قال الله سبحانه وتعالى لنبيه والمؤمنين فان لم يستجيبوا لكم فيما دعوتموهم اليه من المعارضة وعجزوا عنه (فاعلموا انما أنزل بعلم الله) يعنى فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه وازدادوا يقينا وثباتا لانهم كانوا عالمين بانه منزل من عند الله وقيل الخطاب فى قوله فان لم يستجيبوا لكم للنبى صلى الله عليه وسلم وحده وانما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له صلى الله عليه وسلم القول الثانى ان قوله سبحانه وتعالى فان لم يستجيبوا لكم خطاب مع الكفار وذلك انه سبحانه وتعالى لما قال فى الآية المتقدمة وادعوا من استطعتم من دون الله قال الله عز وجل فى هذه الآية فان لم يستجيبوا لكم أيها الكفار ولم يعينوكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وانه ليس مفترى على الله بل هو أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم (وأن لا اله الا هو) يعنى الذى أنزل القرآن هو الله الذى لا اله الا هو لا من تدعون من دونه (فهل أنتم مسلمون) فيه معنى الامر أى أسلموا وأخلصوا لله العبادة وان حملنا معنى الآية على انه خطاب مع المؤمنين كان معنى قوله فهل أنتم مسلمون الترغيب أى دوموا على ما أنتم عليه من الاسلام ﴿ قوله عز وجل (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها) يعنى بعمله الذى يعمله من أعمال البر نزلت فى كل من عمل عملا يبتغى به غير الله عز وجل (نوف اليهم أعمالهم فيها) يعنى أجور أعمالهم التى عملوها لطلب الدنيا وذلك ان الله سبحانه وتعالى يوسع عليهم فى الرزق ويدفع عنهم المكاره فى الدنيا ونحو ذلك (وهم فيها لا يبخسون) يعنى انهم لا ينقصون من أجور أعمالهم التى عملوها لطلب الدنيا بل يعطون أجور أعمالهم كاملة موفرة (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها) يعنى وبطل ما عملوا فى الدنيا من أعمال البر (وباطل ما كانوا يعملون) لانه لغير الله واختلف المفسرون فى المعنى بهذه الآية فروى قتادة عن أنس أنها فى اليهود والنصارى وعن الحسن وقال الضحاك من عمل عملا صالحا فى غير تقوى يعنى من أهل الشرك أعطى على ذلك أجرا فى الدنيا وهو أن يصل رحما أو يعطى سائلا أو يرحم مضطرا أو نحو هذا من أعمال البر فيعجل الله له ثواب عمله فى الدنيا ويوسع عليه فى المعيشة والرزق ويقر عينه فيما خوله ويدفع عنه المكاره فى الدنيا وليس له فى الآخرة نصيب ونظيرها

في حياتهم الدنيا وهم لا يبخسون أي لا ينقصون ثوابها (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار) [illegible] الكافر في الآخرة [illegible] المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم لأنهم كانوا لا يرجون ثواب الآخرة [illegible] أن هذه الآية في أهل الرياء [illegible] الكفر والذي [illegible] [illegible] الآية هم أهل الرياء [illegible] أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار (وحبط ما صنعوا فيها) [illegible] (وباطل ما كانوا يعملون) [illegible] لما كانت لغير الله استحقوا [illegible] وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه أخرجه مسلم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار أخرجه الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعني ريحها أخرجه أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا يا رسول الله وما جب الحزن قال واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة قيل يا رسول الله ومن يدخله قال أعد للقراء المرائين بأعمالهم أخرجه الترمذي عن محمود بن لبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر قال الرياء [illegible] [illegible] الأعمال [illegible] الناس [illegible] الصلاح [illegible] هو الذي [illegible] [illegible] السدي وقيل هذا في الكفار يعني من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها [illegible] في الدنيا [illegible] الآخرة [illegible] في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة [illegible] عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا أخرجه مسلم بمعناه ﴿ قوله سبحانه وتعالى (أفمن كان على بينة من ربه) لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا ذكر في هذه الآية من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة فقال سبحانه وتعالى أفمن كان على بينة من ربه أي كمن يريد الحياة الدنيا وليس له في الآخرة إلا النار وإنما حذف الجواب لظهوره ودلالة الكلام عليه وقيل معناه أفمن كان على بينة من ربه وهو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كمن هو في ضلالة وكفر والمراد بالبينة الدين الحق [illegible] وقيل المراد بالبينة اليقين يعني أنه على يقين من ربه أنه على الحق (ويتلوه شاهد منه) يعني ويتبعه من يشهد له بصدقه واختلفوا في الشاهد من هو فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر المفسرين إنه جبريل عليه السلام يريد أنه يتبع النبي صلى الله عليه وسلم ويؤيده ويسدده ويقويه وقال الحسن وقتادة هو لسان النبي صلى الله عليه وسلم [illegible] السمية [illegible] علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال ما من رجل [illegible] [illegible] ويتلوه شاهد منه [illegible] هو [illegible] رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible] القرآن [illegible] لسان [illegible] [illegible] الإنسان هو آلة [illegible] القرآن [illegible] الشاهد هو ملك يحفظ النبي صلى الله عليه وسلم ويسدده وقال [illegible] الشاهد هو القرآن [illegible] النبي صلى الله عليه وسلم [illegible] [illegible] وقال الحسين بن علي [illegible] الشاهد هو محمد صلى الله عليه

كان عملهم في نفسه باطلا لانه لم يعمل لغرض صحيح والعمل الباطل لا ثواب له (أفمن كان على بينة من ربه) أمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة من ربه أي لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم يعني أن بين الفريقين تفاوتا بينا وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على بينة من ربه أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق وهو دليل العقل (ويتلوه) ويتبع ذلك البرهان (شاهد) يشهد بصحته وهو القرآن (منه) من الله أو من القرآن فقد مر ذكره آنفا

وسلم ووجه هذا القول ان من نظر الى النبي صلى الله عليه وسلم بعين العقل والبصيرة علم أنه ليس بكذاب ولا
ساحر ولا كاهن ولا مجنون وقال جابر بن عبد الله قال علي بن أبي طالب ما من رجل من قريش الا وقد نزل
فيه الآية والآيتان فقال له رجل وأنت أي آية نزلت فيك فقال له أما تقرأ الآية التي في هود ويتلوه شاهد منه
فعلى هذا القول يكون الشاهد علي بن أبي طالب وقوله منه يعني من النبي صلى الله عليه وسلم والمراد تشريف
هذا الشاهد وهو علي لاتصاله بالنبي صلى الله عليه وسلم وقيل يتلوه شاهد منه يعني الانجيل وهو اختيار الفراء
والمعنى ان الانجيل يتلو القرآن في التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم والأمر بالايمان به وان كان قد نزل
قبل القرآن ﴿ وقوله سبحانه وتعالى (ومن قبله) يعني ومن قبل نزول القرآن وارسال محمد صلى الله عليه وسلم
(كتاب موسى) يعني التوراة (اماما ورحمة) يعني انه كان اماما لهم يرجعون اليه في أمور الدين
والشرائع وكونه رحمة لانه الهادي من الضلال وذلك سبب حصول الرحمة ﴿ وقوله تعالى (أولئك يؤمنون
به) يعني أن الذين وصفهم الله أنهم على بينة من ربهم هم المشار اليهم بقوله أولئك يؤمنون به يعني
بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (ومن
يكفر به) يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم (من الأحزاب) يعني من جميع الكفار وأصحاب الأديان المختلفة
فتدخل فيه اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وغيرهم والأحزاب الفرق الذين تحزبوا وتجمعوا
على مخالفة الأنبياء (فالنار موعده) يعني في الآخرة روى البغوي بسنده عن أبي هريرة أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني
ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به الا كان من أصحاب النار قال سعيد بن جبير ما بلغني حديث عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم على وجهه الا وجدت مصداقه في كتاب الله عز وجل حتى بلغني هذا الحديث لا يسمع بي
أحد من هذه الأمة الحديث قال سعيد فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية ومن
قبله كتاب موسى الى قوله سبحانه وتعالى ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده قال فالأحزاب أهل
الملل كلها ﴿ ثم قال سبحانه وتعالى (فلا تك في مرية منه انه الحق من ربك) فيه قولان أحدهما أن معناه
فلا تك في شك من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلا من عند الله فعلى هذا القول يكون متعلقا بما قبله
من قوله تعالى أم يقولون افتراه والقول الثاني أنه راجع الى قوله ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده
يعني فلا تك في شك من أن النار موعد من كفر من الأحزاب والخطاب في قوله فلا تك في مرية للنبي صلى الله
عليه وسلم والمراد به غيره لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويعضد هذا القول سياق الآية وهو قوله
سبحانه وتعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) يعني لا يصدقون بما أوحينا اليك من أن موعد
الكفار النار قوله عز وجل (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يعني أي الناس أشد تعديا ممن اختلق على
الله كذبا فكذب عليه وزعم أن له شريكا أو ولدا وفي الآية دليل على أن الكذب على الله من أعظم
أنواع الظلم لأن قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ورد في معرض المبالغة (أولئك) يعني
المفترين على الله الكذب (يعرضون على ربهم) يعني يوم القيامة فيسألهم عن أعمالهم في الدنيا (ويقول
الأشهاد) يعني الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم قاله مجاهد وقال ابن عباس هم الأنبياء والرسل وبه
قال الضحاك وقال قتادة الأشهاد الخلق كلهم (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) يعني في الدنيا هذه الفضيحة
تكون في الآخرة لكل من كذب على الله (ألا لعنة الله على الظالمين) يعني يقول الله ذلك يوم القيامة فيلعنهم
ويطردهم من رحمته (ق) عن صفوان بن محرز المازني قال بينما ابن عمر يطوف بالبيت اذ عرض له رجل
فقال يا أبا عبد الرحمن أخبرني ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في النجوى قال سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا

(ومن قبله) ومن قبل القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة أي ويتلو ذلك البرهان أيضا من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام (اماما) كتابا مؤتما به في الدين قدوة فيه (ورحمة) ونعمة عظيمة على المنزل اليهم وهما حالان (أولئك) أي من كان على بينة (يؤمنون به) بالقرآن (ومن يكفر به) بالقرآن (من الأحزاب) يعني أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم (فالنار موعده) مصيره ومورده (فلا تك في مرية) شك (منه) من القرآن أو من الموعد (انه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم) يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم (ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولدا وشريكا (ألا لعنة الله على الظالمين) الكاذبين على ربهم والأشهاد جمع شاهد كأصحاب وصاحب أو شهيد كشريف وأشراف

وكذا

(الذين يصدون عن سبيل الله) يصرفون الناس عن دينه (ويبغونها عوجا) يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة (وهم بالآخرة هم كافرون) هم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به (أولئك لم يكونوا) أي ما كانوا (معجزين في الأرض) يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم (وما كان لهم من دون الله من أولياء) من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم وهو من كلام الأشهاد (يضاعف لهم العذاب) لأنهم أضلوا الناس عن دين الله يضعف مكي وشامي (ما كانوا يستطيعون السمع) أي استماع الحق وما كانوا يبصرون الحق (أولئك الذين خسروا أنفسهم) حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله (وضل عنهم) وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو (ما كانوا يفترون) من الآلهة وشفاعتها (لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون) لا أحد أخسر والصدود وفي لا جرم أقوال أحدها أن لا رد لكلام سابق أي ليس الأمر كما زعموا ومعنى جرم كسب وفاعله مضمر وأنهم في الآخرة في محل النصب والتقدير كسب قولهم خسرانهم في الآخرة وثانيها أن لا جرم كلمتان ركبتا فصار معناهما حقا وأن في موضع رفع بأنه فاعل لحق أي حق خسرانهم وثالثها أن معناه لا محالة (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم) واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع

ركبتنا ويقول أي رب أعرف حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد وفي رواية البخاري فينادى بهم على رؤوس الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين قوله سبحانه وتعالى (الذين يصدون عن سبيل الله) يعني يمنعون الناس من الدخول في دين الله تعالى وهو دين الإسلام (ويبغونها عوجا) يعني ويطلبون في الدين العوج (وهم بالآخرة هم كافرون) يعني وهم مع صدهم عن سبيل الله جاحدون البعث بعد الموت منكرون له (أولئك) يعني من هذه صفتهم (لم يكونوا معجزين في الأرض) قال ابن عباس يعني سابقين وقيل هاربين وقيل فائتين في الأرض والمعنى أنهم لا يعجزون الله إذا أراد عذابهم بل هو قادر على الانتقام منهم ولكنه يؤخرهم لا يقدرون على الامتناع من عذابه (وما كان لهم من دون الله من أولياء) يعني وما كان لهؤلاء المشركين من أنصار يمنعونهم من دون الله إذا أراد بهم سوءا أو عذابا (يضاعف لهم العذاب) يعني في الآخرة بسبب صدهم عن سبيل الله وإنكارهم البعث بعد الموت (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) قال قتادة صم عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعون به ولا يبصرون خيرا فيأخذون به وقال ابن عباس أخبر الله سبحانه وتعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فإنه قال ما كانوا يستطيعون السمع وهي طاعته وما كانوا يبصرون وأما في الآخرة فإنه قال لا يستطيعون خاشعة أبصارهم (أولئك الذين خسروا أنفسهم) يعني أن هؤلاء الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله (وضل عنهم ما كانوا يفترون) يعني وبطل كذبهم وإفكهم وافتراؤهم على الله وادعاؤهم أن الملائكة والأصنام تشفع لهم (لا جرم) يعني حقا (أنهم في الآخرة هم الأخسرون) لأنهم باعوا منازلهم في الجنة واشتروا بها منازل في النار وهذا هو الخسران المبين ﴿ قوله عز وجل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم) لما ذكر الله عز وجل أحوال الكفار في الدنيا وخسرانهم في الآخرة أتبعه بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة والإخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه وإذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إشارة إلى جميع أعمال الجوارح وقوله وأخبتوا إشارة إلى أعمال القلوب وهي الخضوع والخشوع لله عز وجل يعني أن هذه الأعمال الصالحة لا تنفع في الآخرة إلا بحصول أعمال القلب وهي الخشوع والخضوع فإذا فسرنا الإخبات بالطمأنينة كان معنى الكلام أنهم يأتون بالأعمال الصالحة مطمئنين إلى صدق وعد الله بالثواب والجزاء على تلك الأعمال أو يكونون مطمئنين إلى ذكره سبحانه وتعالى وإذا فسرنا الإخبات بالخشوع والخضوع كان معناه أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وجلين أن لا تكون مقبولة وهو الخشوع والخضوع (أولئك) يعني الذين هذه صفتهم (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أخبر عن حالهم في الآخرة أنهم من أهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال ﴿ قوله سبحانه وتعالى (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الهدى والحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة

(هل يستويان) يعنى الفريقين (مثلا) تشبيها وهو نصب على التمييز (أفلا تذكرون) فتنتفعون بضرب المثل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين) أى بانى والمعنى أرسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله انى لكم نذير مبين بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كأن والمعنى على الكسر وبكسر الالف شامى ونافع وعاصم وحمزة على ارادة القول (أن لا تعبدوا الا الله) أن مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير (انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وصف اليوم بأليم من الاسناد المجازى لوقوع الالم فيه (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) يريد الاشراف لانهم يملؤن القلوب هيبة والمجالس أبهة ولانهم ملؤا بالاحلام والآراء الصائبة (ما نراك الا بشرا مثلنا) أرادوا انه كان ينبغى أن يكون ملكا أو ملكا (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) أخساؤنا جمع الارذل (بادى) وبالهمزة أبو عمرو (الرأى) وبغير همز أبو عمرو أى اتبعوك ظاهر الرأى أو أول الرأى من بدا يبدو اذا ظهر أو بدأ يبدأ اذا فعل الشئ أولا وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث ظاهر رأيهم أو أول رأيهم فحذف ذلك وأقيم المضاف اليه مقامه أرادوا أن اتباعهم لك شئ عن لهم بديهة من غير روية ونظر ولو تفكروا ما اتبعوك وانما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الاسباب الدنيوية لانهم كانوا جهالا ما كانوا يعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا فكان الاشراف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالاسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه اكرامهم واهانتهم ولقد زل عنهم أن التقدم فى الدنيا لا يقرب أحدا من الله وانما يبعده ولا يرفعه بل يضعه (وما نرى لكم علينا من فضل) فى مال ورأى عنوا نوحا وأتباعه (بل نظنكم كاذبين) أى نوحا فى الدعوة ومتبعيه فى الاجابة والتصديق يعنى تواطأتم على الدعوة والاجابة تسبيبا للرياسة (قال يا قوم أرأيتم) أخبرونى (ان كنت على بينة) برهان (من ربى وآتانى رحمة من عنده) يعنى النبوة (فعميت عليكم) أى خفيت فعميت حمزة وعلى وحفص أى أخفيت أى فعميت عليهم الو عمى على القوم دليلهم فى المفازة بقوا بغير هاد وحقيقته أن الحجة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء لان الاعمى لا يهتدى

ضرب لهم مثلا فقال تبارك وتعالى مثل الفريقين يعنى فريق المؤمنين وفريق الكافرين كالاعمى وهو الذى لا يهتدى لرشده والاصم وهو الذى لا يسمع شيئا البتة والبصير وهو الذى يبصر الاشياء على ... والسميع وهو الذى يسمع الاصوات ويجيب الداعى فمثل المؤمنين كمثل الذى يسمع ويبصر وهو الكامل فى نفسه ومثل الكافر كمثل الذى لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص فى نفسه (هل يستويان مثلا) قال الفراء لم يقل هل يستوون لأن الاعمى والاصم فى حيز كأنهما واحد وهما من وصف الكافر والبصير والسميع كأنهما واحد وهما من وصف المؤمن (أفلا تذكرون) يعنى فتتعظون ◊ قوله عز وجل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين) يعنى أن نوحا عليه السلام قال لقومه حين أرسله الله اليهم انى لكم أيها القوم نذير مبين يعنى بين النذارة أخوف بالعقاب من خالف أمر الله وعبد غيره وهو قوله سبحانه وتعالى (أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) يعنى مؤلم موجع قال ابن عباس بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة فكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) يعنى الاشراف والرؤساء من قوم نوح (ما نراك الا بشرا مثلنا) يعنى آدميا مثلنا لا فضل لك علينا لأن التفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه الى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة على جميع العالم وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلا منهم لان من حق الرسول أن يباشر الامة بالدعوة الى الله تعالى باقامة الدليل والبرهان على ذلك وباظهار المعجز الدال على صدقه ولا يتأتى ذلك الا من آحاد البشر وهو من اختصه الله بكرامته وشرفه بنبوته وأرسله الى عباده ◊ ثم قال سبحانه وتعالى اخبارا عن قوم نوح (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) يعنى سفلتنا والرذل الدون من كل شئ قيل هم الحاكة والاساكفة وأصحاب الصنائع الخسيسة وانما قالوا ذلك جهلا منهم أيضا لان الرفعة فى الدين ومتابعة الرسول لا تكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية بل للفقراء الخاملين وهم أتباع الرسل ولا تضرهم خسة صنائعهم اذا حسنت سيرتهم فى الدين (بادى الرأى) يعنى أنهم اتبعوك فى أول الرأى من غير تثبت وتفكر فى أمرك ولو تفكروا ما اتبعوك وقيل معناه ظاهر الرأى اتبعوك ظاهرا من غير أن يتفكروا باطنا (وما نرى لكم علينا من فضل) يعنى بالمال والشرف والجاه وهذا القول أيضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله بالايمان والطاعة لا بالشرف والرياسة (بل نظنكم كاذبين) قيل الخطاب لنوح ومن آمن معه من قومه وقيل هو لنوح وحده فعلى هذا يكون الجمع للواحد على سبيل التعظيم (قال) يعنى نوحا (يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى) يعنى على يقين من ربى بالذى أمرتكم به (وآتانى رحمة من عنده) يعنى هداية ومعرفة ونبوة (

وهي مخفية وأخفيت عليكم (أنلزمكموها) يعني الرحمة والمعنى أنلزمكم بها على قبولها (وأنتم لها كارهون) وهذا استفهام معناه الإنكار أي لا نقدر على ذلك والمعنى لا نقدر أن نلزمكم من ذلك ولا أن نكرهكم على قبوله لأن ذلك ليس في وسعنا وإنما علينا البلاغ وإن لم تقبلوه (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا) أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة جعلا (إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا) وذلك أنهم طلبوا منه طرد الأراذل الذين آمنوا به فقال ذلك (إنهم ملاقو ربهم) فيجازيهم (ولكني أراكم قوما تجهلون) يعني جهلا منكم تحقيرهم (ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم) يعني من يمنعني من عذاب الله إن طردتهم أي أنهم مؤمنون مخلصون (أفلا تذكرون) يعني فتتعظون (ولا أقول لكم عندي خزائن الله) عطف على قوله لا أسألكم عليه مالا والمعنى لا أسألكم عليه مالا ولا أقول لكم عندي خزائن الله حتى أدعي أنكم إن اتبعتموني أغنيتكم منها والمعنى لا أدعي الغنى فأعطيكم منه وإنما أدعي النبوة والمعنى أن يكون هذا جوابا لقولهم وما نرى لكم علينا من فضل فقال نوح عليه السلام إني لم أدع أن لي فضلا بالغنى فأعطيكم منه وإنما أدعي الفضل بالنبوة (ولا أقول لكم عندي خزائن الله) ولا أعلم الغيب ولا أدعي علم ما يخفى عليكم من أمر الغيب وهذا جواب لقولهم بادي الرأي يعني إنما اتبعوك في ظاهر الأمر دون باطنه فقال نوح ولا أعلم الغيب حتى أعلم ما في ضمائرهم (ولا أقول إني ملك) وهذا جواب لقولهم ما نراك إلا بشرا مثلنا أي لا أدعي أني من الملائكة بل أنا بشر مثلكم أدعوكم إلى الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم

﴿فصل﴾ استدل بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء لأن نوحا عليه السلام قال ولا أقول إني ملك لأن الإنسان إنما يقول لا أدعي كذا إذا كان ذلك الشيء أشرف وأفضل من أحوال ذلك القائل فلما قال نوح عليه السلام ذلك وجب أن يكون الملك أفضل منه والجواب أن نوحا عليه السلام إنما قال ذلك في مقابلة قولهم ما نراك إلا بشرا مثلنا فكان في ظنهم أن الرسل لا يكونون إلا من الملائكة فبين لهم أن هذا باطل وأن الرسل إلى البشر إنما يكونون من البشر وإنما قال ولا أقول إني ملك ولم يرد أن درجة الملائكة أفضل من درجة الأنبياء والله أعلم * وقوله سبحانه وتعالى (ولا أقول للذين تزدري أعينكم) يعني تحتقر وتستصغر أعينكم يعني المؤمنين وذلك أنهم قالوا إنهم أراذلنا (لن يؤتيهم الله خيرا) يعني توفيقا وهداية وإيمانا وأجرا (الله أعلم بما في أنفسهم) يعني من الخير والشر (إني إذا لمن الظالمين) يعني إن طردتهم مكذبا لظاهرهم ومبطلا لإيمانهم يعني إني إن فعلت هذا أكون قد ظلمتهم وأنا لا أفعله فلا أكون من الظالمين (قالوا يا نوح قد جادلتنا) يعني خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) يعني خصومتنا (فأتنا بما تعدنا) يعني من العذاب (إن كنت من الصادقين) يعني في دعواك أنك رسول من الله إلينا (قال إنما يأتيكم به الله

(فعميت عليكم) ... (أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) ... لا نقدر أن نلزمكم ... ثم (ويا قوم لا أسألكم عليه) على تبليغ الرسالة ... (مالا) ... (إن أجري) ... (إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من أن يكونوا معهم (إنهم ملاقو ربهم) فيشكونني إليه إن طردتهم (ولكني أراكم قوما تجهلون) تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل أو تجهلون لقاء ربكم أو أنهم خير منكم (ويا قوم من ينصرني من الله) من يمنعني من انتقامه (إن طردتهم أفلا تذكرون) تتعظون (ولا أقول لكم عندي خزائن الله) فأدعي فضلا عليكم بالغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل (ولا أعلم الغيب) حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم وهو معطوف على عندي خزائن الله أي لا أقول عندي خزائن الله ولا أقول أنا أعلم الغيب (ولا أقول إني ملك) حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثلنا (ولا أقول للذين تزدري أعينكم) ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم (لن يؤتيهم الله خيرا) في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه مساعدة لكم ونزولا على هواكم (الله أعلم بما في أنفسهم) من صدق الاعتقاد وإنما علي قبول ظاهر إقرارهم إذ لا أطلع على خفي أسرارهم (إني إذا لمن الظالمين) إن قلت شيئا من ذلك والازدراء افتعال من زرى عليه إذا عابه وأصله تزتري فأبدلت التاء دالا (قالوا يا نوح قد جادلتنا) خاصمتنا (فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا) من العذاب (إن كنت من الصادقين) في وعيدك (قال إنما يأتيكم به الله

ان شاء) أى ليس الاتيان به الى وانما هو الى من كفرتم به (وما أنتم بمعجزين) أى لم تقدروا على الهرب منه (ولا ينفعكم نصحى) هو
اعلام موضع الى لتنى والتشليتنى وسكنى الى نصحى مدنى وأبو عمرو ٧ (ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) أى
يهلككم هذا الشرط دخل على شرط فيكون الثانى مقدما فى الحكم لما عرف تقديره ان كان الله يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحى ان
أردت أن أنصح لكم وهو دليل بين لنا فى ارادة المعاصى (هو ربكم) فيتصرف فيكم على قضية ارادته (واليه ترجعون)
فيجازيكم على أعمالكم
(أم يقولون افتراه) بل
أيقولون افتراه (قل ان
افتريته فعلى اجرامى) أى
ان صح أنى افتريته فعلى
عقوبة اجرامى أى افترافى
يقال أجرم الرجل اذا
أذنب (وأنا برىء) أى
ولم يثبت ذلك وأنا برىء
منه ومعنى (مما تجرمون)
من اجرامكم فى اسناد
الافتراء الى فلا وجه
لاعراضكم ومعاداتكم
(وأوحى الى نوح أنه لن
يؤمن من قومك الا من قد
آمن) اقناط من ايمانهم
وأنه غير متوقع وفيه دليل
على أن للايمان حكم
التجدد كأنه قال ان الذى
آمن يؤمن فى حادث الوقت
وعلى ذلك تخرج الزيادة
التى ذكرت فى الايمان
بالقرآن (فلا تبتئس بما
كانوا يفعلون) فلا تحزن
حزن بائس مستكين
والابتآس افتعال من
البؤس وهو الحزن والفقر
والمعنى فلا تحزن بما فعلوه
من تكذيبك وايذائك
فقد حان وقت الانتقام من
أعدائك (واصنع الفلك بأعيننا) هو فى موضع الحال أى اصنعها محفوظا وحقيقته ملتبسا بأعيننا كأن لله معه أعينا تكلؤه من أن يزيغ فى صنعته عن الصواب (ووحينا) وأنا نوحى اليك ونلهمك كيف تصنع عن ابن عباس رضى الله عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطير (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) ولا تدعنى فى شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك (انهم مغرقون) محكوم عليهم بالاغراق وقد قضى به وجف القلم فلا سبيل الى كفه (ويصنع الفلك) حكاية حال ماضية

ان شاء) يعنى قال نوح لقومه حين استعجلوه بانزال العذاب ان ذلك ليس الى انما هو الى الله ينزله متى شاء وعلى من يشاء ان أراد انزال العذاب بكم (وما أنتم بمعجزين) يعنى وما أنتم بفائتين ان أراد الله نزول العذاب بكم (ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم) يعنى ولا ينفعكم انذارى وتحذيرى اياكم عقوبته ونزول العذاب بكم (ان كان الله يريد أن يغويكم) يعنى يضلكم وقيل يهلككم وهذا معنى وليس بتفسير لان الاغواء يؤدى الى الهلاك (هو ربكم) يعنى أنه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه (واليه ترجعون) يعنى فى الآخرة فيجازيكم بأعمالكم (أم يقولون افتراه) أى اختلقه وجاء به من عند نفسه والضمير يعود الى الوحى الذى جاءهم به (قل ان افتريته) أى اختلقته (فعلى اجرامى) أى اثم اجرامى والاجرام اقتراف السيئة واكتسابها يقال جرم وأجرم بمعنى أنه اكتسب الذنب وافتعله (وأنا برىء مما تجرمون) يعنى من الكفر والتكذيب وأكثر المفسرين على أن هذا من محاورة نوح قومه فهى من قصة نوح عليه السلام وقال مقاتل أم يقولون يعنى المشركين من كفار مكة افتراه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة فى قصة نوح ثم رجع الى القصة فقال سبحانه وتعالى (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن) قال ابن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلفونه فى لبد ويلقونه فى بيت يظنون أنه قد مات فيخرج فى اليوم الثانى ويدعوهم الى الله وروى أن شيخا منهم جاء متكئا على عصا ومعه ابنه فقال يا بنى لا يغرنك هذا الشيخ المجنون فقال يا أبت أمكنى من العصا فأخذها من أبيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فأوحى الله اليه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن (فلا تبتئس) يعنى فلا تحزن عليهم فانى مهلكهم (بما كانوا يفعلون) يعنى بسبب كفرهم وأفعالهم فحينئذ دعا نوح عليه السلام عليهم فقال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبيد الله بن عمير الليثى أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون بنوح فيخنقونه حتى يغشى عليه فاذا أفاق قال رب اغفر لقومى فانهم لا يعلمون حتى تمادوا فى المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتى قرن الا كان أخبث من الذى قبله ولقد كان يأتى القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونا فلا يقبلون منه شيئا فشكا نوح الى الله عز وجل فقال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات حتى بلغ رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فأوحى الله سبحانه وتعالى اليه (واصنع الفلك) يعنى السفينة والفلك لفظ يطلق على الواحد والجمع (بأعيننا) قال ابن عباس بمرأى منا وقيل بعلمنا وقيل بحفظنا (ووحينا) يعنى بأمرنا (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) يعنى بالطوفان والمعنى ولا تخاطبنى فى امهال الكفار فانى قد حكمت باغراقهم وقيل ولا تخاطبنى فى ابنك كنعان وامرأتك واعلة فانهما هالكان مع القوم وقيل ان جبريل أتى نوحا فقال له ان ربك يأمرك أن تصنع الفلك فقال كيف أصنعها ولست نجارا فقال ان ربك يقول اصنع فانك بأعيننا فأخذ القدوم وجعل ينجر ولا يخطئ فصنعها مثل جؤجؤ الطير وهو قوله سبحانه وتعالى (ويصنع الفلك) يعنى كما أمره الله سبحانه وتعالى قال

(وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) من عمله السفينة وكان يعملها في برية في أبعد موضع من الماء فكانوا يتضاحكون له ويقولون يا نوح صرت نجاراً بعدما كنت نبياً (قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم) تسخرية الهلاك (كما تسخرون) منا عند رؤية الهلاك روي أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة من خشب الساج في سنتين وكان طولها ثلثمائة ذراع أو ألفاً ومائتي ذراع وعرضها خمسون ذراعاً أو ستمائة ذراع وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام وركب نوح ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله حاجزاً بين الرجال والنساء (فسوف تعلمون من يأتيه) من في محل نصب بتعلمون أي فسوف تعلمون الذي يأتيه (عذاب يخزيه) ويعني به إياهم ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق (ويحل عليه) وينزل عليه (عذاب مقيم) وهو عذاب الآخرة (حتى) هي التي يبتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء وهي غاية لقوله ويصنع الفلك أي وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد وما بينهما من الكلام حال من يصنع أي يصنعها والحال أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه وجواب كلما سخروا وقال استئناف على تقدير سؤال سائل أو هو الجواب وسخروا بدل من مر أو صفة لملأ (إذا جاء أمرنا) عذابنا (وفار التنور) هو كناية عن اشتداد الأمر وقيل معناه جاش الماء من تنور الخبز وكان من حجر لحواء فصار إلى نوح عليه السلام وقيل التنور وجه الأرض

فلما أمره الله سبحانه وتعالى بصنعة السفينة أقبل على عمل الفلك ولها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره مما لا يصلحه غيره وجعل قومه يمرون به وهو في عمله فيسخرون منه ويقولون يا نوح قد صرت نجاراً بعد النبوة وأعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم ولد وزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً والذراع إلى المنكب وأن يجعله ثلاث أطباق سفلى ووسطى وعليا وأن يجعل فيه كوى ففعله نوح كما أمره الله سبحانه وتعالى وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة في سنتين فكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وطولها في السماء ثلاثين ذراعاً وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام وركب هو ومن معه في البطن الأعلى وحمل معه ما يحتاج إليه من الزاد وغيره قال قتادة وكان بابها في عرضها وروي عن الحسن أنه كان طولها ألف ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع والقول الأول أشهر وهو أن طولها ثلثمائة ذراع وقال زيد بن أسلم مكث نوح مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها ومائة سنة يصنع الفلك وقال كعب الأحبار عمل نوح عليه السلام السفينة في ثلاثين سنة وروي أنها كانت ثلاث أطباق الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى للإنس والطبقة العليا للطير فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ومسح على الخنزير فوقع منه الفأر فأقبلا على الروثة فلما أفسد الفأر في السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها أوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأرة [illegible] قوله سبحانه وتعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه) أي جماعة من قومه (سخروا منه) يعني استهزؤوا به وذلك أنهم قالوا إن هذا الذي كان يزعم أنه نبي قد صار نجاراً وقيل قالوا يا نوح ماذا تصنع قال أصنع بيتاً يمشي على الماء فعجبوا من قوله (قال) يعني نوحاً لقومه (إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون) يعني إن تستجهلونا في صنعنا فإنا نستجهلكم لتعرضكم لما يوجب سخط الله وعذابه فإن قلت السخرية لا تليق بمنصب النبوة فكيف قال نوح عليه السلام إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون قلت إنما سمي هذا الفعل سخرية على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله سبحانه وتعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها والمعنى إنا نرى غب سخريتكم بنا إذا نزل بكم العذاب وهو قوله تعالى (فسوف تعلمون) يعني فستعلمون (من يأتيه) يعني أينا يأتيه نحن أو أنتم (عذاب يخزيه) يعني يهينه (ويحل عليه عذاب مقيم) يعني في الآخرة فالمراد بالعذاب الأول عذاب الدنيا وهو الغرق والمراد بالعذاب الثاني عذاب الآخرة وهو عذاب النار الذي لا انقطاع له ﴿قوله عز وجل (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) يعني وعلا والفور الغليان وفارت القدر إذا غلت والتنور فارسي معرب لا تعرف له العرب اسماً غير هذا فلذلك جاء في القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون وقيل إن لفظ التنور جاء هكذا بكل لغة عربي وعجمي وقيل إن لفظ التنور أصله أعجمي فتكلمت به العرب فصار عربياً مثل الديباج ونحوه واختلفوا في المراد بهذا التنور فقال عكرمة والزهري هو وجه الأرض وذلك أنه قيل لنوح عليه السلام إذا رأيت الماء فار على وجه الأرض فاركب السفينة فعلى هذا يكون قد جعل فوران التنور علامة لنوح على هذا الأمر العظيم وقال علي فار التنور أي طلع الفجر ونور الصبح فشبه نور الصبح بخروج النار من التنور وقال الحسن ومجاهد

والشعبي ان التنور هو الذي يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين ورواية عن ابن عباس أيضا وهذا القول أولى لان اللفظ اذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة في اسم للموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه فان قلت الالف واللام في لفظ التنور المعهود وليس هنا معهود متعارف عند السامع فوجب حمله على غيره وهو شدة الامر والمعنى اذا رأيت الماء يشتد نبوعه ويقوى فانج بنفسك ومن معك قلت لا يبعد أن يكون ذلك التنور معلوما عند نوح عليه السلام قال الحسن كان تنورا من حجارة كان لحواء تخبز فيه ثم صار الى نوح وقيل له اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك واختلفوا في موضع التنور فقال مجاهد نبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته وكان ذلك في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة وقال الشعبي اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان فوران التنور علامة لنوح عليه السلام وقال مقاتل كان ذلك التنور تنور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة وروي عن ابن عباس انه بالهند والفوران الغليان (قلنا احمل فيها) يعني قلنا لنوح احمل في السفينة (من كل زوجين اثنين) الزوجان كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر كالذكر والانثى يقال لكل واحد منهما زوج والمعنى من كل صنف زوجين ذكرا وأنثى فحشر الله سبحانه وتعالى اليه الحيوان من الدواب والسباع والطير فجعل نوح يضرب بيديه في كل جنس منها فيقع الذكر في يده اليمنى والانثى في يده اليسرى فيجعلهما في السفينة (وأهلك) أي واحمل أهلك ولدك وعيالك (الا من سبق عليه القول) يعني بالهلاك وأراد به امرأته واعلة وولده كنعان (ومن آمن) يعني واحمل معك من آمن من قومك (وما آمن معه الا قليل) اختلفوا في عدد من حمل نوح معه في السفينة فقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي لم يكن في السفينة الا ثمانية نفر نوح وامرأته وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم وقال الاعمش كانوا سبعة نوح وبنيه وثلاث كنائن له وقال محمد بن اسحق كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة نفر آمنوا بنوح وأزواجهم جميعا وقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين نفرا رجلا وامرأة وقال ابن عباس كان في السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم قال الطبري والصواب من القول في ذلك ان يقال كما قال الله عز وجل وما آمن معه الا قليل فوصفهم الله سبحانه وتعالى بالقلة ولم يحد عددا بمقدار فلا ينبغي ان يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى اذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مقاتل حمل نوح معه جسد آدم عليه السلام فجعله معترضا بين الرجال والنساء وقصد نوحا جميع الدواب والطيور ليحملها قال ابن عباس أول ما حمل نوح الذرة وآخر ما حمل الحمار فلما أراد أن يدخل الحمار أدخل صدره فتعلق ابليس بذنبه فلم تستقل رجلاه وجعل نوح يقول له ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال له ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها نوح خلى سبيل الحمار فدخل الحمار ودخل الشيطان معه فقال له نوح ما أدخلك علي يا عدو الله قال ألم تقل ادخل وان كان الشيطان معك قال اخرج عني يا عدو الله قال لا بد من أن تحملني فكان فيما يزعمون على ظهر السفينة هكذا نقله البغوي وقال الامام فخر الدين الرازي وأما الذي يروى أن ابليس دخل السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم ناري أو هوائي فكيف يخاف من الغرق وأيضا فان كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فيه قال البغوي وروي عن بعضهم ان الحية والعقرب أتيا نوحا عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال انكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فنحن نضمن لك أن لا نضر أحدا ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح في العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل في السفينة الا ما يلد ويبيض وأما ما سوى ذلك مما يتولد من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض

(قلنا احمل فيها) في السفينة (من كل زوجين اثنين) تفسيره في سورة المؤمنين (وأهلك الا من سبق عليه القول) عطف على اثنين وكذا (ومن آمن) أي واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم واستثنى من أهله من سبق عليه القول انه من أهل النار وما سبق عليه القول بذلك الا للعلم بانه يختار الكفر بتقديره وارادته جل خالق العباد عن أن يقع في الكون خلاف ما أراد (وما آمن معه الا قليل) نوح وأهله وبنوه الثلاثة عليه السلام كانوا [illegible] وقيل كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وقيل كانوا اثنين وسبعين رجالا ونساء وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء

(وقال اركبوا فيها) أي قال نوح لمن معه اركبوا في السفينة (بسم الله مجراها ومرساها) متصل باركبوا حالا من الواو أي اركبوا فيها مسمين الله وقت إجرائها وقت إرسائها أو مكانهما على أن المجرى والمرسى للوقت أو المكان أو المصدر والمضاف محذوف كقولهم خفوق النجم ويجوز أن يكون بسم الله مجراها ومرساها جملة برأسها غير متعلقة بما قبلها وهي مبتدأ وخبر يعني أن نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أي بسم الله إجراؤها وإرساؤها وكان إذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست مجراها ومرساها بفتح الميم وكسر الراء من جرى ورسى كوفي غير أبي بكر وبالضم فيهما غيرهم والراء مفتوحة (إن ربي لغفور) لذنوب عباده (رحيم) حيث نجاهم (وهي تجري بهم) متصل بمحذوف دل عليه اركبوا فيها بسم الله كأنه قيل فركبوا فيها يقولون بسم الله وهي تجري بهم أي السفينة تجري وهم فيها (في موج كالجبال) يريد موج الطوفان وهو جمع موجة كتمر وتمرة وهو ما ارتفع من الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة في خلاله شبه كل

موجة منها بالجبل في تراكبها وارتفاعها (ونادى نوح ابنه) كنعان وقيل يام والجمهور على أنه ابنه لصلبه وقيل كان ابن امرأته (وكان في معزل) عن أبيه وعن السفينة مفعل من عزله عنه إذا نحاه وأبعده أو في معزل عن دين أبيه (يا بني) بفتح الياء عاصم اقتصارا عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة من قولك يا بنيا غيره بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الإضافة (اركب معنا) في السفينة أي أسلم واركب (ولا تكن مع الكافرين قال سآوي) ألجأ (إلى جبل يعصمني من الماء) يمنعني من الغرق (قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) إلا الراحم وهو الله تعالى أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله أي لا مكان من رحم الله من المؤمنين وذلك أنه لما جعل الجبل عاصما من الماء قال له لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعني السفينة أو هو استثناء منقطع كأنه قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله ما لهم به من علم إلا اتباع الظن (وحال بينهما الموج) بين ابنه والجبل أو بين نوح وابنه (فكان من المغرقين) فصار أو فكان في علم الله (وقيل يا أرض ابلعي ماءك) انشفي وتشربي والبلع النشف (ويا سماء أقلعي) أمسكي (وغيض الماء) نقص من غاضه إذا نقصه وهو لازم ومتعد (وقضي الأمر) وأنجز ما وعد الله نوحا من إهلاك قومه (واستوت) واستقرت السفينة بعد أن طافت الأرض كلها ستة أشهر (على الجودي) وهو جبل بالموصل (وقيل بعدا للقوم الظالمين) سحقا لهم من رحمة الله فبعدا نصب على المصدر بفعل مضمر أي بعدوا بعدا يقال بعد بعدا إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ولذلك خص بدعاء السوء والنظر في هذه الآية من أربع جهات من جهة علم البيان

قوله سبحانه وتعالى (وقال اركبوا فيها) يعني وقال نوح لمن معه اركبوا في السفينة (بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) يعني بسم الله إجراؤها وإرساؤها وقت إجرائها وإرسائها قال الضحاك كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال بسم الله فجرت وكان إذا أراد أن ترسو يعني تقف قال بسم الله فرست وفي هذه الآية دليل على استحباب ذكر اسم الله عند ابتداء كل أمر وأنه يستحب لمن أراد أمرا فلا يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون ذلك سببا للنجاح والفلاح في سائر الأمور (وهي تجري بهم في موج كالجبال) الموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح شبهه سبحانه وتعالى بالجبل في عظمه وارتفاعه على الماء قال العلماء أرسل الله المطر أربعين يوما وليلة وخرج الماء من الأرض وذلك قوله سبحانه وتعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر يعني صار الماء نصفين نصف من السماء ونصف من الأرض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى أغرق كل شيء وروي أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أم صبي على ولدها من الغرق وكانت شديدة الحب له فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلحقها الماء فارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلحقها الماء فذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بهما الماء فأغرقهما فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي (ونادى نوح ابنه) يعني كنعان وكان كافرا (وكان في معزل) يعني عن نوح لم يركب معه (يا بني اركب معنا) يعني في السفينة (ولا تكن مع الكافرين) يعني فتهلك معهم (قال) يعني قال كنعان (سآوي) يعني سأصير وألتجئ (إلى جبل يعصمني) يعني يمنعني (من الماء قال) يعني قال له نوح (لا عاصم) يعني لا مانع (اليوم من أمر الله) يعني من عذابه (إلا من رحم) يعني إلا من رحمه الله فينجيه من الغرق (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) يعني كنعان (وقيل) يعني بعد ما تناهى الطوفان وأغرق الله قوم نوح (يا أرض ابلعي ماءك) أي اشربيه (ويا سماء أقلعي) أي أمسكي (وغيض الماء) أي نقص ونضب يقال غاض الماء إذا نقص وذهب (وقضي الأمر) يعني وفرغ من الأمر وهو هلاك قوم نوح (واستوت) يعني واستقرت السفينة (على الجودي) وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل (وقيل بعدا) يعني هلاكا (للقوم الظالمين) قال العلماء بالسير لما استقرت السفينة بعث نوح الغراب

وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول ان الله تعالى لما أراد أن يبين معنى أردنا أن نرد ما انفجر من الارض الى بطنها فارتد وان نقطع طوفان السماء فانقطع وأن نغيض الماء النازل من السماء فغيض وأن نقضي أمر نوح وهو انجاز ما كنا وعدناه من اغراق قومه فقضي وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت وأبقينا الظلمة غرقى بنى الكلام على تشبيه المراد بالامر الذي لا يتأتى منه لكمال هيبته العصيان وتشبيه تكوين المراد بالامر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويرا لاقتداره العظيم وان السموات والارض منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة لارادته فيها تغييرا وتبديلا كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته وأحاطوا علما بوجوب الانقياد لامره والاذعان لحكمه وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده ثم بنى على تشبيهه هذا نظم الكلام فقال عز وجل وقيل على سبيل المجاز عن الارادة الواقع بسببها قول القائل وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو يا أرض ويا سماء ثم قال مخاطبا لهما يا أرض ويا سماء على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ثم استعار لغور الماء في الارض البلع الذي هو اعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب الى مقر خفي ثم استعار الماء للغذاء تشبيها له بالغذاء لتقوي الارض بالماء في الانبات كتقوي الآكل بالطعام ثم قال ماءك باضافة الماء الى الارض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالارض كاتصال الملك بالمالك ثم اختار لاحتباس المطر الاقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم الشيء ثم قال وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا لم يصرح بمن غاض الماء ولا بمن قضى الامر وسوى السفينة وقال بعدا كما لم يصرح بقائل يا أرض ويا سماء سلوكا في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية وان تلك الامور العظام لا تكون الا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وان فاعلها واحد لا يشارك في فعله فلا يذهب الوهم الى أن يقول غيره يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ولا أن يكون الغائض والقاضي والمسوي غيره ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيها لسالكي (٣٥٤) مسلكهم في تكذيب الرسل ظلما لانفسهم اظهارا لمكان السخط وأن ذلك العذاب الشديد ما كان الا لظلمهم * ومن جهة علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها وذلك انه اختير يا دون أخواتها لكونها أكثر استعمالا ولدلالتها على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام اظهار العظمة والملكوت وابداء العزة والجبروت وهو تبعيد المنادى المؤذن لاجل التهاون به ولم يقل يا أرضي لزيادة التهاون اذ الاضافة تستدعي القرب ولم يقل يا أيتها الارض للاختصار واختير لفظ الارض والسماء لكونهما أخف وأدور واختير ابلعي على ابتلعي لكونه أخصر وللتجانس بينه وبين أقلعي وقيل أقلعي ولم يقل عن المطر وكذا لم يقل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ويا سماء أقلعي فأقلعت اختصارا واختير غيض على غيض وقيل الماء دون أن يقول ماء الطوفان والامر ولم يقل أمر نوح الاختصار والاستغناء بحرف العهد عن ذلك ولم يقل وسويت على الجودي أي أقرت على نحو قيل وغيض اعتبارا لبناء الفعل السفينة في قوله وهي تجري بهم ارادة للمطابقة ثم قيل بعدا للقوم ولم يقل ليبعد القوم طلبا للتأكيد مع الاختصار هذا من حيث النظر الى الكلم وأما من حيث النظر الى ترتيب الجمل فذلك انه قدم النداء على الامر فقيل يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي ولم يقل ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء جريا على مقتضى الكلام فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الامر الوارد عقيبه في نفس المنادى قصد الترشيح ثم قدم أمر الارض على أمر السماء وابتدأ به لابتداء الطوفان منها ثم أتبع وغيض الماء لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها ما هو المقصود وهو قوله وقضي الامر أي أنجز الموعود من اهلاك الكفرة وانجاء نوح ومن معه في الفلك وعلى هذا فاعتبر * ومن جهة الفصاحة المعنوية وهي كما ترى نظم للمعاني لطيف وتأدية لها ملخصة مبينة لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ولا التواء يشيك الطريق الى المرتاد ومن جهة الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة سليمة عن التنافر بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسة على الاسلات كل منها كالماء في السلاسة وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة ومن ثم أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الاتيان بمثلها ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته الا أدرك لطائف لا تسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكر فلعل المتروك أكثر من المسطور

لما تيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع اليه فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين فعلم نوح ان الماء قد ذهب فدعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت وطوق الحمامة بالخضرة التي في عنقها ودعا لها بالامان فمن ثم تألف البيوت وروي أن نوحا عليه السلام ركب السفينة لعشر بقين من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت الحرام وقد رفعه الله من الغرق وبقي موضعه فطافت السفينة به سبعا وأودع الحجر الاسود جبل أبي قبيس وهبط نوح ومن معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح عليه السلام وأمر جميع من معه بصيامه شكرا لله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل فسميت سوق ثمانين فهي أول قرية عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل الى حجزته وسبب نجاته من الهلاك ان نوحا عليه السلام احتاج الى خشب ساج

(ونادى نوح ربه فقال رب) نداؤه ربه دعاؤه له وهو قوله رب مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله (إن ابني من أهلي) أي بعض أهلي لأنه كان ابنه من صلبه أو كان ربيبا له فهو بعض أهله (وإن وعدك الحق) وإن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي (وأنت أحكم الحاكمين) أي أعلم الحكام وأعدلهم إذ لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل ورب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر (قال يا نوح إنه ليس من أهلك) ثم علل لانتفاء كونه من أهله بقوله (إنه عمل غير صالح) وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن نسيبك في دينك وإن كان حبشيا وكنت قرشيا لصيقك ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحما فهو أبعد بعيد منك وجعلت ذاته عملا غير صالح مبالغة في ذمه كقولها فإنما هي إقبال وإدبار أو التقدير إنه ذو عمل وفيه إشعار بأنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لأنهم أهله وهذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوته عمل غير صالح علي قال الشيخ أبو منصور رحمه الله كان عند نوح عليه السلام أن ابنه كان على دينه لأنه كان ينافق وإلا لا يحتمل أن يقول إن ابني من أهلي ويسأله نجاته وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون فكان يسأله على الظاهر الذي عنده كما كان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبينا عليه السلام ويضمرون الخلاف له ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله عليه وقوله ليس من أهلك أي من الذين وعدت النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة في السر

[illegible] قد كيف [illegible] ولا [illegible] كيف [illegible] من الأطفال [illegible] كيف [illegible] من [illegible] عليهم [illegible] في جميع [illegible] من [illegible] والجواب عن هذا أن الله سبحانه وتعالى [illegible] لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴿ قوله عز وجل (ونادى نوح ربه) أي دعاه وسأله (فقال رب إن ابني من أهلي) وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي (وإن وعدك الحق) يعني الصدق الذي لا خلف فيه (وأنت أحكم الحاكمين) [illegible] (قال يا نوح إنه) يعني هذا الابن الذي سألتني نجاته (ليس من أهلك) [illegible] الحسن ومجاهد كان [illegible] من غير نوح [illegible] ولذلك قال إنه ليس من أهلك وقال محمد بن جعفر [illegible] كان ابن امرأة نوح وكان يعلمه نوح ولذلك قال من أهلي ولم يقل مني وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين إنه ابن نوح من صلبه وهذا القول هو الصحيح والقولان الأولان ضعيفان [illegible] ولأن الله سبحانه وتعالى [illegible] نوح [illegible] لأنه [illegible] من الكلام من الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة لا يجوز [illegible] لأن الله سبحانه وتعالى [illegible] في الجنة وهم المؤمنون وفريق في السعير وهم الكافرون [illegible] نوح [illegible] من المؤمن [illegible] من الكافر [illegible] الأنبياء [illegible] أن الله سبحانه وتعالى أخرج [illegible] من صلب آزر [illegible] وكان آزر كافرا [illegible] من صلب نوح [illegible] فإن قلت [illegible] نوح [illegible] من الكافرين [illegible] أن نوحا عليه الصلاة والسلام لم يعلم [illegible] على تقدير [illegible] فأجابه الله عز وجل بقوله إنه ليس من أهلك [illegible] من أهل دينك لأن أهل الرجل من يجمعه وإياهم [illegible] الشرع [illegible] كثيرا من الأحكام بين المسلم والكافر [illegible] (إنه عمل غير صالح) قرأ الكسائي ويعقوب عمل [illegible] أنه عمل الشرك والكفر [illegible] غير صالح وقرأ الباقون من القراء عمل [illegible] غير صالح لأن [illegible] الكافر [illegible] غير صالح [illegible]

والظاهر (فلا تسألن) اجتزأ بالكسرة عن الياء كوفي تسألني بصري تسألنّ شامي [illegible] واجتزأ بالكسرة والنون نون
التأكيد تسألنّ مكي (ما ليس لك به علم) بجواز مسئلته (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) ونحوه قوله لرسولنا بقوله فلا تكونن من الجاهلين
(قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) أي من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته تأدبا بأدبك واتعاظا بموعظتك
(وإلا تغفر لي) ما فرط مني (وترحمني) بالعصمة عن العود إلى مثله (أكن من الخاسرين قيل يا نوح اهبط بسلام منا)
بتحية منا أو بسلامة من الغرق (وبركات عليك) هي الخيرات النامية وهي في حقه بكثرة ذريته وأتباعه فقد جعل أكثر الأنبياء من ذريته وأئمة الدين في القرون الباقية من نسله (وعلى أمم ممن معك) من للبيان فتراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة لأنهم كانوا جماعات أو قيل لهم أمم لأن الأمم تتشعب منهم أو لابتداء الغاية أي على أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه (وأمم) رفع بالابتداء (سنمتعهم) في الدنيا بالسعة في الرزق والخفض في العيش صفة والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم وإنما حذف لأن ممن معك يدل عليه (ثم يمسهم منا عذاب أليم) أي في الآخرة والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشؤن ممن معك وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار وكان نوح عليه السلام أبا الأنبياء والخلق
بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة وعن محمد بن كعب دخل في ذلك السلام كل مؤمن معروف
ومؤمنة إلى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر (تلك) إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ومحلها الرفع على الابتداء والجمل بعدها
وهي من (أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك) أخبار أي تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك مجهولة عندك
وعند قومك (من قبل هذا) الوقت أو من قبل إيحائي إليك وإخباريك بها

فإنما هي إقبال وإدبار ۞ قال الواحدي وهذا قول أبي إسحق يعني الزجاج وأبي بكر بن الأنباري وأبي
علي الفارسي قال أبو علي ويجوز أن يكون ابن نوح عمل عملا غير صالح فجعلت نفسه ذلك العمل لكثرة ذلك
منه كما يقال الشعر زهير والعلم فلان إذا كثر منه فعلى هذا الحذف (فلا تسألن ما ليس لك به علم) وذلك
أن نوحا عليه السلام سأل ربه إنجاء ولده من الغرق وهو من كمال شفقة الوالد على ولده وهو لا يعلم أن ذلك
محظور لإصرار ولده على الكفر فنهاه الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه المسألة وأعلمه أن ذلك لا يجوز
فكان المعنى فلا تسألني ما ليس لك به علم بجواز مسئلته (إني أعظك) يعني أنهاك (أن تكون من
الجاهلين) يعني لمثل هذا السؤال (قال) يعني قال نوح (رب إني أعوذ بك) يعني ألتجئ إليك وأعتذر إليك
(أن أسألك ما ليس لي به علم) يعني إنك أنت علام الغيوب وأنا لا أعلم ما غاب عني فأعتذر إليك من مسئلتي
ما ليس لي به علم (وإلا تغفر لي) يعني جهلي وإقدامي على سؤال ما ليس لي به علم (وترحمني) يعني برحمتك التي
وسعت كل شيء (أكن من الخاسرين)

﴿فصل وقد استدل بهذه الآيات من لا يرى عصمة الأنبياء﴾ وبيانه أن قوله إنه عمل غير صالح المراد به
السؤال وهو محظور فلهذا نهاه عنه بقوله فلا تسألني ما ليس لك به علم وقوله سبحانه وتعالى إني أعظك أن
تكون من الجاهلين يدل على أن ذلك السؤال كان جهلا ففيه زجر وتهديد وطلب المغفرة والرحمة له يدل
على صدور الذنب منه والجواب أن الله عز وجل كان قد وعد نوحا عليه السلام بأن ينجيه وأهله فأخذ
نوح بظاهر اللفظ واتبع التأويل بمقتضى هذا الظاهر ولم يعلم ما غاب عنه ولم يشك في وعد الله سبحانه وتعالى
فأقدم على هذا السؤال لهذا السبب فعاتبه الله عز وجل على سؤاله ما ليس له به علم وبين له أنه ليس من
أهله الذين وعد بنجاتهم لكفره وعمله الذي هو غير صالح وأعلمه الله سبحانه وتعالى أنه مغرق مع الذين
ظلموا ونهاه عن مخاطبته فيهم فأشفق نوح من إقدامه على سؤال ربه فيما لم يؤذن له فيه فخاف نوح من ذلك
الهلاك فلجأ إلى ربه عز وجل وخشع له وعاذ به وسأله المغفرة والرحمة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين
وليس في الآيات ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام سوى تأويله وإقدامه على سؤال ما لم
يؤذن له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية والله أعلم ۞ قوله سبحانه وتعالى (قيل يا نوح اهبط) أي انزل من
السفينة أو من الجبل إلى الأرض (بسلام) أي بأمن وسلامة (منا وبركات عليك) البركة هي ثبوت الخير
ونماؤه وزيادته وقيل المراد بالبركة هنا أن الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة فكل
العالم من ذريته أولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه في السفينة غيرهم (وعلى أمم ممن معك) يعني وعلى
ذرية أمم ممن كانوا معك في السفينة والمعنى وبركات عليك وعلى قرون تجيء من بعدك من ذرية أولادك
وهم المؤمنون قال محمد بن كعب القرظي دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة (وأمم سنمتعهم) هذا ابتداء
كلام أي وأمم كفرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعني في الدنيا إلى منتهى آجالهم (ثم يمسهم منا عذاب أليم)
يعني في الآخرة (تلك من أنباء الغيب) هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني أن هذه القصة التي أخبرناك
يا محمد من قصة نوح وخبر قومه من أنباء الغيب يعني من أخبار الغيب (نوحيها إليك ما كنت تعلمها
أنت ولا قومك من قبل هذا) يعني من قبل نزول القرآن عليك فإن قلت إن قصة نوح كانت مشهورة

[illegible] (يرسل السماء) أي المطر (عليكم مدرارا) حال أي كثيرة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مما تشركون من دونه أى) أى من اشراككم آلهة من دونه والمعنى انى أشهد الله أنى برئ مما تشركون واشهدوا أنتم أيضا انى برئ من ذلك وجئ به على لفظ الامر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه اشهد على انى لا أحبك تهكما به واستهانة بحاله (فكيدونى جميعا) أنتم وآلهتكم (ثم لا تنظرون) لا تمهلون فانى لا أبالى بكم وبكيدكم ولا أخاف معرتكم وان تعاونتم على وكيف تضرنى آلهتكم وما هى الا جماد لا يضر ولا ينفع وكيف تنتقم منى اذا نلت منها وصددت عن عبادتها بأن تخبلنى وتذهب بعقلى (انى توكلت

مما تشركون من دونه يعنى هذه الاصنام التى كانوا يعبدونها (فكيدونى جميعا) يعنى احتالوا فى وضرى أنتم وأصنامكم التى تعتقدون انها تضر وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع (ثم لا تنظرون) يعنى ثم لا تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام وذلك انه كان وحيدا فى قومه فما

ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت الا لثقته بالله عز وجل وتوكله عليه وهو قوله تعالى (انى توكلت على الله ربى وربكم) يعنى انه فوض أمره الى الله واعتمد عليه (ما من دابة) يعنى تدب على الارض ويدخل فى هذا جميع بنى آدم والحيوان لانهم يدبون على الارض (الا هو آخذ بناصيتها) يعنى انه تعالى هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لان من أخذت بناصيته فقد قهرته والناصية مقدم الرأس وسمى الشعر الذى عليه ناصية للمجاورة وقيل انما خص الناصية بالذكر لان العرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم فاذا وصفوا انسانا بالذلة مع غيره يقولون ناصية فلان بيد فلان وكانوا اذا أسروا أسيرا وأرادوا اطلاقه جزوا ناصيته ليمنوا عليه ويعتقدوا بذلك فخرا عليه فخاطبهم الله سبحانه وتعالى بما يعرفونه من كلامهم (ان ربى على صراط مستقيم) يعنى ان ربى وان كان قادرا وأنتم فى قبضته كالعبد الذليل فانه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل الا بالاحسان والانصاف والعدل فيجازى المحسن باحسانه والمسئ بعصيانه وقيل معناه ان دين ربى هو الصراط المستقيم وقيل فيه اضمار تقديره ان ربى يحملكم على صراط مستقيم (فان تولوا) يعنى تتولوا يعنى تعرضوا عن الايمان بما أرسلت به اليكم (فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) يعنى انى لم يقع منى تقصير فى تبليغ ما أرسلت به اليكم انما التقصير منكم فى قبول ذلك (ويستخلف ربى قوما غيركم) يعنى انكم ان أعرضتم عن الايمان وقبول ما أرسلت به اليكم يهلككم الله ويستبدل بكم قوما غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه وفيه اشارة الى عذاب الاستئصال لهم وعيد وتهديد (ولا تضرونه شيئا) يعنى بتوليكم انما تضرون أنفسكم بذلك وقيل لا تنقصونه شيئا اذا أهلككم لان وجودكم وعدمكم عنده سواء (ان ربى على كل شئ حفيظ) يعنى انه سبحانه وتعالى حافظ لكل شئ فيحفظنى من أن تنالونى بسوء قوله سبحانه وتعالى (ولما جاء أمرنا) يعنى باهلاكهم وعذابهم (نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) وذلك ان العذاب اذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك كان برحمته وفضله وكرمه (ونجيناهم من عذاب غليظ) يعنى الريح التى أهلكت بها عاد وذلك ان الله تعالى أرسل على عاد بتقدير الله سبع ليال وثمانية أيام حسوما وهى الايام النحسات فأهلكتهم جميعا وأنجى الله المؤمنين جميعا فلم تضرهم شيئا وقيل المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة وهذا هو الصحيح ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى انه تعالى كما نجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظا لانه أعظم من عذاب الدنيا (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) لما فرغ من ذكر قصة عاد خاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال وتلك

على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها) أى مالكها ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ومن كون كل دابة فى قبضته وملكه وتحت قهره وسلطانه والاخذ بالناصية تمثيل لذلك (ان ربى على صراط مستقيم) ان ربى على الحق لا يعدل عنه أو ان ربى يدل على صراط مستقيم (فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) هو فى موضع فقد ثبتت الحجة عليكم (ويستخلف ربى قوما غيركم) كلام مستأنف أى يهلككم الله ويجئ بقوم آخرين يخلفونكم فى دياركم وأموالكم (ولا تضرونه) بتوليكم (شيئا) من ضرر قط اذ لا يجوز عليه المضار وانما تضرون أنفسكم (ان ربى على كل شئ حفيظ) رقيب عليه مهيمن فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم أو من كان رقيبا على الاشياء كلها حافظا لها وكانت الاشياء مفتقرة الى حفظه عن المضار لم يضر مثله مثلكم (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة منا) أى بفضل منا لا بعملهم أو بالايمان الذى أنعمنا عليهم (ونجيناهم من عذاب غليظ) وتكرار نجينا للتأكيد والثانية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه (وتلك عاد) اشارة الى قبورهم وآثارهم كأنه قال سيحوا فى الارض فانظروا اليها واعتبروا ثم استأنف وصف أحوالهم فقال (جحدوا بآيات

في قبورهم وآثارهم فانه لما كسيحوا في الأرض فانظروا اليها واعتبروا بها ثم وصف حالهم فقال تعالى (جحدوا
بآيات ربهم) يعني المعجزات التي أتى بها هود عليه السلام (وعصوا رسله) يعني هودا وحده وانما أتى بلفظ الجمع
لأن من كذب رسولا واحدا فقد كذب كل الرسل (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) يعني أن السفلة منهم
اتبعوا الرؤساء والمراد من الجبار المتكبر والعنيد الذي لا يقبل الحق ولا يتبعه
(وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة) يعني أردفوا لعنة تلحقهم وتنصرف معهم حيثما ساروا والأمة من
بعدهم (ويوم القيامة) يعني وفي يوم القيامة أيضا تتبعهم اللعنة كما تبعتهم في الدنيا ثم ذكر ونبه على
السبب الذي استحقوا به هذه اللعنة فقال سبحانه وتعالى (ألا إن عادا كفروا ربهم) أي كفروا بربهم
(ألا بعدا لعاد) يعني هلاكا لهم وقيل بعدا من الرحمة فإن قلت اللعنة هي الإبعاد والهلاك فما فائدة
في قوله ألا بعدا لعاد لأن الأول حيث دلت اللعنة عليه ما فائدة التكرير قلت فائدته التأكيد ودل على
أنهم كانوا مستحقين له (قوم هود) عطف بيان لعاد فإن قلت هذا البيان حاصل فما
الفائدة في قوله قوم هود قلت إن عادا كانوا قبيلتين فعاد الأولى القديمة التي هم قوم هود وعاد الثانية وهم
إرم ذات العماد وهم العماليق فأتى بقوله قوم هود ليزول الاشتباه وجواب آخر وهو أن المبالغة في
التنصيص تدل على مزيد التأكيد ﴿ قوله عز وجل (وإلى ثمود أخاهم صالحا) يعني وأرسلنا إلى ثمود وهم
سكان الحجر أخاهم صالحا يعني في النسب لا في الدين (قال يا قوم اعبدوا الله) يعني وحدوا الله وخصوه بالعبادة
(ما لكم من إله غيره) يعني هو الإله المستحق للعبادة لا هذه الأصنام ثم ذكر صفاته ونعت الدلائل الدالة على
وحدانيته وكمال قدرته فقال تعالى (هو أنشأكم من الأرض) يعني أنه هو الذي ابتدأ خلقكم من الأرض وذلك أنهم
من بني آدم وآدم خلق من الأرض (واستعمركم فيها) يعني وجعلكم عمارها وسكانها وقال الضحاك أطال
أعماركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة وكذلك كان قوم عاد وقال مجاهد أعمركم من
العمرى أي جعلها لكم ما عشتم (فاستغفروه) يعني من ذنوبكم (ثم توبوا إليه) يعني من الشرك (إن ربي
قريب) يعني من المؤمنين (مجيب) لدعائهم (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) يعني قبل هذا
القول الذي جئت به والنهي إنما كنا نرجو أن تكون فينا سيدا لأنه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم
ويغني فقيرهم وقيل معناه كنا نطمع أن تعود إلى ديننا فلما أظهر دعاءهم إلى الله وترك الأصنام انقطع
رجاؤهم منه (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) يعني الآلهة (وإننا لفي شك مما تدعونا إليه) يعني من عبادة الله
(مريب) يعني موقع للريبة من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة
(قال) يعني قال صالح مجيبا لقومه (يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي) يعني على يقين وبرهان (وآتاني
منه رحمة) يعني نبوة وحكمة (فمن ينصرني من الله) أي فمن يمنعني من عذاب الله (إن عصيته) يعني إن

(واتبعوا أمر كل جبار عنيد) يريد رؤساءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل لأنهم الذين يجبرون الناس على الأمور ويعاندون ربهم
ومعنى اتباع أمرهم طاعتهم (واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) لما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين (ألا
إن عادا كفروا ربهم) جحدوه أو كفروا نعمته (ألا بعدا لعاد) دعاء عليهم بالهلاك والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين لما نزل بهم من مثل
ذلك (قوم هود) عطف بيان لعاد وفيه فائدة لأن عادا عادان الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم والأخرى إرم
(وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم
من الأرض) لم ينشئكم منها
إلا هو وإنشاؤهم منها خلق
آدم من التراب ثم خلقهم
من آدم (واستعمركم فيها)
وجعلكم عمارها وأراد منكم
عمارتها أو استعمركم من العمر
أي أطال أعماركم فيها وكانت
أعمارهم من ثلاثمائة إلى
ألف وكان ملوك فارس
قد أكثروا من حفر الأنهار
وغرس الأشجار وعمروا
الأعمار الطوال مع ما فيهم
من الظلم فسأل نبي من
أنبياء زمانهم ربه عن سبب
تعميرهم فأوحى الله إليه
أنهم عمروا بلادي فعاش
فيها عبادي (فاستغفروه)
فاسألوه مغفرته بالإيمان
(ثم توبوا إليه إن ربي
قريب) داني الرحمة
(مجيب) لمن دعاه (قالوا
يا صالح قد كنت فينا
مرجوا قبل هذا)
للسيادة والمشاورة في الأمور
أو كنا نرجو أن تدخل في
ديننا وتوافقنا على
ما نحن عليه (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) حكاية حال ماضية (وإننا لفي شك مما تدعونا إليه) من التوحيد (مريب) موقع في الريبة
من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة) نبوة أتى
بحرف الشك مع أنه على يقين أنه على بينة لأن خطابه للجاحدين فكأنه قال قدروا أني على بينة من ربي وأنني نبي على الحقيقة
وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره (فمن ينصرني من الله) فمن يمنعني من عذاب الله (إن عصيته) في تبليغ رسالته ومنعكم عن
عبادة الأوثان

(فما تزيدونني) بقولكم أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا (غير تخسير) بنسبتكم إياي الى الخسار أو بنسبتي إياكم الى الخسران (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية) نصب على الحال قد عمل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل ولكم متعلق بآية حالا منها متقدمة لانها لو تأخرت لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال (فذروها تأكل في أرض الله) أي ليس عليكم رزقها مع أن لكم نفعها (ولا تمسوها بسوء) بعقر أو نحر (فيأخذكم عذاب قريب) عاجل (فعقروها) يوم الأربعاء (فقال) صالح (تمتعوا) استمتعوا بالعيش (في داركم) في بلدكم وتسمى البلاد الديار لأنه يدار فيها أي يتصرف أو في دار الدنيا (ثلاثة أيام) ثم تهلكون فهلكوا يوم السبت (ذلك وعد غير مكذوب) أي غير مكذوب فيه فاتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به أو وعد غير كذب على ان المكذوب مصدر كالمعقول (فلما جاء أمرنا) العذاب أو عذابنا (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) قال الشيخ رحمه الله هذا يدل على ان من نجى إنما نجى برحمة الله تعالى لا بعمله كما قال عليه السلام لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله (ومن خزي يومئذ) بإضافة الخزي الى اليوم وانجرار اليوم بالإضافة وبفتحها مدني وعلي لأنه مضاف الى إذ وهو مبني وظروف الزمان إذا أضيف الى الأسماء المبهمة والأفعال الماضية بنيت واكتسبت البناء من المضاف اليه كقوله * على حين عاتبت المشيب على الصبا * والواو للعطف وتقديره ونجيناهم من خزي يومئذ أي من ذله وفضيحته ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه وجاز أن يريد بيومئذ يوم القيامة كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة (ان ربك هو القوي) القادر على تنجية أوليائه (العزيز) الغالب بإهلاك أعدائه (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) أي صيحة جبريل عليه السلام (فأصبحوا في ديارهم) منازلهم (جاثمين) ميتين (كأن لم يغنوا فيها) لم يقيموا فيها (ألا ان ثمودا كفروا ربهم) ثمود حمزة وحفص (ألا بعدا لثمود) على الصرف للذهاب الى الحي أو الأب الأكبر ومنعه الصرف للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة (ولقد جاءت رسلنا) جبريل وميكائيل واسرافيل أو جبريل مع أحد عشر ملكا (ابراهيم بالبشرى) هي البشارة بالولد أو بهلاك قوم لوط والأول أظهر (قالوا سلاما) سلمنا عليك

خالفت أمره (فما تزيدونني غير تخسير) قال ابن عباس معناه غير بصارة في خسارتكم وقال الحسين بن الفضل لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وإنما المعنى فما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي الى الخسارة (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية) وذلك ان قومه طلبوا أن يخرج لهم ناقة من صخرة كانت هناك أشاروا اليها فدعا الله عز وجل فأخرج لهم من تلك الصخرة ناقة عشراء ثم ولدت فصيلا يشبهها وقوله ناقة الله إضافة تشريف كبيت الله وعبد الله فكانت هذه الناقة لهم آية ومعجزة دالة على صدق صالح عليه السلام (فذروها تأكل) يعني من العشب والنبات (في أرض الله) يعني فليس عليكم مؤنتها (ولا تمسوها بسوء) يعني بعقر (فيأخذكم) يعني ان قتلتموها (عذاب قريب) يعني في الدنيا (فعقروها) يعني فخالفوا أمر ربهم فعقروها (فقال) يعني فقال لهم صالح (تمتعوا) يعني عيشوا (في داركم) أي في بلدكم (ثلاثة أيام) يعني ثم تهلكون (ذلك) يعني العذاب الذي أوعدهم به بعد ثلاثة أيام (وعد غير مكذوب) أي غير كذب روي انه قال لهم يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي اليوم الثالث مسودة فكان كما قال وأتاهم العذاب في اليوم الرابع وهو قوله سبحانه وتعالى (فلما جاء أمرنا) يعني العذاب (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) أي بنعمة منا هديناهم الى الإيمان فآمنوا (ومن خزي يومئذ) يعني ونجيناهم من عذاب يومئذ [illegible] فيه من خزي الكافرين (ان ربك) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني ان ربك يا محمد (هو القوي) يعني هو القادر على إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين (العزيز) يعني القاهر الذي لا يغلبه شيء ثم أخبر عن عذاب قوم صالح فقال سبحانه وتعالى (وأخذ الذين ظلموا) يعني أنفسهم بالكفر (الصيحة) وذلك ان جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا وقيل أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الارض فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعا (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) يعني صرعى هلكى (كأن لم يغنوا فيها) يعني كأن لم يقيموا في تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان إذا أقمت به (ألا ان ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) وهذه القصص قد تقدمت مستوفاة في تفسير سورة الأعراف

قوله عز وجل (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) أراد بالرسل الملائكة واختلفوا في عددهم فقال ابن عباس وعطاء كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل وقال الضحاك كانوا تسعة وقال مقاتل كانوا اثني عشر ملكا وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدي كانوا أحد عشر ملكا على صور الغلمان الحسان الوجوه وقول ابن عباس هو الأولى لأن أقل الجمع ثلاثة وقوله رسلنا جمع فيحمل على الأقل وما بعده غير مقطوع به بالبشرى يعني بالبشارة بإسحق ويعقوب وقيل بإهلاك قوم لوط (قالوا سلاما)

يعني ... (قال) يعني إبراهيم (سلام) أي عليكم سلام أو أمركم سلام (فما لبث أن جاء
بعجل حنيذ) يعني مشويا والحنيذ المشوي على الحجارة المحماة في حفرة من الأرض وهو من فعل أهل
البادية وكان سمينا يسيل منه الودك قال قتادة كان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر وإنما جاء إبراهيم
... بالعجل ... ضيفا ... ثم ... وكان ... لا يأكل الأضياف الملائكة
... (فلما رأى أيديهم) يعني أيدي الأضياف
... (لا تصل إليه) يعني إلى العجل (نكرهم) يعني أنكرهم وأنكر حالهم والنكر ضد الاستعلام
(وأوجس منهم خيفة) يعني وقع في قلبه خوف منهم وأوجس هو حديث النفس وإنما خاف
إبراهيم منهم لأنه كان ... أنهم يريدون به مكروها لأنه ... من
... فلما ... إبراهيم ... أنهم ملائكة وإنما خاف أن يكونوا نزلوا لعذاب قومه
... ذلك ... إبراهيم عليه السلام ... أنهم ملائكة في أول الأمر ويدل على هذا أنه
... ثم ملائكة ... أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون
ولأنه ... أنهم ملائكة ... فلما رأى الملائكة خوف إبراهيم عليه السلام (قالوا لا تخف)
يا إبراهيم (إنا) ملائكة الله (أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته) يعني سارة زوجة إبراهيم وهي ابنة هاران بن
... (قائمة) يعني من وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت قائمة في خدمة الرسل
وإبراهيم ... (فضحكت) أصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الأسنان
... ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد ... في
تفسير هذا الضحك ... الضحك المعروف ... قال أكثر المفسرين ...
... السدي لما قرب إبراهيم الطعام إلى أضيافه فلم يأكلوا خاف إبراهيم منهم فقال ألا تأكلون
... إلا ... أن ... على آخره
... جبريل إلى ميكائيل ... أي إبراهيم وسارة ... ضحكت سارة ... لم ... فضحكت
من ... قوم لوط ... من خوف إبراهيم من ثلاثة وهو ...
... قيل ضحكت من زوال الخوف عنها وعن إبراهيم ... فلما
لا تخف ضحكت سرورا وقيل ضحكت سرورا بالبشارة وقال ابن عباس ووهب ضحكت تعجبا أن يكون
لها ولد على كبر سنها وسن زوجها فعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره وبشرناها بإسحق
فضحكت يعني ... وقيل ... لإبراهيم أضمم إليك ابن أخيك لوطا ... العذاب ... قومه
فلما جاءت الرسل ... فضحكت ... حاضت تقول العرب ضحكت ... معنى قوله
فضحكت قال عكرمة ومجاهد أي حاضت في الوقت وأنكر بعض أهل اللغة ... وقول من قال
حاضت ليس ... فضحكت ... بعض المفسرين ... ضحكت بمعنى حاضت ...
... ذلك أمارة للبشرية ... الوقت ... أن ... ليس ... لأن المرأة
... الحمل ... ضحكت بمعنى حاضت ... ليس
ضحكت بمعنى حاضت وقال ابن الأنباري قد أنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت وقد
عرفه غيرهما وأنشد

تضحك الضبع لقتلى هذيل ... وترى الذئب بها يستهل

... وقال ... قال الليث في هذه الآية فضحكت أي طمثت وحكى الأزهري عن ... في قوله

(سلاما قال سلام) أمركم
سلام وقرأ حمزة وعلي سِلْم
السلام (فما لبث أن جاء
بعجل) فما لبث في المجيء به
بل عجل فيه أو فما لبث مجيئه
والعجل ولد البقرة وكان
مال إبراهيم البقر (حنيذ)
مشوي بالحجارة المحماة
(فلما رأى أيديهم لا تصل
إليه نكرهم) نكر وأنكر
بمعنى وكانت عادتهم أنه إذا
مس من يطرقهم طعامهم
أمنوه وإلا اتهموه والظاهر
أنه أحس بأنهم ملائكة
ونكرهم لأنه تخوف أن
يكون نزولهم لأمر أنكره
الله عليه أو لتعذيب قومه
دليله قوله (وأوجس منهم
خيفة) أي أضمر منهم خوفا
(قالوا لا تخف إنا أرسلنا
إلى قوم لوط) بالعذاب وإنما
يقال هذا لمن عرفهم ولم
يعرف بم أرسلوا وإنما
قالوا لا تخف لأنهم رأوا أثر
الخوف والتغير في وجهه
(وامرأته قائمة) وراء الستر
تسمع تحاورهم أو على
رءوسهم تخدمهم (فضحكت)
سرورا بزوال الخيفة أو
بهلاك أهل الخبائث أو
من غفلة قوم لوط مع قرب
العذاب ...

(فبشرناها بإسحق) وخصت بالبشارة لأن النساء أعظم سرورا بالولد من الرجال ولأنه لم يكن لها ولد وكان لإبراهيم ولد وهو إسمعيل (ومن وراء إسحق) ومن بعده (يعقوب) بالنصب على أنه مفعول بفعل مضمر دل عليه فبشرناها أي فبشرناها بإسحق ووهبنا لها يعقوب من وراء إسحق ويرفع غيرهم على الابتداء والظرف قبله خبره كأنه قيل ومن وراء إسحق يعقوب مولود (قالت يا ويلتا) الألف مبدلة من ياء الإضافة وقرأ الحسن بالياء على الأصل (أألد وأنا عجوز) ابنة تسعين سنة (وهذا بعلي شيخا) ابن مائة وعشرين سنة وهذا مبتدأ وبعلي خبره وشيخا حال والعامل معنى الإشارة إلى ذلك (٣٦٢) عليه ذا أو معنى التنبيه الذي دل عليه هذا (إن هذا لشيء عجيب) أن يولد ولد من هرمين وهو استبعاد من حيث العادة (قالوا أتعجبين من أمر الله) قدرته وحكمته وإنما أنكرت الملائكة تعجبها لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب وإلى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجيب وهو كلام مستأنف علل به إنكار التعجب كأنه قيل إياك والتعجب لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم وقيل الرحمة النبوة والبركات الأسباط من بني إسرائيل لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم وأهل البيت نصب على النداء أو على الاختصاص (إنه حميد) محمود متفضل بالنعم (مجيد) [illegible] المعروف ظاهر الكرم فأجمل النعم (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) الفزع وهو ما أوجس من الخيفة حين نكر أضيافه (وجاءته البشرى) (يجادلنا في قوم لوط) أي لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملئ سرورا بسبب البشرى فرغ للمجادلة وجواب لما محذوف يجادلنا أو يجادلنا جواب لما وإنما جيء به مضارعا على حكاية الحال والمعنى يجادل رسلنا ومجادلته إياهم أنهم قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية فقال أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمنا أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله

ضحكت أي حاضت وهو قول ابن عباس وعكرمة يقال ضحكت الطلعة إذا انشقت قال والأصل فيه بمعنى الحيض:

ضحك الضبع من دماء سليم * إذ رأتها على الحراب تمور

وقال في المحكم ضحكت المرأة حاضت وبه فسر بعضهم قوله سبحانه وتعالى فضحكت فبشرناها بإسحق وضحكت الأرنب ضحكا أي حاضت حيضا قال: وضحك الأرانب فوق الصفا * كمثل دم الجوف يوم اللقا. وأنكر بعضهم أن يكون الضحك بمعنى الحيض فجاز عن بعضهم وأجاب عن هذا من أنكر أن يكون الضحك بمعنى الحيض وقال كان ابن دريد يقول من شاهد الضبع عند كسرها علم أنها تحيض وإنما أراد الشاعر أنها تكشر لأكل اللحوم وهذا سهو منه لأنه جعل كشرها حيضا وقيل معناه أنها تستبشر بالقتلى فيهر بعضها على بعض فجعل هريرها ضحكا وقيل لأنها تسر بهم فجعل سرورها ضحكا فإن قلت أي القولين أصح في معنى الضحك قلت إن الله عز وجل حكى عنها ضحكت وكلا القولين محتمل في معنى الضحك فالله أعلم أي ذلك كان. وقوله سبحانه وتعالى (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) يعني ومن بعد إسحق يعقوب وهو ولد الولد فبشرت سارة بأنها تعيش وترى ولد ولدها فلما بشرت بالولد صكت وجهها أي ضربت وجهها وهو من صنيع النساء وعاداتهن إذا [illegible] ذلك تعجبا (قالت يا ويلتا) نداء ندبة وأصلها يا ويلتاه وهي كلمة يستعملها الإنسان عند [illegible] مثل بالعجائب (أألد وأنا عجوز) وكانت بنت تسعين سنة في قول ابن إسحق وقال مجاهد [illegible] سنة (وهذا بعلي) يعني زوجي والبعل هو المستعلي على غيره ولما كان زوج المرأة مستعليا عليها قائما بأمرها سمي بعلا لذلك (شيخا) وكان سن إبراهيم يومئذ مائة وعشرين في قول محمد بن إسحق وقال [illegible] وكان بين الولادة والبشارة سنة (إن هذا لشيء عجيب) لم تنكر قدرة الله سبحانه وتعالى وإنما تعجبت من الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يولد لهما (قالوا) يعني قالت الملائكة لسارة (أتعجبين من أمر الله) لا تعجبي من ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء فإذا أراد شيئا كان سريعا (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) يعني بيت إبراهيم عليه السلام وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته (إنه حميد) يعني هو المحمود الذي يحمد على أفعاله كلها وهو المستحق لأن يحمد في السراء والضراء والشدة والرخاء فهو محمود على كل حال (مجيد) ومعناه المنيع الذي لا يرام وقال الخطابي المجيد الواسع الكرم وأصل المجد في كلامهم السعة يقال رجل ماجد إذا كان سخيا كريما واسع العطاء وقيل الماجد هو ذو الشرف والكرم. قوله سبحانه وتعالى (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) يعني الفزع والخوف الذي حصل له لعدم امتناع الملائكة من الأكل (وجاءته البشرى) يعني زال عنه الخوف بسبب البشرى أي جاءته وهي البشارة بالولد (يجادلنا) فيه إضمار تقديره أخذ يجادلنا أو جعل يجادلنا ويخاصمنا وقيل معناه يكلمنا ويسألنا (في قوم لوط) لأن العبد لا يقدر أن يخاصم ربه وقال

[illegible] (يا إبراهيم أعرض عن هذا) [illegible] (إنه قد جاء أمر ربك) [illegible] (وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) [illegible]

[illegible] (ولما جاءت رسلنا لوطا) [illegible] (سيء بهم) [illegible] (وضاق بهم ذرعا) [illegible]

[illegible] (وقال) يعني لوطا (هذا يوم عصيب) أي شديد [illegible]

[illegible] (وجاءه قومه يهرعون إليه) قال ابن عباس وقتادة يسرعون إليه وقال مجاهد [illegible] (ومن قبل) [illegible] (كانوا يعملون السيئات) يعني [illegible] (قال) يعني لوطا لقومه حين قصدوا [illegible]

[illegible] (وجاءه قومه يهرعون إليه) [illegible] (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) ومن قبل ذلك [illegible] حياء (ول[illegible]

[illegible] (يا إبراهيم أعرض عن هذا) [illegible] (إنه قد جاء أمر ربك) [illegible] (وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) [illegible] (وقال هذا يوم عصيب) [illegible] قال لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات [illegible]

يا قوم هؤلاء بناتي) فتزوجوهن أراد أن يقي أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم وكان تزويج المسلمة من الكافر جائزا في ذلك الوقت كما جاز في الابتداء في هذه الامة فقد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه من عتبة أبي لهب وأبي العاص وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فاراد لوط أن يزوجهما ابنتيه (هن أطهر لكم) أحل هؤلاء مبتدأ وبناتي عطف بيان وهن فصل وأطهر خبر المبتدأ أو بناتي خبر وهن أطهر مبتدأ وخبر (فاتقوا الله) بإيثارهن عليهم (ولا تخزون) ولا تهينوني ولا تفضحوني من الخزي أو ولا تخجلوني من الخزاية وهي الحياء وبالياء أبو عمرو في الوصل (في ضيفي) في حق ضيوفي فانه اذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل وذلك من عراقة الكرم واصالة المروءة (أليس منكم رجل رشيد) أي رجل واحد يهتدي الى طريق الحق وفعل الجميل والكف عن السوء (قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق) حاجة لان نكاح الاناث أمر خارج عن مذهبنا فمذهبنا اتيان الذكران (وانك لتعلم ما نريد) عنوا اتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة (قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد) جواب لو محذوف أي لفعلت بكم ولصنعت والمعنى لو قويت عليكم بنفسي أو أويت الى قوي أستند اليه وأتمنع به فيحميني منكم فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته روى أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل يرادهم ما حكى [illegible] عنه ويجادلهم فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب (قالوا يا لوط) ان ركنك لشديد (انا رسل ربك) فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم كما قال الله تعالى فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان في بيت لوط قوما سحرة (لن يصلوا اليك)

انهم غلمان من بني آدم (يا قوم هؤلاء بناتي) يعني أزوجكم اياهن وقى أضيافه ببناته قيل انه كان في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة يباح تزويج المرأة المسلمة بالكافر وقال الحسين بن الفضل عرض بناته عليهم بشرط الاسلام وقال مجاهد وسعيد بن جبير أراد ببناته نساء قومه وأضافهن الى نفسه لان كل نبي أبو أمته وهو كالوالد لهم وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب ان شاء الله تعالى والدليل عليه ان بنات لوط كانتا اثنتين وليستا بكافيتين للجماعة وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن اياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الانبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار وقيل انما قال ذلك لوط على سبيل الدفع لقومه لا على سبيل التحقيق ❁ وفي قوله (هن أطهر لكم) سؤال وهو أن يقال ان قوله هن أطهر لكم من باب أفعل التفضيل فيقتضي أن يكون الذي يطلبونه من الرجال طاهرا ومعلوم انه محرم فاسد نجس لا طهارة فيه البتة فكيف قال هن أطهر لكم والجواب عن هذا السؤال ان هذا جار مجرى قوله أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ومعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم أحد اعل هبل قال الله أعلى وأجل اذ لا مماثلة بين الله عز وجل والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة وله نظائر كثيرة ❁ وقوله (فاتقوا الله) يعني خافوه وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان (ولا تخزون في ضيفي) يعني ولا تسوؤني في أضيافي ولا تفضحوني معهم (أليس منكم رجل رشيد) أي صالح سديد عاقل وقال عكرمة رجل يقول لا اله الا الله وقال محمد بن اسحق رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ينهى عن هذا الفعل القبيح (قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق) يعني ليس لنا بهن حاجة ولا لنا فيهن شهوة وقيل معناه ليسوا بناتك لنا بأزواج ولا مستحقين نكاحهن وقيل معناه ما لنا في بناتك من حاجة لانك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ولا نريد ذلك (وانك لتعلم ما نريد) يعني من اتيان الرجال في أدبارهم فعند ذلك (قال) لوط عليه السلام (لو أن لي بكم قوة) أي لو اني أقدر أن أتقوى عليكم (أو آوي الى ركن شديد) يعني أو أنضم الى عشيرة تمنعني منكم وجواب لو محذوف تقديره لو وجدت قوة لقاتلتكم أو لو وجدت عشيرة لانضممت اليهم قال أبو هريرة ما بعث الله نبيا بعده الا في منعة من عشيرته (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله لوطا لقد كان يأوي الى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لاجبته قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فانه أشد الاركان وأقواها وأمنعها ومعنى الحديث ان لوطا عليه السلام لما خاف على أضيافه ولم تكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال في تلك الحال لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي أو آوي الى عشيرة تمنع لمنعتكم وقصد لوط اظهار العذر عند أضيافه وانه لو استطاع لدفع المكروه عنهم ومعنى باقي الحديث فيما يتعلق بيوسف عليه السلام يأتي في موضعه من سورة يوسف ان شاء الله تعالى قال ابن عباس وأهل التفسير أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وجعل يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وقومه يعالجون تسور الجدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط بسببهم (قالوا يا لوط) ان ركنك شديد (انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بمكروه فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه عز وجل في عقوبتهم فأذن له فتحول الى صورته التي يكون فيها ونشر جناحيه وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا جلي الجبين

حتى مر قضى في الباب ثم قرأ (كاثر) سل النعماء التميمة صاحب ... خروج (فأسر) بالوصل والقطع من سرى (فأسر بأهلك بقطع من الليل) طائفة ... (ولا يلتفت منكم أحد) لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم (إلا امرأتك) ... مستثنى من قوله
... (٣٦٥) ... الأمر ... ودرى ... فيما ... لا

يلتفت منهم أحد الأهي ... سمعت هذه الصيحة التفتت وقالت واقوماه فأدركها حجر فقتلها وروى أنه أمر من تبعها مع قومه ... هواها اليهم ... واستثناها منه ... لاختلاف الروايتين (إنه مصيبها ما أصابهم) أي من الأمر ... وروى أنه قال لهم متى موعد هلاك قومي قالوا (إن موعدهم الصبح) فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب) فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) حمل جبريل عليه السلام ... أسفلها أي أسفل قراهم ... إلى السماء حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم وذلك قوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) هي كلمة معربة من سنك كل ... بدليل قوله حجارة من طين (منضود) متتابع أي ... بعضه بعضا ... (مسومة) معلمة ... قيل مكتوب

أنه ... من الرحمن لا ... صاحب ... الشمس ... صوتهم ... وقيل ... مستثنى ... الوقت ... فسعر ... يقولون ... (فأسر بأهلك) يعني ... (بقطع من الليل) قال ابن عباس ... القطع ... وقيل ... (ولا يلتفت منكم أحد) يعني ولا يلتفت منكم أحد ... لا ينظر إلى ... (إلا امرأتك) ... من ... ومعها ... مع من ... (إنه مصيبها ما أصابهم) ... (إن موعدهم الصبح) ... أن ... (أليس الصبح بقريب) ... لوط ... أن ... لا يلتفت منهم أحد ... امرأته ... من ... وقولها ... عليكم ... (فلما جاء أمرنا) يعني أمرنا بالعذاب (جعلنا عاليها سافلها) وذلك ... جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهي خمس مدائن أكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة ... ورفعها ... حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب لم يكفأ لهم إناء ولم ينتبه نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها (وأمطرنا عليها) يعني على شذاذها ومن كان خارجا عن مدائنها وقيل بعدما قلبها أمطر عليهم (حجارة من سجيل) قال ابن عباس وسعيد بن جبير هو فارسي معرب سنك وكل لأن العرب إذا تكلمت بشيء من الفارسي صارت لغة للعرب ولا يضاف إلى الفارسي مثل قوله سندس وإستبرق ونحو ذلك وكل هذه ألفاظ عربية تكلمت بها العرب ... وقال قتادة وعكرمة السجيل الطين دليله قوله لنرسل عليهم حجارة من طين وقال مجاهد أولها حجر وآخرها طين وقال الحسن أصل الحجارة طين فشددت وقال الضحاك يعني الآجر وقيل السجيل اسم سماء الدنيا وقيل هو جبل في سماء الدنيا (منضود) قال ابن عباس متتابع يتبع بعضها بعضا مفعول من النضد وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض (مسومة عند ربك) صفة للحجارة يعني معلمة قال ابن جريج عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض وقال قتادة وعكرمة عليها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن والسدي كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم وقيل كان مكتوبا عليها أي على كل حجر اسم صاحبه الذي يرمى به (وما هي) يعني تلك الحجارة (من الظالمين) يعني مشركي مكة (ببعيد) قال قتادة وعكرمة يعني ظالمي هذه الأمة والله ما أجار الله منها ظالما بعد ... وفي بعض الآثار ما من ظالم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة وقيل إن الحجارة اتبعت شذاذ قوم لوط حتى إن واحدا منهم دخل الحرم فكان الحجر معلقا في السماء أربعين يوما حتى خرج ذلك الرجل من الحرم فسقط عليه الحجر فأهلكه

قوله عز وجل (وإلى مدين) يعني وأرسلنا إلى مدين (أخاهم شعيبا) مدين اسم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام ثم صار اسما للقبيلة من أولاده وقيل هو اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم فعلى هذا يكون التقدير وأرسلنا إلى أهل مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) يعني وحدوا الله ... والمعبود ... كانت عادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يبتدئون بالأمر بالتوحيد ولما كانت

قيل ... من ربه (عند ربك) ... (وما هي من الظالمين ببعيد) ... لأهل مكة ... عن جبريل عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني ظالمي أمتي ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة والضمير ... قريبة من ... مكة ... (وإلى مدين أخاهم شعيبا) هو اسم ... مدين بن إبراهيم أي ... (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)

ولا تنقصوا المكيال) أى المكيل بالمكيال (والميزان) والموزون بالميزان (إنى أراكم بخير) [illegible]
أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون (وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) مهلك من قوله وأحيط بثمره وأصله من إحاطة العدو
والمراد عذاب الاستئصال فى الدنيا أو عذاب الآخرة (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان) أتموهما (بالقسط) بالعدل نهوا أولا عن عين القبيح
الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ثم ورد الأمر بالإيفاء الذى هو حسن فى العقول لزيادة الترغيب فيه وجيء
به مقيدا بالقسط أى ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) البخس النقص كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء فنهوا عن ذلك (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) العثى والعيث أشد الفساد نحو السرقة والغارة وقطع السبيل ويجوز أن يجعل البخس والتطفيف عثيا منهم فى الأرض (بقيت الله) ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم (خير لكم إن كنتم مؤمنين) بشرط أن تؤمنوا نعم بقية الله خير للكفرة أيضا لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف إلا أن فائدتها تظهر مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب ولا تظهر مع عدمه لانغماس صاحبها فى غمرات الكفر وفى ذلك تعظيم للإيمان وتنبيه على جلالة شأنه أو المراد إن كنتم مصدقين لى فيما أقول لكم وأنصح به
إياكم (وما أنا عليكم بحفيظ) لنعمكم عليكم فاحفظوها بترك البخس (قالوا يا شعيب أصلواتك) [illegible] وبالتوحيد كوفى غير
أبى بكر (تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء) كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات وكان قومه يقولون له
ما تستفيد بهذا فكان يقول إنها تأمر بالمحاسن وتنهى عن القبائح فقالوا له على وجه الاستهزاء أصلواتك تأمرك أن تأمرنا بترك عبادة ما كان
يعبد آباؤنا أو أن نترك التبسط فى أموالنا ما نشاء من إيفاء ونقص وجاز أن تكون الصلوات آمرة مجازا كما سماها الله تعالى ناهية مجازا

الدعوة إلى توحيد الله وعبادته أهم الأشياء قال شعيب اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ثم بعد الدعوة إلى التوحيد شرع فيما هم فيه ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس فى الكيل والوزن دعاهم إلى ترك هذه العادة القبيحة وهى تطفيف الكيل والوزن فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) النقص فى الكيل والوزن على وجهين أحدهما أن يكون الاستنقاص من قبلهم فيكيلون ويزنون للغير ناقصا والوجه الآخر هو أن يستوفوا الكيل والوزن لأنفسهم زائدا عن حقهم فيكون نقصانا فى مال الغير وكلا الوجهين مذموم فلهذا نهاهم شعيب عن ذلك بقوله ولا تنقصوا المكيال والميزان (إنى أراكم بخير) قال ابن عباس كانوا موسرين فى نعمة وقال مجاهد كانوا فى خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة إن لم يتوبوا ولم يؤمنوا وهو قوله (وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) يعنى يحيط بكم فيهلككم جميعا وهو عذاب الاستئصال فى الدنيا أو حذرهم عذاب الآخرة ومنه قوله سبحانه وتعالى وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان) أى أتموهما ولا تطففوا فيهما (بالقسط) أى بالعدل وقيل بتقويم لسان الميزان وتعديل المكيال (ولا تبخسوا الناس) أى ولا تنقصوا الناس (أشياءهم) يعنى أموالهم فإن قلت قد وقع التكرار فى هذه القصة من ثلاثة أوجه لأنه قال ولا تنقصوا المكيال والميزان ثم قال أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الأول ثم قال ولا تبخسوا الناس أشياءهم وهذا عين ما تقدم فما الفائدة فى هذا التكرار قلت إن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح وهو تطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم احتيج فى المنع منه إلى المبالغة فى التأكيد والتكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية تأكيدا فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ولأن قوله ولا تنقصوا المكيال والميزان نهى عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بإيفاء العدل وهذا غير الأول ومغاير له ولقائل أن يقول النهى ضد الأمر فالتكرار لازم على هذا الوجه قلت الجواب عن هذا أنه يجوز أن ينهى عن التنقيص ولا يأمر بإيفاء الكيل والوزن فلهذا جمع بينهما وهو كقولك صل رحمك ولا تقطعها فتزيد المبالغة فى الأمر والنهى وأما قوله ثانيا ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير أيضا لأنه سبحانه وتعالى لما خصص النهى عن التنقيص والأمر بإيفاء الحق فى الكيل والوزن عمم الحكم فى جميع الأشياء التى يجب إيفاء الحق فيها فيدخل فيه الكيل والوزن والذرع وغير ذلك فحصل بهذا البيان فائدة التكرار والله أعلم * قوله سبحانه وتعالى (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) يعنى بتنقيص الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم (بقيت الله خير لكم) قال ابن عباس يعنى ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد بقية الله يعنى طاعة الله خير لكم وقيل بقية الله يعنى ما أبقاه لكم من الثواب فى الآخرة خير لكم مما يحصل لكم فى الدنيا من المال الحرام (إن كنتم مؤمنين) يعنى مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به ونهيتكم عنه (وما أنا عليكم بحفيظ) يعنى أحفظ أعمالكم قال بعضهم إنما قال لهم شعيب ذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم (قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) يعنى من الأصنام (أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء) يعنى من الزيادة والنقصان قال ابن عباس كان شعيب كثير الصلاة فلذلك قالوا هذا وقيل إنهم كانوا يمرون به فيرونه يصلى فيستهزئون به ويقولون هذه [illegible]

[illegible] أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء [illegible]

يعني أو أن نترك [illegible] في أموالنا [illegible] وقيل المراد بالصلاة هنا الدين أي أدينك
يأمرك [illegible] أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء [illegible] والمعنى [illegible]
[illegible] عليه الصلاة والسلام [illegible] كثير الصلاة [illegible]
[illegible] (إنك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس أرادوا السفيه الغاوي لأن العرب قد تصف الشيء
بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة مفازة وقيل هو على حقيقته وإنما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء
والسخرية وقيل معناه إنك لأنت الحليم الرشيد بزعمك وقيل هو على بابه [illegible]
[illegible] حليم رشيد [illegible] (قال) يعني شعيب (يا قوم أرأيتم
إن كنت على بينة من ربي) يعني على بصيرة وهداية وبيان (ورزقني منه رزقاً حسناً) يعني حلالاً وكان
شعيب عليه السلام كثير المال [illegible] وقيل الرزق الحسن ما آتاه الله من العلم والهداية والنبوة والمعرفة
وجواب إن الشرطية محذوف تقديره أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني المال الحلال والهداية
والمعرفة والنبوة [illegible] أن أخون في وحيه وأن أخالفه في أمره [illegible]
[illegible] لأنت الحليم الرشيد
والعلم [illegible] الحليم الرشيد [illegible] ﴿ قوله (وما أريد أن أخالفكم
إلى ما أنهاكم عنه) قال صاحب الكشاف يقال خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه
وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفني إلى الماء
يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً [illegible] قوله وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه يعني أن
أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها [illegible] قال الإمام فخر الدين الرازي [illegible] الكلام فيه
[illegible] أنه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار
الطريق الأصوب الأصلح فكأنه عليه السلام قال لما اعترفتم بكمال عقلي فاعلموا أن الذي اخترته لنفسي
هو أصوب الطرق وأصلحها وهو الدعوة إلى توحيد الله وترك البخس والنقص فأنا مواظب عليه غير تارك
له [illegible] وأن هذه الطريقة خير الطرق وأشرفها لا ما أنتم عليه وقال الزجاج معناه لست أنهاكم عن شيء
وأدخل فيه [illegible] فما أختاره لكم ما أختار لنفسي وقال ابن الأنباري بين أن الذي يدعوهم إليه من اتباع طاعة الله
وترك البخس والتطفيف هو ما يرضيه لنفسه ولا ينطوي إلا عليه فكان هذا محض النصيحة لهم (إن أريد)
يعني ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه (إلا الإصلاح) يعني فيما بيني وبينكم (ما استطعت) يعني ما استطعت
إلا الإصلاح وهو الإبلاغ والإنذار فقط ولا أستطيع إجباركم على الطاعة لأن ذلك إلى الله فإنه يهدي من
يشاء ويضل من يشاء (وما توفيقي إلا بالله) التوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة على العبد ولا يقدر على ذلك
إلا الله تعالى فلهذا قال وما توفيقي إلا بالله (عليه توكلت) يعني عليه اعتمدت في جميع أموري (وإليه
أنيب) يعني وإليه أرجع [illegible] وقيل إليه أرجع في معادي وكان رسول الله صلى الله
عليه وسلم إذا ذكر شعيباً قال ذلك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ﴿ وقوله تعالى (ويا قوم
لا يجرمنكم شقاقي) أي لا يحملنكم خلافي وعداوتي (أن يصيبكم) يعني عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم
الخبيثة (مثل ما أصاب قوم نوح) يعني الغرق (أو قوم هود) يعني الريح التي أهلكتهم (أو قوم صالح)
يعني ما أصابهم من الصيحة حتى هلكوا جميعاً (وما قوم لوط منكم ببعيد) وذلك أنهم كانوا [illegible]

[illegible]
بخس وتطفيف وجواب
الشرط محذوف أي أتهدوني
إن كنت على بينة
من ربي وكنت نبياً على
الحقيقة أيصح لي أن
لا آمركم بترك عبادة
الأوثان والكف عن المعاصي
والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك
يقال خالفني فلان إلى كذا
إذا قصده وأنت مولٍ عنه
وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت
قاصده ويلقاك الرجل
صادراً عن الماء فتسأله
عن صاحبه فيقول خالفني
إلى الماء يريد أنه قد ذهب
إليه وارداً وأنا ذاهب عنه
صادراً ومنه قوله (وما أريد
أن أخالفكم إلى ما أنهاكم
عنه) يعني أن أسبقكم إلى
شهواتكم التي نهيتكم عنها
لأستبد بها دونكم (إن أريد
إلا الإصلاح) ما أريد إلا
أن أصلحكم بموعظتي
ونصيحتي وأمري بالمعروف
ونهيي عن المنكر
(ما استطعت) ظرف أي
مدة استطاعتي للإصلاح
وما دمت متمكناً منه لا آلو
فيه جهداً (وما توفيقي إلا
بالله) وما كوني موفقاً
لإصابة الحق فيما آتي
وأذر إلا بمعونته وتأييده
(عليه توكلت) اعتمدت
(وإليه أنيب) أرجع [illegible] (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن
يصيبكم) أي لا يكسبنكم [illegible] (مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح) وهو الغرق والريح والرجفة (وما قوم لوط
منكم ببعيد) [illegible]

ونحوها (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم) بفقراء أهل الجفاء من المؤمنين (ودود) محب لأهل الوفاء من الصالحين (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) أي لا نفهم صحة ما تقول وإلا فكيف لا يفهم كلامه وهو خطيب الأنبياء (وإنا لنراك فينا ضعيفا) لا قوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروها (ولولا رهطك لرجمناك) ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم وهو شر قتلة وكان رهطه من أهل ملتهم فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم (وما أنت علينا بعزيز) أي لا تعز علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم وإنما يعز علينا رهطك لأنهم من أهل ديننا وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا ولذلك (قال) في جوابهم (يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله) ولو قيل وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب وإنما قال أرهطي أعز عليكم من الله والكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه لأن تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله وحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ألا ترى إلى قوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله (واتخذتموه وراءكم ظهريا) ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به والظهري منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب كقولهم في النسبة إلى الأمس إمسي (إن ربي بما تعملون محيط) قد أحاط بأعمالكم فلا يخفى عليه شيء منها (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) هي بمعنى المكان يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة أو مصدر من مكن مكانة فهو مكين إذا تمكن من الشيء يعني اعملوا قارين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي أو اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين لها (إني عامل) على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني (سوف تعلمون

بهلاككم وقيل معناه وما ديار قوم لوط منكم ببعيد وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم (واستغفروا ربكم) يعني من عبادة الأصنام (ثم توبوا إليه) يعني من البخس والنقصان في الكيل والوزن (إن ربي رحيم) يعني بعباده إذا تابوا واستغفروا (ودود) قال ابن عباس الودود المحب لعباده المؤمنين فهو من قولهم وددت الرجل أوده ودا إذا أحببته وقيل يحتمل أن يكون ودود فعول بمعنى مفعول ومعناه أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة أفضاله وإحسانه إليهم وقال الحليمي هو الواد لأهل طاعته أي الراضي عنهم بأعمالهم والمحسن إليهم لأجلها والمادح لهم بها وقال أبو سليمان الخطابي وقد يكون معناه من تودد إلى خلقه (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) يعني ما نفهم ما تدعونا إليه وذلك أن الله سبحانه وتعالى ختم على قلوبهم فصاروا لا يفهمون ولا يفقهون ما يسمعونه وإن كانوا في الظاهر يسمعون ويفهمون (وإنا لنراك فينا ضعيفا) قال ابن عباس وقتادة كان أعمى قال الزجاج ويقال إن حمير كانوا يسمون المكفوف ضعيفا وقال الحسن وأبو روق ومقاتل يعني ذليلا قال أبو روق إن الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبيا أعمى ولا به زمانة وقيل كان ضعيف البصر وقيل المراد بالضعف العجز عن الكسب والتصرف وقيل هو الذي يتعذر عليه المنع عن نفسه ويدل على صحة هذا القول ما بعده وهو قوله (ولولا رهطك) يعني جماعتك وعشيرتك قيل الرهط ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى السبعة (لرجمناك) يعني لقتلناك بالحجارة والرجم بالحجارة أسوأ القتلات وشرها وقيل معناه لشتمناك وأغلظنا لك القول (وما أنت علينا بعزيز) يعني بكريم وقيل بممتنع والمقصود من هذا الكلام وحاصله أنهم بينوا لشعيب عليه السلام أنه لا حرمة له عندهم ولا وقع له في صدورهم وأنهم إنما لم يقتلوه ولم يسمعوه الكلام الغليظ الفاحش لأجل احترامهم رهطه وعشيرته وذلك لأنهم كانوا على دينهم وملتهم ولما قال شعيب عليه السلام هذه المقالة أجابهم بقوله (قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله) يعني أهيب عندكم من الله وأمنع حتى تركتم قتلي لمكان رهطي عندكم فالأولى أن تحفظوني في الله ولأجل الله لا لأجل رهطي لأن الله أعز وأعظم (واتخذتموه وراءكم ظهريا) يعني ونبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كالشيء الملقى الذي لا يلتفت إليه (إن ربي بما تعملون محيط) يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأحوالكم جميعا لا يخفى عليه منها شيء فيجازيكم بها يوم القيامة (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) يعني على تؤدتكم وتمكنكم من أعمالكم وقيل المكانة الحالة والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة من الشر (إني عامل) يعني ما أقدرني عليه من الطاعة والخير وصيغة الأمر في قوله اعملوا فيه وعيد وتهديد عظيم ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى (سوف تعلمون) أينا الجاني على نفسه والمخطئ في فعله فإن قلت أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في قوله سوف تعلمون قلت إدخال الفاء في قوله فسوف تعلمون وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها في قوله سوف تعلمون وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون يعني أنه قد ذكرت فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء

[illegible] (وادخلوا) [illegible]

[illegible] (صيحة) [illegible]

[illegible] (مدين) [illegible]

[illegible] (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) [illegible] (وسلطان مبين) [illegible] (الى فرعون وملئه) [illegible] (فاتبعوا أمر فرعون) [illegible] (وما أمر فرعون برشيد) [illegible]

(يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) [illegible] (وبئس الورد المورود) [illegible]

كان كيت وكيت وأما [illegible] (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) [illegible] (كأن لم يغنوا) [illegible] (كما بعدت ثمود) [illegible]

[illegible] (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين) [illegible] (الى فرعون وملئه فاتبعوا) أي الملأ (أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد) [illegible] (يقدم قومه يوم القيامة) [illegible] (وبئس الورد المورود) [illegible]

(وأتبعوا في هذه) أي الدنيا (لعنة ويوم القيامة) أي يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة (بئس الرفد المرفود) رفدهم أي بئس العون المعان وبئس العطاء المعطى (ذلك) مبتدأ (من أنباء القرى) خبر (نقصه عليك) خبر بعد خبر أي ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك (منها) من القرى (قائم وحصيد) أي بعضها باق وبعضها عافي الأثر كالزرع القائم على ساقه والذي حصد والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب (وما ظلمناهم) بإهلاكنا إياهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بارتكاب ما به أهلكوا (فما أغنت عنهم آلهتهم) فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله (التي يدعون) يعبدون وهي حكاية حال ماضية (من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك) عذابه ولما منصوب بما أغنت (وما زادوهم غير تتبيب) تخسير يقال تب إذا خسر وتببه غيره أوقعه في الخسران يعني وما أفادتهم عبادة غير الله شيئا بل أهلكتهم (وكذلك) محل الكاف الرفع أي ومثل ذلك الأخذ (أخذ ربك إذا أخذ القرى) أي أهلها (وهي ظالمة) حال من القرى (إن أخذه أليم شديد) مؤلم شديد صعب على المأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها فعلى كل ظالم أن يبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال (إن في ذلك) فيما قص الله من قصص الأمم الهالكة (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) أي اعتقد صحته ووجوده (ذلك) إشارة إلى يوم القيامة لأن عذاب الآخرة دل عليه (يوم مجموع له الناس) وهو مرفوع بمجموع كما يرفع فعله إذا قلت يجمع له الناس وإنما آثر اسم المفعول على فعله لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه أثبت أيضا لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه يجمعون للحساب والثواب والعقاب (وذلك يوم مشهود) أي مشهود فيه فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به أي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد (وما نؤخره) أي اليوم المذكور والأجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها والعد إنما هو للمدة لا لغايتها ومنتهاها فمعنى قوله وما نؤخره (إلا لأجل معدود) إلا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف أو ما نؤخر هذا اليوم إلا لتنتهي المدة التي ضربنا لبقاء الدنيا

وأتباعه أو ورده النار وبئس الورد المورود لأن الأصل فيه قصد الماء واستعمل في ورود النار على سبيل الفظاعة (وأتبعوا في هذه) يعني في هذه الدنيا (لعنة) يعني طردا وبعدا عن الرحمة (ويوم القيامة) يعني وأتبعوا لعنة أخرى يوم القيامة مع اللعنة التي حصلت لهم في الدنيا (بئس الرفد المرفود) يعني بئس العون المعان وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعنة في الآخرة وقيل معناه بئس العطاء المعطى وذلك أنه ترادفت عليهم لعنتان لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة وقوله سبحانه وتعالى (ذلك من أنباء القرى) يعني من أخبار أهل القرى وهم الأمم السالفة والقرون الماضية (نقصه عليك) يعني نخبرك به يا محمد لتخبر قومك أخبارهم لعلهم يعتبرون بهم فيرجعوا عن كفرهم أو ينزل بهم مثل ما نزل بهم من العذاب (منها) يعني من القرى التي أهلكنا أهلها (قائم وحصيد) يعني منها عامر ومنها خراب وقيل منها قائم يعني الحيطان بغير سقوف ومنها ما قد محي أثره بالكلية شبهها الله تعالى بالزرع الذي بعضه قائم على سوقه وبعضه قد حصد وذهب أثره والحصيد بمعنى المحصود (وما ظلمناهم) يعني بالعذاب والإهلاك (ولكن ظلموا أنفسهم) يعني بالكفر والمعاصي (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك) يعني عذابهم أي لم تنفعهم أصنامهم ولم تدفع عنهم العذاب (وما زادوهم غير تتبيب) يعني غير تخسير وقيل غير تدمير (وكذلك أخذ ربك) يعني وهكذا أخذ ربك (إذا أخذ القرى وهي ظالمة) الضمير في وهي عائد على القرى والمراد أهلها (إن أخذه أليم شديد) (ق) عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد هذه الآية الكريمة والحديث دليل على أن من أقدم على ظلم فإنه يجب أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة ورد الحقوق إلى أهلها إن كان الظلم للغير لئلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن أن هذه الآية حكمها مختص بظالمي الأمم الماضية بل هو عام في كل ظالم ويعضده الحديث والله أعلم قوله عز وجل (إن في ذلك لآية) يعني إن فيما ذكر من عذاب الأمم الخالية وإهلاكهم لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب الآخرة) يعني إن إهلاك أولئك عبرة يعتبر بها وموعظة يتعظ بها من كان يخشى الله ويخاف عذابه في الآخرة لأنه إذا نظر ما أحل الله بأولئك الكفار في الدنيا من أليم عذابه وعظيم عقابه وهو كالأنموذج مما أعد لهم في الآخرة اعتبر به فيكون زيادة في خوفه وخشيته من الله (ذلك يوم مجموع له الناس) يعني يوم القيامة يجمع فيه الخلائق من الأولين والآخرين للحساب والوقوف بين يدي رب العالمين (وذلك يوم مشهود) يعني يشهده أهل السماء وأهل الأرض (وما نؤخره إلا لأجل معدود) يعني وما نؤخر ذلك اليوم وهو يوم القيامة إلا إلى وقت معلوم محدود وذلك الوقت

(يوم يأت) [illegible] (يأت) [illegible] وبالياء [illegible]

[illegible]

[illegible] (إلا بإذنه) [illegible] (٣٧١)

[illegible] (يوم يأت) يعني ذلك اليوم (لا تكلم نفس إلا بإذنه) قيل إن جميع الخلائق
يسكتون في ذلك اليوم [illegible] إلا بإذن الله تعالى فإن قلت كيف [illegible]
[illegible] يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها [illegible]
[illegible]
[illegible] الأحوال [illegible] الكلام [illegible] الأهوال [illegible]
[illegible]
[illegible] (فمنهم)
يعني أهل الموقف (شقي وسعيد) الشقاوة خلاف السعادة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الجنة [illegible] فلا إشكال [illegible]
[illegible] أهل السعادة [illegible] أهل الشقاوة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
الآية وهذا الحديث [illegible] أهل الموقف فمنهم شقي وسعيد [illegible] الآية والحديث [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] (فأما الذين
شقوا ففي النار لهم فيها) أي في النار [illegible] (زفير وشهيق) أصل الزفير [illegible]
[illegible] الشهيق [illegible]
[illegible] الزفير [illegible] الشهيق [illegible]
[illegible] (خالدين فيها) يعني
لابثين مقيمين في النار (ما دامت السموات والأرض) قال الضحاك يعني ما دامت سموات الجنة والنار
وأرضهما [illegible]
[illegible] عبارة عن التأبيد [illegible]
[illegible] ما دامت السموات والأرض [illegible] التأبيد ﴿ وقوله
سبحانه وتعالى (إلا ما شاء ربك) [illegible] الاستثناء [illegible] فقال ابن عباس والضحاك
[illegible]

(يوم يأت) [illegible]
(لا تكلم نفس) [illegible] (إلا بإذنه) [illegible]
[illegible] (فمنهم شقي)
معذب (وسعيد) أي ومنهم
سعيد أي منعم (فأما الذين
شقوا ففي النار لهم فيها
زفير) هو أول نهيق الحمار
(وشهيق) هو آخره وهما
إخراج النفس ورده والجملة
في موضع الحال [illegible]
الاستقرار [illegible]
(خالدين فيها) حال مقدرة
(ما دامت السموات
والأرض) في موضع النصب
أي مدة دوام السموات
والأرض والمراد سموات
الآخرة وأرضها وهي دائمة
[illegible] والدليل على
أن لها سموات وأرضاً
[illegible] الأرض غير
الأرض والسموات وقيل
ما دام فوق وتحت ولأنه لا بد
لأهل الآخرة مما يقلهم
ويظلهم إما سماء أو عرش وكل
ما أظلك فهو سماء أو هو
عبارة عن التأبيد ونفي
الانقطاع كقول العرب
ما لاح كوكب وغير ذلك
من كلمات التأبيد (إلا ما
شاء ربك) هو استثناء
من الخلود في عذاب النار

[illegible] أهل النار [illegible] في عذاب النار وحده [illegible] سوى عذاب النار [illegible]
[illegible] الجهنميون [illegible] أهل الجنة [illegible]
[illegible] التأبيد [illegible] ابن عباس [illegible]

يخرجهم منها فيكون استثناء من غير الجنس لأن الذين أخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله من الأشقياء ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله سبحانه وتعالى يخرج قوما من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة وفي رواية إن الله يخرج ناسا من النار فيدخلهم الجنة أخرجه البخاري ومسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليخرجن من النار قوم قد أصابهم منها سفع فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين وفي رواية لمسلم أنه قال ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة لهم ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته فيقال لهم الجهنميون (خ) عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين وأما الاستثناء الثاني المذكور في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبث هؤلاء في النار قبل دخولهم الجنة فعلى هذا القول يكون معنى الآية فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك أن يخرجهم منها فيدخلهم الجنة (إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) أن يدخلهم النار أولا ثم يخرجهم إلى الجنة فحاصل هذا القول أن الاستثناء من الموضعين يرجع كل واحد منهما إلى قوم مخصوصين هم في الحقيقة سعداء أصابوا ذنوبا استوجبوا بها عقوبة يسيرة في النار ثم يخرجون منها فيدخلون الجنة لأن إجماع الأمة على أن من دخل الجنة لا يخرج منها أبدا وقيل إن الاستثناءين يرجعان إلى الفريقين السعداء والأشقياء فيكون معناه في الاستثناء في الخروج وهو ما بين الموت إلى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار إلا هذا المقدار وقيل معناه إلا ما شاء ربك سوى ما شاء ربك فيكون المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من الزيادة على ذلك وهو كقولك لفلان علي ألف إلا ألفين أي سوى ألفين وقيل إلا بمعنى الواو يعني وقد شاء ربك خلود هؤلاء في النار وخلود هؤلاء في الجنة وهو كقوله سبحانه وتعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا يعني ولا الذين ظلموا وقيل معناه ولو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لم يشأ لأنه حكم لهم بالخلود فيها قال الفراء هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله كقولك والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه فهذه الأقوال في معنى الاستثناء ترجع إلى الفريقين والصحيح هو القول الأول ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى في أهل النار فعال لما يريد يعني من إخراج من أراد من النار وإدخاله الجنة فهذا على الإجمال في حال الفريقين ثم لم يفصل فقوله إلا ما شاء ربك في جانب الأشقياء يرجع إلى الزفير والشهيق وتقديره أن لهم فيها زفيرا وشهيقا مع خلودهم لأنه إذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل فيه هذا المجموع وإلا في جانب السعداء يكون بمعنى الزيادة يعني إلا ما شاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود وقيل إن الأول في جانب الأشقياء معناه إلا ما شاء ربك من أن يخرجهم من حر النار إلى البرد … وفي جانب السعداء معناه إلا ما شاء ربك أن يرفع بعضهم إلى منازل أعلى من منازل الجنان ودرجات … الجبار ويدل على خلود أهل الجنة في الجنة أن الأمة مجمعة على أن من دخل الجنة لا يخرج منها بل يكون خالدين فيها وقوله سبحانه وتعالى في جانب السعداء (عطاء غير مجذوذ) يعني غير مقطوع قال ابن زيد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذي شاء لأهل الجنة فقال تعالى عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذي شاء لأهل النار وروي عن ابن مسعود أنه قال ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا وعن أبي هريرة نحوه وهذا إن صح عن ابن مسعود وأبي هريرة فمحمول عند أهل السنة على إخلاء أماكن المؤمنين الذين استحقوا النار من النار بعد إخراجهم منها لأنه ثبت بالدليل الصحيح القاطع إخراج الموحدين وخلود الكفار فيها أو يكون محمولا على إخراج الكفار من حر النار إلى برد الزمهرير ليزدادوا عذابا فوق عذابهم والله أعلم وقوله سبحانه وتعالى (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء) يعني

مقيمين (في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) هو استثناء من الخلود في نعيم الجنة وذلك أن لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وهو رؤية الله تعالى ورضوانه أو معناه إلا من شاء أن يعذبه بقدر ذنبه قبل أن يدخله الجنة وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الاستثناء في الآيتين لأهل الجنة ومعناه ما ذكرنا أنه لا يكون للمسلم العاصي الذي دخل النار خلود في النار حيث يخرج منها ولا يكون له أيضا خلود في الجنة لأنه لم يدخل الجنة ابتداء والمعتزلة لما لم يروا خروج العصاة من النار ردوا الأحاديث المروية في هذا الباب وكفى به إثما مبينا (عطاء غير مجذوذ) غير مقطوع ولكنه ممتد إلى غير نهاية كقوله لهم أجر غير ممنون وهو نصب على المصدر أي أعطوا عطاء قيل كفرت الجهمية بأربع آيات عطاء غير مجذوذ أكلها دائم وما عند الله باق لا مقطوعة ولا ممنوعة ولما قص الله قصص عبدة الأوثان وذكر ما أحل بهم من نقمه وما أعد لهم من عذابه قال (فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء) أي فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول الله

[illegible] (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل) [illegible]
[illegible]
[illegible] (وإنا لموفوهم نصيبهم) [illegible]
(غير منقوص) [illegible] (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (فاختلف فيه) [illegible]
[illegible] (ولولا كلمة سبقت من ربك) [illegible]
[illegible] (وإنهم لفي شك منه) من القرآن [illegible]

[illegible] (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) [illegible]
[illegible] (ولقد آتينا موسى الكتاب) [illegible]
[illegible] (فاختلف فيه) [illegible]
[illegible] (ولولا كلمة سبقت من ربك) [illegible]
[illegible] (لقضي بينهم) [illegible]
[illegible] (وإنهم لفي شك منه) [illegible] (مريب) [illegible]
(وإن كلا) [illegible] (لما ليوفينهم ربك أعمالهم) [illegible]
[illegible] (إنه بما يعملون خبير) [illegible]
[illegible] (فاستقم كما أمرت) [illegible]
[illegible] الاستقامة [illegible]
[illegible] (ومن تاب معك) [illegible]
[illegible] الاستقامة [illegible]
[illegible] (م) عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم (ولا تطغوا) [illegible]
[illegible] (إنه بما تعملون بصير) [illegible]
[illegible] قال ابن عباس ما نزلت [illegible] على رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible] أشد عليه من هذه الآية [illegible] شيبتني هود وأخواتها (خ) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم [illegible]
[illegible]
[illegible]

(وإن كلا) [illegible]
[illegible]
[illegible] (لما) [illegible]
[illegible] (ليوفينهم) [illegible]
[illegible] (ربك أعمالهم) [illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible] (فاستقم كما أمرت) [illegible]
[illegible] (ومن تاب معك) [illegible] (ولا تطغوا) [illegible] (إنه بما تعملون بصير) [illegible]
[illegible] شيبتني هود

(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) ولا تميلوا قال الشيخ رحمه الله هذا الخطاب لأتباع الكفرة أي لا تركنوا إلى القادة والكبراء في ظلمهم وفيما يدعونكم إليه (فتمسكم النار) وقيل الركون إليهم الرضا بكفرهم وقال قتادة ولا تلحقوا بالمشركين وعن الموفق أنه صلى خلف الإمام فلما قرأ هذه الآية غشي عليه فلما أفاق قيل له فقال هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم وعن الحسن جعل الله الدين بين لاءين ولا تطغوا ولا تركنوا وقال سفيان في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك وعن الأوزاعي ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء فقال لا فقيل له يموت قال دعه يموت (وما لكم من دون الله من أولياء) حال من قوله فتمسكم النار أي فتمسكم النار وأنتم على هذه الحالة ومعناه وما لكم من دون الله من أولياء يقدرون على منعكم من عذابه ولا يقدر على منعكم منه غيره (ثم لا تنصرون) ثم لا ينصركم هو لأنه حكم بتعذيبكم ومعنى ثم الاستبعاد أي النصرة من الله مستبعدة (وأقم الصلاة طرفي النهار) غدوة وعشية (وزلفا من الليل) وساعات من الليل جمع زلفة وهي ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه إذا قربه وصلاة الغدوة الفجر وصلاة العشية الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي وصلاة الزلف المغرب والعشاء وانتصاب طرفي النهار على الظرف لأنهما مضافان إلى الوقت كقولك أقمت عنده جميع النهار وأتيته نصف النهار وأوله وآخره تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه

هذا الدين مع يسره وسهولته قوي فلن يغالب ولن يقاوى فسددوا أي اقصدوا السداد من الأمور وهو الصواب وقاربوا أي اطلبوا المقاربة وهي القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشيا والمراد منه اعملوا أطراف النهار وقتا وقتا والدلجة سير الليل والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضا وقوله شيء من الدلجة إشارة إلى تقليله ﴿ قوله تعالى ﴾ (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) قال ابن عباس ولا تميلوا والركون هو المحبة والميل بالقلب وقال أبو العالية لا ترضوا بأعمالهم وقال السدي لا تداهنوا الظلمة وعن عكرمة لا تطيعوهم وقيل معناه ولا تسكنوا إلى الذين ظلموا (فتمسكم النار) يعني فتصيبكم بحرها (وما لكم من دون الله من أولياء) يعني أعوانا وأنصارا يمنعونكم من عذابه (ثم لا تنصرون) يعني ثم لا تجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله غدا في القيامة ففيه وعيد لمن ركن إلى الظلمة أو رضي بأعمالهم أو أحبهم فكيف حال الظلمة في أنفسهم نعوذ بالله من الظلم ﴿ قوله عز وجل ﴾ (وأقم الصلاة طرفي النهار) سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذي عن أبي اليسر قال أتتني امرأة تبتاع تمرا فقلت إن في البيت تمرا هو أطيب منه فدخلت معي البيت فأهويت إليها فقبلتها فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحدا فلم أصبر فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال أخلفت غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة حتى ظن أنه من أهل النار قال وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا حتى أوحى الله إليه وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إلى قوله ذلك ذكرى للذاكرين قال أبو اليسر فأتيته فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه يا رسول الله ألهذا خاصة أم للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره وأبو اليسر هو كعب بن عمرو (ق) عن عبد الله بن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فنزلت وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل الآية فقال الرجل يا رسول الله ألي هذه الآية قال لمن عمل بها من أمتي وفي رواية فقال رجل من القوم يا نبي الله هذه له خاصة قال بل للناس كافة عن معاذ بن جبل قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلا لقي امرأة وليس بينهما معرفة فليس يأتي الرجل إلى امرأته شيئا إلا قد أتى هو إليها إلا أنه لم يجامعها قال فأنزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ ويصلي قال معاذ فقلت يا رسول الله أهي له خاصة أم للمؤمنين عامة فقال بل للمؤمنين عامة أخرجه الترمذي وقال هذا الحديث ليس بمتصل لأن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى وأقم الصلاة طرفي النهار يعني صلاة الغداة والعشي وقال مجاهد طرفي النهار يعني صلاة الصبح والظهر والعصر وزلفا من الليل يعني صلاة المغرب والعشاء وقال مقاتل صلاة الصبح والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفا من الليل يعني صلاة العشاء وقال الحسن طرفي النهار الصبح والعصر وزلفا من الليل المغرب والعشاء وقال ابن عباس طرفي النهار الغداة والعشي يعني صلاة الصبح والمغرب قال الإمام فخر الدين الرازي كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والأشهر أن الصلاة التي في طرفي النهار هي الفجر والعصر وذلك لأن أحد طرفي النهار هو طلوع الشمس والثاني هو غروبها فالطرف الأول هو صلاة الفجر والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله تعالى وزلفا من الليل فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر (وزلفا من الليل) يعني وأقم الصلاة في زلف من الليل وهي ساعاته

[illegible] الحسنات [illegible] وصول [illegible]
[illegible] (ذلك) إشارة إلى قوله فاستقم فما بعده أو القرآن
(ذكرى للذاكرين) عظة للمتعظين [illegible]
[illegible] (واصبر) على امتثال
ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه فلا يتم شيء منه إلا به (فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) جاء بما هو مشتمل على جميع الأوامر والنواهي من قوله فاستقم إلى قوله واصبر وغير ذلك من الحسنات (فلولا كان من القرون من قبلكم) فهلا كان وهو موضوع للتحضيض ومخصوص بالفعل (أولو بقية) أولو فضل وخير وسمي الفضل والجودة بقية لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلا في الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم [illegible] (ينهون عن الفساد في الأرض) عجبا لهم عليه السلام وتنبيه أن لم يكن ذلك أي ما كان فيهم لأنه كان في هذه السورة جماعة من أولي العقل والدين ينهون غيرهم عن الكفر والمعاصي (إلا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع أي ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون

والصحيح أنه عام في جميع الحسنات [illegible] (إن الحسنات يذهبن السيئات)
يعني أن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ويكفرنها (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما لم تغش الكبائر وفي رواية
[illegible] (ق) عن أبي هريرة أنه سمع رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من
درنه شيء [illegible] فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا (م) عن جابر قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات قال
الحسن وما يبقى من الدرن [illegible]
[illegible] من أعمال البر [illegible] من الذنوب [illegible]
[illegible] الشرط الأول الإقلاع عن الذنب بالكلية الثاني الندم على فعله الثالث
العزم الصادق [illegible] في المستقبل [illegible] الشرط تحت التوبة وكانت مقبولة [illegible]
[illegible] والأصح [illegible] والأول
أصح [illegible] الصلوات الخمس وهو قول ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب [illegible]
[illegible] (ذلك) إشارة إلى ما تقدم ذكره من الاستقامة والتوبة [illegible]
هو إشارة إلى القرآن (ذكرى للذاكرين) يعني عظة للمؤمنين المتعظين (واصبر) [illegible] صلى الله
عليه وسلم [illegible] وقيل معناه واصبر على الصلاة (فإن الله لا يضيع
أجر المحسنين) يعني أعمالهم قال ابن عباس يعني المصلين [illegible] (فلولا كان من القرون) يعني
فهلا كان من القرون التي أهلكناهم (من قبلكم) يعني الأمم [illegible] (أولو بقية) يعني أولو تمييز وطاعة وخير
يقال فلان ذو بقية إذا كان فيه خير وقيل معناه أولو بقية من خير [illegible] من الخير [illegible]
[illegible] (ينهون عن الفساد في الأرض) يعني ينهون غيرهم عن الفساد في الأرض والآية
[illegible] يعني عن الفساد في الأرض فلذلك أهلكناهم (إلا قليلا)
هذا استثناء منقطع معناه لكن قليلا (ممن أنجينا منهم) هم من آمن من الأمم الماضية وهم أتباع الأنبياء
كانوا ينهون عن الفساد في الأرض (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) يعني واتبع الذين ظلموا أنفسهم
[illegible] (وكانوا مجرمين) يعني كافرين (وما كان ربك) يعني وما كان ربك يا محمد (ليهلك القرى
بظلم) يعني لا يهلكهم [illegible] (وأهلها مصلحون) يعني في أعمالهم ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم

[illegible] الفساد وما رحم تاركون النهي ومن للبيان لا للتبعيض لأن النجاة للناهين وحدهم بدليل قوله أنجينا الذين ينهون
عن السوء وأخذنا الذين ظلموا (واتبع الذين ظلموا) أي التاركون للنهي عن المنكر وهو عطف على مضمر أي إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا
[illegible] واتبع الذين ظلموا [illegible] (ما أترفوا فيه) أي اتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترفه من حب الرياسة والثروة
وطلب أسباب العيش الهني ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونبذوه وراء ظهورهم (وكانوا مجرمين) اعتراض وحكم عليهم
[illegible] (وما كان ربك ليهلك القرى) اللام لتأكيد النفي (بظلم) حال من الفاعل أي لا يصح أن يهلك الله القرى ظالما لها
[illegible] (وأهلها مصلحون) [illegible] [illegible] أي لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون في المعاملات [illegible]

السيئات وقيل في معنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم اذا كانوا مصلحين يعني يعامل بعضهم بعضا بالصلاح والسداد والمراد من الهلاك عذاب الاستئصال في الدنيا أما عذاب الآخرة فهو لازم لهم ولهذا قال بعض الفقهاء ان حقوق الله مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على التضييق والتشديد ﴿ قوله عز وجل ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ يعني كلهم على دين واحد وشريعة واحدة ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ يعني على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الاديان قد اختلفوا في دينهم أيضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة واثنتين وسبعين والنصارى مثل ذلك وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة أخرجه أبو داود والترمذي بنحوه عن معاوية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة أخرجه أبو داود قال الخطابي قوله صلى الله عليه وسلم وستفترق أمتي فيه دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين اذ جعلهم من أمته وقال غيره المراد بهذه الفرق أهل البدع والاهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم من أهل البدع والاهواء والمراد بالواحدة هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وقوله سبحانه وتعالى ﴿الا من رحم ربك﴾ يعني لكن من رحم ربك فمن عليه بالهداية والتوفيق الى الحق وهداه الى الدين القويم والصراط المستقيم فهم لا يختلفون ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال الحسن وعطاء وللاختلاف خلقهم قال أشهب سألت مالك بن أنس عن هذه الآية فقال خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وللرحمة خلقهم يعني الذين يرحمهم وقال الفراء خلق أهل الرحمة للرحمة وخلق أهل الاختلاف للاختلاف وقيل خلق الله عز وجل أهل الرحمة للرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لأن يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فحاصل الآية أن الله خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالرحمة وهم أهل الاتفاق ومصيرهم الى الجنة ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تبارك وتعالى ﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ وهذا صريح بأن الله سبحانه وتعالى خلق أقواما للرحمة فهداهم ووفقهم لأعمال أهل الجنة وخلق أقواما للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية ﴿ قوله سبحانه وتعالى ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة قصص الامم الماضية والقرون الخالية وما جرى لهم مع أنبيائهم ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله وكلا نقص عليك يا محمد من أنباء الرسل يعني من أخبار الرسل وما جرى لهم مع قومهم ما نثبت به فؤادك يعني ما نقوي به قلبك لتصبر على أذى قومك وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم اذا سمع هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبياء مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه ﴿وجاءك﴾ يا محمد ﴿في هذه الحق﴾ اختلفوا في هذا الضمير الى ماذا يعود فقيل معناه وجاءك في هذه الدنيا الحق وفيه بعد لانه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير اليها وقيل في هذه الآية وقيل في هذه السورة وهو الأقرب وهو قول الاكثرين فان قلت قد جاءه الحق في سور القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر قلت لا يلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لا يكون قد جاءه الحق في غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وانما خصها بالذكر تشريفا لها ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ أي وجاءك

بإتمامهم لا يمنعون الى شركهم فسادا آخر ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ أي متفقين على الايمان والطاعات عن اختيار ولكن لم يشأ ذلك وقال المعتزلة هي مشيئة قسر وذلك رافع للابتلاء فلا يجوز ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ في الكفر والايمان أي ولكن شاء ان يكونوا مختلفين لما علم منهم اختيار ذلك ﴿الا من رحم ربك﴾ الا ناسا عصمهم الله من الاختلاف فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ﴿ولذلك خلقهم﴾ أي ولما هم عليه من الاختلاف فعندنا خلقهم للذي علم انهم يصيرون اليه من اختلاف أو اتفاق ولم يخلقهم لغير الذي علم انهم يصيرون اليه كذا في شرح التأويلات ﴿وتمت كلمة ربك﴾ وهي قوله للملائكة ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل ﴿وكلا﴾ التنوين فيه عوض من المضاف اليه كأنه قيل وكل نبأ وهو منصوب بقوله ﴿نقص عليك﴾ وقوله ﴿من أنباء الرسل﴾ بيان لكل وقوله ﴿ما نثبت به فؤادك﴾ بدل من كلا ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي في هذه السورة وفي هذه الانباء المقتصة ما هو حق ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ ومعنى ... السورة

[illegible] (وقل للذين لا يؤمنون
[illegible] كقوله اعملوا
[illegible] (انا عاملون) [illegible] (وانتظروا) [illegible] (انا منتظرون) [illegible]
[illegible] (ولله غيب السموات والارض) [illegible]
[illegible]
[illegible] (واليه يرجع الامر كله) [illegible]
[illegible] (فاعبده) [illegible]
[illegible] (وتوكل عليه) [illegible] (وما
ربك بغافل عما تعملون) [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
كمل [illegible] سورة
سورة هود والله اعلم
[illegible] والاسرار
كتبه

(تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث أوله سورة يوسف)

تهديد لهم او من بعد [illegible]
لان لكفار الآن [illegible]
[illegible] (وقل للذين
لا يؤمنون) من أهل مكة
وغيرهم (اعملوا على
مكانتكم) على حالتكم
وجهتكم التي انتم عليها
(انا عاملون) على مكانتنا
(وانتظروا) بنا الدوائر
(انا منتظرون) ان ينزل
بكم نحو ما اقتص الله تعالى
من النقم النازلة باشباهكم
(ولله غيب السموات
والارض) لا يخفى عليه
خافية مما يجري فيهما فلا
تخفى عليه اعمالكم (واليه
يرجع الامر كله) فلا بد
ان يرجع اليه امرهم
وامرك فينتقم لك منهم
[illegible]
(فاعبده وتوكل عليه) فانه
كافيك وكافلك (وما ربك
بغافل عما يعملون) بالتاء
والياء [illegible]
[illegible]
[illegible] قيل فاتحة التوراة
هذه الآية وفي الحديث
من احب أن يكون اقوى
الناس فليتوكل على الله
تعالى

﴿فهرست الجزء الثانى من تفسير القرآن العظيم للامام على بن محمد المعروف بالخازن﴾

صحيفة

٢ ﴿تفسير سورة الانعام﴾
٢٩ ذكر قصة مولد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ودعائه قومه وما وقع بينه وبين نمرود
٣٤ فصل احتج العلماء بقوله تعالى فبهداهم اقتده على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام
٤٣ فصل يتعلق بقوله تعالى لاتدركه الابصار
٥١ فصل اختلف العلماء فى ذبيحة المسلم اذا لم يذكر اسم الله عليها
٦٧ فصل فى احتجاج القدرية والمعتزلة بقوله تعالى سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا الخ
٧٦ ﴿تفسير سورة الاعراف﴾
٨٤ فصل فى الاستدلال على صدور الذنب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام والجواب عنه
١٠٩ ذكر قصة عاد على ماذكره محمد بن اسحق الخ
١١٤ ذكر قصة ثمود على ماذكره محمد بن اسحق الخ
١٢٥ فصل فى بيان المعجزة وكونها دليلا على صدق الرسل
١٣٥ فصل فى احتجاج من نفى الرؤية بظاهر قوله تعالى لن ترانى والرد عليهم فى ذلك
١٤٧ شرح غريب ألفاظ الحديث فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم المذكورة فى التوراة
١٦٢ ذكر أسماء الله الحسنى
١٧١ فصل فى احتجاج الطاعنين فى عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والجواب عن ذلك
١٧٤ ﴿تفسير سورة الانفال﴾
١٨٥ فصل فى حكم الفرار عند الزحف
٢١٠ فصل فى استدلال من يقدح فى عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والجواب عن ذلك
٢١٣ ﴿تفسير سورة التوبة﴾
فصل فى بيان سبب ترك كتابة التسمية فى أول هذه السورة
٢١٦ فصل قد يتوهم متوهم ان فى بعث على بن أبى طالب بقراءة أول براءة عزلا لأبى بكر عن الامارة وتفضيله على أبى بكر وذلك جهل الخ
٢٣٠ فصل فى بيان أحكام قوله تعالى قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر
٢٤٠ ذكر سياق حديث الهجرة
٢٤٤ فصل فى الوجوه المستنبطة من قوله تعالى فأنزل الله سكينته عليه الخ الدالة على فضل سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه
٢٤٦ فصل استدل بقوله تعالى عفا الله عنك الخ من يرى جواز صدور الذنوب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام والجواب عن ذلك
٢٥١ فصل فى بيان حكم قوله تعالى انما الصدقات للفقراء والمساكين الخ وفيه مسائل
٢٦٨ فصل قد وقع فى هذه الاحاديث التى تتضمن قصة موت عبدالله بن أبى ابن سلول المنافق صورة اختلاف فى الروايات الخ

[illegible] (... الصلاة والسلام)

فصل في الكلام على هذا الحديث (أي قوله صلى الله عليه وسلم ... [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] عليه الصلاة والسلام)

فصل [illegible] ... عن الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام

فصل [illegible] ... الأنبياء عليهم الصلاة والسلام [illegible]

[illegible]

(تمت)

8318